

الانتماء ورفع الصَّيْقَةِ فِي سِيرَةِ

أبو بكر الصديق



9 786057 194558

شخصيته وعصره



د. علي محمد محمد الصَّلابي



دار آرام
للنشر والترجمة
ARAM TERCÜME
VE YAYINCILIK

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأنشراح ورفع الصيق في سيرة

أبو بكر الصديق

شخصيته وعصره

د. علي محمد محمد الصلابي



دار آرام

للنشر والترجمة
ARAM TERCÜME
VE YAYINCILIK

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبو بكر الصديق	اسم الكتاب
د.علي محمد محمد الصلابي	اسم المؤلف
Aram Graphics	الغلاف والتصميم
تاريخ وشخصيات	التصنيف
560	عدد الصفحات
24x17	القياس
2023	تاريخ الإصدار
978-605-71945-5-8	الترقيم الدولي

www.arampublishers.com

Tel. +90 530 154 96 24



حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لدار آرام للنشر والترجمة.
يمنع نسخ أو طباعة أو تخزين أو ترجمة أو إعادة إنتاج هذا الكتاب أو أي
جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والوسائط الإلكترونية والميكانيكية.

مقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

يا ربَّ لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك! لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

كان شغفي بسيرة الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منذ الطفولة، وكنتُ شديد الولع بالقراءة، والسَّماع لسيرته العطرة، ومضت الأيام، ومرَّت السَّنون، وأكرمني الله عزَّ وجلَّ بالدراسة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكان من ضمن المواد المقررة في مادة التاريخ الإسلامي تاريخ الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقد طلب الأستاذ المحاضر أن ندرس كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير و«الكامل» لابن الأثير - رَحِمَهُمَا اللَّهُ - في ترجمة الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يكتفِ بكتاب التاريخ الإسلامي للشيخ محمود شاكر - رَحِمَهُ اللَّهُ -، فكانت لتلك الإرشادات أثرٌ بعد توفيق الله سبحانه وتعالى؛ للتعرف على حقيقة شخصية الصِّديق، وعصره، وعندما سجَّلت بجامعة أم درمان الإسلامية رسالة الدكتوراه، وكان عنوانها: (فقه التَّمكين في القرآن الكريم، وأثره في تاريخ الأمة) استقرَّ البحث على ثلاثة أبواب: فقه التَّمكين في القرآن الكريم. فقه التَّمكين في السِّيرة النبوية. فقه التَّمكين عند الخلفاء الراشدين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وكانت أوراق البحث قد جاوزت (١٢٠٠) صفحة، فرأى الدكتور المشرف أن نكتفي

بفقه التمكن في القرآن الكريم، وعدل الخطّة على هذا الأساس، وقدم مقترحه لمجلس الكلية فوافق على ذلك، وقال لي بعد المناقشة: بإذن الله سبحانه وتعالى تستطيع أن تخرج فقه التمكن في السيرة النبوية، وفقه التمكن عند الخلفاء الراشدين كتباً؛ لعل الله سبحانه وتعالى ينفع بها المسلمين.

وبتوفيق الله سبحانه وتعالى، وبسبب ما ساقه من أسباب تطوّر كتاب فقه التمكن في السيرة النبوية، وأصبح «السيرة النبوية: عرض وقائع، وتحليل أحداث» وقد صدر عن دار التوزيع والنشر الإسلامية.

وهذا الكتاب الذي أقدم له الآن: «أبو بكر الصديق، شخصيته، وعصره» يرجع الفضل في كتابته للمولى سبحانه وتعالى، ثم للأستاذ الدكتور المشرف على رسالة الدكتوراه، ومجموعة خيرة من الدعاة، والشيوخ الذين شجعوني على الاهتمام بدراسة عصر الخلفاء الراشدين، حتى إن أحدهم قال لي: أصبحت هناك فجوة كبيرة بين أبناء المسلمين وذلك العصر، وحدث خلط في ترتيب الأولويات، حيث صار الشباب يلمون بسير الدعاة، والعلماء، والمصلحين أكثر من إلمامهم بسيرة الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)، وأن ذلك العصر غنيّ بالجوانب السياسية، والإعلامية، والأخلاقية، والاقتصادية، والفكرية، والجهادية، والفقهية التي نحن في أشد الحاجة إليها، ونحتاج أن نتبع مؤسسات الدولة الإسلامية وكيف تطوّرت مع مسيرة الزمن، كالمؤسسة القضائية، والمالية، ونظام الخلافة، والمؤسسة العسكرية، وتعيين الولاة، وما حدث من اجتهادات في ذلك العصر عندما احتكت الأمة الإسلامية بالحضارة الفارسية، والرومانية، وطبيعة حركة الفتوحات الإسلامية.

كانت بداية هذا الكتاب فكرة، أراد الله عز وجل لها أن تصبح حقيقة، فأخذ الله عز وجل بيدي، وسهّل لي الأمور، وذلل الصعاب، وأعاني على الوصول للمراجع والمصادر، وأصبح هذا العمل همّاً سيطر على مشاعري، وتفكيري، وأحاسيسي، فجعلته من أهدافي الكبرى فسهرت له الليالي، ولم أبال بالعوائق، ولا الصعاب، والفضل لله عز وجل الذي أعاني على ذلك، قال الشاعر:

الهُولُ في دربي وفي هدفي وأظلل أمضي غير مضطر
بما كنت من نفسي على خورٍ أو كنت من ربي على ريب
ما في المنيا ما أحاذره الله ملء القصد والأرب

إنَّ تاريخ عصر الخلفاء الرَّاشدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مليءٌ بالدُّروس والعبر، وهي متناثرة في بطون الكتب، والمصادر، والمراجع، سواءً كانت تاريخيةً، أو حديثيةً، أو فقهيةً، أو أدبيةً، أو تفسيريةً، فنحن في أشدِّ الحاجة لجمعها، وترتيبها، وتوثيقها، وتحليلها، فتاريخ الخلافة إذاً أحسن عرضه، يغذي الأرواح، ويهذب النفوس، وينور العقول، ويشحذ الهمم، ويقدم الدُّروس، ويسهل العبر، ويُنضج الأفكار، فنستفيد من ذلك في إعداد الجيل المسلم وتربيته

على منهاج النبوة، ونتعرَّف على حياة وعصر مَنْ قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وقال فيهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم...»^(١).

وقال فيهم عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا؛ فَلَيْسَتْ بَيْنَ قَدَمَاتِ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ، كَانُوا وَاللَّهِ أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَبْرَأَهَا قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لَصَحْبَةِ نَبِيِّهِ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم، ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم"^(٢).

فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قاموا بتطبيق أحكام الإسلام، ونشروه في مشارق الأرض،

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، حديث رقم (٢٥٣٤).

(٢) شرح السنة، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ٥١٦هـ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي-دمشق، بيروت، ط٢ (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، ج١، ص٢١٤، ٢١٥.

ومغاربها، فعصرهم خير العصور، فهم الذين علّموا الأُمّة القرآن الكريم، ورووا لها السُنن والآثار عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتاريخهم هو الكنز الذي حفظ مدخرات الأُمّة في الفكر، والثقافة، والعلم، والجهاد، وحركة الفتوحات، والتعامل مع الشعوب، والأُمم، فتجد الأجيال في هذا التاريخ المجيد ما يعينها على مواصلة رحلتها في الحياة على منهج صحيح، وهدى رشيد، وتعرف من خلاله حقيقة رسالتها، ودورها في دنيا الناس، وقد عرف الأعداء خطورة التاريخ، وأثره في صياغة النفوس، وتفجير الطّاقات، فعملوا على تشويهه، وتزويره، وتحريفه، وتشكيك الأجيال فيه، فقد لعبت فيه الأيدي الخبيثة في الماضي، وحرفته أيدي المستشرقين في الحاضر، ففي الماضي تعرّض تاريخنا الإسلاميّ للتحريف، والتّشويه على أيدي اليهود، والنّصارى، والمجوس، الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، إذ رأوا أنّ كيد الإسلام على الحيلة أشدّ نكايةً فيه، وفي أهله، فأخذوا يدبّرون المؤامرات في الخفاء لهدم الإسلام، وتفتيت دولته، وتفريق أتباعه، وذلك عن طريق تزيف الأخبار، وترويج الشّائعات الكاذبة، وتدمير الفتن ضدّ الخليفة الرّاشد عثمان بن عفّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقام عبد الله بن سبأ اليهودي، وأتباعه بالدّور الكبير في إشعال نار الفتنة التي أودت بحياة الخليفة الرّاشد الثالث، وكذلك إشعال المعركة بين المسلمين في موقعة الجمل بعد أن كاد يتمّ الصّلح بين الطّرفين، إلى غير ذلك من التّحرّكات، والمؤامرات التي قُصد بها النّيل من الإسلام، وأتباعه، هذا بالإضافة إلى الرّوايات الضّعيفة، والموضوعة الواردة في مصادر التاريخ الإسلامي، وهي تشوّه سيرة الصّحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، كرواية التحكيم الذي تّهم بعضهم بالخداع، أو الغباء، أو التعلّق بالجاه، والسّلطة، والهدف من وضع هذه الرّوايات الطّعن في الإسلام بطريقة غير مباشرة؛ لأنّ الإسلام لم يؤدّه لنا إلا الصّحابة، والتّشكيك في ثقتهم وعدالتهم هو تشكيك بالتّالي في صحّة الإسلام.

هذا وقد استغلّ المستشرقون هذه الرّوايات الموضوعة، ومن سار على نهجهم من أذنانهم ممّن يتكلّمون بلغتنا، فركّزوا على التّوسّع في البحث فيها، بل كانت مغنماً تسابقوا إلى اقتسامه ما دامت تخدم أغراضهم للطّعن في الإسلام، والنّيل من أعراض الصّحابة الكرام^(١).

(١) كتاب خالد بن الوليد، صادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط ٣ (١٤٠١هـ - ١٩٨١م)،

لقد قام الأعداء بصياغة تاريخنا وفق مناهجهم المنحرفة، وتأثر بعض المؤرخين المسلمين بتلك المناهج المستوردة، فأصبحت كتابتهم في العقود الماضية ترجمة حرفية لما كتبه المستشرقون، والماركسيون، واليهود، وغيرهم من أعداء الأمة، وذلك لأنهم لا يملكون تصوراً حقيقياً لروح الإسلام، وطبيعته، حيث إن كتابة التاريخ الإسلامي تحتاج حتماً إلى إدراك طبيعة الفكرة الإسلامية، ونظرتها إلى الحياة، والأحداث، والأشياء، ووزنها للقيم التي عليها الناس، وتأثيرها في الأرواح، والأفكار، وصياغتها للنفوس والشخصيات.

ودراسة الشخصيات الإسلامية - على وجه خاص - تقتضي إدراكاً كاملاً لطبيعة استجابة تلك الشخصيات الإسلامية لإحياءات الفكرة الإسلامية، فإن طريقة استجابة تلك الشخصيات لهذه الإحياءات مسألة هامة في صياغة شعورها بالقيم، وسلوكها في الحياة، وتفاعلها مع الأحداث، ولن يدرك طبيعة الفكرة الإسلامية، ولا طريقة استجابة الشخصيات الإسلامية لها إلا كاتب مؤمن بهذه الفكرة، مستجيب لها من أعماقه؛ لكي يكون إدراكه لها ناشئاً عن تلبس ضميره بها، لا عن رصدتها من الخارج بالذهن المتجرد البارد^(١).

وبسبب غياب ذلك المنهج وقع بعض المعاصرين من المؤرخين، والكتاب، والأدباء في تشويه صورة سلف هذه الأمة، وأظهروا الصحابة بمظهر التكالب على الدنيا، وسفك الدماء للوصول إلى الغايات التي ينشدونها من الاستيلاء على الحكم، والتككيل بخصومهم، فتناولوا ذلك بعيداً عن فهم حقيقة الجيل الذي تربى في مدرسة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وبعيداً عن تأثرهم بالإسلام، وعقيدته، وأصوله، وبسبب تلك الكتابات نشأ جيل لا يعرف عن تاريخه إلا الحروب، وسفك الدماء، والخداع، والمكر، والحيلة، وأصبحت صورة الصحابة رضي الله عنهم مشوهة، مما جعل بعض المسلمين يردد تلك الأباطيل دون أن يعي الحقيقة، بل مجرد أن تلك الأباطيل مسطرة في كتاب زيد، أو عمرو من الكتاب^(٢).

ص ٥.

(١) كتاب خالد بن الوليد، مرجع سابق، ص ٥.

(٢) مجموعة مؤلفات الشيخ محمد مال الله في الرد على الشيعة الإمامية، محمد مال الله الخالدي، دار المتقى للنشر والتوزيع، ط ١ (١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م)، ج ٢، ص ١١.

إنَّ إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بمنهج أهل السنَّة والجماعة أصبح ضرورةً ملحةً لأبناء الأُمَّة، وقد بدأت أقلام الباحثين، والكتَّاب تصوغُ التاريخ من هذا المنظور، وهم لم يبدؤوا من فراغ؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ حمى دينه، وحمى أُمَّته، فقيَّض لتاريخ الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ مَنْ يَحَقُّ وقائعُه، ويصحح أخباره، ويكشف السُّتار عن الوضَّاعين، والكذَّابين من ملفِّي الأخبار، ويرجع الفضل في ذلك التَّصحيح إلى الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ أهل السنَّة والجماعة من أئمة الفقهاء، والمحدثين رَحِمَهُمُ اللهُ؛ الذين حفلت مصادرهم بالكثير من الإشارات، والرَّوايات الصَّحيحة؛ التي تنقُص، وتردُّ كُلَّ ما وضعه الملفِّقون^(١).

وقد سرت على أصول منهج أهل السنَّة، فعكفت على المصادر، والمراجع القديمة، والحديثة، ولم أعتمد في دراسة عصر الخلفاء الرَّاشدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ على الطُّبري، وابن الأثير، والذهبي رَحِمَهُمُ اللهُ، وكُتِبَ التاريخ المشهورة فقط، بل رجعت إلى كتب التفسير، والحديث، وشرحها، وكتب التَّراجم، والجرح والتَّعديل، وكتب الفقه، فوجدت فيها مادةً تاريخيةً غزيرةً، يصعب الوقوف على حقيقتها في الكتب التاريخية المعروفة، والمتداولة، وقد بدأت بالكتابة عن أبي بكر الصِّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ متناً أولاً شخصيته، وعصره، فهو سيِّد الخلفاء الرَّاشدين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وقد حثَّنا رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمرنا باتِّباع سُنَّتِهِم، والاهتداء بهديهم. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عليكم بسنتي وسُنَّةُ الخلفاء الرَّاشدين المَهْدِيِّين من بعدي»^(٢)، فأبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سيِّد الصِّديقين، وخير الصَّالحين بعد الأنبياء، والمرسلين، فهو أفضل أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعلمهم، وأشرفهم على الإطلاق، فقد قال فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو كنت مُتَّخِذاً خليلاً لَاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ، ولكن أخي، وصاحبي»^(٣) وقد قال فيه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي عمر أيضاً: «اقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي: أبي بكر

(١) المنهج الإسلامي لكتابة التَّاريخ، محمد أمحزون، دار السلام، ط ١ (٢٠١١م)، ص ٤.

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب السنَّة، باب في لزوم السنَّة، حديث رقم ٤٦٠٧، قال الترمذي حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لو كنت متخذاً خليلاً)، حديث رقم ٣٤٥٦.

وعمر»^(١) وشهد له عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما بقوله: أنت سيدنا، وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢). وقال عنه عليُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا سَأَلَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدُ ابْنَ الْحَنْفِيَةِ بِقَوْلِهِ: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ^(٣).

إِنَّ حَيَاةَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صفحةٌ مشرقةٌ من التاريخ الإسلامي؛ الذي بهر كلَّ تاريخ، وفاقه، والذي لم تحوِ تواريخ الأمم مجتمعةً بعض ما حوى من الشرف والمجد، والإخلاص، والجهاد، والدعوة لأجل المبادئ السامية، لذلك قمت بتتبع أخباره، وحياته، وعصره في المراجع والمصادر، واستخرجتها من بطون الكتب، وقمت بترتيبها، وتنسيقها، وتوثيقها، وتحليلها؛ لكي تصبح في متناول الدعاة، والخطباء، والعلماء، والساسة، ورجال الفكر، وقادة الجيوش، وحكّام الأمة، وطلاب العلم، لعلمهم يستفيدون منها في حياتهم، ويقتدون بها في أعمالهم، فيكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْفَوْزِ فِي الدَّارَيْنِ. لقد تتبعت صفات الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفضائله، ومشاهده في ميادين الجهاد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحياته في المجتمع المدني، ومواقفه العظيمة بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف ثبتَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به الأمة.

وسلّطُ الأضواء على سقيفة بني ساعدة، وما تمَّ فيها من حوارٍ، ونقاشٍ بين المهاجرين والأنصار، ونسفت الشبهات والأباطيل التي ألصقت بتاريخ سقيفة بني ساعدة من قبل المستشرقين، ومن سار على نهجهم، وبيّنت موقف الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إرسال جيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما في الحدث العظيم من دروس في الشورى والدعوة والحزم، والاق تداء برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وردّ الخلاف إلى الكتاب والسنة، وآداب الجهاد، وصورته

(١) رواه سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم ٣٨٠٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج ٣، ص ٢٠٠.

(٢) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لو كنت متخذًا خليلاً)، حديث رقم ٣٤٦٧.

(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لو كنت متخذًا خليلاً)، حديث رقم ٣٤٦٨.

المشرقة التي تمثلت في تعاليم الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد قمت بتوضيح أحداث الردّة، فتحدّثت عن أسبابها، وأصنافها، وبدايتها في أواخر العصر النبوي، وموقف الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منها في خلافته، وخطّته التي وضعها للقضاء عليها، وأساليبه التي استخدمها في حروبه ضدّ المرتدين، وقد وقفت مع مؤهلات الصديق التي توفّرت في شخصيته، التي استطاع بها - بعد توفيق الله عزّ وجلّ - أن يسحق حركة الردّة، وقد تحدّثت عن عصره، وكيف تحقّقت شروط التّمكن، وأسبابه، وصفات جيل التّمكن في ذلك العهد الذي قاده الصديق.

وأشرت إلى سياسة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في محاربة التّدخل الأجنبي في دولته، وذكرت أهم نتائج أحداث الردّة من تميّز الإسلام عمّا عداه من تصوّرات، وأفكار، وسلوك، وضرورة وجود قاعدة صلبة للمجتمع، وتجهيز الجزيرة قاعدة للفتوح الإسلاميّة، والإعداد القيادي لحركة الفتوح، والفقه الواقعي للردّة، وسنة الله عزّ وجلّ في إحاقّة المكر السوأى بأهله، واستقرار النّظام الإداري في الجزيرة، وتكلّمت عن فتوحات الصديق، فبيّنت خطّته في فتح العراق، وسرت مع خالد في فتوحاته؛ حتّى ضمّ جنوب العراق وشماله بمعاركه العظيمة التي ظهرت فيها بطولات نادرة من المشنّى بن حارثة، والققعاق بن عمرو، وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وجيوشهم المظفرة، فكانت تلك المعارك الخطوة الأولى لمعارك الفتوح الكبرى؛ التي جاءت بعد عصر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والتي أنارت تاريخ الأمّة في مشوارها الطويل لنشر دين الله عزّ وجلّ، والجهاد في سبيله، قال الشاعر:

فالقادسية ما يزال حديثها	عبراً تضىء بأطيب الأقوال
تحكي مفاخرنا وتذكر مجدنا	فتجيبها حطّين بالمنوال
والصفحات مجد في الخلود سطورها	دان الرّجال لها بغير جدال
وكانني بابن الوليد وجنده	وبكلّ كفّ لامع الأنصال
نشروا على أرض الخليل لواءهم	فغدا يظلّل أظهر الأطلال

وعن اليمين أبو عبيدة قد أتى وأتى صلاح الدين صوبَ شمال
يَسْعَى إِلَيْهِمْ قَدْ شَرَوْا أَرْوَاحَهُمْ لله بعد تسابقٍ لقتال
فهم الأعزَّةُ في كتابٍ خالدٍ ما بعد قول الله من أقوال

هذا؛ وقد حرصت على بيان، وإظهار الرِّسائل التي كانت بين الصِّديق، وخالد بن الوليد، وعياض بن غنم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ المتعلقة بفتوح العراق، وقد فَصَّلت الخطوات التي سار عليها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فتوحات الشَّام، فتحدَّثْتُ عن عزمه في غزو الروم، ومشورته لكبار الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ في جهادهم، وعن استنفاره لأهل اليمن، وخطَّته في إرسال الجيوش، ووصاياه للقادة الذين بعثهم لفتح الشام، ومتابعته لهم وإمدادهم بالرِّجال، والعتاد، والتموين، ونقله لخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من ميادين العراق إلى قيادة جيوش الشَّام، وما تمَّ في معركة أجنادين، واليرموك، واستخرجت من حركة الفتوحات بعض معالم الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سياسته الخارجية مِنْ بذر هيبة الدَّولة في نفوس الأمم، ومواصلة الجهاد الذي أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعدل بين الأمم المفتوحة، والرِّفق بأهلها، ورفع الإكراه عنهم، وإزالة الحواجز البشريَّة بينهم، وبين الدُّعاة، ووضَّحت بعض معالم التَّخطيط الحربيِّ عند الصِّديق في عدم الإيغال في بلاد العدوِّ حتى تدين للمسلمين، وعن قدرته في التعبئة، وحشد القوَّات، وتنظيم عملية الإمداد المستمرَّة، وتحديد هدف الحرب، وإعطائه الأفضلية لمسارح العمليات، وعزله لميدان المعركة، وتطويره لأساليب القتال، وحرصه على سلامة خطوط الاتِّصال بينه، وبين قادة الجيوش، وبيَّنت حقوق الله عَزَّ وَجَلَّ، والقادة، والجنود من خلال وصاياه التي ألزم بها قادة حربه، وتحدَّثْتُ عن استخلاف لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن أيَّامه الأخيرة في هذه الحياة الفانية، وعن آخر ما تكلم به الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه الدُّنيا بقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

لقد حاولتُ في هذا الكتاب أن أبين كيف فهم الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الإسلام، وعاش به في دنيا الناس، وكيف أثر في مجريات الأمور في عصره، وتحدَّثْتُ عن جوانب شخصيته المتعدِّدة السِّياسيَّة، والعسكريَّة، والإداريَّة، وعن حياته في المجتمع الإسلاميِّ لما كان أحد رعاياه،

وبعد أن أصبح خليفة رسول الله، وركزت على دور أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باعتباره رجل دولة مميّز من الطراز النادر، وعن سياسته الدّاخلية، والخارجية، وأساليبه الإدارية، وعن مؤسّسة القضاء كيف كانت بدايتها في عصره؛ لكي نستطيع متابعة التطوّرات التي حدثت لها ولغيرها من مؤسسات الدولة عبر العصر الرّاشديّ، والتّاريخ الإسلاميّ.

إنّ هذا الكتاب يبرهن على عظمة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويثبت للقارئ بأنّه كان عظيمًا بإيمانه، عظيمًا بعلمه، عظيمًا بفكره، عظيمًا ببيانه، عظيمًا بخلقه، عظيمًا بإثارة، فقد جمع الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ العظمة من أطرافها، وكانت عظمتة مستمدةً من فهمه، وتطبيقه للإسلام، وصلته بالله سبحانه وتعالى العظيمة، وأتباعه الشّديد لهدى الرّسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الأئمّة الذين يرسمون للناس خطّ سيرهم، ويتأسّى بهم الناس بأقوالهم، وأفعالهم في هذه الحياة، فسيرته من أقوى مصادر الإيمان، والعاطفة الإسلاميّة الصّحيحة، والفهم السّليم لهذا الدّين، فلذلك اجتهدت في دراسة شخصيته، وعصره حسب وسعي، وطاقتي، غير مدّع عصمة، ولا متبرئ من زلّة، ووجه الله عزّ وجلّ الكبير لا غيره قصدت، وثوابه أردت، وهو المسؤول في المعونة عليه، والانتفاع به، إنّه طيّب الأسماء، سميع الدعاء.

هذا وقد قمت بتقسيم هذا الكتاب إلى مقدمة، وأربعة فصول، وخلاصة، وهي كالآتي:
المقدمة.

الفصل الأول: أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكّة، ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه، ونسبه، وكنيته، وألقابه، وصفته، وأسرته، وحياته في الجاهلية.

المبحث الثاني: إسلامه، ودعوته، وابتلاؤه، وهجرته الأولى.

المبحث الثالث: هجرته مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة.

المبحث الرابع: الصديق في ميادين الجهاد.

المبحث الخامس: الصديق في المجتمع المدنيّ، وبعض صفاته، وشيء من فضائله.

الفصل الثاني: وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسقيفة بني ساعدة، ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسقيفة بني ساعدة.

المبحث الثاني: البيعة العامة وإدارة الشؤون الداخلية.

الفصل الثالث: جيش أسامة وجهاد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: جيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الثاني: جهاد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأهل الردّة.

المبحث الثالث: الهجوم الشامل على المرتدّين.

المبحث الرابع: مسيلمة الكذاب، وبنو حنيفة.

المبحث الخامس: أهم العبر والدروس، والفوائد من حروب الردّة.

الفصل الرابع: فتوحات الصديق، واستخلافه لعمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -، ووفاته، ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: فتوحات العراق.

المبحث الثاني: فتوحات الصديق بالشّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المبحث الثالث: أهم الدروس، والعبر، والفوائد.

المبحث الرابع: استخلاف الصديق لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ووفاته.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة بعد صلاة العشاء بتاريخ الخامس من شهر المحرم لعام ١٤٢٢ هـ، الموافق للثلاثين من مارس من عام ٢٠٠١ م. والفضل لله عَزَّوَجَلَّ من قبلُ ومن بعدُ، وأسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَقْبَلَ هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النّبيين، والصّديقين، والشّهداء، والصّالحين، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة إلا أن أقف بقلبٍ خاشعٍ منيبٍ بين يدي الله عزَّ وجلَّ، معترفاً بفضلِهِ، وكرمِهِ، وجودِهِ، فهو المتفضَّلُ، وهو المكرَّم، وهو المعين، وهو الموفقُ، فله الحمد على ما منَّ به عليَّ أولاً، وآخرأً، وأسأله سُبحانَهُ وتعالى بِأسمائِهِ الحسنى، وصفاته العُلى أن يجعل عملي لوجهه خالصاً، ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كلِّ حرفٍ كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذي أعانوني بكلِّ ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كلِّ مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفوَ ربِّهِ، ومغفرته، ورحمته، ورضوانه من دعائه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك، وآخر دعوانا
أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الفقير إلى عفوَ ربِّهِ، ومغفرته، ورضوانه

علي محمد محمد الصلابي

٥ / ١ / ١٤٢٢ هـ

مقدمة الطبعة الجديدة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه طبعة جديدة منقحة من كتاب: "الانشرح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق شخصيته وعصره" حاولت فيها استدراك ما فاتني من معلومات وأحداث - في الطبقات السابقة - خلال العقدين السابقين عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. كما أنني اهتمت بجمع الشبهات التي ينشرها أعداء الصحابة في حق أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبيان بطلانها وكذب قائلها، كما أن هناك إضافات متعلقة بفضله وسيرته ومناقبه وعصره، كما أنني اهتمت بالحكم على الروايات صحة وضعفاً، والله من وراء قصد.

اللهم بَصِّرْني بما يُرضيك، واشرح صدري، وجنبي اللهم ما لا يرضيك، واصرفه عن قلبي وتفكيرى، وأسألك يا الله بأسمائك الحسنة وصفاتك العلا أن تثبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا العمل^(١).

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك، واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه، ومغفرته، ورضوانه

علي محمد محمد الصلابي

٠٨ ربيع الآخر ١٤٤٤هـ / ٠٢ نوفمبر ٢٠٢٢م

(١) في مرحلة استدراك المعلومات والوقوف على الشبهات والإضافات الأخيرة على كتاب أبي بكر الصديق، استفدت من الباحث محمد عليان من طلبة الدراسات العليا في الشريعة الإسلامية، والذي تعاون معنا في رصد وترتيب هذه المادة بمتابعة وإشراف ومراجعة منا. جزاه الله كل خير.

الفصل الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَكَّة

المبحث الأول اسمه، ونسبه، وكنيته، وألقابه، وصفته، وأسرته،
وحياته في الجاهلية

أولاً: اسمه، ونسبه، وكنيته، وألقابه:

هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤي بن غالب القرشي التيمي^(١)، ويلتقي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النسب في الجد السادس مرة بن كعب^(٢)، ويكنى بأبي بكر، وهي من البكر، وهو الفتى من الإبل، والجمع بكارة، وأبكر، وقد سمّت العرب بكراً، وهو أبو قبيلة عظيمة^(٣)، ولُقّب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بألقاب عديدة، كلّها تدلّ على سمو المكانة، وعلو المنزلة وشرف الحسب، منها:

١ - العتيق:

لقّب به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد قال له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنت عتيق الله من النار» فسمّي عتيقاً^(٤)، وفي رواية عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: دخل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أبشر فأنت عتيق الله من النار"^(٥)، فمن يومئذ سُمّي عتيقاً^(٦)، وقد ذكر المؤرخون أسباباً كثيرة لهذا اللقب، فقد قيل: إنّما سُمّي

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١ (١٤١٥ هـ)، ج ٤، ص ١٤٤-١٤٥.

(٢) صحيح التوثيق في سيرة وحياة الصديق، مجدي فتحي السيّد، دار الصحابة بطنطا للنشر والتوزيع، ط ١ (١٤١٧ هـ-١٩٩٦ م)، ص ٢٧.

(٣) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، دار المنارة، ط ٣ (١٤٠٦ هـ-١٩٨٦ م)، ص ٤٦.

(٤) رواه ابن حبان، كتاب الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، حديث رقم ٦٨٦٤، ج ١٥، ص ٢٨٠، إسناده صحيح.

(٥) رواه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، حديث رقم ٣٦٧٩، وصحّحه الألباني في السلسلة (١٥٧٤).

(٦) أصحاب الرسول، محمود المصري، مكتبة دار الصديق، ط ٢ (١٤٢٣-٢٠٠٢ م)، ج ١، ص ٥٢.

عتيقاً لجمال وجهه^(١)، وقيل: لأنّه كان قديماً في الخير، وقيل: سُمّي عتيقاً، لعتاقة وجهه^(٢)، وقيل: إنّ أمّ أبي بكرٍ كان لا يعيش لها ولد، فلمّا ولدته؛ استقبلت به الكعبة، وقالت: اللَّهُمَّ إنّ هذا عتيقك من الموت، فهبه لي^(٣)، ولا مانع للجمع بين بعض هذه الأقوال، فأبو بكر جميل الوجه، حسن النسب، صاحب يدٍ سابقة إلى الخير، وهو عتيق الله من النار بفضل بشاره النّبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له^(٤).

٢- الصّدّيق:

لقبه به النّبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ففي حديث أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قال: إنّ النّبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صعد أحداً، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، فرجف بهم، فقال: "اثبت أحد، فإنّما عليك نبّي، وصديق، وشهيدان"^(٥).

وقد لُقّب بالصّدّيق لكثرة تصديقه للنّبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي هذا تروي أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فتقول: لمّا أُسري بالنّبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث النّاس بذلك، فارتدّ ناسٌ، كانوا امنوا به، وصدّقوه، وسعى رجالٌ إلى أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم أن أُسري به اللّيلة إلى بيت المقدس! قال: وقد قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن قال ذلك؛ فقد صدق. قالوا: أو تصدّقه: أنّه ذهب اللّيلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟! قال: نعم، إنّني لأصدّقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدّقه بخبر السّماء

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، العشرة، نسبة أبي بكر الصديق «واسمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أبو بكر عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مر، ج ١، ص ٥٢.

(٢) المرجع السابق، ج ١، ص ٥٣، الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، مرجع سابق، ج ١، ص ١٤٦.

(٣) الكنى والأسماء، أبو بشرٍ محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولاقي الرازي ت ٣١٠ هـ، المحقق: أبو قتيبة نظر محمد الفارياي، دار ابن حزم - بيروت / لبنان، ط ١ (١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م)، ج ١، ص ١٥.

(٤) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين، يسري محمد هاني، مكتبة الملك فهد، ط ١ (١٤١٨ هـ)، ج ١، ص ٣٦.

(٥) رواه البخاري، كتاب فضائل الصّحابة، باب: قول النّبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لو كنت متخذاً خليلاً)، حديث رقم ٣٤٧٢.

في غدوة، أو روحة، فلذلك سمي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الصديق^(١).

وقد أجمعت الأمة على تسميته بالصديق، لأنه بادر إلى تصديق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولازمه الصديق فلم تقع منه هنة أبداً^(٢)، فقد اتصف بهذا اللقب، ومدحه الشعراء:

قال أبو محجن الثقفِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وُسِّمَتْ صَدِيقًا وَكُلُّ مُهَاجِرٍ سَوَاكَ يُسَمَّى بِاسْمِهِ غَيْرُ مُنْكَرٍ
سَبَقَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ شَاهِدٌ وَكُنْتَ جَلِيسًا فِي الْعَرِيشِ الْمُشْهَرِ^(٣)

وأنشد الأصمعي^(٤)، فقال:

وَلَكِنِّي أَحَبُّ بِكُلِّ قَلْبِي وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَاكَ مِنَ الصَّوَابِ
رَسُولُ اللَّهِ وَالصَّدِيقُ حُبًّا بِهِ أَرْجُو غَدًا حُسْنَ الثَّوَابِ^(٥)

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، کتاب معرفة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أما الشيخان فإنهما لم يزيذا على المناقب، وقد بدأنا في أول ذكر الصحابي بمعرفة نسبه ووفاته، ثم بما يصح على شرطهما من مناقبه مما لم يخرجاه فلم أستغن عن ذكر محمد بن عمر الواقدي وأقرانه في المعرفة "أبو بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ" فمن فضائل خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبي بكر بن أبي قحافة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مما لم يخرجاه، حديث رقم ٤٤٠٧، وصححه، وأقره الذهبي.

(٢) الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعدت ٢٣٠هـ، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط ١ (١٩٦٨ م)، ج ٢، ص ١٧٢.

(٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير ت ٦٣٠هـ، المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، ط ١ (١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م)، ج ٣، ص ٣١٠.

(٤) هو عبد الملك بن قريب الباهلي راوية العرب، ونابعة الدنيا في الحفظ.

(٥) أبو بكر الصديق للطَّنْطَاوي، مرجع سابق، ص ٤٩.

٣- الصَّاحِب:

وقد أجمع العلماء على أن الصاحب المقصود هنا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١)، فعن أنسٍ أنَّ أبا بكرٍ حدَّثه فقال: قلت للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه؛ لأبصرنا تحت قدميه!! فقال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما"^(٢).

قال الحافظ ابن حجر- رَحِمَهُ اللَّهُ -: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فإنَّ المرادَ بصاحبه هنا أبو بكر بلا منازع^(٣)، والأحاديث في كونه كان معه في الغار كثيرةٌ شهيرةٌ، ولم يَشْرِكْهُ في المنقبة غيره^(٤).

٤- الْأَتَقَى:

لقَّبه به الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿وَسَيَجْنِبُهَا الْأَتَقَى﴾ [الليل: ١٧]، وسيأتي بيان ذلك في حديثنا عن المعذَّبين في الله الذين أعتقهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- الْأَوَاه:

لقَّب أبو بكرٍ بالأَوَاه، وهو لقبٌ يدلُّ على الخوف، والوجل، والخشية من الله تعالى، فعن إبراهيم النَّخَعِيِّ قال: كان أبو بكرٍ يُسَمَّى بالأَوَاه؛ لرأفته، ورحمته^(٥).

ثانياً: مولده، وصفته الخَلْقِيَّة:

لم يختلف العلماء في أنَّه ولد بعد عام الفيل، وإنَّما اختلفوا في المدة التي كانت بعد عام الفيل، فبعضهم قال: بثلاث سنين، وبعضهم ذكر بأنَّه ولد بعد عام الفيل بسنتين وستة

(١) تاريخ الدَّعوة في عهد الخلفاء، يسري محمد هاني، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢) رواه البخاريُّ، كتاب فضائل الصَّحابة، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم، حديث رقم ٣٤٥٣.

(٣) الإصابة في تمييز الصَّحابة، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٨.

(٤) المرجع السابق.

(٥) الطبقات الكبرى، ابن سعد، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٧١.

أشهر، واخرون قالوا: بستين وأشهر، ولم يحدّدوا عدد الأشهر^(١)، وقد نشأ نشأة كريمة طيبة في حُضْنِ أبوين لهما الكرامة، والعزُّ في قومهما، ممّا جعل أبا بكر ينشأ كريم النَّفْس، عزيز المكانة في قومه^(٢).

وأما صفته الخَلْقِيَّة، فقد كان يوصف بالبياض في اللَّون، والنَّحَافَة في البدن، وفي هذا يقول قيس بن أبي حزم: دخلت على أبي بكرٍ، وكان رجلاً نحيفاً، خفيف اللحم، أبيض^(٣)، وقد وصفه أصحاب السَّير من أفواه الرُّواة، فقالوا: إن أبا بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اتَّصَفَ بِأَنَّهُ: كان أبيض، تخالطه صُفْرَةٌ، حسن القامة، نحيفاً، خفيف العارضين، أجناً^(٤)، لا يستمسك إزاره يسترخي عن حقويه^(٥) رقيقاً، معروق الوجه^(٦)، غائر العينين^(٧) أقنى^(٨)، حمش السَّاقين^(٩)، ممحو الفخذين^(١٠)، وكان ناتئ الجبهة، عاري الأشاجع^(١١)، ويخضب لحيته وشبيهه بالحناء، والكتَم^(١٢).

-
- (١) سيرة وحياة الصديق، مجدي فتحي السيّد، مرجع سابق، ص ٢٩.
 - (٢) تاريخ الدَّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ٣٠.
 - (٣) الطبقات الكبرى، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعدت ٢٣٠هـ، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ط ١ (١٩٦٨م)، ج ٣، ص ١٨٨ إسناده صحيح.
 - (٤) الجآن: ميل في الظَّهر.
 - (٥) حقويه: الحقو هو معقد الإزار، يعني الخصر.
 - (٦) المعروق: هو قليل اللحم.
 - (٧) غائر العينين: دخلت في الرأس.
 - (٨) أقنى: قني الأنف: ارتفع أعلاه، واحذوب وسطه، وضاق منخراه فهو أقنى.
 - (٩) حمش الساقين: دقيق السَّاقين.
 - (١٠) الممحو: هو الشَّديد في الفخذين، مع قَلَّة اللحم بهما.
 - (١١) الأشاجع: هو مفاصل الأصابع.
 - (١٢) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب: هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى المدينة، حديث رقم ٣٧٠٥.

ثالثاً: أسرته:

أمّا والده، فهو عثمان بن عامر بن عمرو، يكنى أبا قحافة، أسلم يوم الفتح، وأقبل به الصديق على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «يا أبا بكر! هلاً تركته؛ حتى نأتيه». فقال أبو بكر: هو أولى أن يأتيك يرسل الله! فأسلم أبو قحافة وبايع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، ويروى: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه^(٢)، وقال لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «غيروا هذا من شعره». فقد كان رأس أبي قحافة مثل الثغامة^(٣).

وفي هذا الخبر منهجٌ نبويٌّ كريمٌ سنّه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في توقيف كبار السنّ، واحترامهم، ويؤكد ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا"^(٤).

وأما والدّة الصديق، فهي سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، وكنيتها أم الخير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أسلمت مبكراً، وسيأتي تفصيل ذلك في واقعة إلحاح أبي بكر على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الظهور بمكة^(٥).

وأما إخوته:

كان لأبي قحافة - والد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثلاثة من الأولاد الذكور، الأول: عتيق، وهو أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والثاني: عتيق - مُصَغَّرٌ من عتيق - والثالث: مُعَتَق^(٦).

والصحيح أن اسم أبي بكر: عبد الله، وأمّا عتيق، فهو لقبه كما جزم به ابن عساكر، فقال:

-
- (١) الإصابة، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٧٥.
 - (٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، ط ١ (١٤١٢هـ)، ص ٥٧٧.
 - (٣) الإصابة، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٧٥، الثغامة: نبات أبيض يشبه به الشيب.
 - (٤) الترمذي، أبواب البرّ والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، حديث رقم ١٩٢٠، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.
 - (٥) تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٣٠.
 - (٦) الإصابة في تمييز الصحابة، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٦.

كادت الروايات تجمع على ذلك^(١). وقال النووي: أجمعت الأمة على تسميته صديقاً^(٢).

والكلام في المصادر التاريخية حول إخوة أبي بكر قليل جداً، لا يتجاوز أكثر من ذكر أسمائهم؛ وذلك لندرة الآثار الواردة بشأنهم. عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه أنه قال سألت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن اسم أبي بكر فقالت عبد الله فقلت إن الناس يقولون عتيق فقالت: إن أبا قحافة كان له ثلاثة أولاد، سمى واحداً عتيقا والآخر معتقا والآخر عتيقا^(٣)، قال ابن مندة: هذا حديث غريب من حديث عُمارة لا يعرف عنه إلا من هذا الوجه. وذكر أن عتيقاً ومعتقاً لا عقب لهما «ولم أقف لهما على ترجمة أو خبر، والذي يظهر أنَّهما ماتا صغيرين»^(٤) لما جاء في الخبر أن أم أبي بكر كان لا يعيش لها ولد، فلما ولدت أبا بكر قالت: اللهم إن هذا عتيقك من الموت فهبه لي^(٥).

وأما أخواته:

ذكرت المصادر التاريخية ثلاثاً من الأخوات لأبي بكر الصديق، وهنّ مذكورات في عداد الصحابيَّات:

١. أم فروة: صحابيَّة، زوجها أبو بكر من الأشعث بن قيس الكندي، وولدت له.
 ٢. أم عامر: صحابيَّة، تزوجها عامر بن أبي وقاص، فولدت له صفية.
 ٣. قُريبة: صحابيَّة، تزوجها قيس بن سعد بن عبادة، ولم تلد له شيئاً.
- ذكر ابن سعد الثلاث في الصحابيَّات اللواتي أسلمن وبايعن، وتابعه الحافظ في الإصابة^(٦).

(١) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦هـ، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، د/ ط، ج ٢، ص ١٨١.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٦.

(٤) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، عبد الستار الشيخ، ص ٤٧.

(٥) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، عبد الستار الشيخ، ص ٤٧.

(٦) الطبقات لابن سعد، مرجع سابق، ج ٨، ص ٢٤٩.

وأما زوجاته؛ فقد تزوج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أربع نسوة، أنجب له ثلاثة ذكور، وثلاث إناث، وهنَّ على التَّوالي:

١ - قتيلة بنت عبد العزى بن أسعد بن جابر بن مالك:

اختلف في إسلامها^(١)، وهي والدة عبد الله، وأسماء - وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية - وقد جاءت بهدايا فيها أقط، وسمنٌ إلى ابنتها أسماء بنت أبي بكر بالمدينة، فأبت أن تقبل هديتها، وتدخلها بيتها، فأرسلت إلى عائشة تسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِتَدْخُلْهَا، وَلتَقْبَلْ هَدِيَّتَهَا». وأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨] أي: لا يمنعكم الله من البرِّ، والإحسان، وفعل الخير إلى الكفار الذين سالموكم، ولم يقاتلوكم في الدين، كالنساء، والضَّعفة منهم، كصلة الرَّحِم، ونفع الجار، والضَّيافة، ولم يخرجوكم من دياركم، ولا يمنعكم أيضاً من أن تعدلوا فيما بينكم وبينهم، بأداء ما لهم من الحق، كالوفاء لهم بالوعود،

وأداء الأمانة، وإيفاء أثمان المشتريات كاملة غير منقوصة، إنَّ الله يحب العادلين، ويرضى عنهم، ويمقت الظَّالمين، ويعاقبهم^(٢).

٢ - أم رومان بنت عامر بن عومر:

من بني كنانة بن خزيمة، مات عنها زوجها الحارث بن سبرة بمكة، فتزوجها أبو بكر، وأسلمت قديماً، وبايعت، وهاجرت إلى المدينة، وهي والدة عبد الرحمن، وعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وتوفيت في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة سنة ست من الهجرة^(٣).

٣ - أسماء بنت عميس بن معبد بن الحارث:

(١) الطبقات لابن سعد، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٦٩، ج ٨، ص ٢٤٩.
 (٢) التفسير المنير في العقيدة والشرعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكر (دمشق - سورية)، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، ط ١، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، ج ٢٨، ص ١٣٥.
 (٣) الإصابة، مرجع سابق، ج ٨، ص ٣٩١.

أم عبد الله، من المهاجرات الأوائل، أسلمت قديماً قبل دخول دار الأرقم، وبايعت الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهاجر بها زوجها جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الحبشة، ثم هاجرت معه إلى المدينة، فاستشهد يوم مؤتة، وتزوجها الصديق، فولدت له محمداً؛ روى عنها من الصحابة: عمر، وأبو موسى، وعبد الله بن عباس، وأُمّ الفضل امرأة العباس، وكانت أكرم الناس أصهاراً، فمن أصهارها: رسول الله، وحمزة، والعباس، وغيرهم^(١).

٤- حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير:

الأنصارية، الخزرجية، وهي التي ولدت لأبي بكر أمّ كلثوم بعد وفاته، وقد أقام عندها الصديق بالسُّنح^(٢).

وأما أولاد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهم:

١- عبد الرحمن بن أبي بكر:

أسنُّ ولد أبي بكر: أسلم يوم الحديبية، وحسن إسلامه، وصحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد اشتهر بالشجاعة، وله مواقف محمودّة، ومشهودّة، بعد إسلامه^(٣).

٢- عبد الله بن أبي بكر:

صاحب الدور العظيم في الهجرة، فقد كان يبقى في النهار بين أهل مكة، يسمع أخبارهم، ثم يتسلّل في الليل إلى الغار لينقل هذه الأخبار لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبيه، فإذا جاء الصُّبح عاد إلى مكة، وقد أصيب بسهم يوم الطائف، فماتله حتى مات شهيداً بالمدينة

(١) سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت ٧٤٨ هـ، تحقيق: مجموعة = من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، تقديم: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ط ٣ (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م)، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٢) منازل بني الحارث بن الخزرج في عوالي المدينة.

(٣) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ت ٧٧٤ هـ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١ (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م)، ج ١١، ص ٣٢٨.

في خلافة الصديق^(١).

٣- محمد بن أبي بكر:

أمه أسماء بنت عميس، ولد عام حجة الوداع، وكان من فتيان قريش، عاش في حجر علي بن أبي طالب، وولادة مصر، وبها قتل^(٢).

٤- أسماء بنت أبي بكر:

ذات النطاقين أسن من عائشة، سمّاها رسول الله ﷺ ذات النطاقين، لأنّها صنعت لرسول الله ﷺ لأبيها سفرة لما هاجرا، فلم تجد ما تشدّها به، فشقت نطاقها، وشدّت به السفرة، فسمّاها النبي ﷺ بذلك، وهي زوجة الزبير بن العوام، وهاجرت إلى المدينة؛ وهي حاملٌ بعبد الله بن الزبير، فولدته بعد الهجرة، فكان أول مولود في الإسلام بعد الهجرة، بلغت مئة سنة، ولم ينكر من عقلها شيء، ولم يسقط لها سنٌّ، روي لها عن الرسول ﷺ ستّة وخمسون حديثاً، روى عنها عبد الله بن عباس، وأبناؤها عبد الله، وعروة، وعبد الله بن أبي مليكة وغيرهم، وكانت جوادةً منفقةً، توفيت بمكة سنة ٧٣ هـ^(٣).

٥- عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

الصديقة بنت الصديق، تزوّجها رسول الله ﷺ وهي بنت ستّ سنين، ودخل بها وهي بنت تسع سنين، وأعرس بها في شوال، وهي أعلم النساء، كنّاها رسول الله ﷺ أم عبد الله، وكان حبّه لها مثلاً للزوجة الصالحة^(٤).

كان الشعبي يحدث عن مسروق: أنّه إذا تحدّث عن أم المؤمنين عائشة يقول:

(١) نسب قريش، مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، أبو عبد الله الزبيري ت

٢٣٦ هـ، المحقق: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ص ٢٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(٣) سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٨٧.

(٤) تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٣٤.

حدَّثني الصديقة بنت الصديق، المبرأة، حبيبة حبيب الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومسندها يبلغ ألفين ومئتين وعشرة أحاديث (٢٢١٠) اتَّفَقَ البخاريُّ، ومسلمٌ على مئةٍ وأربعةٍ وسبعين حديثاً، وانفرد البخاريُّ بأربعةٍ وخمسين، وانفرد مسلم بتسعةٍ وستين^(١)، وعاشت ثلاثاً وستين سنةً وأشهرًا، وتوفيت سنة ٥٧ هـ، ولا ذرية لها^(٢).

٦- أم كلثوم بنت أبي بكر:

أمُّها حبيبة بنت خارجة، قال أبو بكر لأُمِّ المؤمنين عائشة حين حضرته الوفاة: إنما هما أخواكِ وأختاك. فقالت: هذه أسماء قد عرفتها فمن الأخرى؟ قال: ذو بطن بنت خارجة، قد ألقى في خلدي أنها جارية، فكانت كما قال، وولدت بعد موته^(٣)، تزوّجها طلحة بن عبيد الله وقتل عنها يوم الجمل، وحجّت بها عائشة في عدتها فأخرجتها إلى مكة^(٤).

هذه هي أسرة الصديق المباركة التي أكرمها الله بالإسلام، وقد اختصَّ بهذا الفضل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من بين الصحابة، وقد قال العلماء: لا يُعرف أربعةٌ متناسلون بعضهم من بعض صحبوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا ال أبي بكر الصديق وهم: عبد الله بن الزبير، أمُّه أسماء بنت أبي بكر بن أبي قحافة، فهؤلاء الأربعة صحابة متناسلون، وأيضاً محمّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٥).

وليس من الصحابة من أسلم أبوه، وأمُّه وأولاده، وأدركوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأدركه أيضاً بنو أولاده: إلا أبو بكر من جهة الرجال والنساء - وقد بينت ذلك - فكلهم امنوا بالنبي، وصحبوه، فهذا بيت الصديق، فأهله أهل إيمان، ليس فيهم منافق، ولا يعرف في الصحابة

(١) سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٣٩، ١٤٥.

(٢) الطبقات، ابن سعد، مرجع سابق، ج ٨، ص ٥٨.

(٣) المرجع السابق، ج ٢، ص ١٩٥.

(٤) نسب قريش، مرجع سابق، ص ٢٧٨، الإصابة، مرجع سابق، ج ٨، ص ٤٦٦؛ تاريخ الدَّعوة في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٣٥.

(٥) أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، محمد رشيد رضا ت ١٣٦٩ هـ، دار إحياء الكتب العربية، ط ٢ (١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠ م)، ص ٧.

مثل هذا لغير بيت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان يقال: للإيمان بيوت، وللتفاق بيوت، فبيت أبي بكر من بيوت الإيمان من المهاجرين، وبيت بني النجار من بيوت الإيمان من الأنصار^(١).

رابعاً: دور أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

- في مكة: كان في دار أبيه أبي قحافة^(٢)، وكانت هذه الدار في نفس الحي التي كانت تعيش به خديجة بنت خويلد، ومقامه في هذا الحي هو الذي ربط بينه وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بروابط الألفة بعد أن تزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خديجة وانتقل إلى دارها^(٣).

- في المدينة: كان له داران، الأول: في بني الحارث بن الخزرج في السُّنْح^(٤)، سكنه لما هاجر ونزل على خارجة بن زيد، وتزوج ابنته، فاتخذ مسكنه هناك وهو في عوالي المدينة يبعد عن مسجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حوالي اثنين كيلو متر.

وفي هذا الموضع كان فيه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما وصله خبر وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر في السُّنْح^(٥). الثاني: دار بجوار مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما أقطع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدور بالمدينة جعل لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موضع داره عند المسجد، وفيه كانت زوجتاه، أم رومان وأسماء بنت عميس. وهذا الدار كانت ملاصقة لمسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان لها باب إلى المسجد، كان قد أذن له به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تیمیة الحراني الحنبلي الدمشقي ت ٧٢٨هـ، المحقق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)، ج ٨، ص ٣٣٢.

(٢) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٣) الصديق أبو بكر، محمد حسين هيكل، دار المعارف بمصر ط (١٩٧١ م)، ص ٢٩.

(٤) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، مرجع سابق ص ٥٨.

(٥) سبق تخريجه.

أَحَدٌ أَمَّنَ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خُلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةٍ أَبِي بَكْرٍ^(١)، والخوخة: الباب الصغير بين البيتين أو الدارين ونحوه^(٢).

وقد كان هناك عدّة أبواب بين دور بعض الصحابة والمسجد، فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإغلاقها كلها إلا باب أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي هذا دليل عظيم على فضله على كل الصحابة^(٣)، ولم تزل هذه الدار مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى احتاج إلى شيء يعطيه لبعض من وفد عليه، فباعها فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم^(٤).

خامساً: الرّصيد الخُلقي للصّدّيق في المجتمع الجاهلي:

كان أبو بكر الصّدّيق في الجاهلية من وجهاء قريش، وأشرفهم، وأحد رؤسائهم، وذلك أنّ الشّرف في قريش قد انتهى قبل ظهور الإسلام إلى عشرة رهطٍ من عشرة أبطن، فالعبّاس بن عبد المطلب من بني هاشم، وكان يسقي الحجيج في الجاهلية، وبقي له ذلك في الإسلام، وأبو سفيان بن حربٍ من بني أميّة، وكان عنده العقاب راية قريش، فإذا لم تجتمع قريش على واحدٍ رأسوه هو، وقدموه، والحرث بن عامر بن بني نوفل، وكانت إليه الرّفادة، وهي ما تخرجه قريش من أموالها، وترفد به منقطع السّيل، وعثمان بن طلحة بن زمعة بن الأسود من بني أسد، وكانت إليه المشورة، فلا يُجمع على أمر حتّى يعرضوه عليه، فإن وافق، ولأهم عليه، وإلا تخيّر، وكانوا له أعواناً، وأبو بكر الصّدّيق من بني تيم وكانت إليه الأشناق،

(١) رواه البخاري في صحيحه، أبواب المساجد، باب: الخوخة والممر في المسجد، حديث رقم ٤٥٥.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ت ٦٧٦هـ، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٢ (١٣٩٢هـ)، ج ١٥، ص ١٥١.

(٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ابن ماكولا، دار الوفاء، مصر، ط ١ (١٩٩٨م)، ج ٧، ص ٣٨٦.

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخار، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ط ١ (١٣٧٩هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ج ٧، ص ١٤.

وهي الديات، والمغارم، فكان إذا حمل شيئاً، فسأل فيه قريشاً، صدّقه، وأمضوا حمالة مَنْ نهض معه، وإن احتملها غيره؛ خذلوه، وخالد بن الوليد من بني مخزوم، وكانت إليه القبّة، واللاعنة، وأمّا القبّة فإنّهم كانوا يضربونها، ثمّ يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش، وأمّا اللاعنة فإنّه كان على خيل قريش في الحرب، وعمر بن الخطّاب من بني عدّي، وكانت إليه السّفارة في الجاهلية، وصفوان بن أميّة من بني جمح، وكانت إليه الأزلام، والحارث بن قيس من بني سهم، وكانت إليه الحكومة، وأموالهم المحجرة التي سمّوها لآلهم^(١).

لقد كان الصّدّيق في المجتمع الجاهلي شريفاً منْ أشراف قريش، وكان منْ خيارهم، ويستعينون به فيما ناهم، وكانت له بمكّة ضيافات لا يفعلها أحدٌ^(٢).

علاقة أبي بكر بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الإسلام:

صحب أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة، وسبق إلى الإيمان به، واستمرّ معه طول إقامته بمكة، ورافقه في الهجرة، وفي الغار، وفي المشاهد كلها إلى أن مات^(٣).

كان أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يصغر نبينا محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بستين وأشهر^(٤)، وأكبر الظن أن التقارب في السن والاشتباك في العمل والاتفاق في سكينة النفس ورضا الخلق وفي الرغبة عما تراول قريش من عادات وعقائد أكبر الظن أن هذا كله كان ذا أثر في مودة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مودة يختلف الرواة إلى أي حد توثقت عراها قبل البعثة، فقد ذكر بعضهم أنها كانت وثيقة العرى قبل البعثة، وبعضهم يرى أنّ العلاقة لم تتوثق إلا بعد البعثة، وأن مودتهم الأولى كانت مودة جوار وتوافق في الميول ليس غير، ولعلّ أصحاب

(١) أشهر مشاهير الإسلام، رفيق العظم، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، ط ٦ (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م)، ج ١، ص ١٠.

(٢) نهاية الأرب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري ت ٧٣٣هـ، تحقيق عبد المجيد ترحيني وعناد علي حمزة، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ج ١٩، ص ٨-٩.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٥.

(٤) تاريخ الخلفاء، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ، المحقق: حمدي الدرداء، شمكتبة نزار مصطفى الباز، ط ١ (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م)، ص ٢٨.

هذا الرأي يؤيدونه بما عرف من محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حب العزلة والانقطاع عن الناس وقتاً طويلاً قبل بعثته فلما بعثه الله واختاره لرسالته ذكر أبا بكر ورجاحة عقله، فتحدث إليه ودعاه إلى الواحد الأحد، ولم يتردد أبو بكر في إجابة داعي الله، ومن يومئذ توثقت الصلة بينهما، ثم زاهها قوة صدق أبي بكر في الإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته^(١). والذي يظهر، أن قوة العلاقة ومثانتها قديمة، لأنهما متشابهان في الصفات والسجايا والأخلاق، فشابه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدقه وأمانته وحسن سجاياه وكرم أخلاقه وبغضه للأصنام وترفعه عن أخلاق الجاهلية، فلازمه حتى أصبح خدناً له. وقيل إنه كان معه حين ذهب إلى الشام واجتمع بالراهب بحيراً، بل عرف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قريش كلها في صحبته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البعثة، فكانت تقول العرب له: اسمع ما يقول (صاحبك). ومن أمثلة ذلك ما وقع في حادثة الإسراء^(٢).

ورأى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بين أقرانه من شباب قريش أكملهم وأزكاهم، فصادقه ولازمه وجعله قدوته، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل الناس نفساً، وأعظمهم خلقاً، وأكبرهم قلباً، وأطهرهم روحاً، وأجلهم أدباً، وأصدقهم حديثاً، فتألفا وتحاببا، وأخذ أبو بكر من أخلاق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما اتسعت له فطرته، وتهيا له استعداد، وهذا هو سر ما اشتهر عن أبي بكر من مشابته لبعض أخلاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل النبوة، والتي وصفه بها ابن الدغنة بقوله: «إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق». وهذه الأوصاف هي نفسها التي وصفت بها خديجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣). أكرم الله أبا بكر بصحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكانت تلك الصداقة صيقل نفسه، ومغنى أنسه، وأعظم الدوافع إلى الإسراع بتصديقه عندما أعلن في الناس أنه نبي هذه الأمة^(٤).

(١) الصديق أبو بكر، محمد حسين هيكل، دار كلمات القاهرة، ط ١ (٢٠١٢م)، ص ٢٩.

(٢) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، مرجع سابق، ص ٤٠-٤١.

(٣) الروض الأنيق في سيرة أبي بكر الصديق، محمد حامد محمد، د/ ط، ص ١١.

(٤) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، مرجع سابق، ص ٤١.

وقد اشتهر بعدة أمورٍ منها:

١- العلم بالأنساب:

فهو عالمٌ من علماء الأنساب، وأخبار العرب، وله في ذلك باعٌ طويلٌ، جعله أستاذ الكثير من النَّسَّابين، كعقيل بن أبي طالب، وغيره، وكانت له مزيةٌ حبَّته إلى قلوب العرب وهي: أنَّه لم يكن يعيب الأنساب، ولا يذكر المثالب بخلاف غيره^(١)، فقد كان أنسب قريشٍ لقريشٍ، وأعلم قريشٍ بها، وبما فيها من خيرٍ، وشرٍّ^(٢)، وفي هذا تروي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ أبا بكرٍ أعلم قريشٍ بأنسابها»^(٣).

٢- تجارته:

كان في الجاهلية تاجراً، ودخل بُصرى من أرض الشام للتجارة، وارتحل بين البلدان، وكان رأسُ ماله أربعين ألف درهم، وكان ينفق من ماله بسخاءٍ، وكرمٌ عُرف به في الجاهلية^(٤).

٣- موضع الألفة بين قومه وميل القلوب إليه:

فقد ذكر ابن إسحاق في «السيرة» أنهم كانوا يحبُّونه ويألفونه، ويعترفون له بالفضل العظيم، والخلق الكريم، وكانوا يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر: لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته^(٥)، وقد قال له ابن الدغنة حين لقيه مهاجراً: إنك لتزين العشيرة، وتعين على

(١) تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمؤلف: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قيماز الشهير بـ «الذهبي» ت ٧٤٨ هـ، تحقيق: غنيم عباس غنيم - مجدي السيد أمين، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط ١ (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م)، ج ١، ص ١١٤.

(٢) الإصابة، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٦.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم ٢٤٩٠.

(٤) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، مرجع سابق، ص ٦٦؛ التَّاريخ الإسلامي، الخلفاء الرَّاشدون، محمود شاكر، ص ٣٠.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين ت ٢١٣ هـ، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط ٢ (١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م)، ج ١، ص ٢٥٠.

النَّوَابِ، وتكسب المعدوم، وتفعل المعروف^(١).

وقد علقَ ابن حجر على قول ابن الضغنة فقال: ومن أعظم مناقبه أن ابن الضغنة سيّد القارة لما رد عليه جواره بمكة، وصفه بنظير ما وصفت به خديجة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بعث، فتوارد فيها نعتٌ واحدٌ من غير أن يتواطأ على ذلك، وهذه غايةٌ في مدحه؛ لأنَّ صفات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ نشأ كانت أكمل الصفات^(٢).

٤- لم يشرب الخمر في الجاهلية:

فقد كان أعفَّ الناس في الجاهلية^(٣)؛ حتَّى إِنَّهُ حرَّم على نفسه الخمر قبل الإسلام، فقد قالت السيِّدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: حرَّم أبو بكر الخمر على نفسه، فلم يشربها في جاهلية ولا في إسلام، وذلك: أَنَّهُ مرَّ برجل سكران يضع يده في العذرة، ويدنيه من فيه، فإذا وجد ريحها صرفها عنه. فقال أبو بكر: إنَّ هذا لا يدري ما يصنع، وهو يجد ريحها، فحماها^(٤)، وفي رواية لعائشة... ولقد ترك هو وعثمان شرب الخمر في الجاهلية^(٥).

وقد أجاب الصديق من سألته: هل شربت الخمر في الجاهلية؟ بقوله: أعوذ بالله! فقل: ولم؟ قال: كنت أصون عرضي، وأحفظ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان مضيّعاً لعرضه، ومروءته^(٦).

٥- ولم يسجد لصنم:

ولم يسجد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لصنم قطُّ، قال أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في مجمع من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما سجدتُ لصنم قطُّ، وذلك أَنِّي لَمَّا ناهزتُ الحلم أخذني

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الكفالة، باب: جوار أبي بكر في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعقده، حديث رقم ٢١٧٥.

(٢) الإصابة، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٦.

(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٤) سيرة وحياة الصديق، مجدي فتحي، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي، مرجع سابق، ص ٤٨.

(٦) المصدر السابق نفسه.

أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مخدع فيه الأصنام، فقال لي: هذه الهتك الشُّمُّ العوالي، وخلّاني، وذهب، فدنوتُ من الصَّنم، وقلتُ: إني جائعٌ فأطعمني، فلم يُجِبني، فقلتُ: إني عارٌ فاكسني، فلم يُجِبني، فألقيت عليه صخرةً، فخرَّ لوجهه. وهكذا حملة خُلِّقه الحميد، وعقله النير، وفطرته السَّليمة على الترفُّع عن كلِّ شيءٍ يخدش المروءة، وينقص الكرامة من أفعال الجاهليين، وأخلاقهم التي تجانب الفطرة السَّليمة، وتتنافى مع العقل الرَّاجح، والرُّجولة الصَّادقة^(١)، فلا عجب على من كانت هذه أخلاقه أن ينضمَّ لموكب دعوة الحقِّ، ويحتلَّ فيها الصَّدارة، ويكون بعد إسلامه أفضل رجل بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»^(٢).

وقد علّق الأستاذ رفيق العظم عن حياة الصَّدِّيق في الجاهلية، فقال: اللَّهُمَّ إن امرأً نشأ بين الأوثان حيث لا دين زاجرٌ، ولا شرع للنفوس قائدٌ، وهذا مكانه من الفضيلة، واستمساك بعرا العَقَّة، والمروءة... لجديرٌ بأن يتلقَّى الإسلام بملاء الفؤاد، ويكون أوَّل مؤمنٍ بهادي العباد، مبادرٍ بإسلامه لإرغام أنوف أهل الكبر، والعناد، ممهِّدٍ سبيل الاهتداء بدين الله القويم؛ الذي يجتث أصول الرذائل من نفوس المهتدين بهديه، المستمسكين بمتين سببه^(٣).

لله دُرُّ الصَّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد كان يحمل رصيذاً ضخماً من القيم الرِّفِعة، والأخلاق الحميدة، والسَّجَايا الكريمة في المجتمع القرشيِّ قبل الإسلام، وقد شهد له أهل مَكَّة بتقدُّمه على غيره في عالم الأخلاق، والقيم، والمثل، ولم يُعلم أحدٌ من قريشٍ عابَ أبا بكرٍ بعيبٍ، ولا نقصه، ولا استذله، كما كانوا يفعلون بضعفاء المؤمنين، ولم يكن له عندهم عيبٌ إلا الإيمان بالله، ورسوله^(٤).

(١) أصحاب الرسول، محمود المصري، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٨.

(٢) تاريخ الدَّعوة في عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٣) أشهر مشاهير الإسلام، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢.

(٤) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، عتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم = بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ت ٧٢٨هـ، المحقق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط ١ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)، ج ٨، ص ٥٤٦-٥٤٧.

المبحث الثاني: إسلامه، ودعوته، وابتلاؤه، وهجرته الأولى

أولاً: إسلامه:

كان إسلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وليد رحلة إيمانية طويلة في البحث عن الدين الحق؛ الذي ينسجم مع الفطر السليمة، ويلبي رغباتها، ويتفق مع العقول الراجحة، والبصائر النافذة، فقد كان بحكم عمله التجاري كثير الأسفار، قطع الفيافي، والصحارى، والمدن، والقرى في الجزيرة العربية، وتنقل من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها، واتصل اتصالاً وثيقاً بأصحاب الديانات المختلفة وبخاصة النصرانية، وكان كثير الإنصات لكلمات النفر الذين حملوا راية التوحيد، راية البحث عن الدين القويم^(١)، فقد حدث عن نفسه، فقال: كنت جالساً بفناء الكعبة، وكان زيد ابن عمرو بن نفيل قاعداً، فمرَّ ابن أبي الصلت، فقال: كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال: بخير، قال: وهل وجدت؟ قال: لا، فقال:

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَا مَضَى فِي الْحَنْفِيَةِ بُورُ^(٢)
أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا، أو منكم، قال: ولم أكن سمعتُ قبل ذلك بنبي يُنتظر، ويُبعث، قال: فخرجتُ أريد ورقة بن نوفل - وكان كثير النظر إلى السماء، كثير همهمة الصدر - فاستوقفته، ثم قصصْتُ عليه الحديث، فقال: نعم يا بن أخي! إنا أهل الكتب والعلوم، ألا إن هذا النبي الذي يُنتظر من أوسط العرب نسباً - ولي علمٌ بالنسب - وقومك أوسط العرب نسباً. قلتُ: يا عم! وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له، إلا أنه لا يظلم، ولا يُظلم، ولا يُظالم، فلما بُعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امتن به، وصدقته^(٣)، وكان يسمع ما يقوله أمية بن أبي الصلت:

في مثل قوله:

(١) مواقف الصديق مع النبي بمكة، عاطف لماضة، دار الصحابة للتراث، ط ١ (١٩٩٣م)، ص ٦.

(٢) تاريخ الخلفاء للسُّيوطي، مرجع سابق، ص ٥٢.

(٣) تاريخ الخلفاء للسُّيوطي، مرجع سابق، ص ٥٢.

ألا نبئنا منّا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا
 إني أعوذ بمن حجّ الحجي له والرافعون لدين الله أركاننا
 لقد عايش أبو بكر هذه الفترة ببصيرة نافذة، وعقل نير، وفكر متألق، وذهن وقاد، وذكاء
 حادّ، وتأمل رزين ملأ عليه أقطار نفسه، ولذلك حفظ الكثير من هذه الأشعار، ومن تلك
 الأخبار، فعندما سأل الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه يوماً - وفيهم أبو بكر الصديق -
 قائلاً: «من منكم يحفظ كلام - قس بن ساعدة - في سوق عكاظ؟». فسكت الصحابة، ونطق
 الصديق قائلاً: إني أحفظها يرسل الله!

كنت حاضراً يومها في سوق عكاظ، ومن فوق جملة الأورق وقف قس يقول: أيها
 الناس! اسمعوا، وعوا، وإذا وعيتم، فانتفعوا، إن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو
 ات ات، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، مهادّ موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم
 تمور، وبحار لن تغور، ليل داج، وسماء ذات أبراج!!
 يُقسم قس أن الله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه. ما لي أرى الناس يذهبون،
 ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا، ثم أنشد قائلاً:

في الذاهبين الأولي — من القرون لنا بصائر
 كما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
 ورأيت قومي نحوها يسعى الأكابر والأصاغر
 أيقنت أنني لا محال له حيث صار القوم صائر^(١)
 وبهذا الترتيب الممتاز، وبهذه الذاكرة الحديدية - وهي ذاكرة استوعبت هذه المعاني -
 يقصّ الصديق ما قاله قس بن ساعدة على رسول الله، وأصحابه^(٢).

(١) مواقف الصديق مع النبي بمكة، مرجع سابق، ص ٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩.

وقد رأى رؤيا لما كان في الشام، فقَصَّها على بحيرا الرَّاهب^(١)، فقال له: من أين أنت؟ قال: من مَكَّة، قال: من أيها؟ قال: من قريش: فأَيُّ شيء أنت؟ قال: تاجر، قال: إن صدَّق الله رؤياك؛ فإنه يبعث نبِيَّ من قومك، تكون وزيره في حياته، وخليفته بعد موته، فأَسْرَ ذلك أبو بكر في نفسه^(٢).

لقد كان إسلام الصَّديق بعد بحثٍ، وتنقيبٍ، وانتظارٍ، وقد ساعده على تلبية دعوة الإسلام معرفته العميقة، وصلته القويَّة بالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجاهلية، فعندما نزل الوحي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخذ يدعو الأفراد إلى الله، وقع أوَّل اختياره على الصَّديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فهو صاحبه الذي يعرفه قبل البعثة بدمائة خلقه، وكريم سجاياءه، كما يعرف أبو بكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصدقه، وأمانته، وأخلاقه، التي تمنعه من الكذب على الناس، فكيف يكذب على الله؟!^(٣).

فعندما فاتحه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدعوة الله وقال له: «..إني رسول الله ونبيه، بعثني لأبلغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فوالله إنه للحق، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعته»^(٤).

فأسلم الصَّديق، ولم يتلعثم، وتقدَّم، ولم يتأخَّر، وعاهد رسول الله على نصرته، فقام بما تعهَّد، ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حقِّه: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه، وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟» مرَّتين^(٥).

وبذلك كان الصَّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوَّل من أسلم من الرِّجال الأحرار، قال إبراهيم النَّخعي،

(١) الخلفاء الرَّاشدون، محمود شاكر، دار المكتب الإسلامي، ط ٨ (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، ص ٣٢.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) تاريخ الدَّعوة في عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٤) البداية والنَّهاية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣١.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي، باب حدثنا الحميدي ومحمد بن عبد الله، حديث رقم ٣٦٦١.

وحسان بن ثابت، وابن عباس، وأسماؤ بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أول من أسلم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال يوسف بن يعقوب الماجشون: أدركت أبي، ومشيختنا: محمد بن المنكدر، وربيعة بن عبد الرحمن، وصالح بن كيسان، وسعد بن إبراهيم، وعثمان بن محمد الأخنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهم لا يشكون: أن أول القوم إسلاماً أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(١)، وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أول من صلى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم تمثل بأبيات حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

إذا تذكّرت شجواً من أخي ثقةً فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خير البريّة أتقاها وأعدلها إلا النبي وأوفاهما بما حملا
الثاني التّالي المحمود مشهدهُ وأوّل الناس طرّاً صدّق الرسلان
وثاني اثنين في الغار المنيف وقد طاف العدوُّ به إذ صعد الجبلات
وعاش حمداً لأمر الله متّبِعاً بهدي صاحبه الماضي وما انتقلا
وكان حبّ رسول الله قد علموا من البريّة لم يعدل به رجلا ^(٢)

هذا وقد ناقش العلماء قضية إسلام الصّدّيق، وهل كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول من أسلم؟ فمنهم من جزم بذلك، ومنهم من جزم بأنّ عليّاً أول من أسلم، ومنهم من جعل زيد بن حارثة أول من أسلم، وقد جمع الإمام ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ - بين الأقوال جمعاً طيّباً، فقال: (والجمع بين الأقوال كلّها: أنّ خديجة أول من أسلم من النساء - وقيل: الرّجال أيضاً - وأوّل من أسلم من الموالى زيد بن حارثة، وأوّل من أسلم من الغلمان علي بن أبي طالب - فإنه كان صغيراً دون البلوغ على المشهور - وهؤلاء كانوا آنذاك أهل بيته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأول من أسلم من الرّجال الأحرار أبو بكر الصّدّيق، وإسلامه كان أنفع من إسلام من تقدّم ذكرهم؛ إذ كان

(١) صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت ٥٩٧هـ، المحقق:

أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ط (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م)، ج ١، ص ٩٠.

(٢) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات، دار صادر بيروت، ط ١ (٢٠٠٦م)، ج ١، ص ١٧.

صدراً معظماً، ورئيساً في قريش مكرماً، وصاحب مالٍ، وداعيةً إلى الإسلام، وكان محبباً، متالفاً، يبذل المال في طاعة الله ورسوله).

ثم قال: وقد أجاب أبو حنيفة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بالجمع بين هذه الأقوال، فإنَّ أوَّل من أسلم من الرِّجال الأحرار أبو بكر، ومن النِّساء خديجة، ومن الموالى زيد ابن حارثة، ومن الغلمان علي بن أبي طالب، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين^(١).

وبإسلام أبي بكر عمَّ الشُّرور قلبَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث تقول أمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلما فرغ من كلامه - أي: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أسلم أبو بكر، فانطلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عنده، وما بين الأخشين أحدٌ أكثر سروراً منه بإسلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢)، لقد كان أبو بكر كنزاً من الكنوز اذخره الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان من أحب قريشٍ لقريشٍ، فذلك الخُلُقُ السَّمَحُ؛ الذي وهبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِيَّاهُ جعله من الموطَّئين أكنافاً، من الذين يألَفون، ويؤلَفون، والخُلُقُ السَّمَحُ وحده عنصرٌ كافٍ لألفة القوم، وهو الذي قال فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر"^(٣).

وعلمُ الأنساب عند العرب، وعلمُ التاريخ هما أهم العلوم عندهم، ولدى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النِّصيب الأوفر منهما، وقريش تعترف للصديق بأنه أعلمها بأنسابها وأعلمها بتاريخها، وما فيه من خيرٍ، وشرٍّ، فالطبقة المثقفة ترتاد مجلس أبي بكر؛ لتنهل منه علماً، لا تجده عند غيره غزارةً، ووفرةً، وسعةً، ومن أجل هذا كان السُّبَابُ النَّاهِيون، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائماً، إنَّهم الصِّفوة الفكرية المثقفة، التي تودُّ أن تلقى عنده هذه العلوم، وهذا جانبٌ آخر من جوانب عظمتها، وطبقة رجال الأعمال، ورجال المال في مكة هي كذلك من رِوَاد مجلس الصديق، فهو إن لم يكن التَّاجر الأوَّل في مكة، فهو من أشهر تجَّارها، فأرباب المصالح هم كذلك قِصَّاده، ولخطيبته، وحسن خلقه تجد عوامَّ

(١) البداية والنهاية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٦-٢٨.

(٢) البداية والنهاية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٩.

(٣) رواه النسائي في السنن، كتاب المناقب، زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم ٨٢٢٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٨/٢).

الناس يرتادون بيته، فهو المضياف الدّمث الخُلُق، الذي يفرح بضيوفه، ويأنس بهم، فكل طبقات المجتمع المكيّ تجد حظها عند الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١). كان رصيده الأدبيّ، والعلميّ، والاجتماعيّ في المجتمع المكيّ عظيماً، ولذلك عندما تحرّك في دعوته للإسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق^(٢).

ثمرات إسلامه وأثارها على الدعوة والمسلمين:

قال ابن إسحاق: فلما أسلم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أظهر إسلامه، ودعا إلى الله وإلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكان أبو بكر رجلاً مألُفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً، ذا خلق ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وتجارته وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه^(٣). فأسلم بدعائه: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين استجابوا له فأسلموا^(٤). فأبو بكر هو المؤمن القوي الذي لم يعرف التاريخ له نظيراً في قوة إيمانه، وشدة دفاعه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتفديته بروحه، وبذل نفسه وماله في سبيل عقيدته وإسلامه، عرف الحق فلم يستطع كتمانها فكان أول من جهر به على مسمع الملأ من طغاة الوثنية^(٥). ومنذ اليوم الأول شارك أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدعوة لدين الله، وكان إلف قومه إياه وحبهم والجلوس إليه والاستماع لحديثه، ذا أثر في استجابة المسلمين الأولين لهذه الدعوة، فقد تابع أبا بكر على الإسلام الخمسة الذين تقدم ذكرهم، كما أسلم من بعدهم بدعوة أبي بكر

(١) التربية القياديّة، منير الغضبان، دار الوفاء، ط ٤ (١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م)، ج ١، ص ١١٥.

(٢) التربية القياديّة، الغضبان، مرجع سابق، ج ١، ص ١١٥.

(٣) السيرة لابن هشام، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

(٤) سيرة العتيق أبو بكر الصديق، موسى العازمي، مرجع سابق، ص ٤١.

(٥) محمد رسول الله، عرجون، مرجع سابق، ج ١، ص ٥١٧.

أبو عبيدة بن الجراح وكثيرون من أهل مكة وكبار أهل الشورى فيما بعد^(١).

ومنذ أسلم الصديق ملأ دينه عليه نفسه وقلبه وفكره ووقته وماله، وأشربت روحه ذلك، فانطلق يدعو إليه، وكان دائب العمل له، مستمر الحركة عميم البركة، قد حقق معاني قوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** [النحل: ١٢٥]، وأولى الناس بهذا الخير أهل بيت الرجل، فتوجه إلى أهله يدعوهم إلى الله تعالى، فأسلم أهل بيته؛ زوجته وأولاده، وخادمه، إلا أباه فقد أسلم يوم فتح مكة. وكان الصديق مطبوعاً على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصلاح، يبدو ذلك من إصراره إلى التبشير بالإسلام ساعة أن اهتدى إليه، فدخل في الدين على يديه نخبة من أسبق الصحابة وأخلصهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فانتفض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الدعوة يحمل لواءها في ظل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشمراً في تبليغها، بعد أن أظهر إسلامه على الملأ، فجعل يدعو من يثق به من بيوتات قومه^(٢).

كان الصديق إذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالإسلام بعد نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكتب له في اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أول الاثنين. فكان ثاني اثنين في الإسلام، وثاني اثنين في غار الهجرة، وثاني اثنين في الظلة التي أوى إليها النبي يوم بدر الذي لا يوم مثله، وثاني اثنين في كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين، وأقرب صاحب إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شدة الإسلام ورخائه، وفي الدعاء إليه، وفي سره وجهه، وفي شؤون نفسه وفي شؤون المسلمين. ومن اللحظة الأولى وهب للإسلام كل ما يملك إنسان أن يهب من نفسه وآله وبنيه، فأخذ أمه وهي بين الحياة والموت لتسلم على يديه، وجاء بأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه، وقد جلله الشيب وابتيض رأسه وكأنه ثغامة، وحمل ماله كله وهو يهاجر في صحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤثر به الدين على الآل والبنين، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه^(٣).

(١) الصديق أبو بكر، محمد حسين هيكل، مرجع سابق ص ٣٠.

(٢) عبقرية الصديق، عباس العقاد، دار نهضة مصر، الطبعة السادسة، ٢٠٠٥م، ص ٨٤.

(٣) عبقرية الصديق، عباس العقاد، ص ٨٣، ٨٤.

ثانياً: دعوته:

أسلم الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحمل الدعوة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعلّم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّ الإسلام دين العمل، والدعوة، والجهاد، وأنَّ الإيمان لا يكمل حتى يهب المسلم نفسه وما يملك لله رب العالمين^(١)، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الأنعام: ١٦٢-١٦٣] وقد كان الصديق كثير الحركة للدعوة الجديدة، وكثير البركة، أينما تحرّك أثر، وحقّق مكاسب عظيمة للإسلام، وقد كان نموذجاً حياً في تطبيقه لقول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النمل: ١٢٥].

كان تحرّك الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الدعوة إلى الله يوضح صورة من صور الإيمان بهذا الدين، والاستجابة لله ورسوله، صورة المؤمن الذي لا يقرّ له قرار، ولا يهدأ له بال؛ حتى يحقق في دنيا الناس ما آمن به، دون أن تكون انطلاقته دفعة عاطفية، مؤقتة سرعان ما تخدم، وتذبل، وتزول، وقد بقي نشاط أبي بكر وحماسه للإسلام إلى أن توفاه الله عزّ وجلّ لم يفتر، أو يضعف، أو يملّ، أو يعجز^(٢).

كانت أوّل ثمار الصديق الدّعوية دخول صفوة من خيرة الخلق في الإسلام، وهم: الزبير بن العوام، وعثمان بن عفّان، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وجاء هؤلاء الصحابة الكرام فرادى فأسلموا بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكانوا الدّعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبهم أعزّه الله وأيده، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجا، رجالاً، ونساءً، وكان كلّ من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم

(١) تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٨٧.

(٢) رسول الله في مكة، بناء وتأسيس، يحيى البيحي، مركز المربي ودار الفردوس للنشر والتوزيع القاهرة،

رعيل السابقين، الواحد،

والاثنان، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة، وحصن الرسالة، لم يسبقهم سابق، ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام^(١).

اهتمَّ الصديق بأسرته، فأسلمت أسماء، وعائشة، وعبد الله، وزوجته أم رومان، وخادمه عامر بن فهيرة، لقد كانت الصفات الحميدة، والخلال العظيمة، والأخلاق الكريمة التي تجسدت في شخصية الصديق مؤثراً في الناس عند دعوتهم للإسلام، فقد كان رصيده الخُلُقِي ضخمًا في قومه، وكبيراً في عشيرته، فقد كان رجلاً، مؤلفاً لقومه، محبباً لهم، سهلاً، أنسب قريش لقريش، بل كان فرد زمانه في هذا الفن، وكان رئيساً مكرمًا سخيًا، يبذل المال، وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد، وكان رجلاً بليغاً^(٢).

إنَّ هذه الأخلاق والصفات الحميدة لا بدَّ منها للدعاة إلى الله، وإلاَّ أصبحت دعوتهم للناس صيحة في وادٍ، ونفخة في رمادٍ، وسيرة الصديق وهي تفسر لنا فهمه للإسلام، وكيف عاش به في حياته حريٌّ بالدعاة أن يتأسوا بها في دعوة الأفراد إلى الله تعالى.

الأحاديث التي رواها عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسبب قتلها:

ومن ثمار أبي بكر الدعوية، أنه روى الأحاديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المتعلقة بجميع أبواب الدين، كالأحاديث المتعلقة بأبواب العبادات، كالصلاة والصوم والحج والزكاة والمعاملات والنكاح والطلاق وغيرها...، وكأحاديث التفسير، وكأحاديث البر والصلة، والجهاد والسير، وغيرها... وقد نقلت لنا كتب السنة عن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ روايته عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مئة وأربعين حديثاً، اتفق البخاري ومسلم منها على ستة منها، وانفرد البخاري بأحد عشر حديثاً، وانفرد مسلم بحديث واحد^(٣). وباقى الأحاديث يتنوع بين

(١) محمد رسول الله، صادق عرجون، مرجع سابق، ج ١، ص ٥٣٣.

(٢) السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي، دار المعرفة بيروت، ط ١ (١٤٠٠هـ)، ج ١، ص ٤٤٢.

(٣) الكمال في أسماء الرجال، عبد الغني المقدسي، الهيئة العامة للعبادة بطباعة ونشر القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومها، الكويت، ط ١ (٢٠١٦م)، ج ١، ص ١٥٢.

الصحيح والحسن والضعيف، أو حتى التي لم تصح.

ولا بد أن نشير إلى أن هذا العدد (١٤٢ حديثاً) يعدّ قليلاً بالنسبة للمكثرين من الصحابة الذين رووا آلاف الأحاديث عن النبي ﷺ فلدينا ستة من الصحابة، كلهم أكثر الرواية عن النبي ﷺ حتى تخطى كل واحد منهم أكثر من ألف حديث، وهم: أبو هريرة وعبد الله بن عمر وعائشة وجابر بن عبد الله وعبد الله بن عباس وأنس رضي الله عنهم جميعاً. وأكثرهم أبو هريرة الذي روى أكثر من خمسة آلاف حديثاً^(١). وهنا قد يرد سؤال: كيف روى هؤلاء الصحابة الكرام أضعاف الأحاديث التي رواها أبو بكر رضي الله عنه، وهو أكثرهم ملازمة للنبي ﷺ، وأكثرهم اطلاعاً على أحواله ﷺ وأفضلهم على الإطلاق؟!!

والجواب: إن أبا بكر رضي الله عنه قد تقدمت وفاته قبل عصر التابعين ثم اعتنائهم بسماع الأحاديث وتحصيلها، فإنه مات بعد النبي ﷺ بستين، وكان الذين في زمانه من الصحابة لا يحتاج أحد منهم أن ينقل عنه ما قد شاركه هو في روايته، فكانوا ينقلون عنه ما ليس عندهم. وكذلك انشغاله أعظم الشغل بحروب المرتدين من العرب ومانعي الزكاة، وإرساء قواعد الدولة الإسلامية، وقيامه بمهام الخلافة الكثيرة، فلم يتفرغ للجلوس في حلقات العلم ونشره، وكان على ثقة من أن بين الصحابة من يقوم في فتيا الناس^(٢). قال الإمام النووي: وسبب قلة رواياته رضي الله عنه مع تقدم صحبته وملازمته النبي ﷺ أنه تقدمت وفاته قبل انتشار الأحاديث واعتناء التابعين بسماعها وتحصيلها وحفظها^(٣).

ثالثاً: ابتلاؤه:

(١) معرفة أنواع علوم الحديث، عثمان بن عبد الرحمن ابن الصلاح، دار الفكر، سوريا ودار الفكر الحديث، لبنان، د/ ط، ص ٢٩٦.

(٢) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، عبد الستار الشيخ، دار القلم - دمشق، ط ١ (١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م)، ص ٣١٧.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات، النووي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩١.

إِنَّ سَنَةَ الْإِبْتِلَاءِ مَاضِيَةٌ فِي الْأَفْرَادِ، وَالْجَمَاعَاتِ، وَالشُّعُوبِ، وَالْأُمَمِ، وَالْأَدُولِ، وَقَدْ مَضَتْ هَذِهِ السَّنَةُ فِي الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ، وَتَحَمَّلُوا - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - مِنَ الْبَلَاءِ مَا تَنَوَّهَ الرَّوَاسِي الشَّامَخَاتِ، وَبَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ، وَدَمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَبَلَغَ بِهِمُ الْجَهْدُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَبْلُغَ، وَلَمْ يَسْلَمْ أَشْرَافُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذَا الْإِبْتِلَاءِ، فَلَقْدَ أَوْذَى أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَحُثِيَ عَلَى رَأْسِهِ التُّرَابُ، وَضُرِبَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِالنُّعَالِ، حَتَّى مَا يُعْرِفُ وَجْهَهُ مِنْ أَنْفِهِ، وَحُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ فِي ثَوْبِهِ، وَهُوَ مَا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ^(١)، فَقَدْ رَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا: أَنَّهُ لَمَّا اجْتَمَعَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانُوا ثَمَانِيَةً وَثَلَاثِينَ رَجُلًا؛ أَلَحَّ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الظُّهُورِ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ! إِنَّا قَلِيلٌ. فَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يَلْحُ حَتَّى ظَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ، وَتَفَرَّقَ الْمُسْلِمُونَ فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ كُلِّ رَجُلٍ فِي عَشِيرَتِهِ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فِي النَّاسِ خَطِييًّا، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ، فَكَانَ أَوَّلَ خُطِيبٍ دَعَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَنَارَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَضَرَبُوهُ فِي نَوَاحِي الْمَسْجِدِ ضَرْبًا شَدِيدًا، وَوَطِئَ أَبُو بَكْرٍ، وَضُرِبَ ضَرْبًا شَدِيدًا، وَدَنَا مِنْهُ الْفَاسِقُ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِنَعْلَيْنِ مَخْصُوفَتَيْنِ، وَيُحَرِّفُهُمَا لَوَجْهِهِ، وَنَزَا عَلَى بَطْنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَتَّى مَا يُعْرِفُ وَجْهَهُ مِنْ أَنْفِهِ، وَجَاءَتْ بَنُو تَيْمٍ يَتَعَادُونَ، فَأَجَلَّتِ الْمُشْرِكِينَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَحَمَلَتْ بَنُو تَيْمٍ أَبَا بَكْرٍ فِي ثَوْبٍ حَتَّى أَدْخَلُوهُ مَنْزِلَهُ، وَلَا يَشْكُونَ فِي مَوْتِهِ، ثُمَّ رَجَعَتْ بَنُو تَيْمٍ فَدَخَلُوا الْمَسْجِدَ، وَقَالُوا: وَاللَّهِ لَئِنْ مَاتَ أَبُو بَكْرٍ لَنَقْتُلَ عَتَبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَجَعَلَ أَبُو قُحَافَةَ (وَالدَّه) وَبَنُو تَيْمٍ يَكْلُمُونَ أَبَا بَكْرٍ حَتَّى أَجَابَ، فَتَكَلَّمَ آخِرَ النَّهَارِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَمَسُّوا مِنْهُ بِالسِّنْتِهِمْ، وَعَذَلُوهُ، وَقَالُوا لَا مَهْ أُمُ الْخَيْرِ: انْظُرِي أَنْ تَطْعِمِيهِ شَيْئًا، أَوْ تَسْقِيهِ إِيَّاهُ، فَلَمَّا خَلَتْ بِهِ؛ أَلَحَّتْ عَلَيْهِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِي عِلْمٌ بِصَاحِبِكَ! فَقَالَ: اذْهَبِي إِلَى أُمِّ جَمِيلَ بِنْتِ الْخَطَّابِ فَسَأَلِيهَا عَنْهُ. فَخَرَجَتْ؛ حَتَّى جَاءَتْ أُمُّ جَمِيلَ، فَقَالَتْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ سَأَلَكَ عَنْ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَتْ: مَا

(١) التَّمَكِينُ لِلْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، مُحَمَّدُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ يَوْسُفَ، دَارُ السَّلَامِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّرْجُمَةِ،

أعرف أبا بكرٍ، ولا محمَّد بن عبد الله، وإن كنت تحيِّين أن أذهب معك إلى ابنك. قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً ذنيفاً، فذنت أمٌ جميل، وأعلنت بالصَّياح، وقالت: والله إن قوماً نالوا منك لأهل فسق وكفر! إنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم، قال: فما فعل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالت: هذه أمُّك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالمٌ صالحٌ، قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم. قال: فإنَّ الله عليَّ ألا أذوق طعاماً، ولا أشرب شراباً، أو اتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأمهلنا حتى إذا هدأت الرَّجُلُ، وسكن الناس، خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاها على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: فأكبَّ عليه رسولُ الله فقَبَّله، وأكبَّ عليه المسلمون، ورقَّ له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رقةً شديدةً، فقال أبو بكر: بأبي، وأمِّي يرسل الله! ليس بي بأسٌ إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمِّي برةٌ بولدها، وأنت مُباركٌ، فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى الله أن يستنفذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودعاها إلى الله، فأسلمت^(١).

إنَّ هذا الحدث العظيم في طيَّاته دروس، وعبرٌ لكلِّ مسلمٍ حريصٍ على الاقتداء بهؤلاء الصَّحاب الكرام، ونحاول أن نستخرج بعض هذه الدُّروس التي منها:

١ - حرص الصَّدِّيق على إعلان الإسلام، وإظهاره أمام الكفَّار، وهذا يدلُّ على قوَّة إيمانه، وشجاعته، وقد تحمَّل الأذى العظيم، حتى إنَّ قومه كانوا لا يشكُّون في موته، لقد أشرب قلبه حبَّ الله ورسوله أكثر من نفسه، ولم يعد يهتمُّه - بعد إسلامه - إلا أن تعلقوا راية التَّوحيد، ويرتفع النِّداء: لا إله إلا الله محمَّد رسول الله في أرجاء مكَّة؛ حتى لو كان الثَّمَن حياته، وكاد أبو بكرٍ فعلاً أن يدفع حياته ثمناً لعقيده، وإسلامه.

٢ - إصرار أبي بكرٍ على الظُّهور بدعوة الإسلام وسط الطُّغيان الجاهليِّ؛ رغبةً في إعلام الناس بذلك الدِّين الذي خالطت بشاشته القلوب، رغم علمه بالأذى الذي قد يتعرَّض له،

(١) السِّيرة النَّبَوِّية لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الفكر، بيروت، ط ٢ (١٣٩٨ هـ)، ج ١، ص ٤٣٩ - ٤٤١.

وصحبه، وما كان ذلك إلا لأنه قد خرج من حظ نفسه.

٣- حبُّ الله ورسوله تغلغل في قلب أبي بكرٍ على حبه لنفسه، بدليل: أنه رغم ما ألم به كان أوَّل ما سأل عنه: ما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قبل أن يطعم، أو يشرب، وأقسم: أنه لن يفعل حتى يأتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وهكذا يجب أن يكون حبُّ الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند كُلِّ مسلمٍ أحبَّ إليه ممَّا سواهما؛ حتى لو كلفه ذلك نفسه، وماله^(١).

٤- إنَّ العصبية القبليَّة كان لها في ذلك الحين دورٌ في توجيه الأحداث، والتعامل مع الأفراد؛ حتى مع اختلاف العقيدة، فهذه قبيلة أبي بكرٍ تهدد بقتل عتبة؛ إن مات أبو بكرٍ^(٢).

٥- تظهر مواقف رائعة لأمِّ جميل بنت الخطاب، توضح لنا كيف تربت على حُبِّ الدعوة، والحرص عليها، وعلى الحركة لهذا الدين، فحينما سألتها أم أبي بكر عن رسول الله قالت: ما أعرف أبا بكرٍ، ولا محمَّد بن عبد الله، فهذا تصرُّفٌ حذرٌ سليمٌ، لأنَّ أمَّ الخير لم تكن ساعته مسلمة، وأمُّ جميل كانت تخفي إسلامها، ولا تؤذ أن تعلم به أمُّ الخير، وفي ذات الوقت أخفت عنها مكان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخافة أن تكون عينا لقريش^(٣)، وفي نفس الوقت حرصت أمُّ جميل أن تطمئنَّ على سلامة الصديق، ولذلك عرضت على أمَّ الخير أن تصحبها إلى ابنها، وعندما وصلت إلى الصديق كانت أم جميل في غاية الحيلة، والحذر من أن تتسرَّب منها أيُّ معلومة عن مكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبلغت الصديق بأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سالمٌ صالحٌ^(٤)، ويتجلَّى الموقف الحذر من الجاهلية التي تفتن النَّاس عن دينهم في خروج الثلاثة عندما هدأت الرَّجُل، وسكن النَّاس^(٥).

(١) استخلاف أبي بكرٍ الصديق، جمال عبد الهادي، دار الوفاء مصر، ط ١ (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م)، ص ١٣١-١٣٢.

(٢) محنة المسلمين في العهد المكي، سليمان السويكة، مكتبة التوبة، د/ ط، ص ٧٩.

(٣) السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية، إبراهيم علي محمد أحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، ط ١ (١٤١٧هـ-١٩٩٦م)، ص ٥٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٥١.

(٥) استخلاف الصديق، جمال عبد الهادي، مرجع سابق، ص ١٣٢.

٦- يظهر بَرُّ الصَّدِيقِ بأمِّه وحرصه على هدايتها في قوله لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذه أمِّي بَرَّةٌ بولدها، وأنت مباركٌ، فادعها إلى الله، وادع الله لها عسى أن يستنفذها بك من النار. إنه الخوف من عذاب الله، والرغبة في رضاه، وجنته، ولقد دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُمِّ أبي بكرٍ بالهداية، فاستجاب الله له، وأسلمت أُمُّ أبي بكرٍ، وأصبحت من ضمن الجماعة المؤمنة المباركة التي تسعى لنشر دين الله تعالى، ونلمس رحمة الله بعباده، ونلحظ من خلال الحدث قانون المنحة بعد المحنة.

٧- إنَّ من أكثر الصَّحابة الذين تعرضوا لمحنة الأذى والفتنة بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكرٍ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نظراً لصحبته الخاصة له، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرَّض فيها للأذى من قومه، فينبري الصَّدِيق مدافعاً عنه، وفادياً إياه بنفسه، فيصيبه من أذى القوم، وسفههم، هذا مع أنَّ الصَّدِيق يعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل، والإحسان^(١).

رابعاً: دفاعه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

من صفات الصَّدِيق التي تميَّز بها: الجرأة، والشجاعة، فقد كان لا يهاب أحداً في الحقِّ، ولا تأخذه لومة لائم في نصرة دين الله، والعمل له، والدفاع عن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعن عروة بن الزُّبير، قال: سألت ابن عمرو بن العاص بأن يخبرني بأشدَّ شيء صنعته المشركون بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: بينما النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي في حجر الكعبة، إذ أقبل عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: ﴿أَنْتَقِلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]^(٢).

وفي رواية أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لقد ضربوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّةً حتى غشي عليه، فقام أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجعل ينادي: ويلكم! أنقتلون رجلاً أن يقول ربي الله^(٣)!.

- (١) محنة المسلمين في العهد المكي، سليمان السويقة، مرجع سابق، ص ٧٥.
- (٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة - باب: ما لقي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه من المشركين بمكة
- (٣) المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر = العسقلاني (ت ٨٥٢هـ، المحقق: (١٧) رسالة علمية قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود، تنسيق:

وفي حديث أسماء: فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقال: أدرك صاحبك، قالت: فخرج من عندنا وله غدائر أربع، وهو يقول: ويلكم، أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! فلهوا عنه، وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر، فجعل لا يمَسُّ شيئاً من غدائره إلا رجع معه^(١).

وأما في حديث علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقد قام خطيباً، وقال: يا أيها الناس! من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين! فقال: أما إنني ما بارزني أحدٌ إلا انتصفت منه، ولكن هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لثلاً يهوي عليه أحدٌ من المشركين؟ فوالله ما دنا منه أحدٌ إلا أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يهوي إليه أحدٌ إلا أهوى إليه! فهذا أشجع الناس. قال: ولقد رأيت رسول الله، وأخذته قريش، فهذا يحاذه، وهذا تلتله، ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً، فوالله ما دنا منه أحدٌ إلا أبو بكر، يضرب، ويجاهد هذا، ويتل هذا، وهو يقول: ويلكم أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟! ثم رفع عليّ بردة كانت عليه، فبكى حتى اخضلت لحيته، ثم

قال: أنشدكم الله: أمؤمن ال فرعون خيرٌ أم هو؟ فسكت القوم، فقال عليّ: فوالله لساعة من أبي بكر خيرٌ من ملء الأرض من مؤمن ال فرعون! ذاك رجلٌ يكتُم إيمانه، وهذا رجلٌ أعلن إيمانه^(٢).

هذه صورة مشرقة تبين طبيعة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، وتوضح ما تحمله الصديق من الألم والعذاب في سبيل الله تعالى، كما تعطي ملامح واضحة عن شخصيته الفذة، وشجاعته النادرة التي شهد له بها الإمام عليّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في خلافته؛ أي: بعد عقود من الزمن، وقد تأثر عليّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حتى بكى، وأبكى.

إنَّ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوَّل من أُوذي في سبيل الله بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأوَّل من

د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشري، دار العاصمة، دار الغيث - السعودية، ط ١ (١٤١٩هـ)،

كتاب المناقب، باب فضل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم ٣٨٧٩، ج ١٥، ص ٧٢٤.

(١) منهاج السنّة، مرجع سابق، ج ٣، ص ٤.

(٢) البداية والنهاية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

دافع عن رسول الله، وأول من دعا إلى الله^(١)، وكان الذراع اليمنى لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتفرغ للدعوة، وملازمة رسول الله، وإعانتة على من يدخلون الدعوة في تربيتهم، وتعليمهم، وإكرامهم، فهذا أبو ذرٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يقص لنا حديثه عن إسلامه؛ ففيه: (... فقال أبو بكر: ائذن لي يا رسول الله في طعامه الليلة، وأنه أطعمه من زبيب الطائف^(٢)).

وهكذا كان الصديق في وقوفه مع رسول الله يستهين بالخطر على نفسه، ولا يستهين بخطرٍ يصيب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَلَّ أو كثر حيثما راه واستطاع أن يزود عنه العادين عليه، وإنه ليراهم اخذين بتلابيبه فيدخل بينهم وبينه، وهو يصيح بهم: ويلكم ﴿أَنْقُتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] فينصرفون عن النبي وينحون عليه يضربونه، ويجذبونه من شعره، فلا يدعونه إلا وهو صديق^(٣).

خامساً: إنفاقه الأموال لتحرير المعذبين في الله:

تضاعف أذى المشركين لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأصحابه مع انتشار الدعوة في المجتمع المكِّي الجاهلي، حتى وصل إلى ذروة العنف، وخاصة في معاملة المستضعفين من المسلمين، فنكلت بهم، لفتنتهم عن عقيدتهم، وإسلامهم، ولتجعلهم عبدة لغيرهم، ولتنفّس عن حقدّها، وغضبها بما تصبّه عليهم من العذاب.

التي سارع لها الفتيان، وهم يتحدّون تقاليد، وأعراف ابائهم الكبار لامست قلب هذا العبد المرمي المنسي، فأخرجته إنساناً جديداً في الحياة^(٤)، قد تفجّرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن امن بهذا الدين، وانضم إلى محمّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإخوانه في موكب الإيمان العظيم، وعندما علم سيّده أميّة بن خلف؛ راح يهدّده تارةً، ويغريه أطواراً، فما وجد عند بلال غير العزيمة، وعدم الاستعداد للعودة إلى الوراء إلى الكفر، والجاهليّة، والضلال، فحنق

(١) انظر: أبو بكر الصديق، محمد عبد الرحمن قاسم، مرجع سابق، ص ٢٩-٣٢.

(٢) الخلافة الراشدة، يحيى اليحيى، مرجع سابق، ص ١٥٦.

(٣) عبقرية الصديق للعقاد، مرجع سابق، ص ٨٧. «صديق»: المشقوق الثوب.

(٤) التربية القيادية، مرجع سابق، ١، ص ١٣٦.

عليه أُمِّيَّةٌ، وَقَرَّرَ أَنْ يَعَذِّبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجَهُ إِلَى شَمْسِ الظَّهْرِ فِي الصَّحْرَاءِ بَعْدَ أَنْ مَنَعَ عَنْهُ الطَّعَامَ، وَالشَّرَابَ يَوْمًا، وَلَيْلَةً، ثُمَّ أَلْقَاهُ عَلَى ظَهْرِهِ فَوْقَ الرِّمَالِ الْمَحْرَقَةِ الْمَلْتَهَةِ، ثُمَّ أَمَرَ غُلَمَانَهُ، فَحَمَلُوا صَخْرَةً عَظِيمَةً، وَضَعُوهَا فَوْقَ صَدْرِ بِلَالٍ، وَهُوَ مَقِيدُ الْيَدَيْنِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: لَا تَزَالْ هَكَذَا حَتَّى تَمُوتَ، أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، وَتَعْبُدَ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَأَجَابَ بِلَالٌ بِكُلِّ صَبْرٍ وَثَبَاتٍ: أَحَدٌ، أَحَدٌ. وَبَقِيَ أُمِّيَّةٌ بَنَ خَلْفَ مَدَّةٍ، وَهُوَ يَعَذِّبُ بِلَالًا بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ الْبَشْعَةِ^(١)، فَقَصَدَ الصَّدِيقُ مَوْقِعَ التَّعْذِيبِ، وَفَاوَضَ أُمِّيَّةَ بَنَ خَلْفٍ، وَقَالَ لَهُ: (أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذَا الْمَسْكِينِ؟ حَتَّى مَتَى! قَالَ: أَنْتَ أَفْسَدْتَهُ، فَأَنْقِذْهُ مِمَّا تَرَى، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَفْعَلْ، عِنْدِي غَلَامٌ أَسْوَدُ أَجْلَدُ مِنْهُ، وَأَقْوَى عَلَى دِينِكَ أَعْطِيكَ بِهِ، قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ، فَقَالَ: هُوَ لَكَ، فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - غَلَامَهُ ذَلِكَ، وَأَخَذَهُ فَأَعْتَقَهُ^(٢)، وَفِي رِوَايَةٍ: اشْتَرَاهُ بِسَبْعِ أَوَاقٍ، أَوْ بِأَرْبَعِينَ أَوْقِيَّةً ذَهَبًا^(٣).

مَا أَصْبَرَ بِلَالًا، وَمَا أَصْلَبَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ! فَقَدْ كَانَ صَادِقَ الْإِسْلَامِ، طَاهِرَ الْقَلْبِ، وَلِذَلِكَ صَلَّبَ، وَلَمْ تَلِنْ قَنَاتُهُ أَمَامَ التَّحْدِيَّاتِ، وَأَمَامَ صُنُوفِ الْعَذَابِ، وَكَانَ صَبْرَهُ وَثَبَاتُهُ مِمَّا يَغِيظُهُمْ، وَيَزِيدُ حَنَقَهُمْ، خَاصَّةً: أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلَ الْوَحِيدَ مِنْ ضِعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي ثَبَتَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَلَمْ يُوَاتِدِ الْكُفَّارَ فِيمَا يَرِيدُونَ، مَرْدِّدًا كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ بِتَحَدٍّ صَارِخٍ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ^(٤).

وَبَعْدَ كُلِّ مَحْنَةٍ مُنَحَّةٍ، فَقَدْ تَخَلَّصَ بِلَالٌ مِنَ الْعَذَابِ، وَالنَّكَالِ، وَتَخَلَّصَ مِنْ أَسْرِ الْعِبُودِيَّةِ، وَعَاشَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ بَقِيَّةَ حَيَاتِهِ مَلَازِمًا لَهُ، وَمَاتَ رَاضِيًا عَنْهُ.

وَاسْتَمَرَّ الصَّدِيقُ فِي سِيَاسَةِ فَكِّ رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ الْمَعْدَّيْنِ، وَأَصْبَحَ هَذَا الْمَنْهَجُ مِنْ ضَمَنِ الْخَطَّةِ الَّتِي تَبَنَّتْهَا الْقِيَادَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِمَقَاوِمَةِ التَّعْذِيبِ؛ الَّذِي نَزَلَ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ، فَدَعَمَ

(١) عَتِيقُ الْعَتَقَاءِ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ، مُحَمَّدُ عَلِيٌّ الْبَغْدَادِيُّ، دَارُ النَّدْوَةِ الْجَدِيدَةِ، بَيْرُوتَ، ط ١ (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م)، ص ٣٩-٤٠.

(٢) السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هَشَامٍ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ج ١، ص ٣٩٤.

(٣) التَّرْبِيَةُ الْقِيَادِيَّةُ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ج ١، ص ١٤٠.

(٤) مَحْنَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَهْدِ الْمَكِّيِّ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ص ٩٢.

الدَّعْوَةُ بِالْمَالِ، وَالرَّجَالِ، وَالْأَفْرَادِ، فَرَّاحٌ يَشْتَرِي الْعَبِيدَ، وَالْإِمَاءَ الْمَمْلُوكِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ؛ مِنْهُمْ عَامِرُ بْنُ فَهيرةَ شَهِدَ بَدْرًا، وَأَحَدًا، وَقُتِلَ يَوْمَ بَثْرِ مَعُونَةَ شَهِيدًا، وَأُمُّ عَيْسَى، وَزَنْبِرَةُ، وَأَصِيبُ بَصْرَهَا حِينَ أَعْتَقَهَا، فَقَالَتْ قَرِيشٌ: مَا أَذْهَبَ بَصْرَهَا إِلَّا اللَّاتُ وَالْعَزَى، فَقَالَتْ: كَذَبُوا وَبَيَّتَ اللَّهُ مَا تَضُرُّ اللَّاتُ وَالْعَزَى، وَمَا تَنْفَعَانِ، فَرَدَّ اللَّهُ بَصْرَهَا^(١). وَأَعْتَقَ النَّهْدِيَّةَ، وَبَتَّتَهَا، وَكَانَتْ لَا مَرَأَةَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ، مَرَّ بِهِمَا وَقَدْ بَعَثْتُهُمَا سَيِّدَتُهُمَا بِطَحِينٍ لَهَا، وَهِيَ تَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَعْتَقُكُمَا أَبَدًا! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَلَّ^(٢) يَا أُمَّ فُلَانٍ، فَقَالَتْ: حَلَّ أَنْتِ، أَفْسَدْتُهُمَا، فَأَعْتَقْتُهُمَا، قَالَ: فَبِكُمُ هُمَا؟ قَالَتْ: بِكَذَا وَكَذَا. قَالَ: قَدْ أَخَذْتُهُمَا، وَهُمَا حَرَّتَانِ، أَرْجِعَا إِلَيْهَا طَحِينَهَا. قَالَتْ: أَوْ نَفَرُغْ مِنْهُ يَا أَبَا بَكْرٍ ثُمَّ نَرُدُّهُ إِلَيْهَا؟ قَالَ: وَذَلِكَ إِنْ شِئْتُمَا^(٣).

وهنا وقفة تأمل ترينا كيف سوَّى الإسلام بين الصَّديق والجاريين حتى خاطبته خطاب النَّدِّ لِلنَّدِّ، لَا خُطَابَ الْمَسُودِ لِلسَّيِّدِ، وَتَقَبَّلَ الصَّدِيقُ - عَلَى شَرْفِهِ وَجَلَالَتِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ - مِنْهُمَا ذَلِكَ، مَعَ أَنَّهُ لَهُ يَدٌ عَلَيْهِمَا بِالْعَتَقِ، وَكَيْفَ صَقَلَ الْإِسْلَامُ الْجَارِيَيْنِ، حَتَّى تَخَلَّقَتْ هَذَا الْخَلْقَ الْكَرِيمَ، وَكَانَ يُمْكِنُهُمَا وَقَدْ أَعْتَقْتَا وَتَحَرَّرْتَا مِنَ الظُّلْمِ أَنْ تَدْعَا لَهَا طَحِينَهَا يَذْهَبُ أَدْرَاجَ الرِّيَّاحِ، أَوْ يَأْكُلُهُ الْحَيَوَانُ وَالطَّيْرُ، وَلَكِنَّهُمَا أَبَتَا - تَفْضُلًا - إِلَّا أَنْ تَفْرُغَا مِنْهُ، وَتَرُدَّاهُ إِلَيْهَا^(٤).

وَمَرَّ الصَّدِيقُ بِجَارِيَةٍ بَنِي مُؤَمِّلٍ - حَيٍّ مِنْ بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ - وَكَانَتْ مُسْلِمَةً، وَعَمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَعِذُّهَا لِتَتْرَكَ الْإِسْلَامَ، وَهُوَ يَوْمِنُ مَشْرُكَ يَضُرُّهَا، حَتَّى إِذَا مَلَ؛ قَالَ: إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ أَنِّي لَمْ أَتْرُكْ إِلَّا عَنْ مَلَالَةٍ، لِتَقُولَ: كَذَلِكَ فَعَلَ اللَّهُ بِكَ. فَابْتَاعَهَا أَبُو بَكْرٍ فَأَعْتَقَهَا^(٥).

هَكَذَا كَانَ وَاهِبُ الْحَرِيَّاتِ، وَمَحَرَّرُ الْعَبِيدِ، شَيْخُ الْإِسْلَامِ الْوَقُورُ؛ الَّذِي عُرِفَ بَيْنَ قَوْمِهِ بِأَنَّهُ يَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكُلَّ، وَيُقْرِئُ الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ

(١) السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٣.

(٢) حل: تحللي من يمينك.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٣.

(٤) السيرة النبوية لأبي شعبة، دار القلم دمشق، ط ٢ (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)، ج ١، ص ٣٤٦.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٩٣.

الحق، ولم يغمس في إثم في جاهليته، أليفٌ مألوفٌ، يسيل قلبه رقةً، ورحمةً على الضعفاء، والأرقاء، أنفق جزءاً كبيراً من ماله في شراء العبيد، وعتقهم لله، وفي الله، قبل أن تنزل التشريعات الإسلامية المحببة في العتق، والواعدة عليه أجزل الثواب^(١).

كان المجتمع المكي يتندر بأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي يبذل هذا المال كله لهؤلاء المستضعفين، أمّا في نظر الصديق؛ فهؤلاء إخوانه في الدين الجديد، فكل واحد من هؤلاء لا يساويه عنده مشركو الأرض، وطغماتها، وبهذه العناصر وغيرها تُبنى دولة التوحيد، وتصنع حضارة الإسلام الرائعة^(٢). ولم يكن الصديق يقصد بعمله هذا محمداً، ولا جاهاً، ولا دنياً، وإنما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام، لقد قال له أبوه ذات يوم: يا بني! إنني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت، أعتقت رجالاً جلدًا يمنعوك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أبتِ إنني إنما أريد ما أريد الله عز وجل. فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصديق قراناً يُتلى إلى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۚ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۖ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۚ فَأَنْذَرْتُمْكُمْ نَارًا تَلْظَى ۚ لَا يَصْلُهَا إِلَّا الْآسَفَى ۚ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۖ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۖ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۚ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۖ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۚ وَلَسَوْفَ يَرَى ۖ﴾ [الليل: ٥-٢١].

لقد كان الصديق من أعظم الناس إنفاقاً لماله فيما يرضي الله، ورسوله.

كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلامية الأولى قمةً من قمم الخير، والعطاء، وأصبح هؤلاء العبيد بالإسلام أصحاب عقيدة، وفكرة، يناقشون بها، وينافحون عنها، ويجاهدون في سبيلها، وكان إقدام أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على شرائهم ثم عتقهم دليلاً على عظمة هذا الدين، ومدى تغلغله في نفسية الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحيا هذا

(١) السيرة النبوية لأبي شعبة، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٥.

(٢) التربية القيادية، مرجع سابق، ج ١، ص ٣٤٢.

المثل الرفيع، والمشاعر السامية؛ ليتِمَّ التلاحم، والتعايش، والتعاضد بين أبناء الأمة؛ التي يتعرّض أبنائها للإبادة الشاملة من قبل أعداء العقيدة، والدين.

سادساً: هجرته الأولى وموقف ابن الضغنة منها:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمرّ علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طرفي النهار: بكرة، وعشيّة، فلما ابتلي المسلمون؛ خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة حتّى برك الغماد، لقيه ابن الضغنة -وهو سيّد القارة^(١)- فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي، فأريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربّي، قال ابن الضغنة: فإنّ مثلك يا أبا بكر! لا يُخرج، ولا يُخرج، إنّك تكسب المعدوم، وتصل الرّحم، وتحمل الكلّ، وتقرّي الضيف، وتعين على نوائب الحق. فأنا لك جارّ، ارجع، واعبد ربك ببلدك. فرجع، وارتحل معه ابن الضغنة، فطاف ابن الضغنة عشيّة في أشراف قريش، فقال لهم: إنّ أبا بكر لا يخرج مثله، ولا يُخرج، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرّحم، ويحمل الكلّ، ويقرّي الضيف، ويُعين على نوائب الحق؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الضغنة، وقالوا لابن الضغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فإنّا نخشى أن يفتن نساءنا، وأبناءنا. فقال ذلك ابن الضغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره. ثمّ بدا لأبي بكر، فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلّي فيه، ويقرأ القرآن، فتقدّف عليه نساء المشركين، وأبنائهم، وهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً لا يملك عينه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الضغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنّنا كنا أجراً أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربّه في داره، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة، والقراءة فيه، وإنّا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فإنّه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربّه في داره فعل، وإن أباي إلا أن يعلن بذلك؛ فسله أن يردّ

(١) ابن الدغنة: قيل: اسمه الحارث بن يزيد، وقيل: مالك، وقيل: ربيعة بن رفيع. والقارة: قبيلة من بني الهون بن خزيمة.

إليك ذمته، فإنّا قد كرهنّا أن نُخْفِرَكَ، ولسنا بمقرّين لأبي بكرٍ الاستعلاء.

قالت عائشة: فأتى ابن الضغنة إلى أبي بكرٍ، فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإنّما أن تقتصر على ذلك، وإنّما أن تُرجع إليّ ذمتي، فإنّي لا أحب أن تسمع العرب أنّي أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكرٍ: فإنّي أردُّ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عزَّ وجلَّ^(١).

وحين خرج من جوار ابن الضغنة، يعني أبا بكر، لقيه سفيهٌ من سفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً، فمرَّ بأبي بكر الوليد بن المغيرة - أو العاص بن وائل - فقال له أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا ترى ما يصنع هذا السّفيه؟ فقال: أنت فعلت ذلك بنفسك، وهو يقول: أي ربّي ما أحلمك! أي ربّي ما أحلمك! أي ربّي ما أحلمك^(٢)! وفي هذه القصّة دروسٌ وعبرٌ كثيرةٌ منها:

١- كان أبو بكرٍ في عزٍّ من قومه قبل بعثة محمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهاوّه ابن الضغنة يقول له: مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج مثله، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرّحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأبو بكرٍ لم يدخل في دين الله طلباً لجاهٍ، أو سلطانٍ، وما دفعه إلى ذلك إلّا حبُّ الله، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ممّا يترتّب على ذلك من ابتلاءات؛ أي: أنّه لم يكن له تطلّعات سوى مرضاة الله تعالى، إنّه يريد أن يفارق الأهل، والوطن، والعشيرة؛ ليعبد ربّه، لأنّه حيل بينه وبين ذلك في وطنه^(٣).

٢- إن زاد الصّدّيق في دعوته القرآن الكريم، ولذلك اهتمَّ بحفظه، وفهمه، وفقهه، والعمل به، وأكسبه الاهتمام بالقرآن الكريم براعةً في تبليغ الدّعوة، وروعةً في الأسلوب، وعمقاً في الأفكار، وتسلسلاً عقلياً في عرض الموضوع الذي يدعو إليه، ومراعاةً لأحوال السّامعين، وقوةً في البرهان، والدّلّيل^(٤).

(١) فتح الباري، مرجع سابق، ج ٧، ص ٢٧٤.

(٢) البداية والنهاية، مرجع سابق، ج ٣، ص ٩٥.

(٣) استخلاف أبي بكر الصّدّيق، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٤) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين، مرجع سابق، ص ٨٨.

وكان الصديق يتأثر بالقران الكريم، ويبكي عند تلاوته، وهذا يدل على رسوخ يقينه، وقوة حضور قلبه مع الله عزَّجَل، ومع معاني الآيات التي يتلوها. والبكاء مبعثه قوة التأثير إِمَّا بحزنٍ شديد، أو فرحٍ غامرٍ، والمؤمن الحقُّ يظلُّ بين الفرح بهداية الله تعالى إلى الصُّراط المستقيم، والإشفاق من الانحراف قليلاً عن هذا الصراط، وإذا كان صاحب إحساسٍ حيٍّ، وفكرٍ يقظٍ كأبي بكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فَإِنَّ هذا القران يذكرُّ بالحياة الآخرة وما فيها من حسابٍ، وعقابٍ، أو ثوابٍ، فيظهر أثر ذلك في خشوع الجسم، وانسكاب العبرات، وهذا المظهر يؤثر كثيراً على مَنْ شاهده، ولذلك فزع المشركون من مظهر أبي بكر المؤثر، وحشوا على نسائهم، وأبنائهم أن يتأثروا به، فدخلوا في الإسلام^(١).

لقد تربى الصديق على يدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحفظ كتاب الله تعالى، وعمل به في حياته، وتأمَّل فيه كثيراً، وكان لا يتحدث بغير علمٍ، فعندما سئل عن آية لا يعرفها أجاب بقوله: أَيُّ أرضٍ تسعني، أو أَيُّ سماءٍ تُظِلُّني إذا قلت في كتاب الله ما لم يُرد الله^(٢). ومن أقواله التي تدلُّ على تدبُّره، وتفكُّره في القران الكريم قوله: إِنَّ الله ذكر أهل الجنة، فذكرهم بأحسن أعمالهم، وغفر لهم سيئاتها، فيقول الرَّجل: أين أنا مِنْ هؤلاء؟! يعني: حسنهما، فيقول قائلٌ: لست من هؤلاء؛ يعني: وهو منهم^(٣).

وكان يسأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما استشكل عليه بأدبٍ، وتقديرٍ، واحترامٍ، فلمَّا نزل قوله سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَحِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] قال أبو بكر: يراسل الله! قد جاءت قاصمة الظهر، وأئنا لم يعمل سوءاً؟ فقال: «يا أبا بكر! أَلست تنصب؟ أَلست تحزن؟ أَلست

(١) التاريخ الإسلامي للحميدي، دار الدعوة، ط ١ (١٩٩٧م)، ج ١٩، ص ٢٠٩.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي، مرجع سابق، ص ١١٧ هذه الرواية فيها انقطاع.

(٣) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم رَحِمَهُ اللهُ، وساعده: ابنه محمد وفقه الله، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة - السعودية، ط (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م)، ج ٦، ص ٣٥٣.

تصيبك الألواء؟ فذلك ممّا تجزون به»^(١).

وقد فسّر الصّدّيق بعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] قال فيها: فلم يلتفتوا عنه يمنة ولا يسرة، فلم يلتفتوا بقلوبهم إلى ما سواه، لا بالحب، ولا بالخوف، ولا بالرجاء، ولا بالسؤال، ولا بالتوكل عليه، بل لا يحبون إلا الله، ولا يحبون معه أنداداً، ولا يحبون إلا إياه، لا لطلب منفعة، ولا لدفع مضرة، ولا يخافون غيره كائناً من كان، ولا يسألون غيره، ولا يتشرّفون بقلوبهم إلى غيره^(٢)، وغير ذلك من الآيات.

إنّ الدّعاة إلى الله عليهم أن يكونوا في صحبة مستمرة للقران الكريم، يقرؤونه ويتدبرونه، ويستخرجون كنوزه، ومعارفه للناس، وأن يظهرها للناس ما في القران من إعجاز بياني، وعلمي، وتشريعي، وما فيه من سبل إنقاذ الإنسانيّة المعذّبة من ماسيها، وحروبها، بأسلوب يناسب العصر، ويكافئ ما وصل إليه الناس من تقدّم في وسائل الدّعوة، والدّعاية، ولقد أدرك أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كيف تكون قراءة القران الكريم في المسجد على ملأ من قریش وسيلة مؤثّرة من وسائل الدعوة إلى الله^(٣).

سابعاً: بين قبائل العرب في الأسواق:

قد علمنا: أنّ الصّدّيق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كان عالمًا بالأنساب، وله فيها الباع الطّويل، قال الشّيوطي - رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: رأيت بخطّ الحافظ الذهبي - رَحِمَهُ اللَّهُ - من كان فرد زمانه في فنه... أبو بكر في النسب^(٤)، ولذلك استخدم الصّدّيق هذا العلم الفياض وسيلة من وسائل الدّعوة؛ ليعلم كلّ ذي خبرة كيف يستطيع أن يسخر ذلك في سبيل الله، وعلى اختلاف التخصصات، وألوان المعرفة، سواء كان علمه نظرياً، أو تجريبيّاً، أو كان ذا مهنة مهمّة في

(١) أحمد (١/ ١١) وقال الشيخ شاکر: أسانيدھا ضعافٌ. وهو صحيحٌ بطرقه، وشواهدہ. انظر: مسند

الإمام أحمد، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم ٧١.

(٢) مجموع الفتاوى، مرجع سابق، ج ٢٨، ص ٣٢.

(٣) تاريخ الدّعوة الإسلامية في عهد الخلفاء، مرجع سابق، ص ٩٥.

(٤) تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ١٠٠.

حياة الناس^(١)، وسوف نرى الصديق يصحب رسول الله ﷺ عندما عرض نفسه على قبائل العرب، ودعاهم إلى الله، كيف وظّف هذا العلم لدعوة الله، فقد كان الصديق خطيباً مفوّهاً له القدرة على توصيل المعاني بأحسن الألفاظ، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب عن النبي ﷺ في حضوره، وغيبته، فكان النبي ﷺ إذا خرج في الموسم يدعو (أي أبو بكر) الناس إلى متابعة كلامه تمهيداً، وتوطئة لما يبلغ الرسول، معونة له، لا تقدّمًا بين يدي الله ورسوله^(٢).

وكان علمه في النسب، ومعرفة أصول القبائل مساعداً له على التّعامل معها، فعن عليّ بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: لما أمر الله عزّ وجلّ نبيّه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب؛ خرج؛ وأنا معه... إلى أن قال: ثمّ دفعنا إلى مجلسٍ آخر عليه السّكينة، والوقار، فتقدّم أبو بكر، فسلم، فقال: من القوم؟ قالوا: من بني شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ وقال: بأبي أنت وأمي، ليس وراء هؤلاء عذرٌ من قومهم، وهؤلاء غرر الناس، وفيهم مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والثّعمان بن شريك، وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم لساناً، وجمالاً، وكان له غديرتان تسقطان على تربيته، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنّنا لا نزيد على الألف، ولن تغلب الألف من قلة، فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: إنّنا لأشدّ ما نكون غضباً حين نلقى، وأشدّ ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنّا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسّلاح على اللّقاح، والنّصر من عند الله يديلنا مرّةً ويديل علينا أخرى، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إنّ كان بلغكم أن رسول الله ﷺ فيها هو ذا. فقال مفروق: إلّا ما تدعوننا يا أخا قريش؟! فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني، وتنصروني فإن قريشاً قد تظاهرت على الله، وكذّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد». فقال مفروق: وإلّا ما تدعو أيضاً يا أخا قريش! فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا

(١) تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٢) أبو بكر الصديق لمحمد عبد الرحمن قاسم، ص ٩٢.

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فقال مفروق: دعوتَ والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قومٌ كذبوك، وظاهروا عليك، ثم ردَّ الأمر إلى هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانئ: قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش! وإنِّي أرى أن تركنا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلسته إلينا ليس له أوَّل ولا آخرٌ لذلَّ في الرأي، وقلة نظرٍ في العاقبة، إنَّ الرِّزَّةَ مع العجلة، وإنَّا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً، ولكن نرجع، وترجع، وننظر، ثمَّ كأنه أحبَّ أن يشركه المشنى بن حارثة فقال: وهذا المشنى شيخنا، وصاحب حربنا، فقال المشنى - وأسلم بعد ذلك: قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش! والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا، ومتابعتنا دينك، وإنَّا إنما نزلنا بين صيرني، أحدهما اليمامة، والأخرى السمامة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما هذان الصِّيران؟». فقال له: أمَّا أحدهما؛ فطفوف البرِّ، وأرض العرب، وأمَّا الآخر، فأرض فارس، وأنهار كسرى، وإنَّا نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى ألا نحدث حدثاً، ولا نُؤوي محدثاً، ولعلَّ هذا الأمر الذي تدعوننا إليه ممَّا تكرهه الملوك، فأما ما كان ممَّا يلي بلاد العرب، فذنب صاحبه مغفورٌ، وعذره مقبولٌ، وأمَّا ما كان يلي بلاد فارس؛ فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، فإن أردت أن نصرحك ممَّا يلي العرب؛ فعلنا.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أسأتم في الرَّدِّ؛ إذ أفصحتم بالصدق، وإنَّ دينَ الله عزَّ وجلَّ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، رأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتَّى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم، ويفر شكم نساءهم، أتسبحون الله، وتقدِّسونه؟». فقال له النُّعْمان بن شريك: اللَّهُمَّ فلك ذاك^(١)!

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٤٢ - ١٤٥، وفيها زيادات ليست عند الصَّالحي في سبيل الرِّشاد، ج ٢، ص ٥٩٦ - ٥٩٧.

وفي هذا الخبر دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد كثيرةٌ منها:

١ - ملازمة الصديق لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا جعله يفهم الإسلام بشموله، وهيأه الله تعالى بأن يصبح أعلم الصحابة بدين الله، فقد تعلّم من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقة الإسلام وتربّى على يديه في معرفة معانيه، فاستوعب طبيعة الدعوة، ومرّ بمراحلها المتعددة، واستفاد من صحبته لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتشرب المنهج الرباني، فعرف المولى - عَزَّجَلَّ - من خلاله، وطبيعة الحياة، وحقيقة الكون، وسرّ الوجود، وماذا بعد الموت، ومفهوم القضاء والقدر، وقصة الشيطان مع آدم عَلَيْهِ السَّلام، وحقيقة الصراع بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، وحُبَّت إليه العبادات، كقيام الليل، وذكر الله، وتلاوة القرآن، فسمت أخلاقه، وتطهّرت نفسه، وزكت روحه.

٢ - وفي رفقته لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو القبائل للإسلام استفاد الكثير، فقد عرف: أنّ النُصرة التي كان يطلبها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل النُصرة غير مرتبطين بمعاهداتٍ دوليةٍ تتناقض مع الدّعوة ولا يستطيعون التحرّر منها، وذلك لأنّ احتضانهم للدّعوة والحالة هذه يُعرّضها لخطر القضاء عليها من قبل الدّول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدّعوة الإسلامية خطراً عليها، وتهديداً لمصالحها^(١).

إنّ الحماية المشروطة، أو الجزئية لا تحقّق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضدّ كسرى لو أراد القبض على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتسليمه، ولن يخوضوا حرباً ضدّ كسرى لو أراد مهاجمة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات^(٢).

٣ - «إنّ دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه» كان هذا الردّ من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المثنى بن حارثة، حيث عرض على النبي حمايته على مياه العرب، دون

(١) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمّد خير هيكل، رسالة دكتوراة من كلية الإمام الاوزاعي للداراسات الإسلامية في بيروت عام ١٤١٢ هـ عن الجهاد في صدر الإسلام والفقّه الإسلامي والعصر الحديث، ج١، ص ٤١٢.

(٢) التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان، ص ٥٣.

مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة يرى بعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يُسامى^(١).

٤- كان موقف بني شيبان يتسم بالأريحية، والخلق، والرَّجولة، وينمُّ عن تعظيم هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن وضوح في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية التي يملكونها، وقد بينوا: أنَّ أمر الدَّعوة ممَّا تكرَّهه الملوك، وقدَّر الله لشييان بعد عشر سنوات، أو تزيد أن تحمِل هي ابتداءً عبء مواجهة الملوك، بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المشنى بن حارثة الشَّيباني صاحب حربهم، وبطلهم المغوار الذي كان من ضمن قادة الفتح في خلافة الصَّدِّيق، فكان وقومه من أجراً المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليَّتهم يرهَّبون الفرس، ولا يفكِّرون في قتالهم، بل إنَّهم ردُّوا دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد قناعتهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الذي لم يكونوا يفكِّرون به أبداً، وبهذا نعلم عظمة هذا الدِّين؛ الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا، حيث جعلهم سادة الأرض مع ما ينتظرون في آخرهم من النِّعيم الدائم في جنات النعيم^(٢).

المبحث الثالث: هجرته مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة

تمهيد:

اشتدَّت قريش في أذى المسلمين، والنَّيل منهم، فمنهم من هاجر إلى الحبشة مرَّة، أو مرَّتين فراراً بدينه.. ثمَّ كانت الهجرة إلى المدينة، ومن المعلوم: أنَّ أبا بكر استأذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة، فقال له: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً»^(٣) فكان أبو بكر يطمع أن يكون في صحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٤.

(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٦٩.

(٣) تاريخ الدَّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ١٠٧.

وهذه السيِّدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تحدَّثنا عن هجرة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حيث قالت: كان لا يخطئ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتي بيت أبي بكرٍ أحد طرفي النهار، إمَّا بكرةً، وإمَّا عشيةً، حتَّى إذا كان اليوم الذي أُذن فيه لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة، والخروج من مكَّة من بين ظهراني قومه؛ أنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيا لهاجرة^(١)، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها، قالت: فلمَّا راه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الساعة إلا لأمرٍ حدث. قالت: فلمَّا دخل؛ تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس عند أبي بكرٍ إلا أنا، وأختي أسماء بنت أبي بكرٍ، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أخرج عني مَنْ عندك». فقال: يرأسل الله! إنما هما ابتتاي، وما ذاك فذاك أبي، وأمِّي! فقال: «إنه قد أُذن لي في الخروج، والهجرة». قالت: فقال أبو بكرٍ: الصُّحبة يرأسل الله! قال: «الصُّحبة». قالت: فوالله ما شعرتُ قطُّ قبل ذلك اليوم أحداً يبكي من الفرح، حتَّى رأيت أبا بكرٍ يبكي يومئذٍ، ثمَّ قال: يا نبي الله! إنَّ هاتين راحلتان قد كنت أعددتكما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقث رجلاً من بني الدجل بن بكرٍ، وكانت أمُّه امرأةً من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً يدلُّهما على الطريق، فدفعاً إليهما راحتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما^(٢).

وجاء في رواية البخاريٍّ عن عائشة في حديثٍ طويلٍ تفاصيل مهمَّة، وفي ذلك الحديث: قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكرٍ في نحر الظَّهيرة، قال قائلٌ لأبي بكرٍ: هذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متقنعاً^(٣) في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكرٍ: «أخرج مَنْ عندك». فقال أبو بكرٍ: إنَّما هم أهْلُك. فقال: «فإنِّي قد أُذن لي في الخروج». فقال أبو بكرٍ: الصُّحبة بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم». قال أبو بكرٍ: فخذ بأبي أنت يا رسول الله! إحدى راحلتَي هاتين. قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بالثَّمن».

(١) الهاجرة: نصف النهار عند زوال الشَّمس مع الظُّهر، أو العصر.

(٢) السَّيرة النَّبويَّة لابن كثير، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٣) متقنعاً: مغطياً رأسه.

قالت عائشة: فجَهَّزَناهما أحسن الجَهاز، ووضعنا لَهما سَفرةً في جِرابٍ، ففقطعت أسماء بنت أبي بكرٍ قطعَةً من نَطاقِها، فربطت به على فم الجِراب، فبذلك سَمَّيت ذات النِّطاقين، ثمَّ لحق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكرٍ بغارٍ في جبل ثور، فكَمَنا^(١) فيه ثلاث لَيالٍ، بيَّت عندهما عبد الله بن أبي بكرٍ وهو غلامٌ شابٌّ ثَقَفٌ^(٢)، لَقِنٌ^(٣)، فبدلج^(٤) من عندهما بسحرٍ، فيصبح مع قريش بمكَّة كَبائتٍ، فلا يسمع أَمراً يكتادان^(٥) به إلا وعاه حتى يأتِيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما حيث تذهب ساعةٌ من العشاء، فيبيتان في رسل - وهو لبن منحهما - ورضيفهما^(٦) - ينق^(٧) بها عامر بن فهيرة بغلسٍ^(٨)، يفعل ذلك في كلِّ لَيلةٍ من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكرٍ رجلاً من بني الدجل وهو من بني عبد بن عدي - هادياً خريثاً - والخريث: الماهر - قد غمس حلفاً^(٩) في آل العاص بن وائل السَّهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه، فدفعنا إليه راحتيهما، وواعده غار ثور بعد ثلاث لَيالٍ براحولتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة، والدليل، فأخذهم طريق السَّواحل^(١٠). لم يعلم بخروج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحدٌ حين خرج إلاَّ علي بن أبي طالب، وأبو بكرٍ الصَّدِّيق، وال أبو بكرٍ، وجاء وقت الميعاد بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فخرجا من خوخة^(١١) لأبي بكرٍ في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء، حتى

(١) كمنا فيه: أي: استترا، واستخفيا، ومنه: الكمين في الحرب.

(٢) ثقف: ذو فطن وذكاء، والمراد: ثابت المعرفة بما يحتاج إليه. (النهاية ١/ ٢١٦).

(٣) لقن: فهمٌ حسنٌ التلقِّي لما يسمعه. (النهاية ٤/ ٢٦٦).

(٤) يدلج: أدلج إذا سار أول الليل، وأدلج بالتشديد: إذا سار آخره.

(٥) يكتادان: أي: يطلب لهما فيه المكروه، وهو من الكيد.

(٦) الرِّضيف: اللبن المروضوف وهو الذي طرح فيه الحجارة المحممة.

(٧) ينق: نق بغمه، أي: صاح بها، وزجرها. (القاموس المحيط ٣/ ٢٦٥).

(٨) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصَّباح (النهاية ٣/ ٣٧٧).

(٩) غمس حلفاً: أي: أخذ بنصيبٍ من عقدهم وحلفهم يأمن به.

(١٠) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي رقم (٣٩٥).

(١١) الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون جزولي، مكتبة الرُّشد الرِّياض، ط ١ (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م)،

لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال^(١)، وقد دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند خروجه من مكة إلى المدينة^(٢)، ووقف عند خروجه بالحزورة في سوق مكة، وقال: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت»^(٣).

ثم انطلق رسول الله، وأبو بكر، والمشركون يحاولون أن يقتفوا آثارهم حتى بلغوا الجبل - جبل ثور - اختلط عليهم، فصعدوا الجبل، فمرؤوا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسيج العنكبوت على بابه^(٤)، وهذه من جنود الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وبالرغم من كل الأسباب التي اتخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لم يرتكن إليها مطلقاً، وإنما كان كامل الثقة في الله، عظيم الرجاء في نصره، وتأيدته، دائم الدعاء بالصيغة التي علمه الله إياها^(٥)، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

وفي هذه الآية الكريمة دعاء يُعلمه الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليدعوه به، ولتتعلم أمته كيف تدعو الله، وكيف تتجه إليه؟ دعاءً بصديق المدخل، وصديق المخرج، كناية عن صدق الرحلة كلها، بدئها، وختامها، أولها، وآخرها، وما بين الأول، والآخر، وللصدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه؛ ليفتري على الله غيره، وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثبات، والاطمئنان، والنظافة، والإخلاص ﴿وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾، وهيبة أستعلي بهما على سلطان الأرض، وقوة المشركين، وكلمة تصور ﴿مِنْ لَّدُنْكَ

ص ٣٣٤.

(١) السيرة النبوية لابن كثير، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٣٠ - ٢٣٤.

(٣) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٥/٧٢٢).

(٤) مسند الإمام أحمد (١/٣٤٨).

(٥) الهجرة النبوية المباركة ص ٧٢.

﴿، والاتصال بالله، والاستمداد من عونه مباشرة، واللجوء إلى حماه.

وصاحب الدعوة لا يمكن أن يستمدَّ السلطان إلا من الله، ولا يمكن أن يهاب إلا بسلطان الله، لا يمكن أن يستظلَّ بحاكمٍ، أو ذي جاهٍ، فينصره، ويمنعه ما لم يكن اتجاهاه قبل ذلك إلى الله، والدعوة قد تغزو قلوب ذوي السلطان، والجاه، فيصبحون لها جنداً، وخدماءً، فيفلحون، ولكنها هي لا تفلح إن كانت من جند السلطان، وخدمه، فهي من أمر الله، وهي أعلى من ذوي السلطان، والجاه^(١).

وعندما أحاط المشركون بالغار، أصبح منهم رأي العين، طمأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصديق بمعية الله لهما: فعن أبي بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قلت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: «ما ظنك يا أبا بكر! باثنين الله ثالثهما؟»^(٢).

وسجل الحق عزَّ وجلَّ ذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا نُنْصِرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَنَزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وبعد ثلاث ليالٍ من دخول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصاحبه من الغار، وقد هدا الطَّلَب، ويُس المشركون من الوصول إلى رسول الله، وقد قلنا: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبا بكر قد استأجرا رجلاً من بني الدجل يسمى عبد الله بن أريقط، وكان مشركاً، وقد أَمَّنَاهُ، فدفعا إليه راحتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحولتيهما، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدد، وسلك بهما طريقاً غير معهودة،

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٤٧).

(٢) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين، حديث رقم ٣٦٥٣.

لِيُخْفِي أَمْرَهُمَا عَمَّنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِنْ كِفَارِ قَرِيشٍ^(١)، وَفِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ إِلَى الْمَدِينَةِ مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأُمِّ مَعْبَدٍ^(٢)، فِي قَدِيدٍ^(٣)، حَيْثُ مَسَاكِنُ خَزَاعَةَ، وَهِيَ أُخْتُ حُبَيْشِ بْنِ خَالِدِ الْخَزَاعِيِّ الَّذِي رَوَى قِصَّتَهَا، وَهِيَ قِصَّةٌ تَنَاقَلُهَا الرُّوَاةُ، وَأَصْحَابُ السَّيْرِ، وَقَالَ عَنْهَا ابْنُ كَثِيرٍ: (وَقِصَّتُهَا مَشْهُورَةٌ مَرْوِيَّةٌ مِنْ طَرِيقٍ يَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا)^(٤).

وَقَدْ أَعْلَنْتُ قَرِيشَ فِي نَوَادِي مَكَّةَ بِأَنَّهُ مِنْ يَأْتِي بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيًّا، أَوْ مَيِّتًا لَهُ مِائَةٌ نَاقَةٍ، وَانْتَشَرَ هَذَا الْخَبَرُ عِنْدَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ الَّذِينَ فِي ضَوَاكِي مَكَّةَ، وَطَمَعَ سَرَّاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جِشْمٍ فِي نَيْلِ الْكَسْبِ الَّذِي أَعَدَّتْهُ قَرِيشٌ لِمَنْ يَأْتِي بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَجْهَدَ نَفْسَهُ، لِيَنَالَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بِقُدْرَتِهِ؛ الَّتِي لَا يَغْلِبُهَا غَالِبٌ جَعَلَهُ يَرْجِعُ مَدَافِعًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَنْ كَانَ جَاهِدًا عَلَيْهِ^(٥).

وَلَمَّا سَمِعَ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ بِمَخْرَجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ، كَانُوا يَفْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الْحَرَّةِ، فَيَنْتَظِرُونَ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوْوَا إِلَى بُيُوتِهِمْ أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ عَلَى أَطْمٍ^(٦) مِنْ آطَامِهِمْ لِأَمْرِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْحَابَهُ مَبْيُضِينَ^(٧)، يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ^(٨)، فَلَمْ يَمْلِكِ الْيَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ! هَذَا جَدُّكُمْ^(٩)؛ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى السَّلَاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِظَهْرِ الْحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي

(١) المستفاد من قصص القران، عبد الكريم زيدان، مؤسسه الرسالة، ط ١ (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م)، ج ٢، ص ١٠١.

(٢) هي عاتكة بنت كعب الخزاعية.

(٣) وادي قديد يبعد عن الطريق المعبد حوالي ثمانية كيلو مترات.

(٤) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٨٨.

(٥) السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث، ج ١، ص ٥٤٣.

(٦) أطم: كالحصن.

(٧) مبيّضين: عليهم ثياب بيض.

(٨) السراب: أي: يزول بهم السراب عن النظر بسبب عروضهم له.

(٩) جدكم: حظكم، وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه.

عوف، وذلك يوم الإثنين^(١) من شهر ربيع الأول^(٢)، فقام أبو بكر حتى ظلَّ عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ذلك^(٣).

كان يوم وصول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبي بكرٍ إلى المدينة يوم فرح، وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم، كأنَّهم في يوم عيدٍ، ولقد كان حقاً يوم عيد؛ لأنَّه اليوم الذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيز الضيق في مَكَّة إلى رحابة الانطلاق، والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها إلى سائر بقاع الأرض، لقد أحسَّ أهل المدينة بالفضل الذي حباهم الله به، وبالشرف الذي اختصَّهم الله به، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله وصحابته المهاجرين، ثمَّ لنصرة الإسلام، كما أصبحت موطناً للنظام الإسلاميِّ العامِّ التفصيليِّ بكلِّ مقوماته، ولذلك خرج أهل المدينة يهلِّلون في فرح، وابتهاج ويقولون: يا رسول الله! يا محمد! يرأس الله^(٤)! وبعد هذا الاستقبال الجماهيري العظيم الذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانية سار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى نزل في دار أبي أيوب الأنصاريِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥) - ونزل الصديق على خارجة بن زيد الخزرجيِّ الأنصاريِّ.

وبدأت رحلة المتاعب، والمصاعب، والتَّحدِّيات، فتغلَّب عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للوصول للمستقبل الباهر للأُمَّة، والدَّولة الإسلاميَّة التي استطاعت أن تصنع حضارةً إنسانيَّةً رائعةً على أسس من الإيمان، والتقوى، والإحسان، والعدل، بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان في العالم، وهما الفرس، والروم^(٦). وكان الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - السَّاعد الأيمن لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ بزوغ الدَّعوة حتى وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ينهل بصمَّت، وعمقٍ من ينابيع النبوَّة: حكمةً وإيماناً، يقيناً وعزيمةً، تقوى

(١) قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد، وشذَّ من قال: الجمعة، الفتح، ج ٤، ص ٥٤٤.

(٢) الهجرة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٣٥١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٢.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٣٥٤.

(٦) الهجرة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

وإخلاصاً، فإذا هذه الصُّحبة تثمر: صلاحاً وصدقيّةً، ذكراً ويقظةً، حُبّاً وصفاءً، عزيمةً وتصميماً، إخلاصاً وفهماً، فوقف مواقفه المشهودة بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سقيفة بني ساعدة، وغيرها من المواقف، وبعث جيش أسامة، وحروب الردّة، فأصلح ما فسد، وبني ما هُدم، وجمع ما تفرّق، وقوّم ما انحرف^(١).

إِنَّ حَادِثَةَ هَجْرَةِ الصِّدِّيقِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِيهَا دُرُوسٌ، وَعِبَرٌ، وَفَوَائِدٌ، مِنْهَا:

أولاً: قال تعالى: ﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ففي هذه الآية الكريمة دلالة على أفضلية الصِّدِّيق من سبعة أوجه، ففي الآية الكريمة من فضائل أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

١ - أَنَّ الْكَفَارَ أَخْرَجُوهُ:

الكَفَارَ أَخْرَجُوا الرَّسُولَ (ثَانِي اثْنَيْنِ) فَلَزِمَ أَنْ يَكُونُوا أَخْرَجُوهُمَا، وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ.

٢ - أَنَّهُ صَاحِبُهُ الْوَحِيدُ:

الَّذِي كَانَ مَعَهُ حِينَ نَصَرَهُ اللَّهُ؛ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ ثَانِي اثْنَيْنِ، اللَّهُ ثَالِثُهُمَا.

قوله: ففي المواضع التي لا يكون مع النبي ﷺ ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ من أكابر الصَّحَابَةِ إِلَّا وَاحِدٌ يكون هو ذلك الواحد مثل سفره في الهجرة، ومقامه يوم بدرٍ في العريش لم يكن معه فيه إِلَّا أَبُو بَكْرٍ، ومثل خروجه إلى قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام كان يكون معه من أكابر الصَّحَابَةِ أَبُو بَكْرٍ، وهذا اختصاصٌ في الصُّحبة لم يكن لغيره باتِّفاق أهل المعرفة بأحوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(١) في التاريخ الإسلامي، شوقي أبو خليل، ص ٢٢٦.

٣- أَنَّهُ صَاحِبُهُ فِي الْغَارِ:

الفضيلة في الغار ظاهرةٌ بنصّ القرآن، وقد أخرجنا في الصحيحين من حديث أنسٍ، عن أبي بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يرسل الله! لو أن أحدهم نظر إلى قدميه؛ لأبصرنا. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا أبا بكر! ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١). وهذا الحديث مع كونه ممّا اتفق أهل العلم على صحّته، وتلقّيه بالقبول، فلم يختلف في ذلك اثنان منهم؛ فهو ممّا دلّ القرآن على معناه^(٢).

٤- أَنَّهُ صَاحِبُهُ الْمَطْلُوقِ:

قوله: لا يختص بمصاحبه في ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾، بل هو صاحبه المطلق الذي عمل في الصُّحبة، كما لم يشركه فيه غيره، فصار مختصّاً بالأكالية من الصُّحبة، وهذا ممّا لا نزاع فيه بين أهل العلم بأحوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا قال مَنْ قال من العلماء: إن فضائل الصّديق خصائص لم يشركه فيها غيره^(٣).

٥- أَنَّهُ الْمَشْفُوقُ عَلَيْهِ:

قوله: يدلّ على أنّ صاحبه كان مشفقاً عليه محبّاً ﴿لَا تَحْزَنَ﴾، ناصراً له حيث يحزن، وإنّما يحزن الإنسان حال الخوف على مَنْ يحبه، وكان حزنه على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لثلاثٍ يقتل، ويذهب الإسلام، ولهذا لما كان معه في سفر الهجرة كان يمشي أمامه تارّةً، ووراءه تارّةً، فسأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فقال: أذكر الرّصد فأكون أمامك، وأذكر الطّلب فأكون وراءك^(٤). وفي رواية أحمد في كتاب «فضائل الصّحابة»: فجعل أبو بكرٍ يمشي خلفه ويمشي أمامه، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مالك؟». قال: يرسل الله! إذا كنت أمامك؛ خشيت أن تؤتى من ورائك، وإذا كنت خلفك؛ خشيت أن تؤتى من ورائك، قال: فلما

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصّحابة، حديث رقم ٣٦٥٣.

(٢) منهاج السُّنة، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٣) المرجع السابق، ج ٤، ص ٢٤٥-٢٥٢.

(٤) أبو بكر الصّديق أفضل الصّحابة وأحقّهم بالخلافة، ص ٤٣.

انتبهنا إلى الغار قال أبو بكر: يراسل الله! كما أنت حتى أقمّه.. فلما رأى أبو بكر جحراً في الغار، فألقمها قدمه، وقال: يراسل الله! إن كانت لسعة، أو لدغة كانت بي^(١). فلم يكن يرضى بمساواة النبي، بل كان لا يرضى بأن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يعيش، بل كان يختار أن يفديه بنفسه، وأهله، ماله. وهذا واجب على كل مؤمن، والصديق أقوم المؤمنين بذلك^(٢).

٦- المشارك له في معية الاختصاص:

قوله: صريح في مشاركة الصديق للنبي ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ في هذه المعية، التي اختص بها الصديق لم يشركه فيها أحد من الخلق.. وهي تدل على أنه معهما بالنصر، والتأييد، والإعانة على عدوهما - فيكون النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر: أن الله ينصرنى، ويتصرك يا أبا بكر! ويعيننا عليهم، نصر إكرام ومحبة، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]. وهذا غاية المدح لأبي بكر، إذ دل على أنه ممن شهد له الرسول بالإيمان المقنضي نصر الله له مع رسوله في مثل هذه الحال التي يخلد فيها عامة الخلق إلا من نصره الله^(٣).

وقال الدكتور عبد الكريم زيدان عن المعية في هذه الآية الكريمة: وهذه المعية الربانية المستفادة من قوله تعالى: أعلى من معيته ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، والمحسنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] لأن المعية هنا لذات الرسول، وذات صاحبه، غير مقيّدة بوصف هو عمل لهما، كوصف التقوى، والإحسان، بل هي خاصة برسوله، وصاحبه، مكفولة هذه المعية بالتأييد بالآيات، وخوارق العادات^(٤).

وقد قال بعض أصحاب الشبهات تدل هذه الآية على ضعف أبي بكر وعدم صبره وقلة يقينه. وسبحان الله! قد قلبوا المناقب معاً، وجعلوا الفضائل رذائل، فإن هذه الآية باتفاق

(١) منهاج السنة، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) المرجع السابق نفسه، ج ٤، ص ٢٦٣.

(٣) المرجع السابق نفسه، ج ٤، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٤) المستفاد من قصص القرآن، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠٠.

أهل السنة منقبة لأبي بكر، بل من أعظم مناقبه، فقد فاز بفضيلة رفقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الموقف العظيم من تاريخ الدعوة، وحزن أبي بكر باتفاق العلماء هو حزن خوف على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لشدة حبه له، ولمكانته في قلبه، ولم يكن خوف أبي بكر لقلّة يقين، وفقد صبر، أو ضعف نفس، حاشاه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بل كان من اليقين لقضاء الله وقدره في المحل الأعلى، وكان الذي منه، مثل ما كان من موسى إذ أوجس في نفسه خيفة، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (٢٧) ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٧، ٦٨] (١). قال ابن بطال: قال ذلك (لو أن أحدكم رفع قدمه لأبصرنا) إشفاقا على رسول الله، وكان حزنه بذلك مع علمه أن الله بالغ أمره فيه وفي رسوله وفي نصر دينه، فجمع الله له بذلك صدق اليقين، وأجر الجزع على الدين، وثواب الشفقة على الرسول، ليضعف له بذلك الأجر، وكان ذلك منه مثل ما كان من موسى نبي الله إذ أوجس في نفسه خيفة مما أتت به السحرة، حين خيل إليه أن حبالهم وعصيهم تسعى، فقال الله له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ولا شك أن موسى كان من العلم بالله وصدق اليقين بنفوذ قضائه فيه ما لا يلتبس أمره على ذي عقل يؤمن بالله ورسوله، وكذلك الذي كان من أمر أبي بكر (٢). وليس الفضيلة بمجرد حزن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلم يدع أحد أن مجرد الحزن كان هو الفضيلة، بل الفضيلة ما دل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرِبْهُ فَلَاحُ حَرَبٍ لَّكَ وَنُصْرَهُ فَقَدْ نُصِرْهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾. فالفضيلة كونه هو الذي خرج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الحال، واختص بصحبته، وكان له كمال الصحبة مطلقا، وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: (إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) وما يتضمنه ذلك من كمال موافقته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبه وطمأنينته، وكمال معونته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموالاته، ففي هذه الحال من كمال إيمانه وتقواه ما هو الفضيلة (٣). فكمال محبه ونصره للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن، دار النوادر، دمشق - سوريا، ط ١ (١٤٢٩هـ)، ج ٢٧، ص ٦٣٣.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال، (٩٥ / ٩).

(٣) مختصر منهاج السنة، مرجع سابق، ص ٥٢٠.

هو الموجب لحزنه^(١). وما يتعلق بدعواهم أن الآية تدل على نقص الصديق إيماناً و يقيناً، فنقول: النقص نوعان:

نقص ينافي إيمانه، ونقص عمن هو أكمل منه. فإن أرادوا الأول فهو باطل لأن الله تعالى قال مخاطباً نبيه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُفْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال مخاطباً المؤمنين جميعاً: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾، [آل عمران: ١٣٩]، فقد نهى نبيه عن الحزن في غير موضع ونهى المؤمنين جملة فعلم أن ذلك لا ينافي الإيمان، وإن أرادوا بذلك أنه ناقص عمن هو أكمل منه، فلا ريب أن حال النبي ﷺ أكمل من حال أبي بكر، وهذا لا ينافي فيه أحد من أهل السنة، ولكن ليس في هذا ما يدل على أن علياً أو عثمان أو عمر أو غيرهم أفضل منه لأنهم لم يكونوا مع النبي ﷺ في هذه الحال، ولو كانوا معه لم يعلم أن حالهم يكون أكمل من حال الصديق بل المعروف من حالهم دائماً وحاله أنهم وقت المخاوف يكون الصديق أكمل منهم كلهم يقيناً وصبراً، وعند وجود أسباب الريب يكون الصديق أعظم يقيناً وطمأنينة، وعندما يتأذى منه النبي ﷺ يكون الصديق أتبعهم لمرضاته وأبعدهم عما يؤذيه، هذا هو المعلوم لكل من استقرأ أحوالهم في محيا رسول الله ﷺ وبعد وفاته، حتى إنه لما مات وموته كان أعظم المصائب التي تزلزل بها الإيمان حتى ارتد الأعراب واضطرب لها عمر الذي كان أقواهم إيماناً وأعظمهم يقيناً كان مع هذا تثبيت الله تعالى للصديق بالقول الثابت أكمل وأتم من غيره وكان في يقينه وطمأنينته وعلمه وغير ذلك أكمل من عمر وغيره^(٢).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ ليس هو بالنهي الذي يصحبه ذم الفاعل، ولكن هو كال بشري، كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]. وكقوله تعالى لأم موسى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]^(٣).

(١) المرجع السابق، ص ٥٢٠.

(٢) عقيدة أهل السنة في الصحابة، (٣/ ٩٧٦).

(٣) تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار، دار المصطفى، القاهرة - مصر، ج ٢، ص ٣٧٠.

٧- أنه صاحبه في حال إنزال السكينة والنصر:

قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠] فإن كان صاحبه في حال الخوف الشديد فلا أن يكون صاحبه في حضور النصر والتأييد أولى، وأخرى، فلم يحتج أن يذكر صحبته له في هذه الحال لدلالة الكلام، والحال عليها. وإذا علم: أنه صاحبه في هذه الحال؛ علم أنما حصل للرَّسول من إنزال السكينة والتأييد بالجنود التي لم يرها الناس لصاحبه فيها أعظم ممَّا لسائر الناس. وهذا من بلاغة القرآن، وحسن بيانه^(١).

ثانياً: فقه النبي صلى الله عليه وسلم والصدِّيق في التخطيط والأخذ بالأسباب:

إنَّ من تأمل حادثة الهجرة، ورأى دقَّة التخطيط فيها، ودقَّة الأخذ بالأسباب من ابتدائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك: أنَّ التخطيط المسدَّد بالوحي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قائماً، وأنَّ التخطيط جزءٌ من السُّنة النبويَّة، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهي في كلِّ ما طوِّلب به المسلم، وأنَّ الذين يميلون إلى العفوية بحجَّة: أنَّ التخطيط، وإحكام الأمور ليسا من السُّنة، أمثال هؤلاء مخطئون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين^(٢).

فعندما حان وقت الهجرة للنبي صلى الله عليه وسلم في التَّنفِيز نلاحظ الآتي:

أ- وجود التَّنْظِيم الدَّقِيق للهجرة حتَّى نجحت رغم ما كان يكتنفها من صعابٍ، وعقباتٍ، وذلك: أنَّ كلَّ أمرٍ من أمور الهجرة كان مدروساً دراسةً وافيةً، فمثلاً:

١- جاء صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكرٍ في وقت شدَّة الحرِّ؛ الوقت الذي لا يخرج فيه أحدٌ، بل من عادته لم يكن يأتي له، لماذا؟ حتَّى لا يراه أحد.

٢- إخفاء شخصيته صلى الله عليه وسلم أثناء مجيئه للصدِّيق، جاء إلى بيت الصدِّيق متلثماً؛ لأنَّ التلثم يقلِّل من إمكانية التَّعرُّف على معالم الوجه المتلثم^(٣).

(١) منهاج السُّنة، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٧٢.

(٢) الأساس في السُّنة، سعيد حوى، دار السَّلام بمصر، ط ١ (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م)، ص ٣٥٧٨.

(٣) السيرة النبويَّة قراءة لجوانب الحذر، والحيطة، ص ١٤١.

٣- أمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكر أن يُخْرِجَ مَنْ عِنْدَهُ، ولما تَكَلَّمَ لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

٤- وكان الخروج ليلاً، ومن باب خلفي في بيت أبي بكر^(١).

٥- بلغ الاحتياط مداه باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذلك بخبير يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، وكان ذلك الخبير مشركاً ما دام على خلق ورزاقته. وفيه دليل على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها^(٢).

وقد بين الشيخ عبد الكريم زيدان: أن القاعدة، والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامة، ولهذه القاعدة استثناء، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروط معينة، وهي: تحقق المصلحة، أو رجحانها بهذه الاستعانة، وألا يكون ذلك على حساب الدعوة، ومعانيها، وأن يتحقق الوثوق الكافي بمن يستعان به، وألا تكون هذه الاستعانة مثار شبهة لأفراد المسلمين، وأن تكون هناك حاجة حقيقية لهذه الاستعانة على وجه الاستثناء، وإذا لم تتحقق؛ لم تجز الاستعانة^(٣)، وقد كان الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قد دعا أولاده للإسلام، ونجح بفضل الله في هذا الدور الكبير والخطير، وقام بتوظيف أسرته لخدمة الإسلام، ونجاح هجرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوزع بين أولاده المهام الخطيرة في مجال التنفيذ العملي لخطة الهجرة المباركة:

١- دور عبد الله بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما:

فقد قام بدور صاحب المخابرات الصادق، وكشف تحركات العدو، لقد رُبِّي عبد الله على حب دينه، والعمل لنصرته ببصيرة نافذة، وفطنة كاملة، وذكاء متوقّد، يدل على العناية

(١) معين السيرة للشامي، ص ١٤٧.

(٢) الهجرة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٣٦١.

(٣) الاستفادة من قصص القرآن، ج ٢، ص ١٤٤-١٤٥.

الفائقة التي اتَّبعها سيدنا أبو بكرٍ في تربيته، وقد رسم له أبوه دوره في الهجرة، فقام به خير قيام، وكان يمثل في التَّنْقُل بين مجالس أهل مَكَّة، يستمع أخبارهم، وما يقولونه في نهارهم، ثُمَّ يأتي الغار إذا أمسى، فيحكي للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأبيه الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ما يدور بعقول أهل مَكَّة، وما يدبرونه، وقد أتقن عبد الله هذا الواجب بطريقة رائعة، فلم تأخذ واحداً من أهل مَكَّة ريبةً فيه، وكان يبيت عند الغار حارساً حتَّى إذا اقترب النَّهار عاد إلى مَكَّة، فما شعر به أحدٌ^(١).

٢- دور عائشة، وأسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

كان لأسماء، وعائشة دور عظيمٌ أظهر فوائد التربية الصحيحة، حيث قامتا عند قدوم النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بيت أبي بكرٍ ليلة الهجرة بتجهيز طعامٍ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأبيهما: تقول أمُّ المؤمنين عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فجَهَّزناهما - تقصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأباها - أحسن الجهاز فصنعنا لهما سفرةً في جراب، فقطعت أسماء قطعةً من نطاقتها فربطت به على فم الجراب؛ فلذلك سمَّيت ذات النُّطَاقين^(٢).

٣- دور أسماء في تحمل الأذى، وإخفاء أسرار المسلمين:

أظهرت أسماء - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - دور المسلمة الفاهمة لدينها، المحافظة على أسرار الدعوة، المتحملة لتوابع ذلك من الأذى، والتعنُّت، فهذه أسماء تحدَّثنا بنفسها حيث تقول: لما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أتانا نفرٌ من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكرٍ، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكرٍ؟ قلتُ: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشاً خبيثاً - فلطم خدي لطمَةً طرَح منها

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٨٢..

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٨٤.

قرطي، قالت: ثم انصرفوا^(١).

فهذا درس من أسماء - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تعلّمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل، كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم؟

٤ - دور أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في بثّ الأمان؛ والطمأنينة في البيت:

خرج أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه ماله كله، وهو ما تبقى من رأسماله - وكان خمسة آلاف، أو ستة آلاف درهم - وجاء أبو قحافة ليتفقد بيت ابنه، ويطمئن على أولاده، وقد ذهب بصره، فقال: والله إنني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه! قالت: كلا يا أبت! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: فأخذت أحجاراً، فوضعتها في كوة في البيت كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده، فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس، إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. لا والله ما ترك لنا شيئاً! ولكنني أردت أن أسكن الشيخ بذلك^(٢).

وبهذه الفطنة، والحكمة سترت أسماء أباهما، وسكنت قلب جدّها الضّرير، من غير أن تكذب، فإن أباهما قد ترك لهما حقاً هذه الأحجار التي كومتها لتطمئن لهما نفس الشيخ، إلا أنه قد ترك لهما معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحرّكه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلّة، أو كثرة في المال، وورثهم يقيناً، وثقة به لا حدّ لهما، وغرس فيهم همّة تتعلّق بمعالى الأمور، ولا تلتفت إلى سفسافها، فضرب بهم للبيت المسلم مثلاً عزّ أن يتكرّر، وقلّ إن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بهذه المواقف لنساء وبنات المسلمين مثلاً هنّ في أمس الحاجة إلى الاقتداء به، والنسج على منواله، وظلّت أسماء مع أخواتها في مكّة، لا تشكو ضيقاً، ولا تظهر حاجة، حتى بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمئة درهم إلى مكّة، فقدموا عليه بفاطمة، وأمّ كلثوم ابنتيه، وسودة

(١) الهجرة النبويّة المباركة، ص ١٢٦.

(٢) السيرة النبويّة لابن هشام، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٠٢، إسناده صحيح.

بنت زمعة وزوجه، وأسامة بن زيد، وأمه بركة المكناة بأُمّ أيمن، وخرج معهما عبد الله بن أبي بكرٍ بعيال أبي بكرٍ، حتى قدموا المدينة مصطحبين^(١).

٥- دور عامر بن فهيرة مولى أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

من العادة عند كثير من الناس إهمال الخادم، وقلة الاكتراث بأمره، لكنّ الدعاة الربّانيين لا يفعلون ذلك، إنَّهم يبذلون جهدهم لهداية مَنْ يلاقونه، لذا أدب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عامر بن فهيرة مولاه، وعلمه، فأضحى عامر جاهزاً لفداء الإسلام، وخدمة الدين.

وقد رسم له سيدنا أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دوراً هاماً في الهجرة، فكان يرعى الغنم مع رعيان مكة، لكي لا يلفت الأنظار لشيءٍ، حتى إذا أمسى أراح بغنم سيدنا أبي بكرٍ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاحتلبا، وذبحا، ثم يكمل عامر دور عبد الله بن أبي بكرٍ حين يغدو من عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه عائداً إلى مكة، فيتبّع آثار عبد الله ليعفّي عليهما ممّا يعدّ ذكاءً، وفطنةً في الإعداد لنجاح الهجرة^(٢).

وإنّه لدرسٌ عظيمٌ يستفاد من الصديق لكي يهتمّ المسلمون بالخدم الذين يأتونهم من مشارق الدنيا، ومغاربها، ويعاملونهم على كونهم بشراً أولاً، ثمّ يعلمونهم الإسلام، فلعلّ الله يجعل منهم مَنْ يحمل هذا الدين كما ينبغي.

إنّ ما قام به الصديق من تجنيد أسرته لخدمة صاحب الدعوة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هجرته يدلّ على تدبيرٍ للأمور على نحوٍ رائعٍ دقيق، واحتياطٍ للظروف بأسلوبٍ حكيم، ووضع لكلّ شخصٍ من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب، وسدّ لجميع الثغرات، وتغطيةٍ بديعةٍ لكلّ مطالب الرحلة، واقتصارٍ على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادةٍ، ولا إسرافٍ، لقد أخذ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأسباب المعقولة أخذاً قوياً حسب استطاعته، وقدرته.. ومن

(١) تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ، المحقق:

محمد أبو الفضل إبراهيم ت ١٩٨٠ م، دار المعارف بمصر، ط ٢ (١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م)، ج ١، ١١، ٦٠١.

(٢) تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء الراشدين، ص ١١٥.

ثمَّ باتت عناية الله متوقعة^(١).

إنَّ اتِّخاذ الأسباب أمرٌ ضروريٌّ وواجبٌ، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة، ذلك لأنَّ هذا أمرٌ يتعلَّق بأمر الله ومشيتته، ومن هنا كان التوكُّل أمراً ضرورياً، وهو من باب استكمال اتِّخاذ الأسباب.

إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعَدَّ كُلَّ الأسباب، واتَّخَذَ كُلَّ الوسائل، ولكنَّه في الوقت نفسه مع الله يدعوه، ويستنصر أن يكلَّل سعيه بالنَّجاح، وهنا يستجاب الدُّعاء، ويكلَّل العمل بالنَّجاح^(٢).

ثالثاً: جنديَّة الصَّديق الرِّفيعة، وبكاؤه من الفرح:

يظهر أثر التَّربية النبويَّة في جنديَّة أبي بكر الصَّديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فأبو بكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة، وقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تعجل لعلَّ الله يجعل لك صاحباً». فقد بدأ في الإعداد، والتَّخطيط للهجرة (فابتاع راحلتين، واحتسبهما في داره، يعلفهما إعداداً لذلك) وفي رواية للبخاري: «وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمر - وهو الخبط - أربعة أشهر». لقد كان يدرك بثاقب بصره - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وهو الذي تربَّى ليكون قائداً، أنَّ لحظة الهجرة صعبةٌ قد تأتي فجأةً، ولذلك هيأ وسيلة الهجرة، ورَتَّب تموينها، وسخَّر أسرته لخدمة النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعندما جاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبره أنَّ الله قد أذن له في الخروج والهجرة، بكى من شدَّة الفرح، وتقول عائشة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - في هذا الشأن: فوالله ما شعرتُ قطُّ قبل ذلك اليوم أنَّ أحداً يبكي من الفرح حتَّى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ، إنَّها قَمَّة الفرح البشريِّ، أن يتحوَّل الفرح إلى بكاءٍ، وممَّا قال الشاعر عن هذا:

ورد الكتابُ من الحبيبِ بأنَّه سيزورني فاستعبرتُ أجفاني
غلب السُّرور عليَّ حتَّى إنَّني مِنْ فَرطٍ ما قد سرَّني أبكاني

(١) أضواءٌ على الهجرة، لتوفيق محمَّد، ص (٣٩٣ - ٣٩٧).

(٢) مِنْ معين السيرة، ص ١٤٨.

عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكَ عَادَةً تَبْكِينَ مِنْ فَرَحٍ وَمِنْ أَحْزَانٍ
فَالصَّدِيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَعْلَمُ: أَنَّ مَعْنَى هَذَا الصُّحْبَةِ أَنَّهُ سَيَكُونُ وَحْدَهُ بِرَفَقَةِ رَسُولِ رَبِّ
العالمين بضعة عشر يوماً على الأقل، وهو الذي سيقدم حياته لسيده وقائده، وحببيه
المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَيُّ فَوْزٍ فِي هَذَا الوجود يفوق هذا الفوز: أَنْ يَتَفَرَّدَ الصَّدِيقُ
وَحْدَهُ مِنْ دُونَ أَهْلِ الْأَرْضِ، وَمِنْ دُونَ الصَّحْبِ جَمِيعاً بِرَفَقَةِ سَيِّدِ الْخَلْقِ، وَصَحْبَتِهِ كُلِّ
هَذِهِ الْمَدَّةِ^(١).

وتظهر معاني الحب في الله في خوف أبي بكرٍ وهو في الغار من أَنْ يراهما المشركون،
ليكون الصَّدِيقُ مثلاً لما ينبغي أَنْ يكون عليه جنديُّ الدعوة الصادق مع قائده الأمين، حين
يحدث به الخطر من خوفٍ، وإشفاقٍ على حياته، فما كان أبو بكرٍ ساعِثُ الَّذِي يَخْشَى عَلَى
نَفْسِهِ الْمَوْتَ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَّا رَافَقَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْهَجْرَةِ الْخَطِيرَةِ
وهو يعلم: أَنَّ أَقْلَ جَزَائِهِ الْقَتْلَ إِنْ أَمْسَكَهُ الْمَشْرِكُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ
يَخْشَى عَلَى حَيَاةِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَى مُسْتَقْبَلِ الْإِسْلَامِ، إِنْ وَقَعَ الرَّسُولُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَبْضَةِ الْمَشْرِكِينَ^(٢).

ويظهر الحُسْنُ الْأَمْنِيُّ الرَّفِيعُ لِلصَّدِيقِ فِي هَجْرَتِهِ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوَاقِفَ
كَثِيرَةٍ؛ مِنْهَا حِينَ أَجَابَ السَّائِلَ: مَنْ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ؟ فَقَالَ: هَذَا هَادٍ يَهْدِينِي
السَّبِيلَ، فَظَنَّ السَّائِلُ أَنَّ الصَّدِيقَ يَقْصِدُ الطَّرِيقَ، وَإِنَّمَا كَانَ يَقْصِدُ سَبِيلَ الْخَيْرِ، وَهَذَا يَدُلُّ
عَلَى حَسَنِ اسْتِخْدَامِ أَبِي بَكْرٍ لِلْمَعَارِضِ فَرَاراً مِنَ الْحَرَجِ، أَوِ الْكَذْبِ^(٣). وَفِي إِجَابَتِهِ لِلْسَّائِلِ
تَوْرِيَةً، وَتَنْفِيزاً لِلتَّرْبِيَةِ الْأَمْنِيَّةِ الَّتِي تَلَقَّاهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ الْهَجْرَةَ كَانَتْ سِرّاً،
وَقَدْ أَقْرَأَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ذَلِكَ^(٤).

رابعاً: فَنُ قِيَادَةُ الْأَرْوَاحِ، وَفَنُ التَّعَامُلِ مَعَ النَّفُوسِ:

(١) التربية القيادية (٢/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي، ص ٧١.

(٣) الهجرة النبوية المباركة، ص ٢٠٤.

(٤) السيرة النبوية دروس وعبر للسباعي، ص ٦٨.



يظهر الحبُّ العميق الذي سيطر على قلب أبي بكرٍ لرسول الله ﷺ في الهجرة، كما يظهر حب سائر الصَّحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى ﷺ، وهذا الحبُّ الربَّانيُّ كان نابعاً من القلب، وبإخلاصٍ، لم يكن حبَّ نفاقٍ، أو نابعاً من مصلحةٍ دنيويَّةٍ، أو رغبةٍ في منفعةٍ أو رهبةٍ لمكروه قد يقع، ومن أسباب هذا الحبِّ لرسول الله ﷺ صفاته القياديَّة الرشيدة، فهو يسهر ليناموا، ويتعب ليسترخوا، ويجوع ليشبعوا، كان يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، فمن سلك سنن الرُّسول ﷺ مع صحابته، في حياته الخاصَّة والعامة، وشارك الناس في أفراحهم، وأتراحهم، وكان عمله لوجه الله، أصابه هذا الحبُّ إن كان من الزُّعماء، أو القادة، أو المسؤولين في أمة الإسلام^(١).

وصدق الشَّاعر اللَّيْثِيُّ أحمد رفيق المهدويُّ عندما قال:

فإذا أحبَّ الله باطن عبده ظهرت عليه مواهبُ الفتح

وإذا صفتُ لله نيَّةُ مصلحٍ مال العبادُ عليه بالأرواح^(٢)

إنَّ القيادة الصَّحيحة هي التي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كلِّ شيءٍ، وتستطيع أن تتعامل مع النفوس قبل غيرها، وعلى قدر إحسان القيادة يكون إحسان الجنود، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحبُّ من الجنود، فقد كان ﷺ رحيمًا، وشفوقًا بجنوده، وأتباعه، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه، ولم يبقَ إلا المستضعفون، والمفتنون، ومن كانت له مهمَّاتٌ خاصَّةٌ بالهجرة^(٣).

والجدير بالذكر، أنَّ حبَّ الصَّدِّيق لرسول الله ﷺ كان لله، ومما بيَّن الحبَّ لله، والحبَّ لغير الله: أنَّ أبا بكرٍ كان يحبُّ النبيَّ ﷺ مخلصاً لله، وأبو طالب عمُّه كان يحبه، وينصره لهواه، لا لله، فتقبَّل الله عمل أبي بكرٍ، وأنزل فيه قوله: ﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَمَّى﴾^(١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى^(١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى^(١٩) إِلَّا أَثْنَاءَ وَجْدِ رِيِّهِ الْأَعْلَى^(٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى^(٢١)

(١) الهجرة النبويَّة لأبي فارس، ص ٥٤.

(٢) الحركة السنوسية للصَّلاحي (٧/٢).

(٣) الهجرة النبويَّة المباركة، ص ٢٠٥.

[الليل: ١٧-٢١]، وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله، بل أدخله النار؛ لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله، وأبو بكر لم يطلب أجره من الخلق، لا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا من غيره، بل آمن به، وأحبه، وكلاه، وأعانه في الله، متقرباً بذلك إلى الله، وطالباً الأجر من الله، ويبلغ عن الله أمره، ونبيه، ووعده، ووعيده^(١).

خامساً: مرض أبي بكر الصديق بالمدينة في بداية الهجرة:

كانت هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه عن البلد الأمين تضحية عظيمة، عبر عنها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله! ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت»^(٢).

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: لما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة قدمها، وهي أوبا أرض الله من الحمى، وكان واديهما يجري نجلاً - يعني ماء اجناً - فأصاب أصحابه منها بلاءً، وسقمٌ، وصرف الله ذلك عن نبيه. قالت: فكان أبو بكر وعامر ابن فهيرة وبلال في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فاستأذنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عيادتهم، فأذن، فدخلت إليهم أعودهم، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك^(٣)، فدنوت من أبي بكر، فقلت: يا أبت! كيف تجدك؟ فقال:

كلُّ أمري مصبَّح في أهله والموت أدنى من شرائك نعليه
قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. ثم دنوت من عامر بن فهيرة، فقلت: كيف تجدك يا عامر؟! فقال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إنَّ الجبان حتفه من فوقه

(١) الفتاوى لابن تيمية، مرجع سابق، ج ١٨، ص ٢٣١.

(٢) الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (٧٢٢/٥) رقم ٣٩٢٥.

(٣) الوعك: الحمى.

كل أمرئ مجاهدٌ بطوقه^(١) كالثور يحمي جلده بروقه^(٢)

قالت: قلت: والله ما يدري عامر ما يقول! قالت: وكان بلال إذا ألقه عنه الحمى؛ اضطجع بفناء البيت، ثم يرفع عقيرته^(٣)، ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحولي إذخر^(٤) وجليلٌ
وهل أَرَدَنَ يوماً مياه مَجَنَّةٍ وهل يبدون لي شامة وطفيل^(٥)

قالت: فأخبرت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فقال: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إلينا المدينة، كَحَبِّنا مَكَّةَ أو أَشَدَّ! اللَّهُمَّ وصَحِّحْها، وبارك لنا في مُدَّها، وصاعِها، وانقل حمَّها، واجعلها بالجُحْفَةِ!»^(٦).

وقد استجاب الله دعاء نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعوفي المسلمون بعدها من هذه الحمى، وغدت المدينة موطنًا ممتازاً لكلِّ الوافدين، والمهاجرين إليها من المسلمين، وعلى تنوُّع بيئاتهم، ومواطنهم^(٧).

شرع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد استقراره بالمدينة في تثبيت دعائم الدولة الإسلامية، فأخى بين المهاجرين، والأنصار، ثم أقام المسجد، وأبرم المعاهدة مع اليهود، وبدأت حركة السَّرايا، واهتمَّ بالبناء الاقتصادي، والتَّعليمي، والتَّربوي في المجتمع الجديد، وكان أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وزير صدقٍ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولازمه في كلِّ أحواله، ولم يغب عن مشهد

(١) بطوقه: بطاقته.

(٢) بروقه: بقرنه.

(٣) عقيرته: صوته.

(٤) إذخر: نبات طيب الرائحة.

(٥) شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مَجَنَّة على بريد من مَكَّة.

(٦) البخاري، كتاب الدَّعوات، باب الدَّعاء يرفع الوباء، والوجع رقم (٦٣٧٢).

(٧) التربية القيادية (٢/ ٣١٠).

من المشاهد، ولم يخل بمشورة، أو مالٍ، أو رأيٍ^(١).

المبحث الرابع: الصديق في ميادين الجهاد

تمهيد:

ذكر أهل العلم بالتواريخ والسير: أنَّ أبا بكرٍ شهد مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدرًا، والمشاهد كلها، ولم يفته منها مشهدٌ، وثبت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحدٍ حين انهزم الناس، ودفع إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رايته العظمى يوم تبوك، وكانت سوداء^(٢).

وقال ابن كثير: ولم يختلف أهل السير في أنَّ أبا بكرٍ الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لم يتخلف عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مشهدٍ من مشاهد كلها^(٣).

وقال الزمخشري: إنه - يعني: أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كان مضافاً لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الأبد، فإنه صحبه صغيراً وأنفق ماله كبيراً، وحمله إلى المدينة براحتة، وزاده، ولم يزل ينفق عليه ماله في حياته، وزوجه ابنته، ولم يزل ملازماً له سفراً، وحضراً، فلما توفي دفنه في حجرة عائشة أحب النساء إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٤).

وعن سلمة بن الأكوع: غزوت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبع غزواتٍ، وخرجت فيما يبعث من البعوث تسع غزواتٍ مرةً علينا أبو بكرٍ، ومرةً علينا أسامة^(٥).

ومن خلال هذا المبحث سنحاول أن نتبع حياة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجهادية مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لنرى كيف جاهد الصديق بنفسه، وماله، ورأيه في نصرته دين الله تعالى.

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٢) الطبقات الكبرى (١/ ١٢٤)؛ صفة الصفوة (١/ ٢٤٢).

(٣) أسد الغابة (٣/ ٣١٨).

(٤) خصائص العشرة الكرام البررة، ص ٤١.

(٥) البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النبي أسامة، رقم (٤٢٧٠).

أولاً: أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بدر الكبرى:

شارك الصديق في غزوة بدر، وكانت في العام الثاني من الهجرة، وكانت له فيها مواقف مشهورة، من أهمها:

١- مشورة الحرب:

لما بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نجاة القافلة، وإصرار زعماء مكة على قتال النبي؛ استشار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أصحابه في الأمر^(١)، فقام أبو بكر، فقال وأحسن، ثم قام عمر، فقال وأحسن^(٢).

٢- دوره في الاستطلاع مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه أبو بكر يستكشف أحوال جيش المشركين، وبينما هما يتجولان في تلك المنطقة، لقياً شيخاً من العرب، فسأله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جيش قريش، وعن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه، وما بلغه من أخبارهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تُخبراني ممّن أنتما. فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا أخبرتنا أخبرناك». فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم». فقال الشيخ: فإنه بلغني: أن محمداً، وأصحابه خرجوا يوم كذا، وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا، وكذا - للمكان الذي به جيش المسلمين، وبلغني: أن قريشاً خرجوا يوم كذا، وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا، وكذا - للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً، ثم قال الشيخ: لقد أخبرتكما عما أردتما، فأخبراني ممّن أنتما؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نحن من ماء». ثم انصرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكر عن الشيخ، وبقي هذا الشيخ يقول: ما من ماء؟ أمن

(١) صحيح البخاري رقم (٣٩٥٢).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٤٤٧/٢).

ماء العراق^(١).

وفي هذا الموقف يتّضح قرب الصديق من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد تعلّم أبو بكر من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دروساً كثيرة.

٣- في حراسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عريشه:

عندما رتب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصفوف للقتال؛ رجع إلى مقرّ القيادة، وكان عبارةً عن عريشٍ على تلٍّ مشرفٍ على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكانت ثلّة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢)، وقد تحدّث عليّ بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن هذا الموقف، فقال: يا أيّها النّاس! مَنْ أشجع النّاس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين! فقال: أما إنّي ما بارزني أحدٌ إلا انتصفتُ منه، ولكن هو أبو بكر: إنّنا جعلنا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لئلاّ يهوي إليه أحدٌ من المشركين؟ فوالله ما دنا منه أحدٌ إلا أبو بكرٍ شاهراً بالسيف على رأس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يهوي إليه أحدٌ من المشركين إلا أهوى إليه، فهذا أشجع الناس^(٣).

٤- الصديق يتلقّى البشارة بالنصر، ويقاوم بجانب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

بعد الشروع في الأخذ بالأسباب اتّجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ربّه يدعو، ويناشده النصر؛ الذي وعده ويقول في دعائه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً»، وما زال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ويستغيث حتّى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر، وردّه على منكبيه؛ وهو يقول: يرسل الله! كفاك مناشدتك ربّك فإنّه منجز لك ما وعدك^(٤)، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿...﴾ وفي رواية ابن عباسٍ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨).

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٢٣٣).

(٣) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٧١-٢٧٣.

(٤) مسلم، كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة ببدر رقم (١٧٦٣).

فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ ﴿١﴾: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر: «اللهم إني أنشدك عهدك، ووعدك! اللهم إن شئت لم تعبد!» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك الله، فخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقول: ^(١)، وقد خفق النبي ﴿سَيُهِزُّمُ الْجَمْعُ وَيُولُونُ الدُّبُرَ﴾ خفقةً وهو في العريش، ثم انتبه، فقال: أبشر يا أبا بكر! أتاك نصر الله، هذا جبريل اخذ بعنان فرسه، يقوده، على ثنياه النقع؛ يعني: الغبار. قال: ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الناس، فحرّضهم ^(٢).

وقد تعلّم الصديق من هذا الموقف درساً ربانياً مهماً في التجرد النفسي، والخلوص واللجوء لله وحده، والسجود والجثي بين يدي الله سبحانه، لكي ينزل نصره، وبقي هذا المشهد راسخاً في ذاكرة الصديق، وقلبه، ووجدانه يقتدي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تنفيذه في مثل هذه الساعات، وفي مثل هذه المواطن، ويبقى هذا المشهد درساً لكل قائّد، أو حاكم، أو زعيم، أو فرد يريد أن يقتدي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام.

ولمّا اشتدّ أوار المعركة وحمي وطيسها؛ نزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحرّض على القتال، والناس على مصافهم يذكرون الله تعالى، وقد قاتل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنفسه قتالاً شديداً، وكان بجانبه الصديق ^(٣)، وقد ظهرت منه شجاعة، وبسالة منقطعة النظير، وكان على استعداد لمقاتلة كل كافر عنيد، ولو كان ابنه، وقد شارك ابنه عبد الرحمن في هذه المعركة مع المشركين، وكان من أشجع الشجعان بين العرب، ومن أنفذ الرماة سهماً في قريش، فلمّا أسلم قال لأبيه: لقد أهدفت لي (أي ظهرت أمامي كهدف واضح) يوم بدر، فملت عنك، ولم أقتلك. فقال له أبو بكر: ولكنك لو أهدفت لي؛ لم أملّ عنك ^(٤).

٥- الصديق، والأسرى:

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فلمّا أسروا الأسارى؛ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر،

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب قصّة بدر رقم (٣٩٥٣).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٥٧) نقلاً عن تاريخ الدعوة، ص ١٢٥.

(٣) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٧٨.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٩٤.

وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟». فقال أبو بكر: يا نبي الله! هم بنو العم، والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما ترى يا بن الخطاب؟». قال: لا والله لا يرسل الله! ما أرى الذي يراه أبو بكر، ولكني أرى أن تمكّننا منهم، فنضرب أعناقهم، فتمكّن علينا من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكّنني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر، وصناديدها.

فهوى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلما كان الغد جئت، فإذا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكر قاعدين يكيان، قلت: يرسل الله! أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة». - شجرة قريبة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى﴾ [الأنفال: ٦٧] إلى قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] فأحل الله لهم الغنيمة^(١).

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: لما كان يوم بدر قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! قومك، وأهلك، استبقهم واستأن بهم، لعل الله أن يتوب عليهم. وقال عمر: يرسل الله! أخرجوك، وكذبوك، قربهم، فاضرب أعناقهم. وقال عبد الله بن رواحة: يرسل الله! انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثم أضرم عليهم ناراً، فقال العباس: قطعت رحمك، فدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يردّ عليهم شيئاً، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر! كمثل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إذ قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر! كمثل نوح، إذ قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وإن مثلك

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٦٣).

يا عمر كمثل موسى إذ قال: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]»^(١).

كان النبي ﷺ إذا استشار أصحابه أوّل من يتكلّم أبو بكر في الشورى، وربما تكلم غيره، وربما لم يتكلّم غيره، فيعمل برأيه وحده، فإذا خالفه غيره أتبع رأيه دون رأي من يخالفه^(٢).

ثانياً: في أحدٍ، وحمراء الأسد:

في يوم أحد تلقى المسلمون درساً صعباً، فقد تفرّقوا من حول النبي ﷺ، وتبعثر الصحابة في أرجاء الميدان، وشاع: أن الرسول ﷺ قُتل، وكان ردُّ الفعل على الصحابة متبايناً، وكان الميدان فسيحاً، وكلُّ مشغولٌ بنفسه، شقَّ الصديق الضُّفوف، وكان أوّل مَنْ وصل إلى رسول الله ﷺ، واجتمع إلى رسول الله أبو بكر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعليّ، وطلحة، والزبير، وعمر بن الخطاب، والحارث بن الصّمة، وأبو دجانة، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وقصدوا مع رسول الله ﷺ الشّعب من جبل أحدٍ في محاولة لاسترداد قوّتهم الماديّة، والمعنويّة^(٣).

وكان الصديق إذا ذكر أحدًا؛ قال: ذلك يومٌ كلُّه لطلحة، ثمّ أنشأ يحدث، قال: كنتُ أوّل مَنْ فاء يوم أحدٍ، فرأيت رجلاً يقاتل في سبيل الله دونه، قال: قلت: كن طلحة، حيث فاتني ما فاتني، وكان بيني وبين المشركين رجلٌ لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه، وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ؛ وقد كسرت رباعيته، وشجَّ وجهه، وقد دخل في وجنتيه حلقتان من حلق المغفر، قال رسول الله ﷺ: «عليكما صاحبكما - يريد طلحة - فقد نزع». فلم نلتفت إلى قوله، قال:

(١) مسند أحمد (١/٣٨٣)؛ تفسير ابن كثير (٢/٣٢٥).

(٢) أبو بكر الصديق، محمد مال الله، ص ٣٢٥.

(٣) مواقف الصديق مع النبي في المدينة، د. عاطف لماضة، ص ٢٧.

ذهبت لأنزع من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسم عليك بحقي لما تركتني، فتركته، فكره تناولها، فيؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرزم عليه بفيه، فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هتماً.. فأصلحنا من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتينا طلحة في بعض تلك الحفار، فإذا به بضع وسبعون من بين طعنة، ورمية، وضربة، وإذا قد قطعت إصبعه فأصلحنا من شأنه^(١).

وتتضح منزلة الصديق في هذه الغزوة من موقف أبي سفيان عندما سأل، وقال: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرّات. فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيئوه. ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرّات. فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيئوه. ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرّات، ثم رجع إلى أصحابه، فقال: أما هؤلاء؛ فقد قتلوا^(٢)... فهذا يدلُّ على ظنِّ أبي سفيان زعيم المشركين حينئذٍ، بأنَّ أعمدة الإسلام، وأساسه: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر^(٣).

وعندما حاول المشركون أن يقبضوا على المسلمين، ويستأصلوا شأفتهم؛ كان التخطيط النبويُّ الكريم قد سبقهم، وأبطل كيدهم، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين مع ما بهم من جراحاتٍ، وقرحٍ شديد للخروج في إثر المشركين، فاستجابوا لله، ولرسوله مع ما بهم من البلاء، وانطلقوا، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت لعروة بن الزبير في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]: يابن أختي! كان أبواك منهم: الزُّبير، وأبو بكرٍ لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصاب يوم أحدٍ، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا؛ قال: «من يذهب في إثرهم؟»، فانتدب منهم سبعين رجلاً: كان فيهم أبو بكرٍ، والزُّبير^(٤).

ثالثاً: في غزوة بني النضير، وبني المصطلق، وفي الخندق، وبني قريظة:

(١) منحة المعبود (١٩/٢) نقلاً عن تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ١٣٠.

(٢) الفتح (١٨٨/٢)، و(٤٠٥/٧).

(٣) مواقف الصديق مع النبي في المدينة، د. عاطف لمامضة، ص ٢٨.

(٤) مسلم رقم (٢٤١٨).

أ- بنو النضير:

خرج النبي ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية القتيلين اللذين قتلتهما عمرو بن أمية من بني عامر على وجه الخطأ؛ لأنَّ عمرًا لم يعلم بالعهد الذي بين بني عامر وبين النبي ﷺ، وكان بين بني النضير، وبني عامر حلفٌ، وعهدٌ، فلمَّا أتاهم النبي ﷺ قالوا: نعم يا أبا القاسم! نعينك على ما أحببت، ثمَّ خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنَّكم لن تجدوا الرَّجل على مثل حاله هذه، ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعدٌ. قالوا: فمن يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرةً، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفرٍ من أصحابه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السَّماء بما أراد القوم، فقام، وخرج إلى المدينة، فلمَّا استلبث النبي ﷺ أصحابه قاموا في طلبه، فرأوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه فقال: رأيته

داخلاً المدينة. فأقبل أصحاب النبي ﷺ حتَّى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به.

فبعث النبي ﷺ محمَّد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، فبعث إليهم أهل النَّفاق يحرضونهم على المقام، ويعدونهم بالنَّصر، فقويت نفوسهم، وحمي حيي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ: أَنَّهُ لا يخرجون، ونابدوه بنقض العهد، فعند ذلك أمر رسول الله ﷺ الناس بالخروج إليهم، فحاصروهم خمس عشرة ليلةً، فتحصَّنوا في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النَّخيل، والتَّحريق، ثمَّ أجلاهم على أَنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة، فنزلت سورة الحشر^(١).

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٤، ص ٨٦.

ب - بنو المصطلق:

أراد بنو المصطلق أن يغزوا المدينة، فخرج لهم رسول الله في أصحابه، فلما انتهى إليهم؛ فدفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق، ويقال: إلى عمّار بن ياسر، وراية الأنصار إلى سعد بن عباد. ثم أمر عمر بن الخطاب فنادى في الناس: أن قولوا: لا إله إلا الله؛ تمنعوا بها أنفسكم، وأموالكم. فأبوا، فتراموا بالنبل، ثم أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسلمين، فحملوا حملة رجل واحد، فما أفلت منهم رجل واحد، وقتل منهم عشرة، وأسر ستائرهم، ولم يقتل من المسلمين سوى رجل واحد^(١).

ج - في الخندق، وبني قريظة:

كان الصديق في الغزوتين مرافقاً للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يوم الخندق يحمل التراب في ثيابه، وساهم مع الصحابة للإسراع في إنجاز حفر الخندق في زمن قياسي، ممّا جعل فكرة الخندق تصيب هدفها في مواجهة المشركين^(٢).

رابعاً: في الحديبية:

خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذي القعدة سنة ست من الهجرة يريد زيارة البيت الحرام في كوكبة من الصحابة عددها أربع عشرة مئة، وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة ليأمن الناس من حربه، وليعلم الناس: أنه إنما خرج زائراً لتعظيم بيت الله الحرام، فبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيناً له من خزاعة، فعاد بالخبر: أن أهل مكة جموعوا لصدّه عن الكعبة، فقال: «أشيروا عليّ أيها الناس». فقال أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يرأسل الله! خرجت عامراً لهذا البيت، لا تريد حربه، أو قتل أحد، فتوجّه له فمن صدّنا عنه؛ قاتلناه، قال: «امضوا على اسم الله». وقد ثارت ثائرة قريش، وحلفوا ألا يدخل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة عنوة، ثم قامت المفاوضات بين أهل مكة ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد عزم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٥٧.

(٢) مواقف الصديق مع النبي في المدينة، ص ٣٢.

على إجابة أهل مكة على طلبهم، إن أرادوا شيئاً فيه صلة رحم^(١).

أ- في المفاوضات:

جاءت وفود قريش لمفاوضة النبي ﷺ، وكان أول من أتى بُدِيل بن ورقاء من خزاعة، فلما علم بمقصد النبي ﷺ والمسلمين؛ رجع إلى أهل مكة، ثم جاء مكرز ابن حفص، ثم الحليس بن علقمة، ثم عروة بن مسعود الثقفي، فدار هذا الحوار بين النبي ﷺ وعروة بن مسعود الثقفي، واشترك في هذا الحوار أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبعض أصحابه^(٢).

قال عروة: يا محمد! أجمعت أوباش الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك، لتفضضها بهم؟ إنَّها قريش؛ قد خرجت معها العوذ، والمطافيل - أي: خرجت رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً - قد لبسوا جلود النُّمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوةً، وإيم الله! لكأنِّي بهؤلاء - يقصد أصحاب النبي ﷺ - قد انكشفوا عنك!!

فقال أبو بكر: امتص بظر^(٣) اللات - وهي صنمٌ ثقيف - أنحن نفراً عنه، وندعه؟^(٤) فقال: مَنْ ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لو لا يدٌ كانت لك عندي لم أجرك بها؛ لأجبتك. وكان الصَّدِّيق قد أحسن إليه قبل ذلك، فرعى حرمة، ولم يجاوبه عن هذه الكلمة. ولهذا قال مَنْ قال من العلماء: إنَّ هذا يدلُّ على جواز التَّصريح باسم العورة للحاجة، والمصلحة، وليس من الفُحش المنهي عنه^(٥).

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشنَّ حرباً نفسيةً على المسلمين حتى يهزمهم معنوياً، ولذلك لَوَّح بقوة المشركين العسكرية، معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنَّه سيؤول

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٧.

(٣) البظر: ما تقطعه الختانة من بضع المرأة عند ختانها.

(٤) البخاري، كتاب الشروط في الجهاد رقم (٢٧٣٢).

(٥) أبو بكر الصَّدِّيق، محمد مال الله، ص ٣٥٠.

لصالح قريش لا محالة، وحاول أن يوقع الفتنة، والإرباك في صفوف المسلمين، وذلك حينما حاول

إضعاف الثقة بين القائد وجنوده، عندما قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أجمعت أوباشاً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، وكان ردُّ الصديق صارماً، ومؤثراً في معنويات عروة، ونفسيته، فقد كان موقف الصديق في غاية العزة الإيمانية، التي قال الله فيها: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ب - موقفه من الصُّلح:

ولما توَّصل المشركون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصُّلح بقيادة سهيل بن عمرو؛ أصغى الصديق إلى ما وافق عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من طلب المشركين، رغم ما قد يظهر للمرء أن في هذا الصُّلح بعض التَّجاوز، أو الإجحاف بالمسلمين، وسار على هدي النبي صلى الله عليه وسلم؛ ليقينه بأنَّ النبي لا ينطق عن الهوى، وأنَّه فعل ذلك لشيءٍ أطلعه الله عليه^(١).

وقد ذكر المؤرخون: أنَّ عمر بن الخطاب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً معارضته لهذه الاتفاقية، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أُلست برسول الله؟ قال: «بلى». قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى». قال: أولسوا بالمشركين؟ قال: «بلى». قال: فعلام نعطي الدِّنيَّة في ديننا؟ قال: «إني رسول الله، ولست أعصيه»^(٢). وفي رواية: «أنا عبد الله، ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يُضَيِّعني»^(٣). قلت: أوليس كنت تحدَّثنا أنَّا سنأتي البيت، فنطوف به؟ قال: «بلى! فأخبرتكَ أنَّا نأتيه هذا العام؟». قلت: لا، قال: «فإنك آتية، ومطوَّف به». قال عمر: فأُتيت أبا بكرٍ، فقلت له: يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال: أولسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قال: فعلام نعطي الدِّنيَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر -

(١) تاريخ الدَّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٦).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٦)؛ تاريخ الطبري (٢/ ٣٦٤).

ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة: الزم غرزه، فإنني أشهد: أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف أمر الله، ولن يضيعه الله^(١)، وكان جواب الصديق مثل جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي صلى الله عليه وسلم، فكان أبو بكر رضي الله عنه أكمل موافقة لله، وللنبي صلى الله عليه وسلم من عمر، مع أن عمر - رضي الله عنه - مُحدث، ولكن مرتبة الصديق فوق مرتبة المُحدث؛ لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله، ويفعله^(٢).

وقد تحدث الصديق فيما بعد عن هذا الفتح العظيم، الذي تم في الحديبية، فقال: ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربّه، والعباد يعجلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد، لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يُقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بدنة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينحرفها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه، وأنظر إلى سهيل يلقط من شعره، وأراه يضعه على عينه، وأذكر إباءه أن يُقرّ يوم الحديبية بأن يكتب: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويأبى أن يكتب: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمدتُ الله؛ الذي هداه للإسلام^(٣).

لقد كان الصديق - رضي الله عنه - أسد الصحابة رأياً، وأكملهم عقلاً^(٤).

خامساً: في غزوة خيبر، وسرية نجد، وبني فزارة:

ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حصاراً على خيبر، واستعد لقتالهم، فكان أول قائد يرسله صلى الله عليه وسلم أبو بكر - رضي الله عنه - إلى بعض حصون خيبر، فقاتل، ثم رجع، ولم يكن فتح، وقد جهد، ثم بعث عمر، فقاتل، ثم رجع، ولم يكن فتح، ثم قال: «لأعطين الراية غداً

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٤٦).

(٢) الفتاوى لابن تيمية، مرجع سابق، ج ١١، ص ٢٠٧.

(٣) كنز العمال (٣٠١٣٦) نقلاً عن خطب أبي بكر الصديق، محمد أحمد عاشور، ص ١١٧.

(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٦١.

رجلاً يحبُّ الله ورسوله». فكان علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١). وأشار بعض أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع النخيل حتَّى يتخن في اليهود، ورضي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فأسرع المسلمون في قطعه، فذهب الصديق إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأشار عليه بعدم قطع النخيل لما في ذلك من الخسارة للمسلمين سواءً فتحت خيبر عنوةً، أو صلحاً، فقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشورة الصديق، ونادى بالمسلمين بالكف عن قطع النخيل، فرفعوا أيديهم^(٢).

ب - في نجد:

أخرج ابن سعد عن إياس بن سلمة، قال: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا بكرٍ إلى نجد، وأمره علينا، فبيتنا ناساً من هوازن، فقتلت بيدي سبعة أهل أبيات، وكان شعارنا: أَمِتْ أَمِتْ^(٣).

ج - في بني فزارة:

روى الإمام أحمد من طريق إياس بن سلمة عن أبيه، حدَّثني أبي، قال: خرجنا مع أبي بكرٍ ابن أبي قحافة، وأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا، فغزونا بني فزارة، فلما دنونا من الماء؛ أمرنا أبو بكرٍ فعرَّسنا، فلما صلَّينا الصُّبح؛ أمرنا أبو بكرٍ فشنَّ الغارة، فقتلنا على الماء من مَرِّ قِبَلنا، قال سلمة: ثمَّ نظرت إلى عنقٍ من الناس فيه الذُّرْبَةُ والنِّساء نحو الجبل، فرميت بسهم، فوقع بينهم وبين الجبل. قال: فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكرٍ حتَّى أتيت على الماء، وفيهم امرأة عليها قشع من آدم، ومعها ابنةٌ لها من أحسن العرب، قال: فنفلني أبو بكر، فما كشفت لها ثوباً حتَّى قدمت المدينة، ثمَّ بتُّ فلم أكشف لها ثوباً، قال: فلقيني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السُّوق فقال: «يا سلمة! هب لي المرأة». قال: فقلت والله يرسل الله! لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً! قال: فسكت رسول الله، وتركني حتَّى إذا كان من الغد لقيني رسول الله في السُّوق، فقال لي: «يا سلمة! هب لي المرأة». قال: فقلت: والله يرسل الله! ما كشفت لها

(١) فتوح البلدان (١/٢٦).

(٢) المغازي للواقدي (٢/٦٤٤).

(٣) الطبقات الكبرى (١/١٢٤)؛ أبو داود، كتاب الجهاد، باب في البيات (٣/٤٣).

ثوبًا، وهي لك يرسل الله! قال: فبعث بها رسول الله إلى أهل مكة، وفي أيديهم أسارى من المسلمين، ففداهم رسول الله بتلك المرأة^(١).

سادسًا: في عمرة القضاء، وفي ذات السلاسل:

أ- في عمرة القضاء:

كان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضمن المسلمين الذين ذهبوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليعمروا عمرة القضاء مكان عمرتهم التي صدَّهم المشركون عنها^(٢).

ب- في سرية ذات السلاسل:

قال رافع بن عمرو الطائي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل^(٣)، وبعث معه في ذلك الجيش أبا بكر، وعمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسراة^(٤) أصحابه، فانطلقوا حتى نزلوا جبل طي، فقال عمرو: انظروا إلى رجل دليل بالطريق، فقالوا: ما نعلمه إلا رافع بن عمرو، فإنه كان ربيلا^(٥) في الجاهلية. قال رافع: فلمّا قضينا غزائنا، وانتهيت إلى المكان الذي كنّا خرجنا منه، توسّمت أبا بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكانت له عباءة فذكيه^(٦)، فإذا ركب خلّها عليه بخلال^(٧)، وإذا نزل بسطها فأتيته، فقلت: يا صاحب الخلال! إنّي توسمك من بين أصحابك، فاءتني بشيء إذا حفظته كنت مثلكم، ولا تطوّل عليّ فأنسى. فقال: تحفظ أصابعك الخمس؟ قلت: نعم، قال: تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وتقيم الصلوات الخمس، وتؤتي زكاة مالك إن كان لك مال، وتحج البيت، وتصوم رمضان: هل حفظت؟ قلت: نعم، قال: وأخرى لا تؤمّن على اثنين. قلت:

(١) أحمد (٤/٤٣٠)؛ الطبقات (٤/١٦٤).

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية، ص ١٤٢.

(٣) ذات السلاسل: مكان وراء وادي القرى. وبينها وبين المدينة عشرة أيام.

(٤) سراة: شرفاء.

(٥) الرّيبيل: اللص يغزو وحده، ويغير على غيره.

(٦) منسوبة إلى فلك، وهي قرية من خير، بينها وبين المدينة ست ليالٍ.

(٧) خلّها عليه: أي جمع بين طرفيها بخلال من عود، أو حديد.

وهل تكون الإمرة إلا فيكم أهل المدر^(١).

فقال: يوشك أن تغشو حتى تبلغك، ومن هو دونك.

إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لما بعث نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل الناس في الإسلام، فمنهم من دخل الله، فهداه الله، ومنهم من أكرهه السيف، فكلَّهم عواد الله، وجيران الله، وخفارة^(٢) الله. إِنَّ الرَّجُلَ إذا كان أميراً، فتظالم الناس بينهم فلم يأخذ لبعضهم من بعض؛ انتقم الله منه، إِنَّ الرَّجُلَ منكم لتؤخذ شاة جاره فيظلُّ ناتئ^(٣) عضلته غضباً لجاره، والله من وراء جاره^(٤).

ففي هذه النصيحة دروسٌ وعبرٌ لأبناء المسلمين يقدِّمها الصَّحابِيُّ الجليل أبو بكر الصَّديق؛ الذي تربَّى على الإسلام، وعلى يد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهمِّها:

١ - أهميَّة العبادات: الصلاة: لأنها عماد الدين، والزكاة، والصَّوم، والحج.

٢ - عدم طلب الإمارة (ولا تكوننَّ أميراً) تماماً كما أوصى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا ذرَّ الغفاري: «وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي، وندامة، إلا من أخذها بحقها»^(٥). ولذلك فإنَّ أبا بكرٍ هو الفاهم الواعي لكلام حبيبه محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. جاء في رواية: وأنَّه من يكح أميراً، فإنَّه أطول الناس حساباً، وأغلظهم عذاباً، ومن لا يكن أميراً؛ فإنَّه من أيسر الناس حساباً، وأهونهم عذاباً^(٦)، فهذا فهمُ الصَّديق لمقام الإمارة.

٣ - إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الظلم على نفسه، ونهى عباده أن يتظالموا، أن يظلم بعضهم بعضاً؛ لأنَّ الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، كما نهى عن ظلم المؤمنين: «من اذى لي ولياً؛ فقد اذنته

(١) المدر: الطَّين اللزج المتماسك والمقصود سكان البيوت المنيَّة.

(٢) الخفارة: الذمَّة، والعهد، والأمان.

(٣) الناتئ: المرتفع، والمتنفخ.

(٤) العضلة: هي القطعة من اللحم الشديد. انظر: مجمع الزوائد (٥/٢٠٢).

(٥) مسلم، كتاب الإمارة رقم (١٨٢٥).

(٦) استخلاف أبي بكر الصَّديق، جمال عبد الهادي، ص ١٣٩.

بالحرب»^(١). وهم جيران الله، وهم عواد الله، والله أحق أن يغضب لجيرانه^(٢).

٤- على عهد الصدر الأوّل كان أمراء الأُمّة خيارُها، وجاء وقت فُشُو أمرها (الإمارة) وكثرت حتى نالها مَنْ ليس لها بأهلٍ، إنّ هذه الإمارة ليسيرةٌ، وقد أوشكت أن تفشو حتى ينالها من ليس لها بأهلٍ^(٣).

٥- وفي غزوة ذات السلاسل ظهر موقفٌ متميّزٌ للصديق في احترام الأمراء ممّا يثبت: أنّ أبا بكرٍ كان صاحب نفسٍ تنطوي على قوّة هائلةٍ، وقدرةٍ متميّزةٍ في بناء الرجال، وتقديرهم، واحترامهم^(٤)، فعن عبد الله بن بريدة، قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل وفيهم أبو بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فلمّا انتهوا إلى مكان الحرب أمرهم عمرو أن لا ينوروا ناراً، فغضب عمر، وهمّ أن يأتيه، فنهاه أبو بكر، وأخبره: أنّ الرسول ﷺ لم يستعمله عليك إلا لعلمه بالحرب، فهذا عنه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥).

سابعاً: في فتح مكّة، وحنين، والطائف:

أ- في فتح مكّة ٨ هـ:

كان سبب الفتح بعد هدنة الحديبية ما ذكره ابن إسحاق، قال: حدّثني الزُّهريُّ عن عروة بن الزُّبير، عن المسور بن مخرمة، ومروان بن الحكم: أنّهما حدّثاه جميعاً قالا: في صلح الحديبية: أنّه من شاء أن يدخل في عقد محمّدٍ دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدهم دخل، فتواثبت خزاعة، وقالوا: نحن ندخل في عقد محمّدٍ، وعهده، وتواثبت بنو بكرٍ، وقالوا: نحن ندخل في عقد قريشٍ، وعهدهم، فمكثوا في

(١) مسند أحمد (٦/٢٥٦).

(٢) استخلاف أبي بكر، جمال عبد الهادي، ص ١٤٠.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٣٨٢.

(٥) الحاكم في المستدرک، وقال: حديثٌ صحيح الإسناد، ولم يخرّجاه، وقال الذهبي: صحيح. كتاب المغازي (٣/٤٢).

ذلك نحو السبعة أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكرٍ، وثبوا على خزاعة ليلاً بماءٍ يقال له: الوثير - وهو قريبٌ من مكة - وقالت قريش: ما يعلم بنا محمدٌ، وهذا الليل، وما يرانا من أحدٍ. فأعانوهم عليهم بالكرع والسلاح، وقتلوهم معهم للضغن على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقدم عمرو بن سالم إلى المدينة، فأنشد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلاً:

اللَّهُمَّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حَلَفَ آبِينَا وَأَبِيكَ الْأَتْلَدَا
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدًا
فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نُصِرْتَ يَا عمرو بن سالم!»^(١).

وتجهَّز النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع صحابته للخروج إلى مكة، وكنم الخبر، ودعا الله أن يُعمِّي على قريش حتى تفاجأ بالجيش المسلم يفتح مكة، وخافت قريش أن يعلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما حدث، فخرج أبو سفيان من مكة إلى رسول الله. فقال: يا محمد! اشدُّ العقد، وزدنا في المدَّة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولذلك قدمت؟ هل كان من حدث قبلكم؟». فقال: معاذ الله! نحن على عهدنا، وصلحنا يوم الحديبية، لا نغيِّر، ولا نبَدِّل، فخرج من عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقصد مقابلة الصحابة عليهم الرِّضوان^(٢).

١ - أبو بكر وأبو سفيان:

طلب أبو سفيان من أبي بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن يجدد العقد، ويزيدهم في المدَّة، فقال أبو بكر: جوارى في جوار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله لو وجدت الذرَّ تقاتلكم؛ لأعتها عليكم. وهنا تظهر فطنة الصديق، وحنكته السياسية، ثم يظهر الإيمان القويُّ بالحقِّ الذي هو عليه، ويعلن أمام أبي سفيان دون خوف أنه مستعدُّ لحرب قريش بكلِّ ما يمكن، ولو وجد الذرَّ تقاتل قريشاً؛ لأعانها عليها^(٣).

(١) السيرة النبويَّة لابن هشام (٤/ ٤٤).

(٢) التاريخ السياسي والعسكري، د. على معطي، ص ٣٦٥؛ الطبري (٣/ ٤٣).

(٣) تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة، ص ١٤٥.

٢- بين عائشة وأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

دخل الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على عائشة، وهي تغربل حنطة، وقد أمرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن تخفي ذلك.. فقال لها أبو بكر: يا بنية! لم تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت، فقال: أريد رسول الله أن يغزو؟ فصمتت، فقال: لعلَّه يريد بني الأصفر - أي الروم - فصمتت، فقال: لعلَّه يريد أهل نجد؟ فصمتت، فقال: لعلَّه يريد قريشاً، فصمتت، فدخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال الصديق له: يراسل الله! أتريد أن تخرج مخرجاً؟ قال: «نعم». قال: لعلَّك تريد بني الأصفر؟ قال: «لا». قال: أتريد أهل نجد؟ قال: «لا». قال: فلعلَّك تريد قريشاً؟ قال: «نعم». قال أبو بكر: يراسل الله! أليس بينك وبينهم مدَّة؟ قال: «ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب؟». وهنا سلَّم أبو بكر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجَهَّز نفسه ليكون مع القائد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه المهمة الكبرى، وذهب مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المهاجرون، والأنصار، فلم يتخلف منهم أحد^(١).

٣- الصديق في دخول مكة:

لَمَّا دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة في عام الفتح، وكان بجانبه أبو بكر، رأى النساء يلطمن وجوه الخيل، فابتسم إلى أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقال: يا أبا بكر! كيف قال حسان؟ فأنشد أبو بكر:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُشِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاءَ
يَبَارِينَ الْأَسِنَّةِ صَمْغِيَاتٍ عَلَى أَكْتَافِهَا الْأَسْلُ الظَّمَاءِ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مَتَمَرَاتٍ تَلْطِمُهُنَّ بِالْخُمْرِ النِّسَاءُ^(٢)

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادخلوها من حيث قال حسان»^(٣). وقد تَمَّتِ النِّعْمَةُ عَلَى

(١) مغازي الواقدي (٧٩٦/٢).

(٢) الحاكم في المستدرک: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي (٧٢/٣).

(٣) المصدر السابق نفسه (٧٢/٣)؛ الطبري (٤٢/٣).

الصَّديق في هذا الجوّ العظيم بإسلام أبيه أبي قحافة^(١).

ب - في حنين:

أخذ المسلمون يوم حنين درساً قاسياً؛ إذ لحقتهم هزيمةٌ في أوّل المعركة، جعلتهم يفرّون من هول المفاجأة، وكانوا كما قال الإمام الطبري - رَحِمَهُ اللَّهُ -: فانشمروا، لا يلوي أحدٌ على أحدٍ^(٢)، وجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أين أيُّها الناسُ؟! هلما إليّ، أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمّد بن عبد الله.. يا معشر الأنصار! أنا عبد الله ورسوله». ثمّ نادى عمّه العباس وكان جهوريّ الصّوت، فقال له: «يا عباس! نادِ: يا معشر الأنصار! يا أصحاب السّمرّة!»^(٣). كان هذا هو حال المسلمين في أوّل المعركة، النبيّ وحده، لم يثبت معه أحدٌ إلا قلةً، ولم تكن الفتّة التي صبرت مع النبيّ إلا فتّةً من الصّحابة يتقدّمهم الصّديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثمّ نصرهم الله بعد ذلك نصراً عزيزاً مؤزّراً^(٤). وكانت هناك بعضُ المواقف للصّديق منها:

١ - فتوى الصّديق بين يدي رسول الله:

قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرت إلى رجل من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين، واخر من المشركين يخته من ورائه ليقته، فأسّرت إلى الذي يخته، فرفع يده ليضربني، وأضرب يده، ففقطعتها، ثمّ أخذني فضمّني ضمّاً شديداً حتى تخوّفت، ثمّ ترك، فتحلّل، ودفعته ثمّ قتله، وانهمز المسلمون وانهمز معهم، فإذا بعمر بن الخطاب في الناس، فقلت له: ما شأن الناس؟ قال: أمر الله، ثمّ تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله: «من أقام بينة على قتيل قتله؛ فله سلبه». فقامت لأتمسّ بينة على قتيلي فلم أر أحداً يشهد لي، فجلست، ثمّ بدا لي فذكرت أمره لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رجلٌ من جلسائه: سلاح هذا القتيل الذي يذكر عندي، فأرضه منه، فقال أبو بكر: كلا لا يعطه^(٥) أصيب من

(١) تاريخ الدّعوة الإسلاميّة، ص ١٤٧.

(٢) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٣، ص ٧٤.

(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين رقم (١٧٧٥).

(٤) مواقف الصّديق مع النبي في المدينة، ص ٤٣.

(٥) لا يعطيه: أي لا يعطيه رسول الله. وقوله: أصيب: نوع من الطيور، شبه له لعجزه، وضعفه.

قريش، ويدع^(١) أسداً من أسد الله يقاتل عن الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال: فقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأذاه إلي، فاشتريت منه خرفاً^(٢)، فكان أوّل مالٍ تأثّلت في الإسلام^(٣).

إنّ مبادرة الصّدّيق في الرّجر، والرّدع، والفتوى، واليمين على ذلك في حضرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمّ يصدقه الرّسول فيما قال، ويحكم بقوله خصوصية شرف، لم تكن لأحدٍ غيره^(٤). ونلاحظ في الخبر السّابق: أنّ أبا قتادة الأنصاريّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حرص على سلامة أخيه المسلم، وقتل ذلك الكافر بعد جهدٍ عظيم، كما أنّ موقف الصّدّيق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فيه دلالةٌ على حرصه على إحقاق الحقّ، والدّفاع عنه، ودليلٌ على رسوخ إيمانه، وعمق يقينه، وتقديره لرابطة الأخوة الإسلاميّة، وأنّها بمنزلةٍ رفيعة بالنّسبة له^(٥).

٢- الصّدّيق، وشعر عبّاس بن مرداس:

حين استقلّ العبّاس بن مرداس عطاءه من غنائم حنين، قال شعراً عاتب فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال:

كَانَتْ نِهَابًا تَلَفَيْتُهَا	بِكَرِّي عَلَى الْمُهْرِ فِي الْأَجْرِعِ ^(٦)
وإِيقَاطِي الْقَوْمَ أَنْ يَرْقُدُوا	إِذَا هَجَعَ النَّاسُ لَمْ أَهْجَعْ
فَأَصْبَحَ نَهْبِي وَنَهْبُ الْعَبِي	بِدَيْنِ عَيْنَةٍ وَالْأَقْرِعِ ^(٧)
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تُدْرَأٍ ^(٨)	فَلَمْ أُعْطَ شَيْئًا وَلَمْ أَمْنَعْ

(١) يدع: يترك.

(٢) خرفاً: أي: بستاناً، أقام الثمر مقام الأصل.

(٣) البخاريّ، كتاب المغازي رقم (٤٣٢٢).

(٤) الرّياض النّضرة في مناقب العشرة، لأبي جعفر محبّ الدّين، ص ١٨٥.

(٥) التّاريخ الإسلاميّ للحميدي، مرجع سابق، ج ٨، ص ٢٦.

(٦) «الأجرع»: المكان السّهّل.

(٧) العبيد: اسم فرس عبّاس بن مرداس.

(٨) «ذا تدراً»: ذا دُفع، وصدّ لغارات الأعداء.

الْأَفَائِلَ أُعْطِيَتْهَا عَدِيدَ قَوَائِمِهَا الْأَرْبَعِ^(١)
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ شَيْخِي فِي الْمَجْمَعِ
عُومًا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا وَمَنْ تَضَعِ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعِ^(٢)
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اذْهَبُوا، فَاقْطَعُوا عَنِّي لِسَانَهُ». فَأَعْطَوْهُ؛ حَتَّى رَضِيَ، فَكَانَ
ذَلِكَ قَطْعُ لِسَانِهِ الَّذِي أَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

وَأَتَى الْعَبَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْتَ الْقَائِلُ:
«فَأَصْبَحَ نَهْبِي وَنَهْبُ الْعَبِيدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنَةٍ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَيْنَ عَيْنَةٍ وَالْأَقْرَعِ. فَقَالَ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُمَا وَاحِدٌ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَشْهَدُ أَنَّكَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ
الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]^(٤).

ج - فِي الطَّائِفِ:

فِي حِصَارِ الطَّائِفِ وَقَعَتْ جَرَاحَاتٌ فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَشَهَادَةٌ، وَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَهْلِ الطَّائِفِ الْحِصَارَ، وَرَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَمَنْ استَشْهَدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رُمِيَ بِسَهْمٍ، فَتُوفِيَ مِنْهُ بِالْمَدِينَةِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٥).

وَعِنْدَمَا قَدِمَ وَفَدٌ ثَقِيفٌ لِلْمَدِينَةِ لِيُعْلِنُوا إِسْلَامَهُمْ، فَمَا إِنْ ظَهَرَ الْوَفْدُ قَرِبَ الْمَدِينَةَ
حَتَّى تَنَافَسَ كُلُّ مَنْ أَبِي بَكْرٍ، وَالْمَغِيرَةُ عَلَى أَنْ يَكُونَ هُوَ الْبَشِيرُ بِقُدُومِ الْوَفْدِ لِلرَّسُولِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفَازَ الصَّدِيقُ بِتِلْكَ الْبَشَارَةِ^(٦)، وَبَعْدَ أَنْ أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ، وَكُتِبَ لَهُمْ رَسُولٌ

(١) الْأَفَائِلُ: الصَّغَارُ مِنَ الْإِبِلِ، الْوَاحِدُ أَفِيلٌ.

(٢) السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ (٤/ ١٤٧).

(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسَهُ.

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسَهُ.

(٥) السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ لِابْنِ هِشَامٍ (٤/ ١٩٣).

(٦) تَارِيخُ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ص ١٥١.

الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابهم، وأراد أن يؤمّر عليهم أشار أبو بكر بعثمان بن أبي العاص - وكان أحدثهم سنًا - فقال الصديق: يراسل الله! إني رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلّم القرآن^(١)، فقد كان عثمان بن أبي العاص كلّما نام قومه بالهجرة، عمد إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسأله في الدين واستقراه القرآن حتّى فقه في الدين، وعلم، وكان إذا وجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نائمًا عمد إلى أبي بكر، وكان يكتّم ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعجب منه، وأحبه^(٢).

وعندما علم الصديق بصاحب السهم الذي أصاب ابنه كانت له مقولة تدلّ على عظمة إيمانه، فعن القاسم بن محمّد، قال: رُمي عبد الله بن أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بسهم يوم الطائف، فانتقضت به بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربعين ليلة، فمات، فقدم عليه وفد ثقيف، ولم يزل ذلك السهم عنده، فأخرجه إليهم، فقال: هل يعرف هذا السهم منكم أحد؟ فقال سعيد بن عبيد، أخو بني عجلان: هذا سهم أنا برّيته، ورشته^(٣)، وعقبته^(٤)، وأنا رميت به. فقال أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فإنّ هذا السهم الذي قتل عبد الله بن أبي بكر، فالحمد لله؛ الذي أكرمه بيدك، ولم يهنك بيده، فإنّه أوسع لكما^(٥).

ثامنًا: في غزوة تبوك، وإمارة الحجّ، وفي حجة الوداع:

أ- في تبوك:

خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشٍ عظيمٍ في غزوة تبوك، بلغ عدده ثلاثين ألفًا، وكان يريد قتال الروم بالشّام، وعندما تجمّع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اختار الأمراء، والقادة، وعقد الألوية، والرّايات لهم، فأعطى لواءه الأعظم

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، دار الكتاب العربي، ط ١ (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، ص ٦٧٠.

(٣) رشته: صنعت فيه الرّيش.

(٤) عقبته: جذبته من عقبه.

(٥) خطب أبي بكر الصديق، محمّد أحمد عاشور، ص ١١٨، والرّواية فيها انقطاع.

إلى أبي بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).. وفي هذه الغزوة ظهرت بعض المواقف للصديق منها:

١ - موقفه من وفاة الصحابي عبد الله ذي البجادين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قمت في جوف الليل، وأنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلةً من نارٍ من ناحية العسكر، قال فاتَّبَعْتُهَا أَنْظُرَ إِلَيْهَا، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبو بكر، وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزمي قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله في حفرته، وأبو بكر، وعمر يدلّيانه إليه، وهو يقول: «أدليا إليّ أخاكما». فدليّاه إليه، فلما هيّأه بشقّه قال: «اللهم إني أمسيْتُ راضياً عنه، فارض عنه». قال الراوي (عبد الله بن مسعود): يا ليتني كنتُ صاحب الحفرة^(٢).

وكان الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إذا أدخل الميت اللحد، قال: باسم الله، وعلى ملّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وباليقين وبالبعث بعد الموت^(٣).

٢ - طلب الصديق من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدعاء للمسلمين:

قال عمر بن الخطاب: خرجنا إلى تبوك في قيظٍ شديدٍ، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطشٌ، حتى ظننّا أنّ رقابنا ستقطع، حتّى إنّ الرّجل لينحر بغيره فيعتصر فرثه، فيشرّبه، ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يراسل الله! إنّ الله قد عودك في الدّعاء خيراً، فادع الله، قال: «أتحبّ ذلك؟». قال: نعم، فرفع يديه، فلم يردّهما حتّى قالت السّماء - أي: تهيّأت لإنزال مائها - فأطلّت - أي: أنزلت مطراً خفيفاً - ثم سكبت، فتملّؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدّها جاوزت العسكر^(٤).

٣ - نفقة الصديق في تبوك:

حثّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة في غزوة تبوك على الإنفاق بسبب بعدها، وكثرة

(١) صفة الصفوة (١/٢٤٣).

(٢) صحيح السيرة النبوية، ص ٥٩٨.

(٣) مصنف عبد الرزاق (٣/٤٩٧) نقلاً عن موسوعة فقه الصديق، ص ٢٢٢.

(٤) ابن حبان، كتاب الجهاد، باب غزوة تبوك، رقم ١٧٠٧.

المشركين فيها، ووعد المنافقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كلُّ حسب مقدرته، وكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صاحب القِدْح المُعَلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة^(١).

وتصدَّق عمر بن الخطاب بنصف ماله، وظنَّ: أنَّه سيسبق أبا بكرٍ بذلك، وترك الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك، حيث قال: أمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً أن نتصدَّق، فوافق ذلك ما لا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بكل ما عنده، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما أبقيت لأهلك؟». قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقتك إلى شيء أبداً^(٢).

كان فعل عمر فيما فعله من المنافسة والغبطة مباحاً، ولكن حال الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أفضل منه؛ لأنَّه خالٍ من المنافسة مطلقاً، ولا ينظر إلى غيره^(٣).

ب - الصديق أمير الحج سنة ٩ هـ:

كانت تربية المجتمع وبناء الدولة في عصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستمرة على جميع الأصعدة، والمجالات العقائدية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والعسكرية، والتعبدية، وكانت فريضة الحج لم تمارس في السَّنوات الماضية، وحبَّجَّ عام ٨ هـ بعد الفتح كُلف بها عتَّاب بن أسيد، ولم تكن قد تميَّزت حبَّجَّة المسلمين عن حبَّجَّة المشركين^(٤)، فلمَّا حلَّ موسم الحجِّ، أراد الحجَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنَّه قال: «إنه يحضر البيت عراً مشركون يطوفون بالبيت، فلا أحب أن أحجَّ حتى لا يكون ذلك».

فأرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصديق أميراً على الحجِّ سنة تسع من الهجرة، فخرج أبو بكر الصديق بركب الحجيج، نزلت سورة براءة، فدعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليّاً - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٦١٥.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، حديث رقم (١٦٧٨) وحسنه الألباني.

(٣) الفتاوى لابن تيمية، مرجع سابق، ج ١٠، ص ١١٧.

(٤) دراسات في عهد النبوة، عماد الدين خليل، ص ٢٢٢.

- وأمره أن يلحق بأبي بكر الصديق، فخرج على ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العضباء حتى أدرك الصديق أبا بكرٍ بذي حليفة، فلما راه الصديق قال له: أميرٌ، أم مأمورٌ؟ فقال: بل مأمورٌ. ثم سار، فأقام أبو بكرٍ للناس الحجَّ على منازلهم، التي كانوا عليها في الجاهلية، وكان الحجُّ في هذا العام في ذي الحجة كما دلَّت على ذلك الروايات الصحيحة، لا في شهر ذي القعدة كما قيل.

وقد خطب الصديق قبل التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول، فكان يُعرِّفُ الناس مناسكهم: في وقوفهم، وإفاضتهم، ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات... إلخ، وعليَّ بن أبي طالبٍ يخلفه في كُلِّ موقفٍ من هذه المواقف، فيقرأ على الناس صدر سورة براءة، ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة: «لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهدٌ، فعهدُه إلى مدَّته، ولا يحجُّ بعد العام مشركٌ»^(١).

وقد أمر الصديق أبا هريرة في رهطٍ آخر من الصحابة لمساعدة عليَّ بن أبي طالبٍ في إنجاز مهمَّته^(٢).

وقد كلَّف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليًّا بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحجِّ، مراعاةً لما تعارف عليه العرب فيما بينهم من عقد العهود ونقضها ألا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة، أو رجل من رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاة للإسلام، فلذلك تدارك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمر، وأرسل عليًّا بذلك، فهذا هو السبب في تكليف عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتبليغ صدر سورة براءة، لا ما زعمته الإمامية من أنَّ ذلك للإشارة إلى أنَّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحقُّ بالخلافة من أبي بكرٍ، وقد علَّق على ذلك الدكتور محمد أبو شهبه، فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصديق له: أميرٌ، أم مأمورٌ؟^(٣) وكيف يكون المأمور أحقَّ بالخلافة من

(١) صحيح السيرة النبوية، ص ٦٢٥.

(٢) السيرة النبوية لأبي شهبه، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٣٧.

(٣) صحيح السيرة النبوية، ص ٥٢٤.

الأمير^(١).

وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى، وهي حجة الوداع^(٢)، لقد أعلن في حجة أبي بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى، فبعد هذا الإعلان الذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة، أيقنت تلك القبائل: أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلاً، فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها، ودخولها في التوحيد^(٣).

ومن الشبه المثارة من قبل بعض الرافضة أن النبي صلى الله عليه وسلم أنفذ أبا بكر رضي الله عنه لأداء سورة براءة، في موسم الحج عام تسعة للهجرة، ثم أنفذ علياً وأمره أن يتولى هو ذلك^(٤)، وهذا يدل على فضل عليٍّ على أبي بكر رضي الله عنه.

والجواب: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يردف علياً بأبي بكر لتفضيله عليه، ولكن لينبذ إلى المشركين عهدهم؛ لأن عاداتهم كانت جارية أنه لا يعقد العقود ولا يحلها إلا المطاع، أو رجل من أهل بيته، فلم يكونوا يقبلون ذلك من كل أحد^(٥). وفي الصحيح: ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً، فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا علي في أهل منى يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان^(٦). وقد جاء في رواية الطبراني: أن جبريل عليه السلام هو الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إنه لن يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك^(٧).

(١) السيرة النبوية لأبي شهبه، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٤٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) قراءة سياسية للسيرة النبوية، قلعجي، ص ٢٨٣.

(٤) منهاج السنة النبوية، (٨ / ٢٩٦).

(٥) الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، أبو بكر ابن العربي، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ، (٢ / ٢٤٤)؛ منهاج السنة النبوية (٨ / ٢٩٦).

(٦) صحيح البخاري، (١ / ٨٣)، رقم: ٣٦٩.

(٧) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبه، دار القلم، دمشق، الطبعة الثامنة، ١٤٢٧ هـ، (٢ / ٥٣٩).

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمل أبا بكر على الحج سنة تسع فما ردة ولا رجع بل هو الذي حج بالناس فكان عليّ من جملة رعيته إذ ذاك يصلي خلفه ويسير بسيره^(١). وكيف يصح أن يستدل من هذه القصة على تفضيل عليّ على أبي بكر، وقد قال بنفسه أنه جاء تابعا لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد صح في كتب الأحاديث والسير^(٢) أن عليا لما خرج من المدينة مسرعا ووصل قرب أبي بكر وسمع أبو بكر حفيف ناقة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اضطرب وظن أن الرسول جاء بنفسه لأداء الحج فأمر الجيش كلهم بالوقوف، فإذا عليّ طلع عليهم فاستفسر منه بعد ما لاقاه: «أمير أنت أم مأمور؟» فقال علي: «بل أنا مأمور»^(٣).

قال أبو محمد ابن حزم: واعترض علينا بعض الجهال ببعثة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب خلف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنهما في الحجة التي حجها أبو بكر وأخذ براءة من أبي بكر وتولى علي تبليغها إلى أهل الموسم وقراءتها عليهم. وهذا من أعظم فضائل أبي بكر لأنه كان أميراً على علي بن أبي طالب وغيره من أهل الموسم لا يدفعون إلا بدفعه ولا يقفون إلا بوقوفه ولا يصلون إلا بصلاته وينصتون إذا خطب وعلي في الجملة كذلك وسورة براءة وقع فيها فضل أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وذكره في أمر الغار وخروجه مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكون الله تعالى معها فقراءة علي لها أبلغ في إعلان فضل أبي بكر على علي وعلى سواه وحجة لأبي بكر قاطعة^(٤).

وقال محمد أبو شهبة رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصديق له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير^(٥)، أو أفضل منه.

ج - في حجة الوداع:

- (١) منهاج السنة النبوية، (٨ / ٢٩٦)، المنتقى من منهاج الاعتدال، الذهبي، (ص ٥٣٩).
- (٢) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبو إسحاق أبو إبراهيم الثعلبي، دار التفسير، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦ هـ، (٨ / ٥).
- (٣) السيوف المشرقة ومختصر الصوابع المحرقة، (ص ٥٢٧).
- (٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، (٤ / ١١٥).
- (٥) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، (٢ / ٥٤٠).

روى الإمام أحمد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بسنده إلى عبد الله بن الزُّبَيْر عن أبيه: أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَجَّاجًا، حَتَّى إِذَا أَدْرَكْنَا (العرج) ^(١) نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَلَسَتْ عَائِشَةُ جَنْبَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْتُ إِلَى جَنْبِ أَبِي، وَكَانَتْ زِمَالَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَزِمَالَةُ أَبِي بَكْرٍ وَاحِدَةٌ مَعَ غُلَامٍ لِأَبِي بَكْرٍ، فَجَلَسَ أَبُو بَكْرٍ يَنْتَظِرُ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِ، فَطُلِعَ وَلَيْسَ مَعَهُ بَعِيرُهُ!! فَقَالَ: أَيْنَ بَعِيرُكَ؟ فَقَالَ: أَضَلَلْتُهُ الْبَارِحَةَ! فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَعِيرٌ وَاحِدٌ تَضِلُّهُ!! فَطَفِقَ يَضْرِبُهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ يَبْتَسِمُ، وَيَقُولُ: «انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْمَحْرَمِ وَمَا يَصْنَعُ» ^(٢).

المبحث الخامس: الصِّدِّيق في المجتمع المدني، وبعض صفاته، وشيء من فضائله

تمهيد:

كانت حياة الصِّدِّيق في المجتمع المدني مليئةً بالدُّروس، والعبر، وتركت لنا نموذجًا حيًّا لفهم الإسلام، وتطبيقه في دنيا الناس، وقد تميَّزت شخصية الصِّدِّيق بصفاتٍ عظيمة، ومدحه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث كثيرة، وبين فضله، وتقدُّمه على كثير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

أولاً: من مواقفه في المجتمع المدني:

١ - موقفه من فنحاص الحبر اليهودي:

ذكر غير واحدٍ من كُتَّاب السِّير، والمفسِّرين: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - دَخَلَ بَيْتَ الْمَدْرَاسِ ^(٣)، عَلَى يَهُودٍ، فَوَجَدَ مِنْهُمْ نَاسًا قَدْ اجْتَمَعُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ، يُقَالُ لَهُ: فَنَحَاصٌّ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَائِهِمْ، وَأَحْبَارِهِمْ، وَمَعَهُ حَبْرٌ مِنْ أَحْبَارِهِمْ، يُقَالُ لَهُ: أَشِيع ^(٤)، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِنَحَاصٍّ:

(١) العَرَج: وادٍ فحل من أودية الحجاز الاتهامية. معجم المعالم الجغرافية، ص ٢٠٢.

(٢) مسند أحمد (٦/٣٤٤).

(٣) مكانٌ يُتلى فيه التوراة.

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/٥٥٨، ٥٥٩).

ويحك! اتق الله، وأسلم، فوالله إنك تعلم: أن محمداً لرسول الله! قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، والإنجيل، فقال فنحاص لأبي بكر: والله يا أبا بكر! ما بنا إلى الله من فقرٍ، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنّا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنيٍّ، ولو كان عنا غنيّاً ما استقرضنا أموالنا، كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربّاء، ويعطيانه، ولو كان غنيّاً ما أعطانا الربّاء! فغضب أبو بكر، فضرب وجهه فنحاص ضرباً شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا وبينك؛ لضربت رأسك أي عدوّ الله!

فذهب فنحاص إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا محمد! انظر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! إن عدوّ الله قال قولاً عظيماً، إنه يزعم أن الله فقيرٌ، وأنهم أغنياء، فلمّا قال ذلك غضبت لله ممّا قال، وضربت وجهه، فجدد ذلك فنحاص وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص رداً عليه، وتصديقاً لأبي بكر: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ونزل في أبي بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وما بلغه في ذلك من الغضب^(١) قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

٢- حفظ سرّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال عمر بن الخطّاب: تأجمت حفصة من خنيس بن حذافة، وكان ممّن شهد بدرًا، فلقيت عثمان بن عفان، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة، فقال: أنظر، ثمّ لقيني، فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا، فلقيت أبا بكرٍ فعرضتها عليه، فصمت، فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي، ثمّ خطبها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنكحتها إياه، ثمّ لقيني أبو بكرٍ،

(١) تفسير القرطبي (٤/ ٢٩٥).

فقال: لعلك وجدت عليّ حين لم أرجع إليك، فقلت: أجل، فقال: إنّه لم يمنعني أن أرجع إليك إلا أنّي علمت: أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سرّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو تركها؛ لنكحتها^(١).

٣- الصّدّيق واية صلاة الجمعة:

قال جابر بن عبد الله: بينما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب يوم الجمعة، وقدمت غير المدينة، فابتهدا أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتّى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْجَةً أَوَّلُهَا أَنْفُسُؤُهَا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْجَزَاءِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [الجمعة: ١١] وقال: في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر، وعمر^(٢).

٤- رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينفي الخيلاء عن أبي بكر:

قال عبد الله بن عمر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خِيَلًا لَمْ يَنْظُرَ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». فقال أبو بكر: إن أحد شِقِّي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خِيَلًا»^(٣).

٥- الصّدّيق وتحرّيه للحلال:

عن قيس بن أبي حازم قال: كان لأبي بكرٍ غلامٌ، فكان إذا جاء بِغَلْتِهِ لم يأكل من غَلْتِهِ حتّى يسأل، فإن كان شيئاً ممّا يحبُّ؛ أكل، وإن كان شيئاً يكره؛ لم يأكل، قال: فنسي ليلةً، فأكل، ولم يسأله، ثمّ سأله، فأخبره: أنّه من شيءٍ كرهه، فأدخل يده، فتقيّاً حتّى لم يترك شيئاً^(٤).

فهذا مثالٌ على ورع أبي بكرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - حيث كان يتحرّى الحلال في مطعمه، ومشربه، ويتجنّب الشُّبهات، وهذه الخصلة تدلُّ على بلوغه درجات عُلّيا في التّقوى، ولا يخفى أهمية

(١) الفتح (٩ / ٨١)؛ الطبقات الكبرى (٨ / ٨٢).

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١٥ / ٣٠٠)، مسلم، رقم (٨٦٣).

(٣) البخاري رقم ٣٦٦٥.

(٤) التاريخ الإسلامي للحمدي، مرجع سابق، ج ١٩، ص ١٣.

طيب المطعم، والمشرب، والملبس في الدين، وعلاقة ذلك بإجابة الدعاء^(١)، كما في حديث الأشعث الأغبر، وفيه: «يمدُّ يديه إلى السماء: يارب! يارب! ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُدِّي بالحرام، فأني يُستجابُ لذلك»^(٢).

٦- أدخلاني في سلمكما، كما أدخلتماني في حربكما:

دخل أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسمع صوت ابنته عائشة عالياً، فلما اقترب منها، تناولها؛ ليلطمها، وقال: أراك ترفعين صوتك على رسول الله، فجعل رسول الله يحجزه، وخرج أبو بكر مغضباً، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة حين خرج أبو بكر: «أرأيت كيف أُنقذتك من الرجل؟». فمكث أبو بكر أياماً، ثم استأذن على رسول الله فوجدهما قد اصطلحا. فقال لهما: أدخلاني في سلمكما، كما أدخلتماني في حربكما. فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد فعلنا»^(٣).

٧- أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

دخل أبو بكر على عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - في أيام العيد، وعندها جاريتان من جوارى الأنصار تغنيان، فقال أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بمزمار الشيطان في بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معرضاً بوجهه عنهما، مقبلاً بوجهه الكريم إلى الحائط فقال: «يا أبا بكر! إن لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا»^(٤).

ففي الحديث بيان: أن هذا لم يكن من عادة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الاجتماع عليه، ولهذا سمَّاه الصديق مزمار الشيطان، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرَّ الجواري عليه معللاً ذلك بأنه يوم عيد، والصغار يرخص لهم في اللعب في الأعياد، كما جاء في الحديث: «ليعلم

(١) المرجع السابق/، ج ١٩، ص ١٣.

(٢) مسلم، رقم (١٠١٥).

(٣) أبو داود (٤٩٩٩)، ضعّفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود؛ سيرة الصديق، مجدي السيّد، ص ١٣٦.

(٤) مسلم في صلاة العيدين رقم (٨٩٢).

المشركون أن في ديننا فسحة»^(١). وكان لعائشة لعب تلعب بهنّ، ويجئن صاحباتها من صغار النسوة يلعبن معها، وليس في حديث الجاريتين: أن النبي صلى الله عليه وسلم استمع إلى ذلك، والأمر والنهي إنما يتعلق بالاستماع لا بمجرد السماع^(٢). ومن هذا نفهم: أنه يرخص لمن يصلح له اللعب أن يلعب في الأعياد، كالجاريتين الصغيرتين من الأنصار اللتين تغنيان في العيد في بيت عائشة^(٣).

ولا ينبغي أن يظن أن ما صدر من عائشة تجرؤ على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل كانت معظمة له أشدّ التعظيم، ولكن كان دافعه الغيرة التي فطرت عليها جميع النساء، مع علمها بحب رسول الله لها، ولحنانه وعطفه عليها، ولو علمت أن ما صدر منها يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فعلته أصلاً، فهي أعرف الناس به، وأرافهم عليه، وأكثرهم حفظاً لمقامه ومكانته. فهي التي قالت لما نزلت آية التخيير وأمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تستشير أبويها في ذلك، فقالت: «أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة»^(٤). وهي التي إن غضبت كما تغضب النساء لم تستطع إلا هجر اسمه فقط فتقول ورب إبراهيم، ولا تقول ورب محمد^(٥). ولهذا وغيره نالت محبة رسول الله، وفضّلت في قلبه على سائر نسائه، حتى طلب في آخر حياته أن يُمرّض عندها^(٦)، ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين نحرها وسحرها^(٧).

وفي هذا الحديث عظيم خلق النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته، وحسن معاشرته، متمثلاً

(١) الفتاوى (٣٠٨/١١)، مسند أحمد (١١٦/٦، ٢٣٣) عن عائشة.

(٢) المصدر السابق نفسه (١١٨/٣٠).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) متفق عليه. البخاري: (١٣٣/٣)، رقم: ٢٤٦٨؛ مسلم: (١١٠٣/٢)، رقم: ١٤٧٥.

(٥) متفق عليه. البخاري: (٣٦/٧)، رقم: ٥٢٢٨. مسلم: (١٨٩٠/٤)، رقم: ٢٤٣٩.

(٦) متفق عليه. البخاري: (١/٥٠ ط السلطانية)، رقم: ١٩٨. «صحيح مسلم» (١/٣١٢ ت عبد الباقي)،

رقم: ٩٢.

(٧) صحيح البخاري، (٢/١٠٢)، رقم: ١٣٨٩. صحيح مسلم، (٤/١٨٩٣ ت عبد الباقي)، رقم:

بقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]، قال ابن كثير: أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» وكان من أخلاقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه جميل العشرة دائم البشر، يداعب أهله، ويتلطف بهم، ويوسعهم عليهم^(١).

٨- إكرامه للضيوف:

قال عبد الرحمن بن أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كَانُوا أَنَاسًا فَقَرَاءَ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَرَّةً: مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ اثْنَيْنِ، فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامٌ أَرْبَعَةَ، فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ بِثَلَاثٍ... وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَعَشَّى عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ بَعْدَ أَنْ مَضَى مِنَ اللَّيْلِ مَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: مَا حَبَسَكَ عَنْ أَضْيَافِكَ؟ أَوْ قَالَتْ: عَنْ ضَيْفِكَ، قَالَ: وَمَا عَشِيَّتُهُمْ؟ قَالَتْ: أَبَوَا حَتَّى تَجِيءَ، وَقَدْ عَرَضُوا عَلَيْهِمْ، فَغَلَبُوهُمْ. قَالَ: فَذَهَبْتُ أَنَا، فَاخْتَبَأْتُ، فَقَالَ: يَا غَنَدَرُ^(٢)! فَجَدْعٌ، وَسَبٌّ، وَقَالَ: كُلُوا هُنِيئًا، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَطْعَمُ أَبَدًا! وَحَلَفَ الصَّيْفُ أَلَّا يَطْعَمَهُ حَتَّى يَطْعَمَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، قَالَ: فِدَاكَ بِالطَّعَامِ، فَأَكَلَ، فَقَالَ: وَايْمُ اللَّهِ! مَا كُنَّا نَأْخُذُ لَقْمَةً إِلَّا رُبَا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا، فَقَالَ: حَتَّى شَبِعُوا، وَصَارَتْ أَكْثَرُ مِمَّا كَانَتْ قَبْلَ ذَلِكَ، فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ كَمَا هِيَ، وَأَكْثَرَ، فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ: يَا أُخْتُ بَنِي فِرَاسٍ! مَا هَذَا؟ قَالَتْ: لَا وَقَرَةٌ عَيْنِي هِيَ الْآنَ لِأَكْثَرَ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ بِثَلَاثِ مَرَّاتٍ، فَأَكَلَ أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ: إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ - يَعْنِي يَمِينَهُ - ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لَقْمَةً، ثُمَّ حَمَلَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَصْبَحَتْ عِنْدَهُ، وَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ عَقْدٌ، فَمَضَى الْأَجَلَ فَتَفَرَّقْنَا اثْنِي عَشَرَ رَجُلًا، مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَاسٌ، اللَّهُ أَعْلَمُ كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعِينَ^(٣).

وفي هذه القصة دروسٌ، وعبرٌ، منها:

(١) تفسير ابن كثير، (٢/ ٢٤٢).

(٢) غندر: الثَّغِيلُ الوَحِيمُ، وقيل: الجَاهِلُ.

(٣) مسلمٌ، كتاب الأشربة رقم (٢٠٥٧).

أ- حرص الصديق على تطبيق الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي تحث على إكرام الضيف مثل قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه»^(١).

ب- وفي هذه القصة كرامة للصديق حيث جعل لا يأكل لقمة إلا ربا من أسفلها أكثر منها، فشبعوا، وصارت أكثر مما هي قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاء إليه أقوامٌ كثيرون فأكلوا منها، وشبعوا^(٢). وهذه الكرامة حصلت ببركة اتباع الصديق لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جميع أحواله، وهي تدل على مقام الولاية للصديق، فأولياء الله هم المققدون بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيفعلون ما أمر به، وينتهون عما عنه زجر، ويققدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم بملائكته، وروح منه، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أوليائه المتقين^(٣).

ج- تقول السيدة عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَحْنُثْ فِي يَمِينٍ قَطُّ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ كِفَارَةَ الْيَمِينِ، فَقَالَ: لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتُ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَّرْتَ عَنْ يَمِينِي^(٤). فكان إذا حلف على شيء، ورأى غيره خيرا منه؛ كفر، وأتى الذي هو خير^(٥). وفي هذه القصة ما يدل على ذلك حيث ترك يمينه الأولى إكراما لضيوفه، وأكل معهم^(٦).

٩- ما هي بأول بركتكم يا ال أبي بكر!

قالت عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبداء - أو بذات الجيش - انقطع عقد لي فأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التماسه، وأقام الناس معه، وليس على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس أبا بكر، فقالوا: ألا ترى

(١) مسلم (١٣٥٣/٣).

(٢) الفتاوى (١٥٣/١١).

(٣) المصدر السابق نفسه (١٥٢/١١).

(٤) سنن البيهقي (٣٤/١٠) نقلاً عن موسوعة فقه أبي بكر، ص ٢٤٠.

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٥٨/١) نقلاً عن موسوعة فقه أبي بكر، ص ٢٤٠.

(٦) موسوعة فقه أبي بكر، ص ٢٤١.

ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالناس معه، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضعُ رأسه على فخذي قد نام، فقال: حَبَسَتْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والناس، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، قلت: فعاتبني، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي، فلا يمنعي من التحرك إلا مكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على فخذي، فنام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى أصبح على غير ماءٍ، فأنزل الله آية التيمم: ﴿تَتِمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣]. فقال أسيد بن حضير: ما هي بأول بركتكم يا ال أبي بكر! فقالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته^(١).

وفي هذه القصة يظهر حرص الصديق على التأدب مع رسوله، وحساسيته الشديدة على أن لا يضايقه شيءٌ، ولا يقبل ذلك، ولو كان من أقرب الناس، وأحبهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدوةً للدعاة في الأدب الجَمِّ مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع نفسه، ومع المسلمين^(٢).

١٠ - انتصار النبي للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لقد ثبت من الأحاديث الصحيحة ما يدلُّ على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتنصر لأبي بكرٍ، وينهى الناس عن معارضته، فعن أبي الدرداء - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: كنت جالساً مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أقبل أبو بكر اخذاً بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما صاحبكم فقد غامر»^(٣)، فسلم، وقال: يراسل الله! إنَّه كان بيني وبين ابن الخطاب شيءٌ، فأسرعتُ إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأبى عليّ، فأقبلت إليك. فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكرٍ - ثلاثاً» ثم إنَّ عمر ندم، فأتى منزل أبي بكرٍ، فسأل: أئنم أبو بكر؟ قالوا: لا. فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلم عليه، فجعل وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتمعر^(٤)، حتى

(١) البخاري رقم (٣٦٧٢).

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية، ص (٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) غامر: خاض. أي: دخل في غمرة الخصومة.

(٤) يتمعر: تذهب نضارته من الغضب.

أشفق أبو بكر^(١) فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله! والله أنا كنت أظلم مرّتين^(٢)! فقال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه، وماله^(٣)، فهل أنتم تاركو لي صاحبي» - مرّتين - فما أودى بعدها^(٤).

وفي هذه القصة دروسٌ وعبرٌ كثيرةٌ، منها: الطّبيعة البشريّة للصّحابة، وما يحدث بينهم من خلافٍ، وسرعة رجوع المخطئ، وطلب المغفرة، والصّفح من أخيه، وتواذُّ الصّحابة فيما بينهم، ومكانة الصّدّيق الرّفيعة عند رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أصحابه.. إلخ.

١١ - قل: غفر الله لك يا أبا بكر!

قال ربيعة الأسلمي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كنت أخدم النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... وذكر حديثاً، ثم قال: إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطانني بعد ذلك أرضاً، وأعطى أبا بكرٍ أرضاً، وجاءت الدنيا، فاختلنا في عذق نخلة، فقلت أنا: هي في حدي. وقال أبو بكر: هي في حدي، فكان بيني وبين أبي بكر كلامٌ، فقال أبو بكر كلمةً كرهها، وندم، فقال لي: يا ربيعة! ردّ عليها مثلها حتى تكون قصاصاً. قال: قلت: لا أفعل! فقال أبو بكر: لتقولنّ، أو لاستعدين عليك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقلت: ما أنا بفاعل! قال: ورفض الأرض^(٥)، وانطلق أبو بكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - إلى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانطلقت أتلوه، فجاء ناسٌ من أسلم، فقالوا لي: رحم الله أبا بكر! في أيّ شيء يستعدي عليك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو قد قال لك ما قال؟ قلت: أتدرون من هذا؟ هذا أبو بكر الصّدّيق، هذا ثاني اثنين، وهذا ذو شية المسلمين، إياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه، فيغضب، فيأتي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيغضب لغضبه، فيغضب الله عزّ وجلّ لغضبهما فيهلك ربيعة! قالوا: ما تأمرنا؟ قال: ارجعوا، قال: فانطلق أبو بكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتبعته وحدي حتّى أتى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحدّثه الحديث كما

(١) أن يكون لعمر من الرسول ما يكره.

(٢) لأنّه هو الذي بدأ.

(٣) المراد به أن صاحب المال يجعل يده ويد صاحبه في ماله سواء.

(٤) لما أظهره النبيّ (ص) من تعظيمه، البخاري رقم (٣٦٦١).

(٥) أي: فارق أبو بكر الأرض.

كان، فرفع إليَّ رأسه، فقال: يا ربّيعه! مالك وللصديق؟ قلت: يرأسل الله! كان كذا، كان كذا، قال لي كلمة كرهها، فقال: قل لي كما قلت حتّى يكون قصاصاً، فأبيت، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أجل فلا تردّ عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر!» فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر! قال الحسن (البصري): فَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وهو يبكي^(١).

لله أي وجدان هذا الوجدان، وأي نفس تلك النفس، بادرةً بدرت منها لمسلم، فلم ترض إلا اقتصاصه منها، وصفحه عنها، تناهياً بالفضيلة، واستمساكاً بالأدب، وشعوراً تمكّن من الجوانح، وأخذ بمجامع القلوب، فكانت عنده زلّة اللسان - ولو صغيرة - ألماً يتململ منه الضمير، فلا يستريح إلا بالقصاص منه، ورضا ذلك المسلم عنه^(٢).

كانت كلمةً هيّئة، ولكنها أصابت من ربّيعه مَوْجَعاً.. فإذا أبو بكر يُزَلْزَلُ من أجلها، ويأبى إلا القصاص عليها، مع أنّه يومئذ كان الرّجل الثاني في الإسلام بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي كلمة لا يمكن أن تكون من فُحش القول أبداً؛ لأنّ أخلاقه لم تسمح بهذا، ولم يؤثر عنه حتّى في الجاهلية شيء من هذا^(٣).

لقد خشي الصديق مغبة تلك الكلمة، ولهذا اشتكى لرسول الله، وهذا أمرٌ عجيبٌ، فإنّ أبا بكرٍ قد نسي أرضه، ونسي قضيّة الخلاف، وشغل باله أمر تلك الكلمة، لأنّ حقوق العباد لا بدّ فيها من عفو صاحب الحقّ^(٤)، وفي هذا درسٌ للشيوخ، والعلماء، والحكّام، والدعاة في كيفية معالجة الأخطاء، ومراعاة حقوق الناس، وعدم الدّوس عليها بالأرجل.

وقد استنكر قوم ربّيعه أن يذهب أبو بكرٍ يشتكي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي قال ما قال، ولم يعلموا ما علمه أبو بكر من لزوم إنهاء قضايا الخصومات، وإزالة ما قد يعلق في القلوب من الموجدّة في الدّنيا قبل أن يكتب ذلك في الصّحف، ويترتّب عليه الحساب

(١) مسند أحمد (٤/٥٨، ٥٩).

(٢) أشهر مشاهير الإسلام، مرجع سابق، ج ١، ص ٨٨.

(٣) خلفاء الرسول، خالد محمّد خالد، ص ١٠٣.

(٤) التاريخ الإسلامي (١٩/١٦).

يوم القيامة.

وبالرغم مما ظهر من رضا ربعة، وتوجيه النبي ﷺ إلى عدم الرد على أبي بكر، فإنَّ أبا بكرٍ قد بكى من خشية الله تعالى، وهذا دليل على قوَّة إيمانه، ورسوخ يقينه.

وأخيراً موقف يذكر لربعة بن كعب الأسلمي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حيث قام بإجلال أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبى أن يردَّ عليه بالمثل، وهذا من تقدير أهل الفضل، والتقدُّم، والمعرفة بحقِّهم، وهو دليل على قوَّة الدِّين ورجاحة العقل^(١).

١٢ - مسابقتها في الخيرات:

اتَّصف الصَّديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بالأخلاق الحميدة، والصِّفات الرَّفِعة، ومسابقته في الخيرات، حتَّى صار في الخير قدوةً، وفي مكارم الأخلاق أسوةً، وكان حريصاً أشدَّ الحرص على الخيرات، فقد أيقن أنَّ ما يمكن أن يقوم به المرء اليوم، قد يكون غير ممكن في الغد، فاليوم عملٌ، ولا حسابٌ، وغداً حسابٌ ولا عملٌ، ولذلك كان من المسارعين في الخيرات، فعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن تبع منكم اليوم جنازة؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟». قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟». قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة»^(٢).

١٣ - كظمه للغيط:

قال أبو هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ رجلاً شتم أبا بكر، ورسول الله ﷺ جالساً، فجعل النبي ﷺ يعجب، ويبتسم، فلما أكثر الرَّجل، ردَّ عليه أبو بكر بعض قوله، فغضب النبي ﷺ، وقام، فلحقه أبو بكر، وقال: يراسل الله! كان يشتمني، وأنت جالسٌ، فلما أكثر؛ رددت عليه بعض قوله، غضبت، وقمت!! فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إنَّه كان معك

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) صحيح مسلم، رقم (١٠٢٨).

ملكٌ يرُدُّ عنك، فلما رددت عليه بعض قوله؛ وقع الشيطان، فلم أكن لأقعد مع الشيطان». ثم قال: «يا أبا بكر! ثلاثٌ كلَّهنَّ حقٌّ: ما من عبدٍ ظلمَ بمظلومةٍ، فيغضي عنها الله عزَّ وجلَّ إلاَّ أعزَّ الله بها نصره، وما فتح رجلٌ بابَ عطيةٍ، يريد بها صلةً إلاَّ زاده الله بها كثرةً، وما فتح رجلٌ بابَ مسألةٍ يريد بها كثرةً إلاَّ زاده الله بها قلةً»^(١).

إنَّ الصَّديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - اتَّصف بكظم الغيظ، ولكنَّه ردَّ ما ظنَّ: أنَّه به يسكت هذا الرَّجل، فرغبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحلم، والأناة، وأرشده إلى ضرورة تحليِّه بالصَّبر في مواطن الغيظ، فإنَّ الحلم، وكظم الغيظ ممَّا يزيد المرء، ويجمِّله في أعين الناس، ويرفع قدره عند الله تعالى.

ويتبيَّن لنا كذلك من هذا الموقف حرص الصَّديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على عدم إغضاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمصارعة إلى إرضائه، وفي الحديث ذمُّ الغضب للنفس، والنهي عنه، والتحذير منه، واعتزال الأنبياء للمجالس التي يحضرها الشيطان، وبيان الفضل للمظلوم، الصَّابر، المحتسب للأجر، والثواب، وفيه حثٌّ على العطايا، وصلة الأرحام، وذرٌّ للمسألة، وأهلها.

وظلَّ الصَّديق متمسكاً بالحلم، وكظم الغيظ، حتَّى عُرِف بالحلم، والأناة، ولين الجانب، والرفق، وهذا لا يعني أنَّ أبا بكرٍ لم يكن يغضب، وإنَّما كان غضبه لله تعالى، فإذا رأى محارم الله قد انتهكت؛ غضب لذلك غضباً شديداً^(٢).

لقد عاش رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متأملاً، ومتفكراً، وعاملاً بقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

١٤ - بلى والله إنِّي أحب أن يغفر الله لي!

(١) الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٧٤)؛ مجمع الزوائد (٨/ ١٩٠) حديثٌ مرسلٌ.

(٢) سيرة وحياة الصَّديق، مجدي فتحي السيّد، ص ١٤٥.

كان أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُعُولُ مُسَطَّحَ بنِ أَثَاثَةَ، فَلَمَّا قَالَ فِي عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - مَا قَالَ - فِي حَدِيثِ الْإِفْكَ المشهور - أَقْسَمَ بِاللَّهِ أَبُو بَكْرٍ أَلَّا يَنْفَعَهُ أَبَدًا، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ إِنِّي أَحَبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى النِّفْقَةِ الَّتِي كَانَ يَنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزَعُهَا مِنْهُ أَبَدًا^(١)! لَقَدْ فَهَمَ الصَّدِيقُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِ التَّخَلُّقَ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ، فَيَعْفُو عَنِ الْهَفَوَاتِ، وَالزَّلَّاتِ، وَالْمِزَاقِ، فَإِنْ فَعَلَ؛ فَاللَّهُ يَعْفو عَنْهُ وَيَسْتُرْ ذَنْبَهُ، وَكَمَا تَدِينُ تَدَانِ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ قَالَ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: كَمَا تُحِبُّونَ عَفْوَ اللَّهِ عَنْ ذُنُوبِكُمْ، فَكَذَلِكَ اغْفِرُوا لِمَنْ دُونَكُمْ^(٢)، وَكَمَا أَنَّ فِي الْآيَةِ: مَنْ حَلَفَ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا يَفْعَلَهُ، فَرَأَى أَنَّ فِعْلَهُ أَوْلَى مِنْ تَرْكِهِ؛ أَتَاهُ، وَكَفَّرَ عَنِ يَمِينِهِ. وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: هَذِهِ أَرْجَى آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، مِنْ حَيْثُ لَطَفَ اللَّهُ بِالْقَذْفَةِ الْعَصَا بِهَذَا اللَّفْظِ^(٣).

لَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَفْضَلُ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ وَصَفَهُ بِصِفَاتٍ عَجِيبَةٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، دَالَّةٍ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِهِ فِي الدِّينِ، أورد الرازي في تفسيره أربع عشرة صفةً مستنبطةً من هذه الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾: أَنَّهُ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ صَاحِبُ الْفَضْلِ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ لَذَلِكَ بِشَخْصٍ دُونَ شَخْصٍ، وَالْفَضْلُ يَدْخُلُ فِيهِ الْإِفْضَالُ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ فَاضِلًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَكَانَ مَفْضَلًا عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَمَّا وَصَفَهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ أَوْلُو الْفَضْلِ، وَالسَّعَةِ بِالْجَمْعِ لَا بِالْوَاحِدِ، وَبِالْعُمُومِ لَا بِالْخُصُوصِ عَلَى سَبِيلِ الْمَدْحِ، وَجِبَ أَنْ يَقَالَ: إِنَّهُ كَانَ خَالِيًا عَنِ الْمَعْصِيَةِ؛ لِأَنَّ الْمَمْدُوحَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ لَا يَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ^(٤).

١٥ - خروجه للتجارة من المدينة إلى الشام:

(١) البخاري، رقم (٤٧٥٠).

(٢) تفسير المنير (١٨/ ١٩٠).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير الرازي (١٨/ ٣٥١).

خرج أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - للتجارة إلى بصرى ببلاد الشام في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما منعه حبه الملازمة النبي من الذهاب للتجارة، ولا منع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصديق من ذلك مع شدة حبه له^(١). وفي هذا أهميّة أن يكون للمسلم مصدر رزق، يستغني به عن سؤال الناس، بل ويساهم بهذا الرزق في إغاثة الملهوف، وفكّ العاني، ويسارع في أبواب الإنفاق التي يحبها الله.

١٦ - غير الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وتزكية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لزوجته:

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن نفراً من بني هاشم دخلوا على أسماء بنت عميس، فدخل أبو بكر الصديق - وهي تحته يومئذ - فراهم، فكره ذلك، فذكر ذلك لرسول الله، فقال: إن الله تعالى قد برأها من ذلك، ثم قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر فقال: «لا يدخل رجل بعد يومي هذا على مغيبة إلا ومعه رجل أو اثنان»^(٢).

١٧ - خوفه من الله تعالى:

عن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: خطبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطبة ما سمعت مثلاً قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلاً، وبكىتم كثيراً»، فغطى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجوههم، ولهم خنين^(٣).

وقد كان الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - على جانب من الخوف، والرّجاء عظيم، جعله قدوة علميّة لكل مسلم سواء حاكماً أو محكوماً، قائداً أو جندياً، يريد النّجاح، والفلاح في الآخرة^(٤)، فعن محمد بن سيرين قال: لم يكن أحد أهيّب لما يعلم بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبي بكر. وعن قيس قال: رأيت أبا بكر اخذاً بطرف لسانه، ويقول: هذا الذي أوردني

(١) فتح الباري (٤/ ٣٥٧) نقلاً عن الخلافة الراشدة والدولة الأمويّة من فتح الباري، ص (١٦٣).

(٢) الرّياض النّضرة في مناقب العشرة لأبي جعفر أحمد الطبري، ص ٢٣٧.

(٣) البخاري، كتاب التفسير، باب لا تسألوا عن أشياء (٦/ ٦٨).

(٤) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٣٩٦.

الموارد^(١)، وقد قال أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ابكوا؛ فإن لم تبكوا؛ فتباكوا^(٢). وعن ميمون بن مهران قال: أتى أبو بكر بغرابٍ وافر الجناحين، فقلَّبه، ثم قال: ما صيد من صيد ولا عضدت من شجرة إلا بما ضيعت من التَّسبيح^(٣). وعن الحسن قال: قال أبو بكر: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة تؤكل، وتُعضد^(٤)! وقال أبو بكر: لوددت أني كنت شعرة في جنب عبد مؤمن^(٥)، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتمثل بهذا البيت من الشعر:

لا تزال تنعى حبيباً حتى تكونه وقد يرجو الفتى الرجا يموتُ دونه^(٦)

ثانياً: من أهم صفات الصَّديق وشيء من فضائله:

إنَّ شخصية الصَّديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تعتبر شخصية قيادية، وقد اتَّصف - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بصفات القائد الرِّباني، ونجملها في أمورٍ، ونركِّز على بعضها بالتفصيل.

فمن أهم هذه الصفات: سلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزُّهد، وحبُّ التَّضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع، وقبول التَّضحية، والحلم، والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإرادة القويّة، والعدل، والقدرة على حلِّ المشكلات، والقدرة على التَّعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات التي ظهرت للباحث في الفترة المكيّة في صحبته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي العهد المدني في غزواته مع رسول الله، وحياته في المجتمع.

وظهر البعض الآخر لما تسلم قيادة الدولة، وأصبح خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد استطاع بتوفيق الله تعالى، وبسبب ما أودع الله فيه من صفات القيادة الرِّبانية أن يحافظ

(١) صفة الصَّفوة (٢/٢٥٣).

(٢) الزُّهد، للإمام أحمد، باب زهد أبي بكر، ص ١٠٨.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١١٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١١٢.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) الزُّهد، للإمام أحمد، باب زهد أبي بكر، ص ١٠٨.

على الدولة، ويقمع حركة الردّة، ويتنقل بفضل الله وتوفيقه بالأمة نحو أهدافها المرسومة بخطوات ثابتة، ومن أهم تلك الصفات التي نحاول تسليط الأضواء عليها في هذا المبحث: إيمانه بالله العظيم، وعلمه الراسخ، وكثرة دعائه وتضرعه لله تعالى.

١. أبو بكر في القرآن الكريم:

إنَّ أجَلَ مناقب الصديق وفضائله ومفاخره ومآثره ما أكرمه الله تعالى به من تنزيل آيات كريمات فيه، تثني عليه وتشدّد بأفعاله المجيدة وشمائله الحميدة، وثمة آيات نزلت فيه خصوصاً، وآيات أخرى كثيرة نزلت فيه وفي غيره على وجه العموم^(١). ويتجلّى تشریف أبي بكر الصديق في القرآن الكريم من خلال أمور عدة:

- كونه كان سبباً لنزول عدد من الآيات الكريمات.
- كونه هو المقصود عيناً وحسراً ببعض آيات القرآن الكريم.
- كونه هو المقصود بعدد من الآيات؛ لأنه رأس المؤمنين الداخلين معه في حكم الآيات تبعاً واقتداءً.
- تفسير السلف والتابعين لعدد من الآيات الكريمات بأن المراد والمقصود بها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وغير ذلك الأمور الأخرى التي تدلّ على الحضور الجليل لهذا الرجال العظيم في كتاب الله تعالى^(٢).

وسنذكر هنا الآيات التي نزلت في القرآن الكريم بحق أبي بكر ذكراً مختصراً، وسيأتي في مواضع أخرى الكلام عليها مفصلاً، كلّ آية في موضعها المناسب إن شاء الله.

- قوله تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرِبُ فُجْرَهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) أبو بكر خليفة رسول الله، الشيخ، ص ٣٤٧.

(٢) أبو بكر الصديق في القرآن الكريم، عبد العزيز محسن الحميدي، ص ٥، ٦.



اَلْسُقْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ اَلْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠]، وقد أجمع العلماء على أن صاحب المقصود هنا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

- قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠] فيها قولان، الأول: أنزل الله السكينة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. الثاني: أنزل الله السكينة على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال ابن العربي: قال علماؤنا: هو أبو بكر. وهو الأقوى؛ لأنه خاف على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القوم، فأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عليه بتأمين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسكن جأشه وذهب روعه وحصل الأمن^(٢).

- قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسِجْناًهَا الْأَنْفَى ﴿[الليل: ١٤ - ١٧]، قال ابن الجوزي أجمع العلماء على أنها نزلت في أبي بكر^(٣).

- قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. وهذه الآية نزلت في الصديق، حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة بعدما قال في عائشة ما قال^(٤) في حادثة الإفك. فهذه أربع مواضع في ثلاث آيات نزلت في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على وجه الخصوص لم يشاركه فيها أحد^(٥).

وثمة آيات أخرى نزلت في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي غيره من الصحابة الكرام:

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تَحَرَّةً أَوْهَوْا أَنْفُسَهُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِو وَمِنَ الْيَجْرِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ [الجمعة: ١١]. قال جابر بن عبد الله: بينما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب يوم الجمعة، وقدمت غير المدينة، فابتدأ أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى

(١) تاريخ الدعوة في عهد الخلفاء، يسري محمد هاني، ص ٣٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله القرطبي، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م، (٨/ ١٣٥)، نقلاً عن أبو بكر خليفة رسول الله، ص ٣٤٨.

(٣) تاريخ الخلفاء، ص ٣٨، نقلاً عن أبو بكر خليفة رسول الله، ص ٣٤٨.

(٤) تفسير ابن كثير، (٦/ ٣١).

(٥) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، ص ٣٤٧.

لم يبقَ معه إلا اثنا عشر رجلاً... في الاثني عشر الذين ثبتوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر، وعمر^(١).

- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٢]. عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت لعروة بن الزبير في هذه الآية يأبن أختي! كان أبواك منهم: الزبير، وأبو بكرٍ لَمَّا أَصَابَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أَصَابَ يومَ أُحُدٍ، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا؛ قال: «من يذهب في إثرهم؟»، فانتدب منهم سبعين رجلاً: كان فيهم أبو بكر، والزبير^(٢).

- قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال ابن عباس: هم أبو بكر وعمر^(٣).

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، جاء عن الحسن البصري أنه قال: هم أبو بكر وأصحابه^(٤).

وثمة آيات أخرى كثيرة نزلت في عموم المهاجرين والأنصار والمؤمنين من هذه الأمة، فيها مدح لهم وثناء عليهم، وأبو بكر أكمل الأمة في الصفات التي يمدح الله بها المؤمنين، فهو أولاهاهم بالدخول فيها، وأكمل من دخل فيها^(٥).

٢- عظمة إيمانه بالله تعالى:

كان إيمان الصديق بالله عظيماً، فقد فهم حقيقة الإيمان، وتغلغلت كلمة التوحيد في نفسه، وقلبه، وانعكست اثارها على جوارحه، وعاش بتلك الآثار في حياته، فتحلّى بالأخلاق

(١) الإحسان بتقريب صحيح ابن حبان، الأمير علاء الفارسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م (١٥/٣٠٠)، مسلم، رقم (٨٦٣).

(٢) مسلم رقم (٢٤١٨).

(٣) أبو بكر خليفة رسول الله، ص ٣٥١.

(٤) تفسير القرطبي، (٦/٢٠٥)، نقلا عن أبو بكر خليفة رسول الله، ص ٣٥١.

(٥) منهاج السنة، (٤/٦٦٥)، نقلا عن أبو بكر خليفة رسول الله، ص ٣٥١.

الرَّفِيعَة، وتطهَّر من الأخلاق الوضيعة، وحرص على التمسُّك بشرع الله، والاقتداء بهديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان إيمانه بالله تعالى باعثاً له على الحركة، والهمة، والنشاط، والسَّعي، والجهد، والمجاهدة، والجهد، والتربية، والاستعلاء، والعزَّة، وكان في قلبه من اليقين، والإيمان شيءٌ عظيمٌ لا يساويه فيه أحدٌ من الصَّحابة، قال أبو بكر بن عياش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاةٍ، ولا صيامٍ، ولكن بشيءٍ وقرَّ في قلبه^(١)، ولهذا قيل: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض؛ لرجح، كما في السُّنن عن أبي بكرة، عن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «هل رأى أحدٌ منكم رؤيا؟». فقال رجلٌ: أنا رأيت كأنَّ ميزاناً نزل من السماء، فوزنت أنت، وأبو بكرٍ، فرجحت أنت بأبي بكرٍ، ثمَّ وزن أبو بكرٍ، وعمر فرجح أبو بكرٍ، ثمَّ وزن عمر، وعثمان فرجح عمر، ثمَّ رفع الميزان. فاستاء لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «خلافة نبوةٍ، ثمَّ يؤتي الله الملك مَنْ يشاء»^(٢).

وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: صَلَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصُّبح ثمَّ أقبل على الناس، فقال: «بينا رجلٌ يسوق بقرةً له، قد حمل عليها، التفتت إليه البقرة، فقالت: إِنِّي لم أخلق لهذا، ولكنِّي خُلقت للحرث» فقال الناس: سبحان الله! تعجباً، وفزعاً؛ أبقره تتكلَّم؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإني أؤمن به، وأبو بكرٍ وعمر» قال أبو هريرة: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وبينما رجلٌ في غنمه إذ عدا الذئب، فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنَّه استنفذها منه، فقال له الذئب: هذا استنفذتها منِّي، فمن لها يوم السَّبع، يوم لا راعي لها غيري؟» فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلَّم؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإني أؤمن بذلك أنا، وأبو بكرٍ، وعمر، وما هما ثمَّ»^(٣). ومن شدَّة إيمانه، والتزامه بشرع الله تعالى، وصدقه، وإخلاصه للإسلام أحبه النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأصبحت تلك المحبة مقدمةً عند النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على غيره من الصَّحابة.

فعن عمرو بن العاص - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه على جيش ذات السَّلاسل،

(١) فضائل الصَّحابة للإمام أحمد (١/ ١٧٣).

(٢) أبو داود رقم (٤٦٣٤)؛ الترمذي رقم (٢٢٨٨).

(٣) مسلم، رقم (٢٣٨٨).

قال: فأتيته، فقلت: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ قال: «عائشة». فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها». قلت: ثمَّ مَنْ؟ قال: «عمر بن الخطاب». فعَدَّ رجالاً^(١).

وبسبب هذا الإيمان العظيم، والتزامه بشرع الله القويم، ولجهوده التي بذلها لنصرة دين ربِّ العالمين استحقَّ بشارة رسول الله بالجنَّة، وأنَّه يُدعى من جميع أبوابها. فعن أبي موسى الأشعري، أنَّه توضَّأ في بيته، ثمَّ خرج، فقلت: لألزمَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأكون معه يومي هذا. قال: فجاء المسجد، فسأل عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: خرج، ووجَّهَ ها هنا، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس، فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجته، فتوضَّأ، فقمْتُ إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس، وتوسط فُفَّها، وكشف عن ساقيه، ودلَّاهما في البئر، فسَلَّمْتُ عليه، ثم انصرفت، فجلست عند الباب، فقلت: لأكوننَّ بواب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليوم، فجاء أبو بكر، فدفع الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: أبو بكر. فقلت: على رسلك، ثمَّ ذهبت فقلت: يرأسل الله! هذا أبو بكرٍ يستأذن، فقال: «أذن له، وبشِّره بالجنَّة». فأقبلت؛ حتَّى قلت لأبي بكرٍ: ادخل، ورسول الله يبشِّرُك بالجنَّة. فدخل أبو بكرٍ، فجلس عن يمين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه في القف، ودلَّى رجليه في البئر كما صنع النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكشف عن ساقيه...^(٢).

وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أنفق زوجين من شيءٍ من الأشياء في سبيل الله؛ دُعي من أبواب (أي الجنَّة) يا عبد الله! هذا خيرٌ، فمن كان من أهل الصَّلَاة دُعي من باب الصَّلَاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصَّيام دُعي من باب الصَّيام، وباب الرِّيَّان». فقال أبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما على هذا الذي يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: هل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كُلِّها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكرٍ!»^(٣).

٣- علمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(١) صحيح البخاري، رقم (٣٦٦٢).

(٢) البخاريُّ رقم (٣٦٧٤).

(٣) المصدر السابق نفسه، رقم (٣٦٦٦).

كان الصديق من أعلم الناس بالله، وأخوفهم له^(١)، وقد اتفق أهل السنة على أن أبا بكر أعلم الأمة، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد^(٢)، وسبب تقدّمه على كل الصحابة في العلم، والفضل ملازمته للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان أدوم اجتماعاً به ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، وكان يسمر عند النبي صلى الله عليه وسلم بعد العشاء، يتحدث معه في أمور المسلمين، دون غيره من الصحابة، وكان إذا استشار أصحابه أول من يتكلم أبو بكر في الشورى، وربما تكلم غيره، وربما لم يتكلم غيره، فيعمل برأيه وحده، فإذا خالفه غيره؛ اتبع رأيه دون رأي من يخالفه^(٣)، وقد استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على أول حجة حُجّت من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلم المناسك أدق ما في العبادات، ولولا سعة علمه؛ لم يستعمله، وكذلك الصلاة استخلف عليها، ولولا علمه لم يستخلف، ولم يستخلف غيره لا في حج ولا في صلاة، وكتاب الصدقة التي فرضها رسول الله أخذه أنس من أبي بكر، وهو أصح ما روى فيها^(٤)، وعليه اعتمد الفقهاء، وغيرهم، في كتابه ما هو متقدم منسوخ، فدل على أنه أعلم بالسنة النسخة، ولم يحفظ له قول يخالف فيه نصاً، وهذا يدل على غاية البراعة، والعلم.

وفي الجملة لا يُعرف لأبي بكر مسألة في الشريعة غلط فيها، وقد عرف لغيره مسائل كثيرة^(٥).

وكان رضي الله عنه يقضي، ويفتي، بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم، ويقرّه، ولم تكن هذه المرتبة لغيره، وقد بينت ذلك في سلب أبي قتادة بحنين^(٦).

وقد ظهر فضل علمه، وتقدّمه على غيره بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن الأمة لم تختلف في ولايته في مسألة إلا فصلها هو بعلم يبينه لهم، وحجة يذكرها لهم من الكتاب

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٥٩.

(٢) الفتاوى (١٣/١٢٧).

(٣) أبو بكر الصديق، محمد مال الله، ص (٣٣٤، ٣٣٥).

(٤) البخاري، رقم (١٤٤٨).

(٥) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، ص ٦٠.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٥٧.

والسنة، وذلك لكمال علم الصديق، وعدله، ومعرفته بالأدلة التي تزيل النزاع، وكان إذا أمرهم؛ أطاعوه. كما بين لهم موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وثبتتهم على الإيمان، ثم بين لهم موضع دفنه، وبين لهم ميراثه، وبين لهم قتال مانعي الزكاة لما استراب فيه عمر، وبين لهم: أن الخلافة في قريش، وتجهيز جيش أسامة، وبين لهم: أن عبداً خيرَ الله بين الدنيا والآخرة، هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١)، وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه بإذن الله تعالى.

ولقد رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له رؤيا تدلُّ على علمه، فعن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رأيت كأني أعطيت عسًا مملوء لبنًا، فشربت منه حتى تملأت، فرأيتهما تجري في عروقي بين الجلد، واللحم، ففضلت منها فضلة، فأعطيتها أبا بكرٍ». قالوا: يا رسول الله، هذا علم أعطاك الله حتى إذا تملأت منه، فضلت فضلة، فأعطيتها أبا بكر، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد أصبتم»^(٢).

وكان الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يرى: أن الرؤيا حق، وكان يجيد تأويلها، وكان يقول إذا أصبح: من رأى رؤيا سالحةً فليحدثنا بها، وكان يقول: لأن يرى رجلٌ مسلمٌ مُسْبِغُ الوضوء رؤيا سالحةً أحبُّ إليَّ من كذا، وكذا^(٣). ومما عبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الرؤى ما يلي: عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رجلاً أتى رسول الله، فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظلةً تنطف السمن، والعسل، فأرى الناس يكفون منها، فالمستكثر، والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجلٌ آخر فانقطع، ثم وُصِلَ. فقال أبو بكر: يراسل الله! بأبي أنت، والله لتدعني فأعبرهما، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعبرها» قال: أمّا الظلة فالإسلام، وأمّا الذي ينطف من العسل، والسمن فالقران، حلاوته تنطف، فالمستكثر من القران، والمستقل، وأمّا السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به، فيُعَلِّيك الله، ثم يأخذ به رجلٌ آخر فيعلو به، ثم يأخذ رجلٌ آخر فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله! بأبي أنت، أصبت أم أخطأت؟ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أصبت

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٩.

(٢) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (٢٦٩/١٥).

(٣) خطب أبي بكر الصديق، محمد عاشور، جمال الكومي، ص ١٥٥.

بعضاً، وأخطأت بعضاً». قال: فوالله لتُحدّثني بالذي أخطأت. قال: «لا تقسم»^(١).

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا رَأَتْ كَأَنَّهُ وَقَعَ فِي بَيْتِهَا ثَلَاثَةُ أَقْمَارٍ، فَقَصَّتْهَا عَلَى أَبِي بَكْرٍ - وَكَانَ مِنْ أَعْبَرِ النَّاسِ - فَقَالَ: إِنْ صَدَقْتَ رُؤْيَاكَ لَيُذْفَنَنَّ فِي بَيْتِكَ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ ثَلَاثَةٌ. فَلَمَّا قَبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ هَذَا خَيْرُ أَقْمَارِكِ»^(٢). فَقَدْ كَانَ الصَّدِيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَعْبَرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ بَعْدَ نَبِيِّهَا^(٣).

ومع كونه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَنْ أَعْلَمَ الصَّحَابَةَ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ التَّكْلِيفِ. فَعَنِ إِبْرَاهِيمَ النَّخْعِيِّ قَالَ: قَرَأَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ﴿وَفَكَهْمَهُ وَأَبَا﴾ [عبس: ٣١] فَقِيلَ: مَا الْأَبُّ؟ فَقِيلَ: كَذَا، وَكَذَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ هَذَا لَهُوَ التَّكْلِفُ، أَيُّ أَرْضٍ تَقْلُنِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظَلُّنِي إِذَا قَلْتَ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ^(٤)!

بعض أصحاب الشهوات من الروافض يرى أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كان على غير علم بأحكام الشريعة فكان يقول برأيه، ويصرح هو نفسه بذلك، ويشيرون بهذا إلى ما جاء عنه في كلامه على (الكلالة). قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي الْكَلَالَةِ رَأْيَا، فَإِنْ كَانَ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنِّي وَالشَّيْطَانُ، وَاللَّهُ مِنْهُ بَرِيءٌ؛ إِنْ الْكَلَالَةُ مَا خَلَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ. فَلَمَّا اسْتَخْلَفَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: إِنِّي لِأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ أَخَالَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي رَأْيٍ رَأَاهُ^(٥). والجواب: أن هذا من أعظم علمه؛ فإن هذا الرأي الذي رآه في الكلالة قد اتفق عليه جماهير العلماء بعده، فإنهم أخذوا في الكلالة بقول أبي بكر، وهو من لا ولد له ولا والد، والقول بالرأي هو معروف عن سائر الصحابة، كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، لكن الرأي الموافق للحق هو الذي يكون لصاحبه أجران، كرأي الصديق، فإن هذا خير من الرأي الذي غاية صاحبه أن يكون

(١) البخاري، كتاب التعبير، رقم (٧٠٤٦).

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ١٢٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٠.

(٤) فتح الباري (١٣/ ٢٨٥) فيه انقطاع بين إبراهيم النخعي، وأبي بكر.

(٥) تفسير الطبري، (٦/ ٤٧٥).

له أجر واحد. وقد قال قيس بن عباد لعلي: أرأيت مسيرك هذا: ألعهد عهده إليك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم رأي رأيته؟ فقال: بل رأي رأيته. فإذا كان مثل هذا الرأي الذي حصل به من سفك الدماء ما حصل، لا يمنع صاحبه أن يكون إماما، فكيف بذلك الرأي الذي اتفق جماهير العلماء على حسنه^(١). وأفتى في الكلالة برأيه، لأنه أمر نزل بالمسلمين واحتاجوا إليه في مواريتهم، وقد أبيح له اجتهد الرأي فيما لم يؤثر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه شيء، ولم يأت له في الكتاب شيء كاشف، وهو إمام المسلمين ومفزعهم فيما ينوبهم، فلم يجد بداً من أن يقول وكذلك قال عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حين سئلوا، وهم الأئمة والمفزع إليهم عند النوازل^(٢). والرأي هو القياس، ولم ينفرد بذلك أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل قال برأيه قياساً كبار الصحابة، كعمر وعثمان وعلي وغيرهم. وأمر عمر أبا موسى في عهده بالقياس وقال في الجد أقضي برأبي وقال له عثمان إن اتبعت رأيك في الإجماع فسد يد وقال علي اجتمع رأيي ورأي عمر في أم الولد وقاس ابن عباس الجد على ابن الابن في الحجب^(٣).

٤ - دعاؤه وشدة تضرعه:

إِنَّ الدُّعَاءَ بَابٌ عَظِيمٌ، فَإِذَا فُتِحَ لِلْعَبْدِ تَتَابَعَتْ عَلَيْهِ الْخَيْرَاتُ، وَاِنْهَالَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَاتُ، وَلِذَلِكَ حَرَصَ الصَّدِّيقُ عَلَى حَسَنِ الصَّلَةِ بِاللَّهِ، وَكَثْرَةِ الدُّعَاءِ، كَمَا أَنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ وَأَقْوَى عَوَامِلِ النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) منهاج السنة النبوية، (٥/ ٥٠٢).

(٢) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة الدينوري، المكتب الإسلامي - مؤسسة الإشراف، الطبعة الثانية، ١٤١٩ هـ، (ص ٧٥).

(٣) الإبهاج في شرح المنهاج، تاج الدين السبكي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، (٣/ ١٤ ط العلمية).

ولقد لازم الصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأى كيف كان رسول الله يستغيث بالله، ويستنصر، ويطلب المدد منه، وقد حرص الصديق على أن يتعلم هذه العبادة من رسول الله، وأن يكون دعاؤه وتسبيحه على الصيغة التي يأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرتضيها؛ إذ ليس للمسلم أن يفضل على الصيغة المأثورة في الدعاء والتسبيح والصلاة على النبي صيغاً أخرى، مهما كانت في ظاهرها حسنة اللفظ، جيدة المعنى؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو معلّم الخير، والهادي إلى الصراط المستقيم، وهو أعرف بالأفضل، والأكمل^(١)، وقد جاء في الصحيحين: أن أبا بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: يرأس الله! علّمني دعاءً أدعوه به في صلاتي. قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظمماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»^(٢).

ففي هذا الدعاء وصف العبد لنفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة، وفيه وصف ربّه الذي يوجب: أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبة، وفيه بيان المقتضى للإجابة، وهو وصف الربّ بالمغفرة، والرحمة، ونحوه أكمل أنواع الطلب^(٣).

وجاء في السنن عن أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: يرأس الله! علّمني دعاءً أدعوه به إذا أصبحت، وإذا أمسيت، فقال: «قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربّ كلّ شيءٍ ومليكة، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرّ نفسي، ومن شرّ الشيطان، وشرّكه، وأن أقرّف على نفسي سوءاً، أو أجرّه إلى مسلم، قلّه إذا أصبحت، وإذا أمسيت، وإذا أخذت مضجعك»^(٤).

فقد تعلم الصديق من رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه ليس لأحد أن يظنّ استغناءه عن التوبة إلى الله، والاستغفار من الذنوب، بل كلّ أحد محتاجٌ إلى ذلك دائماً. قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ

(١) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، ص ٢٠٧.

(٢) مسلم، الذكر والدعاء رقم (٢٧٠٥)؛ البخاري رقم (٨٤٣).

(٣) الفتاوى (١٤٦/٩).

(٤) أبو داود في الأدب رقم (٥٠٦٧)؛ الترمذي في الدعوات رقم (٣٥٢٩).

ظُلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣] فالإنسان ظالمٌ جاهلٌ، وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة، وقد أخبر الله تعالى في كتابه بتوبة عباده الصالحين، ومغفرته لهم.

وثبت في الصحيحين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ». قالوا: ولا أنت يرسل الله ؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدن الله برحمته»^(١). وهذا لا ينافي قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

فإن الرسول نفى بآء المقابلة، والمعادلة، والقران أثبت بآء السبب، وقول مَنْ قَالَ: إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا لَمْ تَضُرَّهُ الذُّنُوبُ. معناه: أَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا أَهْمَهُ التَّوْبَةُ، وَالِاسْتِغْفَارُ، فَلَمْ يَصِرَّ عَلَى الذُّنُوبِ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الذُّنُوبَ لَا تَضُرُّ مَنْ أَصَرَّ عَلَيْهَا؛ فَهُوَ ضَالٌّ مُخَالَفٌ لِلكِتَابِ، وَالسُّنَّةِ، وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ، وَالْأئِمَّةِ. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

كان أبو بكرٍ دائم الذكر لله تعالى، شديد التضرُّع، كثير التَّوَجُّه لله، لا ينفك عن الدُّعاء في كُلِّ أحيانه، وقد نقل إلينا بعض أدعيته، وتضرعاته، ومنها:

أ - أسألك تمام النعمة في الأشياء كلها، والشكر لك عليها حتى ترضى، وبعد الرضا، والخيرة في جميع ما تكون إليه الخيرة، بجميع ميسور الأمور كلها، لا بمعسورها يا كريم^(٢)!.

ب - وكان يقول في دعائه: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ لِي فِي عَاقِبَةِ الْخَيْرِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ آخِرَ مَا تَعْطِينِي مِنَ الْخَيْرِ رِضْوَانًا وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ^(٣).

ج - وكان يقول في دعائه: اللَّهُمَّ اجْعَلْ خَيْرَ عَمْرِي آخِرَهُ، وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ، وَخَيْرَ

(١) البخاري في الرقاق رقم (٦٤٦٣).

(٢) الفتاوى (١٤٢/١١).

(٣) الشُّكر لابن أبي الدنيا رقم (١٠٩) نقلًا عن خطب أبي بكر، ص ٣٩.

أيامي يوم ألقاك^(١).

د - وكان إذا سمع أحداً يمدحه من الناس، يقول: اللَّهُمَّ أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللَّهُمَّ اجعلني خيراً ممّا يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون^(٢).

هذه بعض أهم صفاته، وشيء من فضائله مررنا عليها بالإيجاز، وسوف نرى أثر التربية النبوية على الصديق بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف قام مقاماً لم يقمه غيره بفضل الله، وتوفيقه، ثم تربيته العميقة، وإيمانه العظيم، وعلمه الراسخ وتعلمه على يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أحسن الجندية، وقطع مراحلها، وأشواطها برفقة قائده العظيم، عليه أفضل الصلاة والسلام، فلما أصبح خليفة للأمة؛ استطاع أن يقود سفينة الإسلام إلى شاطئ الأمان، رغم العواصف الشديدة، والأمواج المتلاطمة، والفتن المظلمة.

٥. فطنته وذكاءه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستقبل أحداث الحياة الجليلة ويلقي إليها سمعه المرهف، ويستوعبها بذهنه الوقاد وفطنته الباهرة، وقد شهدت أيامه مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ براهين كثيرة تدل على ذكائه المتوقد وفطنته الباهرة، وحسبك ما ظهر منه يوم وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي سقيفة بني ساعدة^(٣). ومن ذلك أيضاً:

- عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس وقال: إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عبد خير، فكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا^(٤). وهذا من فطنة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه علم أن المخير هو

(١) خطب أبي بكر الصديق، ص ١٣٩.

(٢) كنز العمال رقم (٥٠٣٠) نقلاً عن خطب أبي بكر، ص ٣٩.

(٣) أبو بكر الصديق، عبد الستار الشيخ، ص ٧٠، ٧١.

(٤) صحيح البخاري (٥ / ٤)، رقم: ٣٦٥٤.

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم ينتبه ذلك سواه من الصحابة^(١).

- جاء في الحديث عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أقبل نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة وهو مردف، أبا بكر وأبو بكر شيخ يعرف، ونبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شاب لا يعرف، قال: فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: يا أبا بكر، من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرجل يهديني السبيل. قال: فيحسب الحاسب أنه إنما يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير. فالتفت أبو بكر فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول الله، هذا فارس قد لحق بنا. فالتفت نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: اللهم اصصره فصصره الفرس...^(٢)» ويفهم من قول أبي بكر: «يهديني السبيل»، أي: يدلني على الطريق، وهذا مواراة من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقصد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه يهديني طريقي في الدنيا والآخرة ويرشدني إلى ما فيه كل الخير. وهذا من فطنته وذكاؤه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٣)، ورجاحة عقله وحضور ذهنه، حرصاً على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحماية له من كيد من أراد به شراً.

- جاء في حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدث العازب بن حارث الأنصاري عن قصة هجرته مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة إلى المدينة، في حديث طويل، وفيها: قلت: - القائل أبو بكر لراعٍ رآه في طريقه - أفي غنمك لبن؟ قال: نعم. قلت: أفتحلب لي؟ قال: نعم. فأخذ شاة. فقلت له انفض الضرع من الشعر والتراب والقذى، فحلب لي، كثةً من لبن. قال ومعي إدواة أرتوي فيها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليشرب منها ويتوضأ. قال فأتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكرهت أن أوقظه من نومه. فوافقته وقد استيقظ، فصبيت على اللبن من الماء حتى برد أسفله. فقلت: يا رسول الله! اشرب من هذا اللبن. قال فشرب حتى رضيت^(٤). قال أبو المظفر الشيباني: وفيه من فطنة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه

(١) كشف المشكل من أحاديث الصحيحين، أبو الفرج ابن الجوزي، دار الوطن، الرياض، (٣/ ١٤٦).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٦٢)، رقم: ٣٩١١.

(٣) صحيح السيرة النبوية، للعلي (ص ١٢٧).

(٤) صحيح مسلم (٤/ ٢٣١٠)، رقم: ٢٠٠٩.

لم يضع يده فيه ليعرف برده، ولا شرب منه قبل رسول الله ﷺ بل تركه بحاله فلم يعرف ذلك إلا ببرد أسفله^(١).

- قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما سجدت لصنم قط، وذلك أني لما نهزت الحلم، أخذني أبو قحافة بيدي فانطلق بي إلى مكان فيه أصنام، فقال لي: هذه آلهتك الشم العوالي، وخلاني وذهب، فدنوت من الصنم وقلت: إني جائع فأطعمني. فلم يجبني، فقلت: إن عار فاكسني فلم يجبني، فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه" وهذه أمارة عن فطنة أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - وأنه أدرك قبل أن يوحى للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بالنبوة والرسالة أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، ولا تكسو عارياً ولا تطعم جائعاً، وهذا توفيق من رب العزة والجلال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى^(٢).

- ولما نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، كان أبو بكر أول من فهم منها أنها في القتال؛ لذلك قال حال نزولها: فعرفت أنه سيكون قتال^(٣). وهذا من فطنته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه^(٤). هذه بعض الأحداث التي تبين أو تشير إلى فطنة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولو استقرأنا السيرة النبوية، وتفاصيل حياته لوجدنا عشرات المواقف المشابهة لهذه، والتي تبين فطنته ويقظته وذكاءه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٦. حزمه وثباته عند الشدائد:

كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً رقيقاً كما وصفته ابنته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، لما قالت للنبي ﷺ: «إن أبا بكر رجل أسيف»^(٥) الأسيف: رقيق القلب، فكان أبو بكر رقيق

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح، يحيى ابن هبيرة، دار وطن، ١٤١٧هـ، (١ / ٦١).

(٢) أصول الدعوة وطرقها ٤ - جامعة المدينة (ص ٣٣٤).

(٣) تفسير ابن كثير، (٥ / ٤٣٣).

(٤) مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، (٣٢ / ١٦٠).

(٥) صحيح البخاري (١ / ١٣٤)، رقم: ٦٦٤.

القلب، رحيمًا هَيِّنًا لَيْنًا، وهو مع ذلك شديد الحزم، قوي الجأش ثابت الجنان، يثبت - بإذن الله - أمام المصائب العظيمة والأمور المدلهمة، وما ذلك إلا لأنه قوي اليقين بالله، قد امتلأ قلبه إيمانًا ونورًا بكتاب الله وبصحبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وثبات الجنان ينشئ الصلابة والحزم والعزم، وفي ساعات العسرة وخلال الأزمات الحازبة كان إيمان أبي بكر يخرج خبأه الباهر فيملاً الزمان والمكان والأنفس روعة. وصلابة أبي بكر وعزيمته الصادقة وحزمه الفذ يتجلى واضحًا فيما شهدته أيام خلافته من ضبط للأمر، وجده في حفظ البيضة ومجاهدة المشايق وتسيير دفة الإسلام وسط الخطوب المظلمة وأمواج الفتن المتلاطمة، حتى أرساها إلى مرفأ السلامة والأمن، ولم يلحق بربه حتى أعاد الإسلام أقوى ما كان شوكة، وأمنع ما كان جانبًا، وأثبت ما كان أساسًا، وكل ذلك بثباته أمام الأخطار، واستصغاره الخطوب، وتصميم عزيمته، ومضائه على الحق^(١).

وللنظر إلى حزمه وقوة موقفه يوم وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه قد ثبت أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في يوم لم يشهد صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصعب منه في حياتهم، ولا أفسى على نفوسهم وقلوبهم؛ لذلك قال ابن رجب واصفًا وقع ذلك اليوم على صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ولما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهِش فخلوط، ومنهم من أقعد، فلم يُطق القيام، ومنهم من اعتُقل لسانه، فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية^(٢). ونرى أن عمر وهو من هو في حزمة ورباطة جأشه، نراه قد انهار لحظة سماعه الخبر، حتى جاء أبو بكر وتلا عليهم آيات من كتاب الله نزلت بردًا على قلوبهم فأيقنوا أنه الحق.

لما سمع أبو بكر خبر وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أقبل على فرس من مسكنه بالسُّنح؛ حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس، حتى دخل على عائشة، فتيَّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُغشَّى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكبَّ عليه، فقبَّله، وبكى،

(١) أبو بكر الصديق، عبد الستار السيد، ص ٨٢.

(٢) مسلم، (٤/١٩٠٧).

ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها^(١). وخرج أبو بكر وعمر يتكلم، فقال: اجلس يا عمر! وهو ماضٍ في كلامه، وفي ثورة غضبه، فقام أبو بكر في الناس خطيباً بعد أن حمد الله، وأثنى عليه:

أما بعد: فإن من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فنشج الناس بكون^(٢).

قال عمر: فوالله ما إن سمعت أبا بكرٍ تلاها، فهويت إلى الأرض ما تحملني قدمي، وعلمت: أن رسول الله قد مات^(٣). قال القرطبي: هذه الآية أدل دليل على شجاعة الصديق، وجراسته، فإن الشجاعة، والجرأة حدهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي صلى الله عليه وسلم، فظهرت شجاعته، وعلمه، فإن الناس قالوا: لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علي، واضطرب الأمر، فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالشُّنح^(٤).

٧. اتباعه التام للنبي صلى الله عليه وسلم:

من الأسرار التي تنطوي عليها شخصية أبي بكر، والأسس التي شيدت عليها عبقريته، وتكمن وراء كل رأي يرتبه أو قرار حاسم يبرمه: الاتباع الكامل لرسول الله صلى الله عليه وسلم في هديه وأوامره، وهو من أطيب ثمرات التصديق به صلى الله عليه وسلم. والمتتبع لحياته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرى هذه الميزة متفردة في شخصيته ومواقفه، كما أنه يتفرد بها عن الصحابة الذين

(١) العواصم من القواصم، (ص ٣٨).

(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٥٢).

(٣) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٣٦٦٨).

(٤) البخاري، كتاب المغازي رقم: (٤٤٥٤).

كان التصديق والاتباع محور حركاتهم وسكناتهم وأعمالهم في خدمة الإسلام ونصرتهم^(١). إن الإيمان الراسخ في قلب الصديق ضاعف عنده التأسي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأصبح من عناصر الوجود الحاسمة القاهرة في شخصيته، والتي أعطته تلك القوة الروحية التي لا سلطان لشيء في الحياة عليها، والتي لا تعرف الضعف ولا التردد، ولا يغلبها لذلك غالب^(٢).

ومن الآثار التي تظهر منزلة أبي بكر وشدة اتباعه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مما أفاء الله على رُسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تطلب صدقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي بالمدينة وفدك، وما بقي من خمس خبير، فقال أبو بكر: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لا نورث، ما تركنا فهو صدقة، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ - يعني مال الله - ليس لهم أن يزيدوا على المأكَل). وإني والله لا أغير شيئاً من صدقات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي كانت عليها في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأعملن فيها بما عمل فيها رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣) وفي هذا الحديث دلالة على كمال اتباع أبي بكر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهراً وباطناً.

- عن أبي هريرة قال: لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق^(٤).

لقد بلغ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في شدة اتباعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتحريه سننه، واقتفاء آثاره

(١) أبو بكر الصديق، عبد الستار الشيخ، ص ٨٤.

(٢) حياة أبي بكر، محمد حسين هيكل، ص ١٣، نقلاً عن أبو بكر الصديق، عبد الستار الشيخ، ص ٨٥.

(٣) صحيح البخاري (٣/ ١٣٦١)، رقم: ٣٥٠٨.

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (٩/ ٩٣)، رقم: ٧٢٨٥؛ مسلم: صحيح مسلم (١/ ٥١)، رقم: ٢٠.

المبلغ الكبير، والدرجات العالية، ولذلك قال مكحول لَمَّا قيل له أتركت الموضوع مما مست النار - وكان أخذ بفتوى لأبي بكر - فقال: لأن يقع أبو بكر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يخالف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

٨. أولوياته:

أ. أول من أسلم:

كان الصديق أول من أسلم من الرجال بالاتفاق، وعلى خلاف بين العلماء هل هو أول من أسلم على الإطلاق، أو هي خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والذي عليه الجمهور أنه كان أول من أسلم خارج بيت النبوة^(٢). أسلم الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يتلثم، وتقدم، ولم يتأخر، وعاهد رسول الله على نصرته، فقام بما تعهد، ولهذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حقّه: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه، وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟» مرتين^(٣). فلا ريب أن أبا بكر كان دائم التصديق على رسول الله بلا تردد أو تلثم، ولا يخفى ذلك على منصف، ولهذا صار وصفه واسمه الصديق، فهو بحق أول الرجال سبقاً إلى الإسلام والتصديق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٤). قال إبراهيم النخعي، وحسان بن ثابت، وابن عباس، وأسماء بنت أبي بكر: أول من أسلم أبو بكر. وقال يوسف بن يعقوب الماجشون: أدرت أبي، ومشيتنا: محمد بن المنكدر، وربيعه بن عبد الرحمن، وصالح بن كيسان، وسعد بن إبراهيم، وعثمان بن محمد الأخنس، وهم لا يشكون: أن أول القوم إسلاماً أبو بكر^(٥).

(١) الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار، يوسف بن عبد البر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، (١/ ١٧٥).

(٢) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، عبد الستار الشيخ، ص ٩٦.

(٣) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، رقم، ٣٦٦١.

(٤) خصائص أبي بكر الصديق، عبد العزيز الحميدي، ص ١٥.

(٥) صفة الصفة، (١/ ٢٣٧)؛ أحمد، فضائل الصحابة (٣/ ٢٠٦).

ب. أول من أُوذي في الله بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أبو بكر هو أول من أُوذي في الله ^(١) بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آذاه الكفار على إيمانه حتى خرج من مكة مهاجراً إلى أرض الحبشة، كما جاء ذلك في صحيح البخاري في حديث طويل، وفيه: «فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة...» ^(٢) حتى رآه ابن الدغنة، وأقنعه أن يرجع إلى دياره وهو له مجير، ففعل ذلك أبو بكر، وفي الحديث: فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة، وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليصل فيها وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فينقذ عليه نساء المشركين وأبنائهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجراً أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانه، فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإننا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان. قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرت في رجل عقدت له. فقال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عَزَّجَلَّ...» ^(٣).

ج. أول من دافع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) منهاج السنة النبوية، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، (٥/ ٢١).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٥٨)، رقم ٣٩٠٥.

(٣) صحيح البخاري (٥/ ٥٨)، رقم (٣٩٠٥).

أبو بكر هو أول من دافع عن رسول الله ﷺ وكان مشاركا لرسول الله ﷺ في هجرته وجهاده حتى كان هو وحده معه في العريش يوم بدر^(١). لما أراد المشركون أن يضربوا رسول الله ﷺ أو يقتلوه بمكة دافع عنه الصديق فضربوه، وعن عروة بن الزبير قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ قال: رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم^(٢). وفي حديث أسماء: فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقال: أدرك صاحبك. قالت: فخرج من عندنا وله غدائر أربع وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله! فلهوا عنه وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئا من غدائره إلا رجع معه^(٣).

د. أول من دعا إلى الله بعد رسول الله ﷺ:

كان أبو بكر أول من دعا إلى الله^(٤) بعد رسول الله ﷺ. كان لأبي بكر قدر عند قريش لما فيه من المحاسن، فجعل يدعو الناس إلى الإسلام من وثق به، فأسلم على يديه أكابر أهل الشورى: عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة، وهذا أفضل عمل. وكان يخرج مع النبي ﷺ يدعو معه الكفار إلى الإسلام في المواسم ويعاونه معاونة عظيمة في الدعوة، بخلاف غيره. كان يجاهد الكفار مع الرسول ﷺ قبل الأمر بالقتال بالحجة والبيان والدعوة، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَجَهْدُهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] وهذه السورة -سورة الفرقان- مكية نزلت قبل أن يهاجر النبي ﷺ وقبل أن يؤمر بالقتال. فكان أبو بكر أسبق الناس وأكملهم في أنواع

(١) منهاج السنة النبوية (٥ / ٢١)؛ المنتقى من منهاج الاعتدال (ص ٣٠٦).

(٢) صحيح البخاري (٥ / ١٠)، رقم: (٣٦٨٧).

(٣) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة، وأحقهم بالخلافة (ص ٢٣).

(٤) منهاج السنة النبوية، (٥ / ٢١).

الجهاد بالنفس والمال، فإنه جاهد قبل الأمر بالقتال وبعد الأمر بالقتال، منتصباً للدعوة إلى الإيمان بمكة والمدينة يدعو المشركين ويناظرهم^(١).

هـ. أول من أنفق في سبيل الله:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ مِنْ أُمَّةٍ أَمِنَ النَّاسُ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ»^(٢) قال عبد الرحمن بن قاسم: «وهذا صريح في اختصاصه بهذه الفضيلة لم يشركه فيها علي ولا غيره»^(٣) وهذا ما قاله من قبل الإمام ابن تيمية: «ولا ريب أن جهاد أبي بكر بماله ونفسه أعظم من جهاد علي وغيره»^(٤). وإنفاق أبي بكر لم يكن نفقة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طعامه وكسوته فإن الله أغنى نبيه عن مال الخلق أجمعين؛ بل كان معونة له على إقامة الإيمان. وكان إنفاقه في أول الإسلام لتخليص من آمن والكفار يؤذونه أو يريدون قتله مثل اشتراؤه سبعة كانوا يعذبون في الله، منهم بلال، حتى قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا يعني بلالاً^(٥).

(١) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة، وأحقهم بالخلافة، (ص ٢٤).

(٢) متفق عليه. صحيح البخاري (٥ / ٤)، رقم: ٣٩٠٤. مسلم، صحيح مسلم (٤ / ١٨٥٤)، رقم: ٢٣٨٢.

(٣) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة (ص ٢٥).

(٤) منهاج السنة النبوية (٥ / ٢٠).

(٥) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، محمد رضا، مكتبة محمد فؤاد، الطبعة الثانية، ١٩٥٠ م، (ص ٢٥).

الفصل الثاني: وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسقيفة بني ساعدة، وجيش أسامة

المبحث الأول: وفاة الرسول وسقيفة بني ساعدة

أولاً: وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إنَّ الأرواح الشَّافَّة الصَّافية لتدرك بعض ما يكون مخبوء وراء حجب الغيب بقدرة الله تعالى، والقلوب الطَّاهرة المطمئنة لتحدِّث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزَّمان، والعقول الذَّكية المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشاراتٍ، وتلميحاتٍ، ولنبيِّنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الصفات الحظُّ الأوفر، وهو منها بالمحلِّ الأرفع؛ الذي لا يُسامى ولا يطاول^(١).

ولقد جاءت بعضُ الآيات القرآنية مؤكِّدةً على حقيقة بشريَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنَّه غيره من البشر، سوف يذوق الموت، ويعاني سكراته، كما ذأفه من قبل إخوانه من الأنبياء، ولقد فهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بعض الآيات اقتراب أجله، وقد أشار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طائفة من الأحاديث الصَّحيحة إلى اقتراب وفاته، منها ما هو صريح الدَّلالة على الوفاة، ومنها ما ليس كذلك، حيث لم يشعر ذلك منها إلا الآحاد من كبار الصَّحابة الأجلَّاء، كأبي بكرٍ، والعبَّاس، ومعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٢).

• مرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبدء الشَّكوى:

رجع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حَجَّة الوداع في ذي الحِجَّة، فأقام بالمدينة بقيته من العام العاشر، والمحرم، وصفرًا، من العام الحادي عشر، فبدأ بتجهيز جيش أسامة، وأمرَ عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجَّه نحو البلقاء، وفلسطين، فتجهَّز الناس وفيهم

(١) أسد الغابة (٣/٣٢٤).

(٢) السيرة النبوية لأبي شعبة، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٨٧.

المهاجرون، والأنصار، وكان أسامة بن زيد ابن ثمانى عشرة سنة، وتكلم البعض في تأخيرهِ، وهو مولى، وصغير السنَّ على كبار المهاجرين والأنصار، لم يقبل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طعنهم في إمارة أسامة^(١)، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ يَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ طَعَنُوا فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ، وَإِيمَ اللَّهِ، إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَنَّ ابْنَهُ هَذَا لِمَنْ أَحَبَّ النَّاسُ إِلَيَّ بَعْدَهُ»^(٢).

وبينما الناس يستعدُّون للجهاد في جيش أسامة ابتداءً رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شكواه الذي قُبِضَ فيه. وقد حدثت حوادث ما بين مرضه ووفاته منها: زيارته قتلى أحدٍ، وصلاته عليهم^(٣)، واستئذانه أَنْ يَمْرُضَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، وشِدَّةَ المَرَضِ الذي نَزَلَ بِهِ^(٤)، وأوصى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِخْرَاجِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وإِجَازَةِ الْوَفْدِ^(٥)، ونهى عَنْ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ مَسْجِدًا^(٦)، وأوصى بِإِحْسَانِ الظَّنِّ بِاللَّهِ^(٧)، وأوصى بِالصَّلَاةِ، وما ملكَتْ أَيْمَانُكُمْ^(٨)، وَبَيَّنَّ بِأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مَبَشِّرَاتِ النَّبُوَّةِ إِلَّا الرُّؤْيَا^(٩)، وأوصى بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا^(١٠)، وَخَطَبَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَيَّامِ مَرَضِهِ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ»، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَعَجَبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَبْدٍ خَيْرٍ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيْرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمُنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَمَّنَ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صَحْبَتِهِ، وَمَالَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ

(١) مرض النبي ووفاته، خالد أبو صالح، ص ٣٣.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥٢).

(٣) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي (ص) (٤٤٦٩).

(٤) البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد رقم (١٣٤٤).

(٥) صحيح السيرة النبوية، (ص ٦٩٥).

(٦) البخاري، كتاب الجهاد، والسير رقم (٣٠٣٥).

(٧) صحيح السيرة النبوية، ص ٧١٢؛ البخاري، كتاب الصلاة رقم (٤٣٥).

(٨) مسلم، كتاب الجنة رقم (٢٨٨).

(٩) سنن ابن ماجه، كتاب الوصايا (٢/ ٩٠١، ٩٠٠) رقم (٢٦٩٧).

(١٠) مسلم، كتاب الصلاة (١/ ٣٤٨).

كُنْتُ مَتَّخِذًا خَلِيلًا غَيْرَ رَبِّي لَا تَخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أَخُوَّةَ الْإِسْلَامِ، وَمَوَدَّتَهُ، لَا يَبْقَيْنَ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابَ أَبِي بَكْرٍ»^(١).

قال الحافظ ابن حجر: وكانَّ أبا بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فهم الرَّمز الذي أشار به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه: أَنَّهُ أَرَادَ نَفْسَهُ، فَلِذَلِكَ بَكَى^(٢)، ولما اشتدَّ المرض بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحضرته الصلاة، فأذَّن بلالٌ؛ قال النبي: «مروا أبا بكرٍ فليُصَلِّ» فقليل: إِنَّ أبا بكرٍ رجلٌ أَسِيفٌ^(٣)، إِذَا قام مقامك لم يستطع أن يصليَّ بالناس. وأعاد، فأعادوا له، فأعاد الثالثة، فقال: «إِنَّكَ صَوَاحِبُ يَوْسُفَ»^(٤)، مروا أبا بكرٍ فليُصَلِّ». فخرج أبو بكرٍ، فوجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفسه خَفَّةً، فخرج يهادى بين رجلين، كأني أنظر إلى رجله تخطَّان من الوجع، فأراد أبو بكرٍ أن يتأخَّر فأوماً إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مكانك، ثُمَّ أَتَى به حتى جلس إلى جنبه، قيل للأعمش: فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصليَّ وأبو بكرٍ يصليَّ بصلاته، والنَّاسُ يصلُّون بصلاة أبي بكرٍ! فقال برأسه: نعم^(٥).

واستمرَّ أبو بكرٍ يصليَّ بالمسلمين، حتى إِذَا كان يوم الإثنين، وهم صفوف في صلاة الفجر، كشف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستر الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوف أمام ربِّهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته، وجهاده، وكيف نشأت أُمَّة تحافظ على الصَّلَاة، وتواظب عليها بحضرة نبيِّها وغيبتها، وقد قرَّت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النَّجاح الذي لم يقدر لنبيٍّ، أو داعٍ قبله، واطمأنَّ أن صلة هذه الأُمَّة بهذا الدين، وعبادة الله تعالى، صلةٌ دائمةٌ، لا تقطعها وفاة نبيِّها، فملئ من السرور ما الله به عليم، واستنار وجهه وهو منير^(٦)، يقول الصَّحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: كشف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستر حجرة عائشة ينظر إلينا، وهو قائم،

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٩٩).

(٢) البخاري، كتاب فضائل الصَّحابة رقم (٣٦٥٤).

(٣) فتح الباري (١٦/٧).

(٤) أسيف: من الأسف وهو شدة الحزن، والمراد: أَنَّهُ رقيق القلب.

(٥) والمراد: أَنَّهُمْ مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن.

(٦) البخاري، كتاب الأذان رقم (٧١٢).

كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةً مَصْحَفٌ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتِنَ مِنَ الْفَرَحِ، وَظَنَّا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَارِجٌ إِلَى الصَّلَاةِ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا أَنْ أَتَمُّوا صَلَاتَكُمْ، وَدَخَلَ الْحَجْرَةَ، وَأَرَخَى السُّتْرَ^(١)، وَانصَرَفَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى ابْنَتِهِ عَائِشَةَ، وَقَالَ: مَا أَرَى رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا قَدْ أَقْلَعَ عَنْهُ الْوَجَعُ، وَهَذَا يَوْمُ بِنْتِ خَارِجَةَ - إِحْدَى زَوْجَتَيْهِ^(٢) - وَكَانَتْ تَسْكُنُ بِالسُّنْحِ^(٣)، فَركب على فرسه، وَذَهَبَ إِلَى مَنْزِلِهِ^(٤).

وَاشْتَدَّتْ سَكْرَاتُ الْمَوْتِ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، وَقَدْ صَمِتَ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْكَلَامِ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ يَضَعُهَا عَلَى أُسَامَةَ، فَعَرَفَ أَنَّهُ يَدْعُو لَهُ، وَأَخَذَتْ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَسُولَ اللَّهِ، وَأَسْوَدَتْهُ إِلَى صَدْرِهَا بَيْنَ سَحْرَاهَا^(٥)، وَنَحْرِهَا، فَدَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ وَبِيَدِهِ سِوَاكٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: اخْذْهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ نَعَمْ، فَأَخَذَتْهُ مِنْ أُخْيَاهَا، ثُمَّ مَضَغَتْهُ، وَلَيَّنَتْهُ، وَنَاولَتْهُ إِيَّاهُ، فَاسْتَاكَ بِهِ كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ الْإِسْتِيَاكُ، وَكُلُّ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يَنْفَكُ عَنْ قَوْلِهِ: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»^(٦)، وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَانِبِهِ رَكُوعًا مَاءً، أَوْ عَلَبَةً فِيهَا مَاءٌ، فَيَمْسَحُ بِهَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.. إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكْرَاتٍ»، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى»، حَتَّى قَبِضَ، وَمَالَتْ يَدَهُ^(٧)، وَفِي لَفْظٍ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكْرَاتِ الْمَوْتِ!»^(٨).

وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّ عَائِشَةَ سَمِعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ، وَهُوَ مُسْنَدٌ

(١) السيرة النبوية للذَّوِي، (ص ٤٠١).

(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٤٨).

(٣) أي: إحدى زوجتي أبي بكرٍ.

(٤) السنح: خارج المدينة كان للصديق مألً فيه، وبيت.

(٥) السيرة النبوية لأبي شهبة، مرجع سابق، ج ٢، ص ٥٩٣.

(٦) السَّحَر: الرُّثَّة، النَّحْر: الثُّغْرَة فِي أَسْفَلِ الْعُنُقِ.

(٧) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٣٧).

(٨) المصدر السابق نفسه، رقم (٤٤٤٩).

الظَّهْر يقول: «اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى»^(١).

وقد ورد أن فاطمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: واكرب أباه! فقال لها: «ليس على أهلك كربٌ بعد اليوم»، فلمَّا مات قالت: يا أبتاه! أجاب ربًّا دعاها، يا أبتاه!، جنَّة الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبريل ننعها، فلمَّا دفن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت لأنس: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التُّراب^(٢).

فارق رسول الله الدنيا وهو يحكم جزيرة العرب، ويرهبه ملوك الدنيا، ويفديه أصحابه بنفوسهم، وأولادهم، وأموالهم، وما ترك عند موته ديناراً، ولا درهماً، ولا عبداً، ولا أمةً، ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة^(٣) وتوفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير^(٤)، وكان ذلك يوم الإثنين في الثاني عشر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة بعد الزوال^(٥)، وله ثلاث وستون سنة^(٦)، وكان أشدَّ الأيام سواداً، ووحشةً، ومصاباً على المسلمين، ومحنةً كبرى للبشريَّة، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس^(٧)، يقول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة أضاء منها كلُّ شيء، فلمَّا كان الذي مات فيه، أظلم منها كلُّ شيء^(٨)، وبكت أم أيمن، فقيل لها: ما يبكيك على النبي؟ قالت: إنِّي قد علمت أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيموت، ولكن إنَّما أبكي على الوحي الذي رفع عنا^(٩).

(١) الترمذي كتاب الجنائز رقم (٩٧٨).

(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٤٠).

(٣) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٦٢).

(٤) المصدر السابق نفسه، رقم (٤٤٦١).

(٥) السيرة النبوية للندوي، ص (٤٠٣).

(٦) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٢٣.

(٧) مسلم، كتاب الفضائل (٨٢٥/٤).

(٨) انظر: السيرة النبوية للندوي، (ص ٤٠٤).

(٩) الترمذي (٥٤٩/٥) رقم (٣٦١٨).

ثانياً: هول الفاجعة وموقف أبي بكرٍ منها:

قال ابن رجب: ولما توفي رسول الله ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهِش فحولط، ومنهم من أقعد، فلم يُطق القيام، ومنهم من اعتُقل لسانه، فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية^(١).

قال القرطبي مبيّناً عظم هذه المصيبة، وما ترتب عليها من أمور: من أعظم المصائب المصيبة في الدين.. قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبةٌ، فليذكر مصابه بي فإنها أعظم المصائب»^(٢)، وصدق رسول الله ﷺ، لأن المصيبة به أعظم من كل مصيبة يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة، انقطع الوحي، ومات النبوة، وكان أول ظهور الشرّ بارتداد العرب وغير ذلك، وكان أول انقطاع الخير وأول نقصانه^(٣).

وقال ابن إسحاق: ولما توفي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين، فكانت عائشة فيما بلغني تقول: لما توفي النبي ﷺ ارتدت العرب، واشترأت^(٤) اليهودية، والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشّاتية لفقد نبيهم^(٥).

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: واضطربت الحال.. فكان موت النبي ﷺ قاصمة الظهر، ومصيبة العمر، فأما عليّ، فاستخفى في بيت فاطمة، وأما عثمان، فسكت، وأما عمر، فأهجر^(٦)، وقال: ما مات رسول الله وإنما واعدته ربّه كما واعد موسى، وليرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي رجال، وأرجلهم^(٧)، ولما سمع أبو بكر الخبر؛ أقبل على فرس من

(١) مسلم (٤/١٩٠٧).

(٢) لطائف المعارف، ص ١١٤.

(٣) السلسلة الصحيحة للألباني رقم (١١٠٦).

(٤) تفسير القرطبي (٢/١٧٦).

(٥) اشترأت: تقول: اشترأ الرجل: إذا صعد عنقه لينظر.

(٦) ابن هشام (٤/٣٢٣).

(٧) «أهجر»: نطق الهجر، وهو الهذيان.

مسكنه بالسُّنْح؛ حَتَّى نَزَلَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يَكَلِّمْ النَّاسَ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتِمَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُغَشَّى بِثَوْبِ حَبْرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ، فَقَبَّلَهُ، وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَاللَّهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كَتَبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا^(١). وَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ! وَهُوَ مَاضٍ فِي كَلَامِهِ، وَفِي ثَوْرَةٍ غَضَبِهِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فِي النَّاسِ خَطِيئًا بَعْدَ أَنْ حَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ:

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] فنشج الناس بيبكون^(٢).

قال عمر: فوالله ما إن سمعت أبا بكرٍ تلاها، فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي، وعلمتُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ مَاتَ^(٣). قال القرطبي: هذه الآية أدلُّ دليل على شجاعة الصديق، وجراسته، فَإِنَّ الشَّجَاعَةَ، وَالْجُرْأَةَ حُدُّهُمَا ثَبُوتُ الْقَلْبِ عِنْدَ حُلُولِ الْمَصَائِبِ، وَلَا مَصِيبَةَ أَعْظَمَ مِنْ مَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَظَهَرَتْ شَجَاعَتُهُ، وَعِلْمُهُ، قَالَ النَّاسُ: لَمْ يَمُتْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ عُمَرُ، وَخَرَسَ عَثْمَانُ، وَاسْتَخْفَى عَلِيٌّ، وَاضْطَرَبَ الْأَمْرُ، فَكَشَفَهُ الصَّدِيقُ بِهَذِهِ الْآيَةِ حِينَ قُدُومِهِ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ^(٤).

وبهذه الكلمات القلائل، واستشهاد الصديق بالقرآن الكريم خرج الناس من ذهولهم، وحيرتهم، ورجعوا إلى الفهم الصحيح رجوعاً جميلاً، فالله هو الحيُّ وحده؛ الذي لا يموت، وأنه وحده الذي يستحقُّ العبادة، وأنَّ الإسلام باقٍ بعد موت محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٥)، كما

(١) العواصم من القواصم، (ص ٣٨).

(٢) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٥٢).

(٣) البخاري، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٣٦٦٨).

(٤) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٤٥٤).

(٥) تفسير القرطبي (٢٢/٤).

جاء في رواية من قول الصديق: إِنَّ دِينَ اللَّهِ قَائِمٌ، وَإِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ تَامَّةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرٌ مَنْ نَصَرَهُ، وَمَعِزُّ دِينِهِ، وَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَهُوَ النُّورُ، وَالشِّفَاءُ، بِهِ هَدَى اللَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِيهِ حَلَالُ اللَّهِ وَحَرَامُهُ، وَاللَّهُ لَا نَبَالَيَ مِنْ أَجْلَبَ عَلَيْنَا مِنْ خَلَقِ اللَّهِ! إِنَّ سَيُوفَ اللَّهِ لِمَسْلُولَةٌ مَا وَضَعْنَاهَا بَعْدَ، وَلِنَجَاهِدَ مَنْ خَالَفَنَا كَمَا جَاهَدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، فَلَا يَبْغِيَنَّ أَحَدٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ^(١).

كَانَ مَوْتَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصِيبَةً عَظِيمَةً، وَابْتِلَاءً شَدِيدًا، وَمِنْ خِلَالِهَا، وَبَعْدَهَا ظَهَرَتْ شَخْصِيَّةُ الصَّدِيقِ كَقَائِدٍ لِلأُمَّةِ فَذٌّ، لَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا مِثْلَ^(٢)، فَقَدْ أَشْرَقَ الْيَقِينُ فِي قَلْبِهِ، وَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي رَسُوخِ الْحَقَائِقِ فِيهِ، فَعَرَفَ حَقِيقَةَ الْعِبُودِيَّةِ، وَالنُّبُوَّةِ، وَالْمَوْتِ، وَفِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الْعَصِيبِ ظَهَرَتْ حَكَمَتُهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَانْحَازَ بِالنَّاسِ إِلَى التَّوْحِيدِ (مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ) وَمَا زَالَ التَّوْحِيدُ فِي قُلُوبِهِمْ غَضًّا طَرِيًّا، فَمَا أَنْ سَمِعُوا تَذْكِيرَ الصَّدِيقِ لَهُمْ؛ حَتَّى رَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ^(٣). تَقُولُ عَائِشَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فَوَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ: أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يُسْمَعُ بِشَرٍّ إِلَّا يَتْلُوهَا^(٤).

وَلَا بَدَّ أَنْ نَقِفَ قَلِيلًا لِنَصَوِّرَ نَاحِيَةَ مِنْ نَفْسِيَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا مَوْقِفُهُ هَذَا أَبْلَغُ الدَّلَالَةِ، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَازَ أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُ الْجُزْعَ لَوْفَاةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَلَغَ مِنْ عَمْرِ، لَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَبَا بَكْرٍ؛ فَهُوَ صَفِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَلِيلُهُ، وَمِنْ آثَرِهِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَجْهَشَ بِالْبُكَاءِ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ خَيْرُهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ...» وَهُوَ الَّذِي قَالَ حِينَ سَمِعَ هَذِهِ الْكَلِمَةَ وَالْعِبْرَةَ تَخْنَقَهُ: «نَحْنُ نَفْدِيكَ بِأَنْفُسِنَا وَأَرْوَاحِنَا» لَكِنَّ جُزْعَهُ لَوْفَاةَ الرَّسُولِ

(١) استخلاف «أبو بكر الصديق»، جمال عبد الهادي، ص ١٦٠.

(٢) دلائل النبوة للبيهقي (٧/٢١٨).

(٣) أبو بكر رجل الدولة، مجدي حمدي، ص (٢٥، ٢٦).

(٤) استخلاف أبي بكر الصديق، ص ١٦٠.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يذهله كما أذهل عمر، وهو لم يلبث حين أيقن أن الله اختار رسوله إليه، أن خرج إلى الناس وخطبهم بما مر ذكره^(١). وهذه القوة النفسية البالغة التي كانت سند أبي بكر في الساعة العصبية الرهيبة، ساعة فجعية على المسلمين لفقد نبي الله ورسوله، هي التي كانت سنده في الساعات الكثيرة العصبية التي مرت من بعده وبالمسلمين، وهي التي وقَّت المسلمين ووقَّت الإسلام فتنة لولاها لتعرضوا للمحن لا يعلم إلا الله ما كان يصيبهم ويصيب النشأة الجديدة من جرائها^(٢).

ثالثاً: سقيفة بني ساعدة:

لَمَّا عِلِمَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - بوفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة في اليوم نفسه، وهو يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، وتداولوا الأمر بينهم في اختيار مَنْ يلي الخلافة من بعده^(٣).

والتفَّ الأنصار حول زعيم الخزرج سعد بن عبادَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ولما بلغ خبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة إلى المهاجرين، وهم مجتمعون مع أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لترشيح مَنْ يتولَّى الخلافة^(٤)، قال المهاجرون لبعضهم: انطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار، فإنَّ لهم في هذا الحقَّ نصيباً^(٥)، قال عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فانطلقنا نريدهم، فلَمَّا دنونا منهم لقينا منهم رجالاً صالحان، فذكر ما تمالا عليه القوم، فقالوا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟! قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، فقالوا: لا عليكم ألا تقربوهم، اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينهم^(٦)، فانطلقنا حتَّى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجلٌ مزملٌ بين ظهرانيهم،

(١) حياة أبي بكر الصديق، هيكمل، ص ٤٦.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٤٧.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز رقم (١٢٤١، ١٢٤٢).

(٤) التاريخ الإسلامي (٢١/٩).

(٥) عصر الخلافة الراشدة للعمرى، ص ٤٠.

(٦) المصدر السابق نفسه.

فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عباد، فقلت: ما له؟ قالوا: يُوعَك. فلمّا جلسنا قليلاً تشهّد خطيبهم فأتى على الله بما هو أهله، ثمّ قال: أمّا بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم - معشر المهاجرين - رهطٌ، وقد دَفَّتْ دافّةٌ من قومكم^(١)، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر^(٢).

فلمّا سكت أردت أن أتكلّم - وكنت قد زوّرتُ مقالة أعجبتني أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر - وكنت أداري منه بعض الحدّ، فلمّا أردت أن أتكلّم قال أبو بكر: على رسلك، فكرهت أن أغضبه، فتكلّم أبو بكر، فكان هو أحلم منّي، وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلّا قال في بديهته مثلها؛ أو أفضل منها حتّى سكت، فقال: ما ذكرتكم فيكم من خير فأنتم له أهلٌ، ولن يُعرف هذا الأمر إلّا لهذا الحيّ من قريشٍ، هم أوسط العرب نسباً، وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرّجلين فبايعوا أيّهما شئتم - فأخذ بيدي، ويد أبي عبّدة بن الجراح؛ وهو جالسٌ بيننا - فلم أكره ممّا قال غيرها، والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يُقرّبني ذلك من إثم أحبّ إليّ من أن أتأمّر على قومٍ فيهم أبو بكر! اللهمّ إلّا أن تُسوّلَ إلي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن.

فقال قائل من الأنصار: أنا جُذيلها المحكّك، وعُذيقها المرجّب^(٣)، ممّا أميرٌ، ومنكم أمير يا معشر قريش! فكثر اللَّغَطُ وارتفعت الأصوات، حتّى فرّقَتْ من الاختلاف، فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر! فبسط يده، وبايعته، وبايعه المهاجرون، ثمّ بايعته الأنصار^(٤).

وفي رواية أحمد: ... فتكلّم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلم يترك شيئاً أنزل في الأنصار، ولا ذكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شأنهم إلّا وذكره، وقال: ولقد علمتم: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) الرّجلان هما: عوج بن ساعدة، ومعن بن عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أي: عددٌ قليل.

(٣) أي: يخرجوننا من أمر الخلافة.

(٤) الجزيل: عود ينصب للابل الجربى لتحكّ به، والمحك: الذي يحكّ به كثيراً، أراد: أنه يستشفى برأيه، والعزيق: النّخلة؛ أي: الذي يعتمد عليه.

قال: «لو سلك الناس وادياً، وسلكت الأنصار وادياً سلكت وادي الأنصار»، ولقد علمت يا سعد^(١)! أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال وأنت قاعد: «قريشُ ولاة هذا الأمر فبرَّ الناس تبع لبرِّهم، وفاجر الناس تبع لفاجرهم»، قال: فقال له سعد: صدقت، نحن الوزراء، وأنتم الأمراء^(٢).

رابعاً: أهمُّ الدروس، والعبر، والفوائد في هذه الحادثة:

١ - الصديق وتعامله مع النفوس، وقدرته على الإقناع:

من رواية الإمام أحمد يتضح لنا كيف استطاع الصديق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يدخل إلى نفوس الأنصار، فيقنعهم بما راه هو الحق، من غير أن يعرض المسلمين للفتنة، فأثنى على الأنصار بيان ما جاء في فضلهم من الكتاب والسنة، والثناء على المخالف منهج إسلامي يقصد منه إنصاف المخالف، وامتصاص غضبه، وانتزاع بواعث الأثرة، والأناية في نفسه، ليكون مهياً لقبول الحق إذا تبين له، وقد كان في هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكثير من الأمثلة التي تدلُّ على ذلك. ثم توصل أبو بكر من ذلك إلى أن فضلهم وإن كان كبيراً لا يعني أحقيتهم في الخلافة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نصَّ على أن المهاجرين من قريش هم المُقدَّمون في هذا الأمر^(٣).

وقد ذكر ابن العربي المالكي: أن أبا بكر استدلل على أن أمر الخلافة في قريش بوصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بالأنصار خيراً، وأن يقبلوا من محسنهم، ويتجاوزوا عن مسيئهم» احتجَّ به أبو بكر على الأنصار قوله: إنَّ الله سمَّانا (الصادقين) وسمَّاكم (المفلحين) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ

(١) البخاري، كتاب الحدود رقم (٦٨٣٠).

(٢) يعني: سعد بن عبادَةَ الخزرجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مسند أحمد (٥/١)؛ الخلافة والخلفاء، الهنداوي، ص ٥٠.

إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨-٩﴾، وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنّا، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة، والأدلة القوية، فتذكرت الأنصار ذلك، وانقادت إليه^(١)، وبيّن الصّدّيق في خطابه أنّ من مؤهّلات القوم الذين يرشّحون للخلافة أن يكونوا ممّن يدين لهم العرب بالسيادة، وتستقرّ بهم الأمور، حتّى لا تحدث الفتن فيما إذا تولّى غيرهم، وأبان: أنّ العرب لا يعترفون بالسيادة إلا للمسلمين من قريش؛ لكون النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم، ولما استقرّ في أذهان العرب من تعظيمهم، واحترامهم.

وبهذه الكلمات النيرة التي قالها الصّدّيق اقتنع الأنصار بأن يكونوا وزراء مُعينين وجنوداً مخلصين، كما كانوا في عهد النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبذلك توحد صفّ المسلمين^(٢).

٢- زهد عمر، وأبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - في الخلافة، وحرص الجميع على وحدة الأمة:

بعد أن أتمّ أبو بكر حديثه في السقيفة قدّم عمر، وأبا عبيدة للخلافة، ولكن عمر كره ذلك، وقال فيما بعد: فلم أكره ممّا قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يُقرّبني ذلك من إثم أحبّ إليّ من أن أتأمّر على قوم فيهم أبو بكر^(٣).

وبهذه القناعة من عمر بأحقّيّة أبي بكر بالخلافة قال له: بسط يدك يا أبا بكر! فبسط يده، قال: فبايعته، وبايعه المهاجرون، والأنصار. وجاء في رواية: قال عمر: ... يا معشر الأنصار! أستم تعلمون: أنّ رسول الله قد أمر أبا بكر أن يؤمّ الناس، فأياكم تطيب نفسه أن يتقدّم أبا بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -؟ فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدّم أبا بكر^(٤).

(١) التاريخ الإسلامي (٩/ ٢٤).

(٢) العواصم من القواصم، ص ١٠.

(٣) التاريخ الإسلامي (٩/ ٢٤).

(٤) البخاري، كتاب المحاربين، رقم (٦٨٣٠).

وهذا ملحظٌ مهمٌّ وُفق إليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد اهتمَّ بذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرض موته، فأصرَّ على إمامة أبي بكرٍ، وهو من باب الإشارة بأنَّه أحقُّ من غيره بالخلافة، وكلام عمر في غاية الأدب، والتواضع، والتجرد من حظِّ النفس، ولقد ظهر زهد أبي بكرٍ في الإمارة في خطبته التي اعتذر فيها من قبول الخلافة حيث قال: والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً، ولا ليلةً قطُّ، ولا كنت فيها راغباً، ولا سألتها الله عَزَّوَجَلَّ في سرٍّ، وعلانيةٍ، ولكنِّي أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحةٍ، ولكن قُلِّدتُ أمراً عظيماً ما لي به من طاقة، ولا يد إلا بتقوية الله عَزَّوَجَلَّ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني^(١).

وقد ثبت: أنَّه قال: وددت أنَّي يوم سقيفة بني ساعدة كنت قدفت الأمر في عنق أحد الرِّجلين، أبي عبيدة، أو عمر فكان أمير المؤمنين، وكنت وزيراً^(٢). وقد تکرَّرت خطب أبي بكرٍ في الاعتذار عن تولِّي الخلافة، وطلبه بالتنحي عنها، فقد قال: ... أيُّها الناس! هذا أمركم إليكم تولوا من أحببتهم على ذلك، وأكون كأحدكم. فأجابه الناس: رضينا بك قسماً وحظاً، وأنت ثاني اثنين مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، وقد قام باستبراء نفوس المسلمين من أيِّ معارضةٍ لخلافته، واستحلفهم على ذلك، فقال: أيُّها الناس! أذكر الله أيُّما رجلٍ ندم على بيعتي لمَّا قام على رجله، فقال عليُّ بن أبي طالب، ومعه السيف، فدنا منه حتى وضع رجلًا على عتبة المنبر، والأخرى على الحصى، وقال: والله لا نقيلك، ولا نستقبلك، قدَّمك رسول الله، فمن ذا يؤخرك^(٤)؟ ولم يكن أبو بكر وحده الزَّاهد في أمر الخلافة والمسؤولية بل إنَّها روح العصر.

ومن هذه النُّصوص التي تمَّ ذكرها يمكن القول: إنَّ الحوار الذي دار في سقيفة بني ساعدة لا يخرج عن هذا الاتجاه، بل يؤكِّد حرص الأنصار على مستقبل الدَّعوة الإسلامية،

(١) مسند أحمد (٢١/١) وصحَّح إسناده أحمد شاكر (٢١٣/١) رقم (١٣٣).

(٢) المستدرك (٦٦/٣) قال الحاكم: حديثٌ صحيحٌ، وأقره الذهبي.

(٣) الأنصار في العهد الرَّاشدي، حامد محمد الخليفة، ص ١٠٨؛ تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٩١.

(٤) الخلافة الراشدة للعمرى، ص ١٣.

واستعدادهم المستمر للتضحية في سبيلها، فما اطمأنوا على ذلك حتى استجابوا سراعاً لبيعة أبي بكر؛ الذي قبل البيعة لهذه الأسباب، وإلا فإن نظرة الصحابة مخالفة لرؤية الكثير ممن جاء بعدهم ممن خالفوا المنهج العلمي، والدراسة الموضوعية، بل كانت دراستهم متناقضة مع روح ذلك العصر، وامال، وتطلعات أصحاب رسول الله ﷺ من الأنصار، وغيرهم، وإذا كان اجتماع السقيفة أدى إلى انشقاق بين المهاجرين والأنصار كما زعمه بعضهم^(١)، فكيف قبل الأنصار بتلك النتيجة، وهم أهل الديار، وأهل العدد والعدة؟ وكيف انقادوا لخلافة أبي بكر، ونفروا في جيوش الخلافة شرقاً، وغرباً مجاهدين لتثبيت أركانها؟ لو لم يكونوا متحمسين لنصرتها^(٢).

فالصواب اتضح من حرص الأنصار على تنفيذ سياسة الخلافة، والاندفاع لمواجهة المرتدّين، وأنه لم يتخلف أحد من الأنصار عن بيعة أبي بكر فضلاً عن غيرهم من المسلمين، وأن أخوة المهاجرين، والأنصار أكبر من تخيلات الذين سطرّوا الخلاف بينهم في رواياتهم^(٣) المغرضة.

وهنا نشير إلى أن بعض الشيعة من أصحاب الشهوات يقولون إن أبا بكر نفسه كان في شك من خلافته، ولم يكن يرى أهليته للقيام بشؤون الدولة وأمور الخلافة، وقد تمسكوا ببعض الآثار الضعيفة والموضوعة، مثل ما رواه أبو الخير الطالقاني في السنة، أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أقيلوني من الخلافة»، وهذا حديث لم يروه من أهل السنن ولا الكتب المعتمدة أحد، لأنه منقطع السند منكر المتن. قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وهو منكر متنا، ضعيف منقطع سنداً^(٤). وقال ابن الملقن: حديث غريب^(٥). ويتكثرون على حديث آخر رواه الإمام أحمد في فضائل

(١) الأنصار في العصر الراشدي، ص ١٠٨.

(٢) انظر: الإسلام وأصول الحكم، محمد عمارة، ص (٧١ - ٧٤).

(٣) الأنصار في العصر الراشدي، ص ١٠٩.

(٤) التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، (٤ / ١٢٨).

(٥) البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، ابن الملقن، دار الهجرة للنشر

الصحابة، وهو: عن أبي الجحاف قال: لما بويع أبو بكر، فبايعه علي وأصحابه، قام ثلاثا يستقبل الناس يقول: أيها الناس، قد أقلتكم بيعتكم، هل من كاره؟ قال: فيقوم علي في أوائل الناس فيقول: والله لا نقيلك، ولا نستقيلك أبداً، قدّمك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصلي بالناس، فمن ذا يؤخرك؟^(١) وهو حديث منقطع لأنّ أبا الجحاف لم يلق أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولا علي بن أبي طالب^(٢). ثم إن الذين يذكرون هذا الحديث يأخذون بعض ما فيه ويتركون البعض الآخر، فأنهم يقولون أن أبا بكر كان يطلب الإقالة من بيعته، والحديث ذاته يثبت ما لا يثبتوه هم، وهو أن علياً قام وقال: والله لا نقيلك ولا نستقيلك... ففي هذا الحديث على فرض صحته حجة عليهم، وعلى فرض صحتها فإنها لا تحمل على المعنى الذي أرادوه، بل على معنى التواضع، وكرهية تزكية النفس، كما سيأتي.

واحتجوا بما روي أنا أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال في بعض خطبه: «وليتكم ولست بخيركم فإذا استقمتم فاتبعوني، وإن اعوججت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم»^(٣). قالوا فاعترف على نفسه أنه ليس بخيرهم وأنه يعصي الله، والجواب على ذلك من وجهين:

الأول: أنه أراد لست بخيركم قبيلة ولا عشيرة، لأن بني هاشم وبني عبد المطلب أعلى منه في ذروة النسب، ليدلّهم بذلك أن الأمر لا يُستحق بعلو النسب.

والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، (٨ / ٥٥٣).

(١) فضائل الصحابة، أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، (١ / ١٣١). وانظر كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ، (٥ / ٦٥٧).

(٢) حاشية الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، يحيى العمراني، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، (٣ / ٨٥٨).

(٣) رواه ابن هشام في السيرة والدارقطني في المؤتلف والمختلف، انظر: تخريج أحاديث الكشاف (٢ / ٤٠٥)؛ وانظر: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ، (٥ / ٦٣٦).

الثاني: أنه أراد التواضع وكره أن يزكي نفسه لأن الله قال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، وإذا شهد له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله لأبي الدرداء: «ما طلعت الشمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على أفضل من أبي بكر» كان ذلك كافياً في بيان درجته وفضيلته على غيره^(١). قال ابن كثير: كلام أبي بكر يحمل على الهضم والتواضع، فإنهم مجمعون على أنه أفضلهم وخيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٢). وقال ابن بطال: هذا من فضله ألا يرى لنفسه فضلاً على غيره، وهذه صفة الخائفين لله الذين لا يعجبون بعمل ولا يستكثرون له مهج أنفسهم وأموالهم. قال الحسن: والله ما خلق الله بعد النبيين أفضل من أبي بكر^(٣).

٣- سعد بن عبادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وموقفه من خلافة الصديق:

إنَّ سعد بن عبادَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قد بايع أبا بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بالخلافة في أعقاب النقاش، الذي دار في سقيفة بني ساعدة؛ إذ أنه نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة، وأذعن للصديق بالخلافة، وكان ابن عمه بشير بن سعد الأنصاري أول من بايع الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في اجتماع السقيفة، ولم يثبت النقل الصحيح آية أزماة، لا بسيطة، ولا خطيرة، ولم يثبت أي انقسام، أو فرق، لكل منها مرشح يطمع في الخلافة، كما زعم بعض كتّاب التاريخ، ولكنَّ الأخوة الإسلامية ظلت كما هي، بل ازدادت توثقاً كما يثبت ذلك النقل الصحيح ولم يثبت النقل الصحيح تامراً حدث بين أبي بكرٍ وعمر، وأبي عبيدة لا احتكار الحكم بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٤)، فهم كانوا أخشى لله، وأتقى من أن يفعلوا ذلك.

وقد حاول بعض الكتّاب من المؤرخين أصحاب الأهواء أن يجعلوا من سعد بن عبادَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - منافساً للمهاجرين يسعى للخلافة بشره، ويدبر لها المؤامرات، ويستعمل في

(١) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، يحيى العمراني، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، (٣/ ٨٥٩).

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٨، ص ٩٠.

(٣) شرح البخاري، أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ، (٨/ ٤٦٢).

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٩.

الوصول إليها كل أساليب التفرقة بين المسلمين، هذا الرجل، إذا راجعنا تاريخه وتبعنا مسلكه؛ وجدنا موافقه مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجعله من الصفوة الأخيار، الذين لم تكن الدنيا أكبر همهم، ولا مبلغ علمهم، فهو النقيب في بيعة العقبة الثانية، حتى لجأت قريش إلى تعقبه قرب مكة، وربطوا يديه إلى عنقه، وأدخلوه مكة أسيراً حتى أنقذه منهم جبير بن مطعم بن عدي، حيث كان يجيرهم في المدينة، وهو من الذين شهدوا بدرًا^(١) وحظي بمقام أهل بدر، ومنزلتهم عند الله، وكان من بيت جود، وكرم، وشهد له بذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعتمد عليه - بعد الله - وعلى سعد بن معاذ كما في غزوة الخندق، عندما استشارهم في إعطاء ثلث ثمار المدينة لعينة بن حصن الفزاري، فكان رد السعديين يدل على عمق الإيمان، وكمال التضحية^(٢)، فمواقف سعد مشهورة، ومعلومة، فهذا الصحابي الجليل صاحب الماضي المجيد في خدمة الإسلام والصُّحبة الصّادقة لرسول الله لا يعقل، ولم يثبت أنه كان يريد أن يُحيي العصبية الجاهلية في مؤتمر السقيفة؛ لكي يحصل في غمار هذه الفرقة على منصب الخلافة، كما: أنه لم يثبت، ولم يصح ما ورد في بعض المراجع من أنه - بعد بيعة أبي بكر - كان لا يصلّي بصلاتهم، ولا يفيض في الحجّ بإفاضتهم^(٣)، كأنما انفصل سعد بن عبادة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن جماعة المسلمين^(٤)، فهذا باطل، ومحض افتراء، فقد ثبت من خلال الروايات الصحيحة، أن سعداً بايع أبا بكر، فعندما تكلم أبو بكر يوم السقيفة، فذكر فضل الأنصار، وقال: ولقد علمتم: أن رسول الله قال: «لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار وادياً، وشعباً؛ لسلك وادي الأنصار، أو شعب الأنصار»^(٥)، ثم ذكر سعد بن عبادة بقول فصل، وحجة لا ترد، فقال: ولقد علمت يا سعد! أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال وأنت قاعد: «قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم،

(١) استخلاف أبي بكر، جمال عبد الهادي، ص (٥٠، ٥١-٥٣).

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٥٩٤).

(٣) الخلافة والخلفاء الراشدون، سالم الهنداوي، ص ٤٨.

(٤) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٤٩.

(٥) المصدر السابق نفسه.

وفاجرهم تبع لفاجرهم» قال سعد: صدقت نحن الوزراء، وأنتم الأمراء^(١)، فتتابع القوم على البيعة، وبايع سعد^(٢).

وبهذا تثبت بيعة سعد بن عباد، وبها يتحقق إجماع الأنصار على بيعة الخليفة أبي بكر، ولا يعود أي معنى للترويج لرواية باطلة، بل سيكون ذلك مناقضاً للواقع، وأتھاماً خطيراً، أن ينسب لسيد الأنصار العمل على شق عصا المسلمين، والتنكر لكل ما قدمه من نصره، وجهاد وإثارة للمهاجرين، والطعن بإسلامه من خلال ما ينسب إليه من قول: لا أبايعكم حتى أرميكم بما في كنتي، وأخضّب سنان رمحي، وأضرب بسيفي، فكان لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمع بجماعتهم، ولا يقضي بقضائهم، ولا يفيض بإفاضتهم^(٣) أي: في الحج.

إنّ هذه الرواية التي استغلّت للطعن بوحدة المهاجرين، والأنصار، وصدق أخوتهم، ما هي إلا رواية باطلة للأسباب التالية:

أنّ الراوي صاحب هوى، وهو (إخباري تالف، لا يوثق به)^(٤) ولا سيّما في المسائل الخلافية.

قال الذهبي عن هذه الرواية: وإسنادها كما ترى^(٥)، أي: في غاية الضعف، أمّا متنها؛ فهو يناقض سيرة سعد بن عباد وما في عنقه من بيعة على السمع، والطاعة، ولما روي عنه من فضائل^(٦).

(١) البخاري، كتاب التمني، رقم (٧٢٤٤).

(٢) مسند الإمام أحمد رقم (١٨)، صحيح لغيره.

(٣) الأنصار في العصر الراشدي، ص ١٠٢.

(٤) تاريخ الطبري (٤٢/٤).

(٥) الراوي هو لوط بن يحيى أبو مخنف متروك، لم يعتدّ بأبي مخنف، ويعتبر بروايته، ويعتمد عليها سوى الشيعة، فقد كان من أعظم مؤرخي الشيعة على قول ابن القمي، مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري عصر الخلافة الراشدة، د. يحيى إبراهيم اليحيى، دار العاصمة بالرياض، ط ١ (١٤١٠ هـ)، ص ٤٥-٤٦.

(٦) سير أعلام النبلاء (٢٧٧/١).

٤- ما يروى من خلاف بين عمر، والحباب بن المنذر:

أما ما يروى عن تنازع في السَّقِيفَةِ بين عمر، والحباب بن المنذر السَّلَمِيِّ الأنصاري، فالرَّاجِحُ أَنَّهُ غير صحيح، وأنَّ عمر لم يُغضب الحباب بن المنذر منذ عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد روي عن عمر، قال: فلَمَّا كان الحباب بن المنذر هو الذي يجيني لم يكن لي معه كلامٌ؛ لَأَنَّهُ كان بيني وبينه منازعةٌ في حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنهاني عنه فحلفت ألا أكلِّمه كلمةً تسوؤه أبداً^(١).

كما أنَّ ما يروى عن الحباب في هذه المنازعة مخالفٌ لما عُهد عنه من حكمةٍ، ومن حسن تأتية للأمور؛ إذ كان يلقب: (بذي الرأي)^(٢) في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك لقبول مشورته في بدرٍ، وخيبر^(٣)، وأما قول الحباب بن المنذر: منا أميرٌ، ومنكم أميرٌ، فقد سوغ ذلك، وأوضح أَنَّهُ لا يقصد بذلك الوصول إلى الإمارة، فقال: فَإِنَّا والله ما ننفس عليكم هذا الأمر، ولكننا نخاف أن يليه أقوام قتلنا آباءهم، وإخوانهم^(٤)، فقبل المهاجرون قوله، وأقرُّوا عذره، ولا سيَّما أَنَّهُم شركاء في دماء من قُتِل من المشركين^(٥).

٥- حديث الأئمة من قريش، وموقف الأنصار منه:

ورد حديث «الأئمة من قريش» في الصحيحين، وكتب الحديث الأخرى بألفاظٍ متعددة، ففي صحيح البخاري: عن معاوية، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هذا الأمر في قريشٍ، لا يعاديهم أحدٌ إلا أكبه الله في النَّار على وجهه ما أقاموا الدين»^(٦). وفي صحيح

(١) الأنصار في العصر الراشدي، ص (١٠٢، ١٠٣).

(٢) الأنصار في العصر الراشدي، ص ١٠٠.

(٣) الاستيعاب (١/٣١٦).

(٤) الأنصار في العصر الراشدي، ص ١٠٠.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق نفسه.

مسلم: «لا يزال الإسلام عزيزاً بخلفاء كلهم من قريش»^(١). وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»^(٢). وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم»^(٣).

وعن بكير بن وهب الجزري، قال: قال لي أنس بن مالك الأنصاري: أحدثك حديثاً ما أحدثه كل أحد، كنا في بيت من الأنصار، فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى وقف فأخذ بعصا دتي الباب^(٤)، فقال: «الأئمة من قريش إن لهم عليكم حقاً، ولكم عليهم حقاً مثل ذلك، ما إن استرحموا؛ فرحموا، وإن عاهدوا، أوفوا، وإن حكموا عدلوا»^(٥).

وفي «فتح الباري» أورد ابن حجر أحاديث كثيرة تحت باب: الأمراء من قريش، أسندها إلى كتب السنن، والمسانيد، والمصنفات^(٦)، فالأحاديث في هذا الباب كثيرة لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب الحديث، وقد رويت بألفاظ متعددة، إلا أنها متقاربة، تؤكد جميعها أن الإمرة المشروعة في قريش، ويقصد بالإمرة الخلافة فقط، أما ما سوى ذلك فتساوى فيه جميع المسلمين^(٧)، وبمثل ما أوضحت الأحاديث النبوية الشريفة أن أمر الخلافة في قريش، فإنها حذرت من الانقياد الأعمى لهم، وأن هذا الأمر فيهم ما أقاموا الدين كما سلف في حديث معاوية، وكما جاء في حديث أنس: إن استرحموا، فرحموا، وإن عاهدوا، أوفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين^(٨). وبهذا حذرت الأحاديث من اتباع قريش إن زاغوا عن الحكم بما أنزل الله، فإن لم يمتثلوا،

(١) البخاري، كتاب الأحكام رقم (٧١٣٩).

(٢) مسلم، كتاب الإمارة رقم (١٨٢١).

(٣) البخاري، كتاب الأحكام رقم (٧١٤٠).

(٤) مسلم، كتاب الإمارة رقم (١٨١٨).

(٥) الفتح الرباني للساعاتي، باب الخلافة ج ٥ (٣٢/٦٥)؛ ابن أبي شيبة (٥٤٤/٥).

(٦) المصنف لابن أبي شيبة (٥٤٤/٥).

(٧) الأنصار في العصر الراشدي، ص ١١١.

(٨) المصدر السابق نفسه.

ويطبّقوا مثل هذه الشُّروط، فإنَّهم سيصبحون خطراً على الأُمَّة، وحذرت الأحاديث الشريفة من اتباعهم على غير ما أنزل الله، ودعت إلى اجتنابهم، والبعد عنهم، واعتزالهم؛ لما سترتب على مؤازرتهم آنذاك من مخاطر على مصير الأُمَّة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَلاكَ أُمَّتِي، أَوْ فساد أُمَّتِي رَوْوس أَغْلَمَةُ سفهاء من قريش»^(١). وعندما سئل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فما تأمرنا؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو أَنَّ الناس اعتزلوهم»^(٢).

ومن هذه النُّصوص تَتَضَحُّ الصُّورة لمسألة الأئمة من قريش، وأنَّ الأنصار انقادوا لقريش ضمن هذه الصُّوابط، وعلى هذه الأسس، وهذا ما أكَّده في بيعاتهم لرسول الله: «على السَّمع، والطاعة، والصَّبْر على الأثرة، وألا يَنازعوا الأمر أهلَه، إلا أن يروا كُفْراً بواحدٍ عندهم من الله فيه برهان»^(٣).

فقد كان للأنصار تصوُّرٌ تامٌّ عن مسألة الخلافة، وأنَّها لم تكن مجهولةً عندهم، وأنَّ حديث: «الأئمة من قريش» كان يرويه كثيرٌ منهم، وأنَّ الذين لا يعلمونه سكتوا عندما رواه لهم أبو بكر الصِّديق، ولهذا لم يراجعه أحدٌ من الأنصار عندما استشهد به، فأمر الخلافة تمَّ بالتشاور، والاحتكام إلى النُّصوص الشرعيَّة، والعقليَّة؛ التي أثبتت أحقيَّة قريش بها، ولم يُسمع عن أحدٍ من الأنصار بعد بيعة السَّقيفة أنَّه دعا نفسه بالخلافة، ممَّا يؤكِّد اقتناع الأنصار، وتصديقهم لما تمَّ التوصل إليه من نتائج^(٤)، وبهذا يتهافت، ويسقط قول مَنْ قال: إنَّ حديث الأئمة من قريش شعارٌ رفَعته قريشٌ لاستلاب الخلافة من الأنصار، أو أنَّه: رأيٌ لأبي بكرٍ، وليس حديثاً رواه عن الرِّسول، وإنَّما كان فكراً سياسياً قرشياً، كان شائعاً في ذلك العصر، يعكس ثقل قريش في المجتمع العربي في ذلك الحين، وعلى هذا فإنَّ نسبة هذه الأحاديث إلى أبي بكرٍ، وأنَّها شعارٌ لقريش ما هي إلا صورةٌ من صور التَّشويه التي يتعرَّض لها تاريخ

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٥٤٤).

(٢) البخاري، كتاب الفتن، رقم (٧٠٥٨).

(٣) دلائل النبوة للبيهقي (٦/ ٤٦٤)؛ الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان رقم (٦٧١٣).

(٤) البخاري، كتاب الفتن، رقم (٧٠٥٦).

العصر الراشدي، وصدر الإسلام، الذي قام أساساً على جهود المهاجرين، والأنصار، ومن تبعهم بإحسان، وعلى روابط الأخوة المتينة بين المهاجرين والأنصار، حتى قال فيهم أبو بكر: نحن والأنصار، كما قال القائل:

أَبَوْا أَنْ يَمْلُؤُنَا وَلَوْ أَنَّ أَمَّنَّا تَلَاقي الذي يلقون منا لَمَلَّتْ^(١)

٦. هل عهد النبي ﷺ إلى أحد بالخلافة:

أجمع سلف الأمة، وأهل السنة، وجمهور الطوائف الأخرى على أن تولية الإمام واجبة على المسلمين شرعاً وعقلاً، واستدلوا بأمور: (الأول) إجماع الصحابة، وهو العمدة، حتى قدموه على دفن النبي ﷺ. (الثاني): أنه لا يتم إلا به ما وجب من إقامة الحدود وسد الثغور ونحو ذلك مما يتعلق بحفظ النظام. (الثالث): أن فيه جلب منافع ودفع مضار لا تحصي وذلك واجب إجماعاً. (الرابع): وجوب طاعته ومعرفته بالكتاب والسنة، وهو يقتضي وجوب حصوله وذلك بتوليته. ومعنى الأخير أن ما أجمعوا عليه من وجوب طاعته في المعروف شرعاً ووجوب معرفته بالكتاب والسنة وكونها من أهم شروطه يقتضي أن توليته واجب شرعاً^(٢).

وقد قال أكثر أهل السنة والجماعة أن النبي ﷺ لم ينص نصّاً على إمامة أحد، وإنما كان ذلك منه على سبيل الإشارات، التي منها تدخل في الصريح والجلي، ومنها ما دون ذلك، وبعض أهل السنة يرى أن النبي ﷺ قد نص على خلافة أبي بكر، واستدلوا بكثير من الأحاديث^(٣)، وبعض الأحاديث استدل بها كل طائفة على ما ذهبت إليه، فاتفقوا بالدليل واختلفوا بالمدلول. والحق أن النبي ﷺ لم يستخلف أبا بكر بعده صراحة، لكن إشاراته إلى ذلك كثيرة^(٤) كما سيأتي.

(١) الأنصار في العصر الراشدي، ص ١١٦.

(٢) الخلافة، محمد رشيد رضا، دار الزهراء للإعلام العربي، (ص ١٨).

(٣) منهاج السنة النبوية، (١/ ٤٨٦).

(٤) فتح المنعم بشرح صحيح مسلم، الدكتور موسى لاشين، دار الشروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

قال ابن عبد البر: واستخلفه رَسُولُ اللَّهِ ﷺ على أمته من بعده، بما أظهر من الدلائل البينة على محبته في ذَلِكَ، وبالتعريض الَّذِي يقوم مقام التصريح، ولم يصرح بذلك لأنه لم يؤمر فيه بشيء، وَكَانَ لا يصنع شيئاً في دين الله إلا بوحى، والخلافة ركن من أركان الدين^(١).

وقال ابن تيمية: والتحقيق في «خلافة أبي بكر» وهو الذي يدل عليه كلام أحمد: أنها انعقدت باختيار الصحابة ومبايعتهم له وأن النبي ﷺ أخبر بوقوعها على سبيل الحمد لها والرضى بها؛ وأنه أمر بطاعته وتفويض الأمر إليه وأنه دل الأمة وأرشدهم إلى بيعته. فهذه الأوجه الثلاثة: الخبر والأمر والإرشاد: ثابت من النبي ﷺ. «فالأول» كقوله: رأيت كأنني على قلب أنزع منها فأتى ابن أبي قحافة فتزع. ذنوبا أو ذنوبين.. الحديث، وكقوله: كأن ميزانا دلي من السماء إلى الأرض. فوزنت بالأمة فرجحت ثم وزن عمر.. الحديث.. وكقوله: ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتابا لا يختلف عليه الناس من بعدي ثم قال: يابى الله والمؤمنون إلا أبا بكر. فهذا إخبار منه بأن الله والمؤمنين: لا يعقدونها إلا لأبي بكر الذي هم بالنص عليه. وكقوله: أرى الليلة رجل صالح كأن أبا بكر نيط برسول الله.. الحديث. وقوله: خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم تصير ملكا. وأما «الأمر» فكقوله: اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر. وقوله: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي. وقوله: للمرأة التي سألته إن لم أجذك؟ قال: فأتي أبا بكر. وقوله لأصحاب الصدقات: إذا لم تجدوه أعطوها لأبي بكر. ونحو ذلك والثالث تقديمه له في الصلاة وقوله: سدوا كل خوخة في المسجد إلا خوخة أبي بكر. وغير ذلك من خصائصه ومزاياه. وهذه الوجوه الثلاثة الثابتة بالسنة دل عليها القرآن. «فالأول» في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ [النور: ٥٥]. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والثاني قوله: ﴿



سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْتَلُونَهُمْ أَوْ تَسْلِمُونَ ﴿[الفتح: ١٦]﴾. والثالث كقوله: ﴿وَسَيَجْجَبُنَهَا الْأَنْفَى﴾ [الليل: ١٧]. وقوله: ﴿وَالسَّيْفُوتُ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]. ونحو ذلك. فثبت صحة خلافته ووجوب طاعته بالكتاب والسنة؛ والإجماع^(١).

قال ابن كثير: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس، لا لأبي بكر كما قد زعمه طائفة من أهل السنة، ولا لعلي كما يقوله طائفة من الرافضة. ولكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذي لب وعقل إلى الصديق^(٢).

٧- الأحاديث التي أشارت إلى خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يدعي بعض الروافض والشيعة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أوصى لعلي بالخلافة^(٣)، ودعموا مذهبهم بأحاديث ليس لها أساس من الصحة ولا يعرفها جهاذة السنة والحديث، فيدعون أن الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطب فقال: أنا ابن النبي، وابن الوصي. قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يثبت^(٤). ونرى أن الفكرة تطورت فقالوا: «إن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بتعيينهم، بل هي ركن الدين، وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها، ولا تفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وإن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في

(١) مجموع الفتاوى، (٤٩ / ٣٥).

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٥٠.

(٣) في مرحلة استدراك المعلومات والوقوف على الشبهات والإضافات الأخيرة على كتاب أبي بكر الصديق، استفدت من الباحث محمد عليان من طلبة الدراسات العليا في الشريعة الإسلامية، والذي تعاون معنا في رصد وترتيب هذه المادة بمتابعة وإشراف ومراجعة منا. جزاه الله كل خير.

(٤) مختصر تلخيص الذهبي، ابن الملقن، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، (٤ / ١٦٧٥). المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى،

١٩٩٠م، (٣ / ١٨٨).

طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم^(١).

ومن هنا نشأت فكرة الوصية، ولُقبَ عليٌّ بالوصي، فكان وصي رسول الله؛ فعليٌّ ليس الإمام بطريق الانتخاب، بل بطريق النص من رسول الله، وعلي أوصى لمن بعده، وهكذا كل إمام وصيٌّ من قبله، وانتشرت كلمة الوصي بين الشيعة^(٢).

نقل ابن حجر عن القرطبي: كانت الشيعة قد وضعوا أحاديث في أن النبي ﷺ أوصى بالخلافة لعلي فرد عليهم جماعة من الصحابة ذلك وكذا من بعدهم. فمن ذلك ما استدلت به عائشة، بما جاء في الصحيح: ذكروا عند عائشة أنَّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان وصيًّا فقالت: متى أوصى إليه وقد كنت مسندته إلى صدري. أي: عند وفاته. وكان النبي ﷺ في آخر حياته يمرض عندها في بيتها ولم يفارقها أبداً، فلذلك استبعدت هذا وقالت ذلك غير ممكن، فإنه لو أوصى له بشيء ما لكان أولى الناس أن يعلموا هي أنا.

ومن ذلك أنَّ علياً لم يدع ذلك لنفسه ولا بعد أن ولي الخلافة، ولا ذكره أحد من الصحابة يوم السقيفة وهؤلاء تنقصوا علياً من حيث قصدوا تعظيمه لأنهم نسبوه مع شجاعته العظمى وصلابته في الدين إلى المداهنة والتقية والإعراض عن طلب حقه مع قدرته على ذلك^(٣).

وعن الأرقم بن شرحبيل، قال: سافرت مع ابن عباس من المدينة إلى الشام، فسألته: أوصى النبي ﷺ؟ فذكر معناه - وقال: «ما قضى رسول الله ﷺ الصلاة حتى ثقل جداً، فخرج يهادى بين رجلين، وإن رجله لتخطان في الأرض، فمات رسول الله ﷺ ولم يوص»^(٤).

وعن عائشة قالت: «قبض رسول الله ﷺ ولم يستخلف أحداً، ولو كان مستخلفاً

(١) موجز دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المؤلفين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، (٢٠ / ٦٤٣٨).

(٢) المصدر السابق، (٢٠ / ٦٤٣٨).

(٣) فتح الباري، (٥ / ٣٦٢).

(٤) المسند، أحمد ابن حنبل، دار الرسالة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، (٥ / ٣٥٩).

أحدا لاستخلف أبا بكر أو عمر»^(١).

بل جاء من قول علي نفسه - بسند فيه ضعف - أنه ينبغي أن يكون رسول الله قد أوصى له بشيء، قال يوم الجمل: «إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعهد إلينا عهدا نأخذ به في إمارة، ولكنه شيء رأيناه من قبل أنفسنا، ثم استخلف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، فأقام واستقام، ثم استخلف عمر، رحمة الله على عمر، فأقام واستقام، حتى ضرب الدين بجرانه»^(٢).

والقول بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى لعلي بالخلافة لا يعرف عن أحد من طوائف المسلمين سوى طائفة الشيعة وهو قول باطل لا أصل له في الأحاديث الثابتة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما تقدم، وإنما دلت الأدلة الكثيرة على أن الخليفة بعده هو أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعن سائر أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينص على ذلك نصا صريحا ولم يوص به وصية قاطعة ولكنه أمر بما يدل على ذلك حيث أمره بأن يؤم الناس في مرضه، ولما ذكر له أمر الخلافة بعده قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَأْبَى اللَّهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أبا بكر^(٣) ولهذا بايعه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن جملتهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأجمعوا على أن أبا بكر أفضلهم وثبت في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يقولون في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان، ويقرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك. وتواترت الآثار عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر. وكان يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا أوتى بأحد يفضلني عليهما إلا جلدته حد المفترى. ولم يدع يوما لنفسه أنه أفضل الأمة ولا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى له بالخلافة ولم يقل أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ظلموه وأخذوا حقه. ولما توفيت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بايع الصديق بيعة ثانية تأكيداً للبيعة الأولى وإظهاراً للناس أنه مع

(١) مسند أحمد (٤٠ / ٤٠٤).

(٢) مسند أحمد (٢ / ٢٤٤ ط الرسالة)، والحديث فيه ضعف.

(٣) صحيح مسلم (٤ / ١٨٥٧)، رقم: ٢٣٨٧.

الجماعة وليس في نفسه شيء من بيعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جميعاً ولما طعن عمر وجعل الأمر شورى بين ستة من العشرة المشهود لهم بالجنة ومن جملتهم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لم ينكر على عمر ذلك لا في حياته ولا بعد وفاته، ولم يقل أنه أولى منهم جميعاً، فكيف يجوز لأحد من الناس أن يكذب على رسول الله ﷺ ويقول: إنه أوصى لعلي بالخلافة وعلي نفسه لم يدع ذلك ولا ادعاه أحد من الصحابة له، بل قد أجمعوا على صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان واعترف بذلك علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتعاون معهم جميعاً في الجهاد والشورى وغير ذلك، ثم أجمع المسلمون بعد الصحابة على ما أجمع عليه الصحابة^(١).

وقال الإمام القرضاوي - رَحِمَهُ اللَّهُ - ولكني أخالفهم في أصل مذهبهم وأرى أنه غير صحيح، وهو: أن النبي ﷺ أوصى لعلي بالخلافة من بعده وأن الصحابة كتموا هذا، وخانوا رسولهم، وجحدوا علياً حقه، وأنهم تأمروا جميعاً على ذلك. والعجب أن علياً لم يعلن ذلك على الملأ ويقاتل عن حقه. بل بايع أبا بكر وعمر وعثمان، وكان لهم معيناً ومشيراً. فكيف لم يواجههم بالحقيقة؟ وكيف لم يجاهر بحقه؟^(٢).

وأما الأحاديث النبوية التي جاء التنبيه فيها على خلافة أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كثيرة شهيرة متواترة ظاهرة الدلالة، إما على وجه التصريح، أو الإشارة، ولاشتهاورها، وتواترها صارت معلومة من الدين بالضرورة بحيث لا يسع أهل البدعة إنكارها^(٣)، ومن تلك الأحاديث:

(أ) عن جبير بن مطعم، قال: أتت امرأة النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك - كأنها تقول الموت - قال ﷺ: «إن لم تجدني فائتيني أبا بكر»^(٤).

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، عبد العزيز بن باز، (٣/ ٣٢٥).

(٢) بيان القرضاوي حول موقفه من الشيعة، نشر عام ١٤٢٩ هـ، ٢٠٠٨ م، على موقعه الرسمي:

<https://www.al-qaradawi.net/node/4975>

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (٢/ ٥٣٩).

قال ابن حجر: وفي الحديث: أن مواعيد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت على من يتولى الخلافة بعده تجيزها، وفيه ردُّ على الشيعة في زعمهم أنه نصُّ على استخلاف عليٍّ، والعبَّاس^(١).

(ب) عن حذيفة قال: كنَّا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلوساً فقال: «إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم، فاقصدوا باللَّذين من بعدي - وأشار إلى أبي بكرٍ وعمر - وتمسَّكوا بعهد عمَّار، وما حدَّثكم ابن مسعود فصدَّقوه»^(٢).

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقتدوا باللَّذين من بعدي» أي: بالخليفين اللَّذين يقومان من بعدي، وهما أبو بكرٍ، وعمر، وحثَّ على الاقتداء بهما لحسن سيرتهما، وصدق سيرتهما. وفي الحديث إشارة لأمر الخلافة^(٣).

(ج) عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بينما أنا نائمٌ أريت أني أنزع على حوضي أسقي الناس، فجاءني أبو بكر فأخذ الدلو من يدي ليروحني، فنزع الدلوين، وفي نزعه ضعفٌ، والله يغفر له، فجاء ابن الخطاب، فأخذ منه، فلم أر نزع رجلٍ قطُّ أقوى منه حتَّى تولى الناس، والحوض ملآن يتفجَّر»^(٤).

قال الشافعي - رَحِمَهُ اللَّهُ: رؤيا الأنبياء وحيٌّ، وقوله: وفي نزعه ضعفٌ: قصر مدَّته، وعجلة موته، وشغله بالحرب لأهل الرِّدة عن الافتتاح، والتزيُّد الذي بلغه عمر في طول مدَّته^(٥).

(د) قالت عائشة: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مرضه: «ادعي لي أبا بكرٍ، وأخاك حتَّى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنَّى متمنٍّ، ويقول قائل: أنا أولى. ويأبى الله، والمؤمنون إلا أبا بكرٍ»^(٦).

(١) مسلمٌ (١٨٥٦، ١٨٥٧)؛ البخاريُّ، رقم (٣٦٥٩).

(٢) فتح الباري (٧/٢٤).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٣/٢٣٣-٢٣٦).

(٤) تحفة الأحوذى بشرح الترمذي (١٠/١٤٧).

(٥) مسلمٌ (١٨٦٢، ١٨٦١).

(٦) الاعتقاد للبيهقي، ص ١٧١.

دلَّ هذا الحديث دلالةً واضحةً على فضل الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حيث أخبر النبي ﷺ بما سيقع في المستقبل بعد التحاقه بالرَّفيق الأعلى، وأنَّ المسلمين يأبون عقد الخلافة لغيره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي الحديث إشارة: أنه سيحصل نزاعٌ، ووقع كلُّ ذلك كما أخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ثم اجتمعوا على أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

(هـ) عن عبيد الله بن عبد الله، قال: دخلت على عائشة، فقلت لها: ألا تحذِّثيني عن مرض رسول الله ﷺ؟ قالت: بلى، ثقل النبي ﷺ فقال: «أصلَّى الناس؟». قلنا: لا، وهم ينتظرونك يرأسل الله! قال: «ضعوا لي ماءً في المِخْضَبِ»^(٢). ففعلنا، فاغتسل، ثم ذهب لينوء^(٣)، فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أصلَّى الناس؟». قلنا: لا، وهم

ينتظرونك يا رسول الله! فقال: «ضعوا لي ماءً في المِخْضَبِ». ففعلنا. فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أصلَّى الناس؟». قلنا: لا، وهم ينتظرونك يرأسل الله! قالت: والناس عكوفٌ في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء الآخرة، قالت: فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكرٍ أن يُصَلِّي بالناس، فأتاه الرسول، فقال: إِنَّ رسول الله ﷺ يأمرُك أن تصلِّي بالناس، فقال أبو بكرٍ، وكان رجلاً رقيقاً: يا عمر! صلِّ بالناس. قال: فقال عمر: أنت أحقُّ بذلك، قالت: فصلَّى بهم أبو بكر تلك الأيام.

ثم إنَّ رسول الله ﷺ وجد من نفسه خَفَةً، فخرج بين رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر، وأبو بكرٍ يصلي بالناس، فلما راه أبو بكرٍ ذهب ليتأخَّر، فأومأ إليه النبي ﷺ ألا يتأخَّر، وقال لهما: «أجلساني إلى جنبه». فأجلساه إلى جنب أبي بكرٍ، وكان أبو بكرٍ يصلي وهو قائمٌ بصلاة النبي ﷺ والناس يصلُّون بصلاة أبي بكرٍ، والنبي ﷺ قاعدٌ. قال عبيد الله: فدخلت على عبد الله بن عباس، فقلت له: ألا أعرض عليك ما حدثني عائشة من مرض رسول الله ﷺ، فقال: هاتِ، فعرضت

(١) مسلم (٤/١٨٥٧).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (٢/٥٤٢).

(٣) المِخْضَب: هي إِجَانة تغسل فيها الثَّياب.

حديثها عليه، فما أنكر منه شيئاً، غير أنه قال: أسمت لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قلت: لا، قال: هو عليّ^(١).

ويستخلص بعض غلاة الشيعة من هذا الحديث بغض عائشة لعليّ رضي الله عنهما، كونها ذكرت اسم العباس، ولم تذكر اسم علي، حتى ذكره ابن عباس عندما عرض عبيد الله عليه الحديث.

والجواب: إن هذه من المسائل التي تعتري البشر جميعاً حتى بين أفراد الأسرة الواحدة كغضبة أخ من أخيه أو أمه فيفارق اسمه فقط ولا يعني ذلك وجود البغض والحققد والكراهية تجاهه، وقد كانت أمنا عائشة رضي الله عنها إذا أرادت القسم تقول: (ورب محمد) حال رضاها مع النبي، فإن كان هناك شيء بينها وبين النبي صلى الله عليه وسلم مما قد يحدث في كل بيت، قالت: «ورب إبراهيم» فلما أخبرها النبي بمعرفته ذلك قالت: (لا أفارق إلا اسمك)^(٢). أي: مهما بلغ مني الغضب لا أستطيع أن أهجر إلا اسمك!

وربما قد وجدت عائشة في نفسها على عليّ رضي الله عنهما حين استشاره رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمرها في حادثة الأفك، وقد أشار عليه بطلاقها^(٣). يقول الزرقاني في تعليقه على هذه الرواية: وذلك لما جبل عليه الطبع البشري، فلا إزراء في ذلك عليها ولا على عليّ - رضي الله عنهما^(٤). وقال ابن تيمية: وقد صدق ابن عباس عائشة فيما أخبرت به مع أنه كان بينهما بعض الشيء بسبب ما كان بينهما وبين عليّ؛ ولذلك لم تسمه، وابن عباس يميل إلى علي ولا يتهم عليه، ومع هذا فقط صدقها في جميع ما قالت، وسمى الرجل الآخر عليا

(١) ينو: أي: يقوم وينهض (شرح النووي، ٤/ ١٣٦).

(٢) البخاري، كتاب النكاح، باب غير النساء ووجدهن ٧/ ٣٦، رقم ٥٢٢٨.

(٣) صحيح البخاري، (٣/ ١٧٥ ط السلطانية)، رقم: ٢٦٦١.

(٤) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، محمد بن عبد الباقي المالكي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، (١٢/ ٨٤).

فلم يكذبها، ولم يخطئها في شيء مما روته^(١).

فربما وجدت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في نفسها شيئاً عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أمرٍ من الأمور، كطبيعة البشر، وتوافق مع ذلك الموقف، ولكن من المحال أن يكون حقداً مستمراً، وعداء لا يزول، بل ذلك من أبعد الأشياء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فإنها لم تحمل على الذين خاضوا في الإفك، مع أن ذلك كان من أشد المصائب عليها، فكان نصيب الخائضين من عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا العفو والصفح، حتى إنها كانت تُنافح عنهم إذا ذكروهم أحداً أمامها بسوء.

فهذا حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من الخائضين في الإفك، وكان ممن أكثر في رمي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومع ذلك لم تحقد عليه الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بل كانت تنهى عن سبه أو الإساءة إليه، ففي الصحيحين أنها قالت لعروة بن الزبير لما أخذ يتكلم فيه: لَا تَسْبَّهُ، فَإِنَّهُ كَانَ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقالت لمسروق نحواً من هذا الكلام.

أفيعقل أن تُقدر مواقف حسان مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تُقدر مواقف أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبي، وبلاءه الحسن معه، وجهاده في سبيل إعلاء كلمة الله عَزَّ وَجَلَّ؟! (٢) إن من درس أخلاقها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، واطَّلَعَ على مناقبها، يعلم مدى عفوها وصفحها عن كثير من الهنات التي صدرت عن أشخاص أبلوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون علي بمراحل ثم صفت نفسها وراق قلبها^(٣).

وكيف يقال إنها كانت تبغض علياً وتكرهه، وقد روت في حقه الأحاديث التي تبين فضله ومنزلته، ومنزلته:

- لما أرادت الخروج من البصرة - بعد انتهاء فتنة الجمل -، بعث إليها علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وأذن لمن نجا ممن جاء في الجيش معها أن

(١) منهاج السنة النبوية، (٨ / ٥٦٢).

(٢) إجلاء الحقيقة في سيرة عائشة الصديقة، ياسين الخليفة الطيب المحجوب، مؤسسة الدرر السنية، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ، ص ١٦٥.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٦.

يرجع إلا أن يحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر، فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء علي فوقف على الباب وحضر الناس وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس ودعت لهم، وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار، فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صدقت والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا والآخرة، ثم سار علي معها مودعا ومشيعا أميالا^(١). فهذا الموقف من أصدق المواقف التي تبين عمق العلاقة بين علي وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولو كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تحمل شيئا في نفسها، لما قالت تلك المقالة، وأيضا لو كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحمل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا شيئا لما أقرها على قولها، ولا قال هذه الكلمات التي تكتب بماء الذهب، ولا وقف معها هذا الموقف الرائع^(٢).

- ويدل أيضا على العلاقة الحسنة بين علي وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ما روي عنها أنها كانت طلبت من الناس بعد مقتل عثمان أن يلزموا عليا ويبايعوه، عن ابن أبيزى، قال: انتهى عبد الله بن بديل إلى عائشة وهي في الهودج يوم الجمل، فقال: يا أم المؤمنين، أنشدك بالله، أنعلمين أنني أتيتك يوم قتل عثمان فقلت: إن عثمان قد قتل فما تأمريني، فقلت لي: الزم عليا، فوالله ما غير ولا بدل^(٣).

- ومما يدل أيضا على العلاقة الطيبة بين عائشة وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت أحيانا تحيل السائل على علي ليجيبه^(٤). عن شريح بن هانئ الحارثي، قال: سألت عائشة عن المسح، فقالت: إيت عليا - فإنه أعلم بذلك مني - فأسأله^(٥). ومن تصفح كتب

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٤٧٢.

(٢) إجلاء الحقيقة في سيرة عائشة الصديقة، (ص ١٠٠).

(٣) المصنف، أبو بكر محمد ابن أبي شيبة، دار التاج، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، (٧ / ٥٤٥).

(٤) إجلاء الحقيقة في سيرة عائشة الصديقة، (ص ١٠١).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة، (١ / ١٦٢).

السنة والتاريخ وجد غير ذلك من الآثار والأحاديث التي تبين حقيقة العلاقة بين عائشة وعلي رضي الله عنهما أجمعين.

هذا الحديث اشتمل على فوائد عظيمة، منها: فضيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وترجيحه على جميع الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - وتفضيله، وتنبيهه على أنه أحق بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم من غيره، ومنها: أن الإمام إذا عرض له عذر عن حضور الجماعة استخلف من يصلي بهم، وأنه لا يستخلف إلا أفضلهم، ومنها: فضيلة عمر بعد أبي بكر - رضي الله عنه - لأن أبا بكر - رضي الله عنه - لم يعدل إلى غيره^(١).

(و) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الأنصار: منّا أميرٌ، ومنكم أميرٌ، قال: فأتاهم عمر رضي الله عنه فقال: يا معشر الأنصار، أستم تعلمون: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس، فأياكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟! فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر^(٢).

(ز) روى ابن سعد بإسناده إلى الحسن، قال: قال علي: لما قبض النبي صلى الله عليه وسلم نظرنا في أمرنا فوجدنا النبي صلى الله عليه وسلم قد قدم أبا بكر في الصلاة، فرضينا لدنيانا من رضي رسول الله صلى الله عليه وسلم لدنيانا، فقدمنا أبا بكر^(٣).

وقد علق أبو الحسن الأشعري على تقديم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر في الصلاة، فقال: وتقديمه له أمرٌ معلومٌ بالضرورة من دين الإسلام. قال: وتقديمه له دليلٌ على أنه أعلم الصحابة، وأجروهم لما ثبت في الخبر المتفق على صحته بين العلماء: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يؤم القوم أجروهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء؛ فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء؛ فأكبرهم سنًا، فإن كانوا في السن سواء؛ فأقدمهم إسلامًا». - قال ابن كثير - وهذا من كلام الأشعري رحمه الله مما ينبغي أن يكتب بماء الذهب، ثم قد

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (٢/ ٥٤٢)؛ مسلم رقم (٤١٨)؛ البخاري رقم (٦٨٧).

(٢) شرح النووي (٤/ ١٣٧).

(٣) المستدرک (٣/ ٦٧).

اجتمعت هذه الصفات كلها في الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأرضاه^(١).

هذا ولأهل السنة قولان في إمامة أبي بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من حيث الإشارة إليه بالنص الخفي، أو الجلي، فمنهم من قال: إن إمامة أبي بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثابتة بالنص الخفي، والإشارة، وهذا القول ينسب إلى الحسن البصري - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وجماعة من أهل الحديث^(٢)، وهو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل^(٣) - رحمة الله عليه، واستدل أصحاب هذا القول بتقديم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له في الصلاة، وبأمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسد الأبواب إلا باب أبي بكرٍ. ومنهم من قال: إن خلافة أبي بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثابتة بالنص الجلي، وهذا قول طائفة من أهل الحديث^(٤)، وبه قال أبو محمد بن حزم الظاهري^(٥)، واستدل هذا الفريق بحديث المرأة التي قال لها: «إن لم تجديني فائتين أبا بكرٍ»^(٦). وبقوله لعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ادعي لي أبا بكرٍ وأخاك حتى أكتب كتاباً فأني أخاف أن يتمنى متمنٌ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكرٍ»^(٧). وحديث رؤياه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه على حوضٍ يسقي الناس، فجاء أبو بكرٍ، فنزع الدلو من يده ليرّوحه^(٨).

والذي أميل إليه، ويظهر لي من خلال البحث: أن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأمر المسلمين بأن يكون الخليفة عليهم من بعده أبا بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وإنما دلّهم عليها لإعلام الله سبحانه وتعالى له بأن المسلمين سيختارونه لما له من الفضائل العالية؛ التي ورد بها القرآن،

(١) الطبقات لابن سعد (٣/١٨٣).

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٦٥.

(٣) منهاج السنة لابن تيمية (١/١٣٤، ١٣٥).

(٤) المصدر السابق نفسه، (١/١٣٤).

(٥) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (٢/٥٤٧).

(٦) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/١٠٧).

(٧) مسلم (٤/١٨٥٦، ١٨٥٧).

(٨) مسلم (٤/١٨٥٧) حديث رقم (٢٣٨٧).

والسُّنة، وفاق بها غيره من جميع الأمة المحمّدية، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأرضاه^(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: والتَّحْقِيقُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَلَّ الْمُسْلِمِينَ عَلَى اسْتِخْلَافِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ بِأُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ أَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَأَخْبَرَ بِخِلَافَتِهِ إِخْبَارَ رِضْيٍ بِذَلِكَ، حَامِدٍ لَهُ، وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ بِذَلِكَ عَهْدًا، ثُمَّ عَلِمَ: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، فَتَرَكَ الْكِتَابَ اكْتِفَاءً بِذَلِكَ.

فلو كان التَّعْيِينَ مِمَّا يَشْتَبِهَ عَلَى الْأُمَّةِ؛ لَبَيَّنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَانًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ، وَلَكِنْ لَمَّا دَلَّاهُمْ دَلَالَاتٍ مُتَعَدِّدَةً عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ هُوَ الْمُتَعَيَّنُ، وَفَهَمُوا ذَلِكَ حَصْلَ الْمَقْصُودِ، وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي خُطْبَتِهِ الَّتِي خُطِبَهَا بِمَحْضَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَالْأَنْصَارِ: وَلَيْسَ فِيكُمْ مَنْ تَقْطَعُ إِلَيْهِ الْأَعْنَاقُ مِثْلَ أَبِي بَكْرٍ.

إِلَى أَنْ قَالَ: فَخِلَافَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ دَلَّتِ النُّصُوصَ الصَّحِيحَةَ عَلَى صَحَّتِهَا، وَثُبُوتِهَا، وَرِضَا اللَّهِ وَرِسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا، وَانْعَقَدَتْ بِمُبَايَعَةِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ، وَاخْتِيَارِهِمْ إِيَّاهُ اخْتِيَارًا اسْتَنْدُوا فِيهِ إِلَى مَا عَلِمُوهُ مِنْ تَفْضِيلِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ، فَصَارَتْ ثَابِتَةً بِالنَّصِّ، وَالْإِجْمَاعِ جَمِيعًا، لَكِنَّ النَّصَّ دَلَّ عَلَى رِضَا اللَّهِ وَرِسُولِهِ بِهَا، وَأَنَّهَا حَقٌّ، وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِهَا، وَقَدَّرَهَا، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَخْتَارُونَهَا، وَكَانَ هَذَا أَبْلَغُ مِنْ مَجْرَدِ الْعَهْدِ بِهَا؛ لِأَنَّهُ حَيْثُ كَانَ يَكُونُ طَرِيقُ ثُبُوتِهَا مَجْرَدَ الْعَهْدِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ اخْتَارُوهُ مِنْ غَيْرِ عَهْدٍ وَدَلَّتِ النُّصُوصُ عَلَى صَوَابِهِمْ فِيمَا فَعَلُوهُ وَرِضَا اللَّهِ وَرِسُولِهِ بِذَلِكَ؛ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الصِّدِّيقَ كَانَ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي بَانَ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ مَا عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ: أَنَّهُ أَحَقُّهُمْ بِالْخِلَافَةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى عَهْدٍ خَاصٍّ^(٢).

٨- انعقاد الإجماع على خلافة الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَفًا، وَخَلَفًا عَلَى أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِالْخِلَافَةِ بَعْدَ النَّبِيِّ

(١) مسلم (٤/١٨٦١، ١٨٦٢).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة (٢/٥٤٨).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لفضله، وسابقتها، ولتقديم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِيَّاهُ في الصلوات على جميع الصحابة، وقد فهم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مراد المصطفى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - من تقديمه في الصلاة، فأجمعوا على تقديمه في الخلافة، ومتابعته، ولم يتخلف منهم أحدٌ، ولم يكن الرَّبُّ - جَلَّ وَعَلَا - ليجمعهم على ضلالةٍ، فبايعوه طائعين، وكانوا لأوامره ممتثلين، ولم يعارض أحدٌ في تقديمه^(١)، فعندما سُئِلَ سعيد بن زيد: متى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كرهوا أن يبقوا بعض يومٍ، وليسوا في جماعة^(٢)، وقد نقل جماعةٌ من أهل العلم المعتبرين إجماع الصحابة، ومن جاء بعدهم من أهل السُّنَّة والجماعة على أن أبا بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أولى بالخلافة من كلِّ أحدٍ^(٣). وهذه بعض أقوال أهل العلم:

(أ) قال الخطيب البغدادي - رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمع المهاجرون، والأنصار على خلافة أبي بكرٍ، قالوا له: يا خليفة رسول الله! ولم يسمَّ أحدٌ بعده خليفةً، وقيل: إنَّه قبض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ثلاثين ألف مسلمٍ كلُّ قال لأبي بكر: يا خليفة رسول الله! ورضوا به من بعده رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٤).

(ب) وقال أبو الحسن الأشعريُّ: أثنى الله - عَزَّجَلَّ - على المهاجرين والأنصار، والسابقين إلى الإسلام، ونطق القرآن بمدح المهاجرين، والأنصار في مواضع كثيرة، وأثنى على أهل بيعة الرضوان، فقال عَزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. قد أجمع هؤلاء الذين أثنى الله عليهم، ومدحهم على إمامة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسمَّوه: خليفة رسول الله، وبايعوه، وانقادوا له، وأقروا له بالفضل، وكان أفضل الجماعة في جميع الخصال التي يستحقُّ بها الإمامة من العلم، والزُّهد، وقوَّة الرأي، وسياسة

(١) منهاج السُّنَّة، مرجع سابق، ج ١، ص ١٣٩-١٤١.

(٢) عقيدة أهل السنة في الصحابة (٢/ ٥٥٠).

(٣) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، إبراهيم شعو، ص ١٠١.

(٤) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة (٢/ ٥٥٠).

الأمّة، وغير ذلك^(١).

(ج) وقال عبد الملك الجويني: أمّا إمامة أبي بكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فقد ثبتت بإجماع الصحابة، فإنّهم أطبقوا على بذل الطّاعة، والانقياد لحكمه... وما تخرص به الإمامة من إبداء عليّ شراساً^(٢)، وشماساً^(٣) في عقد البيعة له كذبٌ صريحٌ، نعم لم يكن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في السّقيفة، وكان متخلياً بنفسه قد استفزّه الحزن على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمّ دخل فيما دخل الناس فيه، وبائع أبا بكر على ملأ من الأَشهاد^(٤).

(د) وقال أبو بكر الباقلائيّ في معرض ذكره للإجماع على خلافة الصّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مفروض الطّاعة لإجماع المسلمين على طاعته، وإمامته وانقيادهم له، حتى قال أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السّلام مجيباً لقوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما قال: أقيلوني، فلست بخيركم، فقال: لا نقيلك، ولا نستقبلك، قدّمك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لديننا، ألا نرداك لديننا - يعني بذلك حين قدّمه للإمامة في الصلاة مع حضوره، واستنابته في إمارة الحجّ - فأمرّك علينا. وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أفضل الأمّة، وأرجحهم إيماناً، وأكملهم فهماً، وأوفرهم علماً^(٥).

٩ - منصب الخلافة والخليفة:

الخلافة الإسلاميّة هي المنهج الذي اختارته الأمة الإسلاميّة، وأجمعت عليه طريقةً، وأسلوباً للحكم، تنظّم من خلاله أمورها، وترعى مصالحها، وقد ارتبطت نشأة الخلافة بحاجة الأمّة لها، واقتناعها بها، ومن ثمّ كان إسراع المسلمين في اختيار خليفة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يقول الإمام أبو الحسن الماوردي: إنّ الله - جلّت قدرته - ندب للأمّة زعيماً

(١) تاريخ بغداد (١٠/ ١٣٠، ١٣١).

(٢) الإبانة عن أصول الدّيانة، ص ٦٦.

(٣) الشّراس: شدّة المعاملة، مختار الصّحاح ص ٣٤٦.

(٤) شماساً: أي صعب الخلق. لسان العرب (٦/ ١١١).

(٥) كتاب الإرشاد، ص ٣٦١.

خلف به النبوة، وحاط به الملة، وفوض إليه السياسة؛ ليصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع، فكانت الإمامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة، وانتظمت به مصالح العامة حتى استتبّت به الأمور العامة، وصدرت عنه الولايات الخاصة^(١).

لقد كان على الأمة الإسلامية أن تواجه الموقف الصعب الذي نشأ عن انتقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرفيق الأعلى، وأن تحسم أمورها بسرعة، وحكمة، وألا تدع مجالاً لانقسام قد يتسرّب منه الشك إلى نفوس أفرادها، أو للضعف أن يتسلّل إلى أركان البناء الذي شيّده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

ولما كانت الخلافة هي نظام حكم المسلمين، فقد استمدّت أصولها من دستور المسلمين، من القرآن الكريم، ومن سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣)، وقد تحدّث الفقهاء عن أسس الخلافة الإسلامية، فقالوا بالشورى، والبيعة، وهما - أصلاً - قد أشير إليهما في القرآن الكريم^(٤)، ومنصب الخلافة أحياناً يطلق عليه لفظ الإمامة، أو الإمارة، وقد أجمع المسلمون على وجوب الخلافة، وأنّ تعيين الخليفة فرض على المسلمين يرعى شؤون الأمة، ويقيم الحدود، ويعمل على نشر الدعوة الإسلامية، وعلى حماية الدين، والأمة بالجهاد، وعلى تطبيق الشريعة

وحماية حقوق الناس، ورفع المظالم، وتوفير الحاجات الضرورية لكل فرد. وهذا ثابت بالقرآن، والسنة، والإجماع^(٥).

(١) «الإنصاف فيما يجب اعتقاده، ولا يجوز الجهل به»، ص ٦٥. ومما تجدر الإشارة إليه: أنّ الذي ذكرت فيه النصوص التي فيها الإشارة إلى خلافة الصديق، اختصرتها من الكتاب القيم «عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام» للدكتور ناصر بن عائض حسن الشيخ.

(٢) الأحكام السلطانية، ص ٣.

(٣) عصر الخلفاء الراشدين، د. فتحية النبراوي، ص ٢٢.

(٤) عصر الخلفاء الراشدين، ص ٢٣.

(٥) المصدر السابق نفسه.

وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].
وقال تعالى: ﴿يَنذُرُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ
عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال ﷺ: «من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له^(١)، ومن مات،
وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»^(٢).

وأما الإجماع، فالصَّحابة - رضوان الله عليهم - لم ينتظروا حتى يتمَّ دفن الرسول
ﷺ، وتوافدوا للاتفاق على إمام، أو خليفة، وعَلَّ أبو بكر قبول هذه الأمانة، وهو
خوفه أن تكون فتنة، أي: من عدم تعيين خليفة للمسلمين^(٣). قال الش هريستاني في ذلك:
ما دار في قلبه، ولا في قلب أحد: أنه يجوز خلو الأرض من إمام، فدلَّ ذلك كله على أن
الصَّحابة - وهم الصدر الأوَّل - كانوا عن بكرة أبيهم متفقين على أنه لا بدَّ من إمام، فذلك
الإجماع على هذا الوجه دليلٌ قاطعٌ على وجوب الإمام^(٤).

هذا وليس صحيحاً ما يروجه الحاقدون: أن الطمع في الرئاسة سبَّب الانشغال بالخلافة
عن دفن النبي ﷺ^(٥).

هذا وقد عرَّف ابن خلدون الخلافة: هي حمل الكافة على مقتضى النَّظر الشرعيِّ في
مصلحتهم الأخوية، والدُّنيويَّة الراجعة إليها؛ إذ أحوال الدُّنيا ترجع كُلُّها عند الشارع إلى
اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافةٌ عن صاحب الشرع في حراسة هذا الدِّين،
وسياسة الدُّنيا به^(٦).

(١) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٥٨.

(٢) لا حجة له في فعله، ولا تنفعه.

(٣) مسلم (١٤٧٨/٣)، رقم (١٨٥١).

(٤) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٥٩.

(٥) الملل والنحل للش هريستاني (٨٣/٧)؛ نظام الحكم، محمود الخالدي، ص (٢٣٧ - ٢٤٨).

(٦) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص ٤٩.

وقد تحدّث العلامة أبو الحسن النّدويّ عن شروط خلافة النّبِيّ، ومتطلّباتها، وقد أثبت بالأدلة، والحجج من خلال سيرة الصّدّيق بأنّ أبا بكرٍ كانت شروط خلافة النّبِيّ متحقّقة فيه، ونذكر هذه الشروط بإيجاز وبدون ذكر الشواهد التي ذكرها النّدويّ، وقد بيّنتها في هذا الكتاب متناثرة، فأهمُّ هذه الشروط:

(أ) يمتاز بأنّه ظلّ طوال حياته بعد الإسلام متمتعاً بثقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به، وشهادته له، واستخلافه إيّاه في القيام ببعض أركان الدّين الأساسيّة، وفي مهمات الأمور، والصّحبة في مناسباتٍ خطيرةٍ دقيقةٍ، لا يستصحب فيها الإنسان إلا من يثق به كلّ الثقة، ويعتمد عليه كلّ الاعتماد.

(ب) يمتاز هذا الفرد بالتّماسك، والصّمود في وجه الأعاصير، والعواصف التي تكاد تعصف بجوهر الدّين، ولبّه، وتحبط مساعي صاحب رسالته، وتنخلع لها قلوب كثيرٍ ممّن قوي إيمانهم، وطالت صحبتهم، ولكن يثبت هذا الفرد في وجهها ثبوت الجبال الراسيات، ويمثّل دور خلفاء الأنبياء الصّادقين الرّاسخين، ويكشف الغطاء عن العيون، وينفض الغبار عن جوهر الدّين، وعقيدته الصّحيحة.

(ج) يمتاز هذا الفرد في فهمه الدّقيق للإسلام، ومعايشته له في حياة النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على اختلاف أطواره، وألوانه من سلم، وحرب، وخوف، وأمن، ووحدّة، واجتماع، وشدّة، ورخاء.

(د) يمتاز بشدّة غيرته على أصالة هذا الدّين، وبقائه على ما كان عليه في عهد نبيّه، غيرَةً أشدّ من غيرة الرّجال على الأعراض، والكرامات، والأزواج، والأمهات، والبنين، والبنات، لا يحوله عن ذلك خوف، أو طمع، أو تأويل، أو عدم موافقة من أقرب الناس، وأحبّهم إليه.

(هـ) يكون دقيقاً كلّ الدّقة، وحريصاً أشدّ الحرص في تنفيذ رغبات الرسول؛ الذي يخلفه في أمّته بعد وفاته، لا يحيد عن ذلك قيد شعرة، ولا يساوم فيه أحداً، ولا يخاف لومة لائم.

(و) يمتاز بالزهد في متاع الدنيا، والتمتع به، زهداً لا يتصور فوقه إلا عند إمامه، وهاديه سيّد الأنبياء - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وألا يخطر بباله تأسيس الملك والدولة، وتوسيعهما لصالح عشيرته، وورثته، كما اعتادت ذلك الأسر الملوكية الحاكمة في أقرب الدُول، والحكومات من جزيرة العرب، كالرُّوم والفرس^(١).

وقد اجتمعت هذه الصفات والشروط كلها في سيدنا أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كما تمثلت في حياته، وسيرته في حياة الرسول ﷺ قبل الخلافة، وبعد الخلافة إلى أن توفاه الله تعالى، بحيث لا يسع منكر أن ينكره، أو مُشككاً يشكك في صحته، فقد تحقّق بطريق البداهة، والتواتر^(٢).

هذا وقد قام أهل الحلّ، والعقد في سقيفة بني ساعدة ببيعة الصّدّيق بيعةً خاصّةً، ثمّ رشّحوه للناس في اليوم الثاني، وبايعته الأُمّة في المسجد البيعة العامّة^(٣).

وقد أفرز ما دار في سقيفة بني ساعدة مجموعةً من المبادئ: منها: أن قيادة الأُمّة لا تقام إلا بالاختيار، وأن البيعة هي أصلٌ من أصول الاختيار، وشرعية القيادة، وأن الخلافة لا يتولاها إلا الأصلب ديناً، والأكفأ إدارةً، فاختيار الخليفة يكون وفق مقومات إسلاميّة، وشخصيّة، وأخلاقيّة، وأن الخلافة لا تدخل ضمن مبدأ الوراثة النسيبيّة، أو القبليّة، وأن إثارة (قريش) في سقيفة بني ساعدة باعتباره واقعاً يجب أخذه في الحسبان، ويجب اعتبار أي شيءٍ مشابهٍ ما لم يكن متعارضاً مع أصول الإسلام، وأن الحوار الذي دار في سقيفة بني ساعدة قام على قاعدة الأمن النفسي السائد بين المسلمين حيث لا هرج، ولا مرج، ولا تكذيب، ولا مؤامرات، ولا نقض للاتفاق، ولكن تسليم للنصوص؛ التي تحكمهم حيث المرجعيّة في الحوار إلى النصوص الشرعيّة^(٤).

(١) المقدمة، ص ١٩١.

(٢) المرتضى، سيرة أبي الحسن علي بن أبي طالب، ص (٦٥، ٦٦).

(٣) سيرة أبي الحسن علي بن أبي طالب، ص ٦٧.

(٤) الخلافة والخلفاء الراشدون، ص (٦٦، ٦٧).

وقد استدَلَّ الدكتور توفيق الشاوي على بعض الأمثلة التي صدرت بالشورى الجماعية في عهد الراشدين من حادثة السقيفة، حيث قال:

* أوَّل ما قرره اجتماع يوم السقيفة هو أنَّ (نظام الحكم ودستور الدولة) يقرَّر بالشورى الحرَّة، تطبيقاً لمبدأ الشورى؛ الذي نصَّ عليه القرآن، ولذلك كان هذا المبدأ محلَّ إجماع، وسند هذا الإجماع النُّصوص القرآنية التي فرضت الشورى، أي أنَّ هذا الإجماع كشف، وأكَّد أوَّل أصل شرعيٍّ لنظام الحكم في الإسلام، وهو الشورى الملزمة، وهذا أول مبدأ دستوريٍّ تقرَّر بالإجماع بعد وفاة رسولنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ إِنَّ هذا الإجماع لم يكن إلا تأييداً، وتطبيقاً لنصوص الكتاب، والسُّنة التي أوجبت الشورى.

—خ تقرر يوم السقيفة أيضاً: أنَّ اختيار رئيس الدولة، أو الحكومة الإسلامية، وتحديد سلطاته يجب أن يتمَّ بالشورى، أي: بالبيعة الحرَّة التي تمنحه تفويضاً ليتولَّى الولاية بالشروط، والقيود التي يتضمَّنهما عقد البيعة الاختيارية الحرَّة - الدُّستور في النظم المعاصرة، وكان هذا ثاني المبادئ الدُّستورية التي أقرَّها الإجماع، وكان قراراً إجماعياً كالقرار السابق.

—خ تطبيقاً للمبدأين السابقين، قرَّر اجتماع السقيفة اختيار أبي بكر، ليكون الخليفة الأوَّل للدولة الإسلامية^(١).

ثمَّ إِنَّ هذا الترشيح لم يصحَّ نهائياً إلا بعد أن تمَّت له البيعة العامة، أي: موافقة جمهور المسلمين في اليوم التالي بمسجد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قبوله لها بالشروط التي ذكرها في خطابه الذي ألقاه^(٢)، وسنأتي على ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

(١) دراسات في عهد النبوة، والخلافة الراشدة؛ للشُّجاع، ص ٢٥٦.

(٢) فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوي، ص ١٤٠.

المبحث الثاني: البيعة العامة، وإدارة الشؤون الداخلية

أولاً: البيعة العامة:

بعد أن تمت بيعة أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - البيعة الخاصة في سقيفة بني ساعدة، كان لعمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في اليوم التالي موقف في تأييد أبي بكر، وذلك في اليوم التالي حينما اجتمع المسلمون للبيعة^(١) العامة. قال أنس بن مالك: لما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد؛ جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس! إني كنت قلت لكم بالأمس مقالة ما كانت، وما وجدت في كتاب الله، ولا كانت عهداً عهدته إلي رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا - يقول: يكون آخرنا - وإن الله قد أبقي فيكم كتابه الذي به هدى الله ورسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به، هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم؛ صاحب رسول الله ﷺ، وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلم أبو بكر فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس! فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت؛ فأعينوني، وإن أسأت؛ فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قويّ عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقويّ فيكم ضعيفٌ عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بالذلّ، ولا تشيع الفاحشة في قومٍ إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله، ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله^(٢). وقال عمر لأبي بكر يومئذٍ: اصعد المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر، فبايعه

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٢.

(٢) عصر الخلفاء الراشدين، د. فتحة النبراوي، ص ٣٠.

الناس عامّة^(١).

وتعتبر هذه الخطبة الرائعة من عيون الخطب الإسلامية على إيجازها، وقد قرّر الصديق فيها قواعد العدل، والرحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركّز على أنّ طاعة ولي الأمر مترتبة على طاعة الله ورسوله، ونص على الجهاد في سبيل الله لأهميته في إعزاز الأمة، وعلى اجتناب الفاحشة لأهميّة ذلك في حماية المجتمع من الانهيار والفساد^(٢). ومن خلال الخطبة والأحداث التي تمّت بعد وفاة الرسول يمكن للباحث أن يستنبط بعض ملامح نظام الحكم في بداية عهد الخلافة الراشدة، والتي من أهمها:

١ - مفهوم البيعة:

عرّف العلماء البيعة بتعاريف عدة، منها تعريف ابن خلدون: العهد على الطاعة لولي الأمر^(٣)، وعرفها بعضهم بقوله: البيعة على التعاقد على الإسلام^(٤)، وعُرفت كذلك بأنّها أخذ العهد، والميثاق، والمعاهدة على إحياء ما أحياه الكتاب والسنة، وإقامة ما أقامه^(٥)، وكان المسلمون إذا بايعوا الأمير؛ جعلوا أيديهم في يده، تأكيداً للعهد والولاء، فأشبه ذلك الفعل البائع، والمشتري، فسمّي هذا الفعل بيعة^(٦).

ونتعلّم من مبايعة الأمة للصديق بأنّ الحاكم في الدولة الإسلامية إذا وصل إلى الحكم عن طريق أهل الحل والعقد، بايعته الأمة بعد أن توفّرت فيه الشروط المعتبرة، فيجب على المسلمين جميعاً مبايعته والاجتماع عليه، ونصرته على مَنْ يخرج عليه، حفاظاً على وحدة

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) البخاري، الأحكام، رقم (٧٢١٩).

(٣) التاريخ الإسلامي (٩/٢٨).

(٤) المقدمة، ص ٢٠٩.

(٥) جامع الأصول في أحاديث الرسول (١/٢٥٢).

(٦) نظام الحكم في الإسلام، عارف أبو عيد، ص ٢٤٨.

الأمة، وتماسك بنائها أمام الأعداء في داخل الدولة الإسلامية، وخارجها^(١).

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من مات وليس في عنقه بيعة؛ مات ميتة جاهلية»^(٢)، فهذا الحديث فيه حثٌّ على وجوب إعطاء البيعة، والتوعُّد على تركها، فمن مات، ولم يبايع؛ عاش على الضلال، ومات على الضلال^(٣).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه؛ فليطعمه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه؛ فاضربوا عنق الآخر»^(٤).

فالشارع الحكيم قد رتبَّ القتل، وأمر به نتيجة الخروج على الإمام، ممَّا يدلُّ على حرمة هذا الفعل؛ لأنَّه يطلب بيعةً أخرى بالبيعة الأولى؛ التي هي فرضٌ على المسلمين^(٥).

والذي يأخذ البيعة في حاضرة الدولة هو الخليفة، وأمَّا في الأقاليم فقد يأخذها الإمام، وقد يأخذها نواب الإمام، كما حدث في بيعة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيعة أهل مكة، والطائف أخذها نواب الخليفة.

والذي تجب بيعتهم للإمام هم أهل الحلِّ والعقد، وأهل الاختيار من علماء الأمة وقادتها، وأهل الشورى، وأمراء الأمصار، وأمَّا سائر الناس، وعامتهم، فيكفيهم دخولهم تحت بيعة هؤلاء، ولا يمنع العامة من البيعة بعد بيعة أهل الحلِّ والعقد^(٦)، وهناك من العلماء من قال: لا بدَّ من البيعة العامة؛ لأنَّ الصديق لم يباشر مهامه كخليفة للمسلمين إلا بعد البيعة العامة له من المسلمين^(٧).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٠.

(٣) مسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٥١).

(٤) نظام الحكم في الإسلام، ص ٢٥٠.

(٥) مسلم، كتاب الإمارة رقم ١٨٥٢.

(٦) نظام الحكم في الإسلام، ص ٢٥٣.

(٧) المصدر السابق نفسه.

والبيعة بهذا المعنى الخاص الذي تم للصديق لا تعطى إلا للإمام الأعظم في الدولة الإسلامية، ولا تعطى لغيره من الأشخاص سواءً ظلَّ الدولة الإسلامية، أو عند فقدانها، لما يترتب على هذه البيعة من أحكام^(١). وخلاصة القول: إنَّ البيعة بمعناها الخاص هي إعطاء الولاء، والسَّمع والطاعة للخليفة مقابل الحكم بما أنزل الله تعالى، وأنها في جوهرها، وأصلها عقدٌ، وميثاقٌ بين طرفين: الإمام من جهة، وهو الطرف الأوَّل، والأُمَّة من جهة ثانية، وهي الطرف الثاني، فالإمام يبايع على الحكم بالكتاب والسُّنة، والخضوع التام للشرعية الإسلامية عقيدةً، وشرعيةً، ونظام حياة، والأُمَّة تبايع على الخضوع، والسَّمع، والطاعة للإمام في حدود الشريعة.

فالبيعة خصيصة من خصائص نظام الحكم في الإسلام، تفرَّد به عن غيره من النظم الأخرى في القديم، والحديث، ومفهومه أنَّ الحاكم، والأُمَّة كليهما مقيَّد بما جاء به الإسلام من الأحكام الشرعية، ولا يحقُّ لأحدهما سواءً كان الحاكم، أو الأُمَّة ممثلةً بأهل الحلِّ والعقد الخروج على أحكام الشريعة، أو تشريع الأحكام التي تصادم الكتاب والسُّنة، أو القواعد العامة في الشريعة، ويعدُّ فعل مثل ذلك خروجاً على الإسلام، بل إعلان الحرب على النظام العام للدولة الإسلامية، بل أبعد من هذا نجد أنَّ القرآن الكريم نفى عنهم صفة الإيمان^(٢)، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فهذا مفهوم البيعة من خلال عصر أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- مصدر التشريع في دولة الصديق:

قال أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله؛ فلا

(١) فقه الشورى، د. الشاوي، ص ٤٣٩؛ عصر الخلفاء الراشدين، ص ٣٠.

(٢) نظام الحكم الإسلامي، ص ٢٥٤.

طاعة لي عليكم^(١)، فمصدر التشريع عند الصديق:

أ- القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

فهو المصدر الأول الذي يشتمل على جميع الأحكام الشرعية، التي تتعلق بشؤون الحياة، كما يتضمن مبادئ أساسية، وأحكاماً قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

ب- السنة المطهرة:

هي المصدر الثاني الذي يستمد منه الدستور الإسلامي أصوله، ومن خلالها يمكن معرفة الصيغ التنفيذية، والتطبيقية لأحكام القرآن^(٢).

إن دولة الصديق خضعت للشرعية، وأصبحت سيادة الشريعة الإسلامية فيها فوق كل تشريع، وفوق كل قانون، وأعطت لنا صورةً مضيئةً مشرقةً على أن الدولة الإسلامية دولة شريعة، خاضعة بكل أجهزتها لأحكام هذه الشريعة، والحاكم فيها مقيد بأحكامها، لا يتقدم، ولا يتأخر عنها^(٣).

ففي دولة الصديق، وفي مجتمع الصحابة الشريعة فوق الجميع، يخضع لها الحاكم، والمحكوم، ولهذا قيّد الصديق طاعته التي طلبها من الأمة بطاعة الله ورسوله؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف»^(٤).

٣- حق الأمة في مراقبة الحاكم، ومحاسبته:

(١) نظام الحكم في الإسلام، ص (١٥٢، ١٥٣).

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٦.

(٣) فقه التمكين في القرآن الكريم للصلاحي، ص ٤٣٢.

(٤) نظام الحكم في الإسلام، (ص ٢٢٧).

قال أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَإِنْ أَحْسَنْتَ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتَ فَقَوِّمُونِي^(١).

فهذا الصديق يقرُّ بحقِّ الأُمَّة وأفرادها في الرِّقابة على أَعْماله، ومحاسبته عليها، بل وفي مقاومته لمنع كلِّ منكرٍ يرتكبه، وإلزامه بما يعتبرونه الطَّرِيقَ الصَّحِيحَ، والسُّلوكَ الشَّرْعِيَّ^(٢)، وقد أقرَّ الصديق في بداية خطابه للأُمَّة: أَنَّ كلَّ حاكمٍ معرَّضٌ للخطأ، والمحاسبة، وأنَّه لا يستمدُّ سلطته من أيِّ امتيازٍ شخصيٍّ يجعل له أفضليَّةً على غيره؛ لأنَّ عهد الرِّسالات، والرسول المعصومين قد انتهى، وأنَّ آخرَ رسولٍ كان يتلقَّى الوحي انتقل إلى جوار ربِّه، وقد كانت له سلطةٌ دينيَّةٌ مستمدَّةٌ من عصمته كنبِيٍّ، ومن صفته كرَّسولٍ يتلقَّى التَّوجيه من السماء، ولكن هذه العصمة قد انتهت بوفاة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصبح الحكم، والسُّلطة مستمدَّةً من عقد البيعة، وتفويض الأُمَّة له^(٣).

إِنَّ الأُمَّة في فقه أبي بكرٍ لها إدارةٌ حيَّةٌ واعيَّةٌ، لها القدرة على المناصرة، والمناصحة، والمتابعة، والتَّقويم، فالواجب على الرِّعيَّة نُصرة الإمام الحاكم بما أنزل الله، ومعاضدته، ومناصرته في أمور الدين، والجهاد، ومن نصرة الإمام الأيُّهان، ومن معاضدته أن يُحترم، وأن يُكرم، فقوامته على الأُمَّة، وقيادته لها لإعلاء كلمة الله تستوجب إجلاله، وإكرامه، وتبجيله، إجلالاً، وإكراماً لشرع الله الذي ينافح عنه، ويدافع عنه. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشَّيْبَةِ المسلم، وحامل القرآن غير المغالي فيه، والجافي عنه، وإكرام ذي السُّلطان المقسط»^(٤)، والأُمَّة واجبٌ عليها أن تُنصَح بولاية أمرها. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدين النصيحة» - ثلاثاً - قال الصَّحابة: لمن يرأسل الله؟ قال: «الله - عزَّ وجلَّ - ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم»^(٥).

(١) البخاريُّ رقم (٧١٤٥).

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٥.

(٣) فقه الشورى، والاستشارة، (ص ٤٤١).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) صحيح سنن أبي داود رقم (٣٥٠٤).

ولقد استقرَّ في مفهوم الصحابة أنَّ بقاء الأمة على الاستقامة رهنٌ باستقامة وُلاتها، ولذلك كان من واجبات الرعية تجاه حكامهم نصحتهم، وتقويمهم، ولقد أخذت الدولة الحديثة تلك السياسة الرائدة للصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وترجمت ذلك إلى لجان متخصصة ومجالس شورى، تمد الحاكم بالخطط، وتزوِّده بالمعلومات، وتشير عليه بما يحسن أن يقرَّره، والشيء المحزن أن كثيراً من الدول الإسلامية تعرض عن هذا النظام الحكيم، فعَظُم مصيبتها في تسلُّط الحكام وجبروتهم، والتخلف الذي يعمُّ معظم ديار المسلمين ما هو إلا نتيجة لتسلُّط بغض، (ودكتاتورية) لعينة أُمات في الأمة روح التناصح، والشجاعة، وبذرت فيها وزرعت بها الجبن، والفرع إلا من رحم ربِّي، وأمَّا الأمة التي تقوم بدورها في مراقبة الحاكم، ومناصحتهم، وتأخذ بأسباب القوة، والتَّمكن في الأرض؛ فتنتقل إلى افاق الدنيا تبلِّغ دعوة الله^(١).

٤ - إقرار مبدأ العدل والمساواة بين الناس:

قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى أرجع عليه حقَّه إن شاء الله، والقويُّ فيكم ضعيفٌ حتى اخذ الحقَّ منه إن شاء الله^(٢).

إنَّ من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد: الشورى، والعدل، والمساواة، والحريات، ففي خطاب الصديق للأمة أقرَّ هذه المبادئ، فالشورى تظهر في طريقة اختياره، وبيعته، وفي خطبته في المسجد الجامع، بمحضرٍ من جمهور المسلمين، وأمَّا عدالته؛ فتظهر في نصِّ خطابه، ولا شك: أنَّ العدل في فكر أبي بكرٍ هو عدل الإسلام، الذي هو الدِّعامة الرئيسية في إقامة المجتمع الإسلامي، والحكم الإسلامي، فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم، ولا يعرف العدل.

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب أن الدين نصيحة، رقم (٥٥).

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٢٤٩.

إن إقامة العدل بين الناس أفراداً، وجماعاتٍ، ودولاً، ليست من الأمور التطوعيّة التي تُترك لمزاج الحاكم، أو الأمير، وهواه، بل إن إقامة العدل بين الناس في الدين الإسلامي تعدّ من أقدس الواجبات، وأهمّها، وقد أجمعت الأمة على وجوب العدل^(١). قال الفخر الرازي - رَحِمَهُ اللهُ: أجمعوا على أن من كان حاكماً، وجب عليه أن يحكم بالعدل^(٢).

وهذا الحكم تؤيّدُهُ النصوص القرآنية، والسُنّة النبويّة. إن من أهداف دولة الإسلام إقامة المجتمع الإسلامي؛ الذي تسود فيه قيم العدل، والمساواة، ورفع الظلم، ومحاربة، بجميع أشكاله، وأنواعه، وعليها أن تفسح المجال، وتيسّر السبيل أمام كلّ إنسان يطلب حقّه أن يصل إليه بأيسر السبيل، وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهداً، أو مالاً، وعليها أن تمنع أي وسيلة من الوسائل من شأنها أن تعيق صاحب الحقّ من الوصول إلى حقّه.

لقد أوجب الإسلام على الحكّام أن يقيموا العدل بين الناس دون النّظر إلى لغاتهم، أو أوطانهم، أو أحوالهم الاجتماعيّة، فهو يعدل بين المتخاصمين، ويحكم بالحقّ، ولا يهمّه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل^(٣)، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُوءًا قَوْمِينَ لِّلّٰهِ شُهَدَآءُ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا ءَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

لقد كان الصديق - رَحِمَهُ اللهُ عَنَّهُ - قدوةً في عدله، يأسر القلوب، ويبهر الألباب، فالعدل في نظره دعوةٌ عمليّة للإسلام، فيه تفتح قلوب الناس للإيمان، لقد عدل بين الناس في العطاء، وطلب منهم أن يكونوا عوناً له في هذا العدل، وعرض القصاص من نفسه في واقعة تدلّ على العدل، والخوف من الله سبحانه^(٤)، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رَحِمَهُ اللهُ عَنَّهُ: أن

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٥.

(٢) فقه التّمكين في القرآن الكريم، ص ٤٥٥.

(٣) تفسير الرازي (١٠/١٤١).

(٤) فقه التّمكين في القرآن الكريم، ص ٤٥٩.

أبا بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قام يوم الجمعة، فقال: إذا كنّا بالغداة؛ فأحضروا صدقات الإبل نقسمها، ولا يدخل علينا أحدٌ إلا بإذنٍ، فقالت امرأة لزوجها: خذ هذا الخطام لعلّ الله يرزقنا جملاً، فأتى الرَّجل فوجد أبا بكرٍ، وعمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قد دخلا إلى الإبل فدخل معهما، فالتفت أبو بكرٍ، فقال: ما أدخلك علينا؟ ثم أخذ منه الخطام فضربه، فلما فرغ أبو بكرٍ من قسم الإبل دعا الرَّجل فأعطاه الخطام، وقال: استقد.. فقال عمر: والله لا يستقد! ولا تجعلها سُنةً. قال أبو بكر: فمن لي من الله يوم القيامة؟ قال عمر: أرْضِه، فأمر أبو بكر بكر غلامه أن يأتيه براحلةٍ، ورحلها، وقطيفة، وخمسة دنانير، فأرضاه بها^(١).

وأما مبدأ المساواة الذي أقرّه الصديق في بيانه الذي ألقاه على الأمة فيُعَدُّ أحد المبادئ العامة التي أقرّها الإسلام، وهي من المبادئ التي تساهم في بناء المجتمع المسلم، وسبق به تشريعات وقوانين العصر الحاضر، ومما ورد في القرآن الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

إنّ الناس جميعاً في نظر الإسلام سواسية، الحاكم والمحكوم، الرجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين الناس بسبب الجنس، أو اللون، أو النسب، أو الطبقة، والحكام والمحكومون كلّهم في نظر الشرع سواء^(٢)، وجاءت ممارسة الصديق لهذا المبدأ خير شاهدٍ على ذلك. حيث يقول: وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، القوي فيكم ضعيفٌ عندي حتى اخذ الحقّ منه، والضعيف فيكم قويٌّ عندي حتى اخذ له حقّه^(٣).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينفق من بيت مال المسلمين، فيعطي كلّ ما فيه سواسيةً بين الناس، فقد روى ابن سعد، وغيره: أنّ أبا بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كان له بيت مال بالسُّنح معروفٌ، ليس يحرسه

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء، ص ٤١٠.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء، ص ٤١١.

(٣) فقه التّمكنين في القرآن الكريم، ص (٤٦٠، ٤٦١).

أحدٌ، فقيل له: ألا تجعل على بيت المال مَنْ يحرسه؟ فقال: لا يخاف عليه، قيل له: ولم؟ قال: عليه قفل! وكان يعطي ما فيه حتى لا يُبقي فيه شيئاً، فلمَّا تحوَّل إلى المدينة حوَّله معه، فجعله في الدار التي كان فيها، وقدم عليه مالٌ من معدن من معادن جُهيَّنة، فكان كثيراً، وانفتح معدن بني سُليم في خلافته، فقدم عليه منه بصدقةٍ، فكان يضع ذلك في بيت المال، فيقسمه بين الناس سوياً، بين الحرِّ والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير على السَّواء. قالت عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فأعطى أول عام الحرَّ عشرة، والمملوك عشرة، وأعطى المرأة عشرة، وأمتها عشرة، ثمَّ قسم في العام الثاني، فأعطاهم عشرين عشرين، فجاء ناسٌ من المسلمين، فقالوا: يا خليفة رسول الله! إنَّك قسمت هذا المال، فسَوَّيت بين الناس، ومن الناس أناسٌ لهم فضلٌ، وسوابقٌ، وقدمٌ، فلم فَضَّلْتَ أهل السَّوابق، والقدم، والفضل. فقال: أما ما ذكرت من السَّوابق، والقدم، والفضل، فما أعرفني بذلك، وإنَّما ذلك شيءٌ ثوابه على الله جلَّ ثناؤه، وهذا معاشٌ، فالأسوة فيه خيرٌ من الأثرة^(١).

فقد كان توزيع العطاء في خلافته على التَّسوية بين الناس، وقد ناظر الفاروق عمر أبا بكر في ذلك، فقال: أتسوي بين من هاجر الهجرتين، وصَلَّى إلى القبلتين، وبين من أسلم عام الفتح؟ فقال أبو بكر: إنَّما عملوا لله، وإنَّما أجورهم على الله، وإنَّما الدُّنيا بلاغٌ للرَّাকب. ورغم أنَّ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غيَّر في طريقة التوزيع، فجعل التَّفضيل بالسَّابقة إلى الإسلام والجهاد، إلَّا أنه في نهاية خلافته قال: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت، لرجعت إلى طريقة أبي بكرٍ، فسَوَّيتُ بين الناس^(٢).

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٥.

(٢) أبو بكر الصديق، الطَّنطاوي، ص (١٨٧، ١٨٨)؛ ابن سعد (٣/ ١٩٣).

وكان يشتري الإبل، والخيول، والسلاح، فيحمل في سبيل الله، واشترى عاماً قطائف (القطيفة: كساء مخمل) أتى بها من البادية، ففرّقها في أرامل أهل المدينة في الشتاء، وقد بلغ المال الذي ورد على أبي بكرٍ في خلافته مئتي ألفٍ وُزعت في أبواب الخير^(١).

لقد اتّبع أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المنهج الربّاني في إقرار العدل، وتحقيق المساواة بين الناس، وراعى حقوق الضّعفاء، فرأى أن يضع نفسه في كفة هؤلاء الواهنة أصواتهم، فيتبعهم بسمع مرهفٍ، وبصرٍ حادٍّ، وإرادة واعيةٍ، لا تستذلها عوامل القوّة الأرضيّة، فتملّي كلمتها.. إنّه الإسلام في فقه رجل دولته، الثّابه الذي قام يضع القهر تحت أقدام قومه، ويرفع بالعدل رؤوسهم، فيؤمّن به كيان دولته، ويحفظ لها دورها في حراسة المِلّة، والأُمّة^(٢).

لقد قام الصّدّيق منذ أول لحظة بتطبيق هذه المبادئ السامية، فقد كان يدرك أنّ العدل عزٌّ للحاكم والمحكوم، ولهذا وضع الصّدّيق سياسته تلك موضع التنفيذ، وهو يرّدّد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

كان أبو بكر يريد أن يطمئن المسلمون إلى دينهم، وحرّيّة الدّعوة إليه، وإنما تتمّ الطمأنينة للمسلمين ما قام الحاكم فيهم على أساس من العدل المجرّد عن الهوى.

والحكم على هذا الأساس يقتضي الحاكم أن يسمو فوق كل اعتبارٍ شخصيٍّ، وأن يكون العدل والرّحمة مجتمعين، وقد كانت نظرية أبي بكرٍ في تولّي أمور الدولة قائمة على إنكار الذات، والتّجرّد لله تجرّداً مطلقاً، جعله يشعر بضعف الضعيف، وحاجة المجتمع، ويسمو بعدله على كلّ هوىٍّ، وينسى في سبيل ذلك نفسه، وأبناءه، وأهله، ثمّ يتّبع أمور الدّولة جليلها، ودقيقها بكلّ ما اتاه الله من يقظةٍ، وحذر^(٣).

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، ص ٢٠١.

(٢) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

(٣) أبو بكر رجل الدّولة، ص ٤٦.

وبناء على ما سبق يرفع العدل لواءه بين الناس، فالضعيف امنٌ على حقّه، وكلّه يقينٌ أنّ ضعفه يزول حينما يحكم العدل، فهو به قويٌّ لا يمنع حقه، ولا يضيع، والقويّ حين يظلم يردعه الحقّ، ويتنصف منه للمظلوم، فلا يحتمي بجاهٍ، أو سلطانٍ، أو قرابةٍ لذي سطوةٍ، أو مكانةٍ، وذلك هو العزُّ الشامخ، والتّمكن الكامل في الأرض^(١).

وما أجمل ما قاله ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ: إنّ الله ينصر الدولة العادلة؛ وإن كانت كافرةً، ولا ينصر الدولة الظالمة، ولو كانت مسلمةً... بالعدل تُستصلح الرّجال، وتُستغزر الأموال^(٢).

٥- الصّدق أساسُ التّعامل بين الحاكم والمحكوم:

قال أبو بكرٍ - رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ: الصّدق أمانةٌ، والكذب خيانةٌ^(٣). أعلن الصّدّيق - رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ - مبدأً أساسيّاً تقوم عليه خطّته في قيادة الأُمّة وهو: أنّ الصّدق بين الحاكم والأُمّة، هو أساس التّعامل، وهذا المبدأ السياسيّ الحكيم له الأثر الهامُّ في قوّة الأُمّة، حيث ترسيخ جسور الثّقة بينها وبين حكمها، إنّهُ خلقُ سياسيٍّ منطلقٌ من دعوة الإسلام إلى الصّدق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] ومن التّحذير منه، قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذابٌ أليمٌ: شيخٌ زانٍ، ومملوكٌ كذابٌ، وعائِلٌ مستكبر»^(٤).

فهذه الكلمات: (الصّدق أمانةٌ) اكتست بالمعاني، فكأن لها روحاً تروح بها، وتغدو بين الناس، تلهب الحماس، وتصنع الأمل، (والكذب خيانةٌ) وهكذا يأبى أبو بكرٍ إلا أن يمسّ المعاني، فيسمّي الأشياء بأسمائها، فالحاكم الكذاب هو ذلك الوكيل الخائن الذي يأكل خبز الأُمّة ثمّ يخدعها، فما أتعس حاكماً يتعاطى الكذب، فيسميه بغير اسمه، لقد نعت الصّدّيق بالخيانة، وأنّه عدو أُمّته الأوّل، وهل بعد الخيانة من عداوة؟ حقّاً ما زال الصّدّيق يطلّ على

(١) الصّدّيق لهيكل باشا، ص ٢٢٤.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٤٦.

(٣) السياسة الشرعيّة، ص ١٠.

(٤) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٥.

الدُّنيا من موقفه هذا، فيرفع أقواماً، ويسقط آخرين! وتظلُّ صناعة الرِّجال أرقى فنون الحكم إذ هم عدَّة الأُمَّة، ورصيدها؛ الذي تدفع به عن نفسها ملومات الأيام، ولا شك: أن من تأمَّل كلمات أبي بكرٍ تلك أصدقه الخبر بأن الرِّجل كان رائداً في هذا الفنِّ الرفيع، لقد كان يسير على النهج النبويِّ الكريم^(١).

إن شعوب العالم اليوم تحتاج إلى هذا المنهج الربَّاني في التَّعامل بين الحاكم والمحكوم، لكي تقاوم أساليب تزوير الانتخابات، وتلفيق التُّهم، واستخدام الإعلام وسيلة لترويج اتِّهامات باطلة لمن يعارضون الحُكَّام، أو ينتقدونهم، ولا بدَّ من إشراف الأُمَّة على التزام الحُكَّام بالصِّدق والأمانة من خلال مؤسَّساتها التي تساعد على تقويم، ومحاسبة الحكام إذا انحرفوا^(٢)، فتمنعهم من سرقة إرادتهم، وشرفها، وحرَّيتها، وأموالها.

٦ - إعلان التمسُّك بالجهاد، وإعداد الأُمَّة لذلك:

قال أبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وما ترك قومُ الجهاد في سبيل الله إلاَّ خذلهم الله بالذلِّ^(٣). لقد تلقى أبو بكر تربيته الجهادية مباشرةً من نبيِّه، وقائده العظيم ﷺ، تلقَّاه تربيةً حيَّةً في ميادين الصُّراع بين الشُّرك والإيمان، والضَّلال والهدى، والشَّرِّ والخير، ولقد ذكرت مواقف الصِّديق في غزوات الرِّسول ﷺ، ولقد فهم الصِّديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من حديث رسول الله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزَّرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»^(٤). إن الأُمَّة تصاب بالذلِّ؛ إذا تركت الجهاد، فلذلك جعل الصِّديق الجهاد إحدى حقائق الحكم في دولته^(٥)، ولذلك حشد طاقات الأُمَّة من أجل الجهاد، لكي يرفع الظلم عن المظلومين، ويزيل الغشاوة

(١) مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٧٢).

(٢) أبو بكرٍ رجل الدولة، مجدي حمدي، ص (٣٦، ٣٧).

(٣) فقه الشورى والاستشارة، ص ٤٤٢.

(٤) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٥.

(٥) سنن أبي داود رقم (٣٤٦٢) صحَّحه الألباني.

عن أعين المقهورين، ويعيد الحرّية للمحرّومين، وينطلق بدعوة الله في افاق الأرض يزيل كلّ عائقٍ ضدها.

٧- إعلان الحرب على الفواحش:

قال أبو بكرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ولا تشيع الفاحشة في قومٍ إلا عمَّهم الله بالبلاء»^(١)، والصّدّيق هنا يذكّر الأمة بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطّاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...»^(٢) إن الفاحشة هي داء المجتمع العضال الذي لا دواء له، وهي سبيل تحلُّله، وضعفه حيث لا قداسة لشيءٍ، فالمجتمع الفاحش لا يغار، ويقرّ الدّنيّة، ويرضاها، إنّهُ مجتمع الضّعف، والعار، والأوجاع، والأسقام، وحال الناس أدلّ شاهدٍ. لقد وقف أبو بكرٍ يحفظ قيم الأمة، وأخلاقها^(٣)، فقد حرص في سياسته على طُهر الأمة، ونقائها، وبعدها عن الفواحش ما ظهر منها، وما بطن، وهو - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يريد بذلك أمةً قويّةً، لا تشغلها شهواتها، ولا يضلُّها شيطانها، لتعيش أمةً منتجةً، تعطي الخير، وتقدّم الفضل لكلّ الناس.

إنّ علاقة الأخلاق بقيام الدول، وظهور الحضارة علاقةً ظاهرة، فإن فسدت الأخلاق، وخربت الدّئم؛ ضاعت الأمم، وعمّها الفساد، والدّمار، والدّارس لحياة الأمم السابقة، والحضارات السّالفة بعين البصيرة يدرك كيف قامت حضاراتٌ على الأخلاق الكريمة، والدّين الصحيح، كالحضارة التي قامت في زمن داود، وسليمان - عَلَيْهِمَا السَّلَام - والتي قامت في زمن ذي القرنين، وكثيرٍ من الأمم التي التزمت بالقيم، والأخلاق، فظلّت قويّةً طالما حافظت عليها، فلمّا دب سوس الفواحش إليها؛ استسلمت للشياطين، وبدّلت نعمة الله كفرًا، وأحلّت قومها دار البوار، فزالت قوّتها، وتلاشت حضارتها^(٤).

(١) أبو بكر رجل الدّولة، ص ٧٣.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٥.

(٣) صحيح الألباني (٢/ ٣٧٠) رقم الحديث في ابن ماجه (٤٠١٩).

(٤) أبو بكر رجل الدّولة، ص ٦٦.

إِنَّ الصِّدِّيقَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - استوعب سنن الله في المجتمعات، وبناء الدول، وزوالها، وفهم أن زوال الدول يكون بالتَّرف، والفساد، والانغماس في الفواحش، والموبقات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. أي: أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات، وترك المعاصي، فعصوا، وفسقوا فحقَّ عليهم العذاب والتَّدمير جزاء فسقهم، وعصيائهم. وفي قراءة: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. أي: أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات، وترك المعاصي، فعصوا، وفسقوا فحقَّ عليهم العذاب والتَّدمير جزاء فسقهم، وعصيائهم. وفي قراءة: ﴿أَمَرْنَا﴾^(١) بالتشديد؛ أي: جعلناهم أمراء. والتَّرف وإن كان كثرة المال، والسلطان من أسبابه إلا أنه حالةٌ نفسيةٌ ترفض الاستقامة على منهج الله، وليس كلُّ ثراءٍ ترفاً^(٢).

إنَّ سياسة الصِّدِّيق في حربه للفواحش حريٌّ بحكَّام المسلمين أن يقتدوا به، فالحاكم التَّقِيُّ الذَّكِيُّ العادل هو الذي يربي أُمَّته على الأخلاق القويمة؛ لأنَّه حينئذٍ سيقود شعباً أحسنَّ طعم الآدمية، وجرى في عروقه دم الإنسانية.. وأمَّا إن سُلِبَ الحاكم الذِّكاء، وصار من الأغبياء؛ أشاع الفاحشة في قومه، وعمل على حمايتها بالقوَّة، والقانون، وحارب القيم، والأخلاق الحميدة، ودفع بقومه إلى مستنقعات الرَّذيلة؛ ليصبحوا كالحيوانات الضَّالَّة، والقطعان الهائمة، لا همَّ لها إلا المتاع، والزَّينة الخادعة، فيصبحوا بعد ذلك أقزاماً، قد ودَّعوا الرُّجولة، والشَّهامة^(٣)، ويصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

هذه بعض التعليقات التي فتح الله بها بما ترى على البيان الذي ألفاه الصِّدِّيق للأمة،

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٥٨/٥).

(٣) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمَّد صامل، ص ٦٥.

والذي رسم فيه سياسة الدولة، فحدّد مسؤولية الحاكم ومدى العلاقة بينه وبين المحكومين، وغير ذلك من القواعد المهمّة في بناء الدولة، وتربية الشعوب، وهكذا قامت الخلافة الإسلامية، وتحدّد مفهوم الحكم تحديداً عملياً، وكان حرص الأئمة على منصب الخلافة، واختيار الخليفة على هذه الصورة، ومسارة الناس إلى الرضا بذلك دليلاً على أنّهم كانوا يسلمون بأنّ النظام الذي أنشأه النبي ﷺ واجب البقاء، وأنّ النبي ﷺ وإن مات؛ فإنّه خلف فيهم ديناً، وكتاباً يسرون على هديه، فرضاء الناس يومئذ يعبر عن إرادة الاستمرار في ظلّ النّظام الذي أنشأه النبي ﷺ^(١).

إنّ حكومة الصّدّيق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - تمتّع بها المسلمون زمناً ليس بكثير، وعيّن أبو بكرٍ حدّ السلطة العليا فيها، بتلك الخطبة الرّاقية على مستوى أنظمة الحكم في ذلك العصر وفي هذا الزّمن، فهي حكومةٌ شوريةٌ قل أن يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصرٍ أحسن لسياسة الأمم منها^(٢)، قادها التلميذ الأنيب، والأذكي، والأعلم، والأعظم إيماناً للحبيب المصطفى ﷺ أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد بيّن الإمام مالك بأنّه لا يكون أحدٌ إماماً أبداً إلا على هذا الشرط^(٣)؛ يقصد بالمضامين العظيمة التي ألقاها الصّدّيق في بيانه السياسيّ الأوّل.

ثانياً: إدارة الشؤون الداخلية:

أراد الصّدّيق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أن ينفذ السياسة التي رسمها لدولته، واتّخذ من الصّحابة الكرام أعواناً يساعدونه على ذلك، فجعل أبا عبيدة بن الجراح أمين هذه الأئمة (وزير الماليّة) فأسند إليه شؤون بيت المال، وتولّى عمر بن الخطاب القضاء (وزارة العدل)، وباشّر الصّدّيق القضاء بنفسه أيضاً، وتولّى زيد بن ثابت الكتابة (وزير البريد والمواصلات)^(٤) وأحياناً

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٣.

(٢) دراسات في الحضارة الإسلامية، أحمد إبراهيم الشريف، ص (٢٠٩، ٢١٠).

(٣) أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٠.

(٤) تاريخ الخلفاء، السيوطي، ص ٩٢.

يكتب له مَنْ يكون حاضراً من الصَّحابة كعليّ بن أبي طالب، أو عثمان بن عفّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأطلق المسلمون على الصّديق لقب خليفة رسول الله.

ورأى الصَّحابة ضرورة تفرغ الصّديق للخلافة، فقد كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلاً تاجراً يغدو كلّ يومٍ إلى السوق، فيبيع، ويبتاع، فلمّا استُخلف أصبح غادياً إلى السوق وعلى رقبته أثوابٌ يتجر بها، فلقبه عمر، وأبو عبيدة، فقالا: أين تريد يا خليفة رسول الله؟! قال: السوق. قالوا: تصنع ماذا وقد وليت أمور المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالي؟ فقالوا:

انطلق معنا حتى نفرض لك شيئاً. فانطلق معهما، ففرضوا له كل يومٍ شاةً^(١)، وجاء في «الرياض النضرة»: أنّ رزقه الذي فرضوه له خمسون ومئتا ديناراً في السنة، وشاةٌ يؤخذ من بطنها، ورأسها، وأكارعها. فلم يكن يكفيه ذلك، ولا عياله، قالوا: وقد كان قد ألقى كلّ دينارٍ ودرهم عنده في بيت مال المسلمين، فخرج إلى البقيع، فتصافق (بايع)، فجاء عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فإذا هو بنسوةٍ جلوس، فقال: ما شأنكنّ؟ قلن: نريد خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقضي بيننا، فانطلق فوجده في السُّوق، فأخذه بيده، فقال: تعال ها هنا. فقال: لا حاجة لي في إمارتكم^(٢)، رزقتموني ما لا يكفيني، ولا عيالي. قال: فإنّاً نزيدك. قال أبو بكر: ثلاثمئة دينار والشاة كلّها. قال عمر: أمّا هذا فلا، فجاء عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهما على حالهما تلك، قال: أكملها له، قال: ترى ذلك؟ قال: نعم، قال: قد فعلنا^(٣).

وانطلق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فصعد المنبر، واجتمع إليه الناس، فقال: أيُّها الناس إنّ رزقي كان خمسين ومئتي دينار، وشاةٌ يؤخذ من بطنها، ورأسها، وأكارعها، وإنّ عمر وعليّ كملاً لي ثلاثمئة دينار والشاة، أَرْضِيتُمْ؟ قال المهاجرون: اللهم نعم قد رضينا^(٤).

وهكذا وقف الصَّحابة في فهمهم الرّاقى لولاية الدّين، وأمانة الحكم، يفرضون لإمامهم

(١) في التاريخ الإسلامي، د. شوقي أبو خليل، ص ٢١٨.

(٢) الرياض النضرة في مناقب العشرة، ص ٢٩١.

(٣) الرياض النضرة، ص ٢٩١.

(٤) المصدر السابق نفسه.

رزقاً يغتني به عن التجارة، بعد أن صار عاملاً للأمة تملك منه الوقت، والجهد، والفكر.. ومن ثم يقرّرون معنىً في الإسلام بديعاً يفصل الذمة المالية للأمة عن ذمة الحاكم.

هذا المعنى الذي لم يعرفه الغرب إلا في عهوده القريية؛ إذ ظلت راية: ما لقيصر لقيصر مشرعة خفاقة يقاتل الناس دونها أزماناً طويلة، إنَّ أصدق تعبيرٍ نقف به على دخول الذمة المالية للدولة بأسرها في ذمة الحاكم لهو مقالة لويس الخامس عشر: أنا الدولة، والدولة أنا. لقد كان لويس تاجر غلالٍ معروفًا يتجر في قوت أمته وهي تتصور جوعاً، ثم لا يرى أحد في ذلك شيئاً من العار.. أليس هو الأصل، والأمة فرعُ عنه^(١)؟!

أين البشرية اليوم من أولئك الصحابة - رضوان الله عليهم -؟ فإنَّ الخزينة قد أضحت بعدهم بيد أشخاص ينفقون كيف يشاؤون، ويتصرفون كما يريدون، كما أصبحت لهم نفقاتٌ مستورةٌ لا حصر لها، وفوق هذا فقد تكدّست لهم الأموال في المصارف خارج البلاد، حتى غدت دولٌ أجنبيةٌ تعيش على هذه الأموال لكثرتها، وأكثرها يعود إلى الحكام، وأمراء الشعوب المستضعفة، مع أنَّه قد ظهر: أنَّ هذه الأموال مهما بلغت، والعقارات مهما كثرت، فإنَّها لا تكفي شيئاً، ولا تغني صاحبها شيئاً، فإنَّ شاه إيران مع ضخامة ما يملك لم يجد أَرْضاً تقبله ليأوي إليها، هذا في الدنيا، وأمّا في الآخرة فالأمر أشدُّ، والحساب عظيم^(٢).

فعلى حكام المسلمين أن يقتدوا بهذا الصحابيِّ الجليل الذي أدار دولة الإسلام بعد وفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فما أجمل قوله - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: لقد علم قومي أنَّ حرفتي لم تكن تعجز عن مؤونة أهلي، وشُغلت بأمر المسلمين، فسيأكل ال أبي بكرٍ من هذا المال، ويحترف للمسلمين فيه^(٣).

إنَّ الصِّديق يؤكِّد معاني بديعةً، فولاية الدين ليست في حدِّ ذاتها مغنماً، أمّا ما يفرض لها

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) أبو بكر رجل الدولة، ص ٣٥.

(٣) التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ص ١١.

من رزق؛ فلمّا تفضي إليه من اشتغال عامل الأمة عن أمر نفسه^(١).

لقد سطر الصديق، والصّحابة الكرام صفحات رائعة في جبين الرّمن، حتى إنّ البشريّة تسعى في سلم التطوّر، وتسعى، ثمّ إذا هي قابضة عند أقدامهم^(٢).

سار الصديق في بناء دولة الإسلام بجهدٍ، ونشاطٍ، واهتمّ بالبناء الداخلي، ولم يترك أيّ ثغرةٍ يمكن أن تؤثر في ذلك البناء الشّامخ؛ الذي تركه رسول الله ﷺ، فاهتمّ بالرّعيّة، وله مواقف مشرّفة في هذا الباب، وأعطى للقضاء اهتماماً خاصّاً، وتابع أمر الولاية، وسار على المنهج النبويّ الكريم في كلّ خطواته، وإليك شيءٌ من التفصيل عن تلك السياسة الرّشيّدة.

١ - الصّدّيق في المجتمع:

عاش الصّدّيق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بين المسلمين كخليفة لرسول الله ﷺ، فكان لا يترك فرصة تمرّ إلا علّم الناس، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فكانت مواقفه تشعّ على مَنْ حوله من الرّعيّة بالهدى، والإيمان، والأخلاق، فمن هذه المواقف:

أ - حلبه للأغنام، والعجوز العمياء، وزيارة أم أيمن:

كان قبل الخلافة يحلب للحبيّ أغنامهم، فلمّا بويع له بالخلافة، قالت جاريةٌ من الحبيّ: الآن لا يحلب لنا (أغنام) دارنا، فسمعها أبو بكرٍ، فقال: لعمرى لأحلبنّها لكم، وإنّي لأرجو ألاّ يغيّرني ما دخلت فيه عن خُلُقٍ كنت عليه، فكان يحلب لهنّ، وكنّ إذا أتينه بأغنامهنّ يقول: أنّضح أم ألد؟ فإن قالت: انضح؛ باعد الإناء من الضّرع حتى تشتدّ الرغوة، وإن قالت: البد؛ أدناه منه حتى لا تكون له رغوة، فمكث كذلك بالسّنح ستة أشهر، ثمّ نزل إلى المدينة^(٣).

ففي هذا الخبر بيان شيءٍ من أخلاق أبي بكرٍ الصّدّيق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - فهذا تواضعٌ كبيرٌ

(١) البخاريّ، كتاب البيوع، باب كسب الرّجل، وعلمه، رقم (٢٠٧٠).

(٢) أبو بكر رجل الدّولة، ص ٣٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٦.

من رجل كبير، كبير في سنّه، وكبير في منزلته، وجاهه، حيث كان خليفة المسلمين، وكان حريصاً على ألاّ تغتير الخلافة شيئاً من معاملته للناس، وإن كان ذلك سيأخذ عليه وقتاً هو بحاجة إليه، كما أنّ هذا العمل يدلُّنا على مقدار تقدير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لأعمال البرّ، والإحسان، وإن كلفتهم الجهد، والوقت^(١).

هذا أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - غلب بعزيمته الصادقة، وثباته العجيب الجزيرة العربية، وأخضعها لدين الله، ثمّ بعث بها، فقاتلت تحت ألويته الدولتين الكبيرتين على وجه الأرض، وغلبت عليها. أبو بكر.. يحلب لجواري الحيّ أغنامهنّ، ويقول: أرجو ألاّ يغيّرني ما دخلت فيه. وليس الذي دخل فيه بالأمر الهين، بل هو خلافة رسول الله، وسيادة العرب، قيادة الجيوش التي ذهبت لتقلع من الأرض الجبروت الفارسي، والعظمة الرومانية، وتنشئ مكانهما صرح العدل، والعلم والحضارة، ثمّ يرجو ألاّ يغيّره هذا كلّهُ، ولا يمنعه من حلب أغنام الحيّ^(٢).

إنّ من ثمار الإيمان بالله تعالى أخلاقاً حميدة، منها خلق التواضع الذي تجسد في شخصية الصديق في هذا الموقف، وفي غيره من المواقف، وكان عندما يسقط خطام ناقته ينزل ليأخذه، فيقال له: لو أمرتنا أن نناولك، فيقول: أمرنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألاّ نسأل الناس شيئاً^(٣)، لقد ترك لنا الصديق مثلاً حياً في فهم وتطبيق خلق التواضع المستمدّ من قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ، فَنَبَذْنَاهُمْ فِي آيَمٍ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] ومن قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما نقصت صدقة من مالٍ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلاّ رفعه الله»^(٤).

ولقد دفعه هذا الخلق إلى خدمة المسلمين، وبخاصة أهل الحاجة منهم، والضّعفاء، فعن أبي صالح الغفاريّ أن عمر بن الخطاب كان يتعهّد عجوزاً كبيرة عمياء في بعض حواشي

(١) ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٨٦) وله شواهد، فإسناده حسنٌ لغيره.

(٢) التاريخ الإسلامي (٨/ ١٩).

(٣) أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الطنطاوي، ص ١٨٦.

(٤) التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ص ٨.

المدينة من الليل، فيسقي لها، ويقوم بأمرها، فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرة كيلا يسبق إليها فرصده عمر، فإذا هو أبو بكر الذي يأتيها، وهو يومئذ خليفة^(١).

وعن أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزورها، فلما انتهيا إليها، بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خيرٌ لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن أبكي: أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها^(٢).

ب - نصحه لامرأة نذرت ألا تحدث أحداً:

كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينهى عن أعمال الجاهلية، والابتداع في الدين، ويدعو إلى أعمال الإسلام، والتمسك بالسنة^(٣)، فعن قيس بن أبي حازم: دخل أبو بكر على امرأة من أحمس^(٤)، يقال لها: زينب، فراها لا تتكلم، فقال أبو بكر: ما لها لا تتكلم؟ قالوا: نوت حجة مصمتة^(٥). فقال لها: تكلمي، فإن هذا لا يحل^(٦)، هذا من عمل الجاهلية. قال: فتكلمت، فقالت: من أنت؟ قال: أنا امرؤ من المهاجرين. قالت: أي المهاجرين؟ قال: من قريش. قالت: من أي قريش أنت؟ قال: إنك لسؤول، أنا أبو بكر. قالت: يا خليفة رسول الله! ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ فقال: بقاؤكم عليه ما استقامت به أئمتكم. قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤوس، وأشراف يأمرؤهم، فيطيعونهم؟ قالت:

(١) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٨٨).

(٢) أبو بكر الصديق، الطنطاوي، ص ٢٩.

(٣) مسلم، فضائل الصحابة رقم (٢٤٥٤).

(٤) صحيح التوثيق في سيرة حياة الصديق، مجدي فتحي السيد، ص ١٤٠.

(٥) المصدر السابق نفسه، وقيل: الأحمس المتشدد على نفسه في الدين، والورع.

(٦) أي: ساكتة.

بلى! قال: فهم أولئك على الناس^(١).

قال الخطابي - رَحِمَهُ اللهُ: كان من نسك الجاهلية الصَّمت، فكان أحدهم يعتكف اليوم، والليلة، ويصمت، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالنطق بالخير، وقد استدلل بقول أبي بكرٍ هذا مَنْ قال بأنَّ من حلف ألا يتكلَّم استحبَّ له أن يتكلَّم، ولا كفارة عليه؛ لأنَّ أبا بكرٍ لم يأمرها بالكفَّارة، وقياسه: أنَّ من نذر ألا يتكلَّم لم ينعقد نذره؛ لأنَّ أبا بكرٍ أطلق: أنَّ ذلك لا يحلُّ، وأنَّه من فعل الجاهلية، وأنَّ الإسلام هدم ذلك، ولا يقول مثل هذا إلا عن علمٍ من النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكون من حكم المرفوع^(٢).

وقال ابن حجر: وأمَّا الأحاديث الواردة في الصَّمت، وفضله، فلا يعارض لاختلاف المقاصد في ذلك، فالصَّمت المرغَّب فيه: ترك الكلام بالباطل، وكذا المباح إن جَرَّ إلى شيءٍ من ذلك، والصَّمت المنهيُّ عنه ترك الكلام في الحقِّ لمن يستطيع، وكذا المباح المستوي الطرفين. والله أعلم^(٣).

ج - اهتمامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

كان الصُّديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبين للناس ما التبس عليهم من الفهم، فعن قيس بن أبي حازم، قال: سمعت أبا بكرٍ الصُّديق يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] إني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنَّ القوم إذا رأوا المنكر، فلم يُغيِّروه؛ عمَّهم الله بعقاب».

وفي رواية: يا أيُّها النَّاس! إنكم تقرؤون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها، وإنَّا سمعنا النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنَّ الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه؛ أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب»^(٤).

(١) أي: ترك الكلام.

(٢) البخاري، رقم (٣٨٣٤).

(٣) فتح الباري (٧/ ١٥٠).

(٤) المصدر السابق نفسه (٧/ ١٥١).

قال التَّوَوُّيُّ: وأما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. فليس مخالفاً لوجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية: أنكم إذا فعلتم ما كُلفتم به؛ فلا يضركم تقصير غيركم، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] فإذا كان كذلك فمما كُلف به الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا فعله، ولم يمثل المخاطب؛ فلا عتب بعد ذلك على الفاعل؛ لكونه أدى ما عليه^(١).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحث الناس على الصَّواب، فعن ميمون بن مهران: أن رجلاً سَلَّمَ على أبي بكرٍ، فقال: السلام عليك يا خليفة رسول الله! قال: من بين هؤلاء أجمعين^(٢)؟ وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يترك السُّنة مخافة أن يظنَّ ما لا علم له: أنها فريضة أو واجبة، فعن حذيفة بن أسيد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه قال: رأيت أبا بكرٍ، وعمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وما يُضَحِّيَان مخافة أن يُسْتَنَّ بهما، وفي رواية: كراهية أن يُقتدى بهما^(٣)، وكان يوصي ابنه عبد الرحمن بحسن المعاملة لجيرانه، فقد قال له ذات يوم، وهو يخاصم جاراً له: لا تمار جارك، فإن هذا يبقى، ويذهب الناس^(٤).

وكان باراً بوالده، فلمَّا اعتمر في رجب سنة اثنتي عشرة من الهجرة؛ دخل مكة ضحوةً، فأتى منزله، وأبوه أبو قحافة جالس على باب داره، معه فتیان يحوشهم، فقيل له: هذا ابنك فنهض قائماً، وعجل أبو بكر أن ينيخ ناقته، فنزل عنها، وهي قائمةٌ - ليقابل أباه في برٍّ وطاعةٍ، وجاء الناس يسلمون عليه، فقال أبو قحافة: يا عتيق! هؤلاء الملاء، فأحسن صحبتهم! فقال أبو بكر: يا أبت! لا حول ولا قوة إلا بالله، طُوِّقَت أُمراً عظيماً، لا قدرة لي به، ولا يدان إلا بالله^(٥).

(١) حديثٌ صحيحٌ، سنن أبي داود، رقم (٤٣٣٨).

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١١/٣٢٩).

(٣) الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السامع للخطيب (١/١٧٢)، رقم (٢٥٥).

(٤) إسناده صحيحٌ، أخرجه الطبراني في الكبير، رقم (٣٠٥٧).

(٥) الزهد لابن المبارك (١/٥٥١).

وكان يهتمُّ بالصلاة، والخشوع فيها، ويحرص على حسن العبادة، وكان لا يلتفت في صلاته^(١)، وكان أهل مكة يقولون: أخذ ابن جريج الصلاة من عطاء، وأخذها عطاء من ابن الزبير، وأخذها ابن الزبير من أبي بكر، وأخذها أبو بكر من النبي ﷺ، وكان عبد الرزاق يقول: ما رأيت أحداً أحسن صلاةً من ابن جريج^(٢).

وعن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: صَلَّى أبو بكرٍ بالناس الفجر، فافتراً البقرة في ركعتيه، فلما انصرف؛ قال له عمر: يا خليفة رسول الله! ما انصرفت حتى رأينا أن الشمس قد طلعت، قال: لو طلعت؛ لم تجدنا غافلين^(٣).

وكان يحثُّ الناس على الصبر في المصائب، ويقول لمن مات له أحد: ليس مع العزاء مصيبةٌ، ولا مع الجزع فائدةٌ، الموت أهون ممّا قبله، وأشدُّ مما بعده، اذكروا فَقَدْ رسول الله، تصغر مصيبتكم، وعظمَ الله أجركم^(٤).

وعزّى عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن طفل أصيب به، فقال: عَوْضُكَ اللهُ منه ما عَوْضَهُ مِنْكَ^(٥)، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحذّر الناس البغي، والنكث، والمكر، ويقول: ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كُنَّ عَلَيْهِ: البغي، والنكث، والمكر^(٦).

وكان يعظ الناس ويذكرهم بالله، ومن مواعظه - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الظُّلُمات خمسٌ، والسُّرُج خمس: حب الدنيا ظلمةٌ، والسُّرُج له التقوى، والذَّنب ظلمةٌ، والسُّرُج له التوبة، والقبر ظلمةٌ، والسُّرُج له لا إله إلا الله محمّد رسول الله، والآخرة ظلمةٌ، والسُّرُج لها العمل الصَّالح، والصُّراط ظلمةٌ، والسُّرُج لها اليقين^(٧). وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خلال منبر الجمعة

(١) صفة الصَّفوة (١/٢٥٨).

(٢) فضائل الصَّحابة للإمام أحمد (١/٢٥٤).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/٢٥٥).

(٤) الرياض النضرة في مناقب العشرة، ص ٢٢٤.

(٥) عيون الأخبار (٣/٦٩، ٧٠).

(٦) عيون الأخبار (٣/٦٢).

(٧) مجمع الأمثال للميداني (٢/٤٥٠).

يحثُّ على الصدق، والحياء، ويحثُّ على الاعتبار، والاستعداد للقدوم على الله، ويحذّر من الغرور.

فعن أوسط بن إسماعيل - رَحِمَهُ اللَّهُ - قال: سمعت أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخطب بعد وفاة رسول الله بسنة، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أول، ثم بكى أبو بكر، - وفي رواية: ثم ذرفت عيناه، فلم يستطع من العبرة أن يتكلّم - ثم قال: «أيُّها الناس! اسألوا الله العافية، فإنّه لم يعط أحدٌ خيراً من العافية بعد اليقين، وعليكم بالصدق فإنّه مع البرّ، وهما في الجنّة، وإياكم والكذب، فإنّه مع الفجور، وهما في النار، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(١).

وقال الزُّبير بنُ العوّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنّ أبا بكرٍ قال وهو يخطب الناس: يا معشر المسلمين! استحيوا من الله عَزَّجَلْ فو الذي نفسي بيده! إنّي لأظُلُّ حين أذهب الغائط في الفضاء متقنعاً بثوبي استحياءً من ربّي عَزَّجَلْ^(٢).

وعن عبد الله بن حكيم، قال: خطبنا أبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقال: أمّا بعد: فإنّي أوصيكم بتقوى الله، وأن تشنوا عليه بما هو له أهلٌ، وأن تخلطوا الرّغبة بالرّهبة، وتجمعوا الإلحاح بالمسألة، فإنّ الله أثنى على زكريا، وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ثمّ اعلّموا عباد الله: أنّ الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك موثيقكم، فاشترى القليل الفاني بالكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه، ولا يطفأ نوره، فصدّقوا قوله، وانتصحو كتابه، واستوضحوا منه ليوم الظُّلّمة، فإنّما خلقكم للعبادة، ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون، ثمّ اعلّموا عباد الله! أنّكم تغدون، وتروحون في أجلٍ قد غُيِّبَ عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله، فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهل اجالكُم قبل أن تنقضي اجالكُم، فيردّكم إلى أسوأ أعمالكم، فإن أقواماً جعلوا

(١) فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، ص ٢٩.

(٢) صحيح التوثيق في سيرة وحياة الصِّدِّيق، ص ١٧٩.

اجالهم لغيرهم، ونسوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا مثلهم. فالوَحَا الوَحَا^(١)، ثُمَّ النَّجَا النَّجَا، فَإِنَّ وراءكم طلباً حثيثاً مرَّةً^(٢) سريعاً.

وفي رواية أخرى: أين من تعرفون من إخوانكم، ومن أصحابكم؟! قد وردوا على ما قَدَّمُوا، قَدَّمُوا ما قَدَّمُوا في أيام سلفهم، وحلُّوا فيه بالشَّقوة، والسَّعادة. أين الجبارون الذين بنوا المدائن، وحفَّفوها بالحائط؟! قد صاروا تحت الصَّخر والآبار، أين الوضاء الحسنه وجوهمهم، المعجبون بشبابهم؟ أين الملوك؟ وأين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب؟ قد تضعضع بهم الدَّهر، فأصبحوا في ظلمات القبور، لا خير في قولٍ لا يراد به وجه الله، ولا خير في مالٍ لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم.

إن الله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسبٌ يعطيه به خيراً، ولا يصرفه عن سوءٍ إلا بطاعته، واتباع أمره، وإنَّه لا خير بخيرٍ بعده النار، ولا شرٍّ بشرٍّ بعده الجنَّة، واعلموا أنكم ما أخلفتم الله عَزَّوَجَلَّ فربكم أطعتم، وحَقَّكم حفظتم، وأوصيكم بالله لفقركم، وفاقتم أن تتَّقوه، وأن تشنوا عليه بما هو أهله، وأن تستغفرونه إنَّه كان غفاراً، أقول قولِي هذا، وأستغفر الله لي ولكم^(٣).

وهكذا كان الصِّديق يهتَّم بالمجتمع فيعظ المسلمين، ويحثُّهم على الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. فهذا غيْضٌ من فيضٍ، وقليلٌ من كثير.

٢- القضاء في عهد الصِّديق:

يعتبر عهد الصِّديق بداية العهد الرَّاشدي الذي تتجلى أهميته بصلته بالعهد النبويِّ، وقربه منه، فكان العهد الرَّاشديَّ عامَّةً، والجانب القضائي خاصَّةً امتداداً للقضاء في العهد النبويِّ،

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٢.

(٢) الوحا الوحا: السُّرعة السُّرعة، ويمدُّ، ويقصر، يقال: توحيت أي: أسرعت.

(٣) مره: مروره.

مع المحافظة الكاملة والتامة على جميع ما ثبت في العهد النبوي، وتطبيقه بحذافيره، وتنفيذه بنصه، ومعناه، وتظهر أهمية العهد الراشدي في القضاء بأمرين أساسيين:

خ- المحافظة على نصوص العهد النبوي في القضاء، والتقيد بما جاء فيه، والسير في ركابه، والاستمرار في الالتزام به.

خ- وضع التنظيمات القضائية الجديدة لترسيخ دعائم الدولة الإسلامية الواسعة، ومواجهة المستجدات المتنوعة^(١).

كان أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يقضي بنفسه إذا عرض له قضاء، ولم تُفصل ولاية القضاء عن الولاية العامة في عهده، ولم يكن للقضاء ولاية خاصة مستقلة، كما كان الأمر في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ كان الناس على مقربة من النبوة، يأخذون أنفسهم بهدي الإسلام، وتقوم حياتهم على شريعته، وقلما توجد بينهم خصومة تذكر، ففي المدينة عهد أبو بكر إلى عمر بالقضاء، ليستعين به في بعض الأفضية، ولكن هذا لم يعط لعمر صفة الاستقلال بالقضاء^(٢)، وأقر أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - معظم القضاة، والولاة الذين عينهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستمروا على ممارسة القضاء، والولاية، أو أحدهما في عهده^(٣)، وسوف نأتي على ذكر الولاة، وأعمالهم بإذن الله تعالى.

وأما مصادر القضاء في عهد الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - هي:

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية، ويندرج فيها قضاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٣- الإجماع، باستشارة أهل العلم، والفتوى.

(١) إسناده حسن لغيره، مصنف ابن أبي شيبة (١٤٤ / ٧)؛ صحيح التوثيق في سيرة وحياة الصديق، ص ١٨١.

(٢) تاريخ القضاء في الإسلام للحلي، ص (٨٣، ٨٤).

(٣) وقائع ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي (١ / ٣٦٦).

٤- الاجتهاد، والرأي، وذلك عند عدم وجود ما يحكم به من كتاب، أو سنة، أو إجماع^(١).

فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا ورد عليه حكم؛ نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضي به؛ قضى، فإن لم يجد في كتاب الله، نظر في سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن وجد فيها ما يقضي به، قضى به، فإن أعياه ذلك؛ سأل الناس: هل علمتم: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قضى فيه بقضاء، فربما قام إليه القوم، فيقولون: قضى فيه بكذا، أو بكذا، فيأخذ بقضاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقول عندئذ: الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا، وإن أعياه ذلك؛ دعا رؤوس المسلمين، وعلماءهم، فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على الأمر قضى به^(٢)، ويظهر: أن الصديق يرى الشورى ملزمة إذا اجتمع رأي أهل الشورى على أمر، إذ لا يجوز للإمام مخالفتهم.

وهذا ما حكي عنه في القضاء، فإنه كان إذا اجتمع رأي المستشارين على الأمر؛ قضى به، وهذا ما أمر به عمرو بن العاص عندما أرسل إليه خالد بن الوليد مدداً، حيث قال له: شاؤهم، ولا تخالفهم^(٣).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تثبت في قبول الأخبار، فعن قبيصة بن ذؤيب: أن الجدة جاءت إلى أبي بكرٍ تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب الله تعالى شيئاً، وما علمت: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال: حضرت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعطيها السُّدس، فقال أبو بكرٍ: هل معك أحد؟ فشهد ابن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤).

وكان يرى أن القاضي لا يحكم بعلمه الشخصي، إلا إذا كان معه شاهد آخر يعزز هذا العلم، فقد روي عن أبي بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنه قال: لو رأيت رجلاً على حدٍّ، لم أعاقبه حتى

(١) تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١٣٤.

(٢) وقائع ندوة النظم الإسلامية (١/ ٣٩٠).

(٣) موسوعة فقه أبي بكر الصديق، قلعجي، ص ١٥٥.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٦.

تقوم البيّنة عليه، أو يكون معي شاهدٌ آخر^(١).

وهذه بعض الأقضية التي صدرت في عهد أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أ- قضية قصاص:

قال عليُّ بن ماجدة السَّهميُّ: قاتلت رجلاً، فقطعت بعض أذنه، فقدم أبو بكرٍ حاجباً، فَرَفَع شَأْنُنَا إِلَيْهِ، فقال لعمر: انظر هل بلغ أن يقتصَّ منه، قال: نعم، عليّ بالحجّام، فلمّا ذكر الحجّام، قال أبو بكرٍ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني وهبت لخالتي غلاماً، أرجو أن يبارك لها فيه، وإنّي نهيتها أن تجعله حجّاماً، أو قصّاباً، أو صانعاً»^(٢).

٢- نفقة الوالد على الولد:

عن قيس بن حازم قال: حضرت أبا بكرٍ الصّدّيق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقال له رجل: يا خليفة رسول الله! هذا يريد أن يأخذ مالي كلّهُ، ويجتاحه، فقال أبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنّما لك من ماله ما يكفيك، فقال: يا خليفة رسول الله ﷺ! أليس قال رسول الله ﷺ: «أنت ومالك لأبيك؟» فقال أبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ارض بما رضي الله به. ورواه غيره عن المنذر بن زياد، وقال فيه: إنّما يعني بذلك النّفقة^(٣).

٣- الدّفاع المشروع:

عن أبي مليكة عن جدّه: أنّ رجلاً عَضَّ يد رجلٍ فأنذَرَ ثنيته (قلع سنه) فأهدرها أبو بكرٍ^(٤).

٤- الحكم بالجلد:

روى الإمام مالكٌ عن نافع: أن صفية بنت أبي عبيد أخبرته: أنّ أبا بكرٍ الصّدّيق أُتِيَ برجلٍ قد وقع على جاريةٍ بكرٍ، فأحبّلها، ثمّ اعترف على نفسه بالزّنى، ولم يكن أحصن، فأمر به أبو

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي (٢/١).

(٢) تراث الخلفاء الراشدين، د. صبحي محمصان، ص ١٨٦.

(٣) أخبار القضاة لوكيع (١٠٢/٢) نقلاً عن تاريخ القضاء للحلي، ص ١٣٦.

(٤) السنن الكبرى (٤٨١/٧) نقلاً عن تاريخ القضاء للحلي، ص ١٣٦. ضعيف جداً بل قد يكون موضوعاً. الألباني إرواء (٣/٣٢٩).

بكرٍ، فجلد الحدَّ، ثم نُفي إلى فذك^(١)، وفي رواية: بأنَّه لم يجلد الجارية، ولم ينفها، لأنَّها استكرهت، ثمَّ زوّجها إِيَّاه أبو بكرٍ، وأدخله عليها^(٢).

٥- الحضانة للأم ما لم تتزوَّج:

طلَّق عمر بن الخطاب امرأته الأنصاريَّة - أم ابنه عاصم - فلقيها تحمله بِمَحْسَر^(٣)، ولقيه قد فُطم، ومشى، فأخذ بيديه لينتزعه منها، ونازعها إِيَّاه حتى أوجع الغلام، وبكى، وقال: أنا أحقُّ بابني منك. فاخصمها إلى أبي بكرٍ، ففضى لها به، وقال: ريحها، وحجرها، وفرشها خيرٌ له منك حتى يشبَّ، ويختار لنفسه^(٤). وفي رواية: هي أعطف، وألطف، وأرحم، وأحنُّ، وأرأف، وهي أحقُّ بولدها ما لم تتزوَّج^(٥).

هذه بعض الأقضية، والأحكام التي حدثت في عهد الصِّديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - هذا وقد تميَّز القضاء في عهد الصِّديق بعدَّة أمورٍ منها:

أ- كان القضاء في عهد الصِّديق امتداداً لصورة القضاء في العهد النبويِّ، بالالتزام به، والتأسيس بمنهجه، وانتشار التربية الدِّينيَّة، والارتباط بالإيمان والعقيدة، والاعتماد على الوازع الدِّيني، والبساطة في سير الدَّعوى، واختصار الإجراءات القضائيَّة، وقلة الدَّعاوى والخصومات.

ب - أصبحت الأحكام القضائيَّة في عصر الصِّديق موئل الباحثين، ومحطَّ الأنظار للفقهاء، وصارت الأحكام القضائيَّة مصدراً للأحكام الشرعيَّة، والاجتهادات القضائيَّة، والآراء الفقهيَّة في مختلف العصور.

ج - مارس الصِّديق، وبعض ولاته النَّظر في المنازعات، وتولَّى القضاء بجانب الولاية.

(١) تاريخ القضاء للحلي، ص ١٣٧.

(٢) الموطَّأ، كتاب الحدود، رقم (٨٤٨).

(٣) مصنَّف عبد الرزاق، رقم (١٢٧٩٦).

(٤) محسَّر: موضع بين مكَّة وعرفة. معجم البلدان (٦٢/٥).

(٥) مصنَّف عبد الرزاق (٥٤/٧)، رقم (١٢٦٠١).

د- ساهمت فترة الصِّديق في ظهور مصادر جديدة للقضاء في العهد الراشدي، وصارت مصادر الأحكام القضائية هي: القرآن الكريم، والسُّنة الشريفة، والإجماع، والقياس، والسَّوابق القضائية، والرأي الاجتهاديُّ مع المشورة^(١).

هـ كانت أدب القضاء مرعيةً في حماية الضَّعيف، ونصرة المظلوم، والمساواة بين الخصوم، وإقامة الحقِّ، والشرع على جميع الناس، ولو كان الحكم على الخليفة، أو الأمير، أو الوالي، وكان القاضي في الغالب يتولَّى تنفيذ الأحكام؛ إن لم ينفذها الأطراف طوعاً، واختياراً، وكان التنفيذ عقب صدور الحكم فوراً^(٢).

٣- الولاية على البلدان:

كان أبو بكر يستعمل الولاة في البلدان المختلفة، ويعهد إليهم بالولاية العامّة في الإدارة، والحكم، والإمامة، وجباية الصَّدقات، وسائر أنواع الولايات، وكان ينظر إلى حسن اختيار الرّسول للأمرء، والولاة على البلدان، فيقتدي به في هذا العمل، ولهذا نجده قد أقرَّ جميع عمّال الرّسول الذين توفي الرّسول ﷺ وهم على ولايتهم، ولم يعزل أحداً منهم إلا ليعينه في مكانٍ آخر أكثر أهميّة من موقعه الأوّل، وجرّاه، كما حدث لعمر و بن العاص^(٣)، وكانت مسؤوليات الولاة في عهد أبي بكر الصِّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالدرجة الأولى امتداداً لصلاحياتهم في عصر الرّسول ﷺ، خصوصاً الولاة الذين سبق تعيينهم أيام الرّسول ﷺ، ويمكن تلخيص أهم مسؤوليات الولاة في عصر أبي بكر، وهي:

أ- إقامة الصلاة، وإمامة الناس، وهي المهمّة الرئيسيّة لدى الولاة؛ نظراً لما تحمله من معاني دينيّة ودنيويّة، سياسيّة واجتماعيّة، حيث الولاة يؤمّمون الناس، وعلى وجه الخصوص في صلاة الجمعة، والأمرء دائماً كانت تُوكَل إليهم الصلاة، سواءً كانوا أمرء على البلدان، أم أمرء على الأجناد.

(١) مصنف عبد الرزاق (٥٤/٧)، رقم (١٢٦٠٠).

(٢) تاريخ القضاء في الإسلام، ص (١٥٧، ١٥٨).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٦٠.

ب - الجهاد كان يقوم به أمراء الأجناد في بلاد الفتح، فكانوا يتولون أموره، وما فيه من مهام مختلفة بأنفسهم، أو ينيبون غيرهم في بعض المهام، كتقسيم الغنائم، أو المحافظة على الأسرى، أو غير ذلك، وكذلك ما يتبع هذا الجهاد من مهام أخرى، كمفاوضة الأعداء، وعقود المصالحة معهم، وغيرها، ويتساوى في المهمات الجهادية أمراء الأجناد في الشام، والعراق، وكذلك الأمراء في البلاد التي حدثت فيها الردة، كاليمن، والبحرين، وعمان، ونجد، نظراً لوجود تشابه في العمليات الجهادية مع اختلاف الأسباب الموجهة لهذه العمليات.

ج - إدارة شؤون البلاد المفتوحة، وتعيين القضاة، والعمال عليها من قبل الأمراء أنفسهم، وإقرار من الخليفة أبي بكر، أو تعيين من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن طريق هؤلاء العمال^(١).

د - أخذ البيعة للخليفة، فقد قام الولاة في اليمن، وفي مكة، والطائف، وغيرها بأخذ البيعة لأبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من أهل البلاد التي كانوا يتولون عليها.

هـ - كانت هناك أمور مالية توكل إلى الولاة، أو إلى من يساعدهم ممن يعينهم الخليفة، أو الوالي لأخذ الزكاة من الأغنياء، وتوزيعها على الفقراء، أو أخذ الجزية من غير المسلمين، وصرفها في محلها الشرعي، وهي امتداد لما قام به ولاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الخصوص.

و - تجديد العهود القائمة من أيام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قام والي نجران بتجديد العهد الذي كان بين أهلها وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناءً على طلب نصارى نجران^(٢).

ز - كانت من أهم مسؤوليات الولاة إقامة الحدود، وتأمين البلاد، وهم يجتهدون رأيهم فيما لم يكن فيه نص شرعي، كما فعل المهاجر بن أبي أمية بالمرأتين اللتين تغتا بدم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفرحتا بوفاة، وسيأتي بيان ذلك - بإذن الله تعالى - في جهاد الصديق لأهل الردة.

(١) الولاية على البلدان، عبد العزيز إبراهيم العمري (١/ ٥٥).

(٢) المصدر السابق نفسه، (١/ ٥٩).

ح - كان للولاة دورٌ رئيسيٌّ في تعليم الناس أمور دينهم، وفي نشر الإسلام في البلاد التي يتولَّون عليها، وكان الكثير من هؤلاء الولاة يجلسون في المساجد، يعلِّمون الناس القرآن، والأحكام، وذلك عملاً بسنة الرسول ﷺ، وتعتبر هذه المهمة من أعظم المهام وأجلِّها في نظر الرسول ﷺ، وخليفته أبي بكرٍ، وقد اشتهر عن ولاية أبي بكرٍ ذلك، حيث يتحدَّث أحد المؤرخين عن عمل زياد والي أبي بكرٍ على حضرموت فيقول: فلمَّا أصبح زيادٌ غدا يقرئ الناس، كما كان يفعل قبل ذلك^(١).

وبهذا التعليم كان للولاة دورٌ كبيرٌ في نشر الإسلام في ربوع البلاد التي يتولَّونها، وبهذا التعليم تثبت أقدام الإسلام، سواءً في البلاد المفتوحة الحديثة العهد بالإسلام، أو في البلاد التي كانت مسلمةً، وارتدَّت، وهي حديثة عهدٍ بالردة جاهلةٌ بأحكام دينها، إضافةً إلى أنَّ البلاد المستقرَّة، كمكة، والطائف، والمدينة، كان بها من يقرئ الناس بأمرٍ من الولاة أو الخليفة نفسه، و من يعيِّن الخليفة على التعليم في هذه البلدان^(٢).

وقد كان الوالي هو المسؤول مسؤوليَّةً مباشرةً عن إدارة الإقليم الذي يتولاه، وفي حالة سفر هذا الوالي، فإنه يتعيَّن عليه أن يستخلف، أو ينيب عنه من يقوم بعمله؛ حتى يعود هذا الوالي إلى عمله، ومن ذلك: أنَّ المهاجر بن أبي أمية عيَّنه الرسول ﷺ على كندة، ثمَّ أقرَّه أبو بكرٍ بعد وفاة الرسول، ولم يصل المهاجر إلى اليمن مباشرةً، وتأخَّر نظراً لمرضه، فأرسل إلى (زياد بن لبيد) ليقوم عنه بعمله حتى شفائه، وقدمه، وقد أقرَّ أبو بكرٍ ذلك^(٣)، كذلك كان خالد أثناء ولايته للعراق ينيب عنه في الحيرة من يقوم بعمله حتى عودته.

وكان أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشاور الكثير من الصحابة قبل اختيار أحدٍ من الأمراء سواءً على الجند، أو على البلدان، ونجد في مقدِّمة مستشاري أبي بكرٍ في هذا الأمر عمر بن الخطاب،

(١) تاريخ الطبري (١٦٥/٣).

(٢) الولاية على البلدان (١/٦٠).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/٦١).

وعليّ بن أبي طالب، وغيرهما^(١)، كما كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشاور الشخص الذي يريد توليته قبل أن يعيّنه، وعلى وجه الخصوص إذا أراد أن ينقل الشخص من ولاية إلى أخرى، كما حدث حينما أراد أن ينقل عمرو بن العاص من ولايته التي ولاه عليها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ولاية جند فلسطين، فلم يُصدر أبو بكر قراره إلا بعد أن استشاره، وأخذ منه موافقةً على ذلك^(٢)، كذلك الحال بالنسبة للمهاجر بن أبي أمية؛ الذي خيرَه أبو بكر بين اليمن، أو حضرموت، فاختار المهاجر اليمن، فعينه أبو بكر عليها^(٣).

ومن الأمور التي سار عليها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يعمل بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تولية بعض الناس على قومهم إذا وجد فيهم صلحاء، كالتوائف وبعض القبائل، وكان أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عندما يريد أن يعيّن شخصاً على ولاية يكتب للشخص المعيّن عهداً له على المنطقة التي ولاه عليها، كما أنه في كثير من الأحيان قد يحدّد له طريقه إلى ولايته، وما يمرُّ عليه من أماكن، خصوصاً إذا كان التعيّن مختصّاً بمنطقة لم تفتح بعد، ولم تدخل ضمن سلطات الدولة، ويتّضح ذلك في حروب الردّة، وفتوح الشام، والعراق، وقام الصديق أحياناً بضمّ بعض الولايات إلى بعض، خصوصاً بعد الانتهاء من قتال المرتدّين؛ فقد ضمّ أبو بكر كندة إلى زياد بن لبيد البياضي، وكان والياً على حضرموت، واستمرّ بعد ذلك والياً لحضرموت، وكندة^(٤).

وكانت معاملة أبي بكر للولاة تتسم بالاحترام المتبادل؛ الذي لم تشبهُ شائبة، وأمّا عن الاتّصالات بين الولاة وبين الخليفة أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقد كانت تجري بصفة دائمة، وكانت هذه الاتّصالات تختصّ بمصالح الولاية، ومهامّ العمل، فقد كان الولاة كثيراً ما يكتبون لأبي بكر في مختلف شؤونهم يستشيرونه، وكان أبو بكر يكتب لهم الإجابة عن استفساراتهم، أو

(١) الولاية على البلدان (١/ ٥٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

يوجّه لهم أوامره.

وكانت الرسل تأتي بالأخبار من الولاة سواءً أخبار الجهاد، أو قبل ذلك على جبهات حروب المرتدّين، كذلك كان الولاة يبعثون بأخبار ولاياتهم من تلقاء أنفسهم^(١)، وكان الولاة يتّصل بعضهم ببعض عن طريق الرُّسل، أو عن طريق الاتّصال المباشر، واللقاءات، وتتمثّل هذه اللقاءات والاتّصالات بالدرجة الأولى بين ولاة اليمن، وحضرموت بعضهم مع بعض، وكذلك الحال بالنسبة لولاة الشام، الذين كانوا كثيراً ما يجتمعون لتدارس أمورهم العسكرية بالدرجة الأولى، وكانت كثيرٌ من مراسلات أبي بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - تختصُّ بحث الولاة على الزُّهد في الدُّنيا، وطلب الآخرة، وكانت بعض هذه النصائح تصدر على شكل كتب عامّة رسميّة من الخليفة نفسه إلى مختلف الولاة، وأمراء الأجناد^(٢).

هذا وقد قسّمت الدّولة الإسلاميّة في عهد أبي بكرٍ إلى عدّة ولايات، وهذه أسماء الولايات، والولاة:

أ- المدينة: عاصمة الدّولة، وبها الخليفة أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ب- مكّة: وأميرها عتّاب بن أسيد، وهو الذي ولاه الرّسول ﷺ، واستمرّ مدّة حكم أبي بكرٍ.

ج- الطائف: وأميرها عثمان بن أبي العاص الثّقفي، ولاه رسول الله ﷺ، وأقرّه أبو بكرٍ عليها.

د- صنعاء: وأميرها المهاجر بن أبي أميّة، وهو الذي فتحها، ووليها بعد انتهاء أمر الرّدة.

هـ- حضرموت: ووليها زياد بن لييد.

و- زبيد، ورقع: ووليها أبو موسى الأشعري.

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٥٦).

(٢) الولاية على البلدان (١/ ٥٧).

ز - خولان: ووليها يعلى بن أبي أمية.

ح - الجند: وأميرها معاذ بن جبل.

ط - نجران: ووليها جرير بن عبد الله البجلي.

ي - جرش: ووليها عبد الله بن ثور.

ك - البحرين: ووليها العلاء بن الحضرمي.

ل - العراق، والشام: كان أمراء الجند هم ولاة الأمر فيها.

م - عمان: ووليها حذيفة بن محصن.

ن - اليمامة: ووليها سليط بن قيس^(١).

٤ - موقف علي، والزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من خلافة الصديق:

وردت أخبار كثيرة في شأن تأخر علي عن مبايعة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكذا تأخر الزبير بن العوام، وجُلُّ هذه الأخبار ليس بصحيح إلا ما رواه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إِنَّ عَلِيًّا، والزبير، ومن كان معهما تخلّفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢)، فقد كان انشغال جماعة من المهاجرين، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب بأمر جهاز رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تغسيل، وتكفين، ويبدو ذلك واضحاً فيما رواه الصحابي سالم بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أَنَّ أبا بكر قال لأهل بيت النبي، وعلى رأسهم علي: عندكم صاحبكم، فأمرهم يغسلونه^(٣).

وقد بايع الزبير بن العوام، وعلي بن أبي طالب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أبا بكر في اليوم التالي لوفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يوم الثلاثاء، قال أبو سعيد الخدري: لَمَّا صعد أبو بكر المنبر، نظر في وجوه القوم، فلم ير الزبير بن العوام، فدعا بالزبير، فجاء، فقال له أبو بكر: يابن عمّة

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) الدول العربية الإسلامية، منصور الحاربي، ص (٩٦، ٩٧).

(٣) صحيح التوثيق في سيرة، وحياة الصديق، ص ٩٨.

رسول الله ﷺ، وحواريه، أتريد أن تشق عصا المسلمين؟! فقال الزبير: لا تثريب عليك يا خليفة رسول الله! فقام الزبير، فبايع أبا بكر. ثم نظر أبو بكر في وجوه القوم، فلم ير علي بن أبي طالب، فدعا بعلي، فجاء، فقال له أبو بكر: يابن عم رسول الله ﷺ، وختنه على ابنته، أتريد أن تشق عصا المسلمين؟!

فقال علي: لا تثريب عليك يا خليفة رسول الله ﷺ! فقام علي، فبايع أبا بكر^(١). ومما يدل على أهمية حديث أبي سعيد الخدري الصحيح: أن الإمام (مسلم ابن الحجاج) صاحب «الجامع الصحيح» - الذي هو أصح الكتب الحديثية بعد «صحيح البخاري» - ذهب إلى شيخه الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة - صاحب صحيح ابن خزيمة - فسأله عن هذا الحديث، فكتب له ابن خزيمة الحديث، وقرأه عليه، فقال مسلم لشيخه ابن خزيمة: هذا الحديث يساوي بدنة، فقال ابن خزيمة: هذا الحديث لا يساوي بدنة^(٢) فقط، إنه يساوي بدرة^(٣) مال.

وعلق على هذا الحديث ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - فقال: هذا إسنادٌ صحيحٌ محفوظٌ، وفيه فائدةٌ جليّةٌ، وهي مبايعة علي بن أبي طالبٍ إمّا في أوّل يومٍ، أو في اليوم الثاني من الوفاة، وهذا حقٌّ، فإنّ علي بن أبي طالبٍ لم يفارق الصديق في وقتٍ من الأوقات، ولم ينقطع في صلاةٍ من الصلوات خلفه^(٤). وفي رواية حبيب ابن أبي ثابت، حيث قال: كان علي بن أبي طالبٍ في بيته، فأتاه رجلٌ، فقال له: قد جلس أبو بكرٍ للبيعة، فخرج عليٌّ إلى المسجد في قميصٍ له، ما عليه إزارٌ، ولا رداءٌ، وهو متعجلٌ، كراهة أن يبطأ عن البيعة. فبايع أبا بكرٍ، ثمّ جلس، وبعث في رداءه، فجاءه به، فلبسه فوق قميصه^(٥).

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٤٩.

(٣) البدنة: ناقةٌ، أو بقرةٌ تنحر بمكة، ولعظمها، وضخامتها سميت بدنة.

(٤) البدرة: كيس فيه ألفٌ، أو عشرة الاف دينار، والمعنى: أنّه كنزٌ ثمين.

(٥) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٤٩.

وقد سأل عمرو بن حريث سعيد بن زيد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقال له: أشهدت وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: نعم. قال له: متى بويح أبو بكر؟ قال سعيد: يوم مات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كره المسلمون أن يبقوا بعض يوم، وليسوا في جماعة. قال: هل خالف أحدُ أبا بكر؟ قال سعيد: لا. لم يخالفه إلا مرتدًا، أو كاد أن يرتدَّ، وقد أنقذ الله الأنصار، فجمعهم عليه، وبايعوه.

قال: هل قعد أحدٌ من المهاجرين عن بيعته؟ قال سعيد: لا. لقد تتابع المهاجرون على بيعته^(١).

وأما عليٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فلم يفارق الصديق في وقتٍ من الأوقات، ولم ينقطع عنه في جماعة من الجماعات، وكان يشاركه في المشورة، وفي تدبير أمور المسلمين^(٢). ويرى ابن كثير، وكثيرٌ من أهل العلم: أنَّ عليًّا جدَّد بيعته بعد ستَّة أشهرٍ من البيعة الأولى، أي بعد وفاة فاطمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وجاءت في هذه البيعة رواياتٌ صحيحة^(٣).

والبعض يرى أنه تأخر في بيعته زمنًا، وبعض أهل العلم والتاريخ ينازعون في هذه المسألة وجاء في الصحيح من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يبايع أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا بعد ستة أشهر، وهذه على كل حال مسألة مختصة، فإنه ثبت في الصحيح وغيره أن عليًّا بايع بعد ذلك، وبيعة علي لأبي بكر متفق عليها^(٤) بين المسلمين من أهل السنة.

وقد صحَّ بما ذكرنا اجتماعهم على مبايعة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مع علي بن أبي طالب فلا يجوز لقائل أن يقول: كان باطن علي أو غيره بخلاف ظاهره. فكان علي أكبر محلا وأجل

(١) الخلفاء الراشدون للخالدي، ص ٥٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) شرح الطحاوية، يوسف الغفيص، (٢٨ / ٤).

قدراً من أن يقدم على هذا الأمر العظيم بغير حق أو يظهر للناس خلاف ما في ضميره ولو جاز هذا في اجتماعهم على خلافة أبي بكر لم يصح إجماع قط، والإجماع أحد حجج الشريعة ولا يجوز تعطيله بالتوهم. والذي روي أن علياً لم يبايع أبا بكر ستة أشهر ليس من قول عائشة إنما هو من قول الزهري فأدرجه بعض الرواة في الحديث عن عائشة في قصة فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحفظه معمر بن راشد فرواه مفصلاً وجعله من قول الزهري منقطعاً من الحديث. وقد جاء في الحديث الموصول عن أبي سعيد الخدري أن علياً بايعه في بيعة العامة بعد البيعة التي جرت في السقيفة ويحتمل أن علياً بايعه بيعة العامة، ثم شجر بين فاطمة وأبي بكر كلام بسبب الميراث إذ لم تسمع من رسول الله ﷺ في باب الميراث ما سمعه أبو بكر وغيره فكانت معذورة فيما طلبته وكان أبو بكر معذوراً فيما منع فتخلف علي عن حضور أبي بكر حتى توفيت، ثم كان منه تجديد البيعة والقيام بواجباتها^(١).

وكان عليٌّ في خلافة أبي بكرٍ عيبة نصيح له، مرجحاً لما فيه مصلحة للإسلام، والمسلمين على أي شيءٍ آخر، ومن الدلائل الساطعة على إخلاصه لأبي بكرٍ، ونصحهِ للإسلام، والمسلمين، وحرصه على الاحتفاظ ببقاء الخلافة، واجتماع شمل المسلمين ما جاء من موقفه من توجه أبي بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بنفسه إلى ذي القصة^(٢)، وعزمه على محاربة المرتدّين، وقيادته للتحركات العسكرية ضدّهم بنفسه، وما كان في ذلك من مخاطرة وخطرٍ على الوجود الإسلامي^(٣)، فعن ابن عمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قال: لما برز أبو بكرٍ إلى ذي القصة، واستوى على راحلته؛ أخذ عليٌّ بن أبي طالبٍ بزمامها، وقال: إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ! أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحدٍ: لَمْ سيفك، ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظامٌ أبداً! فرجع^(٤).

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة، ناصر بن علي الشيخ، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠م، (٥٥٣ / ٢)

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٤٩.

(٣) ذي القصة: من المدينة على مراحل.

(٤) المرتضى سيرة علي بن أبي طالب، ص ٩٧ للنّدوي.

فلو كان عليّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أعاده الله من ذلك - لم ينشرح صدره لأبي بكرٍ، وقد بايعه علي رغباً من نفسه، فقد كانت هذه فرصة ذهبية ينتهزها عليّ، فيترك أبا بكرٍ وشأنه، لعلّه يحدث به حدثٌ، فيستريح منه، ويصفو الجوُّ له، وإذا كان فوق ذلك - حاشاه عنه - من كراهته له، وحرصه على التخلص منه، أغرى به أحداً يفتاله، كما يفعله الرجال السياسيون بمنافسيهم، وأعدائهم^(١).

وقد توعد الله من يخالف الإجماع العذاب الشديد قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١١٥] الآية. والذين يدعون أنّ علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يبايع أبا بكر أصلاً وخالف إجماع الأمة فيه محجوجون بهذه الآية فهذا ممّا يدل على إيقاع الوعيد على علي إذا لم يبايع حقاً، وحاشاه من إيقاع الوعيد عليه ومخالفته سبيل المؤمنين، إذ مثل ذلك يرفع الأمانة والتقوى، فضلاً عن استحقاق الخلافة^(٢).

٥ - «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة»^(٣):

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنّ فاطمة، والعبّاس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أتيا أبا بكرٍ يلتمسان ميراثهما من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهما حينئذٍ يطلبان أرضيهما من فذك، وسهمهما من خير، فقال لهما أبو بكرٍ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا نورث، ما تركنا صدقة، إنّما يأكل آل محمدٍ من هذا المال»^(٤). وفي رواية: قال أبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ... لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعمل به إلا عملتُ به، فإنّي أخشى إن تركتُ شيئاً من أمره أن أزيغ^(٥).

وعن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: إنّ أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين توفي رسول الله

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٢) الحجج الباهرة، عبد الله منيب، مكتبة الإمام البخاري، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، (ص ١٦٥).

(٣) المرتضى سيرة علي بن أبي طالب، ص ٩٧.

(٤) البخاري، رقم (٦٧٢٥).

(٥) البخاري رقم (٦٧٢٦).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أردن أن يبعثن عثمان بن عفان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إلى أبي بكرٍ، يسألنه ميراثهنَّ، فقالت عائشة: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة»^(١). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال رسول الله ﷺ: «لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركتُ بعد نفقة نسائي ومؤونة عاملي فهو صدقة»^(٢).

وهذا ما فعله أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مع فاطمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - امتثالاً لقوله ﷺ، لذلك قال الصديق: لستُ تاركاً شيئاً كان رسول الله يعمل به إلا عملتُ به^(٣)، وقال: والله لا أَدعُ أمراً رأيتُ رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعتُه^(٤).

وقد تركت فاطمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - منازعته بعد احتجاجه بالحديث وبيانه لها، وفيه دليلٌ على قبولها الحق وإذعانها لقوله ﷺ، قال ابن قتيبة^(٥): وأما منازعة فاطمة أبا بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - في ميراث النبي ﷺ فليس بمنكرٍ؛ لأنَّها لم تعلم ما قاله رسول الله ﷺ، وظنَّت أنَّها ترثه، كما يرث الأولاد اباءهم، فلمَّا أخبرها بقوله، كَفَّت^(٦).

وقال القاضي عياض: وفي ترك فاطمة منازعة أبي بكرٍ بعد احتجاجه عليها بالحديث التسليم للإجماع على قضيةٍ، وأنَّها لمَّا بلغها الحديث وبيَّن لها التأويل؛ تركت رأيها، ثمَّ لم يكن منها، ولا من ذريتها بعد ذلك طلب ميراثٍ، ثمَّ وُلِّي عليُّ الخلافة فلم يعدل بها عمَّا فعله أبو بكرٍ، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٧).

وقال حماد بن إسحاق، والذي جاءت به الروايات الصحيحة فيما طلبه العباس، وفاطمة،

(١) مسلمٌ رقم (١٧٥٩) بصيغةٍ أخرى، وبالمعنى نفسه.

(٢) البخاريُّ، رقم (٦٧٣٠)؛ مسلمٌ رقم (١٧٥٨).

(٣) البخاريُّ رقم (٦٧٢٩).

(٤) مسلمٌ رقم (١٧٥٨).

(٥) البخاريُّ رقم (٦٧٢٦).

(٦) عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦ هـ (شذرات الذهب ٢ / ١٦٩).

(٧) تأويل مختلف الحديث، ص ١٨٩.

وعليّ لها، وأزواج النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبي بكرٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ جميعاً - إنّما هو الميراث، حتّى أخبرهم أبو بكرٍ، والأكابر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنّه قال: «لا نورث ما تركنا صدقةً». فقبلوا بذلك، وعلموا: أنّه الحقّ، ولو لم يقل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك كان لأبي بكرٍ، وعمر فيه الحظّ الوافر بميراث عائشة، وحفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فاثروا أمر الله، وأمر رسوله، ومنعوا عائشة، وحفصة، ومن سواهما ذلك، ولو كان رسول الله يورث، لكان لأبي بكرٍ وعمر أعظم الفخر به أن تكون ابنتاهما وارثتي محمّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وأما ما ذكره من الرواة في كون فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا غضبت، وهجرت الصديق حتى ماتت، فبعيد جدّاً لعدّة أدلّة منها:

أ- ما رواه البيهقيّ من طريق الشعبيّ: أنّ أبا بكرٍ عاد فاطمة، فقال لها عليّ: هذا أبو بكرٍ يستأذن عليك، فقالت: تحبّ أن آذن له؟ قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها فترداها؛ حتّى رضيت^(٢). وبهذا يزول الإشكال الوارد في تمادي فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لهجر أبي بكرٍ الصديق - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - كيف وهو القائل: والله لقرابة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أحبّ إليّ أن أصل من قرابتي^(٣)، وما فعل إلا امتثالاً، واتباعاً لأمر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٤).

ب - لقد انشغلت عن كلّ شيءٍ بحزنها لفقداء أكرم الخلق، وهي مصيبةٌ تزي بكلّ المصائب، كما أنّها انشغلت بمرضها الذي ألزمها الفراش عن أي مشاركةٍ في أيّ شأنٍ من الشؤون، فضلاً عن لقاء خليفة المسلمين المشغول - في كلّ لحظةٍ من لحظاته - بشؤون الأُمّة، وحروب الردّة، وغيرها، كما أنّها كانت تعلم بقرب لحوقها بأبيها، فقد أخبرها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنّها أوّل من يلحق به من أهله، ومن كان في مثل علمها، لا يخطر بباله أمور الدُّنيا، وما أحسن قول المهلّب؛ الذي نقله العيني: ولم يرو أحدٌ،

(١) شرح صحيح مسلم للنَّووي (٣١٨/١٢).

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٥٢-٢٥٣، وقال: إسناده جيّد قوي.

(٣) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص ١٠٩.

(٤) البخاري رقم (٤٠٣٦).

أنَّهما التقيا وامتنعا عن التسليم، وإنَّما لازمت بيتها، فعبر الراوي عن ذلك بالهجران^(١). هذا ومن الثَّابت تاريخياً، أنَّ أبا بكرٍ دام أيام خلافته يعطي أهل البيت حقَّهم في فء رسول الله ﷺ في المدينة، ومن أموال فذك، وخمس خبير، إلَّا أنَّه لم ينفذ فيها أحكام الميراث، عملاً بما سمعه من رسول الله ﷺ، وقد روي عن محمَّد بن عليِّ بن الحسين المشهور بمحمَّد الباقر، وعن زيد بن عليٍّ أنَّهما قالَا: إنَّه لم يكن من أبي بكرٍ - فيما يختص بإبائهم - شيءٌ من الجور، أو الشَّطط، أو ما يشكونه من الحيف، أو الظُّلم^(٢).

ولمَّا توفيت فاطمة - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - بعد رسول الله ﷺ بستَّة أشهرٍ على الأشهر، وقد كان صلوات الله وسلامه عليه عهد إليها: أنَّها أوَّل أهله لحوقاً به، وقال لها مع ذلك: «أما ترضين أن تكوني سيِّدة نساء أهل الجنَّة»^(٣). وذلك ليلة الثلاثاء لثلاثِ خلون من رمضان سنة إحدى عشرة، عن مالكٍ عن جعفر بن محمَّد، عن أبيه، عن جدِّه عليٍّ بن الحسين، قال: ماتت فاطمة بين المغرب والعشاء، فحضرها أبو بكر، وعمر، وعثمان، والزُّبير، وعبد الرحمن بن عوف، فلمَّا وُضعت ليُصلَّى عليها، قال عليٌّ: تقدِّم يا أبا بكرٍ! قال أبو بكر: وأنت شاهد يا أبا الحسن؟! قال: نعم تقدم، فوالله لا يصلِّي عليها غيرك، فصلَّى عليها أبو بكر، ودفنت ليلاً، وجاء في روايةٍ: صلَّى أبو بكرٍ الصِّديق على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فكبر عليها أربعاً^(٤). وفي روايةٍ مسلمٍ: صلَّى عليها عليٌّ بن أبي طالب^(٥).

هذا وقد كانت صلة سيِّدنا أبي بكرٍ الصِّديق خليفة رسول الله ﷺ بأعضاء أهل البيت صلةً ودِّيَّةً تقديريةً تليق به، وبهم، وقد كانت هذه المودَّة والثَّقة متبادلتين بين أبي

(١) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط، د. سالم السَّحيمي، ص ٢٩١.

(٢) أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ، ص ١٠٨.

(٣) المرتضى لأبي الحسن النُّدوي، ص (٩٠، ٩١) نقلاً عن نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد.

(٤) المرتضى للنُّدوي، ص ٩٤.

(٥) المرتضى للنُّدوي، ص ٩٤ نقلاً عن الطبقات الكبرى (٢٩/٧).



بكر، وعليّ، فقد سمّي عليّ أحد أولاده بأبي بكر^(١)، وقد احتضن عليّ ابن أبي بكر محمّداً بعد وفاة الصديق، وكفله بالرعاية، ورشّحه للولاية في خلافته حتى حسب عليه، وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله^(٢).

هذه بعض القضايا الدّاخلية؛ التي عالجها الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - والتزم فيها بمتابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلّ دقّة، وحرص، ف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن جميع الصّحابة الكرام الطّيبين الأبرار.

(١) مسلم رقم (١٧٥٩).

(٢) المرتضى للندوي، ص ٩٨.

الفصل الثالث: جيش أسامة وجهاد الصديق لأهل الردّة

المبحث الأول: جيش أسامة

أولاً: إنفاذ أبي بكر الصديق جيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

كانت الدولة الرومانية إحدى الدولتين المجاورتين للجزيرة العربية في عهد النبي ﷺ، وكانت تحتل أجزاء كبيرة من شمال الجزيرة، وكان أمراء تلك المناطق يُعيّنون من قبل الدولة الرومانية، وينصاعون لأوامرها.

بعث النبي الكريم ﷺ الدعوة، والبعوث إلى تلك المناطق، وأرسل دحية الكلبي بكتاب إلى هرقل ملك الروم يدعوه فيه إلى الإسلام^(١)، ولكنه عاند، وأخذته العزة بالإثم، وكانت خطة الرسول ﷺ واضحة المعالم لهز هيبة الروم في نفوس العرب، ومن ثم تنطلق جيوش المسلمين لفتح تلك الأراضي، فأرسل ﷺ في العام الثامن للهجرة جيشاً، واشتبك مع نصارى العرب والرّوم في معركة مؤتة، واستشهد قادة الجيش على التوالي: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي طالب، ثم عبد الله بن رواحة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وتولّى قيادة الجيش بعدهم سيف الله خالد بن الوليد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فعاد بالجيش إلى المدينة النبوية^(٢).

وفي العام التاسع للهجرة خرج رسول الله ﷺ بجيش عظيم إلى الشام ووصل إلى تبوك^(٣)، ولم يشتبك جيش المسلمين بالرّوم، ولا القبائل العربية، واثّر حكام المدن الصّالح على الجزية، وعاد الجيش إلى المدينة بعدما مكثوا عشرين ليلةً بتبوك^(٤)، وفي العام الحادي عشر ندب النبي ﷺ الناس لغزو الرّوم بالبلقاء، وفلسطين، وفيهم

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البخاري، كتاب الوحي، رقم (٧).

(٣) السيرة النبوية الصحيحة للعمري (٢/ ٤٦٧ - ٤٧٠).

(٤) مسلم، كتاب الفضائل (٤/ ٤٧٨٤).

كبار المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١)، قال الحافظ ابن حجر: جاء: أنه كان تجهيز جيش أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يوم السبت قبل موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيومين، وكان ابتداء ذلك قبل مرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فندب الناس لغزو الروم في آخر صفر، ودعا أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقال: «سر إلى موضع مقتل أبيك، فوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش»^(٢) وطقن بعض الناس في إمارة أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فردَّ عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «إن تطعنوا في إمارته؛ فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وإيم الله، إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحبَّ الناس إليَّ، وإن هذا لمن أحبَّ الناس إليَّ بعده»^(٣).

ومرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد البدء بتجهيز هذا الجيش بيومين، واشتدَّ وجعه - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فلم يخرج هذا الجيش وظلَّ معسكراً بالجُرف^(٤) ورجع إلى المدينة بعد وفاة النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٥)، وتغيَّرت الأحوال مع انتقال الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى رحمة ربه، وصارت كما تصف أم المؤمنين عائشة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بقولها: لما قبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتدَّت العرب قاطبةً، وأشرأب^(٦) النِّفاق. والله! قد نزل بي^(٧) ما لو نزل بالجمال الراسيات لهادها^(٨)، وصار أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنَّهم معزى^(٩) في حشٍّ^(١٠) في ليلة مطيرة بأرض مسبعة^(١١).

(١) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٣٥).

(٢) قصَّة بعث جيش أسامة، د. فضل إلهي، ص ٨.

(٣) فتح الباري (٨/ ١٥٢).

(٤) البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤٦٩).

(٥) الجرف: بالضم ثم السكون: موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام.

(٦) السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٥٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٦٨٥.

(٧) نزل (بي): وفي تاريخ خليفة بن خياط: نزل بأبي، ص ١٠٢.

(٨) لهادها: كسرهما. النِّهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٨٨).

(٩) لهادها: كسرهما. النِّهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ٢٨٨).

(١٠) معزى: المعز من الغنم خلاف الضأن، وهو اسم جنس.

(١١) حش: بستان.

ولما تولَّى الخلافة الصديق أمر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رجلاً في اليوم الثالث من مُتَوَفَّى رسول الله ﷺ أن ينادي في الناس: لِيَتَمَّ بعث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا لا يبقين بالمدينة أحدٌ من جند أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا خرج إلى عسكره بالجُرف^(١)،

ثمَّ قام في الناس فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: يا أيُّها الناس! إنَّما أنا مثلكم، وإنِّي لا أدري لعلَّكم تكلفوني ما كان رسول الله ﷺ يطيق، إنَّ الله اصطفى محمداً على العالمين، وعصمه من الآفات، وإنَّما أنا متَّبِعٌ، ولست بمبتدِعٍ، فإن استقمت، فتابعوني، وإن زغت، فقوِّموني، وإن رسول الله ﷺ قبض، وليس أحدٌ من هذه الأمَّة يطلبه بمظلمة - ضربة سوطٍ فما دونها - وإنَّ لي شيطاناً يعتريني، فإذا أتانني فاجتنبوني، لا أؤثر في أشعاركم، وأبشاركم، وأنتم تغدون وتروحون في أجلٍ قد غيَّب عنكم علمه، فإن استطعتم ألا يمضي هذا الأجل إلا وأنتم في عملٍ صالحٍ، فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهلِ اجالكُم من قبل أن تسلمكم اِجالكُم إلى انقطاع الأعمال، فإنَّ قوماً نسوا اِجالهم، وجعلوا أعمالهم لغيرهم، فيأياكم أن تكونوا أمثالهم، الجدَّ الجدَّ! والوحا الوحاً! والنَّجاء النَّجاء! فإن وراءكم طالباً حثيثاً مرَّه سريعٌ، احذروا الموت، واعتبروا بالآباء، والأبناء، والإخوان، ولا تغبطوا الأحياء إلا بما تغبطون به الأموات^(٢).

وقام أيضاً، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: إنَّ الله لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد به وجهه، فأريدوا الله بأعمالكم، فإنَّما أخلصتم لحين فقركم، وحاجتكم، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم، وتفكَّروا فيمن كان قبلكم، أين كانوا أمس، وأين هم اليوم؟ أين الجبَّارون الذين كان لهم ذكر القتال، والغلبة في مواطن الحروب؟ قد تضعضع بهم الدَّهر، وصاروا رميمًا، قد توالى عليهم العالات، الخبيثات للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، وأين الملوك الذين أثاروا الأرض، وعمروها؟ قد بعدوا، ونُسي ذكرهم، وصاروا كلاً شيءٍ، إلا أنَّ الله - عَزَّ وَجَلَّ - قد أبقي عليهم التَّبعات، وقطع عنهم الشَّهوات، ومضوا، والأعمال أعمالهم، والدُّنيا دنيا غيرهم،

(١) مسبعة: أرض ذات سباع، البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٩.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٧.

وَبُعِثْنَا خَلْقًا بَعْدَهُمْ، فَإِنْ نَحْنُ اعْتَبَرْنَا بِهِمْ، نَجُونَا، وَإِنْ انْحَدَرْنَا، كُنَّا مِثْلَهُمْ، أَيْنَ الْوَضَاءَةُ الْحَسَنَةُ وَجُوهُهُمُ الْمَعْجَبُونَ بِشَبَابِهِمْ؟ صَارُوا تَرَابًا، وَصَارَ مَا فَرَّطُوا فِيهِ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ. أَيْنَ الَّذِينَ بَنُوا الْمَدَائِنَ، وَحَصَّنُوها بِالْحَائِطِ، وَجَعَلُوا فِيهَا الْأَعَاجِيبَ؟ قَدْ تَرَكُوهَا لِمَنْ خَلْفَهُمْ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ خَاوِيَةٌ، وَهُمْ فِي ظِلْمَاتِ الْقُبُورِ: ﴿هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]. أَيْنَ مَنْ تَعْرِفُونَ مِنْ آبَائِكُمْ، وَإِخْوَانِكُمْ؟ قَدْ انْتَهَتْ بِهِمْ أَجَالُهُمْ، فُورِدُوا عَلَى مَا قَدَمُوا، فَحُلُّوا عَلَيْهِ، وَأَقَامُوا لِلشَّقَاوَةِ، أَوِ السَّعَادَةِ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَلَا إِنَّ اللَّهَ لَا شَرِيكَ لَهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ سَبَبٌ يُعْطِيهِ بِهِ خَيْرًا، وَلَا يَصْرِفُ بِهِ عَنْهُ سَوْءًا إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ. وَاعْلَمُوا أَنْكُمْ عِبِيدٌ مَدِينُونَ، وَأَنْ مَا عِنْدَهُ لَا يَدْرِكُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، أَمَا إِنْ لَأَحْذَكُمُ أَنْ تَحْسُرَ عَنْهُ النَّارُ، وَلَا تَبْعَدَ عَنْهُ الْجَنَّةُ^(١)!

وفي هذه الخطبة دروسٌ وعبرٌ منها:

(أ) بيان طبيعة خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه ليس خليفة عن الله، بل عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه بشرٌ غير معصومٍ، لا يطيق مقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنبوته، ورسالته، ولذلك فهو في سياسته متَّبِعٌ، ليس بمبتدِعٍ، أي: أنه على نهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحكم بالعدل، والإحسان^(٢).

(ب) بيان واجب الأمة في مراقبة الحاكم، لتعينه في إحسانه، وصلاحه، وتقوُّمه، وتنصحه في غير ذلك؛ ليظلَّ على الطريق متَّبِعًا، غير مبتدِعٍ.

(ج) بيان أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدل بين الأمة، فلم يظلم أحداً، ولذلك ليس لأحدٍ عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مظلمةٌ صغيرة، أو كبيرة، ومعنى هذا: أنه سوف يسير على نفس النهج، ينشر العدل، ويبتعد عن الظلم، ومن ثمَّ على الأمة أن تعينه على ذلك، وإذا راه أحدٌ غاضبًا فعليه أن يجتنبه حتى لا يؤذي أحداً، فيخالف ما راه في سياسة الاتِّبَاعِ^(٣) للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٧.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام ص ٤٢٣.

والشيطان الذي يعتري الصديق يعتري جميع بني آدم، فإنه ما من أحدٍ إلا وقد وكل الله به قرينه من الملائكة، وقرينه من الجن^(١).

والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يراسل الله؟ قال: «وإيائي إلا أن الله أعاني عليه، فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»^(٢).

وقد جاء في الحديث أيضاً: لما مرَّ به بعض الأنصار، وهو يتحدث مع صفية ليلاً، فقال ﷺ: «على رسلكما إنها صفية بنت حيي» فقالوا: سبحان الله يا رسول الله! قال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإنني خشيت أن يقذف الشيطان في قلوبكما سوءاً»^(٣). ومقصود الصديق بذلك: إنني لست معصوماً كالرسول ﷺ. وهذا حق^(٤).

وهذا القول من أبي بكر قد جعله بعض الرافضة من المطاعن عليه، فإنه لم يكن يستحق الخلافة، ولم يكن أهلاً لها أصلاً، والخليفة يجب أن يكمل رعيته، فكيف يطلب منهم أن يكملوه؟

والجواب من وجوه:

أولاً: أن الشيطان الذي يعتريه قد فسر بأنه يعرض لابن آدم عند الغضب، - كما مر - فخاف عند الغضب أن يعتدي على أحد من الرعية؛ فأمرهم بمجانبته عند الغضب.

ثانياً: إن الغضب يعتري بني آدم كلهم، حتى قال سيد ولد آدم: «اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر، وإنني اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه: أيما مؤمن آذيته أو سببته أو

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) أبو بكر الصديق، محمد مال الله، ص ١٩٦.

(٣) مسلم، رقم (٢٨١٤).

(٤) البخاري، كتاب بدء الخلق، رقم (٣٢٨١).

جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه إليك يوم القيام^(١).

ثالثاً: هناك عدة من الأحاديث أثبتت أنه ما من أحد من بني آدم إلا ومعه قرين من الجن، كما مر من حديث ابن مسعود، وفيه: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرين من الجن».

رابعاً: أن هذا الكلام من أبي بكر ما زاده عند الأمة إلا شرفاً وتعظيماً، ولم تعظم الأمة أحداً بعد نبينا كما عظمت الصديق، ولا أطاعت أحداً كما أطاعته، من غير رغبة أعطاهم إياها، ولا رهبة أخافهم بها، بل الذين بايعوا الرسول تحت الشجرة بايعوه طوعاً، مقرين بفضيلته واستحقاقه^(٢).

إن طعن الروافض على ما قاله أبو بكر كلام مكابرين بغضاء، فإن كلام الصديق هذا من أكبر فضائله وأدلّها على أنه لم يكن يريد علواً في الأرض ولا فساداً^(٣).

(د) حرص الصديق على وعظ المسلمين، وتذكيرهم بالموت، وحال الملوك الذين مضوا، وحثهم على العمل الصالح، ليستعدوا للقاء الله عز وجل، ويستقيموا في حياتهم على منهج الله تعالى^(٤)، وهنا نلاحظ توظيف الصديق لقوة البيان في خطبه، وفي حديثه للأمة، وقد كان رضي الله عنه أفصح خطباء النبي صلى الله عليه وسلم؛ يقول عنه الأستاذ العقاد: أمّا كلامه فهو من أرجح ما قيل في موازين الخلق، والحكمة، وله من مواقع الكلم أمثلة نادرة تدلّ الواحدة منها على ملكة صاحبها، فيغني القليل منها عن الكثير، كما تغني السنبلة الواحدة عن الجرين الحافل، فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه، وفكره حين تسمع كلمة، كقوله: (احرص على الموت، توهب لك الحياة) أو قوله: أصدق الصديق الأمانة، وأكذب الكذب الخيانة. الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. فهي كلمات تتسم بالقصد، والسداد، كما تتسم بالبلاغة، وحسن التعبير، وتنبئ عن المعدن الذي نجمت منه، فتغني عن علامات الثقيف؛

(١) صحيح مسلم، (٤ / ٢٠٠٨).

(٢) منهاج السنة النبوية، (٨ / ٢٧٧).

(٣) أبو بكر الصديق خليفة رسول الله، ص ٤٢٩.

(٤) أبو بكر الصديق، محمد مال الله، ص ١٩٧.

التي يستكثر منها المستأثرون؛ لأنَّ هذا الفهم الأصيل هو اللُّبَّاب المقصود من التثقيف، وكانت له ﷺ لباقةٌ في الخطاب إلى جانب البلاغة في الكلام^(١).

من الأمور التي يطعن بها الشيعة في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه تخلف عن جيش أسامة وقالوا قد لعن النبي ﷺ كل من تخلف عن ذاك الجيش، وأبو بكر منهم، فإنه بالاتفاق لم يكن بذلك الجيش^(٢). ويذكرون في كتبهم رواية موضوعة لا يعتمد عليها أهل السنة ولا يعولون عليها أصلاً يثبتون فيها لعن النبي لمن تخلف عن جيش أسامة ليصلوا إلى أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الذين دعا عليهم النبي ﷺ باللعنة. وهذه الرواية ذكرها أبو بكر الجوهري في كتاب السقيفة، ونصها: عن عبد الله بن عبد الرحمن أن رسول الله ﷺ في مرض موته أمر أسامة بن زيد بن حارثة على جيش فيه جلة المهاجرين والأنصار؛ منهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وأمره أن يغير على مؤتة وقام أسامة فتجهز للخروج، فلما أفاق رسول الله ﷺ سأل عن أسامة والبعث، فأخبر أنهم يتجهزون، فجعل يقول أنفذوا جيش أسامة لعن الله من تخلف عنه^(٣). قال ابن تيمية: أن هذا كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة بالنقل؛ فإن النبي ﷺ لم يقل: «لعن الله من تخلف عنه» «ولا نقل هذا بإسناد ثبت، بل ليس له إسناد في كتب أهل الحديث أصلاً، ولا امتنع أحد من أصحاب أسامة من الخروج معه لو خرج، بل كان أسامة هو الذي توقف في الخروج، لما خاف أن يموت النبي ﷺ، فقال: كيف أذهب وأنت هكذا، أسأل عنك الركبان؟ فأذن له النبي ﷺ في المقام^(٤). ولو عزم على أسامة في الذهاب لأطاعه، ولو ذهب أسامة لم يتخلف عنه أحد ممن كان معه، وقد ذهبوا

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٤٢٣.

(٢) منهاج السنة النبوية، (٦ / ٣١٩).

(٣) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ على الأمة، ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ، (١٠ / ٧١٨).

(٤) المنتقى من منهاج الاعتدال، الذهبي، (ص ٤٠٠).

جميعهم معه بعد موت النبي ﷺ، ولم يتخلف عنه أحد بغير إذنه^(١). وأبو بكر لم يذهب مع أسامة باتفاق أهل العلم ولم يأمره رسول الله بذلك، بل الثابت أنه أمره أن يصلي بالناس فترة مرضه، وكان النبي ﷺ أحرص الناس على تجهيز أسامة هو وأبو بكر، وجمهور الصحابة أشاروا عليه بأن لا يجزه خوفا عليهم من العدو، واختلفوا في ذلك قبل حياة النبي ﷺ وبعد وفاته^(٢)، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لا أحل راية عقدها النبي ﷺ. وكان إنفاذه من أعظم المصالح التي فعلها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أول خلافته^(٣).

ثانياً: ما تم بين الصديق والصحابة في أمر إنفاذ الجيش:

اقترح بعض الصحابة على الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بأن يبقى الجيش، فقالوا: إن هؤلاء جل المسلمين، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك، فليس ينبغي لك أن تفرق عنك جماعة المسلمين^(٤). وأرسل أسامة من معسكره من الجُرف عمر بن الخطاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - إلى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس، وقال: إن معي وجوه المسلمين، وجلَّتْهم، ولا امن على خليفة رسول الله ﷺ، وحرم رسول الله ﷺ، والمسلمين أن يختطفهم المشركون^(٥).

ولكن أبا بكر خالف ذلك، وأصرَّ على أن تستمر الحملة العسكرية في تحركها إلى الشام مهما كانت الظروف، والأحوال، والنتائج، ولم يسترح أسامة، وهيئة أركان حربه لإصرار الخليفة على رأيه، وقد بذلوا لدى الخليفة عدة محاولات؛ كي يقنعوه بصواب فكرتهم، وعندما كثر الإلحاح على أبي بكر دعا عامة المهاجرين، والأنصار إلى اجتماع في المجلس

(١) منهاج السنة النبوية، (٦ / ٣١٩).

(٢) أصول الدعوة وطرقها ٣ - جامعة المدينة، (ص ٢٢٨).

(٣) المصدر السابق نفسه، (٦ / ٣١٩).

(٤) عبقرية الصديق، ص ١٣٩.

(٥) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٠٨.

لمناقشة هذا الأمر معهم، وفي هذا الاجتماع دار نقاش طويلٌ متشعبٌ، وكان أشدَّ المعارضين لاستمرار حملة الشام عمر بن الخطاب، مبدئاً تخوُّفه الشديد على الخليفة، وحرَم رسول الله، وكلَّ المدينة، وأهلها من أن تقع في قبضة الأعراب المرتدِّين المشركين، وعندما أكثر وجوه الصَّحابة بهذا الصَّدَد على الخليفة، وخوَّفوه ممَّا ستعرض له المدينة من أخطارٍ جسامٍ إن هو أصرَّ على تحريك جيش أسامة لغزو الروم، أمر بفضِّ الاجتماع الأوَّل^(١) بعد أن سمع الصَّدِّيق لرأيهم، واستوضح منهم إن كان لأحدهم ما يقول، وذلك حتَّى يعطي إخوانه، وأهل الرأي كامل الفرصة لبيان رأيهم^(٢).

ثمَّ دعاهم إلى اجتماع عامٍّ آخر في المسجد، وفي هذا الاجتماع طلب من الصَّحابة أن ينسوا فكرة إلغاء مشروع وضعه رسولُ الله ﷺ بنفسه، وأبلغهم أنَّه سينفذ هذا المشروع، حتَّى لو تسبَّب تنفيذه في احتلال المدينة من قبل الأعراب المرتدِّين، فقد وقف خطيباً، وخاطب الصَّحابة^(٣) قائلاً: والذي نفسُ أبي بكرٍ بيده! لو ظننتُ أنَّ السَّباع تخطفني، لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله ﷺ، ولو لم يبقَ في القرى غيري، لأنفذته^(٤).

نعم لقد كان أبو بكرٍ مصيباً فيما عزم عليه من بعث أسامة مخالفاً بذلك رأي جميع المسلمين؛ لأنَّ في ذلك أمراً من رسول الله ﷺ، وقد أثبتت الأيَّام، والأحداث سلامة رأيه وصواب قراره؛ الذي اعترم تنفيذه^(٥).

وطلبت الأنصار رجلاً أقدم سنّاً من أسامة يتولَّى أمر الجيش، وأرسلوا عمر بن الخطاب ليحدِّث الصَّدِّيق في ذلك، فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فَإِنَّ الْأَنْصَارَ تَطْلُبُ رَجُلًا أَقْدَمَ سَنًا مِنْ أَسَامَةَ

(١) الكامل، لابن الأثير (٢/ ٢٢٦).

(٢) الشُّورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التَّميمي، ص (٨٢، ٨٣).

(٣) ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة، عدنان النُّحوي، ص ٢٥٧.

(٤) الشُّورى بين الأصالة والمعاصرة، ص ٨٣.

(٥) تاريخ الطبري (٤/ ٤٥).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوثب أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان جالساً فأخذ بلحية عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال له: ثقلتك أمك، وعدمتك يابن الخطاب! استعمله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتأمرني أن أنزعه^(١)! فخرج عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الناس، فقالوا: ما صنعت؟ فقال: امضوا ثقلتكم أمهاتكم! ما لقيت في سببكم من خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

ثم خرج أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حتى أتاهم، فأشخصهم، وشيعهم وهو ماشٍ وأسامة راكب. وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقال له أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والله لتركبَن، أو لأنزلن! فقال: والله لا تنزل، وواله لا أركب! وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة^(٣).

ثم قال الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لأسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رأيت أن تعينني بعمر، فافعل. فأذن له^(٤). ثم توجه الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إلى الجيش، فقال: يا أيها الناس! قفوا أوصيكم بعشرٍ فأحفظوها عني:

لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا^(٥)، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة، ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم في الصَّوامع، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قومٍ يأتونكم بانية فيها ألوان الطَّعام فإذا أكلتم منه شيئاً بعد شيءٍ فاذكروا اسم الله عليها. وتلقون أقواماً قد فحصوا^(٦) أو ساط رؤوسهم وتركوا

(١) الشُّورى بين الأصالة والمعاصرة، ص ٨٣.

(٢) تاريخ الطبري (٤٦/٤).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تاريخ الطبري (٤٦/٤).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) ولا تمثلوا: يقال: مثلت بالحيوان أمثل به تمثيلاً، إذا قطعت أطرافه، وشوَّهت به.

حولها مثل العصائب، فأخفقوهم^(١) بالسيف خفقا. اندفعوا باسم الله^(٢).

وأوصى الصديق أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أن يفعل ما أمر به النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلاً: اصنع ما أمرك به نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ابدأ ببلاد قضاة، ثم ائت ابل^(٣) ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تعجلن لما خلفت عن عهده^(٤). ومضى أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بجيشه، وانتهى إلى ما أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بث الخيول في قبائل قضاة، والغارة على ابل، فسلم وغنم^(٥)، وكان مسيره ذاهباً، وقافلاً أربعين يوماً^(٦).

وقدم بنعي رسول الله على هرقل، وإغارة أسامة في ناحية أرضه خبر واحد فقالت الروم: ما بال هؤلاء يموت صاحبهم، ثم أغاروا على أرضنا^(٧)؟ وقال العرب: لو لم يكن لهم قوة، لما أرسلوا هذا الجيش^(٨). فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه^(٩).

(١) فحوصوا: حلقوا.

(٢) فأخفقوهم: من أخفق فلاناً: أي: صرعه.

(٣) تاريخ الطبري (٤٦/٤).

(٤) ابل: منطقة في جنوب بلاد الأردن اليوم.

(٥) تاريخ الطبري (٤٧/٤).

(٦) تاريخ الطبري (٤٧/٤).

(٧) المصدر السابق (٤٧/٤)؛ تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٠١.

(٨) عهد الخلفاء الراشدين للذهبي، ص ٢٠.

(٩) قصة بعث أبي بكر جيش أسامة، د. فضل إلهي، ص ١٤.

ثالثاً: أهم الدروس، والعبر، والفوائد من إنفاذ الصديق جيش أسامة:

١- الأحوال تتغير، وتبدل، والشدائد لا تشغل أهل الإيمان عن أمر الدين:

ما أشدَّ التَّحوُّل، وأختره! وما أسرع كذلك! سبحان الله الذي يقلب الأحوال كيفما يشاء: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. تأتي وفود العرب مدعنةً منقادةً مطيعةً وبهذه الكثرة، حتى سمي العام التاسع عام الوفود، ثم تتقلب الأحوال، فيخشى من أن تأتي القبائل العربيَّة للإغارة على المدينة المنورة عاصمة الإسلام^(١)، بل قد جاءت للإغارة للقضاء - على حسب زعمها الباطل - على الإسلام والمسلمين^(٢)، ولا غرابة في هذا فإنَّ من سنن الله الثابتة في الأمم أنَّ أيامها لا تبقى ثابتةً على حالةٍ، بل تتغير، وتبدل، وقد أخبر بذلك الذي يقلب الأيام ويصرفها عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

قال الرَّازي في تفسيره: والمعنى: أنَّ أيام الدنيا هي دولٌ بين الناس، لا يدوم مسارُّها، ولا مدارها، فيومٌ يحصل فيه سرورٌ له، والغمُّ لعدوه، ويومٌ آخر بالعكس من ذلك، ولا يبقى شيءٌ من أحوالها، ولا يستقرُّ أثرٌ من أثارها^(٣).

وجاءت صيغة المضارعة نُدَاوِلُهَا للدلالة على تجدد سنَّة مداولة الأيام من الأمم، واستمرارها، وفي هذا قال القاضي أبو السعود: وصيغة المضارع الدَّالة على التَّجَدُّد، والاستمرار للإيدان بأنَّ تلك المداولة سنَّةٌ مسلوكةٌ بين الأمم قاطبةً، سابقتها، ولا حقتها^(٤) وقد قيل: الأَيَّامُ دولٌ، والحرب سجالٌ^(٥).

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ٢٢٧).

(٢) قصة بعث أبي بكر جيش أسامة، ص ١٨.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير الرازي (٩/ ١٥)؛ تفسير القرطبي (٤/ ٢١٨).

(٥) تفسير أبي السعود (٢/ ٨٩)؛ روح المعاني للألوسي (٤/ ٦٨).

وقال الشاعر:

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ^(١)
 فالصديق يعلم الأمة إذا نزلت بها الشدة، وألمت بها المصيبة أن تصبر، فالنصر مع الصبر،
 وألا تيأس ولا تقنط من رحمة الله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].
 وليتذكر المسلم دائماً: أنَّ الشدة مهما عظمت، والمصيبة مهما اشتدت، وكبرت فإنَّ من
 سنن الله الثابتة: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦] وإن المسلم لأمره
 عجيبٌ في هذه الدنيا، فقد بين رسول الله ﷺ ذلك في قوله: «عجباً لأمر المؤمن،
 إنَّ أمره كله خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن
 أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»^(٢).

ومن الدروس المستفادة من بعث جيش أسامة: أنَّ الشدائد، والمصائب مهما عظمت،
 وكبرت لا تشغل أهل الإيمان عن أمر الدين. إنَّ وفاة الرسول الكريم ﷺ لم تشغل
 الصديق عن أمر الدين. وأمر بيعت أسامة في ظروف كالحمة مظلمة بالنسبة للمسلمين ولكن
 ما تعلَّمه الصديق من رسول الله من الاهتمام بأمر الدين مقدَّم على كلِّ شيءٍ، وبقي هذا الأمر
 حتى ارتحل من هذه الدنيا^(٣).

٢- المسيرة الدعوية لا ترتبط بأحدٍ، ووجوب اتباع النبي ﷺ:

وفي قصَّة إنفاذ أبي بكر الصديق جيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما نجد أنَّ الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بينَ
 بقوله وعمله: أنَّ مسيرة الدعوة لم، ولن تتوقَّف حتى بموت سيِّد الخلق، وإمام الأنبياء، وقائد
 المرسلين ﷺ، وأثبت مواصلة العمل الدعوي بالمبادرة إلى إنفاذ هذا الجيش،
 حيث نادى مناديه في اليوم الثالث من وفاة رسول الله ﷺ بخروج جند أسامة -

(١) روح المعاني للألوسي (٤/ ٦٨).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٢١٨).

(٣) مسلم (٤/ ٢٢٩٥).

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إلى عسكره بالجُرف. وقد كان الصِّديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قبل ذلك قد بيَّن في خطبته التي ألقاها إثر بيعته عن عزمه على مواصلة بذل الجهود لخدمة هذا الدين^(١).

وقد جاء في رواية قوله: فاتقوا الله أيها الناس! واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم، فإنَّ دين الله قائمٌ، وإنَّ كلمة الله تامَّةٌ، وإنَّ الله ناصر من نصره، ومعزُّ دينه، والله! لا نبالي من أجلب علينا من خلق الله! إنَّ سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهد مَنْ خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يبغيَنَّ أحدٌ إلّا على نفسه^(٢).

ومن الدروس المستفادة من قصّة إنفاذ الصِّديق جيش أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنّه يجب على المسلمين اتِّباع أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السَّراء، والضَّرَّاء، فقد بيَّن الصِّديق من فعله: أنّه عاضٌّ على أوامر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنواجذ، ومنفَّذها مهما كثرت المخاوف، واشتدَّت المخاطر، وقد تجلّى هذا أثناء هذه القصّة عدّة مرّات، منها:

أ - لما طلب المسلمون إيقاف جيش أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نظراً لتغيُّر الأحوال، وتدهورها؛ أجاب - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بمقولته الخالدة: والذي نفس أبي بكر بيده! لو ظننت أن السَّباع تخطفني؛ لأنفذت بعث أسامة، كما أمر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو لم يبق في القرى غيري؛ لأنفذته^(٣).

ب - ولما استأذنه أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الرُّجوع بجيشه من الجُرف إلى المدينة خوفاً على الصِّديق وأهل المدينة؛ لم يأذن له، بل أبدى عزمه، وتصميمه على تنفيذ قضاء النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: لو خطفتني الكلاب، والدُّثَّاب، لم أردّ قضاءً قضى به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٤). وقَدَّم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بموقفه هذا صورةً تطبيقيةً لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ

(١) قصة بعث أبي بكر جيش أسامة، ص ٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧.

(٣) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢١٣-٢١٤.

(٤) تاريخ الطبري (٤٥/٤).

صَلَّ ضَلَّلاً مُبِينًا ﴿[الأحزاب: ٣٦].

ج - وعندما طُلب منه تعيين رجلٍ أقدم سنًا من أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أبدى غضبه الشديد على الفاروق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بسبب جرأته على نقل مثل هذا الاقتراح^(١)، وقال له: ثقلتك أمك، وعدمتك يابن الخطاب! استعمله رسول الله ﷺ، وتأمرني أن أنزعه^(٢).

د - وتجلَّى اهتمام أبي بكرٍ الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - باتباع النبي الكريم ﷺ كذلك في خروجه لتشجيع الجيش، ومشيه مع أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - الذي كان راكبًا^(٣). ولقد كان الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في عمله هذا مقتديًا بما فعله سيّد الأولين، والآخرين رسولنا الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه - مع معاذ بن جبل - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن^(٤)، فقد روى الإمام أحمد عن معاذ ابن جبل - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راكبًا، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته^(٥).

قال الشيخ أحمد البنا تعليقًا على هذا الحديث: وقد فعل ذلك أبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بأسامة بن زيد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - مع صغر سنّه، فقد عقد له النبي ﷺ قبل وفاته لواءً على جيشٍ ولم يسافر إلا بعد وفاة النبي ﷺ، فشيّعه أبو بكرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ماشيًا، وأسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راكبًا، اقتداءً بما فعله النبي ﷺ بمعاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٦).

هـ - وظهرت عناية أبي بكرٍ الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بالافتداء بالرسول الكريم ﷺ أيضًا في قيامه بتوصية الجيش عند توديعهم، حيث كان رسول الله ﷺ يوصي

(١) تاريخ الطبري (٤/٤٦).

(٢) قصّة بعث أبي بكرٍ جيش أسامة، ص ٣٠.

(٣) تاريخ الطبري (٤/٤٦).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) قصّة بعث أبي بكرٍ جيش أسامة، ص ٣٦.

(٦) الفتح الرّبّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشّيباني (٢١/٢١٥).

الجيوش عند توديعهم، ولم يقتصر الصديق على هذا، بل إن معظم ما جاء في وصيته لجيش أسامة كان مقتبساً من وصايا النبي ﷺ للجيش^(١).

ولم يقف أبو بكر الصديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في الاقتداء بالرسول الكريم ﷺ فيما قاله، وفعله فحسب، بل أمر أمير الجيش أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بتنفيذ أمره ﷺ، ونهاه عن التقصير فيه^(٢)، فقد قال له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ، إبدأ ببلاد قضاة، ثم إيت ابل، ولا تقصرن شيئاً من أمر رسول الله ﷺ^(٣). وفي رواية أخرى: أنه قال ﷺ: امض يا أسامة للوجه الذي أمرت به، ثم اغز حيث أمرك رسول الله ﷺ من ناحية فلسطين، وعلى أهل مؤتة فإن الله سيكفي ما تركت^(٤). وفي رواية عند ابن الأثير: وأوصى أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يفعل ما أمر به رسول الله ﷺ^(٥).

لقد انقاد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لرأي الصديق، وشرح الله صدورهم لذلك، وتمسكوا بأمر الرسول الكريم ﷺ وبذلوا المستطاع لتحقيقه، فنصرهم الله تعالى، ورزقهم الغنائم، وألقى في قلوب الناس هيبته، وكف عنهم كيد الأعداء، وشرهم^(٦).

وقد تحدّث توماس ارنولد عن بعث جيش أسامة، فقال: بعد وفاة محمد ﷺ أرسل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجيش الذي كان النبي ﷺ قد عزم على إرساله إلى مشارف الشام، وعلى الرغم من معارضة بعض المسلمين بسبب الحالة المضطربة في بلاد العرب إذ ذاك، فأسكت احتجاجهم بقوله: قضاء قضى به رسول الله، ولو ظننت: أن السباع تخطفني؛ لأنفذت جيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما أمر النبي ﷺ^(٧)... ثم قال: وكانت

(١) بلوغ الأماني (٢١/٢١٥).

(٢) قصّة بعث أبي بكر جيش أسامة، ص ٣٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تاريخ الطبري (٤/٤٧).

(٥) عهد الخلفاء الراشدين للذهبي، ص ٢٠.

(٦) الكامل (٢/٢٣٧).

(٧) قصّة بعث أبي بكر جيش أسامة، ص ٣٦.

هذه هي أولى تلك السلسلة الرائعة من الحملات التي اجتاحت العرب فيها سورية، وفارس، وأفريقية الشمالية، ففوضوا دولة فارس القديمة، وجردوا الإمبراطورية الرومانية من أجمل ولاياتها^(١).

وهكذا نرى: أن الله تعالى قد ربط نصر الأمة، وعزها باتباع النبي الكريم ﷺ، فمن أطاعه؛ فله النصر، والتّمكن، ومن عصاه؛ فله الدُّلّ، والهوان، فسُرّ حياة الأمة في طاعتها لرّبّها واقتدائها بسنّة نبيّها ﷺ^(٢).

٣- حدوث الخلاف بين المؤمنين، وردّه إلى الكتاب والسنة:

ومما نستفيد من هذه القصة: أنّه قد يحدث الخلاف بين المؤمنين الصادقين حول بعض الأمور، فقد اختلفت الآراء حول إنفاذ جيش أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في تلك الظروف الصّعبة، وقد تعدّدت الأقوال حول إمارته، ولم يجزهم الخلاف في الرأي إلى التّباغض، والتّشاجر، والتّدابر، والتّقاطع، والتّقاتل، ولم يصرّ أحدٌ على رأي بعد وضوح فساده، وبطلانه^(٣)، وعندما ردّ الصّدّيق الخلاف إلى ما ثبت من أمر النبي ﷺ ببعث أسامة، وبين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّه ما كان ليفرط فيما أمر به رسول الله ﷺ مهما تغيّرت الأحوال، وتبدّلت؛ استجاب بقیة الصحابة لحكم النبي ﷺ بعدما وضّحه لهم الصّدّيق، كما أنّه لا عبرة لرأي الأغلبية إذا كان مخالفاً للنصّ، فقد رأى عامّة الصحابة حبس جيش أسامة، وقالوا للصّدّيق: إنّ العرب قد انتقضت عليك، وإنّك لا تصنع بتفريق النّاس شيئاً^(٤)، فأولئك النّاس لم يكونوا كعامّة النّاس، بل كانوا من الصحابة الذين هم خير البشر، وجدوا على الأرض بعد الأنبياء والرّسل - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - لكنّ الصّدّيق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لم يستجب لهم مبيّناً: أنّ أمر رسول الله

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) قصة بعث أبي بكر جيش أسامة، ص ٣٩.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص (٤٧، ٤٨).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْلٌ وَأَكْرَمٌ، وَأَوْجِبٌ، وَالزُّمُّ مِنْ رَأْيِهِمْ كُلِّهِمْ^(١).

وقد تجلّت هذه الحقيقة في حادثة وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث رأى عامّة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وفيهم عمرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمّت، ورأى عددٌ قليلٌ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات، منهم أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقد رأينا أَنَّ أبا بكرٍ تمسّك بالنصّ، ويبيّن خطأ مَنْ قال: إِنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمّت^(٢).

قال الحافظ ابن حجر تعليقاً على رأي الأكثرين حول وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فيؤخذ منه: أَنَّ الأقل عدداً في الاجتهاد قد يصيب، ويخطئ الأكثرية فلا يتعيّن الترجيح بالأكثر^(٣). فخلاصة الكلام: أَنَّ ممّا نستقيده من قصّة تنفيذ الصّدّيق جيش أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ تأييد الكثرة لرأي ليس دليلاً على إصابته^(٤)، وممّا يستفاد من هذه القصّة انقياد المؤمنين، وخضوعهم للحقّ إذا اتّضح لهم، فعندما ذكّرهم الصّدّيق أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمر بتنفيذ جيش أسامة، وهو الذي عيّن أسامة أميراً على الجيش؛ إنقاد أولئك الأبرار للأمر النبويّ الكريم^(٥).

٤- جعل الدّعوة مقرونةً بالعمل، ومكانة الشّباب في خدمة الإسلام:

لَمَّا أَصَرَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى بقاء أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميراً للجيش حرصاً منه على التمسّك بما قرّره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لم يقتصر على الإصرار على إمارته فحسب، بل قدّم اعترافاً عملياً بإمارته، وقد تجلّى ذلك في أمرين:

أ- مشى أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو راكبٌ، وقد كان ابن عشرين سنة، أو

(١) تاريخ خليفة بن خياط، ص ١٠٠.

(٢) قصّة بعث أبي بكرٍ جيش أسامة، ص (٤٤، ٤٥).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) فتح الباري (١٤٦/٨).

(٥) قصّة بعث أبي بكرٍ جيش أسامة، ص ٤٦.

ثمانية عشرة سنة، وكان الصديق رضي الله عنه قد تجاوز ستين سنة من عمره، وأصرَّ على المشي مع أسامة رضي الله عنه كما أصرَّ على بقاء أسامة رضي الله عنه راكباً لما طلب منه أسامة رضي الله عنه إمّا أن يركب هو، أو يأذن له بالنزول، فلم يوافق رضي الله عنه لا على هذا، ولا على ذاك، وبهذا قدّم رضي الله عنه باستمراره في مشيه ذلك دعوةً لجيش أسامة رضي الله عنه إلى الاعتراف بإمرة أسامة رضي الله عنه ورفع الحرج عنها من صدورهم، وكأنَّ الصديق رضي الله عنه بمشيه ذلك يخاطب الجيش، فيقول:

انظروا أيُّها المسلمون! أنا أبو بكرٍ رغم كوني خليفة رسول الله ﷺ أمشي مع أسامة، وهو راكبٌ، إقراراً، وتقديراً لإمارته، حيث أمره رسولنا الكريم إمامنا الأعظم، وقائدنا الأعلى - صلوات ربِّي وسلامه عليه - فكيف تجرأتُم على الانتقاد على إمارته^(١)!

ب - كان أبو بكرٍ الصديق يرغب في بقاء عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بالمدينة نظراً لحاجته إليه. لكنّه لم يأمره بذلك، بل استأذن من أسامة رضي الله عنه في تركه إياه بالمدينة؛ إن رأى هو ذلك مناسباً، وبهذا قدّم الصديق رضي الله عنه صورةً تطبيقيةً أخرى لاعترافه، واحترامه لإمرة أسامة رضي الله عنه وفيها بلا شك دعوةً قويةً للجيش إلى الإقرار، والانقياد لإمارته.

وهذا الذي اهتمَّ به الصديق رضي الله عنه من جعل دعوته مقرونةً بالعمل هو الذي أمر به الإسلام، ووبَّخ الرُّبَّ - عَزَّوَجَلَّ - أولئك الذين يأمرون الناس بالبرِّ وينسون أنفسهم^(٢)، قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

ومما يتجلّى في هذه القصة كذلك منزلة الشباب العظيمة في خدمة الإسلام، فقد عيّن رسول الله ﷺ الشابَّ أسامة بن زيد رضي الله عنهما أميراً على الجيش المعدّ لقتال الروم - القوة العظيمة في زعم الناس في ذلك الوقت - وكان عمره آنذاك عشرين سنةً، أو ثمانية عشرة سنةً، وأقرّه أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه على منصبه رغم انتقاد الناس، وعاد الأمير

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٢.

(٢) قصة بعث أبي بكرٍ جيش أسامة، ص ٦٦.

الشَّابُّ بفضل الله تعالى من مهمته التي أسندت إليه غانماً ظافراً.

وفي هذا توجيهٌ للشَّباب في معرفة مكانتهم في خدمة الإسلام، ولو نعيد النَّظر في تاريخ الدعوة الإسلامية في المرحلتين المكيَّة، والمدنيَّة؛ لوجدنا شواهد كثيرةً تدلُّ على ما قام به شباب الإسلام في خدمة القرآن والسُّنة، وإدارة أمور الدَّولة، والمشاركة في الجهاد في سبيل الله، والدَّعوة إلى الله تعالى^(١).

٥ - صورة مشرقة من آداب الجهاد في الإسلام:

ومن فوائد قصَّة بعث أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجيش أسامة: أنها تقدِّم لنا صورةً مشرقةً للجهاد الإسلامي، وقد تجلَّت تلك الصُّورة في وصيَّة أبي بكرٍ الصِّديق لجيش أسامة عند توديعه إياهم، ولم يكن أبو بكرٍ الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصاياهِ للجيش إلا مستنّاً بسنَّة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يوصي الأمراء والجيش عند توديعهم^(٢)، ومن خلال فقرات الوصيَّة التي جاءت في البحث تظهر الغاية من حروب المسلمين، فهي دعوةٌ إلى الإسلام، فإذا ما رأت الشُّعوب جيشاً يلتزم بهذه الوصايا لا تملك إلا الدُّخول في دين الله طواعيةً، واختياراً:

أ- إنَّها ترى جيشاً لا يخون، بل يصون الأمانة، ويفي بالعهد، ولا يسرق مال الناس، أو يستولي عليه دون حقٍّ.

ب - جيشاً لا يمثل بالآدميين، بل هو يحسن القتل كما يحسن العفو، يحترم الطِّفل، ويرحمه، وير الشيخ الكبير، ويكرمهم، ويصون المرأة، ويحفظُها.

ج - جيشاً لا يبُدُّ ثروة البلاد المفتوحة، بل تراه يحفظ النَّخيل، ولا يحرقه، ولا يقطع شجرةً مثمرةً، ولا يدمِّر المزروعات، أو يخرب الحقول.

د - وإذا ما حافظ على الثَّروة الآدميَّة، فلم يغدر، ولم يخن، ولم يغلِّ، ولم يمثل بقتيل،

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) قصة بعث أبي بكرٍ لجيش أسامة، ص ٧٠.

ولم يقتل طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، وحافظ على الثروة الزراعيّة، فلم يعقر نخلاً، أو يقطع شجرة مثمرة، فهو يحافظ في نفس الوقت على الثروة الحيوانيّة، فلا يذبح شاة، أو بقرة، أو بغيراً إلا للأكل فقط، فهل تحافظ الجيوش على واحدٍ من هذه الأشياء؟ أم أنّها تحوّل البلاد التي تحاربها إلى خرابٍ ودمارٍ؟ والمثال قائمٌ في العدوان الشيوعي الملحد على أفغانستان^(١)، وفي البوسنة من قبل الصّرب، وكذلك كوسوفا، وفي كشمير من قبل الهند على المسلمين، وفي الشيشان، وفي فلسطين من قبل اليهود، ألا ما أعظم الفرق بين هداية الله، وضلال الملحدين!

هـ- وهو جيشٌ يحترم العقائد، والأديان السّابقة عليه، فيحافظ على العباد في صوامعهم، ولا يتعرّض لهم بأذى.. وتلك دعوةٌ عمليّة تدلُّ على سماحة الإسلام وعدالته، أمّا مَنْ يعيشون في الأرض فساداً، ويحاربون الحقّ؛ فجزاؤهم القتل؛ ليكونوا عبرةً لغيرهم^(٢).

وما جاء في وصيّة الصّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لم يكن كلماتٍ قيلت، بل طبّقها المسلمون في عصره، وبعده^(٣) وسنرى ذلك بإذن الله في فتوحاته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٦- أثر جيش أسامة على هبّة الدولة الإسلاميّة:

عاد جيش أسامة ظافراً غانماً بعدما أَرهَب الرُّوم حتى قال لهم هرقل وهو بحمص بعدما جمع بطارقه: هذا الذي حذرتكم، فأبيتم أن تقبلوا مني!! قد صارت العرب تأتي مسيرة شهرٍ، فتغير عليكم، ثمّ تخرج من ساعتها، ولم تكلّم. قال أخوه (يناف): فابعث رباطاً (جنداً مرابطين) تكون بالبلقاء. فبعث رباطاً، واستعمل عليهم رجلاً من أصحابه، فلم يزل مقيماً حتى تقدّمت البعوث إلى الشّام في خلافة أبي بكرٍ، وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا^(٤) ثمّ تعجّب الرُّوم

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٨٠.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٦٩.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) قصة بعث أبي بكرٍ جيش أسامة، ص ٨١.

بأجمعهم، وقالوا: ما بال هؤلاء يموت صاحبهم، ثم أغاروا على أرضنا؟^(١).

وأصاب القبائل العربيّة في الشمال الرّعب، والفرّج من سطوة الدّولة^(٢)، وعندما بلغ جيش أسامة الظّافر إلى المدينة تلقّاه أبو بكر، وكان قد خرج في جماعةٍ من كبار المهاجرين، والأنصار للقائه، وكلّهم خرج، وتهلّل، وتلقّاه أهل المدينة بالإعجاب، والشّور، والتّقدير، ودخل أسامة المدينة، وقصد مسجد رسول الله ﷺ وصلى الله شكراً على ما أنعم به عليه وعلى المسلمين.

وكان لهذه الغزوة أثرٌ في حياة المسلمين، وفي حياة العرب؛ الذين فكّروا في الثورة عليهم، وفي حياة الرّوم؛ الذين تمتدّ بلادهم على حدودهم^(٣)، فقد فعل هذا الجيش بسمّته ما لم يفعل به قوّته، وعدده، فأحجم من المرتدّين من أقدم، وتفرّق من اجتمع، وهادن المسلمين مَنْ أوشك أن ينقلب عليهم، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرّجال، وقبل أن يصنع السّلاح^(٤).

حقّاً لقد كان إرسال هذا الجيش نعمةً على المسلمين؛ إذ أمست جبهة الرّدّة في الشّمال أضعف الجبهات، ولعلّ من اثار هذا: أنّ هذه الجبهة في وقت الفتوحات كان كسرّها أهون على المسلمين من كسر جبهة العدو في العراق، كلّ ذلك يؤكّد: أنّ أبا بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان في الأزمات من بين جميع الباحثين عن الحلّ أثقبتهم نظراً، وأعمقتهم فهماً^(٥).

(١) المغازي (٣/ ١١٢٤)؛ طبقات ابن سعد (٢/ ١٩٢).

(٢) تهذيب ابن عساكر (١/ ١٢٥)؛ تاريخ ابن عساكر (١/ ٤٣٩).

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٧٠.

(٤) الصّدّيق لهيكل باشا، ص ١٠٧.

(٥) عبقرية الصّدّيق للعقاد، ص ١٠٩.

المبحث الثاني: جهاد الصديق لأهل الردة

أولاً: الردة اصطلاحاً وبعض الآيات التي حذرت من الردة:

١ - الردة اصطلاحاً:

عرّف النووي الردّة بأنها: قطع الإسلام بنيّة، أو قول كفرٍ، أو فعل سواءً قاله استهزاءً، أو عناداً، أو اعتقاداً، فمن نفى الصّانع، أو الرُّسل، أو كذّب رسولاً، أو حلّل محرّماً بالإجماع كالزّنى وعكسه، أو نفى وجوب مجمعٍ عليه، أو عكسه، أو عزم على الكفر، أو تردّد فيه؛ كفر^(١).

وعرّفها عيسى المالكي: بأنّها كفر المسلم بقولٍ صريحٍ، أو لفظٍ يقتديه، أو بفعلٍ يتضمّنه^(٢).
وعرّف ابن حزم الظاهري (المرتد) بأنّه: كلٌّ من صحّ عنه: أنّه كان مسلماً متبرئاً من كلّ دينٍ حاشا دين الإسلام، ثمّ ثبت عنه: أنّه ارتدّ عن الإسلام، وخرج إلى دينٍ كتابيّ، أو غير كتابيّ، أو إلى غير دينٍ^(٣).

وعرّفه عثمان الحنبلي: بأنّه لغة: الرّاجع. قال تعالى: ﴿وَلَا تُزْنُوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، وشرعاً: من أتى بما يوجب الكفر بعد إسلامه^(٤).

ومعنى هذا: أنّ المرتدّ هو كلّ من أنكر معلوماً من الدّين بالضرورة، كالصّلاة، والزّكاة، والنّبوة، وموالاته المؤمنين، أو أتى بقولٍ، أو فعلٍ لا يحتمل تأويلاً غير الكفر^(٥).

٢ - بعض الآيات التي أشارت إلى المرتدين:

(١) محمد الزهري المغراوي، شرح على متن المنهاج، لشرف الدين النووي، ص ٥١٩.

(٢) أحكام المرتد للسامرائي، ص ٤٤.

(٣) المحلى (١١/ ١٨٨). المطبعة المنيرية ١٣٥٢هـ.

(٤) أحكام المرتد للسامرائي، ص ٤٤.

(٥) حركة الردة، د. علي العتوم، ص ١٨. وهو من أهم المراجع في بحث الردة.

أطلق الله - سبحانه، وتعالى - على المرتدين عن دينه عباراتٍ تشير إلى هذا المرتكب الوبيء الذي تحولوا إليه، منها الردّة على الأعقاب، أو على الأدبار، والانقلاب بالخسران، وطمس الوجوه، وردّ الأيدي في الأفواه، والارتياب، والتردد، واسوداد الوجوه^(١).

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

وجاء في تفسير ابن كثير: وطمسها: أن تعمى، وقوله: فنردّها على أدبارها: أي: نجعل لأحدهم عينين من قفاه، وهذا أبلغ في العقوبة والنكال، وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق، وردّهم إلى الباطل، ورجوعهم عن المحجّة البيضاء إلى سبيل الضلالة يهرعون، ويمشون القهقري على أدبارهم^(٢).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ بَيَضُ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

نقل القرطبي فيها جملة آراء، منها رأي قتادة: أنّها في المرتدين، كما نقل حديثاً لأبي هريرة وقال عنه: يستشهد به بأنّ الآية في الردّة؛ وهو: «يرد على الحوض يوم القيامة رهطٌ من أصحابي، فيجلون عن الحوض، فأقول: يا رب أصحابي! فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدّوا على أدبارهم القهقري»^(٣).

وفي رواية أخرى لهذا الحديث: عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجاء

(١) حركة الردّة، ص ١٨.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٠٧، ٥٠٨) طبعة الحلبي.

(٣) تفسير القرطبي (٤/ ١٦٦).

برجالٍ من أمتي، فيؤخذ بهم ذات اليمين، فأقول: أصحابي! فيقال: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] فيقال: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم^(١).

ثانياً: أسباب الردّة، وأصنافها:

إِنَّ الرَّدَّةَ الَّتِي قَامَتْ بِهَا الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهَا أَسْبَابٌ، مِنْهَا: الصَّدَمَةُ بِمَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَقَّةُ الدِّينِ، وَالشُّقْمُ فِي فَهْمِ نَصُوصِهِ، وَالْحَنِينُ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُقَارَفَةُ مَوْبَقَاتِهَا، وَالتَّفَلُّعُ مِنَ النُّظَامِ، وَالْخُرُوجُ عَلَى السُّلْطَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْعَصِيَّةُ الْقَبْلِيَّةُ، وَالطَّمْعُ فِي الْمَلِكِ، وَالتَّكْسُّبُ بِالدِّينِ، وَالشُّحُّ بِالْمَالِ، وَالتَّحَاسُدُ، وَالْمُؤَثَّرَاتُ الْأُجْنِبِيَّةُ^(٢) كدور اليهود، والنصارى، والمجوس، وستحدث عن كلِّ سببٍ بإذن الله تعالى.

وَأَمَّا أَصْنَافُهَا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَ الْإِسْلَامَ جَمْلَةً وَتَفْصِيلاً، وَعَادَ إِلَى الْوَثْنِيَّةِ، وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ. وَمِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى النُّبُوَّةَ. وَمِنْهُمْ مَنْ دَعَا إِلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِفُ بِالْإِسْلَامِ، وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَلَكِنَّهُ امْتَنَعَ عَنْ آدَاءِ زَكَاتِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ شَمِتَ بِمَوْتِ الرَّسُولِ، وَعَادَ أَدْرَاجَهُ يَمَارِسُ عَادَاتِهِ الْجَاهِلِيَّةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحَيَّرَ، وَتَرَدَّدَ، وَانْتَظَرَ عَلَى مَنْ تَكُونُ الدَّبْرَةُ، وَكُلُّ ذَلِكَ وَضَحَهُ عُلَمَاءُ الْفَقْهِ، وَالسِّيَرِ^(٣).

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: إِنَّ أَهْلَ الرَّدَّةِ كَانُوا صِنْفَيْنِ: صِنْفًا ارْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ، وَنَابَذُوا الْمِلَّةَ، وَعَادُوا إِلَى الْكُفْرِ، وَهَذِهِ الْفِرْقَةُ طَائِفَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَصْحَابُ مَسِيلِمَةَ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ، وَغَيْرِهِمْ؛ الَّذِينَ صَدَّقُوهُ عَلَى دَعْوَاهُ فِي النُّبُوَّةِ، وَأَصْحَابُ الْأَسْوَدِ الْعَنْسِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ مُسْتَجِيبِي مَنْ أَهْلَ الْيَمَنِ، وَغَيْرِهِمْ، وَهَذِهِ الْفِرْقَةُ بِأَسْرَها مَنكَرَةُ نُبُوَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، مَدَّعِيَةُ النُّبُوَّةِ غَيْرِهِ، وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى ارْتَدُّوا عَنِ الدِّينِ، وَأَنكَرُوا الشَّرَائِعَ، وَتَرَكَوا الصَّلَاةَ، وَالزَّكَاةَ، وَغَيْرَهَا

(١) الخصائص الكبرى للسيوطي (٢/٤٥٦).

(٢) حركة الردّة، علي العتوم، ص ١١٠ إلى ١٣٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠.

من أمور الدين وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية، والصَّنَف الآخر هم الذين فَرَّقوا بين الصَّلَاة، والزَّكَاة، فأقَرُّوا بالصَّلَاة، وأنكروا فرض الزَّكَاة، ووجوب أدائها إلى الإمام^(١)... وقد كان ضمن هؤلاء المانعين للزَّكَاة من كان يسمح (بها) ولا يمنعها إلا أن رؤساءهم صدُّوهم عن ذلك، وقبضوا أيديهم على ذلك^(٢).

وقريبٌ من هذا التَّقْسِيم لأصناف المرتدِّين تقسيم القاضي عياض، غير أنَّهم عنده ثلاثة: صنفٌ عادوا إلى عبادة الأوثان، وصنفٌ تبعوا مسيلمة، والأسود العنسى، وكلُّ منهما ادَّعى النبوة، وصنفٌ ثالثٌ استمروا على الإسلام، ولكنَّهم جحدوا الزَّكَاة، وأولوا بأنَّها خاصَّةٌ بزمَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

وقسَّم الدكتور عبد الرحمن بن صالح المحمود المرتدِّين إلى أربعة أصنافٍ: صنفٌ عادوا إلى عبادة الأوثان، والأصنام، وصنفٌ اتَّبَعُوا المتنبِّئين الكذبة: الأسود العنسى، ومسيلمة، وسجاح، وصنفٌ أنكروا وجوب الزَّكَاة، وجحدوها، وصنفٌ لم ينكروا وجوبها ولكنَّهم أبوا أن يدفعوها إلى أبي بكرٍ^(٤).

ثالثاً: الردَّة أواخر عصر النبوة:

بدأت هذه الردَّة منذ العام التَّاسِع للهجرة المسمَّى بعام الوفود، وهو العام الَّذي أسلمت فيه الجزيرة العربيَّة قيادها للرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممثِّلَةً بزعمائها الَّذين قدموا عليه من أصقاعها المختلفة، وكانت حركة الردَّة في هذه الأثناء لَمَّا تستعلنُ بشكل واسع، حتَّى إذا كان أواخر العام العاشر الهجري، وهو عام حَجَّة الوداع الَّتِي حَجَّهَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونزل به وجعه الَّذي مات فيه، وتسامع بذلك النَّاس، بدأ الجمر يتملَمَل من تحت الرَّمَاد، وأخذت الأفاعي تطلُّ برؤوسها من جحورها، وتجزُّ الأَذيَن في قلوبهم مرضٌ على الخروج،

(١) شرح صحيح مسلم للنَّوَوِي (١/٢٠٣).

(٢) المصدر السَّابِق نفسه (١/٢٠٣).

(٣) فتح الباري (١٢/٢٧٦).

(٤) الحكم بغير ما أنزل الله، د. عبد الرحمن المحمود، ص ٢٣٩.

فوثب الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة، وطليحة الأسدي في بلاد قومه^(١). ولما كان أخطر متمردين على الإسلام، وهما الأسود العنسي، ومسيلمة، وأنهما مصممان - كما يبدو - على المضي في طريق ردتهما قُدماً دون أن يفكرا في الرجوع، وأنهما مشايعان بقوى غفيرة، وإمكانيات وفيرة؛ فقد أرى الله نبيه ﷺ من أمرهما ما تقرُّ به عينه، ومن ثم ما تقرُّ به عيون أمته من بعده، فقد قال يوماً وهو يخطب الناس على منبره: «أيها الناس! إنني قد أريت ليلة القدر، ثم أنسيتها، ورأيت أن في ذراعي سوارين من ذهب فكرهتهما، فنفختهما، فطارا، فأولتهما هذين الكذابين: صاحب اليمن، وصاحب اليمامة»^(٢).

وقد فسّر أهل العلم بالتعبير هذه الرؤيا على هذه الصورة، فقالوا: إن نفخه ﷺ لهما يدل على أنهما يقتلان بريحه؛ لأنه لا يغزوهما بنفسه، وإن وصفه لهما بأنهما من ذهب دلالة على كذبهما؛ لأن شأنهما زخرف، وتمويه، كما دل لفظ السوارين على أنهما ملكان لأن الأساورة هم الملوك، ودلا بكونهما يحيطان باليدين أن أمرهما يشتد على المسلمين فترة لكون السوار مضيقاً على الذراع^(٣).

وعبر الدكتور علي العتوم بقوله: ... بأن طيرانهما بالنفخ دلالة على ضعف كيدهما مهما تاخم، فشأنهما زبد لا بد أن يؤول إلى جفاء، ما دام هذا الكيد مستمداً من الشيطان، فهو واهن لا محالة؛ إذ أقل هجمة مركزة في سبيل الله تحيلهما أثراً بعد عين، وكونهما من ذهب دلالة على أنهما يقصدان من عملهما الدنيا، لأن الذهب رمز لحطامها؛ الذي يسعى المغترُّون بها خلفه، وأنهما سواران إشارة إلى محاولتهما الإطاحة بكيان المسلمين عن طريق الإحاطة بهم من كل جانب تماماً، كما يحيط السوار بالمعصم^(٤).

رابعاً: موقف الصديق من المرتدين:

(١) حركة الردة، ص ٦٥.

(٢) مسند أحمد رقم (١١٤٠٧) باقي مسند المكثرين، وأصله في الصحيحين.

(٣) حركة الردة، ص ٦٦.

(٤) حركة الردة للعتوم، ص ٦٦.

لَمَّا كَانَتِ الرَّدَّةُ؛ قَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي النَّاسِ خَطِيْبًا، فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَى فَكْفَى، وَأَعْطَى فَأَغْنَى، إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْعِلْمَ شَرِيْدًا، وَالْإِسْلَامَ غَرِيْبًا طَرِيْدًا، قَدْ رَثَّ حَبْلَهُ، وَخَلَقَ ثَوْبَهُ، وَضَلَّ أَهْلَهُ مِنْهُ، وَمَقَّتَ اللَّهُ أَهْلَ الْكِتَابِ، فَلَا يُعْطِيهِمْ خَيْرًا خَيْرَ الْخَيْرِ عِنْدَهُمْ، وَلَا يُصْرِفُ عَنْهُمْ شَرًّا لِّشَرِّ عِنْدَهُمْ، وَقَدْ غَيَّرُوا كِتَابَهُمْ، وَأَلْحَقُوا فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، وَالْعَرَبُ الْآمِنُونَ يُحْسِبُونَ: أَنَّهُمْ فِي مَنَعَةٍ مِنَ اللَّهِ؛ لَا يَعْبُدُونَهُ، وَلَا يَدْعُونَهُ، فَأَجْهَدَهُمْ عِيْشًا، وَأَظْلَمَهُمْ دِيْنًا، فِي ظُلْفٍ مِنَ الْأَرْضِ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ السَّحَابِ، فَخَتَمَهُمُ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ، وَجَعَلَهُمُ الْأُمَّةَ الْوَسْطَى، وَنَصَرَهُمُ بِمَنْ أَتَبَعَهُمْ، وَنَصَرَهُمُ عَلَى غَيْرِهِمْ، حَتَّى قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهٗ، فَكَرَبَ مِنْهُمْ الشَّيْطَانُ مَرْكَبَهُ، الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ بِأَيْدِيهِمْ، وَبَغَى هَلَكَتَهُمْ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

إِنَّ مَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْعَرَبِ قَدْ مَنَعُوا شَتَاهُمْ، وَبَعِيرَهُمْ، وَلَمْ يَكُونُوا فِي دِيْنِهِمْ - وَإِنْ رَجَعُوا إِلَيْهِ - أَزْهَدَ مِنْهُمْ يَوْمَهُمْ هَذَا، وَلَمْ تَكُونُوا فِي دِيْنِكُمْ أَقْوَى مِنْكُمْ يَوْمَكُمْ هَذَا عَلَى مَا قَدْ تَقَدَّمَ مِنْ بَرَكَةِ نَبِيِّكُمْ، وَقَدْ وَكَّلَكُمْ إِلَى الْمَوْلَى الْكَافِي الَّذِي وَجَدَهُ ضَالًّا فَهْدَاهُ، وَعَائِلًا فَأَغْنَاهُ: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وَاللَّهُ! لَا أَدْعُ أَنْ أَقَاتِلَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَنْجِزَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَيُوفِيَ لَنَا عَهْدَهُ، وَيُقْتَلَ مَنْ قُتِلَ مِنْ شَهِيدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيَبْقَى مَنْ بَقِيَ مِنْ خَلِيفَتِهِ، وَذُرِّيَّتِهِ فِي أَرْضِهِ، قَضَاءُ اللَّهِ الْحَقُّ، وَقَوْلُهُ الَّذِي لَا خَلْفَ لَهُ: ^(١) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥].

وَقَدْ أَشَارَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ، وَمِنْهُمْ عُمَرُ عَلَى الصَّدِّيقِ بِأَنْ يَتْرَكَ مَانِعِي الزَّكَاةِ، وَتَأْلَفَهُمْ حَتَّى يَتِمَّكَنَ الْإِيْمَانُ مِنْ قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ هُمْ بَعْدَ ذَلِكَ يَزْكُونُ، فَامْتَنَعَ الصَّدِّيقُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَبَاهُ ^(٢).

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣١٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، (٦/٣١٥).

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا تُوْفِيَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكُفِرَ مَنْ كُفِرَ من العرب، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كيف تقاتل النَّاسُ وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أمرت أن أقاتل النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فمن قالها؛ فقد عصم منِّي ماله، ونفسه إِلَّا بِحَقِّهِ»^(١). وحسابه على الله». فقال: والله! لا قاتلن مَنْ فَرَّقَ بين الصَّلَاةِ والزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، والله! لو منعوني عَنَاقًا^(٢) كانوا يُؤْذُونَهَا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لقاتلتهم على منعها. وفي رواية: والله! لو منعوني عَقَالًا^(٣)، كانوا يُؤْذُونَهُ إلى رسول الله؛ لقاتلتهم على منعه. قال عمر: فوالله ما هو إِلَّا أن قد شرح الله صدر أبي بكرٍ، فعرفت: أَنَّهُ الحَقُّ^(٤)، ثُمَّ قال عمر بعد ذلك: والله! لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأُمَّة جميعاً في قتال أهل الرِّدَّةِ^(٥).

وبذلك يكون أبو بكر قد كشف لعمر - وهو يناقشه - عن ناحية فقهية مهمة أجلاها له، وكانت قد غابت عنه، وهي أَنَّ جملةً جاءت في الحديث النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ الَّذِي احتجَّ به عمر هي الدَّلِيلُ على وجوب محاربة مَنْ منع الزَّكَاةَ حَتَّى وَإِنْ نطق بالشَّهادتين، وهي قول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا قَالُوها؛ عصموا مِنِّي دماءهم، وأموالهم إِلَّا بِحَقِّهَا»^(٦).

وفعلاً كان رأي أبي بكرٍ في حرب المرتدِّين رأياً ملهماً، وهو الرَّأْيُ الَّذِي تمليه طبيعة الموقف لمصلحة الإسلام والمسلمين، وأيُّ موقفٍ غيره سيكون فيه الفشل، والضَّياع والهزيمة والرُّجوع إلى الجاهلية، ولولا الله، ثُمَّ هذا القرار الحاسم من أبي بكرٍ لتغيَّر وجه التاريخ، وتحوَّلت مسيرته، ورجعت عقارب السَّاعة إلى الوراء، ولعادة الجاهلية تعيث في

(١) بحقه: حق الإسلام.

(٢) عناقاً: الأثنى من ولد المعز.

(٣) عقالاً: هو الحبل الذي يعقل به البعير.

(٤) البخاري، رقم (١٤٠٠)؛ مسلم، رقم (٢٠).

(٥) حروب الرِّدَّة، محمد أحمد باشميل، ص ٢٤.

(٦) مسلم رقم ٢١.

الأرض فساداً^(١).

لقد تجلّى فهمه الدقيق للإسلام، وشدة غيرته على هذا الدين، وبقاؤه على ما كان عليه في عهد نبيّه في الكلمة التي فاض بها لسانه، ونطق بها جنانه، وهي الكلمة التي تساوي خطبةً بليغةً طويلةً، وكتاباً حافلاً، وهي قوله عندما امتنع كثيرٌ من قبائل العرب أن يدفعوا الزكاة إلى بيت المال، أو منعوها مطلقاً، وأنكروا فرضيّتها: قد انقطع الوحي، وتمّ الدين، أينقص وأنا حيٌّ؟!^(٢) وفي رواية: قال عمر: فقلت: يا خليفة رسول الله تألف الناس، وارفق بهم. فقال لي: أجبارٌ في الجاهلية خوارٌ في الإسلام، قد انقطع الوحي، وتمّ الدين، أينقص وأنا حيٌّ؟!^(٣).

لقد سمع أبو بكر وجهات نظر الصحابة في حرب المرتدين، وما عزم على خوض الحرب إلا بعد أن سمع وجهات النظر بوضوح، إلا أنه كان سريع القرار، حاسم الرأي، فلم يتردد لحظة واحدة بعد ظهور الصواب له، وعدم التردد كان سمة بارزة من سمات أبي بكر. هذا الخليفة العظيم. في حياته كلها^(٤)، ولقد اقتنع المسلمون بصحة رأيه، ورجعوا إلى قوله، واستصوبوه.

لقد كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبعد الصحابة نظراً، وأحقّهم فهماً، وأربطهم جناناً في هذه الطامة العظيمة^(٥)، والمفاجأة المذهلة، ومن هنا أتى قول سعيد بن المسيّب - رَحِمَهُ اللَّهُ: وكان أفقهم - يعني: الصحابة - وأمثلهم رأياً^(٦).

إنّ أبا بكر كان أنفذ بصيرةً من جميع مَنْ حوله؛ لأنّه فهم بإيمانه الذي فاق إيمانهم جميعاً: أنّ الزكاة لا تنفصل عن الشهادتين، فمن أقرّ الله بالوحدانية لا بدّ أن يقرّر له بما يفرض من حقّ

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص ٨٦.

(٢) المرتضى لأبي الحسن الندوي، ص ٧٠.

(٣) مشكاة المصابيح، كتاب المناقب رقم (٦٠٣٤).

(٤) الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص ٨٧.

(٥) حركة الردّة للعتوم، ص ١٦٥.

(٦) البدء والتأريخ للمقدسي (١٥٣/٥).

في ماله، الذي هو مال الله أصلاً، وأنَّ «لا إله إلا الله» بغير زكاةٍ لا وزن لها في حياة الشعوب، وأنَّ السيف يشرع دفاعاً عن أدائها تماماً، كما يشرع دفاعاً عن «لا إله إلا الله» تماماً، هذه كتلك. هذا هو الإسلام وغير هذا ليس من الإسلام^(١)، فقد توعدَّ الله أولئك الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

كان موقف أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي لا هوادة فيه، ولا مساومة فيه، ولا تنازل، موقفاً ملهماً من الله، يرجع إليه الفضل الأكبر - بعد الله تعالى - في سلامة هذا الدين، وبقائه على نقائه، وصفائه، وأصالته، وقد أقرَّ الجميع، وشهد التاريخ بأنَّ أبا بكرٍ قد وقف في مواجهة الردة الطاغية، ومحاولة نقض عرا الإسلام عروةً عروةً، موقف الأنبياء والرسل في عصورهم، وهذه خلافة النبوة التي أدَّى أبو بكر حقها، واستحقَّ بها ثناء المسلمين، ودعاءهم إلى أن يرث الله الأرض، وأهلها^(٢).

وهنا يقول بعض أهل الشبه من الرافضة وغيرهم: قد هدر أبو بكر دماء المسلمين واستباح أعراضهم بقتاله لهم، فإنَّهم كانوا قد منعوا الزكاة بعد موت النبي تأولاً، وليس إنكاراً لها، فهم مسلمون معصومو الدم، وقد استباح أبو بكر هذه الحرمة.

والجواب عن هذه الشبهة يكون أولاً بمعرفة أحوال مانعي الزكاة في عهد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

الصنف الأول:

ارتدوا عن الدين وناذبوا الملة وعادوا إلى الكفر، وهم الذين عناهم أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «وكفر من كفر من العرب»، وسمَّاهم الصحابة - رضى الله عنهم - كفاراً، وهذه الفرقة

(١) حياة أبي بكر، محمود شلبي، ص ١٢٣.

(٢) المرتضى للندوي، ص ٧٢.

طائفتان إحداهما:

أ. أصحاب مسيلمة من بني حنيفة وغيرهم الذين صدّقوه على دعواه في النبوة وأصحاب الأسود العنسي، وهؤلاء بأسرهم منكرون لنبوة النبي محمد ﷺ، فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه.

ب. الطائفة الأخرى:

ارتدوا عن الدين وأنكروا الشرائع وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين، وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية.

الصنف الثاني:

هم الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة، فأقروا بالصلاة وأنكروا وجوب أداء الزكاة إلى الإمام بعد وفاة النبي محمد ﷺ، وقد كانوا في ذلك متأولين أن قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103]، فكانوا يرونه خطاباً خاصاً للنبي ﷺ دون غيره، وأنه مقيد بشرائط لا توجد فيمن سواه؛ وذلك أنه ليس لاحد من التطهير والتزكية والصلاة على المتصدق ما للنبي ﷺ وفي أمر هؤلاء عرض الخلاف ووقعت الشبهة لعمر رضي الله عنه.

فأما هؤلاء فهم مقيمون على أصل الدين وهم أهل بغي، ولم يسمّوا على الانفراد كفاراً، وإن كانت الردة قد أضيفت إليهم لمشاركتهم المرتدين في منع بعض ما منعه من حقوق الدين؛ وذلك أن الردة اسم لغوي وكل من انصرف عن أمر كان مقبلاً إليه فقد ارتد عنه.

قال الخطابي: واتفقوا على أن أبا بكر -رضي الله عنه- لم يسب ذراري مانعي الزكاة، إلا في شيء روي عن بعض الروافض ولا يعتد بخلافهم. وهم قوم لا خلاق لهم في الدين، وإنما رأس مالهم البهت والتكذيب والوقعة في السلف^(١). فالفتنة المنكرة للزكاة وغيرها

(١) الأربعون العقديّة (٢/ ٦٩١).

من الدّين مرتدون متفق على قتالهم، أما الفئة الثانية فهم مسلمون بغاة امتنعوا من أداء شيء متعين عليهم، فقتلوا على منعه، وكونهم امتنعوا منها واستعدوا للقتال فهم أهل بغى^(١). وقاتل أهل البغي متفق عليه، قال تعالى: ﴿وَلِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفْتِنُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، فظهر أن كل الفئات التي امتنعت عن الزكاة في عهد أبي بكر لقتالها وجه شرعي يبيّن.

وقد اتفقت الأمة على قتال الطوائف الممتنعة عن أداء الزكاة، ونقل الإجماع: ابن عبد البر قال: «اتفق أبو بكر وعمر وسائر الصحابة على قتالهم، حتى يؤدوا حق الله في الزكاة» والقاضي عياض قال: «أجمع المسلمون على قتل الممتنع عن أداء الصلاة والزكاة مكذباً بهما» وابن قدامة قال: «أجمع الصحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - على قتال مانعي الزكاة» وابن تيمية قال: «يجب بإجماع المسلمين قتال كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، مثل: الطائفة الممتنعة عن إقامة الصلوات الخمس، أو عن أداء الزكاة»^(٢).

خامساً: خطة الصدّيق لحماية المدينة:

انصرفت وفود القبائل المانعة للزكاة من المدينة بعدما رأت عزم الصدّيق، وحزمه، وقد خرجت بأمرين:

أ- أن قضية منع الزكاة لا تقبل المفاوضة، وأن حكم الإسلام فيها واضح، ولذلك لا أمل في تنازل خليفة المسلمين عن عزمه، ورأيه، وخاصّة بعدما أيده المسلمون، وثبتوا على رأيه بعد وضوح الرؤية، وظهور الدليل.

ب- أنه لا بدّ من اغتنام فرصة ضعف المسلمين - كما يظنون - وقلة عددهم لهجوم كاسح

(١) شرح سنن أبي داود، عبد المحسن العباد البدر، (١٨٦ / ٩).

(٢) موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي، مجموعة من المؤلفين، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ، (٥ / ٥٩٢).

على المدينة يسقط الحكم الإسلامي فيها، ويقضي على هذا الدين^(١).

قرأ الصديق في وجوه القوم ما فيها من الغدر، ورأى فيها الخسة، وتفرّس فيها اللؤم، فقال لأصحابه: إنّ الأرض كافرة، وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لا تدرون ألياً تؤتون، أم نهاراً! وأدناهم منكم على بريد، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم، ونودعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم، فاستعدّوا، وأعدّوا^(٢). ووضع الصديق خطته على الوجه التالي:

أ- ألزم أهل المدينة بالمبيت في المسجد؛ حتى يكونوا على أكمل استعدادٍ للدفاع.

ب - نظّم الحرس الذين يقومون على أنقاب المدينة، ويبيتون حولها، حتى يدفعوا أي غارة قادمة.

ج - عيّن على الحرس أمراءهم: عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(٣).

د - وبعث أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مَنْ كان حوله من القبائل التي ثبتت على الإسلام مِنْ أسلم، وغفار، ومزينة، وأشجع، وجهينة، وكعب يأمرهم بجهاد أهل الردّة، فاستجابوا له حتّى امتلأت المدينة المنورة بهم، وكانت معهم الخيل، والجمال التي وضعوها تحت تصرف الصديق^(٤)، وممّا يدلّ على كثرة رجال هذه القبائل، وكبر حجم دعمها للصديق: أنّ جهينة وحدها قدمت إلى الصديق في أربعمئة من رجالها، ومعهم الظّهر والخيل، وساق عمرو بن مرة الجهنيّ مئة بعيرٍ لإعانة المسلمين، فوزّعها أبو بكر في النّاس^(٥).

هو ومن ابتعد من المرتدّين عن المدينة، وأبطأ خطره؛ حاربه بالكتب، يبعث بها إلى الولاة المسلمين في أقاليمهم، كما كان رسول الله يفعل، يحرّضهم على النّهوض لقتال المرتدّين،

(١) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ٦٤).

(٣) المصدر السّابق نفسه.

(٤) الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردّة، د. مهدي رزق الله، ص ٢١.

(٥) الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردّة، د. مهدي رزق الله، ص ٢١.

ويأمر النَّاس للقيام معهم في هذا الأمر. ومن أمثلة ذلك رسالته لأهل اليمن حيث المرتدة من جنود الأسود العنسي؛ التي قال فيها: (أَمَّا بعد فأعيونا الأبناء على مَنْ ناوأهم، وحوطوهم، واسمعوا من فيروز، وجدُّوا معه، فَإِنِّي قد وليته)^(١).

وقد أثمرت هذه الرسالة وقام المسلمون من أبناء الفرس بزعامة فيروز يعاونهم إخوانهم من العرب بشن غارة شعواء على العصاة المارقين حتَّى ردَّ الله كيدهم إلى نحورهم، وعادت اليمن بالتدرُّج إلى جادة الحق^(٢).

و- وأَمَّا مَنْ قرب منهم من المدينة، واشتدَّ خطره، كبني عبس، وذبيان؛ فَإِنَّه لم ير بدًّا من محاربتهم على الرَّغم من الظُّروف القاسية؛ التي كانت تعيشها مدينة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان أن أوى الذَّراري والعيال إلى الحصون والشُّعاب محافظةً عليهم من غدر المرتدِّين^(٣)، واستعدَّ للنزال بنفسه، ورجاله.

سادساً: فشل أهل الردة في غزو المدينة:

بعد ثلاثة أيام من رجوع وفود المرتدِّين طرقت بعض قبائل أسد، وغطفان، وعبس، وذبيان، وبكر المدينة ليلاً، وخلفوا بعضهم بذي حسي؛ ليكونوا لهم رداءً، وانتبه حرس الأنقاب لذلك، وأرسلوا للصَّديق بالخبر، فأرسل إليهم أن الزموا أماكنكم! ففعلوا، وخرج في أهل المسجد على النَّواضح إليهم، فانفش العدو، فاتبعهم المسلمون على إبلهم، حتَّى بلغوا ذا حُسى، فخرج عليهم الرَّدءُ بأنحاء^(٤) قد نفخوها وجعلوا فيها الحبال ثم ده دھوها^(٥) بأرجلهم في وجوه الإبل فتضهده كلُّ نحي في طوله^(٦)، فنفرت إبل المسلمين وهم عليها.

(١) البدء والتاريخ للمقدسي (١٥٧/٥).

(٢) حركة الردة للعتوم، ص ٧٤.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الأنحاء: هي القرب.

(٥) أي: دفعوها.

(٦) أي: في حبله.

ولا تنفر الإبل في شيء نفارها من الأنحاء - فعاجت بهم ما يملكونها حتى دخلت بهم المدينة فلم يُصْرَع مسلّم ولم يُصَب^(١).

وقال عبد الله الليثي: وكانت بنو عبد مناة من المرتدة - وهم بنو ذبيان - في ذلك الأمر بذي القصة، وبذي حُسى:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر
يورثها بكرة إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر
فهلا ردّدتُم وفدنا بزمانه وهلاّ خشيتُم حس راغية البكر
وان التي سألوكم فمنعتم كالتمر أو أحلى إليّ من التمر^(٢)

فظنّ القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى أهل ذي القصة بالخبر، فقدموا عليهم اعتماداً في الذين أخبروهم، وهم لا يشعرون لأمر الله عَزَّجَلَّ الذي أراد، وأحبّ أن يبلغه فيهم، فبات أبو بكر ليلته يتهياً، فعبى الناس، ثم خرج على تعبئة من أعجاز ليلته يمشي، وعلى ميمته النعمان بن مقرن، وعلى ميسرته عبد الله بن مقرن، وعلى الساقة سويد بن مقرن معه الركاب، فما طلع الفجر إلا وهم والعدو في صعيد واحد، فما سمعوا للمسلمين همساً، ولا حساً حتى وضعوا فيهم السيوف، فاقتتلوا أعجاز ليلتهم، فما ذرّ قرن الشمس حتى ولّوهم الأدبار، وغلبوهم على عامة ظهرهم، وقُتل حبال - أخو طليحة الأسديّ.

واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة - وكان أوّل الفتح - ووضع بها النعمان بن مقرن في عددٍ، ورجع إلى المدينة، فذلّ بها المشركون، فوثب بنو ذبيان، وعبس على من فيهم من المسلمين، فقتلوهم كلّ قتلة، وفعل من وراءهم فعلهم، وعزّ المسلمون بوقعة أبي بكر، وحلف أبو بكر ليقتلنّ في المشركين كل قتلة، وليقتلنّ في كلّ قبيلة بمن قتلوا من المسلمين،

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٥.

(٢) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٥.



وزيادة^(١).

وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي:

غَدَاةَ سَعَى أَبُوبَكْرٍ إِلَيْهِمْ كَمَا يَسْعَى لِمَوْتِهِ جَلالُ
أَرَا حَ عَلَى نَوَاهِقِهَا عَلِيًّا وَمَجَّ لَهُنَّ مُهْجَتُهُ حِبَالُ^(٢)

(١) المصدر السابق نفسه (٦٦/٤).

(٢) المصدر السابق نفسه.

وصمَّ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أن ينتقم للمسلمين الشهداء، وأن يؤدَّب هؤلاء الحاقدين، ونفذ قسمه، وازداد المسلمون في بقيَّة القبائل ثباتاً على دينهم، وازداد المشركون ذلاً، وضعفًا، وهوانًا، وبدأت صدقات القبائل تفد على المدينة، فطرت المدينة صدقات نفر: صفوان، ثم الزبرقان، ثم عدي، صفوان في أوَّل الليل، والثاني في وسطه، والثالث^(١) في آخره.

وفي ليلة واحدة أثرت المدينة بأموال زكاة ستَّة أحياء من العرب، وكان كلُّما طلع على المدينة أحد جباة الزكاة قال الناس: (نذير) فيقول أبو بكر: (بل بشير) وإذا بالقادم يحمل معه صدقات قومه، فيقول النَّاسُ لأبي بكر: طالما بشرتنا بالخير^(٢). وخلال هذه البشائر التي تحمل معها بعض العزاء، وشيئًا من الثراء عاد أسامة بن زيد بجيشه ظافراً، وصنع كلَّ ما كان الرسول قد أمر به، وما أوصاه به أبو بكر الصَّدِيق^(٣)، فاستخلف أبو بكر على المدينة، وقال له ولجندته: أريحوا، وأريحوا ظهركم^(٤).

ثمَّ خرج في الذين خرجوا إلى ذي القصة، والذين كانوا على الأنقاب على ذلك الظهر، فقال له المسلمون: نشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرِّض نفسك! فَإِنَّكَ إِنْ تُصَبَّ؛ لم يكن للنَّاس نظامٌ، ومقامك أشدُّ على العدو، فابعث رجلاً، فَإِنْ أُصِيبَ أَمَّرتَ آخر فقال: لا والله لا أفعل! ولأواسيكم بنفسي^(٥).

لقد ظهر معدن الصَّدِيقِ النَّفِيس في محنة الردَّة على أجلى صورةٍ للقائد المؤمن الذي يفتدي قومه بنفسه، فالقائد في فهم المسلمين قدوةً في أعماله، فكان من اثار هذه السَّياسة الصَّدِيقِيَّة أن تقوى المسلمون، وتشجَّعوا الحرب عدوهم، واستجابوا للتطبيق الأوامر الصَّادرة

(١) المصدر السابق نفسه (٤/٦٦).

(٢) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٧.

(٣) الصَّدِيقُ أوَّل الخلفاء للشرقاوي، ص ٥٧.

(٤) الصَّدِيقُ أوَّل الخلفاء للشرقاوي، ص ٥٧.

(٥) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٣٧.

إليهم من القيادة^(١).

لقد خرج الصديق في تعبته إلى ذي حُسى، وذي القصّة، والنُعمان، وعبد الله، وسويد على ما كانوا عليه، حتّى نزل على أهل الريدة بالأبرق، فهزم الله الحارث، وعوفاً، وأخذ الحطيئة أسيراً، فطارت عبس، وبنو بكر، وأقام أبو بكر على الأبرق أياماً، وقد غلب بنو ذبيان على البلاد. وقال: حرامٌ على ذبيان أن يملكوا هذه البلاد؛ إذ غنمناها الله وأجلاها، فلمّا غلب أهل الردّة، ودخلوا في الباب الذي خرجوا منه، وسامح النَّاس، جاءت بنو ثعلبة، وهي كانت منازلهم لينزلوها، فمنعوا منها، فأتوه في المدينة فقالوا: علام نمنع من نزول بلادنا! فقال: كذبتُم، ليست لكم ببلاد، ولكنّها مَوْهبي، وتَقْذِي^(٢)، ولم يُعتبهم^(٣)، وحمى الأبرق لخيول المسلمين، وأرعى سائر بلاد الريدة النَّاس على بني ثعلبة، ثمّ حماها كلّها لصدقات المسلمين لقتالٍ كان وقع بين النَّاس وأصحاب الصّدقات، وقال في يوم الأبرق زياد بن حنظلة:

ويومًا بالأبارق قد شهدنا على ذبيان يلتهبُ التهابا

أتيناهم بداهيةٍ نُسوف^(٤) مع الصديق إذ ترك العتابا^(٥)

وهكذا يتعلّم المسلمون من سيرة الصديق بأنّه لم يكن يرغب بنفسه عن نفوس أتباعه بأيّ أمر من أمور الدُّنيا، وما اضطربت أمور المسلمين منذ زمنٍ إلّا لأنّهم كانوا يعدُّون الرئاسة وسيلةً للجاه، وباباً لجلب المغانم، ودرء المغارم، وإثارةً للعافية، والاكتفاء بالكلمات تزجى من وراء أجهزة الإعلام، أو من غرف العمليّات، بعيداً عن المشاركة مشاركةً حقيقيّة

(١) المصدر السابق نفسه (٦٧/٤).

(٢) حركة الردّة للعتوم، ص ٣١٩.

(٣) النقذ: ما استنقذ من الأعداء.

(٤) أي: لم يُقلّ عثرتهم.

(٥) أي: ترك إقالة العثرات؛ تاريخ تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٧.

في قضايا الأمة المختلفة^(١).

إِنَّ خُرُوجَ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْجِهَادِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتتَالِيَةٍ يُعْتَبَرُ تَضَحِيَّةً كَبِيرَةً، وَفِدَائِيَّةً عَالِيَةً، فَقَدْ نَاشَدَهُ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَبْقَى فِي الْمَدِينَةِ، وَيَبْعَثَ قَائِدًا عَلَى الْجَيْشِ، فَلَمْ يَقْبَلْ، بَلْ قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ! وَلَا وَأَسِيكُم بِنَفْسِي. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَوَاضُعِهِ الْجَمِّ، وَاهْتِمَامِهِ الْكَبِيرِ بِمَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ، وَتَجَرُّدِهِ مِنْ حِظِّ النَّفْسِ، وَقَدْ أَصْبَحَ بِذَلِكَ قُدُوةً صَالِحَةً لْغَيْرِهِ، فَلَا شَكَّ: أَنَّ خُرُوجَهُ لِلْجِهَادِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتتَالِيَاتٍ، وَهُوَ الشَّيْخُ الَّذِي بَلَغَ السَّتِينَ مِنْ عَمَرِهِ، قَدْ أُعْطِيَ بَقِيَّةَ الصَّحَابَةِ دَفْعَاتٍ قَوِيَّةً مِنَ النَّشَاطِ، وَالْحَيَوِيَّةِ^(٢).

وَقَدْ جَاءَ فِي إِحْدَى هَذِهِ الرُّوَايَاتِ: أَنَّ ضَرَارَ بْنَ الْأَزُورِ حِينَمَا أَخْبَرَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ بِخَبَرِ تَجَمُّعِ طَلِيحَةِ الْأَسَدِيِّ؛ قَالَ: فَمَا رَأَيْتَ أَحَدًا - لَيْسَ رَسُولَ اللَّهِ - أَمْلَأَ بِحَرْبٍ شَعْوَاءَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ، فَجَعَلْنَا نَخْبِرُهُ، وَلَكِنَّهُمَا نَخْبِرُ بَمَا لَهُ، وَلَا عَلَيْهِ^(٣).

وَهَذَا وَصْفٌ بَلِغٌ لَمَّا كَانَ يَتَّصِفُ بِهِ أَبُو بَكْرٍ مِنَ الْيَقِينِ الرَّاسِخِ، وَالثَّقَةِ التَّامَّةِ بِوَعْدِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَوْلِيَائِهِ بِالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالتَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ، فَأَبُو بَكْرٍ لَمْ يَفُقْ الصَّحَابَةَ بِكَبِيرِ عَمَلٍ، وَإِنَّمَا فَاقَهُمْ بِحَيَازَةِ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْيَقِينِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ^(٤).

وَقَدْ رَوَى أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ: لَقَدْ نَزَلَ بِكَ مَا لَوْ نَزَلَ بِالْجِبَالِ؛ لِهَادِهَا، وَبِالْبَحَارِ لَغَادِهَا، وَمَا نَرَاكَ ضَعُفْتَ. فَقَالَ: مَا دَخَلَ قَلْبِي رَعْبٌ بَعْدَ لَيْلَةِ الْغَارِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَأَى حَزَنِي؛ قَالَ: لَا عَلَيْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ! فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِهَذَا الْأَمْرِ بِالتَّمَامِ^(٥)، فَكَانَ لَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَعَ الشَّجَاعَةِ الطَّبِيعِيَّةِ شَجَاعَةٌ دِينِيَّةٌ، وَقُوَّةٌ يَقِينِيَّةٌ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَثَقَّةٌ بِأَنَّ اللَّهَ يَنْصُرُهُ، وَالْمُؤْمِنِينَ، وَهَذِهِ الشَّجَاعَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا لِمَنْ كَانَ قَوِي الْقَلْبِ، وَتَزِيدُ بِزِيَادَةِ الْإِيمَانِ، وَتَنْقُصُ بِنَقْصِ

(١) حركة الردة للعتوم، ص ٣٢١

(٢) التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ لِلْحَمِيدِيِّ مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ج ٩، ص ٤٨.

(٣) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسُهُ.

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسُهُ.

(٥) أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ وَأَحْقَهُمْ بِالْخِلَافَةِ، ص ٦٩ وَلَيْسَ هَذَا بِلَفْظِ نَبَوِي.

ذلك، فقد كان الصديق أقوى قلباً من جميع الصحابة لا يقاربه في ذلك أحد منهم^(١).

المبحث الثالث: الهجوم الشامل على المرتدين

تمهيد:

تعددت وسائل، وطرق التصدي والمواجهة للمرتدين، فكان للثابتين دورٌ في مواجهة أقوامهم، فوقف بعض الثابتين في وجه أقوامهم واعظين لهم، ومنبّهين إلى خطورة ما هم مُقدمون عليه من نقض ما يؤمنون به، وكانت الخطوة الأولى بالكلمة، ولم تكن الكلمة في يومٍ من الأيام هي أضعف المواقف، وإنما هي أقواها؛ لأنها تستتبع مواقف جادة لتحديد مصداقية الكلمة، وقد تؤدي الكلمة بصاحبها إلى الذبح من أجل الشهادة للكلمة التي قالها، ففي كل قبيلة حصلت فيها ردة كانت هناك بعض المواقف للذين انفعلت قلوبهم للحق، وتغذت به، وعاشت عليه، هي التي رأت باطل ما يفعله كل قوم، ولهذا وقفوا لهم بالمرصاد يحذرون أقوامهم من سوء المصير؛ الذي ينتظرهم، فما كان من قومهم إلا أن وقفوا في وجوههم ساخرين مستهزئين، ثم تمادوا إلى مطاردتهم، وإخراجهم، بل وقتلهم في بعض الأحيان، ونجح بعضهم بالكلمة كعدي بن حاتم مع قومه، والجارود مع أهل البحرين^(٢)، وسترى تفاصيل ذلك بإذن الله.

وعندما فشل بعض المسلمين في وعظ أقوامهم تحوّلوا إلى تجمعات مسلمة ثابتة على إسلامها، واتخذت لها الموقف المناسب ضد أقوامهم المرتدين، وكثير من المواقف بدأت

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٧٠

(٢) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة للشجاع، ص (٣١٣، ٣١٤).

بالكلمة، ثم انتهت إلى العمل، كما حصل لمن ثبت من بني سليم، فقد حذرهم قومهم، فانقسموا إلى قسمين: ثابت، ومرتد.

فتجمّع الثابتون وصاروا يجالدون قومهم المرتدّين، وقام الأبناء في اليمن سرّاً بتدبير قتل الأسود العنس - كما سيأتي تفصيله - بعد أن كان موقفهم سلبياً في بطش الأسود العنس، ووقف مسعود، أو مسروق القيسيّ ابن عابس الكنديّ ينصح الأشعث بن قيس، ويدعوه لعدم الردّة، ودخل بينهما حوارٌ طويلٌ وتحدّد متبادلٌ، وهكذا صارت بعض المواقف سبباً في إرجاع قومهم عن الردّة، أو في تسهيل مهمّة جيوش الدولة الإسلاميّة القادمة للقضاء على الردّة^(١).

لقد اعتمدت سياسة الصديق في القضاء على الردّة على الله تعالى، ثمّ على ركائز قويّة من القبائل، والزعماء، والأفراد الذين انبثوا في جميع أنحاء الجزيرة العربيّة، وثبتوا على إسلامهم، وقاموا بأدوار هامّة ورئيسيّة في القضاء على فتنة الردّة، ولقد أخطأ بعض الكتاب عندما تناول فتنة الردّة بشيء من التعميم، أو عدم الدقّة، أو عدم الموضوعيّة، أو سوء الفرض، أو النظرة الجزئيّة^(٢).

إنّ من الحقائق الأساسيّة حول هذه الفتنة: أنّها لم تكن شاملةً لكلّ النّاس، كشمولها الجغرافيّ، بل إنّ هناك قادة، وقبائل، وجماعات، وأفراداً تمسّكوا بدينهم في كلّ منطقة من المناطق التي ظهرت فيها الردّة^(٣).

ولقد قام الدكتور مهدي رزق الله أحمد بدراسة عميقة، وأجاب عن سؤالٍ طرحه، وهو: هل كانت الردّة في عهد الخليفة أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شاملةً لكلّ القبائل العربيّة، والأفراد، والزعماء الذين كانوا مسلمين؟ أم أنّ هذه الفتنة قد وقعت فيها بعض القبائل، وبعض الزعماء، وبعض الأفراد في مناطق جغرافيّة مختلفة؟

(١) المصدر السابق نفسه ص ٣١٤، ولقد اعتمد الشجاع على كتاب الكلاعي الأندلسي في الردة.

(٢) الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردّة، ص ٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٩.

وبعد البحث قال: إنَّ أوَّل حقيقةٍ تستخلص من المصادر التي أشرت إليها سابقاً: هي أنّني لم أجد ما يدلُّ على أنَّ القبائل، والرُّعماء، والأفراد، قد ارتدُّوا جميعاً عن الإسلام، كما ذكر أولئك النّفَر الذين جعلناهم مثلاً^(١)، بل وجدت: أنَّ الدَّولة الإسلاميَّة اعتمدت على قاعدةٍ صليّةٍ من الجماعات، والقبائل، والأفراد؛ الذين ثبتوا على الإسلام، وانبثوا في جميع أنحاء الجزيرة، وكانوا سنداً قوياً للإسلام ودولته في قمع حركة المرتدّين منهم^(٢).

أولاً: المواجهة الرّسميّة من الدَّولة:

١ - وسيلة الإحباط من الدّاخِل:

كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد استعمل هذه الوسيلة، فقام بمراسلة وبعث الرُّسل إلى قبائل المتنبّئين؛ لتجميع الثّابتين على الإسلام، وليشكّل بهم جماعةً تحارب الرّدة، وسار الصّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على نفس المنهج، وحاول أن يحجم، ويقضي على ما يمكن القضاء عليه من بُور المرتدّين، وقام بالتّوعية ضدها، والتّخيل منها، وتنفير النّاس عنها، واستطاع أن يتّصل بالثّابتين على الإسلام، وجعل منهم رصيذاً للجيش المنظّمة، فقد كان يعدُّ الأُمّة لمواجهةٍ منظّمةٍ مع المرتدّين بعد عودة جيش أسامة، فقد راسل الصّديق زعماء الرّدة، والثّابتين على الإسلام؛ ليحقّق بعض الأهداف، ككسب الوقت حتّى يرجع جيش أسامة، فكتب إلى من كتب إليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باليمن، وغيرها^(٣)، ليلذّلو جهدهم لدعوة الثّابتين إلى

(١) التاريخ السياسي للدَّولة العربيّة للدكتور عبد المنعم ماجد، ص ١٤٦؛ التاريخ الإسلامي العام - الجاهليّة، الدَّولة العربيّة الدَّولة العباسيّة، علي إبراهيم حسن ص ٢١٩؛ تاريخ الدَّولة العربيّة، السيد عبد العزيز سالم ص ٤٣٢؛ جولة تاريخيّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، الدكتور محمد السيّد الوكيل ص ٢١؛ الخلفاء الراشدون، محمد أسعد طلس ص ٢٠، أبو بكر الصّديق لعلي الطنطاوي ص ١٦؛ إتمام الوفاء في سير الخلفاء، محمّد الخضري بك ص ٢١؛ عصر الصّديق، شبير أحمد محمد علي الباكستاني ص ١٥٩؛ ظاهرة الرّدة في المجتمع الإسلامي الأوّل، محمّد بريغش ص (١٠٠، ١٠١)؛ الصّديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل ص ١٧٣.

(٢) الثّابتون على الإسلام أيام فتنة الرّدة، ص ١٩.

(٣) دراسات في عهد النّبوة للشُّجاع، ص ٣١٩.

الإسلام، وطلب من الثابتين التجمع في مناطق حددها لهم حتى يأتيهم أمره، وكان هذا الترتيب بدايةً للخطة العسكرية القادمة^(١).

وقد حالف التوفيق بعض الثابتين بالوصول إلى المدينة ومعهم صدقاتهم مثل عدي بن حاتم الطائي، والزبرقان بن بدر التميمي^(٢)، وتمكن الثابتون من إفشال حركة قيس بن مكشوح المرادي، وبعض التجمعات القبليّة في تهامة، وبلاد السّراة، ونجران، وقد حقّقت هذه الوسيلة بعض النتائج، منها:

أ- نجحت خطة الصّدّيق في تحقيق حملات التّوعية، والدّعاية، والتعصيد للمسلمين، والتخيل لقوى المرتدّين؛ تمهيداً لاتخاذ الوسيلة الأخرى حينما تتوافر لها الإمكانات: وهي أداة الجيوش المنظّمة.

ب- أنّها حقّقت أغراضها من حيث التّربية، وإعداد الثابتين على الإسلام؛ ليكونوا قوّاداً في حركة الفتوح الإسلاميّة فيما بعد: كعدي بن حاتم الطائي أحد قواد فتوح العراق.

ج- تكوين قوى مسلمةٍ مرابطةٍ في بعض المراكز التي حددها لهم الصّدّيق؛ لتنضمّ بعد ذلك إلى الجيوش القادمة.

د- القضاء على بعض مناطق الرّدّة ولو بمحدودية ضيّقة، مثلما حصل في جنوب الجزيرة العربيّة.

٢- إرسال الجيوش المنظّمة:

لَمَّا وصل جيش أسامة بعد شهرين - وقيل: أربعين يوماً - من مسيرهم، واستراحوا، خرج أبو بكر الصّدّيق بالصّحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - إلى (ذي القِصّة) وهي على مرحلة من المدينة، وذلك لقتال المرتدّين والمتمردّين، فعرض عليه الصّحابة أن يبعث غيره على القيادة، وأن يرجع إلى المدينة ليتولّى إدارة أمور الأمّة، وألحوا عليه بذلك.

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣١٩ نقل عن الكلاعي: تاريخ الرّدّة، ص (١٠-١٢).

وممّا رُوي في هذا الموضوع ما قالته عائشة: خرج أبي شاهراً سيفه، راكباً راحلته إلى وادي ذي القصة، فجاء عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأخذ بزمام راحلته، فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟! أقول لك ما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم أحد^(١): شَم سيفك، ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أُصَبنا بك؛ لا يكون للإسلام بعدك نظامٌ أبداً! فرجع^(٢).

وقد قسم أبو بكر الجيش الإسلامي إلى أحد عشر لواءً، وجعل على كلِّ لواءٍ أميراً^(٣)، وأمر كلَّ أمير جند باستنفار من مرَّ به من المسلمين التابعين من أهل القرى؛ التي يمرُّ بها، وهم:

١- جيش خالد بن الوليد إلى بني أسد، ثمَّ إلى تميم، ثمَّ إلى اليمامة.

٢- جيش عكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة في بني حنيفة، ثمَّ إلى عمان، والمهرة، فحضر موت، فاليمن.

٣- جيش شُرْحِبيل بن حَسَنَة إلى اليمامة في إثر عكرمة، ثمَّ حضر موت.

٤- جيش طُرَيْفَة بن حَاجِرٍ إلى بني سليم من هوازن.

٥- جيش عمرو بن العاص إلى قضاة.

٦- جيش خالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام.

٧- جيش العلاء بن الحَضْرَمي إلى البحرين.

٨- جيش حذيفة بن مِحْصَنٍ الغلفاءين إلى عُمان.

٩- جيش عرفجة بن هرثمة إلى مهرة.

١٠- جيش المهاجر بن أبي أمية إلى اليمن (صنعاء، ثمَّ حضر موت).

(١) يقصد قوله لأبي بكر لما أراد أن يبارز ابنه عبد الرحمن: «شَم سيفك، وارجع إلى مكانك».

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣١٩.

(٣) التَّاريخ الإسلامي (٩/ ٤٩).

١١ - جيش سُويد بن مقرن إلى تهامة اليمن^(١).

وهكذا اتخذت قرية (ذي القَصَّة) مركز انطلاق، أو قاعدة تحرُّك للجيش المنظمة التي ستقوم بالتحرُّك إلى مواطن الردَّة للقضاء عليها، وتنبئ خطَّة الصَّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن عبقرية فدَّة، وخبرة جغرافية دقيقة^(٢).

ومن خلال تقسيم الألوية، وتحديد المواقع يتَّضح: أَنَّ الصَّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان جغرافياً دقيقاً خبيراً بالتضاريس، والتجمُّعات البشرية، وخطوط مواصلات جزيرة العرب، فكأنَّ الجزيرة العربية صورت مجسماً واضحاً نصب عينيه في غرفة عمليات مجهزة بأحدث وسائل التَّقْنِيَّة، فمن يتمعَّن تسيير الجيوش ووجهة كلِّ منها، واجتماعها بعد تفرُّقها، وتفرُّقها لتجتمع ثانية، يرى تغطيةً سليمةً رائعةً صحيحةً مثاليةً لجميع أرجاء الجزيرة مع دقَّة في الاتصال مع هذه الجيوش، فأبو بكر في كلِّ ساعة يعلم أين مواقع الجيوش، ويعلم دقائق أمورها، وتحركاتها، وما حققت، وما عليها في غدٍ من واجبات، والمراسلات دقيقةً وسريعةً تنقل أخبار الجبهات إلى مقرِّ القيادة في المدينة حيث الصَّدِّيق، وكان على صلةٍ مستمرةً مع جيوشه كلِّها، وبرز من المراسلين العسكريين ما بين الجبهات وبين مقرِّ القيادة: أبو خيثمة النجارين الأنصاري، وسلمة بن سلامة، وأبو برزة الأسلمي، وسلمة بن وقش^(٣).

وكانت الجيوش التي بعثها الصَّدِّيق متماسكةً، وهي أحد إنجازات الدولة الهامة؛ إذ جمعت تلك الجيوش بين مهارة القيادة، وبراعة التنظيم فضلاً عن الخبرة في القتال، صهرتها الأعمال العسكرية في حركة السَّرايا، والغزوات التي تعدَّى بعضها شبه الجزيرة في زمن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كان الجهاز العسكري لدولة الصَّدِّيق متفوقاً على كلِّ القوى العسكرية في الجزيرة^(٤)، وكان القائد العام لهذه الجيوش سيف الله المسلول خالد بن الوليد

(١) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٨.

(٢) دراسات في عهد النبوة والخلفاء الرَّاشدين، ص ٣٢١.

(٣) في التاريخ الإسلامي، شوقي أبو خليل، ص (٢٢٦، ٢٢٧).

(٤) من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، إبراهيم بيضون، ص ٢٨.

صاحب العبقرية الفذة في حروب الردّة، والفتوحات الإسلامية.

كان هذا التوزيع للجيش وفق خطة استراتيجية هامة مفادها: أن المرتدين لا زالوا متفرقين، كل في بلده، ولم يحصل منهم تحزّب ضدّ المسلمين بالنسبة للقبائل الكبيرة المتباعدة في المكان أولاً؛ لأن الوقت لم يكن كافياً للقيام بعمل كهذا، حيث لم يمض على ارتدادهم إلا ما يقرب من ثلاثة شهور، وثانياً لأنهم لم يدركوا خطر المسلمين عليهم، وأنهم باستطاعتهم أن يكتسحوهم جميعاً في شهور معدودة، ولذلك أراد الصديق أن يعاجلهم بضربات مفاجئة تقضي على شوكتهم، وقوتهم قبل أن يجتمعوا في نصره باطلهم^(١)، فعاجلهم قبل استفحال فتنتهم، ولم يترك لهم فرصة يطلّون منها بروؤوسهم، ويمدون ألسنتهم يلدعون بها الجسم الإسلامي، وبذلك طبّق الحكمة القائلة: لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا^(٢)

فقد أدرك حجم الحدث، وأبعاده، ومدى خطورته، وعلم: أنه إن لم يفعل كذلك فسيوشك الجمر أن ينتفض من تحت الرماد، فيحرق الأخضر واليابس، كما قال الأول:

أرى تحت الرماد وميض نارٍ ويوشك أن يكون لها ضرام^(٣)
فقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ السّياسي الماهر، والعسكري المحنك؛ الذي يقدر الأمور، ويضع لها الخطط المباشرة.

انطلقت الألوية التي عقدها الصديق، ترفرف عليها أعلام التوحيد، مصحوبة بدعوات خالصة من قلوب تعظم المولى عزّ وجلّ وتشربت معاني الإيمان، ومن حناجر لم تلهج إلا بذكر الله تعالى، فاستجاب الله جلّ وعلا هذه الدعوات النقية، فأنزل عليهم نصره، وأعلى بهم

(١) التّاريخ الإسلامي (٥١/٩).

(٢) حركة الردّة، ص ٣١٢ للعتوم.

(٣) المصدر السّابق نفسه، ص ٣١٣.

كلمته، وحمى بهم دينه، حتى دانت جزيرة العرب للإسلام في شهور معدودة^(١).

هذا وقد كتب أبو بكر الصديق كتاباً واحداً إلى قبائل العرب من المرتدين، والمتمردين، فدعاهم إلى العودة إلى الإسلام، وتطبيقه كاملاً، كما جاء من عند الله تعالى، ثم حذرهم من سوء العاقبة فيما لو ظلوا على ما هم عليه في الدنيا والآخرة، وكان قوياً في إنذارهم، وهذا هو المناسب لشدة انحرافهم، وقوة تصلبهم في التمسك بباطلهم، فكان لابد من إنذار شديد يتبعه عمل جريء قوي لإزالة الطغيان؛ الذي عشنش في أفكار زعماء تلك القبائل، والعصية العمياء؛ التي سيطرت على أفكار أتباعهم^(٢).

٣- نص الخطاب الذي أرسله للمرتدين، والعهد الذي كتبه للقادة:

بعد التنظيم الدقيق، وحسن الإعداد للجيش الإسلامي التي عقد لها الصديق الأولية نجد الدعوة البيانية القولية تطل؛ لتقوم بدورها، وتدلي بدلوها، فقد حرر الصديق كتاباً عاماً ذا مضمون محدّد، سعى إلى نشره على أوسع نطاق ممكن في أوساط من ثبتوا على الإسلام، ومن ارتدّوا عنه جميعاً، قبل تسيير قواته لمحاربة الردّة، وبعث رجالاً إلى محلّ القبائل، وأمرهم بقراءة كتابه في كلّ مجتمع، وناشد من يصله مضمون الكتاب بتبليغه لمن لم يصل إليه، وحدّد الجمهور المخاطب به بأنّه: العامّة، والخاصّة من أقام على إسلامه، أو رجع عنه^(٣). وهذا نصّ الكتاب الذي بعثه الصديق:

بسم الله الرحمن الرحيم: من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا من عامّة وخاصّة أقام على إسلامه، أو رجع عنه: سلامٌ على من اتّبع الهدى، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة، والعمى، فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، نُقرّ بما جاء به، ونكفر من أبي،

(١) التاريخ الإسلامي (٥١/٩).

(٢) التاريخ الإسلامي (٥٥/٩).

(٣) الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، السيد عمر، ص ٢٦٢.

ونجاهده.

أما بعد، فإن الله تعالى أرسل محمداً بالحق من عنده إلى خلقه بشيراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فهدى الله بالحق من أجاب إليه، وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذنه^(١) من أدبر عنه، حتى صار إلى الإسلام طوعاً وكرهاً، ثم توفى الله رسوله صلى الله عليه وسلم؛ وقد نفذ لأمر الله ونصح لأُمَّته، وقضى الذي عليه، وكان الله قد بين له ذلك، ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزل، قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].
وقال للمؤمنين: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فَمَنْ كَانَ إِنَّمَا يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَهُ بِالْمَرْصَادِ، حَتَّى قِيُومٌ لَا يَمُوتُ، وَلَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، حَافِظٌ لِأَمْرِهِ، مُنْتَقِمٌ مِنْ عَدُوِّهِ بِحِزْبِهِ، وَإِنِّي أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَحِظْكُمْ وَنَصِييَكُمْ مِنَ اللَّهِ، وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنْ تَهْتَدُوا بِهَدَاةِ اللَّهِ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِدِينِ اللَّهِ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ ضَالًّا، وَكُلَّ مَنْ لَمْ يَعَافِهِ مُبْتَلًى، وَكُلَّ مَنْ لَمْ يُعْنِهِ اللَّهُ مَخْذُولٌ، فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ كَانَ مُهْتَدِيًّا، وَمَنْ أَضَلَّهُ كَانَ ضَالًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا عَمَلٌ حَتَّى يُقَرَّبَ بِهِ، وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ، وَقَدْ بَلَغَنِي رَجُوعُ مَنْ رَجَعَ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ أَقَرَّ بِالْإِسْلَامِ وَعَمَلَ بِهِ، اغْتِرَارُ بِاللَّهِ، وَجَهَالَةٌ بِأَمْرِهِ، وَإِجَابَةُ لِلشَّيْطَانِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ

(١) بإذن الله تعالى.

لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿[الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وإنني بعثت إليكم فلاناً في جيشٍ من المهاجرين، والأنصار، والتابعين بإحسان، وأمرته ألا يقاتل أحداً، ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له، وأقر، وكف، وعمل صالحاً، قبل منه، وأعانه عليه، ومن أبى، أمرت أن يقاتله على ذلك، ثم لا يُبقي على أحدٍ منهم قدر عليه، وأن يحرقهم بالنار، ويقتلهم كل قتل، وأن يسبي النساء، والذَّراري، ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام، فمن تبعه؛ فهو خيرٌ له، ومن تركه؛ فلن يُعجز الله.

وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم، والدَّاعية الأذان: فإذا أذن المسلمون، فأذّنوا كفوا عنهم، وإن لم يؤذّنوا عاجلوهم، وإن أذّنوا سألوهم ما عليهم، فإن أبوا عاجلوهم، وإن أقرّوا؛ قبل منهم، وحملهم على ما ينبغي لهم^(١).

ونلاحظ في خطاب أبي بكر: أنّه كان يدور حول محورين:

أ- بيان أساس مطالبة المرتدّين بالعودة إلى الإسلام.

ب- بيان عاقبة الإصرار على الردّة^(٢).

وقد أكّد الكتاب على عدّة حقائق، هي:

- أنّ الكتاب موجهٌ إلى العامّة والخاصّة؛ لسمع الجميع دعوة الله.
- بيان: أنّ الله بعث محمّداً بالحقّ فمن أقرّ به؛ كان مؤمناً، ومن أنكر؛ كان كافراً، يُجاهد ويُقاتل.

- بيان: أنّ محمّداً بشرٌ قد حقّ عليه قول الله: وأنّ المؤمن لا يعبد محمّداً ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٩-٧١.

(٢) الدّور السّياسي للصّفوة في صدر الإسلام، ص ٢٦٢.

[الزمر: ٣٠] وَإِنَّمَا يَعْبُدُ اللَّهُ الْحَيَّ الْبَاقِي؛ الَّذِي لَا يَمُوتُ أَبَدًا، وَلِذَلِكَ لَا عَذْرَ لِمُرْتَدٍّ^(١).

• إِنَّ الرُّجُوعَ عَنِ الْإِسْلَامِ جَهْلٌ بِالْحَقِيقَةِ، وَاسْتِجَابَةٌ لِأَمْرِ الشَّيْطَانِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنْ يُتَّخَذَ الْعَدُوُّ صَدِيقًا، وَهُوَ ظَلَمٌ عَظِيمٌ لِلنَّفْسِ السَّوِيَّةِ؛ إِذْ يَقُودُهَا صَاحِبُهَا بِذَلِكَ إِلَى النَّارِ عَنْ طَوَاعِيَةٍ.

• إِنَّ الصَّفْوَةَ الْمُخْتَارَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ، وَالْأَنْصَارُ، وَتَابِعُوهُمْ، هُمُ الَّذِينَ يَنْهَضُونَ لِقِتَالِ الْمُرْتَدِّينَ غَيْرَةً مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِمْ، وَحِفَاطًا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُهَانَ.

• إِنَّ مَنْ رَجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَقَرَّ بِضَلَالِهِ، وَكَفَّ عَنْ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَعَمِلَ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يَتَطَلَّبُهُ دِينَ اللَّهِ؛ فَهُوَ مِنْ مَجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ، لَهُ مَا لَهُمْ، وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْهِمْ.

• إِنَّ مَنْ يَأْبَى الرُّجُوعَ إِلَى صَفِّ الْمُسْلِمِينَ، وَيُثَبِّتُ عَلَى رَدَّتِهِ، إِنَّمَا هُوَ مُحَارِبٌ لَا بَدَّ مِنْ شَنْ الْغَارَةِ عَلَيْهِ: تَقْتُلُهُ، أَوْ تَحْرِقُهُ، وَتَسْبِي نَسَائِهِ وَذُرَارِيهِ، وَلَنْ يَعْجِزَ اللَّهُ بِأَيَّةِ حَالٍ؛ لِأَنَّهُ أُنِّي ذَهَبَ فَهُوَ فِي مَلَكِهِ.

• إِنَّ الشَّارَةَ الَّتِي يَنْجُو بِهَا الْمُرْتَدُّونَ مِنْ غَارَةِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُعْلَنَ فِيهِمُ الْأَذَانُ، وَإِلَّا فَالْمَعَالِجَةُ بِالْقِتَالِ هِيَ الْبَدِيلُ^(٢).

وحتى لا يترك الخليفة الأمر للقادة والجند بغير انضباط، كتب للقواد جميعاً كتاباً واحداً، يدعوهم فيه إلى الالتزام بمضمون كتابه السابق هذا نصه:

هذا عهدٌ من أبي بكرٍ خليفة رسول الله ﷺ لفلانٍ حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله؛ سره وعانيته، وأمره بالجد في أمر الله، ومجاهدة مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ، وَرَجَعَ عَنِ الْإِسْلَامِ إِلَى أُمَانِي الشَّيْطَانِ، بَعْدَ أَنْ يَعْذِرَ إِلَيْهِمْ، فَيَدْعُوهُمْ بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوهُ؛ أَمْسَكَ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَجِيبُوهُ؛ شَنَّ غَارَتَهُ عَلَيْهِمْ؛ حَتَّى يَقْرَؤُوا بِهِ، ثُمَّ يَنْبُتْهُمْ بِالَّذِي عَلَيْهِمْ، وَالَّذِي لَهُمْ، فَيَأْخُذْ مَا عَلَيْهِمْ، وَيُعْطِيهِمُ الَّذِي لَهُمْ، لَا يُنْظَرُ لَهُمْ، وَلَا يَرُدُّ الْمُسْلِمِينَ عَنْ قِتَالِ عَدُوِّهِمْ، فَمَنْ أَجَابَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ عَزَّجَلَّ؛ قَبْلَ

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٩٠.

(٢) حركة الردة للعتوم، ص (١٧٦، ١٧٧).

ذلك منه، وإنَّما يتقبَّل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله، فإذا أجاب الدَّعوة؛ لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبة بعد فيما استسرَّ به، ومن لم يجب داعية الله؛ قُتل، وقُوتل حيث كان، وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحدٍ شيئاً أعطاه إلا الإسلام، فمن أجابه وأقرَّ؛ قبل منه، وعلمه، ومن أبى؛ قاتله، فإن أظهره الله عليه؛ قتل منهم كلَّ قتلةٍ بالسَّلاح، والنَّيران، ثمَّ قسم ما أفاء الله عليهم إلا الخمس فإنَّه يبلغنها، وأن يمنع أصحابه العجلة، والفساد، وألا يُدخل فيهم حشواً حتَّى يعرفهم، ويعلم ما هم لا يكونوا عيوناً، ولفئلاً يُؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقتصد بالمسلمين، ويفرق بهم في السَّير، والمنزل، ويتفقدهم، ولا يُعجل بعضهم عن بعضٍ، ويستوصي بالمسلمين في حسن الصُّحبة، ولين القول^(١).

وفي هذا العهد الَّذي ألزم به قوَّاده يظهر حرص الصَّدِّيق على إلزام أمرائه في حرب الردَّة بتعليماتٍ أساسيةٍ موحَّدة نصَّت بوضوح لا يحتمل اللَّبس على حظر القتال قبل الدَّعوة إلى الإسلام، والإمساك عن قتال مَنْ يجيب، والحرص على إصلاحهم، وحظر مواصلة القتال بعد أن يقرُّوا بالإسلام، والتحوُّل عند هذه النُّقطة من القتال إلى تعليمهم أصول الإسلام، وتبصيرهم بما لهم من حقوقٍ، وما عليهم من واجباتٍ، وحظر المهادنة، أو ردَّ الجيش عن محاربة المرتدِّين ما لم يفيئوا إلى أمر الله.

والتزم الجيش الإسلامي في التنفيذ مبدأ الدَّعوة قبل القتال، والإمساك عن القتال بمجرد إجابة الدَّعوة باعتبار أنَّ الغاية الوحيدة هي عودة المرتدِّين إلى الَّذي خرجوا منه، وتلمُّساً لتحقيق أقصى درجة من التَّوافق في صفوف القوَّات الإسلامية الَّتِي نيط بها القضاء على ظاهرة الردَّة، أمضى الصَّدِّيق هذا العهد مع أمراء الجيوش الإسلامية يطلب من الجيش أن يكون سلوكه ذاته خير دعوةٍ للمهمَّة المسندة إليه، وأن يتطابق تماماً مع هدفٍ واحدٍ هو الدِّفاع عن الإسلام^(٢).

(١) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٧١-٧٢.

(٢) الدَّور السياسي للصَّفوة، ص ٢٦٣.

إِنَّ اقْتِدَاءَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَهُ مِنَ الْقِيَادَةِ، وَنَجَاحِ الْقَائِدِ فِي قِيَادَتِهِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَدَى نَجَاحِهِ فِي جَنْدِيَّتِهِ، وَلَقَدْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ نَعَمَ الْجَنْدِيُّ فِي جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مُخْلِصًا فِي وَلَائِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَطْبُقُ مَا يَقُولُهُ بِحَذَافِيرِهِ، مُضَحِّيًا فِي سَبِيلِهِ، لَمْ يَفَرَّ عَنْهُ فِي مَعْرَكَةٍ قَطُّ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَدْرِكَ دَقَّةَ آرَائِهِ الْقِيَادِيَّةِ، وَبَعْدَ مَرَامِهَا مِنْ وَصَايَاهُ لِقَوَّادِهِ، وَخَطَطِهِ الْعَامَّةِ الَّتِي رَسَمَهَا لَهُمْ أَثْنَاءَ تَحَرُّكِهِمْ لَضَرْبِ قَوَاتِ الْعَدُوِّ^(١)؛ لَقَدْ كَانَتْ أَوَّلَ وَصِيَّةٍ أَوْصَاهُمْ بِهَا تَتَرَكَّزُ عَلَى النُّقَاطِ التَّالِيَةِ:

• أَنْ يُلْزَمُوا أَنْفُسَهُمْ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُرَاقَبَتِهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَهَذَا عَيْنُ الصَّوَابِ فِي هَذِهِ السِّيَاسَةِ الرَّشِيدَةِ؛ لِأَنَّ الْقَائِدَ إِذَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَانَ مَعَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

• الْجَدُّ وَالْاجْتِهَادُ، وَإِخْلَاصُ النِّيَّةِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتِلْكَ أَخْلَاقُ الْمَنْصُورِينَ الْفَائِزِينَ^(٢) ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

- أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ إِلَّا الْإِسْلَامَ، أَوْ الْقَتْلَ؛ إِذْ لَا مَهَادَنَةَ فِي أَمْرِ الْعَقِيدَةِ.
- تَقْسِيمُ الْغَنَائِمِ بَيْنَ الْجَنْدِ مَعَ الْإِحْتِفَازِ بِحَقِّ بَيْتِ الْمَالِ مِنْهَا، وَهُوَ خَمْسُهَا.
- أَنْ لَا يَتَعَجَّلُوا فِي التَّصَرُّفِ حِيَالِ الْقَضَايَا الَّتِي تَوَاجَهُهُمْ حَتَّى لَا تَأْتِيَ حُلُولُهُمْ فَجَّةً.
- أَنْ يَحْذَرُوا مِنْ أَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمْ غَرِيبٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، كَيْلَا يَكُونَ جَاسُوسًا عَلَيْهِمْ.
- أَنْ يَرْفُقُوا بِجَنْدِهِمْ، وَيَتَفَقَّدُوهُمْ فِي الْمَسِيرِ، وَالتَّزْوِلِ، وَأَلَّا يَنْفَرُطَ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ.
- وَأَنْ يَسْتَوْصُوا بِهَؤُلَاءِ الْجَنْدِ خَيْرًا فِي الصُّحْبَةِ^(٣).

وَيُمْكِنُنَا مِنْ خِلَالِ الدِّرَاسَةِ أَنْ نَسْتَخْلَصَ الْخُطَّةَ الْعَامَّةَ بَعْدَ أَنْ عَقَدَ الصَّدِيقُ الْأُلُويَّةَ لِقَادَةِ

(١) حركة الردة للعتوم، ص ١٧٩.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٢٩١-٢٩٢.

(٣) حركة الردة للعتوم، ص ١٧٩.

الجوش، والتي تتلخص في النقاط الآتية:

أ- ضمنت الخطة إحكام التعاون بين هذه الجوش جميعها، بحيث لا تعمل كأنها منفصلة تحت قيادة مستقلة، وإنما هي رغم تباعد المكان جهازاً واحداً، وقد تلتقي - أو يلتقي بعضها ببعض - لتفترق، ثم تفترق لتلتقي، كان ذلك والخليفة بالمدينة يدير حركة القتال، ومعاركه.

ب- احتفظ الصديق بقوة تحمي المدينة - عاصمة الخلافة - واحتفظ بعدد من كبار الصحابة ليستشيرهم، وليشاركوه في توجيه سياسة الدولة.

ج - أدرك الصديق أن هناك جيوشاً من المسلمين داخل المناطق التي شملتها حركة العصيان والردة، وقد حرص على هؤلاء المسلمين من أن يتعرضوا لنقمة المشركين، ولذلك فإنه أمر قاداته باستنفار من يمرّون بهم من أهل القوة من المسلمين من جهة، وبضرورة تخلف بعضهم لمنع بلادهم وحمايتهم من جهة أخرى.

د- طبق الخليفة مبدأ الحرب خدعة مع المرتدين، حتى أظهر: أن الجوش تنوي شيئاً، وهي في حقيقة الأمر كانت تستهدف شيئاً آخر زيادة في الحيلة، والحذر من اكتشاف خطته^(١)، وهكذا تظهر الحنكة السياسية، والتجربة العملية، والعلم الراسخ، والفتح الرباني في قيادة الصديق.

ثانياً: القضاء على فتنة الأسود العنسي، وطلحة الأسدي، ومقتل مالك بن نويرة:

١ - القضاء على الأسود العنسي وردة اليمن الثانية:

اسمه: عبلة بن كعب، ويكنى بذي الخمار؛ لأنه كان دائماً معتمماً متخمراً بخمار^(٢)، ويعرف بالأسود العنسي لاسوداد في وجهه، وتكمن قوة الأسود في ضخامة جسمه، وقوته،

(١) الأبعاد السياسية لمفهوم الأمن في الإسلام، مصطفى محمود منجود، ص ١٦٩.

(٢) الكامل في التاريخ (١٧/٢).

وشجاعته، واستخدام الكهانة، والسحر، والخطابة البليغة، فقد كان كاهناً مشعوذاً، يُري قومه الأعاجيب، ويسبي قلوب مَنْ سمع منطقته، واستخدام الأموال للتأثير على الناس^(١).

أ- الأسود العنسي في عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وما أن انتشر خبر مرض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد مقدمه من حجة الوداع حتى ادّعى الأسود العنسي النبوة، وقيل: إِنَّهُ أَطْلَقَ عَلَى نَفْسِهِ (رحمان اليمن) كما تَسَمَّى (مسيلمته) (رحمان اليمامة)^(٢)، وأَنَّهُ كَانَ يَدْعِي النُّبُوَّةَ، وَلَا يَنْكُرُ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّ مَلَكَيْنِ يَأْتِيَانِهِ بِالْوَحْيِ وَهُمَا: سَحِيقٌ، وَشَقِيقٌ - أَوْ شَرِيقٌ^(٣) - وَكَانَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ مَخْفِياً أَمْرَهُ، يَجْمَعُ حَوْلَهُ مَنْ يَرَاهُ مَنَاسِباً؛ حَتَّى فَاجَأَ النَّاسَ بِظُهُورِهِ^(٤) وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَبِعَهُ: أَبْنَاءُ قَبِيلَتِهِ، وَهُمْ (عَنَسٌ)^(٥)، ثُمَّ كَاتَبَ زَعَمَاءَ قَبِيلَةِ (مَذْحِجٍ) فَتَبِعَهُ الْعَوَامُّ مِنْهُمْ^(٦)، وَبَعْضُ زَعَمَائِهِمْ مِنْ طَالِبِي الزَّعَامَةِ، وَقَدْ عَمِلَ عَلَى إِثَارَةِ الْعَصْبِيَّةِ الْقَبِيلِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ (عَنَسٍ) وَهِيَ بَطْنٌ مِنْ بَطُونِ قَبِيلَةِ (مَذْحِجٍ)، وَقَدْ رَاسَلَهُ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ مِنْ أَهْلِ نَجْرَانَ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ - مُسْلِمُونَ - فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فِي بِلَادِهِمْ، فَجَاءَهُمْ، فَاتَّبَعُوهُ لَكُونَهُمْ لَمْ يَسْلَمُوا رَغْبَةً، وَتَبِعَهُ أَنَاسٌ مِنْ (زَبِيدٍ) وَ(أَوْدٍ) وَ(مَسْلِيَّةٍ) وَ(حَكَمِ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ) ثُمَّ أَقَامَ بِنَجْرَانَ بَعْضَ الْوَقْتِ، وَقَوِيَ أَمْرُهُ بَعْدَ أَنْ انْضَمَّ إِلَيْهِ عَمْرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرِبُ الزَّبِيدِي، وَقَيْسُ بْنُ مَكْشُوحٍ الْمَرَادِي. وَتَمَكَّنَ مِنْ طَرْدِ فُرُوقِ بْنِ مَسِيكٍ مِنْ مَرَادٍ، وَعَمْرُو بْنُ حَزْمٍ مِنْ نَجْرَانَ، وَاسْتَهْوَتْهُ فِكْرَةُ السَّيْطَرَةِ عَلَى صَنْعَاءَ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا بِسِتْمَةِ - أَوْ سَبْعِمِئَةٍ - فَارِسٍ مُعْظَمِهِمْ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ وَ(عَنَسٍ)^(٧).

(١) عصر الخلافة الراشدة للعُمري، ص ٣٦٤.

(٢) اليمن في صدر الإسلام للشُّجاع، ص ٢٥٦.

(٣) البدء والتاريخ (٥/ ١٥٤).

(٤) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٥٧.

(٥) فتوح البلدان للبلاذري (١/ ١٢٥).

(٦) تاريخ الردة للكلاعي، ص (١٥١، ١٥٢).

(٧) المصدر السابق نفسه.

فتقابل مع أهل صنعاء، وعليهم (شهر بن باذان الفارسي)، وكان قد أسلم مع أبيه في منطقة خارج صنعاء تسمى منطقة (شعوب)، فتقاتلوا قتالاً شديداً فقتل (شهر بن باذان) وانهزم أهل صنعاء أمام الأسود العنسي، فغلب عليها، ونزل قصر (غمدان) بعد خمسة وعشرين يوماً من ظهوره^(١).

وكان له مواقف بشعة في تعذيب المستمسكين بالإسلام، فقد أخذ أحد المسلمين ويسمى - النعمان - فقطعه عضواً عضواً^(٢)، ولهذا تعامل معه المسلمون الذين كانوا في المناطق التي يديرها بالتقية^(٣).

أمّا بقية المسلمين خارج نطاق سيطرته فقد حاولوا التجمع وإعادة الانتظام إلى صفوفهم، فكان فروة بن مسيك المرادي قد انحاز إلى مكان يسمى (الأحسية)^(٤)، وانضم إليه من انضم من المسلمين، وكتب إلى رسول الله ﷺ يخبر الأسود العسي، فكان أول من أبلغ الرسول ﷺ بذلك، وانحاز كل من أبي موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى حضرموت في جوار (السكاك والسكون)^(٥).

وقد راسل رسول الله ﷺ الثابتين على الإسلام لمواجهة ردة الأسود، وأمرهم بالسعي للقضاء عليه إمّا مصادمةً، أو غيلة، ووجه كتبه ورساله إلى بعض زعماء (حمير) و(همدان) بأن يتكاتفوا، ويتوحدوا، ويساعدوا (الأبناء)^(٦) ضد (الأسود العسي) فأرسل (وبر بن يخنس) إلى (فيروز الديلمين، وجشيش الديلمين، وداويه الصخري) وبعث (جرير البجلي) إلى (ذي الكلاع، وذي ظليم) الحميريين، وبعث (الأقرع بن عبد الله الحميري)

(١) البدء والتاريخ (٢٢٩/٥).

(٢) الطبقات، ابن سعد، مرجع سابق، ج ٥، ص ٥٣٥.

(٣) اليمن في صدر الإسلام للشجاع، ص ٢٥٨.

(٤) الأحسية: موضع باليمن، انظر: ياقوت: المعجم (١١٢/١).

(٥) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٤٩-٥٠.

(٦) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٧١.

إلى (ذي زود، وذي مران) الهمدانين، وكذلك كتب إلى أهل نجران من الأعراب، وساكني الأرض من غيرهم^(١)، وبعث (الحارث بن عبد الله الجهني) إلى اليمن قبيل وفاته، فبلغته وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في اليمن^(٢)، ولم تبيّن المصادر إلى أين بُعث، إلا أنه من الممكن أنه بعث إلى (معاذ بن جبل) لأنه تلقى كتاباً من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمره فيه بأن يبعث الرّجال لمقاولة ومصالوة (الأسود العسي) للقضاء عليه^(٣)، كما تلقى (أبو موسى الأشعري) و(الطاهر بن أبي هالة) كتاباً من رسول الله ليواجهوا (الأسود) بالغيّلة، أو المصادمة^(٤).

وكان لهذا العمل من جانب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثر كبير، فقد تماسك من بعث إليهم في حياته، وبعد موته، فلم يُعهَد عنهم أنّهم ارتدّوا، أو تزلزلوا، فقد كتب زعماء (حمير) وزعماء (همدان) إلى الأبناء باذلين لهم العون، والمساعدة، وفي الوقت نفسه تجمع أهل (نجران) في مكان واحد للتصدي لأي حركة من جانب (الأسود العسي)، وحينئذ أيقن هذا أنه إلى هلاك^(٥).

وظلت المكاتبات تتوالى بين (الهمدانين) و(الحميريين) وبين (معاذ بن جبل) وبعض الزعماء اليمنيين، ومن المحتمل أن بعض المكاتبات تمت بين (الأبناء) وبين (فروة بن مسيك) لأنه كان له دور في قتل (الأسود العسي)^(٦)، ولكن كان أول من اعترض على (العسي) هو (عامر بن شهر الهمداني).

وهكذا تجمّعت كل قوى الإسلام في اليمن للقضاء على (الأسود العسي)، ويظهر أنّهم كانوا مجتمعين على أن يقوموا بمقتله، لعلمهم أنّه بمجرد أن يقتل لن يبقى لأتباعه أي كيان،

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٥٢.

(٢) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٧١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٢.

(٤) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٥١.

(٥) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٧٢.

(٦) المصدر السابق نفسه.

فيسهل التَّخْلُصُ منهم حينئذٍ، ولهذا وافقوا على خِطَّةِ (الأبناء) بأن لا يقوموا بأيِّ شيءٍ حتَّى يبرموا الأمر من داخلهم.

واستطاع (الأبناء) فيروز، وداويه أن يتَّفقا مع (قيس بن مكشوح المرادي) - وكان قائد جند العسي - للتَّخْلُصِ من (الأسود العسي) لأنَّه كان على خلافٍ معه، ويخشى أن يتغيَّرَ عليه^(١)، وقد ضمُّوا إلى صفِّهم زوجة (الأسود العسي) (ازاد الفارسيَّة) والتي كانت زوج شهر بن باذان، وابنة عم فيروز الفارسي، فقد اغتصبها كذاب اليمين بعد أن قتل زوجها، فهبَّت لِإِنقاذ دينها من برائن وحوش الجاهليَّة بكلِّ عزم وتصميمٍ، فدبَّرت مع المسلمين المناوئين للأسود خِطَّةً اغتيال هذا الطَّاغية المتأهل^(٢)، ومهَّدت لهم السَّبيل لقتله على فراش نومه^(٣)، وحينما قتل (الأسود) أُلقي برأسه بين أصحابه، فانتابهم الرَّهبة، وعمَّهم الخوف، ففرُّوا هاربين^(٤).

وأتى الخبر النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السَّماء اللَّيلة التي قتل فيها العسي لبيشَّرنا، فقال: «قُتل العسي البارحة، قتله رجلٌ مباركٌ من أهل بيتٍ مباركين» قيل: ومن هو؟ قال: «فيروز»^(٥).

وقد فصَّل خِطَّةُ اغتيال الأسود العسي الدكتور صلاح الخالدي في كتابه: «صور من جهاد الصَّحابة.. عملياتٌ جهاديَّةٌ خاصَّة، تنفذها مجموعةٌ خاصَّةٌ من الصَّحابة»^(٦).

وظلَّ أمر (صنعاء) مشتركاً بين (فيروز، وداويه، وقيس بن مكشوح) إلى أن جاء معاذ بن جبل إلى (صنعاء)، فارتضوا أن يكون هو الأمير عليهم، ولكنَّه لم يمكث إلا ثلاثة أيام يُصَلِّي بهم حتَّى بلغهم خبر وفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٧)، وكانت تفاصيل مقتل (العسي)

(١) المصدر السَّابق نفسه، ص (٢٧٢، ٢٧٣).

(٢) حركة الرِّدَّة للعتوم، ص ٣٠٩.

(٣) اليمين في صدر الإسلام، ص ٢٧٣.

(٤) المصدر السَّابق نفسه.

(٥) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٥٥.

(٦) صورٌ من جهاد الصَّحابة للخالدي، ص (٢١١-٢٢٨).

(٧) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٥٦.

قد خرجت من صنعاء، فوصلت إلى الصديق بعد أن خرج جيش أسامة، وكان هذا أول فتح أتى أبا بكر وهو في المدينة^(١).

ب - وعين أبو بكر (فيروز الديلمين) والياً على صنعاء، وكتب إليه بذلك، ولم يول أبو بكر (قيساً) لأنه كان ممن مالا الأسود العسي، وتابعه مخلصاً - عصبية لمذحي، أو رغبة في الزعامة - وكان مبدأ أبي بكر عدم الاستعانة بمن ارتد^(٢)، وجعل كلاً من داويه، وجشيش، وقيس بن مكشوح مساعدين لفيروز، فتغيّرت نفس قيس بن مكشوح المرادي فعمل على قتل زعماء الأبناء الثلاثة، وقد تمكّن من قتل (داويه) سواءً بنفسه أو بإيعاز منه، فتنبّه لذلك (فيروز) فهرب إلى أخواله في (خولان)^(٣)، فما كان من قيس إلا أن أثارها عصبيةً جنسيةً فحاول جمع زعماء بعض القبائل ضدّ (الأبناء) مدّعياً أنّهم متحكّمون فيهم، وأنّه يرى قتل رؤسائهم، وإجلاء بقيّتهم.

ولكن أولئك الزعماء وقفوا على الحياد، فلم ينحازوا إليه، ولا إلى الأبناء، وقالوا له: أنت صاحبهم، وهم أصحابك، فلمّا يئس منهم؛ عاد، فكتب فلول (الأسود العسي) سواءً الذين بقوا متذبذبين بين صنعاء ونجران، أو ممن انحاز إلى لحج، فطلب منهم الالتقاء بهم؛ ليكونوا - جميعاً - على أمر واحد، وهو نفي (الأبناء)، فلم يشعر أهل صنعاء إلا وهم محاطون بتلك الفلول، ثمّ حرص (قيس) على تجميع (الأبناء) تمهيداً لنفيهم^(٤).

وعندما وصل فيروز الديلمين إلى خولان؛ كتب من هناك إلى أبي بكر يخبره بما حصل من قيس، فما كان منه إلا أن كتب إلى الزعماء الذين كتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت صيغة الكتاب واضحة صريحة، وهي: (أعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحوطوهم،

(١) البلاذري، فتوح البلدان (١/ ١٢٧).

(٢) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٧٥.

(٣) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٠.

(٤) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٠.

واسمعوا من فيروز، وجدّوا معه، فإنّي قد وليّته^(١).

كان الصّدّيق في نهجه هذا يستهدف أمرين متلازمين:

• أنّه جعله خطّة حربيّة حيث كان جيش أسامة بن زيد قد خرج إلى الشام، وكان الخليفة ينتظر عودته حتى يتسنّى له مواجهة أعنف موجات الرّدّة في اليمامة، والبحرين، وعمان، وتميم، وهي أشدّ، وأعنف من موجات الرّدّة في اليمن التي اكتفى بمعالجة بعضها بالرسائل، والرّسل.

• وأمّا الهدف الآخر فهو إعطاء الفرصة لمن ثبت على الإسلام لكي يبرهن على صدق إسلامه، ولكي يزداد ثباتاً واستمساكاً بدينه ما دام هو صاحب المسؤوليّة والمتحمّل لأمانة إقرار الإسلام فيمن حوله، خاصّة أنّ من راسلهم أبو بكر كانوا هم الذين راسلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل، وقد ثبتوا، وقاموا بما طُلب منهم^(٢)، وقام فيروز بالاتّصال ببعض القبائل، يستمدّهم، وستنصرهم، وعلى رأس هؤلاء (بنو عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة) ثمّ أرسل إلى قبيلة (عك) للغرض نفسه، وكان أبو بكر قد أرسل إلى الطّاهر بن أبي هالة^(٣)، وإلى مسروق العكيس - وكانا بين عكّ والأشعريين - أن يمدّا الأبناء بالمعونة، فخرج كلّ من جهته، وعملوا جميعاً للحيلولة دون تنفيذ مخطّط قيس، وهو طرد الأبناء وإخراجهم من اليمن، فأنقذوهم، ثمّ تكتّلوا، وتوجّهوا نحو صنعاء جميعاً، فاصطدموا به حتّى اضطر إلى ترك صنعاء، وعاد إلى ما كان عليه أصحاب الأسود العسي، وهو التذبذب بين نجران، وصنعاء، ولحج، إلّا أنّه انضمّ إلى عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وبهذا عادت صنعاء للمرّة الثّانية إلى الهدوء والاستقرار عن طريق الرّسل، والكتب^(٤).

ج - واستمرّ الصّدّيق يتابع سياسة الإحباط من الدّاخل وهي ما يعبر عنها المؤرّخون

(١) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٠.

(٢) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٧٥.

(٣) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٤٤.

(٤) المصدر السّابق نفسه (١٤٢/٢).

بقولهم: (ركوب من ارتدَّ بمن لم يرتدَّ، وثبت على الإسلام)^(١).

ففي ردّة (تهامة اليمن) تمّ القضاء عليها بدون مجهودٍ يذكر من قبل الخليفة، فقد تولاها المسلمون من أبناء تهامة مثل (مسروق العكيس) الذي قاتل المرتدّين بقومه من عكّ، وكان على رأس من قضى على ردّة تهامة (الطاهر بن أبي هالة) الذي كان والياً للرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جزءٍ من تهامة، وهي موطن (عكّ، والأشعريين)^(٢) ثمّ أمر أبو بكرٍ (عكاشة بن ثور) أن يقيم في (تهامة) ليجمع حوله أهلها حتّى يأتيه أمره^(٣)، وأمّا بجيلة فإنّ أبا بكرٍ ردّ جرير بن عبد الله^(٤)، وأمره أن يستنفر من قومه من ثبت على الإسلام، ويقاثل بهم من ارتدّ عن الإسلام، وأن يأتي خثعم، فيقاتل من ارتدّ منهم، فخرج جرير، وفعل ما أمره به الصّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلم يقم له أحدٌ إلا نفرٌ يسيرٌ، فقتلهم، وتبّعهم^(٥).

وكان بعض (بني الحارث بن كعب) بنجران قد تابعوا الأسود العسّي، وبعد وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوا متردّدين، فخرج إليهم (مسروق العكيس) وهو يزعم مقاتلتهم، فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا من غير قتالٍ، فأقام فيهم ليعمل على استتباب الأمور، فلم يأت (المهاجر بن أبي أمية) إلا وقد ضبط نجران^(٦).

وقد نجحت سياسة الإحباط من الدّاخل، وتوجّه الصّدّيق بإرسال الجيوش بعد عودة جيش أسامة.

(١) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) البجلي، يكنى أبا عمرو: أسلم في السنة العاشرة من الهجرة.

(٥) الثابتون على الإسلام في أيام فتنة الردّة، ص ٤٢.

(٦) تاريخ الردّة للكلاعي، ص ١٥٦.

د- جيش عكرمة:

بعد أن شارك في القضاء على ردة أهل عمان توجه نحو مهرة حسب أمر أبي بكر، وكان معه سبعمئة فارس^(١)، فوق ما جمع حوله من قبائل عمان، وحينما دخل مهرة؛ وجدها مقسمة بين زعيمين متناحرين: أحدهما يسمّى شخرت، ويتمركز في السهل الساحلي، وهو أقل الجمعين عدداً وعدة، والآخر يسمّى المصبح، ونفوذه على المناطق المرتفعة وهو أكبر الجمعين، فدعاهما عكرمة إلى الإسلام فاستجاب صاحب السهل الساحلي، وأمّا الآخر؛ فقد اغترّ بجموعه، فأبى فصادمه عكرمة ومعه (شخرت) فلحقته الهزيمة، وقُتل ومعه الكثير من أصحابه، ثم أقام عكرمة فيهم يجمعهم، ويقيم شؤونهم حتى جمعهم على الذي يحب، حيث بايعوا على الإسلام، وأمنوا، واستقرّوا^(٢).

وكان قد تلقى كتاباً من أبي بكر يأمره بالاجتماع مع المهاجر بن أبي أمية القادم من (صنعاء) ليتوجهها معاً إلى كندة، فخرج من مهرة حتى نزل أبين، وبقي هناك ينتظر المهاجر، وعمل وهو هناك على جمع (النخع) وحمير، وتبئيتهم على الإسلام^(٣)، وكان لوصول عكرمة إلى أبين أثرٌ على بقية فلول الأسود العسي، وعلى رأسهم قيس بن المكشوح، وعمرو بن معد يكرب، فبعد هروب قيس من صنعاء بقي متردداً بينها، وبين نجران، وكان (عمرو بن معد يكرب) قد انضوى إلى فلول العسي التي أطلق عليها الفلول الحجية؛ لأن وجهتهم كانت إلى لحج، فلمّا جاء عكرمة؛ انضمّ قيس إلى عمرو، وقد اجتمعوا، للقتال ولكن ما لبث أن نشب الخلاف بينهما، فتعايرا ففارق كل واحد الآخر، فلمّا جاء المهاجر بن أبي أمية؛ أسرع عمرو لتسليم نفسه، ولحقه قيس، فأوثقهما المهاجر، وبعث بهم إلى أبي بكر، وبعد أن عاتبهما؛ اعتذر كل واحد منهما عن فعله، فأطلقهما، ورجعا بعد أن تابا، وأصلحا^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٧٧.

(٢) تاريخ الردة للكلاعي، ص ١٥٥.

(٣) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٨١.

(٤) الطبقات لابن سعد (٥/٥٣٤، ٥٣٥).

وهكذا كان لقدوم عكرمة من الشرق دوراً في القضاء على فلول المرتدين الموجودين في لحج سواءً بالمواجهة، أو الخوف من هذا الجيش القادم، بينما هم يواجهون جيشاً آخر في الشمال بقيادة المهاجر^(١).

هـ جيش المهاجر بن أبي أمية للقضاء على ردة حضرموت، وكندة:

كان آخر مَنْ خرج من المدينة من الجيوش الأحد عشر جيش المهاجر بن أبي أمية، وكان معه سريةً من المهاجرين، والأنصار، فمرَّ على مكة فأنضمَّ إليه (خالد بن أسيد) أخو (عتاب ابن أسيد) أمير مكة، ومرَّ على الطائف، فلحقه عبد الرحمن بن أبي العاص وَمَنْ معه، ولمَّا التقى بجريز بن عبد الله البجلي بنجران ضمَّه إليه، وضمَّ عكاشة بن ثور الَّذي جمع بعض أهل تهامة. ثمَّ دخل في جموعه (فروة ابن مسيك المرادي) الَّذي كان في أطراف بلاد مذحج، ومرَّ على بني الحارث بن كعب بنجران، فوجد عليهم مسروقاً العكيس فضمَّه إليه^(٢).

وفي نجران قسم جيشه إلى فرقتين: فرقة تولَّت القضاء على فلول (الأسود العنسي) المتناثرة بين نجران، وصنعاء، وكان المهاجر نفسه على هذه الفرقة، أمَّا الفرقة الأخرى؛ فكان عليها أخوه (عبد الله) وكانت مهمَّتها تطهير منطقة تهامة اليمن من بقية المرتدين^(٣).

وحيثما استقرَّ المهاجر في صنعاء كتب إلى أبي بكرٍ بما قام به، وبما استقرَّ عليه، وبقي ينتظر الردَّ منه، وفي الوقت نفسه كتب معاذ بن جبل، وبقية عمال اليمن الذين كانوا على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ما عدا زياد بن ليلى - إلى أبي بكرٍ يستأذِنونه بالعودة إلى المدينة، فجاءت كتب أبي بكرٍ مُطلقةً حقَّ الاختيار لمعاذ، ومن معه من العمال بالبقاء، أو العودة والاستخلاف على عمل كلِّ مَنْ رجع، فرجعوا جميعاً^(٤)، وأمَّا المهاجر فقد تلقَّى الأمر بالتوجُّه لملاقاة عكرمة، وأنَّ يسيراً معاً إلى حضرموت لمعاونة زياد بن ليلى، وإقراره على

(١) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٨٢.

(٢) تاريخ الردة للكلاعي، ص (٥٤ - ٥٨).

(٣) طبقات فقهاء اليمن، ص ٣٦.

(٤) طبقات فقهاء اليمن، ص ٣٦.

ما هو عليه، وأمره أن يأذن لمن معه من الذين قاتلوا بين مكة واليمن في العودة إلا أن يؤثر قومُ الجهاد^(١).

كان زياد بن لبید الأنصاري والياً لرسول الله على كندة بحضرموت، وأقره الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ذلك، وكان حازماً شديداً، وكان لحزمه وشِدَّتِه سببٌ كبير في أن يتمرد عليه حارثة بن سراقه، وخلاصة ذلك كما يذكر الكلاعي: أن زياداً أُعطي من ضمن الصدقة ناقةً معيّنة لفتى من كندة على سبيل الخطأ، فلما أراد صاحبها استبدالها بأخرى لم يقبل منه ذلك زياد، فاستنجد الفتى بزعيم لهم، هو حارثة بن سراقه، وعندما طلب ابن سراقه من زياد استبدال الناقة؛ أصرَّ زياد على موقفه، فغضب ابن سراقه، وأطلق الناقة عنوةً، ف وقعت الفتنة بين أنصار زياد، وأنصار ابن سراقه، ودارت الحرب، وانهزم ابن سراقه وقتل ملوك كندة الأربعة، وأسر زيادُ عدداً من جماعة ابن سراقه، واستنجد الأسرى، وهم في طريقهم إلى المدينة بالأشعث بن قيس فنجدهم، حميةً، وعبيّةً، واتَّسعت رقعتها وتكاثر جمع الأشعث، وحصروا المسلمين^(٢)، فأرسل زياد إلى المهاجر وعكرمة يستعجلهما النجدة، وكانا قد التقيا بمأرب، فما كان من المهاجر إلا أن ترك (عكرمة) إلى الجيش، وأخذ أسرع النَّاس - وغالباً من الفرسان - ليكون بجانب زياد، وقد استطاع أن يفكَّ الحصار عنه، فهربت كندة إلى حصنٍ من حصونها يسمى النُّجَيْر.

وكان لهذا الحصن ثلاث طرقٍ، لا رابع لها، فنزل زياد على إحداها والمهاجر على الثانية وبقيت الثالثة تحت تصرف كندة، حتَّى قدم عكرمة فنزل عليها، فحاصروهم من جميع الجهات، ثم بعث (المهاجر) الطَّلَّاع إلى قبائل كندة، المتفرقة في السَّهْل والجبل؛ يدعوهم إلى الإسلام، ومن أبى قاتلوه، ولم يبق إلا مَنْ في الحصن المحاصر^(٣).

وكان جيشا زياد والمهاجر يزيدان على خمسة الاف رجلٍ من المهاجرين والأنصار

(١) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٨٣.

(٢) الكامل في التاريخ (٤٩/٢)، الثابتون على الإسلام، ص ٦٦.

(٣) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٨٤؛ تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٥٢.

وغيرهم من القبائل، وقد عملا على التضييق على من في الحصن حتى ضجّوا بالشكوى إلى زعمائهم متبرّمين من الجوع، وفضّلوا الموت بالسيف بدلاً من ذلك، فاتفق زعمائهم على أن يقوم الأشعث بن قيس بطلب الأمان، والنزول على حكم المسلمين^(١)، وبعد أن فوّض الأشعث من قومه لمفاوضة المسلمين لم يوفّق؛ لأنّ الروايات تضافرت على أنّه لم يطلب الأمان لجميع من في الحصن، أو أنّه لم يصرّ على ذلك، ولم يطلبه إلا لعددٍ تراوح حسب الروايات بين السبعة والعشرة، وكان الشرط هو فتح أبواب حصن (النّجير)، وكان من جراء ذلك أن قتل من (كندة) في الحصن سبعمئة قتيل، فأشبهه موقفهم موقف يهود بني قريظة^(٢).

وتّمّ القضاء على ردة كندة، وعاد عكرمة بن أبي جهل ومعه السبايا والأخماس، وبرفقتهم الأشعث بن قيس الذي صار مبغضاً إلى قومه، ولا سيّما نساؤهم؛ لأنّهم عدّوه سبب ذلّتهم، ولأنّه عندما صالح المسلمين كان أوّل ما بدأ به اسمه، فكانت نساء قومه يسمينه: عُرف النّار؛ ومعناه بلغتهم: الغادر^(٣)، ولما قدم الأشعث على أبي بكرٍ قال: ماذا تراني أصنع بك، فإنّك قد فعلت ما علمت! قال: تمنّ عليّ فتفكّني من الحديد، وتزوّجني أختك، فإنّي قد راجعت، وأسلمت. فقال أبو بكر: قد فعلت، فزوّجه أم فروة ابنة أبي قحافة، فكان بالمدينة حتى فتح العراق^(٤).

وفي روايةٍ جاء فيها: فلمّا خشي أن يقع به؛ قال: أو تحتسب فيّ خيراً، فتطلق إيساري، وتقبلني عثرتي، وتقبل إسلامي، وتفعل بي مثل ما فعلته بأمثالي، وترد عليّ زوجتي - وقد كان خطب أم فروة بنت أبي قحافة مقدمه على رسول الله صلى الله عليه وسلّم فزوّجه، وأخّرها إلى أن يقدم الثّانية، فمات رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وفعل الأشعث ما فعل، فخشي ألا ترد عليه - تجدني خير أهل بلادي لدين الله! فتجافى له عن دمه، وقبل منه، وردّ عليه أهله، وقال: انطلق

(١) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٥٣.

(٢) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٨٦؛ تاريخ الردّة، ص ١٦٧.

(٣) حركة الردّة للعتوم، ص ١٠٧.

(٤) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٥٥.

فليبلغني عنك خيرٌ، وخلّى عن القوم، فذهبوا وقسم أبو بكر في الناس الخمس^(١).

و- دروس، وعبر، وفوائد:

• المرأة بين الهدم والبناء:

في حروب الردّة باليمن تظهر صورتان مختلفتان للنساء: صورة المرأة الطاهرة العفيفة؛ التي تقف مع الإسلام، وتحارب الرذيلة، وتقف مع المسلمين لكبح جماح شياطين الإنس والجن، فهذه (ازاد) الفارسيّة زوج شهر بن باذان، وابنة عمّ فيروز الفارسي تقف مع الصّف الإسلامي بكلّ عزم وتصميم، وتدبر مع المسلمين خطّة محكمة لاغتيال الأسود العنسيّ كذاب اليمن.

فالمسلم في كلّ عصر يُكبر في ازاد المسلمة غيرتها على دينها، وينظر باستهجانٍ إلى ما مجّه قلم الدكتور محمد حسين هيكّل عندما تحدّث عن موقف ازاد من كذاب اليمن، وحاول أن يُرجع ما قامت به المرأة المسلمة ازاد الفارسيّة إلى عصبية شهوانيّة، وذلك في قوله عن الأسود: ولمّا استغلظ أمره، وأثخن في الأرض استخفّ بقيس، وبفيروز، وجعل يرى في الأخيرين وفي سائر الفرس من تنطوي أضالعهم على المكر به، وعرفت زوجته الفارسية ذلك منه، فثار في عروقه دم قومها، وتحركت في نفسها عوامل الحقد على الكاهن القبيح قاتل زوجها الشابّ الفارسيّ؛ الذي كانت تحبّه من أعماق قلبها، ولقد استطاعت بسجيّتها النسوية أن تخفي ذلك عنه، وأن تسخو في البذل له من أنوثتها سخاء جعله يركن إليها، ويطمع في وفائها^(٢).

إنّه أسلوب فيه لمزّ بالفارسيّة المؤمنة ازاد، وكأنّه يتهمها بالغدر لفارستها بالأسود العربيّ، ويأخذ عليها هذا الصنيع الذي كانت تظهر له فيه ما لا تخفي، إنّ توجية لحدث في

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٥٥.

(٢) الصديق أبو بكر، ص ٧٩.

غير محلّه^(١)، وهذه المرأة الصّالحة المسلمة، قتل الأسود زوجها المسلم، وتزوَّجها غصباً، وهي التي وصفت الأسود الكذاب بقولها: والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه، ما يقوم لله على حقٍّ، ولا ينتهي عن محرّم^(٢)، وهي التي جعلها الله تعالى سبباً لهلاك الطّاغية الأسود العنسيّ، فلولا الله، ثمّ جهودها الميمونة ما استطاع فيروز، وأصحابه قتل الأسود^(٣)، فالذي حرّكها لذلك العمل العظيم؛ الذي فيه حتفها وموتها، هو حبُّها لدينها، وعقيدتها، وإسلامها، وبغضها للأسود العنسي الكذاب؛ الذي أراد أن يقضي على الإسلام في اليمن، فهذه صورة مشرقة مضيئة لما قامت به المرأة المسلمة في اليمن من الجهاد من أجل دينها.

أمّا الصورة الكالحة المظلمة التي قامت بها بعض بنات اليمن من يهود، أو من لفّ لفهنّ في حضرموت، فقد طرن فرحاً بموت رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فأقمن الليالي الحمراء مع المجان، والفساق، يشجعن على الرّذيلة، ويزرين بالفضيلة، فقد رقص الشيطان فيها معهنّ وأتباعه طرباً لنكوص النّاس عن الإسلام، والدّعوة إلى التمرّد عليه، وحرب أهله^(٤).

لقد حنّت تلك البغايا إلى الجاهليّة، وما فيها من المنكرات، وانجذبن إليها انجذاب الذُّباب إلى أكوام من الأقدار، فقد تعودن على الفاحشة في حياتهنّ الجاهليّة، فلمّا جاء الإسلام؛ حجزتهنّ نظافته عنها، فشرعن وكأنهنّ بسجنٍ ضيقٍ يكدنّ يختنقن فيه، ولذا ما إن سمعن بموته صلى الله عليه وسلّم، حتّى أظهرن الشّماتة، فخصّبن أيديهنّ بالحناء، وقمن يضربن بالدّفوف، ويغنين فرحتهن، فقد تحقّق لهنّ ما كنّ يتمنّينه على السّلطة الجديدة، وكان معظمهنّ من عليّة القوم هناك وبعضهنّ يهوديات.

وقد كان لكلا الطّرفين: أشراف القوم من العرب واليهود مصلحة في الانتفاض على مبادئ الإسلام، والانتفاض على كيانه، لقد عرفت هذه الحركة في التّاريخ بحركة البغايا،

(١) الكامل في التّاريخ (٢/ ٣١٠).

(٢) المصدر السّابق نفسه.

(٣) حركة الرّدة للعتوم، ص ٣٠٨.

(٤) حركة الرّدة للعتوم، ص ١١٩.

وكن نيفاً وعشرين بغياً متفرقات في قرى حضرموت، وأشهرهن هُرْبُنْتُ يامن اليهودية التي ضرب المثل بها في الزنى، فقيل: أزنى من هرّ، ويذكر التاريخ: أن الفساق كانوا يتناوبونها لهذا الغرض في الجاهلية، ولكن هؤلاء السواقط لم يُتركن وشأنهن يفسدن في المجتمع كما يحلو لهن^(١)، فقد وصل الخبر إلى الصديق، وأرسل رجل من أهل اليمن إليه هذه الأبيات:

أبلغ أبا بكرٍ إذا ما جئتُه أن البغايا رُمنَ أيّ مرام
أظهرن من موتِ النبيّ شِماتَه وخضبن أيديهنّ بالعلّام^(٢)
فاقطع هُديت أكفهنّ بصّارم كالبرقِ أمضى من مُتونِ غمام^(٣)

فكتب أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى عامله هناك المهاجر بن أبي أمية كتاباً في منتهى الحزم والصرامة، جاء فيه: (إذا جاءك كتابي هذا؛ فسر إليهنّ بخيلك ورجلك حتى تقطع أيديهنّ، فإنّ دفعك عنهنّ دافعٌ، فأعذر إليه باتخاذ الحجة عليه، وأعلمه عظيم ما دخل فيه من الإثم والعدوان، فإن رجع؛ فاقبل منه، وإن أبى؛ فنازده على سواءٍ إن الله لا يهدي كيد الخائنين....).

فلما قرأ المهاجر الكتاب جمع خيله، ورجله وسار إليهنّ، فحال بينه وبينهن رجال من كندة، وحضرموت، فأعذر إليهم، فأبوا إلا قتاله، ثم رجع عنه عامّتهم، فقاتلهم فهزمهم، وأخذ النسوة فقطع أيديهنّ فمات عامّتهنّ، وهاجر بعضهن إلى الكوفة^(٤). لقد نلن جزاءهنّ في محكمة الإسلام العادلة؛ إذ أخذهنّ عامل أبي بكر على تلك البلاد، وطبق عليهنّ حدّ الحراة^(٥).

وُنُقِلَت الأخبار للخليفة في امرأتين من بلاد حضرموت تغتات بهجاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) حركة الردّة للعتوم، ص ١١٩.

(٢) العلّام: الحناء.

(٣) عيون الأخبار (٣/١٣٣).

(٤) حركة الردّة للعتوم، ص ١٨٤.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١١٩.

والمسلمين، وكان قد عاقبهما المهاجر بن أبي أمية والي تلك البلاد بقطع يديهما، ونزع ثانيتيهما، فلم يرَضَ أبو بكر، وعدّها عقوبةً خفيفةً في حقّ هاتين المجرمتين، وقد وجّه إليه كتاباً بهذا الخصوص قال فيه بحقّ الناعفة بستم صاحب الرسالة: بلغني الذي سرت به في المرأة التي تغنّت، وزمرت بشتيمة رسول الله ﷺ، فلولا ما قد سبقني فيها؛ لأمرتُك بقتلها؛ لأنّ حدّ الأنبياء ليس يشبه الحدود، فمن تعاطى ذلك من مسلمٍ فهو مرتدٌّ، أو معاهد فهو محاربٌ غادرٌ^(١).

وقال في الأخرى: بلغني أنّك قطعت يد امرأة في أن تغنّت بهجاء المسلمين، ونزعت ثنيتيها، فإن كانت ممّن تدّعي الإسلام فأدبْ وتقدمْ دون المثلة، وإن كانت ذميه لعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم! ولو كنتُ تقدّمتُ إليك في مثل هذا؛ لبلغت مكروهاً، فاقبل الدّعة، وإيّاك والمثلة في الناس فإنّها ماثمٌ، ومنفرةٌ إلّا في قصاصٍ^(٢).

• من خطباء الإيمان:

كان بعض أهل اليمن لهم مواقف عظيمة في الثبات على الحقّ، والدّعوة إلى الإسلام، وتحذير قومهم من خطورة الردّة، ومن هؤلاء كان مران بن ذي عمير الهمدانيّ أحد ملوك اليمن الذي كان قد أسلم ممّن أسلم من أهل اليمن، فلمّا ارتدّ الناس هناك، وتكلّم سفّاؤهم بما لا يليق؛ وقف فيهم خطيباً، وقال لهم: يا معشر همدان! إنّكم لم تقاتلوا رسول الله ﷺ، ولم يقاتلكم، فأصبتُم بذلك الحظّ، وليستم به العافية، ولم يعمّكم بلعنة تفضح أوائلكم، وتقطع دابرهم، وقد سبقكم قومٌ إلى الإسلام، وسبقتم قوماً، فإن تمسّكتُم لحقّكم من سبقكم، وإن أضعتموه لحقّكم من سبقتموه، فأجابوا إلى ما أحبّ، وأنشد أبياتاً رثى فيها النّبيّ ﷺ يقول فيها:

إِنَّ حُزْنِي عَلَى الرَّسُولِ طَوِيلٌ ذَاكَ مِنِّي عَلَى الرَّسُولِ قَلِيلٌ

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٥٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

بكت الأرض والسَّماءُ عَلَيْهِ وبكاهُ خديهم جبريل^(١)

وقام عبد الله بن مالك الأرحبية، وكان من أصحاب النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، له هجرة، وفضل في دينه، فاجتمع إليه همدان، فقال: يا معشر همدان! إنَّكم لم تعبدوا محمداً إنَّما عبدتم ربَّ محمداً، وهو الحيُّ الَّذي لا يموت، غير أنَّكم أطعتم رسوله بطاعة الله، واعلموا أنَّه استنقاذكم من النَّار، ولم يكن الله ليجمع أصحابه على ضلالةٍ، ودُكر له خطبةٌ طويلةٌ يقول فيها:

لعمري لئن مات النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ لما ماتَ يا بن القيلِ ربُّ محمد
دعاهُ إِلَيْهِ رَبُّهُ فَأَجَابَهُ فيا خَيْرَ غُورِيٍّ^(٢) ويا خَيْرَ مُنْجِدٍ^(٣)

ووقف شرحبيل بن السَّمط، وابنه في بني معاوية من كندة عندما أطبقوا كلُّهم على منع الصَّدقة، وقالوا لبني معاوية: إنَّه لقيح بالأحرار التنقُّل، إنَّ الكرام يلزمون الشُّبهة، فيتكرَّمون أن ينتقلوا إلى أوضح منها مخافة العار، فكيف الانتقال من الأمر الحسن الجميل والحقَّ إلى الباطل القبيح؟ اللَّهُمَّ إنا لا نمالىء قومنا على ذلك. وانتقل، ونزل مع زيد، ومعهما امرؤ القيس بن عابس، وقالوا له: بيَّت القوم فإنَّ أقواماً من السَّكاسك والسَّكون قد انضمُّوا إليهم، وكذلك شذاذ من حضرموت، فإن لم تفعل خشينا أن تتفرَّق النَّاسُ عنَّا إليهم، فأجابهم إلى تبَّيت القوم، فاجتمعوا، وطرقوهم في محاجرهم، فوجدوهم جلوساً حول نيرانهم، فأكبُّوا على بني عمرو، وبني معاوية، وفيهم العدد، والشُّوكة من خمسة أوجه، فأصابوا الملوك الأربعة من كندة، وأختهم العمدة، وقتلوا فأكثروا، وهرب من أطاق الهرب، وعاد زياد بن لبيد بالأموال، والسَّبي^(٤).

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٢٣.

(٢) غوري: نسبة إلى الغور، وهي أرض تهامة ما بين البحر والحجاز.

(٣) ديوان الردة للعتوم، ص ٨١؛ منجد: نسبة إلى نجد، وهي الأرض المرتفعة.

(٤) الكامل في التاريخ (٢/ ٨٤).

فهذه بعض النماذج من أهل الإيمان الذين كانت لهم مواقف تدلُّ على عمق إيمانهم، وشدة انتمائهم إلى الإسلام، فكانوا من خطباء الإيمان.

• كرامات الأولياء:

عندما تمكَّن الأسود العنسيُّ باليمن، وتنبَّأ بالنبوة؛ بعث إلى أبي مسلم الخولاني، فلَمَّا جاء، قال له: أتشهد أنَّي رسول الله؟ قال: ما أسمع. قال: أتشهد أنَّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فردَّد ذلك عليه، وفي كلِّه يقول مثل قوله الأوَّل. قال: فأمر به فألقي في نارٍ عظيمة، فلم تضرَّه، فقيل له: انفه عنك، وإلا أفسد عليك من أتبعك، قال: فأمره بالرحيل، فأتى المدينة، وقد قبض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستخلف أبو بكر، فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد، ودخل المسجد فقام يصليُّ إلى سارية، وبصر به عمر بن الخطاب، فقام إليه، فقال: ممَّن الرِّجل؟ قال: من أهل اليمن، قال: ما فعل الرِّجل الذي أحرقه الكذاب بالنار؟ قال: ذاك عبد الله بن ثوب، قال: أنشدك الله! أنت هو؟ قال: اللهم نعم! فاعتنقه عمر، وبكى، ثم ذهب به فأجلسه فيما بينه وبين أبي بكر وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتَّى أراني في أمة محمَّد من فُعل به ما فُعل بإبراهيم خليل الله^(١).

فهذه كرامةٌ لهذا العبد الصَّالح الذي التزم بحدود الله، وأحبَّ في الله، وأبغض في الله، وتوكلَّ على الله في كلِّ شيءٍ، وبذلك وفقه الله في القول، والعمل، ورزقه الأمن والطمأنينة، وأجرى الله على يديه هذه الكرامة، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٦٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لِلَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

• العفو عند الصديق:

كان لأبي بكر بُعدُ نظرٍ، وبصيرةٌ نافذة، ونظرٌ بعواقب الأمور، ولذلك كان يستعمل الحزم في محلِّه، والعفو عندما تقتضي إليه الحاجة، فقد كان حريصاً على جمع شتات القبائل تحت

(١) أسد الغابة (٦/ ٣٠٤) رقم ٦٢٤٧؛ الاستيعاب (٤/ ١٧٥٨).

راية الإسلام، فكان من سياسته الحكيمة عفوّه عن زعماء القبائل المعاندة بعد رجوعهم إلى الحقّ، فإنه لما التّخضع قبائل اليمن المرتدّة، وأراهم سطوة دولة المسلمين، وقوّة شكيّمتهم، ومضاء عزيمتهم، واعترفت القبائل بما أنكرت، واستكانت لحكم الإسلام، وأطاعوا خليفة رسول الله؛ رأى أبو بكر أنّه من تأليف القلوب ترك استعمال القوّة مع زعماء هذه القبائل، بل اللّين هنا والرّفق أوفق، فرفع العقوبة عنهم، وألّان القول لهم، ووظّف نفوذهم في قبائلهم لصالح الإسلام، والمسلمين^(١)، فعفا عن زلّتهم، وأحسن إليهم، فقد فعل ذلك مع قيس بن يغيث المرادي، وعمرو بن معد يكرب، فقد كانا من صناديد العرب، وفرسانهم، وأكثرهم شجاعةً، فعزّ على أبي بكر أن يخسرهما، وحرص على أن يستخلصهما للإسلام، وستنقذهما من التردّد بين الإسلام والردّة، فقد قال أبو بكر لعمر: أما تخزي أنّك كلّ يوم مهزومٌ، أو مأسور؟ لو نصرت هذا الدّين؛ لرفعك الله، فقال عمرو: لا جرم لأقعلن، ولن أعود. فأطلقه الصّدّيق، ولم يرتدّ عمرو بعدها قطّ، بل أسلم، وحسن إسلامه، ونصره الله، وأصبح له بلاءٌ عظيمٌ في الفتوحات.

وندم قيس على ما فعل، فعفا عنه الصّدّيق، وكان للعفو عن هذين البطلين من أبطال عرب اليمن اثاره العميقة، والعريضة، فقد تألّف به الصّدّيق قلوب أقوام قد عادوا إلى الإسلام بعد الردّة خوفاً، أو طمعاً، وعفا عن الأشعث بن قيس، وبذلك أسر الصّدّيق قلوبهم، وامتلك أفئدتهم، فكانوا في مستقبل الأيام نصراً للإسلام، وقوّة للمسلمين، وأصبحت لهم يدٌ عظيمةٌ في هذا المجال^(٢).

● وصية الصّدّيق لعكرمة، ومحاسبته لمعاذ:

كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعث عكرمة بن أبي جهل إلى مُسيلمة، وأتبعه شرحبيل بن حسنة؛ عبّج عكرمة، فوافته بنو حنيفة، فنكبوه، فكتب عكرمة إلى أبي بكر بالذي كان من أمره، فكتب إليه أبو بكر: يا بن أمّ عكرمة! لا أرينك، ولا تراني على حالها، لا ترع فتوهن

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٥٦.

(٢) المصدر السابق نفسه.

النّاس، امض على وجهك حتّى تساند حذيفة، وعرفجة، فقاتل معهما أهل عُمان، ومَهرة، وإن شغلا؛ فامض أنت ثمّ تسير، وتُسِيرُ جندك تستبرئون ممّن مررت به، حتّى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي أميّة باليمن، وحضرموت^(١).

ونلاحظ: أنّ الصّدّيق حينما وجّه الجيوش لقتال المرتدّين وجّه إلى مسيلمة الكذاب جيشين أحدهما بقيادة عكرمة بن أبي جهل، والثاني بقيادة شرحبيل بن حسنة، وهذا دليل على خبرة أبي بكر الدّقيقة بدرجات القوّة عند الأعداء، ومقدار مقدرتهم على الصُّمود، وحينما تعجل عكرمة لحرب مسيلمة، فنُكِب هو وجيشه؛ أرسل إليه أبو بكر يقول له: (لا أرينك، ولا تراني على حالها، ولا ترجع فتوهن النّاس).

وهذا أيضاً من خبرة أبي بكر الحربيّة، فإنّ الرُّوح المعنوية لها أثر كبير في نتائج المعارك، فإذا قدم هؤلاء المنهزمون فقابلوا الجيش المتوجّه لقتال الأعداء، فإنّ نفوس أفراد هذا الجيش سيكون فيها شيءٌ من التّخوّف، والضعف، خصوصاً فيما إذا رَوَى لهم المنهزمون شيئاً عن ضخامة جيش الأعداء، وقوّته^(٢)، وقد كان البعد الحربيّ عند الصّدّيق واضحاً، فأرسل عكرمة، وجيشه إلى مناطق أخرى، وحقّق نجاحاً باهراً، فارتفعت معنويّات جيشه.

وعندما رجع معاذ من اليمن إلى المدينة، واستقبله الصّدّيق، وكان من عاداته مراقبة عماله، ومحاسبتهم بعد فراغهم من عملهم، قال الصّدّيق لمعاذ: ارفع حسابك، فقال معاذ: أحسابنا: حسابُ الله، وحسابُ منكم؟ والله لا ألي لكم عملاً أبداً^(٣)!

• توحيد اليمن، ووضوح الإسلام عند أهله، وطاعتهم للخليفة:

وبعد انتهاء حروب الردّة تجمّعت اليمن تحت قيادة مركزية عاصمتها المدينة المنوّرة، وقُسم اليمن إلى أقسامٍ إدارية، لا وحداتٍ قبليّة، فقد قُسم إلى ثلاثة أقسامٍ إداريّة: صنعاء،

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٤.

(٢) التّاريخ الإسلامي للحمدي، مرجع سابق، ج ٩، ص ٨٣.

(٣) عيون الأخبار (١/١٢٥).

والجند، وحضرموت، ولم تعد العصبيّة القبليّة أساساً في الزّعامه، أو في التّولية، ولم تعد القبيلة سوى وحدة عسكريّة، لا سياسيّة، وأصبحت المقاييس المعتمدة هي المقاييس الإيمانيّة؛ التّقوى، والإخلاص، والعمل الصّالح^(١).

وتخلّصت اليمن من بقايا الشّرك، ومن جميع مظاهره - شرك في الاعتقاد، أو شرك في القول، أو شرك في الفعل: تركاً، أو إتياناً - وأدركوا: أنّ النّبوة أرفع من أن يدّعيها مدّع عابث، ويتّخذها وسيلة إلى غرضه، ورغبته^(٢)، وأيقنوا: أنّ الإيمان لا يلتقي مع المطامع، وأنّ الإسلام لا يتفق مع الجاهلية، عرفوا ذلك بالدماء، والألم، والحسرات، فقتل من كلا الطرفين الكثير، وتعلّم منهم الكثير^(٣)، ورجع من كان قد ارتدّ إلى الإسلام يرجو التّكفير عمّا بدر^(٤)، وأذن لهم بالجهاد في عصر الخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقد برزت قياداتٌ يمنيّةٌ إسلاميّةٌ في الفتوحات، قد تربّت وانصهرت في أحداث الردّة، وكانوا من الثابتين على الإسلام كجرير بن عبد الله البجليّ، وذو الكلاع الحميريّ، ومسعود بن العكيس، وجرير بن عبد الله الحميريّ، وغيرهم، وكان لهذه القيادات أدوارٌ بارزة في الفتوحات الإسلاميّة، وفي عمران مدنٍ جديدةٍ في الكوفة، والبصرة، والعراق، والفسطاط بمصر، وبرزت - أيضاً - شخصياتٌ يمنيّةٌ عُيّنَت في اليمن، وغير اليمن قضاءً، وولاءً، مثل: حشك عبد الحميد، وسعيد بن عبد الله الأعرج، وشرحبيل بن السّمط الكنديّ، وغيرهم^(٥).

والتحم أهل اليمن بالدّولة الإسلاميّة وبقيادتها سواءً التي عليهم مباشرة، أو القيادة العامّة (الخليفة) في المدينة، ولهذا حينما دعاهم الخليفة للجهاد؛ سارعوا طواعيةً، ورغبةً في الجهاد - كما سيأتي تفصيله بإذن الله تعالى.

(١) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٩٠.

(٢) الخلافة الرّاشدة، والخلفاء الرّاشدون، يوسف علي، ص ٣٩.

(٣) ظاهرة الردّة، محمّد بريغش، ص ١٥٩.

(٤) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٨٩.

(٥) المصدر السّابق نفسه، ص ٢٩١.

لقد تربّوا في أحداث الردّة تربيّةً كافيةً، جعلتهم موصولين بالقيادة، واثقين بها، ولذا ساد الهدوء، والاستقرار، وأصبحوا خير مددٍ للإسلام، والمسلمين^(١).

٢- القضاء على فتنة طليحة الأسدي:

طليحة الأسدي هو المتنبي الثالث من المتنبيّة الذين ظهرُوا في الإسلام أو آخر عهد رسول الله ﷺ بالحياة، وطليحة هذا هو: طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الأسدي، ولقد قدم مع وفد قومه أسد على رسول الله ﷺ في عام الوفود سنة تسع للهجرة، فسلموا عليه، وقالوا له ممتنّين: جئناك نشهد أن لا إله إلا الله، وأنت عبده ورسوله، ولم تبعث إلينا، ونحن لمن وراءنا، فأنزل الله عزّ وجلّ قوله: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بِلِ اللَّهِ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]. ولما عادوا ارتدّ طليحة، وتنبأ^(٢)، وعسكر في سميراء (منطقة في بلادهم)، وأتبعه العوام، واستكشف أمره (وأول ما صدر عنه - وكان سبباً لضلال الناس: أنّه كان مع بعض قومه في سفرٍ فأعوزهم الماء، وغلب العطش على الناس فقال: اركبوا أعلاّلاً (اسم فرسه) واضربوا أميالاً؛ تجدوا بلالاً. ففعلوا، فوجدوا الماء، فكان ذلك سبب وقوع الأعراب في الفتنة)^(٣).

ومن خزعبلاته: أنّه رفع السجود من الصلّاة، وكان يزعم: أن الوحي يأتيه من السّماء، ومن أسجاعه التي ادّعى أنّه يوحى له بها قوله: والحمام، واليّمَام، والصُّرد الصَّوَام قد ضُمنَ قبلكم بأعوام؛ ليلغن ملكنا العراق، والشام^(٤) وغرّته نفسه، واشتدّ أمره، وقويت شوكته، فبعث رسول الله ﷺ ضرار بن الأزور الأسدي لمقاتلته؛ لما سمع من أمره، ولكنّ ضراراً لم يكن له به قبل، وذلك لتعاظم قوّته مع الزّمن، ولا سيّما بعد أن امن به الحليفان:

(١) اليمن في صدر الإسلام، ص ٢٩١.

(٢) أسد الغابة (٩٥/٣).

(٣) حروب الردة، لمحمد أحمد باشميل، ص ٧٩.

(٤) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٣.

أسد، وغطفان^(١)، وتقول عنه دائرة المعارف الإسلامية: ويروى عنه أنه كان يرتجل الشعر، ويخطب عفو الساعة في ميدان القتال.. ويبدو أنه كان مثلاً - حقاً - للزعيم القبلي الجاهلي.

وقد اجتمعت فيه صفات: العراف، والشاعر، والخطيب، والمقاتل^(٢).

ويُشَمُّ من هذا النص رائحة المدح المبطن لطليحة من قبل هذه الموسوعة الشهيرة، فهو في نظرها الزعيم القبلي المثال، يرتجل الشعر، والخطابة، وهما أهم ما كان يحرص عليه العربي آنذاك، ولا يستغرب هذا الاتجاه من هذه الموسوعة التي جعلت من اللمز في الإسلام ديدنها، سواء أعرفت: أن طليحة عاد فأسلم، وحسن إسلامه، أم لم تعرف.

وتوفي رسول الله، ولم يحسم أمر طليحة^(٣) وتولى الخلافة الصديق (رضي الله عنه) وعقد الألوية للجيش، والأمراء للقضاء على المرتدين، وكان من ضمنهم طليحة، ووجه إليه الصديق جيشاً بقيادة خالد بن الوليد، روى الإمام أحمد... أن أبا بكر الصديق لما عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الردة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نعم عبد الله، وأخو العشيرة خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله الله على الكفار، والمنافقين»^(٤).

ولما توجه خالد من ذي القصة، وفارقه الصديق، واعدده أنه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء، وأظهروا ذلك ليرعبوا الأعراب، وأمره أن يذهب أولاً إلى طليحة الأسدي، ثم يذهب بعده إلى بني تميم، وكان طليحة بن خويلد في قومه بني أسد، وفي غطفان، وانضم إليهم بنو عبس، وذيبيان، وبعث إلى بني جديلة، والغوث من طيائي يستدعيهم إليه، فبعثوا أقواماً منهم بين أيديهم ليلحقوهم على أثرهم سريعاً، وكان الصديق قد بعث عدي بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة، فيكون دمارهم. فذهب عدي

(١) أسد الغابة (٩٥/٣).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (طليحة)، نقلاً عن حركة الردة، ص ٧٨.

(٣) حركة الردة للعتوم، ص ٧٨.

(٤) مسند أحمد (١٧٣/١) وقال الشيخ أحمد شاکر: إسناده صحيح.

إلى قومه بني طيائي فأمرهم أن يبايعوا الصديق^(١)، وأن يراجعوا أمر الله، فقالوا: لا نبايع أبا الفصيل^(٢) أبداً. يعنون: أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فقال: والله ليأتينكم جيشه فلا يزالون يقاتلونكم حتى تعلموا: أنه أبو الفحل الأكبر! ولم يزل عدي يقتل لهم في الذروة والغارب حتى لانوا، وجاء خالد في الجنود، وعلى مقدمة الأنصار الذين معه ثابت بن قيس بن شماس، وبعث بين يديه ثابت بن أقرم، وعكاشة بن محصن طليعة، فتلقاهما حيال - ابن أخي طليحة - فقتلاه، فبلغ خبره طليحة، فخرج هو وأخوه سلمة، فلمّا وجدا ثابتاً، وعكاشة تبارزوا؛ وحمل طليحة على عكاشة فقتله، وقتل سلمة ثابت بن أقرم، وجاء خالد بمن معه فوجدوهما صريعين، فشق ذلك على المسلمين، ومال خالد إلى بني طيائي فخرج إليه عدي بن حاتم، فقال: أنظرني ثلاثة أيام، فإنهم قد استنظروني حتى يبعثوا إلى من تعجل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم، فإنهم يخشون إن تابعوك أن يقتل طليحة من سار إليه منهم، وهذا أحب إليك من أن يعجلهم إلى النار، فلمّا كان بعد ثلاث جاءه عدي في خمسمئة مقاتل ممّن راجع الحق، فانضافوا إلى جيش خالد، وقصد خالد بني جديلة، فقال له: يا خالد! أجّلني أياماً حتى أتيتهم، فلعلّ الله أن ينقذهم كما أنقذ الغوث^(٣) فأتاهم عديّ، فلم يزل بهم حتى بايعوه، فجاء بإسلامهم، ولحقّ بالمسلمين منهم ألف راكب، فكان عديّ خير مولود، وأعظمه بركة على قومه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤).

أ- معركة بازخة والقضاء على بني أسد:

ثمّ سار خالد حتى نزل باجا، وسلمى، وعبّى جيشه هنالك، والتقى مع طليحة الأسدي بمكان يقال له: «بازخة» ووقفت أحياء كثيرة من الأعراب ينظرون على من تكون الدائرة، وجاء طليحة فيمن معه من قومه، ومن التفّ معهم، وانضاف إليهم، وقد حضر معه عينة

(١) ترتيب وتهذيب كتاب البداية والنهاية، خلافة أبي بكر، د. محمد بن صامل السلمي، ص ١٠١.

(٢) الفصيل: ولد الناقة.

(٣) البداية والنهاية، تهذيب محمد السلمي، ص ١٠٢.

(٤) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٢.

بن حِصْن في سبعمئة من قومه بني فزارة، واصطفَّ النَّاسُ، وجلس طليحة ملتفًّا في كساءٍ له يتنبأ لهم، ينظر ما يوحى إليه فيما يزعم، وجعل عينة يقاتل حتَّى إذا ضجر من القتال جاء إلى طليحة، وهو ملتفُّ في كسائه، وقال له: أجاك جبريل؟ فيقول: لا، فيرجع، فيقاتل، ثمَّ يرجع، فيقول له مثل ذلك ويردُّ عليه مثل ذلك، فلمَّا كان في الثالثة قال له: هل جاءك جبريل؟ قال: نعم، قال: فما قال لك؟ قال: قال لي: إنَّ لك رحاً كرحاه، وحديثاً لا تنساه، قال:

يقول عينة: أظنُّ أنَّه قد علم الله سيكون لك حديثٌ لا تنساه، ثمَّ قال: يا بني فزارة! انصرفوا، وانهمز، وانهمز النَّاسُ عن طليحة، فلمَّا جاءه المسلمون ركب على فرسٍ كان قد أعدَّها له، وأركب امرأته التَّوَارَ على بعيرٍ له، ثمَّ انهمز بها إلى الشَّام، وتفرَّق جمعه، وقد قتل الله طائفةً ممَّن كان معه^(١).

وقد كتب أبو بكر الصِّديق إلى خالد بن الوليد حين جاءه: أنَّه كسر طليحة ومن كان في صفِّه، وقام بنصره، فكتب إليه ليزودك ما أنعم الله به خيراً! وأتق الله في أمرك، فإنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، جدَّ في أمرك، ولا تلن، ولا تظفر بأحدٍ من المشركين قتل من المسلمين إلَّا نكَلَّتْ به، فأقام خالد ببازخة شهراً يُصعِّد عنها، ويصوِّب، ويرجع إليها في طلب الذي وصاة الصديق، فجعل يتردَّد في طلب هؤلاء شهراً يأخذ بثأر مَنْ قتلوا من المسلمين الَّذِينَ كانوا بين أظهرهم حين ارتدُّوا، فمنهم من حرَّقه بالنَّار، ومنهم مَنْ رَصَّخه بالحجارة، ومنهم مَنْ رَمَى به من شواحق الجبال، كلُّ هذا ليعتبر بهم مَنْ يسمع بخبرهم من مرتدَّة العرب^(٢).

ب - وفد بني أسد وغطفان إلى الصِّديق، وحكمه عليهم:

لمَّا قدم وفد بازخة - أسد، وغطفان - على أبي بكر يسألونه الصُّلح؛ خيَّرهم أبو بكر بين حرب مُجَلِّية، أو خطَّة مخزية. فقالوا: يا خليفة رسول الله! أما الحرب المجلية فقد عرفناها،

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٢٢٣).

فما الخطّة المخزية؟ قال: تؤخذ منكم الحلقة، والكراع، وتتركون أقواماً تتبعون أذئاب الإبل حتّى يُري الله خليفة نبيّه، والمؤمنين أمراً يعذرونكم به، وتودون ما أصبتم منّا، ولا نودي ما أصبنا منكم، وتشهدون أنّ قتلانا في الجنّة، وأنّ قتلاكم في النّار، وتدون قتلانا، ولا ندي قتلاكم. فقال عمر: أمّا قولك تدون قتلانا؛ فإنّ قتلانا قُتلوا على أمر الله، لا ديات لهم، فامتنع أبو بكر، وقال عمر في الثاني: نعم ما رأيت^(١).

ج - قصّة أم زمل:

كان قد اجتمع طائفة كثيرة من الضّلال من أصحاب طليحة من بني غطفان إلى امرأة يقال لها: أم زمل - سلمى بنت مالك بن حذيفة - في مكان يسمّى ظَفَر^(٢)، وكانت من سيدات العرب كأُمّها أم قِرْفَة^(٣)، وكان يُضرب بأُمّها المثل في الشّرف؛ لكثرة أولادها، وعزّة قبيلتها، وبيتها، فلمّا اجتمعوا إليها، ذمّهم لقتال خالد، فهاجوا لذلك، وناشب إليهم اخرون من بني سُليم، وطياي، وهوازن، وأسد، فصاروا جيشاً كثيفاً، وتفحّل أمر هذه المرأة، فلمّا سمع بهم خالد بن الوليد؛ سار إليهم، واقتتلوا قتالاً شديداً، وهي راكبة على جمل أمّها؛ الذي كان يقال له: مَنْ نخسه فله مئة من الإبل، وذلك لعزّها، فهزمهم خالد وعقر جملها، وقتلها، وبعث بالفتح إلى الصّديق^(٤).

د - دروس، وعبر، وفوائد:

• ثقة الصّديق بالله، وخبرته الحربيّة:

قول الصديق لعديّ بن حاتم: أدرك قومك، لا يلحقوا بطليحة، فيكون دمارهم. فيه مثال على قوّة يقين أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وثقته بنصر الله، فقد حكم على نتيجة المعركة مع طياي قبل الدّخول فيها، وفي أمر أبي بكر خالداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بأن يبدأ بحرب قبيلة طياي مع أنّها أبعد من

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٢٢٣).

(٢) ظَفَر: اسم موضع قرب الحووب في طريق البصرة إلى المدينة.

(٣) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٦.

(٤) المصدر السابق نفسه.

تجمع طليحة خطةً حربيةً ناجحةً، وذلك ليحول دون انضمام طيائي إلى طليحة، وليضطر من انضم إليه منهم إلى التخلي عنه للدفاع عن قبيلتهم، ثم في إظهار أبي بكر: أنه خارجٌ جهة خيبر ليلافي خالدًا ببلاد طيائي تخطيطٌ حربِيٌّ بارِعٌ، وذلك لإرهاب تلك القبيلة، والقبائل المجاورة، وتظهر براعة الصديق في اختيار الرجال أن اختار لهذه المهمة التي لها ما بعدها أبا سليمان خالد بن الوليد الذي لم تنتكس له راية^(١).

وفي خطاب الصديق لخالد بعد انتهاء معركة بزاخة فوائد منها:

الدُّعاء لخالد الذي يُفهم منه الشَّاء عليه بإحسانٍ، كما يتضمَّن أمره بتقوى الله، وذلك فيه العصمة من الوقوع في الزَّلَل، واتباع الهوى، كما أمره بالجدِّ، والحزم مع الأعداء لأنَّهم مازالوا في فورة طغيانهم.

وهذا موقفٌ قويٌّ يدلُّ على حزم الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبصيرته النافذة، فهناك قبائل لا تزال متحيرةً، ومرتددةً بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والخير والشرِّ، والإيمان والكفر؛ بحاجةٍ إلى تأديبٍ وردعٍ، حتَّى يزول طغيانهم، فالموقف من أبي بكرٍ يقتضي أعلى درجات القوة، والحزم، والسرعة، فكانت منه القوة في محلِّ القوة، كما كان منه اللين في محلِّ اللين.

قال الشاعر:

ووضعُ النَّدَى في موضعِ السَّيفِ للنَّدَى مُضِرٌّ كوضعِ السَّيفِ في موضعِ النَّدَى^(٢)

وفي موقف الصديق في عدم قبول استسلام هؤلاء المحاربين، وعدم قبول الصلح إلا بحربٍ مجليةٍ، أو خطةٍ مخزيةٍ إظهار عزة الإسلام، وهيبة دولته، فكانت شروطه في الصلح قويةً، وكان من أشدها عليهم مصادرة أسلحتهم، وخیولهم، وكان هذا الشرط مؤقَّتًا بظهور صدق توبتهم، وخضوعهم لدولة الإسلام، وقد كان لا بدَّ منه لضمان عدم عودتهم إلى التمرد

(١) التَّاريخ الإسلامي للحميدي، مرجع سابق، ج ٩، ص ٦٠-٦٣.

(٢) المرجع السابق، ج ٩، ص ٦٤-٦٥.

مرّة أخرى^(١).

• نصح عديّ بن حاتم لقومه، والحرب النفسيّة التي شنها عليهم:

قدم عديّ على قومه طيّباً فدعاهم للرّجوع للإسلام، فقالوا: لا نبايع أبا الفصيل أبداً^(٢)، فقال: لقد أتاكم قوم ليبحجن حريمكم، ولتكنّنه بالفحل الأكبر، فشأنكم به. فقالوا له: فاستقبل الجيش فنهذه^(٣) عنّا حتى نستخرج من لحق بالبازخة منّا فإنّا إن خالفنا طليحة، وهم في يديه قتلهم، أو ارتهانهم. فاستقبل عديّ خالداً وهو بالسُّنح، فقال: يا خالد أمسك عني ثلاثاً يجتمع لك خمسمئة مقاتل، تضرب بهم عدوك، وذلك خير من أن تُعجلهم إلى النار، وتتشاغل بهم، ففعل، فعاد عديّ بإسلامهم إلى خالد^(٤).

فهذا موقفٌ استطاع فيه عديّ أن يقنع قبيلته بفرعيها بني الغوث، وبني جديلة بالتّخلي عن معسكر طليحة، والانضمام إلى جيش خالد بن الوليد، وهذا تحوّل مهمّ في تقرير نتائج معركة بزاخة الحاسمة، فهذا موقفٌ عظيمٌ يسجل لعديّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى جانب موقفه الأوّل حينما قدم على الصّديق بصدقات قومه، وكان المسلمون بأمر الحاجة إلى المال آنذاك، ولقد كان إسلامه من أوّل يومٍ إسلام رجل العلم، والفهم، فكان عن قناعة واختيار، وكان واثقاً من انتصار الإسلام والمسلمين في النهاية، كما بشره بذلك النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم إسلامه، فكان لإيمانه القوي أثرٌ في إقناع قومه في العدول عمّا توجّهوا إليه من مناصرة أعداء الإسلام، ولم تكن قناعتهم إلى حدّ الحياد والانتظار حتّى يروا لمن تكون الدّائرة، بل انضمّ منهم ألفٌ وخمسمئة إلى جيش المسلمين، ممّا يدلّ على مبلغ أثره فيهم^(٥). وجاء في رواية: أنّ قومه طلبوا من خالد بأن يقاتلوا قيساً؛ لأنّ بني أسد حلفاؤهم، فقال لهم خالد: والله ما

(١) المصدر السابق نفسه (٦٦/٩).

(٢) يريدون بذلك أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والبكر والفصيل: اسمان لولد الناقة.

(٣) أي: ادفعه، وكفه.

(٤) التّاريخ الإسلامي (٥٧/٩).

(٥) التّاريخ الإسلامي (٦١/٩).

قيس بأوهن الشوكتين، اصمدوا إلى أي القبيلتين أحببتهم، فقال عديُّ: لو ترك هذا الدِّين أسرتي الأدنى فالأدنى من قومي؛ لجاهدتهم عليه، فأنا أمتنع من جهاد بني أسد لحلفهم! لا لعمر الله لا أفعل! فقال له خالد: إنَّ جهاد الفريقين جميعاً جهادٌ، لا تخالف رأي أصحابك، امضِ إلى أحد الفريقين وامضِ بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط^(١).

وفي إنكار عديٍّ على قومه دليلٌ على قوة إيمانه، وغزارة علمه، حيث والى أولياء الله؛ وإن كانوا بعيدين عنه في النسب، وتبرأ من أعداء الله؛ وإن كانوا من أقاربه^(٢)، كما تظهر خبرة خالد بن الوليد الحربيّة حينما أمر عديّاً بأن لا يخالف قومه في تمنّعهم في مواجهة حلفائهم بني أسد، وأن يوجههم إلى الوجه الجهاديِّ الذي يكونون فيه أنشط على القتال^(٣).

لقد كان الدور الذي قام به عديٌّ في دعوة قبيلته إلى الانضمام إلى جيش المسلمين عظيماً، فكان دخول طيَّاي في جيش خالد أوّل وهنٍ أصيب به الأعداء؛ لأنَّ قبيلة طيَّاي من أقوى قبائل جزيرة العرب، وممَّن كانت القبائل تحسب لها حساباً، وتُنظر إليها باعتبارها على درجةٍ من القوّة بحيث كانت مرهوبة الجانب، عزيزةً في بلادها، تتقرَّب إليها جاراتها بالتَّحالف معها. لقد التقى الجمعان بعد أن دبَّ الوهن في نفوس الأعداء، فكتب الله النَّصر لجيش المسلمين، فسرعان ما طفقوا يقتلون، ويأسرون؛ حتّى أبادوا جميع أعدائهم وهرب قائدهم طليحة على فرسه، ولم يسلم منهم إلا من استسلم، أو هرب، وبعد هذه الواقعة انتشر الضَّعف في نفوس المرتدِّين من قبائل الجزيرة، فأصبح الجيش الإسلامي لا يجد عناءً في هزيمة مَنْ تجمّع منهم في أماكن أخرى^(٤).

أسباب هزيمة طليحة بن خويلد الأسديّ:

كانت هناك مجموعةٌ من الأسباب ساهمت في هزيمة طليحة الأسديّ منها:

- (١) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٧٥.
- (٢) التَّاريخ الإسلامي (٦١/٩).
- (٣) المصدر السَّابق نفسه.
- (٤) الحرب النفسيّة من منظورٍ إسلاميٍّ، د. أحمد نوفل (٢/ ١٤٣، ١٤٤).

• إِنَّ المسلمين كانوا يقاتلون مدفوعين بعقيدة راسخة، وبقين بنصر الله، وحب في الشهادة، فكان حب الموت في سبيل الله تعالى سلاحاً معنوياً فتاكاً، فكان خالد يرسل للمرتدين هذه الكلمات القلائل: لقد جئكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة^(١)، ولقد عرف العدو نفسه من خلال تعامله مع قوات المسلمين في المعارك التي خاضوها معه صدقهم في تنفيذ هذا المبدأ، فقد سأل طليحة الأسدي قومه لما انهزموا في موقعة بزاخة مع جيش خالد بشيء كبير من الحق والتعجب: (ويلكم ما يهزمكم؟! فقال رجل منهم: أنا أخبركم؛ إنه ليس رجل (منّا) إلا وهو يحب أن يموت قبله صاحبه، وإننا نلقى أقواماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه^(٢)).

• كان لانضمام طيائي أثره في تقوية المسلمين، وإضعاف أعدائهم، كما كان مقتل الصحابيَّين عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم قد زاد من غيظ المسلمين ودفعهم إلى قتال أعدائهم، كما كان لتورية أبي بكر الصديق تأثير على طيائي في عدم التعاون مع حلفائها، وبقائها في مواضعها الأصلية، وأما التورية المشار إليها فإن الصديق أوهم الناس أنه متوجه إلى خيبر بدلاً من الجهة الأصلية التي حُدّت للجيش، كما كان لإفساح المجال لطيائي كي تقاتل قيساً كما أرادت شجعها على الاستقلال في الحرب؛ إذ لو أمر خالد على أن يقاتلوا حلفاءهم من بني أسد، كما أراد عدي بن حاتم؛ لقصرت طيبي في حربها أيما تقصير^(٣)، وغير ذلك من الأسباب.

• من نتائج معركة بزاخة:

القضاء على قوة أحد الأدعياء الأقوياء، وعودة فريق كبير من العرب إلى حظيرة الإسلام، فقد أقبلت بنو عامر بعد هزيمة بزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه، فبايعهم خالد على ما بايع عليه أهل بزاخة من أسد وغطفان وطيائي قبلهم، وأعطوه بأيديهم على الإسلام، ولم

(١) حركة الردة للعتوم، ص ٢٨٩.

(٢) تاريخ الخميس للديار بكري (٢٠٧/٢) نقلاً عن حركة الردة للعتوم، ص ٢٨٩.

(٣) خالد بن الوليد، شيت خطاب، ص (٩٦، ٩٧) نقلاً عن حروب الردة، أحمد سعيد، ص ١٢٤.

يقبل أحد من أسدٍ، ولا غطفان، ولا هوازن، ولا سليم، ولا طيَّاي إلا أن يأتوه بالَّذين حرقوا، ومثَّلوا، وعدَّوا على أهل الإسلام في حال ردَّتْهم. فأتوه بهم... فمثَّل خالد بن الوليد بالَّذين عدوا على الإسلام، فأحرقهم بالنَّيران، ورضخهم بالحجارة، ورمى بهم في الجبال، ونكَّسهم في الآبار، وخرَّقهم بالنَّبال، وبعث بقرَّة بن هبيرة، والأسارى، وكتب إلى أبي بكر: إن بني عامرٍ أقبلت بعد إعراضٍ، ودخلت في الإسلام بعد تربُّصٍ، وإنِّي لم أقبل من أحد قاتلني، أو سالمني شيئاً حتَّى يجيئوني بمن عدا على المسلمين، فقتلتهم كلَّ قتلَةٍ، وبعثت إليك بقرَّة، وأصحابه^(١)، وكان عينة بن حصن من بين الأسرى فأمر خالد بشدِّ وثاقه تنكيلاً به، وبعثه إلى المدينة ويده إلى عنقه إزراءً عليه وإرهاباً لسواه، فلمَّا دخل المدينة على هيئته تلقَّاه صبيان المدينة مستهزئين، وأخذوا يلكزون به بأيديهم الصَّغيرة قائلين: (أي عدو الله! ارتددت عن الإسلام!!) فيقول: والله ما كنت امنت قطُّ، وجيء به إلى خليفة رسول الله، ولقي من الخليفة سماحةً لم يصدِّقها، وأمر بفكِّ يديه، ثم استتابه، فأعلن عينة توبهً نصوحاً، واعتذر عمَّا كان منه، وأسلم، وحسن إسلامه^(٢)

ومضى طليحة، حتَّى نزل كلب^(٣) على النَّقع، فأسلم، ولم يزل مقيماً في كلب حتَّى مات أبو بكر، وكان إسلامه هنالك حين بلغه: أن أسداً، وغطفان، وعامراً قد أسلموا، ثمَّ خرج نحو مكَّة معتمراً في إمارة أبي بكرٍ، ومرَّ بجنابات المدينة، فقبل لأبي بكرٍ: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به! خلُّوا عنه، فقد هداه الله للإسلام^(٤).

وقد جاء عند ابن كثيرٍ: وأمَّا طليحة فإنَّه راجع الإسلام بعد ذلك أيضاً، ذهب إلى مكَّة معتمراً أيَّام الصَّدِّيق، واستحيا أن يواجه مدَّة حياته، وقد منع الصَّدِّيق المرتدِّين من المشاركة في فتوحاته بالعراق، والشَّام، ويحتمل أن يكون ذلك من باب الاحتياط لأمر الأُمَّة؛ لأنَّ من

(١) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٨٢.

(٢) الصَّدِّيق أول الخلفاء، ص ٨٧.

(٣) أي: نزل في قبيلة كلب.

(٤) التَّاريخ الإسلامي (٥٩/٩).

كان له سوابق في الضلال والكيد للمسلمين لا يؤمن أن يكون رجوعه من باب الاستسلام لقوة المسلمين، فأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الأئمة الذين يرسمون للناس خطاً سيرهم، ويتأسى بهم الناس بأقوالهم، وأفعالهم، فهو لذلك يأخذ بمبدأ الاحتياط لما فيه صالح الأمة وإن كان في ذلك وضع من شأن بعض الأفراد^(١).

وهذا درسٌ عظيمٌ تتعلّمه الأمة في عدم وضع الثقة بمن كانت لهم سوابق في الإلحاد، ثم ظهر منهم العودة إلى الالتزام بالدين.

إنَّ وضع الثقة الكاملة بهؤلاء، وإسناد الأعمال القيادية لهم قد جرَّ على الأمة أحياناً ويلاتٍ كثيرة، وأوصلها إلى مازق خطيرة، على أن أخذ الحذر من مثل هؤلاء لا يعني اتهامهم في دينهم، ولا نزع الثقة منهم بالكليّة، وهذا معلّمٌ من سياسة الصديق في التعامل مع أمثال هؤلاء^(٢).

هذا وقد حسن إسلام طليحة، وأتى عمر إلى البيعة حين استخلف، وقال له عمر: أنت قاتل عكاشة، وثابت^(٣)، والله لا أحبُّك أبداً، فقال: يا أمير المؤمنين! ما تهتمُّ من رجلين أكرمهما الله بيدي، ولم يهنيّ بأيديهما! فبايعه عمر، ثم قال له: يا خُدع! ما بقي من كهانتك؟ قال: نفخة أو نفختان بالكبير، ثم رجع إلى دار قومه، فأقام بها حتّى خرج إلى العراق^(٤)، وقد كان إسلامه صحيحاً، ولم يُغمض^(٥) عليه فيه، وقال يعتذر، ويذكر ما كان منه:

نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ قَتْلِ ثَابِتٍ وَعُكَّاشَةَ الْغَنَمِينَ ثُمَّ ابْنِ مَعْبَدٍ
وَأَعْظَمُ مِنْ هَاتَيْنِ عِنْدِي مَصِيبَةٌ رَجُوعِي عَنِ الْإِسْلَامِ فَعَلَّ التَّعَمُّدُ

(١) المصدر السابق نفسه (٦٧/٩).

(٢) التّاريخ الإسلامي (٦٧/٩).

(٣) عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) التّاريخ الإسلامي (٥٩/٩)؛ تاريخ الطبري (٨١/٤).

(٥) يطعن فيه.

وتركي بلادي والحوادث جَمَّةُ طريداً وقدماً كنتُ غَيْرَ مطرد
 فهل يقبل الصَّدِيقُ أنِّي مراجعُ ومُعْطٍ بما أحدثتُ مِنْ حَدَثٍ يدي
 واني مِنْ بَعْدِ الضَّلالةِ شاهدُ شهادةٍ حقٍّ لَسْتُ فيها بملحد
 بأنِ إلهِ النَّاسِ ربِّي وأنَّني ذليلٌ وأنَّ الدِّينَ دينُ مُحَمَّدٍ^(١)
 هـ قصَّةُ الفجاءة:

واسمه إياس بن عبد الله بن عبد يلايل بن عمير بن خُفَّاف من بني سُليم، قال ابن إسحاق: وقد كان الصَّدِيقُ حَرَّقَ الفجاءةَ بالبقيع في المدينة، وكان سببه: أنَّه قدم عليه، فزعم: أنَّه أسلم، وسأل منه أن يجهَّز معه جيشاً يقاتل به أهل الردَّة، فجهَّز معه جيشاً، فلمَّا سار جعل لا يمرُّ بمسلمٍ ولا مرتدٍّ إلا قتله، وأخذ ماله، فلمَّا سمع الصَّدِيقُ بعث وراءه جيشاً فردَّه، فلمَّا أمكنه الله منه بعث به إلى البقيع، فجمعت يداه إلى قفاه وألقي في النَّار، فحرَّقه، وهو مَقْمُوطٌ^{(٢)(٣)}، وكان الَّذي ألقى القبض عليه طريفة بن حاجر، وهذا يظهر لنا دور مسلمي سليم في محاربة المفسدين في الأرض والمرتدِّين^(٤).

وهذه العقوبة بسبب غدر الفجاءة، أو لأنَّه قد يكون ارتكب في ضحاياهِ من المسلمين جريمة الإحراق مرَّةً، أو مرَّاتٍ^(٥).

ويذكر بعض أهل الشبه والشهوات أن أبا بكر حرق بالنار، وخالف أمر النَّبيِّ، حيث ورد عنه أنه نهى عن التحريق بالنار.

جاءت بعض الآثار في كتب التاريخ عن بعض الصحابة أنهم حرقوا بالنار، وأشهر من

(١) ديوان الردَّة للعتوم، ص ٨٦.

(٢) أي: شدَّت يداه، ورجلاه كهيئة المهاد للطفَّل.

(٣) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٠٦.

(٤) الثابتون على الإسلام، ص ٢٧.

(٥) حركة الردَّة للعتوم، ص ١٨٥.

ورد عنه ذلك هو علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإذا كان الشيعة يعدون ذلك من المطاعن فعليهم أن يجيبوا عما ورد عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه المسألة

والقصة التي يشيرون إليها جاءت في بعض كتب التاريخ، تذكر أن أبا بكر قد أمر أن يحرق الفجاءة في البقيع في المدينة، وكان سببه أنه قدم عليه فزعم أنه مسلم، وسأل منه أن يجهز معه جيشا يقاتل به أهل الردة، فجهز معه جيشاً، فلما سار جعل لا يمر بمسلم ولا مرتد إلا قتله وأخذ ماله، فلما سمع الصديق بعث وراءه جيشاً فردّه، فلما أمكنه بعث به إلى البقيع، فجمعت يداه إلى قفاه وألقي في النار، فحرقه وهو مقموط^(١). ولم تُذكر هذه القصة في كتب السنة أو الحديث المعتمدة، فهي من الروايات التاريخية التي لا يلزم من ورودها القطع بصحتها، وعلى اعتبار ثبوت ذلك عن أبي بكر، أو غيره سنين أن هذه مسألة من المسائل الخلافية التي تكلم الفقهاء بها وذكروا أن فيها خلافاً قديماً بين الصحابة لوجود عدة نصوص عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بعضها يثبت التحريق وبعضها تمنع ذلك، فلا ينبغي أن يجعل ذلك من المطاعن على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، سواء من كان يرى الجواز أو المنع.

ذهب بعض أهل العلم إلى أن تحريق العدو وتعذيبه بالنار إذا ظفر به قد نسخ؛ لذلك لا يجوز تحريق وتعذيب من ظفر منهم بالنار.

وممن صرح بالنسخ: الحازمي، وأبو إسحاق الجعبري، وابن حجر، والعيني.

وتبين منه أن القول بالنسخ أحد أسباب اختلاف أهل العلم في المسألة. كما أن تعارض الأدلة سبب آخر لاختلافهم فيها.

ويستدل للقول بالنسخ، بما يلي:

أولاً: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعث فقال: «إن

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٩، ص ٤٥٧.

وجدتم فلاناً وفلاناً فأحرقوهما بالنار». ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: إني أمرتكم أن تحرقوا فلاناً وفلاناً، وإن النار لا يعذب بها إلا الله، فإن وجدتموهما فاقتلوهما^(١). وهذا قول جمهور أهل العلم^(٢).

القول الثاني: يجوز إحراق العدو بالنار إذا قدر عليه.

قال به بعض أهل العلم، وروى ذلك عن أبي بكر، وعلي، وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ويستدل للقول الأول بالأحاديث التي سبق ذكرها من أمر النبي ﷺ بذلك أولاً^(٣). ويستدل كذلك بما روي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم أناس من عكل أو عُرينة فاجتووا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ بلقاح وأن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا النعم، فجاء الخبر في أول النهار، فبعث في آثارهم، فلما ارتفع النهار جيء بهم، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم وألقوا في الحر يستسقون فلا يسقون^(٤). وفي رواية: وسمل أعينهم^(٥).

وسمل العين فقوّها بالحديد المحمّي^(٦). ووجه الاستدلال منها: أنّها تدل على جواز تعذيب العدو بالنار؛ لأن النبي - ﷺ - سمل أعين المرتدين بالحديد المحمّي^(٧). فالمسألة لا تعدو أن تكون من ضمن المسائل الفقهية التي تحتل الخلاف لوجود مسوغات له كآلاف المسائل الفقهية غيرها، ولا يجوز لصاحب علم صادق أن يرى من أخذ بقول دون الآخر من أهل العلم والفقه والاجتهاد، لا يجوز أن يراه متعمداً الخلاف لرسول الله

(١) سنن الترمذي (٤ / ١٣٨)، رقم: ١٥٧١.

(٢) الأحكام الفقهية التي قيل فيها بالنسخ وأثر ذلك في اختلاف الفقهاء (٣ / ١٨٢٣).

(٣) المصدر نفسه، (٣ / ١٨٢٣).

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري (١ / ٥٦ ط)، رقم ٢٣٣؛ صحيح مسلم (٣ / ١٢٩٧)، رقم ١٦٧١.

(٥) صحيح البخاري (٨ / ١٦٢ ط السلطانية)، رقم: ٦٨٠٢.

(٦) الصحاح في اللغة والعلوم، (ص ٢٤٤٠).

(٧) الأحكام الفقهية التي قيل فيها بالنسخ وأثر ذلك في اختلاف الفقهاء، (٣ / ١٨٢٥).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن يظن ذلك إما أن يكون جاهل بحقيقة الأمر، أو عالم بها ولكنه متحامل يسعى للطعن والتشكيك.

و- ما قاله حسان فيمن قال: لا نطيع أبا الفصيل، يعنون: أبا بكر:

ما البكرُ إلا كالفصيلِ وقد ترى أنَّ الفصيلَ عليه ليسَ بعار
انا وما حجَّ الحَجِيجُ لبيته ركباً مَكَّةَ معشرَ الأنصار
نفري جَمَاجِمَكُم بكلِّ مُهَنَّدٍ ضَرَبَ القُدَّارُ^(١) مبادئَ الأيسار^(٢)
حتَّى تقنوه بفحلٍ هنيْدَةٍ^(٣) يحمي الطَّروقةَ بازلٍ هَدَّارٍ^(٤)

٣- سجاح، وبنو تميم، ومقتل مالك بن نويرة اليربوعي:

أ- كانت بنو تميم قد اختلفت آراؤهم أيام الردة، منهم من ارتدَّ ومنع الزكاة، ومنهم من بعث بأموال الصدقات إلى الصديق، ومنهم من توقَّف لينظر في أمره، فبينما هم كذلك؛ إذ أقبلت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان التغلبي من الجزيرة، وهي من نصارى العرب، وقد ادَّعت النبوةَ ومعها جنودٌ من قومها، ومن التفَّ بهم، وقد عزموا على غزو أبي بكر الصديق، فلما مرت ببلاد بني تميم؛ دعتهُم إلى أمرها، فاستجاب لها عامتهم، وكان ممَّن استجاب لها مالك بن نويرة التميمي، وعطارد بن حاجب، وجماعةٌ من سادات وأمراء بني تميم، وتخلَّف آخرون منهم عنها، ثمَّ اصطلحوا على أن لا حرب بينهم، إلا أنَّ مالك بن نويرة لما وادعها؛ ثناءها عن عزمها، وحرَّضها على بني يربوع، ثمَّ اتَّفَق الجميع على قتال النَّاس، وقالوا: بمن

(١) القدار: الجزار.

(٢) المبادئ: الطَّوَاهِر، وهي مفاصل الجزور وما عليها من اللحم - جمع بدء، الأيسار: جمع يسر، هو الجزور.

(٣) هنيْدَة: اسم لمئة ناقة من الإبل.

(٤) ديوان الردة للعتوم، ص ١٣٧.

نبدأ؟ فقالت لهم فيما تسجعه: أعدُّوا الرِّكاب، واستعدُّوا للنَّهَاب، ثمَّ أغيروا على الرَّباب^(١) فليس دونها حجاب، ثمَّ استطاع بنو تميم إقناعها بقصد اليمامة لتأخذها من مسيلمة بن حبيب الكذَّاب، فهابه قومها، وقالوا: إِنَّه قد استفحل أمره، وعظم، فقالت لهم فيما تقوله: عليكم باليمامة، دَفُّوا دُفِّيف الحمامة، فَإِنَّهَا غزوةٌ صَرَّامة، لا تلحقكم بعدها ملامة.

فعمدوا لحرب مسيلمة، فلمَّا سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده، وذلك أَنَّهُ مشغول بمقاتلة ثمامة بن أثال، وقد ساعده عكرمة بن أبي جهل لجنود المسلمين وهم نازلون ببعض بلاده ينتظرون قدوم خالد، فبعث إليها يستأمنها ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذي كان لقريش لو عدلت، فقد ردَّه الله عليك فحباك به، وراسلها ليجتمع بها في طائفة من قومه، فركب إليها في أربعين من قومه، وجاء إليها فاجتمعا في خيمةٍ فلمَّا خلا بها، وعرض عليها ما عرض من نصف الأرض، وقبلت ذلك، قال مسيلمة: سمع الله لمن سمع، وأطمعه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمره في كلِّ ما يسرُّ مجتمع، ثمَّ قال لها: هل لك أن أتزوجك، واكل بقومي وقومك العرب؟ قالت: نعم، وأقامت عنده ثلاثة أيام، ثمَّ رجعت إلى قومها، فقالوا: أصدقك؟ فقالت: لم يصدقني شيئاً، فقالوا: إِنَّه قبيح على مثلك أن تتزوَّج بغير صداق، فبعثت إليه تسأله صداقاً، فقال: أرسلني إليَّ مؤذَنك، فبعثته إليه، وهو شبت بن ربعي الرياحي - فقال: ناد في قومك: أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين ممَّا أتاكم به محمَّد - يعني صلاة الفجر، وصلاة العشاء الآخرة - فكان هذا صداقها عليه.

ثمَّ انثنت سجاح راجعةً إلى بلادها، وذلك حين بلغها دنوُّ خالدٍ من أرض اليمامة، فكرَّت راجعةً إلى الجزيرة بعدما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، فأقامت في قومها بني تغلب إلى زمان معاوية، فأجلاهم منها عام الجماعة^(٢).

كان مالكٌ قد صانعٌ سجاح حين قدمت أرض الجزيرة، فلما اتَّصلت بمسيلمة، ثمَّ ترخَّلت

(١) الرباب: فرع من بني تميم.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٦.

إلى بلادها؛ ندم مالك بن نويرة على ما كان من أمره، وتلوّم في شأنه، وهو نازلٌ بمكان يقال له: البطح^(١)، فقصده خالد بجنوده، وتأخرت عنه الأنصار، وقالوا: إنا قد قضينا ما أمرنا به الصديق، فقال لهم خالد: إن هذا أمرٌ لا بدّ من فعله، وفرصةٌ لا بدّ من انتهازها، وإنّه لم يأتي فيها كتاب، وأنا الأمير وإليّ ترد الأخبار، ولست بالذي أجبركم على المسير، وأنا قاصد البطح، فسار يومين، ثمّ لحقه رسول الأنصار يطلبون منه الانتظار، فلحقوا به.

فلَمّا وصل البطاح وعليها مالك بن نويرة بثّ خالد السّرايا في البطاح يدعون النّاس، فاستقبله أمراء بني تميم بالسّمع والطّاعة، وبذلوا الكوات إلا ما كان من مالك بن نويرة، فإنّه متحيّر في أمره متنحّ عن النّاس فجاءته السّرايا فأسروه، وأسروا معه أصحابه، واختلفت السّريّة فيهم، فشهد أبو قتادة - الحارث بن ربيعي الأنصاري - أنهم أقاموا الصّلاة، وقال آخرون: إنهم لم يؤذّنوا، ولا صلّوا، فيقال: إنّ الأسارى باتوا في كبولهم في ليلةٍ شديدة البرد، فنادى منادي خالد: أن أدفنوا أسراكم، فظنّ القوم أنّه أراد القتل، فقتلوه، وقتل ضرار بن الأزور مالك ابن نويرة، فلَمّا سمع خالد الواقعة خرج، وقد فرغوا منهم. فقال: إذا أراد الله أمراً أصابه، ويقال: بل استدعى خالد مالك بن نويرة فأثّبه على ما صدر منه من متابعة سجاح، وعلى منعه الزّكاة، وقال: ألم تعلم أنّها قرينة الصّلاة؟ فقال مالك: إنّ صاحبكم كان يزعم ذلك، فقال: أهو صاحبنا، وليس بصاحبك؟ يا ضرار اضرب عنقه، فضربت عنقه.

وقد تكلم أبو قتادة مع خالد فيما صنع، وتقاولا في ذلك، حتّى ذهب أبو قتادة، فشكاه إلى الصّديق، وتكلّم عمر مع أبي قتادة في خالد، وقال للصّديق: اعزله، فإنّ في سيفه رهقاً، فقال أبو بكر: لا أشيم سيفاً سلّه الله على الكفّار، وجاء متمّم بن نويرة، فجعل يشكو إلى الصّديق خالدًا، وعمر يساعده، وينشد الصديق ما قال في أخيه من المراث، فوداه الصّديق من عنده^(٢).

ولم يزل عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحرض الصديق ويذمره على عزل خالد عن الإمرة،

(١) البطاح: ماءٌ من ديار بني أسدٍ بأرض نجد.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٧.

ويقول: إن في سيفه لرهقا، حتى بعث الصديق إلى خالد بن الوليد فقدم عليه المدينة وقد لبس درعه التي من حديد وقد صدئ من كثرة الدماء وغرز في عمامته الشاب المضمخ بالدماء. فلما دخل المسجد قام إليه عمر بن الخطاب، فانتزع الأسهم من عمامة خالد فحطمها، وقال: أرياء قتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امرأته؟! والله لأرجمنك بأحجارك. وخالد لا يكلمه، ولا يظن إلا أن رأي الصديق فيه كراي عمر، حتى دخل على أبي بكر فاعتذر إليه، فعذره وتجاوز عنه ما كان منه في ذلك، وودى مالك بن نويرة فخرج من عنده وعمر جالس في المسجد، فقال خالد: هلم إلي يا ابن أم شملة. فلم يرد عليه، وعرف أن الصديق قد رضي عنه^(١).

واستمر أبو بكر بخالد على الإمرة، وإن كان قد اجتهد في قتل مالك بن نويرة وأخطأ في قتله - على إحدى الأقوال - كما أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى بني جذيمة فقتل أولئك الأسارى الذين قالوا: صبأنا صبأنا. ولم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا. فوداهم رسول الله ﷺ حتى رد إليهم ميلغة الكلب، ورفع يديه وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد. ومع هذا لم يعزل خالدًا عن الإمرة^(٢). وقال الحافظ في الفتح: والذي يظهر أن التبرؤ من الفعل لا يستلزم إثم فاعله، ولا إلزامه الغرامة، فإن إثم المخطئ مرفوع، وإن كان فعله ليس بمحمود^(٣).

والحق ما فعله أبو بكر، لا ما اعترض عليه أبو قتادة وعمر، ويؤيد ذلك، أن عمر لما أفضت إليه الخلافة لم يتعرض لخالد، ولم يعاتبه، ولا تنقصه بكلمة في هذا الأمر قط، فعلم أنه ظهر له أحقية ما فعله أبو بكر، فرجع عن اعتراضه، وإلا لم يتركه عند استقلاله بالأمر؛ لأن عمر كان أتقى لله من أن يداهن في دين الله أحداً^(٤). وأما عزله عن الإمارة لما استخلف فلم

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٩، ص ٤٦٥.

(٢) المصدر السابق نفسه، (٩/ ٤٦٥).

(٣) فتح الباري، (١٥/ ٩٠)، نقلا عن اللؤلؤ المكنون في سيرة النبي المأمون، (٤/ ٩٦).

(٤) خالد بن الوليد قائد لم يهزم في معركة، ص ٣٥٦.

يكن لأجل هذه القضية^(١). فسبب عزله في خلافة عمر أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمتاز برغبته في الإشراف على الولاة والقادة، وكان يخطط حتى للمعارك التي تدور في جبهات العراق والشام وتروي المصادر تفاصيل ذلك، وخالد امتاز بطبيعته التي تدعو إلى الاستقلال والتصرف الحر، فكان لابد من عزله لتحقيق الانسجام بين الخليفة وقيادة الجيش، وكذلك ليس بعيداً أنه عزله كي لا يفتتن به النَّاس فيحسبون أن النصر لا يتحقق إلا بوجوده^(٢). لذلك ورد أنه قال لخالد: ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتنن بك النَّاس فخفت أن تفتتن بالناس^(٣).

وغاية ما في المسألة أن تكون من مسائل الاجتهاد، فكان رأي أبي بكر فيها ألا يقتل خالداً، وكان رأي عمر فيها قتله، وليس عمرُ بأعلم من أبي بكر ولا يجب على أبي بكر ترك رأيه لرأي عمر، ولم يظهر بدليل شرعي أن قول عمر هو الراجح^(٤). والمقصود أن هذه القضية كانت من المسائل الشائكة لدى الصحابة، حيث إن بعضهم كان يرى مالك بن نويرة مسلماً، وبعضهم يراه قد ارتد من بعد إسلامه، ولهذا فقد اختلف رأي عمر عن رأي أبي بكر كما مرَّ^(٥). وسيأتي معنا أن ما ذهب إليه أبو بكر هو الصواب.

دروس، وعبر، وفوائد:

أ- من ثبت على الإسلام من بني تميم:

لم يرتدَّ عن الإسلام كلُّ قبائل، أو كلُّ أفراد، أو كلُّ رؤساء بني تميم، كما حاول أن يصوِّر ذلك بعضُ من المؤرخين المحدثين، والحقيقة أنَّه لقوَّة إسلام وثبات بعض بطون وأفراد

(١) تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، محمد سهيل طقوش، دار النفائس، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، (ص ٧٩).

(٢) عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين، أكرم ضياء العمري، مكتبة العيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، (ص ٣٧٢).

(٣) أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، (ص ١٤٩).

(٤) تيمية.

(٥) الانتصار للصحب والآل، (ص ٤١٠).

ورؤساء بني تميم، فقد استطاع مالك بن نويرة إقناع سجاح التَّميمية بقتالهم قبل قتالها أبا بكر الصديق، وعندما واجهت مسلمي تميم تلقت على أيديهم هزيمة نكراء، فعدلت بعدها عن الذهاب إلى المدينة، وتوجَّهت إلى اليمامة، وقد تضافرت الروايات التاريخية لتؤكد هذه الحقيقة التي ذكرناها^(١)، بل إنَّ التَّدقيق في الروايات يبيِّن: أنَّ من ثبت على الإسلام من بني تميم كان أكثر من المترددين، والمترددين، وتعكس بعض الروايات دور قبيلة الرِّباب بصفة خاصة في الوقوف في وجه المترددين، ولذلك استحقَّت من سجاح، وجماعتها الحرب.

وتشير بعض الروايات إلى المواجهة العظيمة التي وقعت بين الرِّباب، وسجاح، وانتهت أخيراً بالصُّلح عندما فشلت سجاح في إخضاع مسلمي تميم، وإلى ندم قيس بن عاصم على متابعة المترددين، وسوقه صدقات قومه إلى المدينة وكانت الدَّائرة على سجاح، وجماعتها^(٢).

ب - خالد ومقتل مالك بن نويرة:

اختلفت الآراء في مقتل مالك بن نويرة اختلافاً كبيراً: أقتل مظلوماً أم مستحقاً؟ أي: أكافراً قتل، أم مسلماً؟ وقام الدكتور علي العتوم بتحقيق هذه المسألة في كتابه «حركة الردَّة» وتعرَّض الشيخ محمد الطَّاهر ابن عاشور في كتابه «نقدٌ علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم» لهذه القضية^(٣).

وقام الشَّيخ محمد زاهد الكوثري بالدِّفاع عن خالد في كتابه مقالات الكوثري^(٤)، وغير ذلك من الباحثين.

واخترت من بين مَنْ بحث هذا الموضوع ما ذهب إليه الدكتور علي العتوم؛ لأنَّه حقَّق المسألة تحقيقاً علمياً متميِّزاً، واهتمَّ بأحداث الردَّة اهتماماً لم أجده - على حسب اطلاعي - عند أحد من الباحثين المعاصرين، وخرج بنتيجة أوافق عليها: أنَّ الذي أردى مالكا: كِبَرُه،

(١) الثَّابتون على الإسلام، ص ٤٤.

(٢) المصدر السَّابق نفسه، ص ٤٨.

(٣) نقدٌ علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم، ص ٣٣.

(٤) مقالات الكوثري، ص ٣١٢ نقلاً عن «الخلفاء الراشدون» للذهبي، ص ٣٦.

وتردده، فقد بقي للجاهلية في نفسه نصيبٌ وإلا لما ماطل هذه المماطلة في التبعية للقائم بأمر الإسلام بعد رسول الله ﷺ، وفي تأدية حق بيت مال المسلمين عليه المتمثل بالزكاة، وفي تصوّري: أن الرجل كان يحرص على زعامته، ويناكف - في الوقت نفسه - بعض أقربائه من زعماء بني تميم الذين وضعوا عصا الطاعة للدولة الإسلامية، وأدّوا ما عليهم لها من واجبات، ولقد كانت أفعاله وأقواله على السواء تؤيد هذا التصوّر، فارتداده، ووقوفه بجانب سجاح وتفريقه إبل الصدقة على قومه، بل ومنعهم من أدائها لأبي بكر، وعدم إصاخته لنصائح أقربائه المسلمين في تمرّده، كل ذلك يدينه ويجعل منه رجلاً أقرب إلى الكفر منه إلى الإسلام.

ولو لم يكن ممّا يحتجّ به على مالك إلا منعه للزكاة؛ لكفى ذلك مُسوِّغاً لإدانته، وهذا المنع مؤكّد عند الأقدمين، فقد جاء في «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام قوله: والمجمع عليه: أنّ خالداً حاوره وراذه، وأنّ مالكا سمح بالصلاة، والتوى بالزكاة^(١)، جاء في «شرح النووي لصحيح مسلم» قوله عن المرتدين: كان في ضمن هؤلاء من يسمح بالزكاة ولا يمنعها، إلا أنّ رؤساءهم صدّوهم عن ذلك، وقبضوا على أيديهم في ذلك، كبنّي يربوع؛ فإنّهم قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوها إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَمَنْعَهُمْ مالكا بن نويرة من ذلك، وفرّقها^(٢).

وعلى هذا الأساس لا نرى حرجاً على خالد في تزوجه امرأة مالك، لأنّه قتل رجلاً كافراً في اعتقاده، منابذاً للإسلام، محارباً للمسلمين، معتدياً عليهم فإذا فرضنا إسلام زوجة مالك وهي تحته، فيكون خالد قد أحسن إليها، وجبر خاطرها بتزوجها، وهذا ما نرجحه في شأنها، لأن أكثر المؤرخين ذكروا أنّها اعتدت بثلاث حيض؛ وإذا فرضناها غير مسلمة فحكمها حكم السبي، ويكون خالد قد أحسن إليها أيضاً؛ لأنّه - كما تقول بعض الروايات -

(١) طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، ص ١٧٢.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢٠٣).

اشتراها من الفيء وأعتقها وتزوجها^(١). ويتعلق بهذا النكاح نكتة لطيفة لم يلتفت إليها كثير ممن كتبوا في سيرة خالد، ذلك أن أبا بكر لما استقدم خالدًا، وسمع حجة، أمره بطلاق امرأة مالك كعقوبة سياسية على تسرعه للنساء في الحرب، وهو أمر تخشى عواقبه، والطلاق حكم شرعي لا يكون إلا بعد نكاح صحيح، وهذا يحمل في طياته صحة رأي خالد، واقتناع أبي بكر به، وأن مالكًا لم يقتل مسلمًا معصوم الدم^(٢).

ج - زواج خالد بأم تميم:

أم تميم هي: ليلى بنت سنان المنهال زوج مالك بن نويرة، وهذا الزواج حدث حوله جدلٌ كثيرٌ واتَّهم من لهم أغراضٌ خالدًا بعدة تهم لا تصحُّ، ولا تثبت أمام البحث العلميِّ النَّزيه، وخلاصة القصة فهناك من اتَّهم خالدًا بأنَّه تزوج أم تميم فور وقوعها في يده لعدم صبره على جمالها، ولهواه السَّابق فيها، وبذلك يكون زواجه منها - حاشا لله - سفاحًا، فهذا القول مستحدثٌ لا يعتدُّ به^(٣)؛ إذ خلت المصادر القديمة من الإشارة إليه، بل هي على خلافه في نصوصها الصَّريحة، يذكر الماورديُّ: أنَّ الذي جعل خالدًا يقوم على قتل مالك هو منعه للصدقة التي استحلَّ بها دمه، وبذلك فسد عقد المناقحة بينه وبين أم تميم^(٤)، وحُكِّم نساء المرتدِّين إذا لحقن بدار الحرب أن يسبين ولا يُقتلن، كما يشير إلى ذلك الإمام السَّرخسي^(٥)، فلمَّا صارت أم تميم في السَّبي اصطفاهَا خالدٌ لنفسه، فلمَّا حلَّت بنى بها^(٦)، ويعلِّق الشيخ أحمد شاكر على هذه المسألة بقوله: إنَّ خالدًا أخذها هي وابنها ملك يمين بوصفها سبيَّة؛ إذ إنَّ السَّبية لا عدَّة عليها، وإنَّما يحرم حرمةً قطعيةً أن يقرَّها مالِكها إن كانت حاملًا قبل

(١) خالد بن الوليد سيف الله وبطل الإسلام، محمد الصادق عرجون، ص ٢٢٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٢٦.

(٣) ما قاله الجنرال الباكستاني أكرم: ففي نفس اللَّيلة تزوَّجها خالد، ص ١٩٨ كتابه: سيف الله خالد.

(٤) الأحكام السُّلطانية، ص ٤٧ نقلاً عن حركة الرِّدَّة، ص ٢٢٩.

(٥) المبسوط (١١١/١٠) نقلاً عن حركة الرِّدَّة، ص ٢٢٩.

(٦) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٢.

أن تضع حملها، وإن كانت غير حامل حتى تحيض حيضةً واحدةً، ثم دخل بها، وهو عمل مشروع جائز لا مغمز فيه ولا مطعن، إلا أن أعداءه والمخالفين عليه رأوا في هذا العمل فرصتهم، فانتهزوها، وذهبوا يزعمون: أن مالك بن نويرة مسلمٌ، وأن خالدًا قتله من أجل امرأته^(١)، وقد اتهم خالد بأنه في زواجه هذا خالف تقاليد العرب، فقد قال العقاد: قتل خالدٌ مالك بن نويرة، وبنى بامرأته في ميدان القتال على غير ما تألفه العرب في جاهلية وإسلام، وعلى غير ما يألّفه المسلمون، وتأمر به الشريعة^(٢).

فهذا القول بعيدٌ عن الصحة، فقد كان يحصل كثيراً في حياة العرب قبل الإسلام إثر حروبهم وانتصاراتهم على أعدائهم أن يتزوّجوا من السّبايا، وكانوا يفخرون بذلك، ولذلك كثير فيهم أولاد السّبايا، وهذا حاتم الطائي يقول:

وما أنكحونا طائعين بناتِهم ولكن خطبناها بأسيا فناقسرا
وكائن ترى فينا من ابنِ سبيّة إذا لقي الأبطال يطعنُهُم شزرا
ويأخذ راياتِ الطّعان بكفّه فيوردُها بيضاً ويصدرُها حُمرا^(٣)

وأما من النّاحية الشّرعية، فقد أتى خالد أمراً مباحاً، وسلك إليه سبيلاً مشروعةً أتاه من هو أفضل منه، فإذا كان قد أخذ عليه زواجه إبّان الحرب، أو في أعقابها، فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوّج بجويرية بنت الحارث المستلقية إثر غزوة المريسية، وقد كانت في سبايا بني المصطلق، فقضى عنها كتابتها، وتزوّجها، وكان بها طابع يمن وبركة على قومها، إذ أعتق لهذا الزواج مئة رجل من أسراهم لأنّهم أصبحوا أصهاراً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان من اثاره المباركة كذلك إسلام أبيها الحارث بن ضرار^(٤)، كما أنّه - عَلَيْهِ الصّلاة والسّلام -

(١) حركة الردة للعتوم، ص ٢٣٠.

(٢) عبقرية الصديق، ص ٧٠.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه (١٢٣/٧).

(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٠ - ٢٩٥).

- تزوج بصفية بنت حيي بن أخطب اليهودي إثر غزوة خيبر، وبنى بها في خيبر، أو ببعض الطريق^(١)، وإذا كان رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة؛ فقد توارى العتاب، وانقطع الملام^(٢)، ودفاع الدكتور محمد حسين هيكل عن خالد اتبع فيه منهجية غير مقبولة؛ لأنه ينبغي لنا ألا نغض الطرف عن مخالفات خالد على حساب الإسلام، فخالد وغيره محكوم بالشرع الذي يعلو، ولا يُعلى عليه، وإن تنزيه الأشخاص لا يساوي تشويه المنهج بآية حال، فقد قال الدكتور هيكل: وما التزُّوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب بل ما الدُّخول بها قبل أن يتمَّ تطهيرها، إذا وقع ذلك من فاتح غزا فحقَّ له بحق الغزو أن تكون له سبايا يصبحن ملك يمينه!!

إِنَّ التَّزَمُّتَ فِي تَطْبِيقِ الشَّرِيعِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَاوَلَ النَّوَائِغِ الْعِظَمَاءُ مِنْ أَمْثَالِ خَالِدٍ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَ ذَلِكَ يَضُرُّ بِالْدَّوْلَةِ، أَوْ يَعْرِضُهَا لِلْخَطَرِ^(٣).

وردَّ الشيخ أحمد شاكر بهذا الخصوص، فقال: لشدَّ ما أخشى أن يكون المؤلف تأثر بما قرأ من أخبار نابليون، وغيره من ملوك أوربة في مبادلهم، وإسفافهم، وبما كتب الكاتبون من الإفرنج في الاعتذار عنهم لتخفيف آثامهم بما كان لهم من عظمة، وبما أسدوا إلى أممهم من فتوح وأيادٍ، حتَّى يُظنَّ بالمسلمين الأوَّلين أنَّهم أمثال هؤلاء، فيقول: إِنَّ التَّزَمُّتَ فِي تَطْبِيقِ الشَّرِيعِ لَا يَجِبُ أَنْ يَتَنَاوَلَ النَّوَائِغِ الْعِظَمَاءُ مِنْ أَمْثَالِ خَالِدٍ، وَهَذَا قَوْلٌ يَهْدِمُ كُلَّ دِينٍ، وَخَلْقٍ^(٤).

هكذا يجنح فكر هيكل وقلمه فيجعل من الصديق رجلاً لا يبالي بإقامة حدود الله تعالى بل جعله رجلاً يهدر كرامة الشريعة الإسلامية، ويعبث بحدودها، فهو في نظر هيكل يرى أن تطبيق الشريعة لا تناول النوايا والعظماء، وإنما ينطبق على العامة والدهماء.

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٩).

(٢) حركة الردة للعتوم، ص ٢٣٧.

(٣) الصديق أبو بكر، ص ١٤٠.

(٤) حركة الردة للعتوم، ص ٢٣٢.

أفصدق أحد رواة أبي الفرج في أغانيه، ونتهم خالدًا بما نسب إليه من قتل مالك بن نويرة، وهو على الإسلام، وأنه نزا على امرأته، ثم تتخطى خالدًا ونتأول على الخليفة الأعظم بأنه أهدر حدود الله وعطل أحكام الشريعة فماذا أبقينا لخليفة رسول الله ﷺ ولقائده سيف الله؟ إن كل فضيلة وراء هذا التصوير تنتهي إلى رذيلة^(١).

أبو بكر الذي شهدت له كل سني عمره بالالتزام التام والاتباع الفذ لكل أمر رباني وديني، يصدر منه مثل هذا! سبحانك الله هذا بهتان عظيم. لقد جاء الإسلام بحفظ الدماء، وحماية الأعراض وصيانة الشرف، ولم يتهاون في ذلك ولا فيما هو دونه، فكيف يجوز لنا أن نجازف بالحقائق لنبرر ما ساقته أخبار ساقطة في حق أعظم رجل في الإسلام بعد النبي^(٢) ﷺ.

د- دعم الصديق للقيادة الميدانية:

كان بعض رجال من جيش خالد قد شهدوا: أن القوم أذنوا حين سمعوا أذان المسلمين، وأنهم بذلك قد حقنوا دماءهم، وأن قتلهم لا يحل، ومن أولئك القوم أبو قتادة رضي الله عنه فأكبر الأمر، وزاد ذلك عنده: أنه رأى خالد بن الوليد قد تزوج امرأة مالك بن نويرة، ففارق أبو قتادة خالدًا، وقدم على أبي بكر ليشكو إليه خالدًا فيما خالف فيه، فرأى أبو بكر: أن فراق أبي قتادة لخالد خطأ لا ينبغي أن يرخّص فيه له، ولا لغيره، لأنه يكون سببًا للفشل والجيش في أرض العدو، فاشتد على أبي قتادة وردّه إلى خالد، ولم يرض منه إلا أن يعود، فينخرط تحت لوائه^(٣)، وعمل أبي بكر من أحكام السياسات الحربية.

وقد قام الصديق بالتحقيق في مقتل ابن نويرة، وانتهى إلى براءة ساحة خالد من تهمة قتل مالك بن نويرة^(٤)، وأبو بكر في هذا الشأن أكثر اطلاعًا على حقائق الأمور، وأبعد نظرًا في

(١) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص ٣٠٥-٣٠٦، نقلا عن أبو بكر خليفة رسول الله، ص ٥٤٧.

(٢) أبو بكر خليفة رسول الله، ص ٥٤٧.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣١.

(٤) الخلافة والخلفاء الراشدون للبهنساوي، ص ١١٢؛ الخلفاء الراشدون للنجار، ص ٥٨.

تصريفها من بقيّة الصّحابة؛ لأنّه الخليفة، وإليه تصل الأخبار، كما أنّه أرجح إيماناً منهم، وهو في معاملته لخالد يحتذي على سنن رسول الله؛ إذ أنّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يعزل خالداً عمّاً ولاه في الوقت الذي كان يقع منه ما قد لا يرتاح له، وكان يعذره إذ يعتذر، ويقول: «لا تؤذوا خالداً، فإنّه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار»^(١).

إن من كمال الصّدّيق توليته لخالد، واستعانت به؛ لأنّه كان شديداً؛ ليعتدل به أمره، ويخلط الشّدّة باللين، فإنّ مجرد اللين يفسده، ومجرد الشّدّة تفسده، فكان يقوم باستشارة عمر، وباستنابة خالد، وهذا من كماله؛ الذي صار به خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولهذا اشتد في قتال أهل الردّة شدّة برّز بها على عمر، وغيره، فجعل الله فيه الشّدّة ما لم يكن فيه قبل ذلك، وأمّا عمر فكان شديداً في نفسه، فكان من كماله - في خلافته - استعانت باللين؛ ليعتدل أمره - فكان يستعين بأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيد الثّقفي، والنّعمان بن مقرّن، وسعيد بن عامر، وأمثال هؤلاء من أهل الصّلاح والزّهّد الذين هم أعظم زهداً وعبادة من خالد بن الوليد، وأمثاله، وقد جعل الله في عمر من الرّافة - بعد الخلافة - ما لم يكن فيه قبل ذلك تكميلاً له؛ حتّى صار أمير المؤمنين^(٢).

وقد ذكر ابن تيمية كلاماً نفيساً عن ذلك، فقال:.... وهكذا أبو بكر خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما زال يستعمل خالداً في حرب أهل الردّة، وفي فتوح العراق، والشام، وبدت منه هفوات كان له فيها تأويل، وقد ذكر له عنه: أنّه كان له فيها هوى، فلم يعزله من أجلها بل عاتبه عليها، لرجحان المصلحة على المفسدة في بقاءه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه؛ لأن المتولّي الكبير إذا كان خلقه يميل إلى اللين؛ فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشّدّة، وإذا كان خلقه يميل إلى الشّدّة، فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين ليعتدل الأمر، ولهذا كان أبو بكر الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يؤثر استنابة خالد، وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يؤثر عزل خالد، واستنابة أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنّ خالداً كان شديداً كعمر بن الخطاب، وأبا

(١) فتح الباري (١٠١/٧).

(٢) أبو بكر الصّدّيق أفضل الصّحابة وأحقّهم بالخلافة، ص (١٩٣، ١٩٤).

عبدة كان ليّنًا كأبي بكر، وكان الأصلح لكلّ منهما أن يولّي مَنْ ولاه ليكون أمره معتدلاً، ويكون بذلك من خلفاء رسول الله الَّذي هو معتدّل^(١)، حتّى قال النّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا نبيّ الرّحمة، أنا نبيّ الملحمة»^(٢).

٤- ردّة أهل عُمان، والبحرين:

أ- ردّة أهل عُمان:

كان أهل عُمان قد استجابوا للدعوة الإسلام، وبعث إليهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمرو بن العاص، ثم بعد وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبغ فيهم رجلٌ يقال له: (ذو التّاج) لقيط بن مالك الأزديّ وكان يسامي في الجاهلية الجلدي ملك عمان^(٣)، فادّعى النّبوة، وتابعه الجهلة من أهل عُمان، فتغلّب عليها، وعليها جيّفر وعبّاد ابنا الجلدي^(٤)، وألجأهما إلى أطرافها من نواحي الجبال، والبحر، فبعث جيفر إلى الصّدّيق فأخبره الخبر، واستجاشه، فبعث إليه الصّدّيق بأمرين، وهما: حذيفة بن محصن الغلفان من حمير، وعرفجة إلى مَهرة، وأمرهما أن يجتمعا، ويتّفقا، ويبدأ بعُمان، وحذيفة هو الأمير، فإذا ساروا إلى بلاد مَهرة؛ فعرفجة الأمير، وأرسل عكرمة بن أبي جهل مدداً لهم، وكتب الصّدّيق إلى عرفجة وحذيفة أن ينتهيا إلى رأي عكرمة بعد الفراغ من السّير إلى عُمان، أو المقام بها، فساروا، فلمّا اقتربا من عُمان، راسلوا جيفراً، وبلغ لقيط بن مالك مجيء الجيش، فخرج في جموعه فعسكر بمكانٍ يقال له: دَبَا، وهي مصر تلك البلاد وسوقها العظمى، وجعل الدّراري والأموال وراء ظهورهم ليكون أقوى لحربهم، واجتمع جيفر وعبّاد بمكانٍ يقال له: صُحار، فعسكروا فيه، وبعثا إلى أمراء الصّدّيق، فقدموا على المسلمين، فتقابل الجيشان هناك وتقاتلوا قتالاً شديداً، وابتلي المسلمون وكادوا أن يولّوا، فمَنَّ الله بكرمه ولطفه أن بعث إليهم مدداً في السّاعة الرّاهنة

(١) الفتاوى (١٤٤/٢٨).

(٢) مسند أحمد (٤/٣٩٥-٤٠٤-٤٠٧).

(٣) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٤.

(٤) المصدر السابق نفسه.

من بني ناجية، وعبد القيس في جماعة من الأمراء، فلمّا وصلوا إليهم كان الفتح والنصر، فولّى المشركون مدبرين، وركب المسلمون ظهورهم، فقتلوا منهم عشرة آلاف مقاتل، وسبوا الذّراري، وأخذوا الأموال، والسّوق بحذاويرها، وبعثوا بالخمس إلى الصّدّيق مع أحد الأمراء، وهو عرفة^(١).

وكان السّبب في هذا النصر العظيم وقوف الجماعة الإسلاميّة في عُمان مع أميرها جيفر وأخيه عبّاد ضدّ ذي التاج لقيط بن مالك الأزديّ، واعتصامها بالأماكن الحصينة، حتّى أدركتها جيوش المسلمين، كما كان لمواقف بني جديد، وبني ناجية، وبني عبد القيس في ثبوتهم على الإسلام، ودخولهم في المعركة في الوقت المناسب أثر في نصر المسلمين^(٢).

ب - ردّة أهل البحرين:

أسلم أهل البحرين بعد ما أرسل النّبّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العلاء بن الحضرمي إلى ملكها وحاكمها المنذر بن ساوى العبديّ، وقد أسلم هو وقومه، وأقام فيهم الإسلام، والعدل، وقد كان ردّ المنذر بن ساوى: قد نظرت في هذا الأمر الذي في يدي، فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت في دينكم فوجدته للآخرة والدنيا، فما يمنعني من قبول دين فيه أمانة الحياة، وراحة الموت، ولقد عجبت أمس ممّن يقبله، وعجبت اليوم ممّن يرده، وإنّ من إعظام ما جاء به أن يعظّم^(٣).

فلمّا توفي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتوفي المنذر بعده بمدة قصيرة ارتدّ أهل البحرين وملّكوا عليهم المنذر بن النعمان الغرور^(٤).

أين هي أرض البحرين؟

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٥.

(٢) الثابتون على الإسلام، ص (٥٩، ٦٠).

(٣) التراتيب الإدارية (١/ ١٩).

(٤) حروب الردّة، أحمد سعيد، ص (١٤٦).

أرض البحرين هي شقّة ضيّقة من الأرض تتشاطر مع هجر خليج العرب، وتمتد من القطيف إلى عُمان، والصّحراء في بعض أنحائها، تكاد تتّصل بماء الخليج، وهي تتّصل باليمامة في جزئها الأعلى لا يفصل بينهما إلا سلسلة من التلال يهون لانخفاضها اجتيازها^(١). فهي إذاً تشمل إمارات الخليج العربيّ والجزء الشرقي من المملكة العربيّة السّعودية عدا الكويت^(٢).

هذا وقد كان لمن ثبت على الإسلام في البحرين دورٌ كبيرٌ في إخماد هذه الفتنة، وكان للجارود بن المعلّى دورٌ متميّزٌ، فقد صحب رسول الله ﷺ وتفقه في الدّين، ثمّ رجع إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام، فأجابوه كلّهم، فلم يلبث إلا يسيراً حتّى مات النّبى ﷺ، فقالت عبد القيس: لو كان محمّد نبياً؛ لما مات، وارتدّوا، وبلغه ذلك، فبعث فيهم، فجمعهم، ثم قام فخطبهم. فقال: يا معشر عبد القيس! إنّي سائلكم عن أمرٍ فأخبروني به إن علمتموه؛ ولا تحيّبوني إن لم تعلموا. قالوا: سل عما بدا لك. قال: تعلمون: أنّه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه، أو ترون؟ قالوا: لا بل نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإنّ محمداً ﷺ مات، كما ماتوا. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنك سيّدنا، وأفضلنا، وثبتوا على إسلامهم.

فهذا موقف يُذكر للجارود بن المعلّى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد ثبتّ الله به قومه عبد القيس، فثبتوا على إسلامهم، وقد ألهمه الله تعالى بضرب المثل بالأنبياء السّابقين - عَلَيْهِمُ السَّلَام - حيث كان نهايتهم الموت، فكذلك رسول الله ﷺ، فاقنع قومه، وزال عنهم الشكُّ، وهذا مما بيّن مزّيّة التفقه في الدّين وأثر ذلك في توجيه الاعتقاد، والسُّلوك، وخاصّةً عند حدوث الفتن^(٣).

(١) المصدر السّابق نفسه ص ١٤٧.

(٢) المصدر السّابق نفسه.

(٣) التّاريخ الإسلامي (٩/ ٩٧).

وقد بقيت بلدة جواسي على الإسلام، وكانت أوّل قرية أقامت الجمعة من أهل الردّة كما ثبت ذلك في البخاري عن ابن عباس، وقد حاصرهم المرتدّون، وضيقوا عليهم، ومنعوا عنهم الأقوات، وجاعوا جوعاً شديداً حتّى فرّج الله عنهم، وقد قال رجل منهم يقال له: عبد الله بن حذف أحد بني بكر بن كلاب، وقد اشتدّ الجوع:

ألا أبلغُ أبا بكرٍ رسولاً وفتيانَ المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قومٍ كرامٍ قعودٍ في جواثي محصرينا
دماءُهم في كلّ فجٍّ شعاعُ الشّمس يُعشي الناظرينا
توكلنا على الرّحمن إنّنا وجدنا النّصرَ للمتوكّلينا^(١)

فهذا موقف يذكر في الثبات على الحقّ لهؤلاء المسلمين؛ الذين حصرهم الأعداء في (جواثي) حتّى كادوا يهلكون من الجوع، وفي الأبيات المذكورة في الرواية التي قالها عبد الله بن حذف دليلٌ على عمق إيمان هؤلاء المحصورين، وقوّة توكلّهم على الله تعالى، وثقتهم بنصره^(٢).

بعث الصّدّيق بجيشٍ إلى البحرين بقيادة العلاء بن الحضرميّ، فلمّا دنا من البحرين؛ انضمَّ إليه ثُمّامة بن أثال في محفلٍ كبيرٍ من قومه بني سحيم، واستنهض المسلمين في تلك الأنحاء، وأمدّ الجارود بن المعلّى العلاء برجالٍ من قومه فاجتمع إليه جيشٌ كبيرٌ قاتل به المرتدّين، ونصر الله به المؤمنين، وكان ممّن أزر العلاء لقمع فتنة البحرين قيس بن عاصم المُنقرّي، وعفيف بن المنذر، والمثنّى بن حارثة الشيباني^(٣).

• كرامة للعلاء بن الحضرميّ:

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٢.

(٢) التّاريخ الإسلاميّ للحميديّ، مرجع سابق، ج ٩، ص ٩٨.

(٣) الثّابتون على الإسلام، ص ٦٣.

كان العلاء من سادات الصّحابة العلماء العبّاد مجابى الدّعوة، اتّفق له في هذه الغزوة أنّه نزل منزلاً^(١)، فلم يستقرّ النَّاس على الأرض حتّى نفرت الإبل بما عليها من زاد الجيش، وخيامهم، وشرابهم، وبقوا على الأرض ليس معهم شيءٌ سوى ثيابهم - وذلك ليلاً - ولم يقدروا منها على بغير واحد، فركب الناس من الهمِّ والغمِّ ما لا يُحدُّ، ولا يُوصَف، وجعل بعضهم يوصي إلى بعضٍ، فنادى منادي العلاء، فاجتمع الناس إليه، فقال: أيها الناس! ألستم المسلمين؟ ألستم في سبيل الله؟ ألستم أنصار الله؟ قالوا: بلى! قال: فأبشروا فوالله لا يخذل الله من كان في مثل حالكم! ونودي لصلاة الصُّبح حين طلع الفجر فصلّى بالناس، فلمّا قضى الصلاة جثا على ركبتيه، وجثا النَّاس، ونصب في الدُّعاء، ورفع يديه، وفعل النَّاس مثله حتّى طلعت الشمس، وجعل النَّاس ينظرون إلى سراب الشَّمس يلمع مرّة بعد أخرى، وهو يجتهد في الدُّعاء، ويكرره، فلمّا بلغ الثّالثة؛ إذ قد خلق الله إلى جانبهم غديرًا عظيمًا من الماء القراح، فمشى، ومشى النَّاس إليه، فشربوا، واغتسلوا، فما تعالى النَّهار حتّى أقبلت الإبل من كلّ فجٍّ بما عليها، لم يفقد الناس من أمتعتهم سلكًا، فسقوا الإبل عللاً بعد نَهْلٍ^(٢)، فكان هذا مما عاين النَّاس من آيات الله بهذه السّريّة^(٣).

● هزيمة المرتدّين:

ثمّ لمّا اقترب من جيوش المرتدّة - وقد حشدوا، وجمعوا خلقًا عظيمًا - نزل، ونزلوا، وباتوا مجاورين في المنازل، فبينما المسلمون في اللّيل؛ إذ سمع العلاء أصواتًا عاليةً في جيش المرتدّين، فقال: مَنْ رجلٌ يكشف لنا خبر هؤلاء؟ فقام عبد الله بن حذف، فدخل فيهم، فوجدهم سُكاري لا يعقلون من الشّراب، فرجع إليه فأخبره، فركب العلاء من فوره والجيش معه، فكبسوا أولئك، فقتلوه قتلًا عظيمًا، وقتل مَنْ هرب منهم، واستولى على جميع أموالهم، وحواصلهم، وأثقالهم، فكانت غنيمةً عظيمةً جسيمةً.

(١) في طبقات ابن سعد (٤/٣٦٣): حدد منزله بالدّهناء؛ وهي صحراء رملية بين نجد والأحساء.

(٢) العلل: الشّربة الثانية، والنّهل: شرب الإبل أوّل ما ترد الماء.

(٣) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٣.

وكان الحُطَم بن ضبعة أخو بني قيس بن ثعلبة من سادات القوم نائماً، فقام دَهْشاً حين اقتحم المسلمون عليهم، فركب جواده، فانقطع ركابه، فجعل يقول: من يصلح لي ركابي؟ فجاء رجلٌ من المسلمين في الليل، فقال: أنا أصلحها لك ارفع رجلك، فلَمَّا رفعها ضربه بالسيف، فقطعها مع قدمه، فقال: أجهز عليّ فقال: لا أفعل، فوقع صريعاً، وكلَّمَا مرَّ به أحد يسأله أن يقتله، فيأبى، حتَّى مرَّ به قيس بن عاصم، فقال له: أنا الحُطَم، فاقتلني! فقتله، فلَمَّا وجد رجله مقطوعة ندم على قتله، وقال: وسوأته لو أعلم ما به لم أحرَّكه، ثم ركب المسلمون في اثار المنهزمين يقتلونهم بكلِّ مرصِدٍ، وطريقٍ، وذهب من فرَّ منهم، أو أكثر إلى دارين^(١)، ركبوا إليها السُّفن.

ثمَّ شرع العلاء الحضرمي في قسمة الغنيمة، ونَقَلَ الأنفال، ولَمَّا فرغ من ذلك قال للمسلمين: اذهبوا بنا إلى دارين لنغزو مَنْ بها من الأعداء، فأجابوا إلى ذلك سريعاً، فسار بهم؛ حتَّى أتى ساحل البحر ليركبوا في السُّفن، فرأى أن الشُّقة بعيدةٌ لا يصلون إليهم في السُّفن حتَّى يذهب أعداء الله، فاقتحم البحر بفرسه وهو يقول: يا أرحم الرَّاحمين! يا حكيم! يا كريم! يا أحد! يا صمد! يا حيُّ! يا قيوم! يا ذا الجلال والإكرام! لا إله إلا أنت يا ربنا^(٢)! وأمر الجيش أن يقولوا ذلك، ويقتحموا، ففعلوا ذلك فأجاز بهم الخليج بإذن الله على مثل رملة دمثة فوقها ماء لا يغمر أخفاف الإبل، ولا يصل إلى رُكب الخيل، ومسيرته لسفن يوم وليلة، فقطعه إلى الجانب الآخر، فعاد إلى موضعه الأوَّل وذلك كُلُّه في يومٍ، ولم يترك من العدوِّ مخبراً، وساق الذَّراري، والأنعام، والأموال، ولم يفقد المسلمون في البحر شيئاً إلا عُليقة فرسٍ لرجل من المسلمين، ومع هذا رجع العلاء فجاءه بها، ثمَّ قسم غنائم المسلمين فيهم، فأصاب الفارس ستة الاف والرجل ألفين - مع كثرة الجيشين - وكتب إلى الصَّدِّيق فأعلمه بذلك، فبعث الصَّدِّيق يشكره على ما صنع، وقد قال رجلٌ من المسلمين في مرورهم في البحر وهو عفيف بن المنذر:

(١) دارين: بكسر الرَّاء هي فرضة بالبحرين.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج٦، ص ١٢١.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ ذَلَّلَ بَحْرَهُ وَأَنْزَلَ بِالْكَفَّارِ إِحْدَى الْجَلَائِلِ^(١) دَعَوْنَا إِلَى شَقِّ الْبِحَارِ فَجَاءَنَا بِأَعْجَبَ مِنْ فَلَقِ الْبِحَارِ الْأَوَائِلِ^(٢) وَكَانَ رَأْيُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْمَوَاقِفِ، وَالْمَشَاهِدِ الَّتِي رَأَوْهَا مِنْ أَمْرِ الْعَلَاءِ، وَمَا أَجْرَى اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْكِرَامَاتِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ هِجْرٍ، رَاهِبٌ فَأَسْلَمَ حِينَئِذٍ، فَقِيلَ لَهُ: مَا دَعَاكَ إِلَى الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ: خَشِيتُ إِنْ لَمْ أَفْعَلْ أَنْ يَمْسَخَنِي اللَّهُ؛ لَمَّا شَاهَدْتُ مِنَ الْآيَاتِ. قَالَ: وَقَدْ سَمِعْتُ فِي الْهَوَاءِ وَقْتُ السَّحَرِ دَعَاءً. قَالُوا: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، لَا إِلَهَ غَيْرُكَ، وَالبَدِيعُ لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَالدَّائِمُ غَيْرُ الْغَافِلِ، وَالَّذِي لَا يَمُوتُ، وَخَالِقُ مَا يَرَى وَمَا لَا يَرَى، وَكُلُّ يَوْمٍ أَنْتَ فِي شَأْنٍ، وَعِلِمْتُ اللَّهُمَّ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا، قَالَ: فَعِلِمْتُ أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَعَانُوا بِالمَلَائِكَةِ إِلَّا وَهَمَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَحَسَنَ إِسْلَامُهُ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَسْمَعُونَ مِنْهُ^(٣).

وبعد هزيمة المرتدّين رجع العلاء بن الحضرميّ إلى البحرين، وضرب الإسلام بجراحه، وعزّ الإسلام وأهله، وذلّ الشّرك وأهله^(٤).

ولولا تدخّل بعض العناصر الأجنبية لصالح المرتدّين ما تجرّأ المرتدّون على الموقف في وجه المسلمين مدّة طويلة؛ إذ أنّ الفرس قد أمدّوا المرتدّين بتسعة الاف من المقاتلين، وكان عدد المرتدّين من العرب ثلاثة الاف وعدد المسلمين أربعة الاف^(٥).

وكان للمثنّى بن حارثة دورٌ كبيرٌ في إخماد فتنة البحرين والوقوف بقوّاته بجانب العلاء بن الحضرميّ، وقد سار بجنوده من البحرين شمالاً، ووضع يده على القطيف وهجر حتّى بلغ مصب دجلة، وقضى في سيره هذا على قوّات الفرس وعمّالهم ممّن أعانوا المرتدّين بالبحرين، وأنّه انضمّ إلى العلاء بن الحضرميّ في مقاتلة المرتدّين على رأس من بقي على

(١) الجلائل: العظام.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٤.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) التّاريخ الإسلامي (٩/ ١٠٥).

(٥) فتوح ابن أعثم، ص ٤٧.



الإسلام من أهل هذه النواحي، ومنه تابع مسيره مع الساحل شمالاً حتى نزل في قبائل العرب الذين يقيمون بدلتا النهرين، فتحدث إليهم، وتعاهد معهم، وعندما سأل الخليفة الصديق عن المشني؛ قال له قيس بن عاصم المنقري: هذا رجلٌ غير حامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد، هذا المشني بن حارثة الشيباني^(١).

وقد أصدر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمره إلى المشني بن حارثة أن يتابع دعوته للعرب في العراق إلى الحق، وقد اعتبر أن ما قام به المشني من قبل ما هو إلا الخطوة الأولى في تحرير العراق، وأما الخطوة الحاسمة فهي توجيه خالد بن الوليد ليتولى قيادة الجيوش الإسلامية هناك^(٢).

لقد كان أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يغتنم الفرص، ويستنفذ الطاقات، ويستحثُّ الهمم؛ ليصل من الأعمال المقدمة إلى أعلى النتائج، وكان يسخر الطاقات الكامنة في الرجال، ويوجهها لسحق الطغيان؛ الذي عَشَّش في رؤوس زعماء الكفر، والطُّغيان^(٣).

(١) فتوح البلدان للبلاذري، ص ٢٤٢ نقلاً عن «أبو بكر الصديق» خالد جاسم، ص ٤٤.

(٢) أبو بكر الصديق، ص ٤٤، خالد الجنابي، نزار الحديشي.

(٣) التاريخ الإسلامي (٩٨/٩).

المبحث الرابع

مسيلمة الكذاب، وبنو حنيفة

أولاً: التعريف به، ومقدمة عنه:

هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفيّ أبو شامة، متنبئ من المعمرين، وفي الأمثال: أكذب من مسيلمة، ولد ونشأ باليمامة في القرية المسماة اليوم بالجبليّة بقرب العينة بوادي حنيفة في نجد، وتلقّب في الجاهلية بالرّحمان، وعرف برحمان اليمامة^(١)، وأخذ يطوف في ديار العرب والعجم يتعلّم الأساليب التي يستطيع بها استغلال النّاس واستجراهم لجانبه، كجبل السّدنة، والحوّاء، وأصحاب الرّجر، والخطّ، ومذاهب الكهّان، والعيّاف، والسّحرة، وأصحاب الجنّ الذين يزعمون: أنّ لهم تابعاتٍ إلى غيرها من الخزعات.

ومن هذه المشعوذات: أنّه كان يصل جناح الطّائر المقصوص في الطّاهر، وأدخل البيضة في القارورة^(٢).

وكان مسيلمة يدّعي النّبوة ورسول الله بمكّة، وكان يبعث بأناس إليها ليسمعوا القرآن، ويجرّؤوه على مسامعه، فينسج على منواله، أو يسمعه هو نفسه للنّاس زاعماً أنّه كلامه^(٣).

وفي العامّ التّاسع للهجرة؛ الذي عمّ فيه الإسلام ربوع الجزيرة العربية، أقبل وفد بني حنيفة على مدينة الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلنون إسلامهم، وكان مسيلمة معهم، فقد ذكر ابن إسحاق: أنّ مسيلمة كان ضمن المجموعة التي قابلت الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من وفد بني حنيفة جاؤوا به يسترونه بالثّياب، فلمّا قابله؛ كلّمه، وكان مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عسيب من سعف النّخل، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لو سألتني هذا العسيب ما

(١) حروب الردّة وبناء الدّولة، أحمد سعيد، ص ١٢٣؛ الزّركلي (٢/ ١٢٥).

(٢) حركة الردّة للعتوم، ص ٧١.

(٣) البدء والتّاريخ (١٦٠/ ٥) للمقدسي نقلاً عن حركة الردّة، ص ٧١.

أعطيتك»^(١) ويبدو: أنه سأله الشُّركة في النبوة، أو الخلافة من بعده.

وفي رواية: إنَّ مسيلمة لم يكن في الوفد الذي قابل رسول الله ﷺ؛ لأنَّه تخلف يحرس رجال القوم، فلمَّا قسم ﷺ الأعطيات؛ أخرج له نصيباً مثل أنصبتهم، وقال لهم: «إنَّه ليس بشركم مكاناً» وذلك لقيامه على حراسة متاعهم^(٢).

وفي الرواية الأولى يبدو مسيلمة الكذاب شخصاً مريباً ممَّا استدعى ستره بهذه الثياب، وكأنَّه يخفي في نفسه، وتقاطيع وجهه شيئاً مدخولاً. وقد كان الرَّجل كذلك في حياته، وفي قوله ﷺ: «ليس بشركم». لا تعني أنَّه خيرهم بل قد تعني أنَّهم أشرار، وليس هو بأكثر شراً منهم، بل هو شرٌّير مثلهم، والحقيقة التي كشفتها الأيام أنَّ بني حنيفة كان جلُّهم أشراراً، وكان هو الذي يتولَّى كِبَر هذا الشرِّ فيهم.

١ - رجوع وفد بني حنيفة:

ولمَّا رجع وفد بني حنيفة إلى اليمامة حيث ديارهم؛ ادَّعى مسيلمة النبوة، وأعلن شركته لرسول الله ﷺ فيها اعتماداً على قوله ﷺ: «إنَّه ليس بشركم». وطفق يتنبأ لقومه ويسجع، ويحلل، ويحرِّم كما يشتهي، فكان ممَّا زعم: أنَّه قرآنٌ يأتيه: لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمةً تسعى، من بين صفاقٍ وحشى^(٣)، فمنهم من يموت ويُدسُّ إلى الثرى، ومنهم من يبقى إلى أجلٍ مسمًى، والله يعلم السرَّ وأخفى^(٤).

وممَّا قاله مسيلمة: يا ضفدع بنت ضفدعين! نقي ما تنقي، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين^(٥). وقد حاول مسيلمة الكذاب أن يسرق أساليب القرآن مع إحالة معانيه بحيث تخرج شوهاء ممسوخةً مثل قوله: فسبحان الله إذا جاء

(١) السِّيرة النبوية (٢/ ٥٧٦، ٥٧٧).

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٧٧).

(٣) حركة الردة للعتوم، ص ٧٣.

(٤) البدء والتأريخ للمقدسي (٥/ ١٦٢).

(٥) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٠٢.

الحياة كيف تحيون؟ وإلى ملك السماء ترقون، فلو أنّها حبة خردلة، لقام عليها شهيدٌ يعلم ما في الصدور، ولأكثر الناس فيها ثبور^(١).

لقد كان هذا الهراء غير خافٍ على أحدٍ بمن فيهم هم أنفسهم قبل غيرهم، وقد ذكر ابن كثير: أنّ عمرو بن العاص - قبل إسلامه - قابل مسيلمة الكذاب، فسأله هذا ماذا أنزل على محمد من القرآن؟ فقال له عمرو: إنّ الله أنزل عليه سورة العصر، فقال مسيلمة: وقد أنزل الله عليّ مثلها، وهو قوله: يا وبر، يا وبر! إنّما أنت أذنان، وصدر، وسائر حفر نقر^(٢). فقال له عمرو بن العاص: والله إنّك تعلم أنّي أعلم: أنّك تكذب^(٣)! وعلّق ابن كثير - رحمه الله - على قول عمرو وهذا من قرآن مسيلمة المزعوم: فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن، فلم يَرُجْ ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان^(٤).

وقال أبو بكر الباقلاني - رحمه الله: فأما كلام مسيلمة الكذاب، وما زعم: أنّه قرآن؛ فهو أخسُّ من أن نشتغل به، وأسخف من أن نفكر فيه، وإنّما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ، وليتبصّر الناظر، فإنّه على سخافته قد أضلّ، وعلى ركاكته قد أزلّ، وميدان الجهل واسع^(٥).

٢- كتاب مسيلمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والجواب عنه:

وفي العام العاشر للهجرة عندما أصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمرض موته، تجرّأ الخبيث، فكتب رسالة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يزعم لنفسه فيها الشراكة معه في النبوة، كتبها له عمرو بن الجارود الحنفي، وبعثها إليه مع عبادة بن الحارث الحنفي المعروف بابن النواحة، هذا نصّها: من مسيلمة رسول الله (كذب) إلى محمد رسول الله: أمّا بعد:

(١) حركة الردّة للعتوم، ص ٢٧١.

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٥٤٧) ط / الحلبي.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) إعجاز القرآن، تحقيق سيد صقر، ص ١٥٦.

فإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصفها، ولكن قريشاً لا يُنصفون^(١). فردّ عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برسالة كتبها به أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَصُّهَا: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد النَّبِيِّ إلى مسيلمة الكذاب، أمّا بعد: فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين، والسّلام على من اتبع الهدى»^(٢).

وكان مسيلمة قد بعث برسالته إلى الرّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع رجلين أحدهما ابن النّواحة المذكور، فلمّا اطّلع عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهما: وماذا تقولان أنتما؟ فقالا: نقول كما قال. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أما والله لو لا أن الرسل لا تقتل؛ لضربت أعناقكم^(٣)!

٣- موقف حبيب بن زيد الأنصاري حامل رسالة رسول الله إلى مسيلمة:

حمل حبيب بن زيد الأنصاريّ ابن أمّ عمارة نسيبة بنت كعب المازنيّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مسيلمة الكذاب، فعندما سلّمه الرّسالة؛ قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أنّ محمّداً رسول الله فيقول: نعم، فيقول له: أو تشهد أنّي رسول الله؟ فيقول: أنا أصمّ لا أسمع، ففعل ذلك مراراً، وكان في كلّ مرّة لا يجيبه فيها حبيب إلى طلبه يقطع من جسمه عضواً، ويبقى حبيب محتسباً صابراً إلى أن قطّعه إرباً إرباً، فاستشهد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يديه^(٤)، ولننظر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف كانت سيرته، فلا يقتل الرّسل، ولو كانوا من قبل أعدائه الألداء الكفّار، وحتىّ ولو كفروا أمامه، ما دام لهم هذه الحصانة.

أمّا مسيلمة فيتعامى عن العهود، والمواثيق، فيقتل السّفراء لا قتلاً عادياً بل قتل تشويه، وتمثيل، وتشفّ. إنّهُ الفارق بين الإسلام الذي يحترم الكلمة، ويحترم الإنسان ويخاصم بشرفٍ، ورجولةٍ، وبين الجاهليّة التي لا تعرف إلا الفساد في الأرض، وتحكيم الهوى^(٥).

(١) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٨٦.

(٢) المصدر السّابق نفسه (٣/ ٣٨٧).

(٣) المصدر السّابق نفسه (٣/ ٣٨٦).

(٤) أسد الغابة، رقم التّرجمة ١٠٤٩.

(٥) حركة الرّدّة للعتوم، ص ٧٤.

٤- الرَّجَالُ بنِ عَنفُوهِ الْحَنْفِيُّ:

استفحل أمر مسيلمة الكذاب في بني حنيفة، ويبدو أنهم كانوا على استعدادٍ للتجاوب مع زيفه، وخداعة، وافتتن به الرَّجَالُ بنِ عَنفُوهِ الَّذِي هاجر إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسلم، وقرأ القرآن، وحفظ بعض سورته، كان قد بعثه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مسيلمة ليخذل عنه الأتباع، وليوضح جلية الأمر للنَّاسِ في هذه الفتنة الغاشية، فما كان منه عندما وصل إليه إلا أن انقلب على وجهه، وأخذ يشهد لمسيلمة أمام النَّاسِ: أن رسول الله أشركه معه في النبوة، فكان هذا الشَّقِيُّ أَشَدَّ فِتْنَةً على النَّاسِ من مسيلمة نفسه^(١).

وقد أُلْمِحَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته إلى منقلب الرَّجَالِ، فقد روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جلست مع النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رهطٍ معنا الرَّجَالُ بنِ عَنفُوهِ، فقال: «إِنَّ فيكم لرجالاً ضَرُسُهُ في النَّارِ أعظم من أحدٍ». فهلك القوم، وبقيت أنا والرَّجَالُ، فكنت متخوفاً لها، حتَّى خرج الرَّجَالُ مع مسيلمة، فشهد له بالنبوة، فكانت فتنة الرَّجَالِ أعظم من فتنة مسيلمة^(٢).

ثالثاً: الثَّابِتُونَ على الإسلام من بني حنيفة:

طغت أخبار ردّة مسيلمة الكذاب باليمامة على غيرها من أخبار ثبات جماعاتٍ من المسلمين الصّادقين باليمامة بصفةٍ عامّة، وفي بني حنيفة - قوم مسيلمة بصفةٍ خاصّة - ولم يتعرّض كثيرٌ من الكتّاب المحدثين لذكر المسلمين الذين تمسّكوا بإسلامهم في فتنة مسيلمة، ووقفوا في وجهه، وساندوا جيوش الخلافة للقضاء على فتنته، وقد وجدت^(٣) رواياتٍ معتبرةً تلقي الضّوء على هذه الحقيقة التي غابت عن الكثيرين^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٧٥.

(٢) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٠٦.

(٣) وجدتُها في كتاب «الثَّابِتُونَ على الإسلام» للدكتور مهدي رزق الله.

(٤) الثَّابِتُونَ على الإسلام، ص ٥١.

يذكر ابن أعثم: أَنَّ مَمَّنْ ثَبِتَ عَلَى الْإِسْلَامِ فِي الْيَمَامَةِ ثَمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ^(١)، الَّذِي كَانَ مِنْ مَشَاهِيرِ بَنِي حَنِيفَةَ، وَلِذَا اجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ عِنْدَمَا عِلِمُوا بِمَسِيرِ خَالِدٍ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ كَانَ وَاحِدًا مِنْ أَكْبَرِهِمْ، وَكَانَ ذَا عَقْلٍ، وَفَهْمٍ، وَرَأْيٍ، وَكَانَ مُخَالَفًا لِمَسِيلِمَةَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّدَّةِ، وَكَانَ مِمَّا قَالَهُ لِمَنْ تَابَعَ مَسِيلِمَةَ: ... وَيَحْكُمُ يَا بَنِي حَنِيفَةَ! اسْمَعُوا قَوْلِي؛ تَهْتَدُوا! وَأَطِيعُوا أَمْرِي؛ تَرْشَدُوا! وَعَلِمُوا: أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَبِيًّا مَرْسَلًا، لَا شَكَّ فِي نُبُوَّتِهِ، وَمَسِيلِمَةُ رَجُلٌ كَذَّابٌ، لَا تَغْتَرُّوا بِكَلَامِهِ، وَكَذِبِهِ، فَإِنَّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ الْقُرْآنَ الَّذِي أَتَى بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْهَذَا عَنْ رَبِّهِ إِذْ يَقُولُ: ﴿حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ - ٣].

فَأَيْنَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ كَلَامِ مَسِيلِمَةَ الْكَذَّابِ؟ فَانْظُرُوا فِي أُمُورِكُمْ، وَلَا يَذْهَبَنَّ هَذَا عَنْكُمْ، أَلَا وَإِنِّي خَارِجٌ إِلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِي لَيْلَتِي هَذِهِ طَالِبًا مِنْهُ الْأَمَانَ عَلَى نَفْسِي، وَمَالِي، وَأَهْلِي، وَوَلَدِي.

وَكَانَ جَوَابُ مَنْ هُدِيَ إِلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِ: (نَحْنُ مَعَكُمْ يَا أَبَا عَامِرٍ! فَكُنْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِلْمٍ). ثُمَّ خَرَجَ ثَمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ حَتَّى لَحِقَ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَاسْتَأْمَنَ إِلَيْهِ، فَأَمَّنَهُ، وَأَمَّنَ أَصْحَابَهُ^(٢).

وَجَاءَ فِي رِوَايَةِ الْكَلَاعِيِّ قَوْلُهُ لَهُمْ: بَأْنَ لَا نَبِيَّ مَعَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا بَعْدَهُ، وَتَذَكَّرْ طَرَفًا مِنْ قُرْآنِ مَسِيلِمَةَ لِلتَّدْلِيلِ عَلَى سَخْفِهِ^(٣)، وَتَرَوِي شَعْرًا يَنْسَبُ إِلَى ثَمَامَةَ مِنْهُ قَوْلُهُ:

مُسَيْلَمَةُ ارْجِعْ، وَلَا تَمَحِّكْ فَإِنَّكَ فِي الْأُمْرِ لَمْ تَشْرِكْ
كَذَبْتَ عَلَى اللَّهِ فِي وَحْيِهِ فَكَانَ هَوَاكَ هَوَى الْأَنْوَكِ^(٤)

(١) وَقَعَ فِي الْأَسْرِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ لَمَّا كَانَ مُشْرِكًا، فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَحَسَنَ إِسْلَامَهُ.

(٢) الثَّابِتُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ، ص ٥٢.

(٣) الْكَلَاعِيُّ، فِي حُرُوبِ الرَّدَّةِ، ص ١١٧.

(٤) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ نَفْسُهُ.

وَمِنَّاكَ قَوْمُكَ أَنْ يَمْنَعُوكَ وَإِنْ يَأْتِيهِمْ خَالِدٌ تترك
فَمَا لَكَ مِنْ مَضْعَدٍ فِي السَّمَاءِ وَلَا لَكَ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَسْلَكٍ^(١)
وقد جاء في روايةٍ دورٌ ثمامة في حرب مسيلمة، ومساعدة عكرمة بن أبي جهل له في هذه المهمة^(٢).

وقد ساهم ثمامة بن أثال في مساعدة العلاء بن الحضرمي في حربه للمرتدين بالبحرين، وكان معه مسلمو بني حنيفة من بين سُحيم، ومن أهل القرى من سائر بني حنيفة، وكان ثمامة من أهل البلاء في قتال المرتدين مع العلاء الحضرمي^(٣).

وممن ثبت على الإسلام في الإمامة معمر بن كلاب الرُّماني، فقد وعظ مسيلمة، وبني حنيفة الذين تابعوه، ونهاهم عن الردّة، وكان جارا لثمامة بن أثال، وشهد قتال الإمامة مع خالد بن الوليد. ومن سادات الإمامة الذين كانوا يكتمون إسلامهم: ابن عمرو اليشكري الذي كان من أصدقاء الرّجال بن عنفوه، وقال شعراً فشا في الإمامة، وأنشده الناس، ومن هذا الشعر قوله:

إِنَّ دِينِي دِينَ النَّبِيِّ وَفِي الْقَوِ مِ رِجَالٍ عَلَى الْهَدْيِ أَمْثَالِي
أَهْلَكَ الْقَوْمَ مُحْكَمٌ بِنِ طُفِيلٍ وَرِجَالٌ لَيْسُوا لَنَا بِرِجَالِ
أَنَا تَكُنْ مِيتَتِي عَلَى فِطْرَةٍ اللَّهُ حَنِيفًا فَإِنِّي لَا أَبَالِي
فبلغ ذلك مسيلمة، ومحكما، وأشرف أهل الإمامة، فطلبوه، ولكنّه فاتهم، ولحق بخالد بن الوليد، وأخبره بحال أهل الإمامة، ودلّه على عرواتهم^(٤).

(١) الثابتون على الإسلام، ص ٥٣.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٦١.

(٣) الثابتون على الإسلام، ص ٥٤.

(٤) حروب الردّة، ص (١٠٤ - ١٠٦) للكلاعي.

وممن ثبت على الإسلام في الإمامة أيضاً: عامر بن مَسْلَمَة، ورهطه^(١).

ولقد أكرم أبو بكر الثَّابِتَيْن من بني حنيفة، وذلك في أشخاص ذوي قرابتهم، ومن ذلك تعيينه لمطرف بن النُّعْمان بن مسلمة ابن أخي كلٍّ من ثمامة بن أثال، وعامر بن مسلمة اللذين كان لهما ثباتٌ في فتنة الردَّة، عينه والياً على الإمامة^(٢).

رابعاً: تحرُّك خالد بن الوليد بجيشه إلى مسيلمة الكذاب بالإمامة:

كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد أمر خالداً إذا فرغ من أسد، وغطفان، ومالك ابن نويرة أن يقصد الإمامة، وأكد عليه في ذلك، قال شريكُ الفزاري^(٣): كنت ممن حضر بُراخه، فجئت أبا بكرٍ، فأمرني بالمسير إلى خالدٍ، وكتب معي إليه: أمَّا بعد: فقد جاءني في كتابك مع رسولك تذكر ما أظفرك الله بأهل بُراخه، وما فعلت بأسدٍ، وغطفان، وأنتك سائر إلى الإمامة، وذلك عهدي إليك، فاتق الله وحده لا شريك له، وعليك بالرفق بمن معك من المسلمين، كن لهم كالوالد، وإيَّاك يا خالد بن الوليد! ونخوة بني المغيرة، فإنِّي قد عصيت فيك من لم أعصه في شيءٍ قط، فانظر إلى بني حنيفة إذا لقيتهم - إن شاء الله - فإنَّك لم تلقَ قوماً يشبهون بني حنيفة، كلُّهم عليك، ولهم بلادٌ واسعةٌ، فإذا قدمت فباشر الأمر بنفسك، واجعل على ميمتك رجلاً، وعلى ميسرتك رجلاً^(٤)، واجعل على خيلك رجلاً، واستشر من معك من الأكابر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المهاجرين، والأنصار، واعرف لهم فضلهم، فإذا لقيت القوم، وهم على صفوفهم فالحقهم - إن شاء الله - وقد أعددت للأمر أقرانها، فالسَّهم للسَّهم، والرُّمح للرُّمح، والسَّيف للسَّيف، واحمل أسيرهم على السَّيف^(٥)، وهول فيهم القتل، وأحرقهم

(١) الثَّابِتُون على الإسلام، ص ٥٧.

(٢) الثَّابِتُون على الإسلام، ص ٥٨.

(٣) شريك بن عبدة: صحابيٌّ قام بالمراسلة الحربيَّة بين الصِّديق وخالد.

(٤) حروب الردَّة، شوقي أبو خليل، ص ٧٨.

(٥) المصدر السابق نفسه.

بالنار، وإيّاك أن تخالف أمري! والسّلام عليك^(١). فلما انتهى الكتاب إلى خالدٍ، وقرأه؛ قال: سمعاً، وطاعة^(٢).

سار خالد إلى قتال بني حنيفة باليمامة، وعبّى معه المسلمين، وكان على الأنصار ثابت بن قيس بن شماس، فسار لا يمرُّ بأحد من المرتدين إلا نكّل به، وسير الصديق جيشاً كثيفاً مجهّزاً بأحدث سلاح ليحمي ظهر خالد حتّى لا يوقع به أحدٌ من خلفه، وكان خالد في طريقه إلى اليمامة قد لقي أحياء من الأعراب قد ارتدّت، فغزاها، وردّها إلى الإسلام، ولقي مؤخّرة جيش سجاح، ففتك به، ونكبه، ثمّ زحف إلى اليمامة^(٣).

ولمّا سمع مسيلمة بقدوم خالد؛ عسكر بمكانٍ يقال له: عقرباء^(٤) في طرف اليمامة، وندب النّاس، وحثّهم على لقاء خالد، فأثاه أهل اليمامة، وجعل على مجنّبي جيشه: المحكم بن الطفيل، والرّجال بن عنفوه (شاهد زور).

والتقى خالد بعكرمة وشرحبيل فتقدّم، وقد جعل على مقدّمة الجيش شرحبيل ابن حسنة، وعلى المجنّبتين زيد بن الخطّاب، وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة^(٥).

أ- مُجَاعَة بن مرارة الحنفي يقع في أسر المسلمين:

مرّت مقدّمة جيش خالد بنحو من أربعين - وقيل: ستين - فارساً عليهم مُجَاعَة ابن مرارة الحنفي، وكان قد ذهب لأخذ ثأر له في بني تميم، وبني عامر، وفي طريق عودته إلى قومه أسرهم المسلمون، فلمّا جيء بهم إلى خالد؛ قال لهم: ماذا تقولون يا بني حنيفة؟! قالوا: نقول منّا نبيّ، ومنكم نبيّ، فقتلهم^(٦). وفي رواية: سألهم خالد: متى شعرتم بنا؟ قالوا: ما

(١) مجموعة الوثائق السياسيّة، ص (٣٤٨، ٣٤٩)؛ حروب الردّة، أبو خليل، ص ٧٩.

(٢) حروب الردّة، د. شوقي أبو خليل، ص ٧٩.

(٣) الصديق أوّل الخلفاء، ص ١٠٥.

(٤) حروب الردّة، د. شوقي أبو خليل، ص ٨٠.

(٥) حروب الردّة، د. شوقي أبو خليل، ص ٨٠.

(٦) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٨.

شعرنا بك! إنَّما خرجنا لنثأر فيمن حولنا من بني عامرٍ، وتميم. فلم يصدِّقهم خالد بل حسبهم جواسيس عليه لمسيلمة الكذاب، فأمر بقتلهم جميعاً، فقالوا له: إنَّ تردُّ بأهل اليمامة غداً شراً أو خيراً؟ فاستبق هذا، وأشاروا إلى رئيسهم مُجاعة، فاستبقى مُجاعة، وقتل الآخرين^(١).

وكان مُجاعة بن مرارة سيِّداً في بني حنيفة شريفاً مطاعاً، فكان خالد كلَّما نزل منزلاً واستقرَّ به دعا مُجاعة فأكل معه، وحدَّثه، فقال له ذات يوم: أخبرني عن صاحبك - يعني: مسيلمة - ما الذي يُقرِّئك؟ هل تحفظ منه شيئاً؟ قال: نعم، فذكر له شيئاً من رجزه، فقام خالد، وضرب بإحدى يديه على الأخرى، وقال: يا معشر المسلمين! اسمعوا إلى عدوِّ الله كيف يعارض القرآن، ثمَّ قال: ويحك يا مُجاعة! أراك رجلاً سيِّداً عاقلاً اسمع إلى كتاب الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ انظر كيف عارضه عدوُّ الله، فقرأ عليه خالد: فقال ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]: أما إنَّ رجلاً من أهل البحرين كان يكتب، أدناه مسيلمة، وقربه حتَّى لم يكن يَعدُّه في القُرب عنده أحدٌ، فكان يخرج إلينا، فيقول: ويحكم يا أهل اليمامة! صاحبكم والله كذاب، وما أظنُّكم تتَّهموني عليه، إنَّكم لترون منزلتي عنده، وحالي، هو والله يكذبكم، وبايعكم على الباطل. قال خالد: فما فعل ذلك البحرانيُّ؟ قال: هرب منه، كان لا يزال يقول هذا القول حتَّى بلغه، فخافه على نفسه، فهرب، فلحق بالبحرين، قال خالد: هات زدنا من كذب الخبيث! فقال مُجاعة بعض رجز مسيلمة، فقال خالد: وهذا كان عندكم حقاً، وكنتم تصدِّقونه؟ قال مُجاعة: لو لم يكن عندنا حقاً؛ لما لقيتُك غداً أكثر من عشرة آلاف سيفٍ يضاربونك فيه حتَّى يموت الأعجل، قال خالد: إذاً يكفيانكم الله، ويعزُّ دينه، ففي سبيله يقاتلون، ودينه يريدون^(٢).

فهذا ردُّ يدلُّ على عظمة إيمان خالد، وثقته بالله، فقد كان إيمانه بالله، وثقته المطلقة في نصر الله لدينه هما اللذان فجَّرا في شخصيته كنوز المواهب الحربيَّة، وفنون المهارات القياديَّة، لقد قاتل يوم بُزَاخة بسيفين حتَّى قطعهما، فقد كان يملأ الإيمان قلبه، ويعتزُّ بالله وحده، وكان ذلك كفيلاً بإسقاط هيبة عدوِّه من نفسه، وغرس هيئته في قلب عدوِّه، وذلك

(١) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٠٦.

(٢) حروب الردَّة، ص ٨٢.

أَوَّلُ الطَّرِيقِ لِإِحْرَازِ النَّصْرِ الْحَاسِمِ عَلَيْهِ، وَإِلْحَاقِ الْهَزِيمَةِ السَّاحِقَةِ بِهِ^(١).

ب - شَنُّ الْحَرْبِ النَّفْسِيَّةِ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ:

وضع خالد بن الوليد خطته على أساس استخدام الحرب النفسية، ثمّ تحكيم السيف، فبعث زياد بن لبيد، وكان صديقاً لمحكم بن طفيل سيّد أهل اليمامة بقصد أن يكسبه إلى جانبه، فقال خالد لزياد: لو لقيت إلى محكم شيئاً تكسره به، فكتب زياد إليه أبياتاً من الشعر، جاء فيها:

وَيْلُ الْيَمَامَةِ وَيلاً لَا فِرَاقَ لَهُ إِنْ جَالَتِ الْخَيْلُ فِيهَا بِالْقَنَا الصَّادِي
وَاللّٰهُ لَا تَنْشَنِي عَنْكُمْ أَعْنَتُهَا حَتَّى تَكُونُوا كَأَهْلِ الْحَجَرِ أَوْ عَادِ

واتّجه خالد كذلك إلى عمير بن صالح الإشكري، وكان قد أسلم، وكنتم إسلامه على قومه، وكان قويّ العقيدة راسخ الإيمان، وقال له: تقدّم إلى قومك، فأتاهم، وقال: أظلكم خالد في المهاجرين، والأنصار، إنّي رأيت قوماً إن غالبتموهم بالصبر؛ غلبوكم بالنصر، وإن غلبتموهم بالعدد؛ غلبوكم بالمدد، ولستم والقوم سواء، الإسلام مقبّل، والشرك مدبرٌ، وصاحبهم نبيٌّ، وصاحبكم كذاب، ومعهم الشُّرور، ومعكم الغرور، فالآن والسيف في غمده، والنبل في جفيره، قبل أن يسلّ السيف، ويرمى بالسهم^(٢).

ثمّ باشر خالد المهمّة مع ثمامة بن أثال الحنفيّ، فمشى إلى قومه يدعوهم إلى الاستسلام، ويحطّم عندهم روح القتال: (إنّه لا يجتمع نبيان بأمر واحد، إنّ محمّداً صلى الله عليه وسلّم لا نبيّ بعده، ولا نبيّ مرسلٌ معه، لقد بعث إليكم (يقصد أبا بكر) رجلاً لا يسمّى باسمه، ولا باسم أبيه، يقال له: (سيف الله) ومعه سيوفٌ كثيرةٌ، فانظروا في أمركم)^(٣). واهتمّ خالد بتدبير الخطط المحكمة، وكان رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ لا يستخفّ بعدوّه، وكان في ميدان المعركة على أهبة،

(١) حركة الردّة للعتوم، ص (٢١٨، ٢١٩).

(٢) الحرب النفسيّة، أحمد نوفل، ص (١٤٤، ١٤٥).

(٣) الحرب النفسيّة، د. أحمد نوفل (١٤٥/٢)؛ فنّ إدارة المعركة، محمّد فرج، ص (١٣٨، ١٤٠).

وحذر دائمين؛ مخافة أن يفقاه عدوّه بغارةٍ غادرةٍ، والتفاف مكرٍ.

وقد وُصِفَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنه: كان لا ينام، ولا يبيت إلا على تعبئةٍ، ولا يخفى عليه من أمر عدوّه شيء^(١).

وفي محاربته لمسيلمة - قبل معركة عقرباء - جعل طليعته مكنف بن زيد على الخيل، وأخاه حريثاً لجمع المعلومات اللاّزمة للمعركة، وقد حان ترتيب أمور جيشه فالموقف شديد الخطورة، ولا بدّ من أخذ التّرتيبات اللاّزمة فقد كان حامل الرّاية في هذه المعركة عبد الله بن حفص بن غانم، ومن ثمّ تحوّلت إلى سالم^(٢) مولى أبي حذيفة، ومعلومٌ: أنّ الناس براياتهم - كما قالت العرب - فإذا زالت زالوا، وقد قدّم خالدٌ في هذه المعركة شرحبيل بن حسنة، وقسّم الجيش أخماساً، على المقدّمة خالد المخزوميّ، وعلى الميمنة أبو حذيفة، وعلى الميسرة شجاعٌ، وفي القلب زيد بن الخطّاب، وجعل أسامة بن زيد على الخيّالة، ووضع الظّعن في المؤخّرة، وفيها الخيام، والنّساء^(٣)، وهذا الترتيب الأخير قبل المعركة.

(١) حركة الرّدة للعتوم، ص ١٩٩.

(٢) المصدر السّابق نفسه، ص ٢٠٠.

(٣) المصدر السّابق نفسه، ص ٢٠٠.

خامساً: المعركة الفاصلة:

ولمّا توجه الجيشان قال مسيلمة لأتباعه وقومه قبيل المعركة الفاصلة: اليوم يوم الغيرة، اليوم إن هزمتم؛ تستنكح النساء سبيات، وينكحن غير حظريات، فقاتلوا على أحسابكم وامنعوا نساءكم^(١)!

وتقدّم خالدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالمسلمين حتّى نزل بهم على كتيبٍ يشرف على اليمامة، فضرب به عسكره، واصطدم المسلمون والكفار، فكانت جولةً، وانهزمت الأعراب حتّى دخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد، وهمّوا بقتل أمّ تميم حتّى أجارها مُجَاعَة، وقال: نعمت الحرّة هذه، وقد قُتل الرَّجَال بن عنفوه - لعنه الله - في هذه الجولة، وقتل زيد بن الخطاب، ثمّ تذامر الصّحابة بينهم، وقال ثابت ابن قيس بن شماس: لبس ما عودتم أقرانكم، ونادوا من كلّ جانبٍ: أخلصنا يا خالد! فخلصت ثلّة من المهاجرين والأنصار وحمي، وقاتلت بنو حنيفة قتالاً لم يعهد مثله، وجعلت الصّحابة يتواصون بينهم، ويقولون: يا أصحاب سورة البقرة! بطل السّحر اليوم، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو حاملٌ لواء الأنصار بعدما تحنّط، ونكفن فلم يزل ثابتاً حتّى قُتل هناك، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة: أتخشى أن نؤتى من قبلك؟ فقال: بس حامل القرآن أنا إذاً، وقال زيد بن الخطاب: أيها الناس! عضّوا على أضراسكم، واضربوا في عدوكم، وامضوا قدماً، وقال: والله لا أتكلّم حتى يهزمهم الله، أو ألقى الله فأكلّمه بحجّتي، فقتل شهيداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال أبو حذيفة: يا أهل القرآن! زينو القرآن بالفعال، وحمل فيهم حتّى أبعدهم، وأصيب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وحمل خالد بن الوليد حتّى جاوزهم، وسار لقتال مسيلمة، وجعل يترقّب أن يصل إليه، فيقتله، ثمّ رجع، ثم وقف بين الصّفين، ودعا البراز، وقال: أنا ابن الوليد العود، أنا ابن عامر، وزيد، ثمّ نادى بشعار المسلمين - وكان شعارهم يومئذٍ: يا محمداه! - وجعل لا يبرز له أحدٌ إلّا قتله ولا يدنو منه شيءٌ إلّا أكله، وقد ميّز خالد المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وكلّ

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٨.

بني أب على رايتهم يقاتلون تحتها، حتَّى يعرف الناس من أين يؤتون، وصبر الصَّحابة في هذا الموطن صبراً لم يعهد مثله، ولم يزالوا يتقدَّمون إلى نحور عدوِّهم حتَّى فتح الله عليهم، وولَّى الكفار الأدبار وأتبعوهم يقتلون في أقفائهم، ويضعون السيوف في رقابهم حيث شاءوا، حتَّى ألجأوهم إلى حديقة الموت وقد أشار عليهم مُحَكَّم اليمامة - وهو مُحَكَّم بن الطُّفيل - لعنه الله - بدخولها، فدخلوها وفيها عدوُّ الله مسيلمة - لعنه الله - وأدرك عبد الرحمن بن أبي بكر مُحَكَّم بن الطُّفيل، فرماه بسهم في عنقه وهو يخطب، فقتله، وأغلقت بنو حنيفة الحديقة عليهم وأحاط بهم الصَّحابة^(١).

سادساً: بطولات نادرة:

١ - قال البراء بن مالك:

يا معشر المسلمين! ألقوني عليهم في الحديقة، فاحتملوه فوق الجَحَف^(٢)، ورفعوها بالرِّماح حتَّى ألقوه عليهم، فلم يزل يقاتلهم دون بابها حتَّى فتحه ودخل المسلمون الحديقة من الباب الَّذي فتحه البراء، وفتح الَّذين دخلوا الأبواب الأخرى وحوصر المرتدُّون وأدركوا أنَّها القاضية، وأنَّ الحق جاء، وزهق باطلهم^(٣).

٢ - مصرع مسيلمة الكذاب:

وخلص المسلمون إلى مسيلمة - لعنه الله - وإذا هو واقف في ثلثة جدار كأنَّه جملٌ أورك، وهو يريد يتساند لا يعقل من الغيظ، وكان إذا اعتراه شيطانه أزد حتَّى يخرج الزُّبد من شدقيه، فتقدَّم إليه وحشيُّ بن حربٍ مولى جبير بن مطعم - قاتل حمزة - فرماه بحرْبته فأصابه، وخرجت من الجانب الآخر وسارع إليه أبو دُجانة سِمَاك بن خرْشه فضربه بالسَّيف، فسقط، فنادت امرأة من القصر: وأأمير الوضاعة قتله العبد الأسود، فكان جملة من قتلوا في

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٩.

(٢) الجحف: المراد بها التُّروس.

(٣) حروب الردَّة، لشوقي أبو خليل، ص ٩٢.

الحديقة وفي المعركة قريباً من عشرة الاف مقاتل، وقيل: إحدى وعشرون ألفاً، وقُتِل من المسلمين ستمئة وقيل: خمسمئة، فالله أعلم، وفيهم من سادات الصحابة، وأعيان الناس من يذكر بعد، وخرج خالد وتبعه مُجاعة بن مرارة يرسف في قيوده، فجعل يريه القتلى ليعرفه بمسيلمة، فلمّا مروا بالرجال ابن عنفوه قال له خالد: أهذا هو؟ قال: لا والله هذا خير منه هذا الرجال بن عنفوه. ثمّ مروا برجل أصفر أخنس فقال: هذا صاحبكم، فقال خالد: قبحكم الله على أتباعكم هذا! ثمّ بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال، وسبي^(١).

٣- أبو عقيل: عبد الرحمن بن عبد الله البلوي الأنصاري الأوسي:

كان أبو عقيل من أوّل من جرح يوم اليمامة رُمي بسهم، فوقع بين منكبيه، وفؤاده، فجرح في غير مقتل، فأخرج السهم، ووهن شقّه الأيسر، فأخذ إلى معسكر المسلمين، فلمّا حمي القتال، وتراجع المسلمون إلى رحالهم، ومعسكرهم، وأبو عقيل واهنّ من جرحه سمع معن بن عديّ يصيح: يا للأنصار! الله الله، والكرّة على عدوّكم، وتقدّم معن القوم، ونهض أبو عقيل يريد قومه، فقال له بعض المسلمين: يا أبا عقيل! ما فيك قتال، قال: قد نوه المنادي باسمي، فقيل له: إنّما يقول يا للأنصار، لا يعني الجرحى، فقال أبو عقيل: فأنا من الأنصار، وأنا أجيب، ولو حبواً، فتحزّم أبو عقيل وأخذ السيف بيده اليمنى مجرداً ثمّ جعل ينادي: يا للأنصار! كرّة كيوم حنين، فاجتمعوا جميعاً، وتقدّموا بروح معنويّة عالية يطلبون الشهادة أو النصر حتّى أقحموا عدوّهم الحديقة.

وفي هذا الهجوم قطعت يد أبي عقيل من المنكب، ووجدت به أربعة عشر جرحاً كلّها قد خلصت إلى مقتل، ومراً ابن عمر بأبي عقيل، وهو صريعٌ باخر رمق، فقال: يا أبا عقيل! فقال: لبيك! بلسانٍ ثقیل، ثمّ قال: لمن الدّبرة؟ فقال ابن عمر: أبشر، قد قُتِل عدوّ الله! فرفع أبو عقيل إصبعه إلى السّماء بحمد الله، قال عنه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَحِمَهُ اللَّهُ ما زال ينال الشهادة،

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٠.

ويطلبها، وإنه لمن خيار أصحاب نبينا^(١).

٤- نسبية بنت كعب المازنية الأنصارية:

خرجت في جيوش خالد الذاهبة لليمامة، وباشرت القتال بنفسها، وأقسمت ألا تضع السلاح حتى يقتل دجال بني حنيفة، وبرّت بفضل الله بقسمها، وقتل مسيلمة، ورجعت إلى المدينة، وبها اثنا عشر جرحاً ما بين طعنة برمّح، وضربة بسيف، وكلّها أوسمة شرف لهذه الصّحابة المجاهدة التي ضربت لبنات جنسها مثلاً رائعاً في الدّفاع عن الدّين، والعقيدة، ولو أدّى ذلك لأن تتحمّل ما لا يتحمّله في العادة مثيلاتها من ربّات الخدور^(٢)، وقد قام خالد بن الوليد بعد هذه المعركة برعايتها. فقد قالت نسبية - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فلمّا انقطعت الحرب، ورجعت إلى منزلي جاءني خالد بن الوليد بطبيب فداواني بالزّيت المغلي، وكان والله أشدّ علي من القطع! وكان خالد كثير التّعهد لي، حسن الصّحبة لنا، يعرف لنا حقناً، ويحفظ فينا وصية نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

سابعاً: من شهداء معركة اليمامة:

١- ثابت بن قيس بن شماس؛ الذي أجاز الصّدّيق وصيته بعد موته:

هو أبو محمّد خطيب الأنصار، وقد ثبت: أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشّره بالشّهادة، وقتل يوم اليمامة شهيداً، وكانت راية الأنصار يومئذ بيده، وقد رأى رجلٌ من المسلمين ثابت بن قيس في منامه، فقال: إني لما قتلت بالأمس مرّ بي رجلٌ من المسلمين فانتزع مني درعاً نفيسةً، ومنزله في أقصى العسكر، وعند خبائه فرسٌ يستنُّ في طوله، وقد كفأ على الدّرع برّمةً، وفوق البرمة رحلٌ، فائت خالداً فمره أن يبعث إليّ درعي فيأخذها، وإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله - يعني: أبا بكرٍ - فقل له: إنّ عليّ من الدّين كذا، وكذا، وفلانٌ من رقيقي

(١) حروب الردّة، ص (٩٣، ٩٤) شوقي أبو خليل نقلاً عن الاكتفاء (١٣/٢).

(٢) حركة الردّة، للعتوم، ص ٣٠٩.

(٣) الأنصار في العصر الرّاشدي، ص ١٩٠.

عتيق، وإياك أن تقول: هذا حلم فتضيّعه! قال: فأتى خالداً، فوجهه إلى الدرع، فوجدها كما ذكر، وقدم على أبي بكر فأخبره، فأنفذ أبو بكر وصيته بعد موته، فلا يعلم أحد جازت وصيته بعد موته إلا ثابت ابن قيس بن شماس^(١).

٢- زيد بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هو أخو عمر بن الخطاب لأبيه، وكان أكبر من عمر، أسلم قديماً، وشهد بدرًا، وما بعدها، وقد اخذ رسول الله ﷺ بينه وبين معن بن عدي الأنصاري، وقد قتلا جميعاً باليمامة، وقد كانت راية المهاجرين يومئذ بيده، فلم يزل يتقدم بها حتى قتل، فسقطت، فأخذها سالم مولى أبي حذيفة، وقد قتل زيد يومئذ الرجال بن عنفوه؛ الذي كانت فتنته على بني حنيفة أشد من فتنة مسيلمة، فكان مصرعه على يد زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والذي قتل زيداً رجلاً يقال له: أبو مريم الحنفي، وقد أسلم بعد ذلك، وقال لعمر: يا أمير المؤمنين! إن الله أكرم زيداً بيدي، ولم يهني على يده، وقد قال عمر لما بلغه مقتل زيد بن الخطاب: رحم الله أخي زيداً سبقني إلى الحسين: أسلم قبلي، واستشهد قبلي، وقال لمتّم بن نويرة حين جعل يرثي أخاه مالكا بالأشعار: لو كنت أحسن الشعر؛ لقلت كما قلت، فقال له متّم: لو أن أخي ذهب على ما ذهب عليه أخوك ما حزنت عليه، فقال له: ما عزّاني أحد بمثل ما عزّيتني به! ومع هذا كان عمر يقول: ما هبّت الصّبا إلا ذكرتني زيداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

٣- معن بن عدي البلوي:

شهد العقبة، وبدرًا، وأحداً، والخندق، وسائر المشاهد، وكان قد اخذ رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن الخطاب فقتلا جميعاً يوم اليمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما وكان لمعن بن عدي موقفٌ متميّزٌ عند وفاة رسول الله ﷺ، فعندما بكى الناس على رسول الله ﷺ حين مات، وقالوا: والله ودنا أنا متنا قبله، ونخشى أن نفتن بعده! فقال معن

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٩.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٤٠.

بن عدي: لكني والله ما أحب أن أموت قبله، لأصدقته ميتاً كما صدقته حياً^(١).

٤ - عبد الله بن سهيل بن عمرو:

أسلم قديماً، وهاجر، ثم استضعف بمكة، فلما كان يوم بدر؛ خرج معهم، فلما توجهوا؛ فرّ إلى المسلمين، فشهدا معهم، وقُتل يوم اليمامة، فلما حجّ أبو بكر عزى أباه فيه، فقال سهيل: بلغني: أن رسول الله ﷺ قال: «يشفع الشهيد لسبعين من أهله»^(٢). فأرجو أن يبدأ بي^(٣)، وقد كان لسهيل بن عمرو رضى الله عنه موقفٌ عظيمٌ بمكة حين توفي رسول الله ﷺ فقد هم أكثر أهل مكة بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم والي مكة عتاب بن أسيد، فتواري، فقام سهيل ابن عمرو، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قوةً، فمن رابنا ضربنا عنقه، فتراجع الناس، وكفوا عما هموا به، فظهر عتاب بن أسيد. فهذا المقام؛ الذي أراد رسول الله ﷺ في قوله لعمر بن الخطاب - يعني: حين أشار بنزع نبيته حين وقع في الأسارى يوم بدر: «إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمنه»^(٤).

٥ - أبو دجانة سماك بن خرشه:

كانت عليه يوم بدر عصابةٌ حمراء، قيل: اخذني النبي ﷺ بينه وبين عتبة بن غزوان، وثبت أبو دجانة يوم أحد مع النبي ﷺ وبايعه على الموت، وهو ممن اشترك في قتل مسيلمة، وقُتل يومئذٍ، وقال زيد بن أسلم: دخل على أبي دجانة وهو مريض - وكان وجهه يتهلل - فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما لي من عملي شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، والأخرى فكان قلبي للمسلمين سليماً^(٥)، وكان أبو

(١) المصدر السابق نفسه (٦/٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) سنن أبي داود في الجهاد، باب الشهيد يشفع، ٢٥٢٢.

(٣) تاريخ الذهبي، الخلفاء الراشدون، ص ٦١.

(٤) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، خلافة أبي بكر، ص ٨٢.

(٥) عهد الخلفاء الراشدين للذهبي، ص ٧٠.

دجانة يوم اليمامة من أبطال المسلمين، فقد رمى بنفسه إلى داخل الحديقة فانكسرت رجله، فقاتل وهو مكسور الرجل حتى قتل^(١).

٦- عبّاد بن بشر:

من فضلاء الصحابة، عاش خمساً وأربعين سنة، وهو الذي أضاعت عصاه ليلة حين انقلب إلى منزله، وكان قد سمر عند النبي صلى الله عليه وسلم^(٢)، أسلم عبّاد على يد مصعب ابن عمير، وكان فيمن قتل كعب بن الأشرف^(٣)، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات مؤزينة، وبني سليم، وعلى حرسه بتبوك، وأبلى يوم اليمامة بلاءً حسناً، وكان من الشجعان، وعن عائشة، قالت: ثلاثة من الأنصار لم يكن أحدٌ يعتد عليهم فضلاً، كلهم من بني عبد الأشهل: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعبّاد بن بشر. وعن عائشة، قالت: تهجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي فسمع صوت عبّاد يصلي في المسجد فقال: «يا عائشة! هذا صوت عبّاد؟» قلت: نعم! قال: «اللهم ارحم عبّاداً»^(٤). وقد استشهد باليمامة.

ويحدثنا أبو سعيد الخدري عنه، حيث قال: سمعته يقول حين فرغنا من بُزّاحة: يا أبا سعيد! رأيت الليلة كأن السماء فرجت لي، ثم أطبقت عليّ، فهي - إن شاء الله - الشهادة. قلت: خيراً والله رأيت^(٥)! وقد كان له يوم اليمامة مواقف مشهودة، فقد وقف على نشز مرتفع من الأرض، ثم صاح بأعلى صوته: أنا عبّاد ابن بشر، يا للأنصار، يا للأنصار! ألا إليّ، ألا إليّ، فأقبلوا إليه جميعاً، وأجابوه: لبيك، لبيك! ثم حطّم جفن سيفه، فألقاه وحطّمت الأنصار جفون سيوفهم ثم قال جملةً صادقة: اتبعوني، فخرج حتى ساقوا بني حنيفة منهزمين، حتى انتهوا بهم إلى الحديقة، فأغلق عليهم^(٦)، ولما تمكّن المسلمون من اقتحام باب الحديقة،

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٧١.

(٢) البخاري، مناقب الأنصار رقم (٣٨٠٥).

(٣) البخاري، في المغازي رقم (٤٠٣٧).

(٤) البخاري معلقاً، رقم (٢٦٥٥).

(٥) الطبقات لابن سعد، مرجع سابق، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٦) غزوات ابن حبيش (١/١٢١).

ألقى درعه على بابها، ثم دخل بالسيف صلتاً يجالدهم، حتى قُتل شهيداً باليمامة، وهو ابن خمسٍ وأربعين سنةً، ولم يعرف إلا بعلامةٍ في جسده لكثرة ما فيه من الجراح - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١). وقد اشتهرت مواقف عباد بن بشر في اليمامة حتى أصبحت مضرب المثل^(٢)، وبقيت بنو حنيفة تذكّر عباد بن بشر، فإذا رأت الجراح بالرجل منهم تقول: هذا ضرب مجرب القوم عباد بن بشر^(٣).

لقد كان للأنصار مواقفٌ عظيمة، وإقدامٌ منقطع النظير في حروب الردّة، وخصوصاً باليمامة، قد شهد للأنصار بالإقدام والصبر في ذلك اليوم مُجَاعَة بن مرارة الحنفي عند الخليفة «أبو بكر» فقال: يا خليفة رسول الله! لم أر قومًا قط أصبر لوقع السيف، ولا أصدق كرّةً من الأنصار... فلقد رأيته، وأنا أطوف مع خالد بن الوليد أعرفه قتل بني حنيفة وإني لأنظر إلى الأنصار وهم صرعى. فبكى أبو بكر؛ حتى بلّ لحيته^(٤).

٧- الطفيل بن عمرو الدوسي الأزدي:

استشهد باليمامة، وكان شريفاً، شاعراً، لبيباً، وقد رأى الرؤيا قبل استشهاده، حيث قال: خرجت، ومعني ابني عمرو، فرأيت كأن رأسي حُلِقَ، وخرج من فمي طائرٌ، وكأنّ امرأةً أدخلتني فرجها، فأولتها: حُلِقَ رأسي: قطعه، وأمّا الطائر: فروحي، وأمّا المرأة: فالأرض أدفن فيها، فاستشهد يوم اليمامة^(٥).

وقد استشهد كثيرٌ من المهاجرين والأنصار في هذه المعركة الفاصلة.

وكانت المدينة على الرغم من فرحها بانتصار المسلمين على المرتدين ما زالت تبكي شهداءها، ففي حرب اليمامة وحدها قتل من المسلمين مئتان وألف، منهم عددٌ من كبار

(١) الاكتفاء للكلاعي (٥٣/٣).

(٢) الأنصار في العهد الراشدي، ص ١٨٦.

(٣) الاكتفاء للكلاعي (٥٣/٣).

(٤) المصدر السابق نفسه (٦٥/٣).

(٥) عهد الخلفاء الراشدين للذهبي، ص (٦٢، ٦٣).

الصَّحابة، وفيهم أكثر حفاظ القرآن: نحو أربعين من القراء، وعصرت الأحران قلب المدينة، وغمرت الدُموعُ ابتساماتُ الفرح بالنصر، وضافت الصدور، وثقلت المحنة على القلوب بقدر ما أضاء انتصار المسلمين غيابات النفوس، وقوى من إيمانهم، وغرس الثقة في أعماقهم^(١).

ثامناً: خدعة مُجاعة، وزواج خالد من ابنته، ورسائل بينه وبين الصديق:

أ. خدعة مُجاعة:

بعد انتصار جيش المسلمين في حديقة الموت، بعث خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مالٍ، وسبيٍّ، ثمَّ عزم على غزو الحصون، ولم يكن بقي فيها إلا النساء، والصبيان، والشيوخ الكبار، فخدعه مُجاعة، فقال: إِنَّهَا مَلَأِي رَجَالاً مُقَاتِلَةً، فَهَلُمَّ فَصَالِحْنِي عَنْهَا، فصالحه خالدٌ؛ لما رأى بالمسلمين من الجهد، وقد كَلُّوا من كثرة الحروب، والقتال. فقال: دعني حتَّى أذهب إليهم ليوافوني على الصلح، فقال: اذهب، فسار إليهم مُجاعة، فأمر النساء أن يلبسن الحديد، ويبرزن على رؤوس الحصون، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رؤوس الناس فظنَّهم كما قال مُجاعة، فانتظر الصلح ودعاهم خالد إلى الإسلام، فأسلموا عن آخرهم، ورجعوا إلى الحقِّ، وردَّ عليهم خالد بعض ما كان من السبي، وساق الباقين إلى الصديق، وقد تسرَّى عليُّ بن أبي طالبٍ بجاريةٍ منهم، وهي أمُّ ابنه محمد الذي يقال له: محمد ابن الحنفية^(٢).

وكانت وقعة اليمامة في سنة إحدى عشرة، وقال الواقدي، وآخرون: كانت في سنة اثنتي عشرة، والجمع بينهما أن ابتداءها في سنة إحدى عشرة، والفراغ منها في سنة اثنتي عشرة^(٣).

ب. زواجه بابنة مُجاعة والرسائل بينه وبين الصديق:

(١) الصديق أول الخلفاء، ص ١١٧.

(٢) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، خلافة أبي بكر، ص ١١٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

طلب خالد بن الوليد من مُجَاعَة بعدما تَمَّ الصلح أن يزوجه بابنته، فقال له مُجَاعَة: مهلاً إِنَّكَ قاطع ظهرك، وظهري معك عند صاحبك. فقال خالد: أَيُّها الرجل! زَوِّجني ابنتك، فزَوِّجه مُجَاعَة ابنته^(١).

وكان الصَّدِيق قد أرسل سلمة بن وقش إلى خالد إن أظفره الله أن يقتل مَنْ جرت عليه الموسى^(٢) من بني حنيفة، فوجده قد صالحهم، وأتمَّ خالد عقده معهم، ووفَّى لهم^(٣).

وكان الصَّدِيق يستروح الخبر من الإمامة، ويتنظر رسول خالد، فخرج يوماً بالعشيِّ ومعه نفرٌ من المهاجرين والأنصار إلى ظهر الحرَّة، فلقي أبا خيثمة النجارين قد أرسله خالد فلمَّا راه أبو بكر قال له: ما وراءك يا أبا خيثمة؟! قال: خيرٌ يا خليفة رسول الله! قد فتح الله علينا الإمامة، وهذا كتاب خالد، فسجد الصَّدِيق شكراً لله، وقال: أخبرني عن الوقعة؛ كيف كانت؟ فجعل أبو خيثمة يخبره كيف صنع خالد، وكيف صفَّ أصحابه، ومن استشهد من الصَّحابة، وقال أبو خيثمة: يا خليفة رسول الله! أُتينا من قبل الأعراب انهمزوا بنا، وعودونا ما لم نكن نُحْسِن^(٤).

ولما علم الصَّدِيق بزواج خالد؛ كتب إليه: يا بن أمَّ خالد إِنَّكَ لفارغٌ تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألفٍ ومئتي رجل من المسلمين لم يجفَّ بعدُ، ثمَّ خدعك مُجَاعَة عن رأيك، فصالحك عن قومه، وقد أمكن الله منهم^(٥)، وإزاء هذا التَّعنيف الذي وصل إلى خالد من الخليفة بسبب مصالحته لمُجَاعَة، وزواجه بابنته؛ بعث خالد إليه كتاباً جوابياً مع أبي برزة الأسلمي يدافع فيه عن موقفه دفاعاً يتَّسم بوضوح الحجَّة، وقوَّة المنطق^(٦)، يقول فيه:

(١) الصَّدِيق أول الخلفاء، ص ١١٠.

(٢) أي: بلغ الحلم.

(٣) الكامل (٣٨/٢).

(٤) حروب الردَّة، شوقي أبو خليل، ص ٩٧.

(٥) حروب الردَّة، ص ٩٧ نقلاً عن الاكتفاء (١٤/٢).

(٦) حركة الردَّة للعتوم، ص ٢٣٣.

أما بعد: فلعمري ما تزوّجت النساء حتّى تمّ لي الشُّرور، وقرّت بي الدّار، وما تزوّجت إلا إلى المرأى، لو عملت إليه من المدينة خاطباً لم أبل، دع أني استشرت خطبتي إليه من تحت قدمي، فإن كنت قد كرهت لي ذلك لدين، أو لدنيا؛ أعتبتك، وأما حسن عزائي عن قتلي المسلمين فوالله لو كان الحزن يبغي حيّاً، أو يردُّ ميتاً؛ لأبقى حزني الحيّ، وردّ الميت، ولقد اقتحمت حتّى أيست من الحياة، وأيقنت بالموت، وأما خدعة مُجاعةٍ إياي عن رأيي فإنّي لم أخطأ رأيي يومي، ولم يكن لي علمٌ بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيراً: أورثهم الأرض، والعاقبة للمتقين^(١).

فلَمَّا قدم الكتاب على أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رَقَّ بعض الرّقّة، وقام رهطٌ من قريش فيهم أبو برزة الأسلمي، فعذروا خالداً، وقال أبو برزة: يا خليفة رسول الله! ما يوصف خالد بجبنٍ، ولا خيانةٍ، ولقد أقحم في طلب الشّهادة حتّى أُعذر، وصبر حتّى ظفر، وما صالح القوم إلا على رضاه، وما أخطأ رأيهُ بصلح القوم؛ إذ هو لا يرى النساء في الحصون إلا رجلاً. فقال أبو بكر: صدقت! لكلامك هذا أولى بعذر خالدٍ من كتابه إليّ^(٢).

ونلاحظ في رسالة خالدٍ إلى أبي بكر بعض النُّقاط الّتي دافع بها عن نفسه، والتي تمثّلت بما يلي:

- ١- إنه لم يتزوج إلا بعد أن كسب النّصر، واطمأنّ به المقام.
- ٢- إنّه أصهر إلى رجلٍ من زعماء قومه، وأشرافهم.
- ٣- إنّه لم يتكلّف أدنى مشقّة في هذا الإصهار.
- ٤- إنّ هذا الزّواج ليس فيه مخالفة دينيّة، أو دنيويّة.
- ٥- إنّ الامتناع بسبب الحزن على قتلى المسلمين تصرّف غير مجدٍ؛ لأنّ الحزن لا يُبقي حيّاً ولا يردُّ ميتاً.

(١) حروب الردّة، شوقي أبو خليل، ص ٩٨ نقلاً عن الاكتفاء (٢/ ١٥).

(٢) حروب الردّة، ص ٩٨.

٦- إنه لم يكن يقدم على الجهاد أي أمر آخر، ولقد أبلى فيه بلاء لم يعد - بسببه - بينه وبين الموت أي حاجز.

٧- إنه في مصالحته لمجاعة لم يال جهداً في تحقيق الخير للمسلمين، وإذا كان مُجاعة لم ينقل له الصورة عن قومه على حقيقتها، فعذره أنه إنسان لا يدري من أمر الغيب شيئاً، وعلى كل فالعاقبة كانت في صالح المسلمين؛ إذ استولوا على أرض بني حنيفة ومن ثم فاءت بقيتهم إلى الإسلام دون قتال، وعلى هذا فإن الزواج بنت مُجاعة كان أمراً طبيعياً، لا على خالد فيه بأس، وليس صحيحاً أنه كان ناشئاً عن إعجابه بمُجاعة لغيرته على قومه، ولذا: أحب أن يصهر إليه ويوثق الصلة بينه وبينه، وطاب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب^(١)، كما يقول العقاد ذلك؛ لأنَّ خالدًا لم يكن ليقدم على رابطة الدين، أو يجمع إليها في التعامل مع الناس رابطة أخرى^(٢).

وأما أسلوب الدكتور محمد حسين هيكل في الاعتذار لخالد؛ فإنه مرفوض؛ لأنه يتنافى مع أحكام الإسلام، فقد قال هيكل: ومن تكون بنت مُجاعة في أعياد النصر التي يجب أن تقام لخالد؟! إنها لن تزيد على قربانٍ يطرح على قدمي هذا العبقرى الفاتح؛ الذي روى أرض اليمامة بالدماء لعلها تطهر من رجسها^(٣).

فهذه الكلمات تصوّر خالدًا - الصحابيَّ الكريم - وكأنه أخيل، أو هكتو، أو أغا ممنون من قادة حرب طروادة الوثنيين، الذين لا يحارب الواحد منهم إلا إذا أشير إليه بالبنان أو أمطر بالقبلات، والتوسّلات؛ لأنه لا يحارب إلا للزعامة، والوجاهة، أو كأنه أحد أصنام العرب الذين تسفح على جنباتهم دماء القرايين تقرباً، وتذللاً، أو كأنه إله النيل الذي كان يعتقد المصريون: أنه لن يفيض عليهم بالخير إلا إذا قذفوا في بحره أجمل بنات مصر، فحاشا أبا سليمان، ثم حاشاه من قبل ومن بعد من مثل هذه الروح، وتلك النفسية! فخالد مؤمن

(١) عبقرية خالد (العبقرية الإسلامية) ص ٩٢٢.

(٢) حركة الردة للعتوم، ص ٢٣٥.

(٣) الصديق أبو بكر، ص ١٥٧.

موحّداً لا يحارب إلا لإعلاء كلمة الله، لا ينبغي عليها جزاء، ولا شكوراً من أحدٍ من خلق الله. ومرفوضاً أيضاً ما ذهب إليه الجنرال أكرم في تعليقه لما وقع فيه خالد من ملامات من جرّاء قصص زواجه في حروب الردّة؛ إذ يعيدها إلى لياقته البدنيّة: التي سبّبت له كثيراً من المشاكل بين حسناوات شبه الجزيرة العربيّة^(١)، على حدّ زعمه، وكأنّ خالداً تحوّل إلى زير نساء، أو دون جوان غوان، وهو الذي لم يكن يهوى شيئاً هواه الجهاد في سبيل الله، ولكنّها التّوجيهات الباطلة التي تفسر الأمور بعيداً عن طبيعة الطُّروف، ومعطيات المبادئ، وشواهد الأخبار^(٢).

إنّ خالداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان يقاتل عن دين، ويحتسب الأجر عند الله تعالى، وكان يقتحم المعامع بنفسه، وقد وصف بأنّه له أناة القطّة، ووثوب الأسد^(٣)، وما كان يوماً بالذي يؤثر نفسه عن جنده، بل كانوا يجدونه أمامهم في كلّ معترك، ففي معركة بُراخة: ضرس في القتال، فجعل يقحم فرسه، ويقولون له: الله الله! فإنّك أمير القوم، ولا ينبغي لك أن تقدم، فيقول: والله إنّي لأعرف ما تقولون، ولكن ما رأيّني أصبر، وأخاف هزيمة المسلمين^(٤)!

وفي معركة اليمامة لمّا اشتدّ القتال، ولم يزد بني حنيفة ما قتل منهم إلا عنفاً، وضراوة، برز حتّى إذا كان أمام الصّف دعا إلى المبارزة، ونادى النّاس بشعارهم يومئذ، وكان: يا محمّده! فجعل لا يبرز له أحدٌ إلا قتله، ولا شيء إلا أكله^(٥)، فقد كان يرغب في النّصر ويتحرّى الشّهادة.

ولنترك لخالد يصف لنا جولة من المصارعة بينه وبين أحد جنود مسيلمة داخل حديقة الموت، قال: ولقد رأيّني في الحديقة، وعانقني رجلٌ منهم وأنا فارسٌ وهو فارسٌ فوقعنا عن

(١) سيف الله خالد بن الوليد، ترجمة العميد الرّكن صبحي الجابي، ص ٢٠.

(٢) حركة الردّة للعتوم، ص ٢٣٦.

(٣) تاريخ اليعقوبي (١٠٨/٢).

(٤) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص ١٤٤.

(٥) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٢٩.

فرسينا ثم تعانقنا بالأرض، فأجبه بخنجرٍ في سيفي وجعل ينجني بمعولٍ في سيفه فجرحني سبع جراحاتٍ، وقد جرحته جرحاً أثبتُّ به فاسترخى في يدي، وما بي حركة من الجراح، وقد نزت من الدَّم إلاَّ أنَّه سبقني بالأجل، فالحمد لله على ذلك^(١)!

وقد شهد خالدُ لبني حنيفة على قوتهم، وشدة بأسهم فقال: شهدت عشرين زحفاً، فلم أر قوماً أصبر لوقع السُّيوف، ولا أضرب بها، ولا أثبت أقداماً من بني حنيفة يوم اليمامة.. وما بي حركة من الجراح، ولقد أقحمت حتَّى أيست من الحياة، وتيقنت الموت^(٢).

تاسعاً: محاولة قتل خالد بن الوليد، وقدم وفد بني حنيفة للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

١ - محاولة قتل خالد بن الوليد:

على الرغم من وضوح باطل الجاهليَّة وزيفه، فإنَّها لا تتخلَّى عنه بسهولة؛ لأنَّ به ديمومة حياتها، ولذا ما إنَّ توجَّه بالحقيقة حتَّى تأخذ في الدفاع عن نفسها بشراسةٍ، ولا تلقي سيف القتال من يدها إلاَّ بعد أن يسقط بالقوَّة^(٣)، وبعد ذلك تحاول الغدر ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فهذا سلمة بن عمير الحنفي يدلُّ بفعله على صحَّة ما ذهبت إليه، فقد حاول اغتيال خالد بن الوليد بعد الصُّلح الذي أجراه خالد مع بني حنيفة بشكل عامٍّ، إلاَّ أنَّه من حقه النَّافع للمسلمين فقد دبَّر خطة اغتيال خالد بن الوليد كجزء من سياسته في رفض التَّصالح معهم، ولمَّا قبض عليه أوَّل مرَّةٍ، وعاهد بني حنيفة ألاَّ يعود لمثلها؛ نكث بعهده؛ إذ أفلت ليلاً من وثاقه الذي أوثقوه به مخافة غدره، فعمد إلى عسكر خالد فصاح به الحرس، وفزعت بنو حنيفة، فأتبعوه، فأدركوه في بعض الحائط (الحدائق)، فشدَّ عليهم بالسَّيف، فاكتنفوه بالحجارة، وأجال السَّيف على حلقه ففقطع أوداجه (عروق رقبتة)، فسقط في بئرٍ فمات^(٤)،

(١) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص ١٨٠.

(٢) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص ١٨٠.

(٣) حركة الردَّة للعتوم، ص ٢٩٢.

(٤) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١١٧-١١٨.

فهذا مثالٌ على عناد الجاهليّة في الدّفاع عن باطلها^(١).

٢- قدوم وفد بني حنيفة على الصّدّيق:

ولمّا قدمت وفود بني حنيفة على الصّدّيق؛ قال لهم: أسمعونا شيئاً من قران مسيلمة! فقالوا: أو تعفينا يا خليفة رسول الله؟! فقال: لا بدّ من ذلك. فقالوا: كان يقول: يا ضفدع بنت الضّفدعين نقيّ لكم تنقيّين، لا الماء تكدرين ولا الشّارب تمنعين، رأسك في الماء وذنبك في الطّين. وكان يقول: والمبذرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذّاريات قمحاً، والطّاحنات طحناً، والخبازات خبزاً، والثّارات ثرداً، واللاقطات لقماً إهالةً وسمناً. يقول: لقد فضّلتكم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعتّر فأووه، والناعي فواسوه^(٢). وذكروا أشياء من هذه الخرافات التي يأنف من قولها الصّبيان، وهم يلعبون، فيقال: إنّ الصّدّيق قال لهم: ويحكم أين كان يذهب بعقولكم؟! إنّ هذا الكلام لم يخرج من إلّ^(٣) ولا برّ.

وذكر علماء التّاريخ: أنّه كان يتشبه بالنّبّي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه: أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصق في بئر فغزر ماؤه، فبصق في بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفي أخرى فصار ماؤه أجاجاً، وتوضّأ، فسقى بوضوئه نخلاً فبيست، وهلك، وأتى بولدان يبرّك عليهم، فجعل يمسح رؤوسهم فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه، ويقال: إنّ دعا لرجلٍ أصابه وجع في عينيه فمسحهما، فعمي^(٤).

عاشراً: جمع القرآن الكريم:

كان من ضمن شهداء المسلمين في حرب اليمامة كثيرٌ من حفظة القرآن، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بمشورة عمر بن الخطّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بجمع القرآن حيث جمع

(١) حركة الرّدة للعنوم، ص (٢٩٢-٢٩٥).

(٢) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٠٢-١٠٤.

(٣) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣١.

(٤) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣١.

من الرِّقَاع، والعظام، والسَّعَف، ومن صدور الرِّجَال^(١)، وأَسَدُ الصَّدِيقِ هذا العمل العظيم إلى الصَّحَابِيِّ الجليل زيد بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يروي زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: بعث إليَّ أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمقتل أهل اليمامة^(٢)، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ عمر أتاني فقال: إِنَّ القتل قد استحرَّ^(٣) يوم اليمامة بقرء القرآن، وإِنِّي أخشى أن يستحرَّ القتل بالقرءاء في المواطن^(٤) كُلُّهَا فيذهب كثيرٌ من القرآن، وإِنِّي أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٥)؟! فقال عمر: هذا والله خير! فلم يزل عمر يراجعني حتَّى شرح الله صدري لِلَّذِي شرح له صدر عمر، ورأيتُ في ذلك الَّذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: وَإِنَّكَ رجلٌ شابٌّ عاقلٌ لا نَتَّهَمُكَ^(٦)، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتتبع القرآن، فاجمعه^(٧). قال زيد: فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليَّ ممَّا كلفني به من جمع القرآن! فتتبع القرآن من العَسَبِ^(٨)، واللِّخاف^(٩)، وصدور الرِّجَال، والرِّقَاع^(١٠)، والأكتاف^(١١) قال: حتَّى وجدت آخر سورة التَّوْبَةِ مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحدٍ غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

(١) حروب الرِّدَّة وبناء الدَّولة الإسلاميَّة، أحمد سعيد، ص ١٤٥.

(٢) يعني: واقعة يوم اليمامة ضدَّ مسيلمة الكذاب، وأعوانه.

(٣) استحرَّ: كثر، واشتدَّ.

(٤) أي: في الأماكن التي يقع فيها القتال مع الكفَّار.

(٥) يحتمل أن يكون (ص) إِنَّمَا لم يجمع القرآن في المصحف، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه، أو تلاوته، فلمَّا انقضى نزوله بوفاة (ص) ألهم الله الخلفاء الرَّاشِدِينَ بذلك. (سيرة وحيَّة الصَّدِيق، ص ١٢٠).

(٦) هذه الصِّفَات جعلت زيدا يتقدَّم على غيره في هذا العمل.

(٧) أي: من الأشياء التي عندي وعند غيرك.

(٨) العسب: هو جريد النَّخْلِ.

(٩) اللِّخاف: جمع لخفة: وهي صفائح الحجارة.

(١٠) الرِّقَاع: جمع رقعة، وهي قطع الجلود.

(١١) الأكتاف: جمع كتف، وهو العظم الذي للبعير، أو الشاة.

أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿التوبة: ١٢٨﴾ حَتَّى خَاتَمَةَ بَرَاءةٍ.

وكانت الصُّحف عند أبي بكرٍ حياته؛ حَتَّى توفاه الله، ثمَّ عند عمر حياته؛ حَتَّى توفاه الله، ثمَّ عند حفصة بنت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(١).

وعلَّق البغي على هذا الحديث، فقال: فيه البيان الواضح، فالصَّحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - جمعوا بين الدِّفتين القرآن الَّذي أنزله الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير أن يزدوا فيه، أو ينقصوا منه شيئاً، والذي حملهم على جمعه ما جاء في الحديث، وهو أنَّه كان مفرقاً في العصب، واللَّخاف، وصدور الرِّجال؛ فخافوا ذهاب بعضه بذهاب حَفَظته، ففزعوا فيه إلى خليفة رسول الله، ودعوه إلى جمعه، فرأى في ذلك رأيهم، فأمر بجمعه في موضع واحد باتِّفاقٍ من جميعهم، فكتبوه كما سمعوه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير أن يكونوا قدموا شيئاً أو أخروا، أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلقي أصحابه، ويعلمهم ما ينزل عليه من القرآن على التَّرتيب الَّذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل - صلوات الله عليه - إيَّاه على ذلك، وإعلامه عند نزول كلِّ آية أنَّ هذه الآية تكتب عقيب آية كذا في السُّورة التي يذكر فيها كذا^(٢)، وهكذا يتَّضح للقارئ الكريم: أنَّ من أوليات أبي بكرٍ الصِّديق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّه أوَّل من جمع القرآن الكريم، يقول صعصعة بن صوحان - رَحِمَهُ اللَّهُ: أوَّل من جمع بين اللُّوحين، وورث الكلاله^(٣)، أبو بكرٍ^(٤).

(١) البخاري، رقم (٤٩٨٦).

(٢) شرح السنة، البغوي، مرجع سابق، ج ٤، ص ٥٢٢.

(٣) الكلاله في رأي أبي بكر الصِّديق: من لا ولد له ولا والد، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رأيت في الكلاله رأياً فإن يك صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمن قبلي والشيطان، الكلاله ما عدا الولد والوالد، أي: هم الإخوة. انظر: موسوعة فقه أبي بكر الصديق، ص ٣٦.

(٤) إسناده صحيح: أخرجه ابن أبي شيبه (١٩٦/٧).



وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يرحم الله أبا بكر! هو أوّل من جمع بين اللّوحيين^(١).
وقد اختار أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زيد بن ثابت لهذه المهمّة العظيمة، وذلك لأنّه رأى فيه المقوّمات الأساسيّة للقيام بها، وهي:

- ١- كونه شاباً حيث كان عمره (٢١) سنة فيكون أنشط لما يطلب منه.
 - ٢- كونه أكثر تأهيلاً، فيكون أوعى له؛ إذ منّ وهبه الله عقلاً راجحاً؛ فقد يسّر له سبيل الخير.
 - ٣- كونه ثقةً، فليس هو موضعاً للتهمة، فيكون عمله مقبولاً، وتركن إليه النفس، ويطمئنّ إليه القلب.
 - ٤- كونه كاتباً للوحي، فهو بذلك ذو خبرة سابقة في هذا الأمر، وممارسة عمليّة له، فليس غريباً عن هذا العمل، ولا دخيلاً عليه^(٢).
- هذه الصّفات الجليلة جعلت الصّدّيق يُرّشح زيداً لجمع القرآن، فكان به جديراً، وبالقيام به خبيراً.

٥- ويضاف لذلك أنّه أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النّبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فعن قتادة، قال: سألت أنس بن مالك - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من جمع القرآن على عهد النّبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: أربعة كلّهم من الأنصار: أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد^(٣).

وأما الطريقة التي اتبعها زيد في جمع القرآن فكان لا يثبت شيئاً من القرآن إلا إذا كان مكتوباً بين يدي النّبّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحفوظاً من الصّحابة، فكان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة خشية أن يكون في الحفظ خطأ، أو وهم، وأيضاً لم يقبل من أحد شيئاً جاء به إلا إذا أتى معه شاهدان يشهدان: أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنّه

(١) المصدر السّابق نفسه.

(٢) التفوّق والنّجاة على نهج الصّحابة، حمد العجمي، ص ٧٣.

(٣) سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٣١).



من الوجوه التي نزل بها القرآن^(١)، وعلى هذا المنهج استمرّ زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جمع القرآن حذراً، متبّثاً، مبالغاً في الدقّة والتحرّي.

كما كان زيد في طليعة من وَحَدَ المصاحف في زمن عثمان بن عفّان - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢) - وسيأتي تفصيل ذلك - بإذن الله - في موضعه.

المبحث الرابع: أهمُّ الدُّروس، والعبر، والفوائد من حروب الردّة

أولاً: تحقيق شروط التّمكين، وأسبابه، واثار شرع الله، وصفات المجاهدين:

١ - تحقيق شروط التّمكين:

إنَّ الاستخلاف في الأرض، والتّمكين لدين الله وإبدال الخوف أمناً وعدّ من الله تعالى متى حقّق المسلمون شروطه، ولقد أشار القرآن الكريم بكلّ وضوح إلى شروط التّمكين، ولوازم الاستمرار فيه، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٥٥﴾ [النور: ٥٥ - ٥٦].

ولقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التّمكين، وهي: الإيمان بكلّ معانيه، وبجميع أركانه، وممارسة العمل الصّالح بكلّ أنواعه، والحرص على كلّ أنواع الخير، وصنوف البرّ، وتحقيق العبودية الشّاملة، ومحاربة الشّرك بكلّ أشكاله، وأنواعه، وخفياه.

(١) التفوُّق والنّجاة على نهج الصّحابة، ص ٧٤.

(٢) المصدر السّابق نفسه.

وأما لوازم التمكين؛ فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ^(١)، وقد تحققت هذه الشروط واللوازم كلها في عهد الصديق والخلفاء الراشدين من بعده، وكان للصديق الفضل بعد الله في تذكير الأمة بهذه الشروط، ولذلك رفض طلب الأعراب في وضع الزكاة عنهم، وأصرَّ على بعث جيش أسامة، والتزم بالشرع كاملاً، لم يتنازل عن صغيرة، ولا كبيرة. قال عبد الله بن مسعود: لقد قمنا بعد رسول الله ﷺ مقاماً كدنا نهلك فيه؛ لولا أن منَّ علينا بأبي بكر، أجمعنا على ألا نقاتل على ابنة مخاض، وابنة لبون، وأن نأكل قرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين، فعزم الله لأبي بكرٍ على قتالهم، فوالله ما رضي منهم إلا بالخطئة المخزية، أو الحرب المجلية^(٢).

٢- الأخذ بأسباب التمكين:

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقد لاحظت: أن الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إعداداً شاملاً معنوياً ومادياً، فجيش الجيوش، وعقد الأولوية، واختار القادة لحروب الردة، وراسل المرتدّين، وحرّض الصحابة على قتالهم، وجمع السلاح، والخيّل، والإبل، وجَهَّز الغزاة، وحارب البدع، والجهل، والهوى، وحكّم الشريعة، وأخذ بأصول الوحدة، والاتّحاد، والاجتماع، وأخذ بمبدأ التفريغ، وساهم في إحياء مبدأ التخصّص، فخالد لقيادة الجيوش، وزيد بن ثابت لجمع القرآن، وأبو برزة الأسلمي للمراسلات الحربية، وهكذا، واهتمَّ بالجانب الأُمّني، والإعلام، وغير ذلك من الأسباب.

٣- آثار تحكيم الشرع:

(١) فقه التمكين في القرآن الكريم للصّلاّبي، ص ١٥٧.

(٢) الكامل في التاريخ (٢/ ٢١).

تظهر اثار تحكيم شرع الله في عصر الصديق في تمكين الله للصحابه، فقد حرصوا على إقامة شعائر الله على أنفسهم، وأهلهم، وأخلصوا في تحاكمهم إلى شرعه، فالله سبحانه وتعالى قوّاهم، وشدّ أزرهم، ونصرهم على المرتدين، ورزقهم الأمن، والاستقرار، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وتحققت فيهم سنة الله في نصرته لمن ينصره؛ لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزت، وقوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٤٠] الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿[الحج: ٤٠ - ٤١].

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت مجموعة على هدي الله إلا منحها القوة، والمنعة، والسيادة في نهاية المطاف....^(١)

وقد انتشرت الفضائل، وانحسرت الرذائل في عهد الصديق رضي الله عنه.

٤- صفات جيل التمكين:

قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن رَّتَدٍ مِّنْكُمْ عَن دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

هذه الصفات المذكورة في هذه الآية الكريمة أول من تنطبق عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجيوشه من الصحابة الذين قاتلوا المرتدين، فقد مدحهم الله بأكمل الصفات، وأعلى المبررات^(٢)، فهذه الصفات:

أ- ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾:

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٧٠).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام (٢/ ٥٣٤).

مذهب السلف في المحبة المسندة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنَّهَا ثَابِتَةٌ لَهُ تَعَالَى بِلاَ كَيْفٍ، وَلَا تَأْوِيلَ، وَلَا مِشَارَكَةَ لِلْمَخْلُوقِ فِي شَيْءٍ مِنْ خِصَائِصِهَا^(١). لَقَدْ أَحَبَّ الْمَوْلَى - عَزَّجَلَّ - ذَلِكَ الْجِيلَ لِمَا بَذَلُوهُ مِنْ أَجْلِ دِينِهِمْ، وَبِمَا تَطَوَّعُوا بِهِ بِمَا لَمْ يَفْرَضْ عَلَيْهِمْ فَرَضًا تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ، وَحُبًّا لِرَسُولِهِ، وَاتِّخَاذَهُمُ الْمُنْدُوبَاتِ، وَالْمُسْتَحْبَاتِ كَأَنَّهَا فَرُوضٌ وَاجِبَةُ التَّنْفِيزِ^(٢).

وَلَقَدْ انْتَصَفَ هَذَا الْجِيلَ بِصِفَاتِ الْإِحْسَانِ، وَالتَّقْوَى وَالصَّبْرِ، الَّتِي ذَكَرَ الْمَوْلَى - عَزَّجَلَّ - بِأَنَّهُ يُحِبُّهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

وَلَقَدْ أَحَبَّ الصَّحَابَةُ الْمَوْلَى عَزَّجَلَّ حُبًّا عَظِيمًا فَقَدَّمُوا مُحَابَةَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَبَغَضُوا مَا أَبْغَضَهُ، وَوَالُوا مَا وَالَاهُ، وَعَادُوا مَنْ عَادَاهُ، وَاتَّبَعُوا رَسُولَهُ، وَاقْتَفَوْا أَثَرَهُ، لَقَدْ أَحَبَّ الصَّحَابَةُ رَبَّهُمْ، وَخَالَقَهُمْ، وَرَازَقَهُمْ؛ لِأَنَّ النُّفُوسَ مَجْبُولَةٌ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا، وَأَيُّ إِحْسَانٍ كِإِحْسَانٍ مِنْ خَلْقٍ فَقَدَّرَ، وَشَرَعَ فَيَسِّرَ، وَجَعَلَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَوَعَدَ مِنْ أَطَاعِهِ بِجَنَّةِ الْخُلْدِ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، لِهَذَا كُلِّهِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَبَّ ذَلِكَ الْجِيلَ رَبَّهُمْ حُبًّا لَا مِثِيلَ لَهُ، فَقَدَّمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَهْلِيَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِلاَ تَرَدُّدٍ، أَوْ مَنَّةٍ، بَلْ اعْتَبَرُوا ذَلِكَ تَفَضُّلاً مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ بَابَ الْجِهَادِ، وَالِاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَيَسِّرَ لَهُمْ أَسْبَابَهُ، فَقَامُوا بِذَلِكَ الْوَاجِبِ خَيْرَ قِيَامٍ^(٣).

ب - ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]:

فَهَذِهِ صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْقَمَلِ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ مُتَوَاضِعًا لِأَخِيهِ، وَوَلِيِّهِ، مُتَعَزِّزًا عَلَى خَصْمِهِ، وَعَدُوِّهِ^(٤)؛ وَلِذَلِكَ قَامَ الصَّدِيقُ وَجُنُودُهُ الْكَرَامُ بِمُناصَرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَخَرَجَ بِنَفْسِهِ

(١) تفسير القاسمي (٦/٢٥٣).

(٢) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، لمحمد قطب، ص ٩٠.

(٣) الإيمان وأثره في الحياة، للقرضاوي، ص (٥ - ١٢).

(٤) تفسير القاسمي (٦/٢٥٥).

يقاتل المرتدّين، وسيّر أحد عشر لواء لرفع الظلم عن المؤمنين، وكسر شوكة المرتدّين، ولم يقبل من المرتدّين الذين عذبوا المستضعفين من مواطنيهم المسلمين إلا أن يأخذ بحقّهم منهم، فيفعل بهم كما فعلوا بهم، وكذلك فعل قادة جيوشه، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حريصاً على مراعاة أحوال الرعيّة في المجتمع، فقد مرّ بنا كيف كان يعامل الجوّاري، والعجائز، وكبار السنّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لقد سادت هذه الصّفات في عصر الصّدّيق، وتجسّدت في حياة الناس.

ج - ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]:

وقد ظهرت صفة المجاهدة لأعداء الله في عصر الصّدّيق في حربهم للمرتدّين، وكسرهم لشوكتهم، ومن بعد في الفتوحات الإسلامية التي سيأتي تفصيلها بإذن الله تعالى، لقد جاهد الصّحابة أعداءهم من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا، وتحقيق عبادة الله وحده، وإقامة حكم الله، ونظام الإسلام في الأرض، ودفع عدوان المرتدّين، ومنع الظلم بين النّاس، وبالجهد في سبيل الله تحقّق إعزاز المسلمين، وإذلال المرتدّين، ورجع النّاس إلى دين الله، واستطاعت القيادة الإسلاميّة بزعامة الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن تجعل من الجزيرة العربية قاعدةً للانطلاق لفتح العالم أجمع، وأصبحت الجزيرة هي النّبع الصّافي؛ الذي يتدفّق منه الإسلام، ليصل إلى أصقاع الأرض، بواسطة رجالٍ عرّكتهم الحياة، وأصبحوا من أهل الخبرات المتعدّدة في مجالات التّربية، والتّعليم، والجهد، وإقامة شرع الله الشّامل لإسعاد بني الإنسان حيثما كان^(١).

لقد كان الجهاد الذي خاضه الصّحابة في حروب الردّة إعداداً ربّانياً للفتوحات الإسلاميّة، حيث تميّزت الرّايات، وظهرت القدرات، وتفجّرت الطّاقات، واكتشفت قياداتٌ ميدانيّة، وتفنّن القادة في الأساليب، والخطط الحربيّة، وبرزت مؤهلات الجنديّة الصّادقة، المطيعة، المنضبطة، الواعية؛ التي تقاتل؛ وهي تعلم على ماذا تقاتل، وتقدّم كلّ شيءٍ وهي

(١) فقه التّمكين في القرآن الكريم، ص ٤٩١.

تعلم من أجل ماذا تضحي وتبذل، ولذا كان الأداء فائقاً، والتفاني عظيمًا^(١).

لقد توحدت شبه الجزيرة العربية بفضل الله، ثمَّ جهاد الصحابة مع الصديق تحت راية الإسلام لأول مرة في تاريخها بزوال الرؤوس، أو انتظامها ضمن المد الإسلامي، وبسطة عاصمة الإسلام - المدينة - هيمنتها على ربوع الجزيرة، وأصبحت الأمة تسير بمبدأ واحد، بفكرة واحدة، فكان الانتصار انتصاراً للدعوة الإسلامية، ولو حدة الأمة بتضامنها، وتغلبها على عوامل التفكك، والعصبية، كما كانت برهاناً على: أنَّ الدولة الإسلامية بقيادة الصديق قادرة على التغلب على أعنف الأزمات^(٢).

وهكذا كان الصحابة يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لوم أحد، واعتراضه، ونقده، لصلابتهم في دينهم، ولأنهم يعملون لإحقاق الحق، وإبطال الباطل^(٣).

د - ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤]:

الإشارة إلى ما ذكر من حبِّ الله إياهم، وحبِّهم لله، وذلتهم للمؤمنين، وعزَّتهم على الكافرين، وجهادهم في سبيل الله، وعدم مبالاتهم للوم اللوام، فالمذكور كله فضل الله الذي فضل به أوليائه، يؤتيه من يشاء؛ أي: ممَّن يريد به مزيد إكرام من سعة جوده، والله واسع، كثير الفواضل جلَّ جلاله^(٤)، عليمٌ بمن هو أهلها، فهو تعالى واسع الفضل، عليمٌ بمن يستحقُّ ذلك ممَّن يُحرِّم منه^(٥).

ثانياً: وصف المجتمع في عصر الصديق:

حين ندرس المجتمع المسلم في صدر الخلافة الراشدة تتضح لنا مجموعة من السمات،

(١) تاريخ صدر الإسلام للشجاع، ص (١٤٢، ١٤٣).

(٢) تاريخ الدعوة الإسلامية، د. جميل المصري، ص ٢٥٦.

(٣) تفسير المنير (٦/ ٢٣٣).

(٤) تفسير القاسمي (٦/ ٢٥٨).

(٥) تفسير المنير (٦/ ٢٣٣).

منها:

١- أنه - في عمومهِ - مجتمعٌ مسلمٌ بكامل معنى الإسلام، عميقُ الإيمان بالله، واليوم الآخر، مطبَّقٌ لتعاليم الإسلام بجديَّةٍ واضحةٍ، والتزامٍ ظاهرٍ، وبأقلِّ قدرٍ من المعاصي وقع في أيِّ مجتمع في التاريخ، فالدين بالنسبة له هو الحياة، وليس شيئاً هامشياً يفيء إليه بين الحين والحين، إنما هو حياة النَّاس، وروحهم، ليس فقط فيما يؤدُّونه من شعائر تعبدية، يحرصون على أدائها على وجهها الصحيح، وإنما من أخلاقيَّاتهم، وتصوُّراتهم، واهتماماتهم، وقيمهم، وروابطهم الاجتماعية، وعلاقات الأسرة، وعلاقات الجوار، والبيع، والشراء والضرب في مناكب الأرض، والسعي وراء الأرزاق، وأمانة التعامل، وكفالة القادرين لغير القادرين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والرقابة على أعمال الحكَّام، والولاء، ولا يعني هذا بطبيعة الحال أنَّ كلَّ أفراد المجتمع هم على هذا الوصف، فهذا لا يتحقَّق في الحياة

الدُّنيا، ولا في أيِّ مجتمعٍ من البشر. وقد كان في مجتمع الرسول ﷺ - كما ورد في كتاب الله - منافقون، يتظاهرون بالإسلام، وهم في دخيلة أنفسهم من الأعداء، وكان فيه ضعافُ الإيمان، والمعوَّقون، والمتثاقلون والمبطون، والخائنون، ولكن هؤلاء جميعاً لم يكن لهم وزنٌ في ذلك المجتمع، ولا قدرةٌ على تحويل مجراه؛ لأنَّ التيار الدافق هو تيار أولئك المؤمنين الصادقي الإيمان، المجاهدين في سبيل الله بأموالهم، وأنفسهم، الملتزمين بتعاليم هذا الدين^(١).

٢- أنه المجتمع الَّذي تحقَّق فيه أعلى مستويات المعنى الحقيقي (للأمة)، فليست الأمة مجرد مجموعةٍ من البشر جمعتهم وحدة اللغة، ووحدة الأرض، ووحدة المصالح، فتلک هي الروابط التي تربط البشر في الجاهليَّة، فإن تكونت منهم أمةٌ فهي أمةٌ جاهليَّة، أمَّا الأمة بمعناها الرِّباني - فهي الأمة الَّتِي تربط بينها رابطة العقيدة بصرف النَّظر عن اللغة، والجنس، واللون، ومصالح الأرض القريبة، وهذه لم تتحقَّق في التاريخ وحده كما تحقَّقت في الأمة

(١) كيف نكتب التَّاريخ الإسلامي، ص ١٠٠.

الإسلامية، فالأمة الإسلامية هي التي حققت معنى الأمة أطول فترة من الزمن عرفتها الأرض، أمة لا تقوم على عصبية الأرض، ولا الجنس، ولا اللون، ولا المصالح الأرضية، إنما هو رباط العقيدة يربط بين العربي، والحشبي، والرؤمي، والفارسي، يربط بين البلاد المفتوحة والأمة الفاتحة على أساس الأخوة الكاملة في الدين، ولئن كان معنى الأمة قد حققته هذه الأمة أطول فترة عرفتها الأرض؛ فقد كانت فترة صدر الإسلام أزهى فترة تحققت فيها معاني الإسلام كلها بما فيها معنى الأمة على نحو غير مسبوق^(١).

٣- أنه مجتمع أخلاقي يقوم على قاعدة أخلاقية واضحة مستمدة من أوامر الدين وتوجيهاته، وهي قاعدة لا تشمل علاقات الجنسين وحدها، وإن كانت هذه من أبرز سمات هذا المجتمع، فهو خالٍ من التبرُّج، ومن فوضى الاختلاط، وخالٍ من كل ما يخدش الحياء من فعل، أو قول، أو إشارة، وخالٍ من الفاحشة إلا القليل الذي لا يخلو منه مجتمع على الإطلاق، ولكن القاعدة الأخلاقية أوسع بكثير من علاقات الجنسين، فهي تشمل السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والفكر، والتعبير، فالحكم قائم على أخلاقيات الإسلام، والعلاقات الاقتصادية من بيع، وشراء، وتبادل، واستغلال للمال قائمة على أخلاقيات الإسلام، وعلاقات الناس في المجتمع قائمة على الصدق، والأمانة، والإخلاص، والتعاون، والحب، لا غمز، ولا لمز، ولا نيمية، ولا قذف للأعراض^(٢).

٤- أنه مجتمع جاد مشغول بمعالي الأمور، لا بسفسافها، وليس الجد بالضرورة عبوساً وصرامة، ولكنه روح تبعث الهمة في الناس، وتحث على النشاط، والعمل، والحركة، كما أن اهتمامات الناس هي اهتمامات أعلى، وأبعد من واقع الحس القريب، وليست فيه سمات المجتمع الفارغة المترهلة، التي تسكع في البيوت، وفي الطرقات تبحث عن وسيلة لقتل الوقت من شدة الفراغ^(٣).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٠١.

(٢) كيف نكتب التاريخ الإسلامي، ص ١٠٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

٥- أنّه مجتمعٌ مجنّد للعمل في كلّ اتجاهٍ، تلمس فيه روح الجنديّة واضحةً، لا في القتال في سبيل الله فحسب، وإن كان القتال في سبيل الله قد شغل حيّزاً كبيراً من حياة هذا المجتمع، ولكن في جميع الاتجاهات، فالكلُّ متأهّبٌ للعمل في اللحظة التي يطلب منه فيها العمل، ومن ثمّ لم يكن في حاجةٍ إلى تعبئةٍ عسكريّةٍ، ولا مدنيّةٍ، فهو معبأٌ من تلقاء نفسه بدافع العقيدة، وبتأثير شحنتها الدافعة لبذل النشاط في كلّ اتجاه^(١).

٦- أنّه مجتمعٌ متعبّدٌ، تلمس روح العبادة واضحةً في تصرّفاته، ليس فقط في أداء الفرائض، والتطوّع بالتوافل ابتغاء مرضاة الله، ولكن في أداء الأعمال جميعاً، فالعمل في حسه عبادةٌ يؤدّيه بروح العبادة، الحاكم يسوس رعيّته بروح العبادة، والمعلّم الذي يعلم القرآن، ويفقه الناس في الدين يعلم بروح العبادة، والتّاجر الذي يراعي الله في بيعه وشرائه يفعل ذلك بروح العبادة، والزّوج يرضى بيته بروح العبادة، والزّوجة ترضى بيتها بروح العبادة، تحقيقاً لتوجيه رسول الله ﷺ: «كلّكم راعٍ، وكلّكم مسؤولٌ عن رعيّته»^(٢).

هذه من أهم سمات عصر الصدّيق؛ الذي هو بداية الخلافة الرّاشدة، وهذه السمات جعلته مجتمعاً مسلماً في أعلى أفاقه، وهي التي جعلت هذه الفترة هي الفترة المثاليّة في تاريخ الإسلام، كما أنّها هي التي ساعدت في نشر هذا الدّين بالسرعة العجيبة التي انتشر بها، فحركة الفتح ذاتها من أسرع حركات الفتح في التاريخ كلّ، بحيث شملت في أقل من خمسين عاماً أرضاً تمتدّ من المحيط غرباً إلى الهند شرقاً، وهي ظاهرةٌ في ذاتها تستحقّ التّسجيل، والإبراز، وكذلك دخول النّاس في الإسلام في البلاد المفتوحة بلا قهرٍ، ولا ضغطٍ، وقد كانت تلك السمات التي اشتمل عليها المجتمع المسلم هي الرّصيد الحقيقي لهذه الظّاهرة، فقد أحبّ الناس الإسلام لما رأوه مطبّقاً على هذه الصّورة العجيبة الوضّاءة، فأحبّوا أن يكونوا من بين معتنقيه^(٣).

(١) المصدر السّابق نفسه.

(٢) المصدر السّابق نفسه.

(٣) المصدر السّابق نفسه، ص ١٠٣.

ثالثاً: سياسة الصّديق في محاربة التدخّل الأجنبي:

أدّت حركة الدولة الإسلامية الصّاربة في الجزيرة العربيّة إلى لجوء كثير من القبائل المجاورة لكلّ من الرّوم، والفرس، وأبوا التسليم للدولة الإسلامية، وما إنّ سمعوا بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، حتّى سعوا للتقرّب من الدولتين، واستغلّ الفرس والرّوم هذه القبائل بالحصّ، والتّشجيع، والدّعم لتقف ضدّ الدولة الإسلامية^(١)، فكانت سياسة الصّديق التّصديّ لهذا الدّعم الخارجيّ بأن أرسل حملة أسامة بن زيد إلى الشّام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فكانت تلك الحملة بمثابة الضّمان لعدم استرسال تلك القبائل على مهاجمة الدولة الإسلامية، وأرسل أبو بكر أيضاً خالد بن سعيد بن العاص على رأس جيش إلى المحقّتين من مشارف الشّام، وعمرو بن العاص إلى تبوك، ودومة الجندل، وأرسل العلاء بن الحضرمي إلى البحرين (أي: ساحل الخليج العربي كلّ)، ثمّ تابع المثنى بن حارثة الشّيباني إلى جنوب العراق بعد القضاء على ردّة البحرين، واضطرت سجاح التّميميّة وقد كانت من نصارى العرب في العراق التي كانت تحت سيطرة الفرس أن ترتدّ عائدة إلى العراق لمّا رأت قوّة المسلمين، لقد كان المسلمون بقيادة أبي بكر على مستوى اليقظة والمسؤوليّة، فحفظوا الحدود الشماليّة بدقّة، فمن الشّرق إلى الغرب على طول الحدود الشماليّة المتاخمة للفرس والرّوم نجد العلاء بن الحضرمي، وخالد بن الوليد شمال نجد، ثمّ عمرو بن العاص في دومة الجندل، وخالد بن سعيد على مشارف الشّام، ناهيك عن جيش أسامة^(٢).

كان الفرس يتربّصون بالإسلام الدّوائر، ولكنّهم كمنوا كمنون الأفعى وخاصّة أنّهم كانوا يرون المدّ الإسلاميّ يكتسح من أمامه كلّ أقزام التّاريخ، ويزيح من وجهه جميع قوى الشرّ والطّغيان، وعندما حانت الفرصة بارتداد بعض القبائل عن الإسلام، وتوجّهت قبيلة بكر بن وائل إلى كسرى بعد وفاة الرّسول صلى الله عليه وسلّم تعرض عليه إمارة البحرين، فلاقى العرض قبولاً لديه، وأرسل معهم المنذر بن النّعمان على رأس

(١) دراسات في عهد النّبوة والخلافة الرّاشدة، ص ٣١١.

(٢) حروب الردّة، ص (١٧٤، ١٧٥).

قوة مؤلفة من سبعة آلاف فارس، وراجل، وعدد من الخيل تقارب في أعدادها المئة لمساعدتهم في مواجهة المسلمين، وهم شردمة لا يخشى خطرهم كما يقول الكلاعي^(١). وكان مسيلمة الكذاب تتطلع إليه الأعين من بلاط فارس^(٢)، وقد ذكر الدكتور محمد حسين هيكل: من أن سجاح لم تنحدر من شمالي العراق إلى شبه الجزيرة يتبعها رهطها إلا مدفوعة بتحريض الفرس وعمّالهم في العراق، كي يزيدوا الثورة في بلاد العرب اشتعالاً^(٣). هذا عن دور الفرس، أمّا دور الروم فقد كان أظهر، وأخطر، ذلك لأن موقف الروم من الإسلام ودولته كان أصلب، وأعتى، فهم أمة ذات فكر، وعقيدة، وذات نظم، وقوانين متقدمة، ولهم من العدد والعُد مدد لا يكاد ينقطع، ومن الحلفاء والأتباع دول ودول، ولذا كانت العلاقات بينهما في أعلى درجات سخونتها، وتوترها منذ فترات مبكرة^(٤)، وقد لجأ الروم ومنذ وقت مبكر بعد وصول كتب رسول الله ﷺ إلى محاولة الصدام مع المسلمين، فكان من جرّاء ذلك غزوات: مؤتة، وتبوك اللتان أثبتتا لهم مادياً: أن الدولة الإسلامية ليس من السهل ابتلاعها، أو شراء أصحابها، كما أثبتتا للمسلمين من جهة أخرى إخلاص منتصره العرب من قبائل الشام لأبناء دينهم من الروم، وعلى الرغم من الاتفاقيات التي عقدها رسول الله ﷺ بنفسه إثر غزوة تبوك مع أمراء الشام من أتباع الروم، فإن الروم كانوا لا يكفون عن مناوشة الدولة الإسلامية ومحاولة قصّ أجنحتها، وبالتالي القضاء عليها، وكان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ متنبهاً لهذا الأمر جيداً، وقد تمثل ذلك في إصراره الشديد على إنفاذ جيش أسامة لوجهته، وقد رأى قبائل العرب في شمالي الجزيرة من لحم، وغسان، وجذام، وبلي، وقضاة، وعذرة، وكلب تعود للانقضاض على عهود رسول الله ﷺ أبرمها معها، ومن غير الدولة الرومية يمدّهم بوقود المعركة

(١) الاكتفاء في تاريخ المصطفى والثلاثة الخلفاء (٣/ ٣١٨، ٣١٩).

(٢) الإسلام والحركات المضادة، ص ١٤٦ للدكتور الخربوطلي.

(٣) الردّة، غداء خزنة كاتب، ص ٤٩ مخطوطة نقلاً عن حركة الردّة، ص ١٤٦.

(٤) حركة الردّة للعتوم، ص ١٤٦.

من سلاح، ورجال، ومال، ومخططات؟ وكأنه كان يريد أن يقول للرُّوم بلسان الحال: إنَّه على الرَّغم من انتقاض العرب داخل بلادِي فإنَّ ذلك لن يفتَّ في عضدنا نحن المسلمين، ونحن قادرون أن نصدَّ عن دولتنا أكبر هجمةٍ عالميَّةٍ، ولو كانت من جانبكم^(١).

إنَّ انتقاض الجزيرة العربيَّة جدد الأمل عند الفرس، والرُّوم بأنَّ العرب سيقضون على الإسلام، وقدَّمت الفرس والرُّوم للعرب الثَّائرين على الحكم الإسلامي كثيرًا من المساعدات، واوت الفارَّين منهم، ولذلك لم يكد المسلمون يعيدون الجزيرة العربيَّة إلى وحدتها حتَّى كان الأوان قد ان للزَّحف نحو الشَّمال لمواجهة العدويَّين الكبيرين اللَّذين يترَبَّصان بالإسلام^(٢).

لقد تحرَّك الصَّدِّيق من قاعدته الأمانة (المدينة المنورة)، وبعث منها الجيوش وزوَّدها بكلِّ ما من شأنه أن يجعلها ذات هيبةٍ في عيون أعدائها، وفي قلوبهم، وقد استطاع الصَّدِّيق أن يفيض من قاعدته الخير على بقيَّة أرجاء الجزيرة العربيَّة، وما كان له أن ينطلق لفتح بلاد الشام والعراق لولا أنَّه أمَّن قاعدته الكبرى الجزيرة العربيَّة، مواليةً للإسلام، موحَّدةً على أساسه، وقد تمثَّل أمن هذه القاعدة في ثلاثة مستويات، هي:

أولاً: عزم الخليفة على مواصلة الجهاد، وإيمانه الوطيد بصلاحيه فكره، وتميُّزه، واستعلائه به، وثانياً: نظافة مجتمعه الأصغر مجتمع المدينة من مهاجرين، وأنصار، وثالثاً: تطهير مجتمعه الأكبر وهو المجتمع العربي من أدران الشُّرك، وقابيل الرِّدة، وقد انبتن هذه المستويات بعضها على بعضٍ حتَّى سما البناء شامخاً قويًّا، واستطاع أن يرمي به ثغور العراق والشام رميًّا زعزع كيانات الرُّوم والفرس زعزعةً شديدةً في أمدٍ قصير، وما ذلك إلا لأنَّ الجيوش المنطلقة من الجزيرة كانت موحَّدة الصُّفوف، موحَّدة الفكر، موحَّدة الرِّاية، محمية الظَّهر، مؤمَّنة مراكز التَّموين^(٣).

(١) حركة الرِّدة للعتوم، ص ١٥٠.

(٢) موسوعة التَّاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي (١/ ٣٨٨).

(٣) حركة الرِّدة للعتوم، ص ٣٢٣.

رابعاً: من نتائج أحداث الردة:

خلّفت حروب الردة أثراً ونتائج لم تكن محدودة الزّمان، والمكان، وإنّما شملت أجيالاً وآماداً، وتصورات، وأفكاراً، وسلوكيات، وأحكاماً ما زالت تغذي الأجيال من بعدها، وتمدّها بالكثير. ومن أهمّ تلك النتائج:

١ - تميّز الإسلام عمّا عداه من تصورات، وأفكار، وسلوك:

بعد وفاة رسول الله ﷺ اختلطت الأمور ببعضها، وسارعت الأعراب إلى الردة، فكان منهم المؤلّفة قلوبهم، أو من المنافقين، أو الذين أسلموا رغم أنوفهم، وفي وقت متأخّر، أو من الذين لم يسلموا أصلاً، ومن أمثلة الصّنفين الأوّلين إسلام عينة بن حصن الفزاري؛ الذي أسلم إسلاماً فيه دخنٌ كبيرٌ، ولذا ما إن هبّت نار الفتنة حتّى استجاب لها، وباع دينه بدنيا طليحة الأسدي، ولمّا أسر، وبعث إلى أبي بكرٍ مقيّداً بالأغلال كان فتیان المدينة يمرّون عليه، فينخسونه بالجريد، ويقولون: أي عدو الله! أكفرت بعد إيمانك؟! فيقول: والله ما كنت امنت بالله قط^(١)! ومن هؤلاء الذين يقال: إنهم لم يسلموا أصلاً قبيلة عنس اليمنيّة، وهي قبيلة الطّاغية الأسود الذي ادّعى النّبوة، وفعل في بلاد اليمن الأفاعيل، ونكّل بالمسلمين.

ومن أمثلة سوء الفهم لنصوص الإسلام التي أدّت بهؤلاء إلى الكفر أن بعضاً منهم أنكر الزّكاة محتجّاً بمدلول قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فقد جاء في التّعليق على هذا الآية في تفسير ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ - قوله: اعتقد بعض مانعي الزّكاة من أحياء العرب: أن دفعها إلى الإمام لا يكون، وإنّما كان هذا خاصّاً برسول الله ﷺ، وقد احتجّوا بقوله تعالى: وقد ردّ عليهم هذا التّأويل ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣] (السّقيم) والفهم الفاسد أبو بكر، وسائر الصّحابة (رضوان الله عليهم) وقتلوه

(١) تاريخ الطبري (٣/ ٢٦٠)، حركة الردة للعتوم، ص ١١٤.

حَتَّى أَدَّوْهَا إِلَى الْخَلِيفَةِ، كَمَا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١) وَظَهَرَتِ الْعَصِيَّةُ الْقَبْلِيَّةُ بِقُوَّةٍ، فَهَذَا مَسِيلِمَةُ الْكَذَابِ يَقُولُ لِبْنِي حَنِيفَةَ مُحَرَّضًا إِيَّاهُمْ عَلَى اتِّبَاعِهِ، وَإِنْكَارِ حَقِّ قَرِيشَ بِالنُّبُوَّةِ: أَرِيدُ أَنْ تَخْبِرُونِي بِمَاذَا صَارَتْ قَرِيشَ أَحَقَّ بِالنُّبُوَّةِ، وَالْإِمَامَةِ مِنْكُمْ؟! وَاللَّهُ مَا هُمْ بِأَكْثَرَ مِنْكُمْ، وَلَا أَنْجِدُ، وَإِنَّ بِلَادَكُمْ لِأَوْسَعَ مِنْ بِلَادِهِمْ، وَأَمْوَالُكُمْ أَكْثَرَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ^(٢).

وَهَذَا الرَّجَالُ بْنُ عَنُفُوهِ الْحَنْفِيُّ الَّذِي أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ بَعْدَ أَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَفَقَهُ فِي الدِّينِ يَقُولُ فِي حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ، وَمَسِيلِمَةَ: كَبِشَانُ انْتَطَحَا، فَأَجَبَهُمَا إِلَيْنَا كَبِشْنَا^(٣). وَهَذَا طَلْحَةُ النَّمِرِيُّ قَالَ لِمَسِيلِمَةَ عِنْدَمَا رَاهُ، وَسَمِعَ مِنْهُ مَا عَلِمَ بِهِ كَذِبُهُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ كَذَّابٌ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ، وَلَكِنْ كَذَّابٌ رِبِيعَةٌ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَادِقٍ مُضِرٍّ^(٤).

بَلْ إِنْ مَسِيلِمَةُ يَعْرِفُ كَذِبَ نَفْسِهِ، فَلَمَّا كَانَتْ مَعْرَكَةُ الْيَمَامَةِ، وَبَدَتْ الْغَلْبَةُ لِلْمُسْلِمِينَ؛ قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ مُحَنِّكِينَ عَلَيْهِ: أَيْنَ مَا كُنْتَ تَعِدُنَا بِهِ مِنَ النَّصْرِ، وَالْآيَاتِ؟ فَقَالَ: قَاتِلُوا عَنْ أَحْسَابِكُمْ، فَأَمَّا الدِّينُ فَلَا دِينَ^(٥).

وَاخْتَلَطَتْ عَلَيْهِمُ التَّصَوُّرَاتُ، وَالْأَفْكَارُ، وَالسُّلُوكِيَّاتُ، وَالْأَمَالُ، وَعَمِلَ الْمُرْتَدُّونَ عَلَى إِنْهَاءِ الْإِسْلَامِ، وَمَحْوِهِ مِنَ الْوُجُودِ، وَتَكَالَبَتِ قَوَى الشَّرِّ عَلَى ذَلِكَ، وَلَكِنْ مُحَاوَلَاتُهُمْ بَاءَتْ بِالْفَشْلِ، وَأُحْبِطَتْ جَمِيعُهَا بِتَوَحُّدِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَجَمُّعِهِمْ، وَتَكَثُّلِهِمْ حَوْلَ الْقَاعِدَةِ الصُّلْبَةِ لِلْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ؛ الَّتِي تَرَبَّتْ عَلَى يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَصْبَحَتْ تَشْبِهُ الْقُطْبَ الْمَغْنَطِيسِي الضَّخْمَ الَّذِي قَامَ - بِحُكْمِ طَبِيعَتِهِ، وَخَصَائِصِهِ - بِجَذْبِ كُلِّ مَنْ كَانَ مُؤَهَّلًا لِلْإِسْلَامِ، وَيَحْمِلُ خَاصِّيَّةَ الْإِنْجِذَابِ إِلَى هَذَا الْقُطْبِ الْمَغْنَطِيسِيِّ الضَّخْمِ الْفَعَّالِ، فَقَدْ أَدَّى هَذَا التَّجَمُّعُ إِلَى إِظْهَارِ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ، لَيْسَ بِكَثْرَةِ الْعِدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَإِنَّمَا فِي قُوَّةِ تَفَرُّدِهِ تَصَوُّرًا،

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٦) طبعة الحلبي.

(٢) حركة الردة للعتوم، ص ١٢٤.

(٣) الإصابة لابن حجر رقم ٢٧٦١.

(٤) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٠٤.

(٥) المصدر السابق نفسه (٤/ ١١٢).

وفكرًا وسلوكًا في لبناته الصلبة، وتربيتها الفذة التي تربت عليها تلك اللبنات مجتمعة، والقوة في وضوح التعامل مع الحدث دون موارد، أو تريث، أو إغماض عين وفتح الأخرى، وإنما كانوا واضحين وضوح عبارة أبي بكر الصديق للمسلمين جميعًا: من كان يعبد محمدًا؛ فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإنَّ الله حيٌّ لا يموت^(١).

إنَّ من نتائج أحداث الردة حفظ التصوُّر الإسلامي من التحريف، والتشويه، وأن تجرّدت الرؤية الإسلامية من العصبية الجاهلية، والولاء المختلط، وصارت خالصةً من أية شائبة، وأنَّ التصوُّر الإسلامي لا يقبل المداينة مهما كانت الظروف المحيطة، وأنَّ القوة الإسلامية لا ترتبط بالعدد ولا العدة، ولكن بقوة الإيمان والروح المعنوية، وأنَّ الأصل دعوة النَّاس إلى الإسلام، وليس مقاتلتهم، فالدَّعوة أولاً، وأنَّ الحرص على النَّاس هو المقدم على كلِّ شيء^(٢).

٢- ضرورة وجود قاعدة صلبة للمجتمع:

أظهرت أحداث الردة معادن أصيلة في بنية قاعدة هذه الدولة، وكشفت عن عناصر صلبة، فلم يكونوا أفراداً متناثرين، ولكنهم كانوا يشكّلون القاعدة لهذا المجتمع، ولهذه الدولة، ولم تكن قاعدة رخوة، أو هشّة، أو ساذجة، وإنما كانت قاعدة صلبة واعية، تدرك حقيقة نفسها، وحقيقة عدوها، وتعي أبعاد المخاطر من حولها، وتخطّط بانتباه، ويقظة كاملة في مواجهة كلِّ الصّعب، وهي مع هذا وذاك موصولة بالقوي العزيز، ولهذا انتصرت على كلِّ خصومها، وأزالت كلَّ العوائق من طريقها، فقد حافظت هذه القاعدة على الإسلام، ودولته، وساهمت في جمع الحشود لكسر شوكة أهل الردة، وعملت على لَمِّ شمل النَّاس من حولها، وتمَّ بفضل الله، ثمَّ جهود هذه القاعدة الصلبة حفظ كيان الأمة، وبقائها، وتنميتها^(٣).

٣- تجهيز الجزيرة كقاعدة للفتوح الإسلامية:

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٢٣.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣٢٤.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢٥.

بمجرّد وفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تناثرت التجمّعات، وتمرّدت كثيرٌ من القبائل على الخليفة، وقام الصّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع الصّحابة بعمل شاقٍّ عظيم استطاعوا أن يُخضعوا القبائل للدولة، وأشرف الصّدّيق على تنفيذ الخطط التّربويّة، والتّعليميّة، والحربيّة، والإداريّة، ونجح نجاحاً باهراً، والتحمت القبائل العربيّة مع الدولة الإسلاميّة وأصبحت جزيرة العرب بسكّانها قاعدة الفتوح الإسلاميّة بعد ذلك، وصارت هي النّبع الذي يتدفّق منه الإسلام؛ ليصل إلى أصقاع الأرض فاتحاً، ومعلّماً، ومربّياً^(١).

إنّ جزيرة العرب هي قاعدة الفتوح، فكيف يتسنى الفتح إذا لم تكن له قاعدة، أو كانت هذه القاعدة مضطربة غير مستقرّة، أمّا الآن فقد أصبح ممكناً تعبئة كلّ طاقات شبه الجزيرة، وحشدّها للأعمال الحربيّة التي تلت^(٢).

٤- الإعداد القيادي لحركة الفتوح الإسلاميّة:

ومن خلال أحداث الرّدة التي ميّزت الصّفوف، وامتحن الطّاقات، والقدرات، وكشفت عن الطّبقة التي كانت تغطي معادن الأُمّة، ظهرت المعادن الخسيّة على حقيقتها، وأعطيت القيادة للمعادن النّفيسة الصّلبة المصقولة لتمسك بزمام الأمور في حركة الفتوح، فالمصادر التّاريخيّة تمدّنا بمعلوماتٍ جمّة عن قياداتٍ لم تكن من المهاجرين، ولا من الأنصار، ولا من الصّحابة، ولكنهم تربّوا من خلال كتاب الله مباشرة، ثمّ صقلتهم أحداث الرّدة، وميّزتهم عن غيرهم، ليصلوا إلى صدارة الجيوش الفاتحة، وشهد لهم الجميع بالحنكة، والأداء المتفاني، والإيمان الصّادق.

هذا وقد كانت القيادة المركزيّة في المدينة وميادين القتال تديرها قياداتٌ غاية في التّفاهم، والتّعاون، والتّحابّ على الرّغم من بعد المسافات، إلّا أنّ التّوازن الرّائع بين دور كلّ من

(١) دراساتٌ في عهد النّبوة والخلافة الرّاشدة، ص ٣٢٦.

(٢) الطّريق إلى المدائن، أحمد عادل كمال، ص ١٨٢.

القيادة المركزية، وقيادات ميادين القتال كان واضحاً، وبارزاً^(١).

٥- الفقه الواقعي للردة:

وردت العديد من النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية التي تحدّثت على الردّة كحالة تعتري بعض البشر، وكلّ ما ورد من النصوص ظلّت في إطارها العامّ النظري الثابت، ولم تكن قد مورست بشكل عامّ في الواقع، ولما وقعت الردّة، وعاشها المسلمون عملياً، واستنبطوا لها أحكاماً على ضوء تلك النصوص، كانت تلك الاستنباطات معالم هادية لفقه تلك النصوص، ويتّضح هذا من نقاش بين الصحابة حول موقفهم من هؤلاء القوم، فكانوا يعودون إلى النصوص يدرسون، ويتحاورون حولها، وسرعان ما يتفقون على صورة واحدة سواءً في تقييمهم، وتوصيفهم الوصف المنطبق عليهم، أم في طريقة معاملتهم، فهذه الوقفات العملية أمام الحدث والنصّ أنتجت أبواباً في كتب التشريع الإسلاميّ ضمّت تفصيلاتٍ تشريعيةً دقيقةً عن أحكام الردّة، ثمّ صار عمل الصحابة سابقةً فقهيةً تؤخذ في الاعتبار عند استنباط اجتهادٍ، أو تطبيق حكمٍ فيما بعد^(٢).

٦- ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]:

إنّ آية محاولةٍ للتمردٍ على دين الإسلام سواءً أقام بها فردٌ، أم جماعةٌ، أم دولةٌ، إنّما هي محاولةٌ يائسةٌ مالها الإخفاق الذريع، والخيبة الشنيعة؛ لأنّ التمرد إنّما هو تمردٌ على أمر الله المتمثّل بكتابه؛ الذي تكفّل بحفظه، وحفظ جماعة تلتفّ حوله، وتقيمه في نفوسها، وواقعها مدى الدهر، وبحكمه القاضي بالعاقبة للمتقين وبالمنّ على المستضعفين أن يُدِيل لهم من الظالمين. إنّ مصير الكائدين لدين الله هو البوار في الدنيا، والآخرة، وما أجمل ما قال الشاعر:

كناطح صخرةً يوماً ليُوهنَهَا فلم يضرّها وأوهى قرنه الوعل^(١)

(١) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٢٨.

(٢) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٣٢٩.



٧- استقرار التنظيم الإداري في الجزيرة:

استقرَّ التَّقسيم الإداريُّ بعد انتصار الصَّديق في حروب الردَّة على نظام الولايات، وهي: مَكَّة، وكان أميرها عتَّاب بن أسيد. والطَّائف، وأميرها عثمان ابن أبي العاص. وصنعاء، وأميرها المهاجر بن أبي أمير. وحضرموت، وواليها زياد بن لبيد. وخولان، وواليها يعلى بن أميَّة. وزبيدة، ورقع، وواليهما أبو موسى الأشعري. أمَّا جند اليمن؛ فأمرها معاذ بن جبل. ونجران، وواليها جرير ابن عبد الله. وجرش، وواليها عبد الله بن ثور. والبحرين وواليها العلاء بن الحضرمي. وعُمان، وواليها حذيفة الغلفان. واليمامة، وواليها سليط بن قيس^(١).

(١) الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة لمنصور أحمد الحرابي، ص ٩٧.

الفصل الرابع: فتوحات الصديق، واستخلافه لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ووفاته

تمهيد:

المتأمل لما سطره علماؤنا عن تاريخ عهد الخلفاء الراشدين، وما حدث فيه من معجزات تاريخية في تثبيت دولة الإسلام واتساعها، والمتدبر لما أوجزناه في هذا الباب عن الفتوحات في عهد أبي بكر الصديق يدرك ذلك الانقلاب الضخم الذي وقع في التاريخ في صعود الأمة العربية الإسلامية وإساکها بزم قيادة العالم، وهبوط أُمم ودول معروفة في السيادة والريادة وانحلال عقدها وخبو جذوتها. ويرى التغيير الهائل في موازين القوى، والواقع الجغرافي الذي أذن بامتداد دولة الإسلام واتساع رقعتها، وانتقاص دولتي فارس والروم من أطرافهما. ويدهش لتلك الانتصارات الكبيرة المتلاحقة والامتداد المطرد للدولة الإسلامية، ثم يعجب لاستسلام تلك الشعوب للفاتحين المسلمين ودخولهم في دينهم أفواجاً عن رضا وسعادة، لم يلبثوا بعدها أن صاروا من حملة الرسالة وحمايتها وناشريها المنافحين عنها، ذلك كله أغرب ما حدث في التاريخ والمجتمع الإنساني؛ فهو غريب في سرعته وغريب في عمقه، وغريب في شموله، وغريب في وضوحه^(١). تولى الصديق رضي الله شؤون الدولة الإسلامية، بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكان أكمل الناس سياسة فلم يظهر في الإسلام نقص بوجه من الوجوه، بل قاتل المرتدين حتى عاد الأمر إلى ما كان إليه وأدخل الناس في الباب الذي خرجوا منه، ثم شرع في قتال الكفار المعادين لله ولدينه، وشرع في فتح البلاد، والأرضي، وعلم الأمة ما خفي عليهم وقواهم لما ضعفوا، وشجعهم لما جبنوا، وسار فيهم سيرة توجب صلاح دينهم، ولم تُعْظَم الأمة أحداً بعد نبينا كما عَظُمَت أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من غير رغبة أعطاها ولا رهبة أخافهم بها، وهذا من خصائصه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، مكتبة الأيمان، مصر- المنصورة، ص ١٠٤، نقلاً عن أبو بكر خليف رسول الله، ص ٧٠١.

(٢) أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، عبد الرحمن بن قاسم، ص ١٣٤.

إنَّ الفتح الإسلامي فتح فريد لا يدانيه فتح ولا يقاس به؛ لأنه في نهايته لم ينجلٍ عن غالبين ومغلوبين، وإنما انجلَى عن أمة واحدة لها رب واحد ونبي واحد وقرآن واحد. لهذا استقرَّ الفتح الإسلامي وخلد، وبقيت البلاد المفتوحة للإسلام، وبقي الإسلامي فيها وإن أُسقط بعضها لاحقاً، فكان فتح خير وبركة وهداية^(١).

إنَّ غاية وجود الأمة المسلمة في هذه الدنيا هي توحيد الله، وتحقيق عبوديته الشاملة في هذه الحياة كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فإذا كان خَلْقُ الجنِّ، والإنس الغاية منه عبادة الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فكان لزاماً على الأمة المسلمة أن تسعى لتحقيق هذه الغاية، وتحمل هذه الأمانة، وأعباء تبليغها للناس أجمعين، بالدعوة إلى الله، وتعليم الناس، وتربيتهم على منهج الله، والعمل على إزالة كلِّ العقبات التي تقف في وجه أداء هذه الأمانة إلى الناس أجمعين، وبذلك يتحقَّق بسط سيادة الشَّرع الحكيم على كل بني البشر، ويصبح الجميع يدينون بحاكمية الله سبحانه المطلقة المتمثلة في خضوع الجميع لشرع الله تعالى^(٢)، ولذلك شرع الله تعالى الجهاد لإزالة الحواجز، والعقبات المانعة من سماع دين الفطرة؛ التي فطر الناس عليها.

قال ابن تيمية: وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد بقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا؛ فمن منع قوتل باتِّفاق المسلمين^(٣).

وقد قام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتبليغ واجب الدعوة إلى الله، فأرسل الكتب، والرُّسل إلى القادة، والملوك، والرُّعماء. وبعث السَّرايا، والجيوش لإزالة الحواجز البشريَّة، والأعراف الجاهليَّة، والموانع النَّفسيَّة، والعوائق الماديَّة المانعة من سماع الإسلام، وتفهُمهم، بل قاد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذاته بعض البعوث، والغزوات، والتي كان آخرها غزوة تبوك سنة ٩ هـ.

(١) بين العقيدة والقيادة، ص ٢٢٥، ٢٢٦، نقلاً عن أبو بكر خليفة رسول الله، ص ٧١٢.

(٢) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي للصَّلاحي، ص ١٦٧.

(٣) السِّياسة الشَّرعية لابن تيمية، ص ١٨.

والنّاس في كلّ هذه المعارك، والغزوات مخيرون بين ثلاثة: إمّا أن يدخلوا الإسلام، ويكونوا للمسلمين إخواناً، وإمّا أن يختاروا البقاء على كفرهم، ويدفعوا الجزية، وإمّا أن يرفضوا هذا وذاك، فيكون السيّف فاصلاً بيننا وبينهم^(١).

وسار الصّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على هذا المنهج وشرع في إرسال الجيوش لتحقيق بشائر الرّسول بفتح كثيرٍ من الممالك والبلاد، كفتح العراق، وغيرها من البلاد، فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعدّيّ بن حاتم: «فو الذي نفسي بيده! ليتمنّ الله هذا الأمر؛ حتّى تخرج الطّعين من الحيرة؛ حتّى تطوف بالبيت في غير جوار أحدٍ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز!»^(٢).

وقد وضع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخطوط العريضة لتلك الفتوحات، وأضافت تلك المبشّرات رصيذاً مادّياً، ومعنوياً، وحسّياً للأمة، وقد حاول المستشرقون، وأذناهم، وأعداء الإسلام أن يجرّدوا الفتوحات الإسلامية من دوافعها الدّعوية، وأهدافها الرّبانيّة، ومقاصدها السّامية، وألصقوا بحركة الفتوحات تهماً باطلة لا تقوم أمام الدّليل، والبرهان، والحجّة.

إنّ الهدف الرّفع، والمقصد السّامي لحركة الفتوحات التي قادها الصّدّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان غرضها نشر دين الله تعالى بين النّاس، وإزاحة الطّواغيت من على رقاب النّاس، وكان الصّدّيق والمسلمون معه على يقين بما أخبر الله ورسوله من النّصر، والتّمكن، وهذا اليقين من أخلاق جيل النّصر، فقد كانوا على يقين بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١] ولنترك الأحداث في حركة الفتوحات تخبرنا عن الحقائق، وتوضح الطّريق لأبناء الأمة الصّادقين.

(١) صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي للصّلاّبي، ص ١٦٨.

(٢) صحيح السّيرة النبويّة، ص ٥٨٠.

المبحث الأول: فتوحات العراق

لما فرغ أبو بكر من أمر جزيرة العرب جهز جنوده لفتح العراق والشام^(١)، وعقد الألوية والرايات والأمراء، فبعث خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، ووقعت في خلافته معركة اليرموك العظيمة، وكانت في السنة الثالثة عشرة للهجرة، ونصر الله فيها جنده نصراً مؤزراً وتوفي أبو بكر الصديق أثناء معركة اليرموك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

قال الشيخ الطنطاوي: أبو بكر الصديق هو الذي فتح للمسلمين أبواب الشام والعراق وهو الذي أثار على الظلم والجهل والكفر هذه الحروب، وهو الذي رسم خططها، وسمى قوادها وتم في زمانه الشيء الكثير منها^(٣).

إن المواجهة مع الفرس في العراق سوف تشكل فاتحة عصر جديد أو ما يعرف بمرحلة الفتوحات التي لن تقتصر على العراق فقط، بل سوف تمتد على مدى قرون لتتشر لواء الإسلام من وسط آسيا حتى سلسلة جبال البيريني. لقد جرت الفتوحات الإسلامية في لحظة خاصة من التاريخ وكانت نتيجة طبيعية لأسباب متعددة تقاطعت فأنتجت حركة هي وليد زمان ومكان محددين، وبناء عليه فإن ما حدث في تلك اللحظة التاريخية، قد لا يصح في لحظة أخرى، حتى لو اجتمعت له نفس الأسباب وإن حدث قد لا يؤدي إلى نفس النتائج لأن ما يكون بديهيًا في عصر ما، قد لا يكون كذلك في عصر آخر. إن توجيه الخليفة للجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس والروم، كان قراراً في موقفاً جاء في وقته، عبر عن الحالة التي ارتقت إليها البلاد العربية من خلال دعوة الإسلام، وبالتالي كان توسيع دائرة الجهاد من الدائرة العربية إلى الدائرة العالمية الخارجة عن حدود الجزيرة العربية قوى الرابطة العربية

(١) في مرحلة استدراك المعلومات والوقوف على الشبهات والإضافات الأخيرة على كتاب أبي بكر الصديق، استغدت من الباحث محمد عليان من طلبة الدراسات العليا في الشريعة الإسلامية، والذي تعاون معنا في رصد وترتيب هذه المادة بمتابعة وإشراف ومراجعة منا. جزاه الله كل خير.

(٢) سيرة العتيق أبو بكر الصديق، ص ٢٥١.

(٣) أبو بكر الصديق، ص ٣٠٨، نقلاً عن سيرة العتيق أبو بكر الصديق، ص ٢٥١.

الإسلاميّة وجعلها تعبر عن نفسها بمفهوم جديد لم تعرفه الجزيرة من قبل^(١).

لم يظهر الجيش النظامي في عصر الخلفاء الراشدين بالصفة التي نجدها في الدولة العباسية مثلاً، بل كانت الأمة كلها كقاتلة مجاهدة فكلّ من كان قادراً على الجهاد ومسجلاً في ديوان العطاء يهب للانخراط في الحملة العسكرية. اعتمدت جيوش الفتح على المتطوعين الذين يتدربون باستمرار على الفروسية والرماية والمبارزة والسباحة؛ مما وفر للدولة أعداداً كبيرة من الاقدرين على القتال العارفين بأساليبه وفنونه. ولقد أرسى الرسول ﷺ القواعد العسكرية الإسلاميّة، ووضع تعاليمها النظرية والتطبيقية، وحذا الخلفاء الراشدون حذوه، فاستطاعوا تحقيق أكبر الانتصارات على أقوى جيوش فارس والروم^(٢).

أولاً: خطة الصديق لفتح العراق:

ما إن انتهت حروب الردّة، واستقرّت الأمور في الجزيرة العربيّة التي كانت ميداناً لها، حتّى شرع الصديق في تنفيذ خطة الفتوحات التي وضع معالمها رسول الله ﷺ، فجيش الصديق لفتح العراق جيشين:

١- الأوّل بقيادة خالد بن الوليد، وكان يومئذٍ باليمامة، فكتب إليه يأمره بأن يغزو العراق من جنوبه الغربيّ، وقال له: سر إلى العراق حتّى تدخلها، وابدأ (بفرج الهند) أي ثغرها، وهي الأبلّة^(٣)، وأكره بأن يأتي العراق من أعاليهم، وأن يتألف النّاس، ويدعوهم إلى الله عزّ وجلّ، فإن أجابوا وإلا أخذ منهم الجزية، فإن امتنعوا عن ذلك قاتلهم، وأمره ألا يكره أحداً على المسير معه، ولا يستعين بمن ارتدّ عن الإسلام وإن كان عادٍ إليه، وأمره أن يستصحب^(٤) كلّ

(١) خالد بن الوليد عبقرية القيادة، عبد الكريم حبّص، المؤسسة الحديثة للكتاب، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، ص ١٥٢، ١٥٣.

(٢) أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ، ص ٦٤٩.

(٣) الأبلّة: على شط العرب في زاوية الخليج الذي يدخل في مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة، وكانت بها مسالح كسرى.

(٤) يستصحب: يطلب صحبته دون إلزام.

أمرئ مرَّ به من المسلمين، وشرع أبو بكر في تجهيز السرايا، والبعوث، والجيش إمداداً لخالدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١).

٢- الجيش الثاني بقيادة عياض بن غنم، وكان بين النباج^(٢) والحجاز، فكتب إليه بأن يغزو العراق من شماله الشرقي بادئاً بالمسيخ^(٣) وقال له: سر حتى المسيخ وابدأ بها، ثم ادخل العراق من أعلاها حتى تلقى خالداً. ثم أردف أمره هذا بقوله: وأئن لمن شاء بالرجوع، ولا تستفتحان بمتكاره. أي: لا تجبرا أحداً على السير معكما إكراهاً فمن شاء فليقدم، ومن شاء فليحجم^(٤).

وكتب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى خالد، وعياض: ثم يستبقان إلى الحيرة، فأجهما سبق إلى الحيرة؛ فهو أمير على صاحبه، وقال: إذا اجتمعتما إلى الحيرة، وقد فضضتما مسالح فارس، وأمتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم، فليكن أحكما رداءً للمسلمين، ولصاحبه بالحيرة، وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم، ومستقر عزهم؛ المدائن^(٥).

٣- وكان المثنى بن حارثة قد قدم على أبي بكر، وحث الصديق على محاربة الفرس، وقال له: ابعثني على قومي، ففعل ذلك أبو بكر، فرجع المثنى، وشرع في الجهاد بالعراق، ثم إنَّه بعث أخاه مسعود بن حارثة إلى أبي بكر يستمده، فكتب معه أبو بكر إلى المثنى: أمَّا بعد: فإنني قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق، فاستقبله بمن معك من قومك، ثم ساعده، ووازره، وكاتفه، ولا تعصين له أمراً، ولا تخالفن له رأياً، فإنه من الذين وصف الله - تبارك وتعالى - في كتابه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. فما أقام معك فهو الأمير، فإن شخص عنك فأنت على ما كنت

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٤٧.

(٢) قرية في بادية البصرة، في منتصف الطريق بين مكة، والبصرة.

(٣) موضع على حدود الشام مما يلي العراق.

(٤) الفن العسكري الإسلامي، د. ياسين سويد، ص ٨٣؛ تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٦٢.

(٥) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٦٣.

عليه^(١).

وكان من قوم المثنى رجلٌ يدعى: مذعور بن عديّ، خرج عن المثنى بن حارثة، وراسل الصديق، وقال له: أمّا بعد: فإنّي امرؤ من بني عجل، أحلاس الخيل - أي: يلزمون ظهورها - وفرسان الصّباح - أي: يغيرون صباحاً - ومعى رجالٌ من عشيرتي الرّجل خيرٌ من مئة رجل، ولي علمٌ بالبلد، وجراءٌ على الحرب وبصرٌ بالأرض، فولين أمر السّواد أفككه إن شاء الله^(٢).

وكتب المثنى بن حارثة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بشأن مذعور بن عديّ إلى الصديق، فقال له: ... فإنّي أخبر خليفة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ امرأً من قومي يقال له: مذعور بن عديّ أحد بني عجل في عددٍ يسير، وإنّه أقبل ينازعني، ويخالفني، فأحببت إعلامك ذلك لترى رأيك فيما هنالك^(٣)، وردّ الصديق على مذعور بن عديّ، فقال له: أمّا بعد: فقد أتاني كتابك، وفهمت ما ذكرت، وأنت كما وصفت نفسك وعشيرتك نعم العشيرة، وقد رأيت لك أن تنضمّ إلى خالد بن الوليد، فتكون معه وتقيم معه ما أقام بالعراق، وتشخص معه إذا شخص^(٤).

وكتب إلى المثنى بن حارثة: فإنّ صاحبك العجليّ كتب إليّ يسألني أموراً، فكتبت إليه امره بلزوم خالد حتّى أرى رأيي، وهذا كتابي إليك امرك ألا تبرح العراق حتّى يخرج منه خالد بن الوليد، فإذا خرج منه خالد بن الوليد فالزم مكانك؛ الذي كنت به، وأنت أهلٌ لكلّ زيادةٍ، وجديرٌ بكلّ فضلٍ^(٥).

وممّا سبق يمكننا أن نستخلص بعض الدروس والعبر والفوائد، فمنها:

١ - كان تاريخ بعث خالد إلى العراق في شهر رجب، وقيل: في المحرم سنة اثنتي عشرة^(٦).

(١) الوثائق السّياسيّة، حميد الله، ص ٣٧١.

(٢) مجموعة الوثائق السّياسيّة، ص ٣٧٢.

(٣) مجموعة الوثائق السّياسيّة، ص ٣٧٢.

(٤) المصدر السّابق نفسه.

(٥) المصدر السّابق نفسه، ص ٣٧٣.

(٦) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٤٧.

٢- الحسّ الاستراتيجي عند الصديق:

إنّ الأوامر التي وجهها الصديق إلى قائديه خالد، وعياض تشير إلى الحسّ الاستراتيجي المتقدم؛ الذي كان يملكه الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد أعطى جملة تعليمات عسكرية استراتيجية، وتكتيكية، فحدّد لكلّ من القائدين المسلمين جغرافياً منطلقاً للدخول إلى العراق، كأنّما هو يمارس القيادة من غرفة العمليات بالحجاز، وقد بسطت أمامه خارطة العراق بكلّ تضاريسها، ومسالكها، فأمر أحدهما (خالداً) بدخول العراق من أسفلها جنوباً بغرب (أي: الأبلّة)، ويأمر الثاني (عياداً) بدخول العراق من أعلاها شمالاً بشرق (أي: المسيخ)، ويأمر الاثنين معاً أن يلتقيا في وسط العراق. ولا ينسى الخليفة مع ذلك أن يأمرهما بأن لا يُكرها الناس على الانخراط في جيشهما، وأن لا يجبرا أحداً على البقاء معهما للقتال، فلم يكن التجنيد في نظره إلزامياً، إنّما كان طوعياً، واختيارياً^(١).

٣- تحديد الحيرة كموقع استراتيجي:

كان هدف الخليفة الصديق السيطرة على الحيرة، وذلك لأهميتها العسكرية، فالحيرة تقع على بعد ثلاثة أميال جنوب (الكوفة)، وتبعد عن (النجف) مسيرة ساعة للفارس إلى الجنوب الشرقي للنجف، والنّاظر على الخارطة يرى لأوّل وهلة أهمية هذا الموقع الاستراتيجي، فالحيرة كانت (عقدة مواصلات) في نقطة تتّصل بها الطُرق من جميع الاتجاهات، فهي تتّصل بالمدائن من الشرق عبر نهر الفرات وتتّصل شمالاً بـ (هيت) وتتّصل بـ (الأنبار) على جسر الأنبار، وتتّصل بالشام من الغرب، كما تتّصل بـ (الأبلّة) في منطقة (البصرة) بالعراق، وفي (كسكر) في (السّود)، وفي (النعمانية) على نهر دجلة، ومن هذا يتّضح جلياً أهمية السيطرة على هذا الموقع المهمّ، وكان الصديق مصيباً عندما جعلها هدفاً لجيشين، هما جيش خالد، وجيش عياض، فالحيرة كانت قلب العراق، وأقرب منطقة مهمّة إلى المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسيّة، التي كانت تدرك هذه القيمة الاستراتيجية للحيرة، ولذا

(١) الفن العسكري الإسلامي، ص (٨٣، ٨٤).

كانت ترسل القوَّات باتجاهها دائماً لاستعادتها، لأنَّ المسيطر على الحيرة يؤمِّن سيطرته على المنطقة الكائنة غربي الفرات بأجمعها، وهي عدا هذا كانت مهمّة للقوات الإسلاميّة في قتالها الرُّوم في بلاد الشَّام^(١).

إنَّ تخطيط الصّدِّيق للوصول إلى الحيرة في الفتوحات يُعرف في الخطط العسكريّة للجيوش الحديثة بحركة فكّي الكمّاشة، أو عملية الالتفاف الدَّائري بأكثر من جيشٍ، وهذا يؤكّد: أنَّ عمليّة فتح العراق، وضم أطراف شبه الجزيرة العربيّة عن طريق الجهاد لم تكن محض مصادفة، أو نتيجةً لمجريات الحوادث^(٢).

ويظهر للباحث فقه أبي بكرٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) في التَّخطيط الجهادي بأنّه كان يركّز على اتّخاذ القرارات بتنظيم الجيوش، وتوجيهها، وتحديد واجباتها، وأهدافها، وتنسيق التَّعاون فيما بينها، وتحقيق التَّوازن على مسارح العمليّات، غير أنّه يترك لقادته حرّيّة العمل العسكري لإدارة العمليّات القتاليّة بالأساليب؛ التي يرونها مناسبة، وبالطَّرائق؛ التي تستجيب لما يجابهونه من مواقف^(٣).

٤- نكران الدّات عند المثنّى بن حارثة:

ومن المواقف التي تذكر في الجهاد في العراق ما كان للمثنّى بن حارثة الشَّيباني، وكان يقاتل الأعداء في العراق بقومه، ولما علم بذلك أبو بكر سرّه ما كان منه، فأمره على مَنْ بناحيته، وذلك قبل مجيء خالد، فلمّا توجهت همّة الصّدِّيق لغزو فارس رأى أنَّ خالدًا أجدَر القواد بهذه المهمّة، فوجهه لها، وكتب كتاباً إلى المثنّى يأمره بالانضمام إلى خالدٍ، وطاعته، فما كان منه إلا أن سارع في الاستجابة، ولحق بخالدٍ، هو وجيشه، وإنَّ هذا موقفٌ يُذكر للمثنّى حيث لم يَغُرّه كثرة جيشه، ولا كونه أقدم من خالدٍ في إمرة جيوش العراق، فلم يحمله

(١) معارك خالد بن الوليد ضدَّ الفرس، عبد الجبار السامرائي، ص ٣٥.

(٢) أبو بكر الصّدِّيق، نزار الحديثي، وخالد الجنابي، ص ٤٥.

(٣) مشاهير الخلفاء والأمراء، الصّدِّيق، بسام العسلي، ص ١٢٧.

ذلك على أن يرى أنه أحقُّ بالقيادة من خالد^(١).

قال الدكتور محمد الصادق عرجون: ثم كتب أبو بكر إلى المشني بن حارثة ومن معه كتاباً يأمره فيه بطاعة خالد، فأنحدر المشني إلى خالد جواداً كريماً مطوعاً؛ وكان جند خالد الذين ساروا معه في هذا الوجه عشرة آلاف، ولحقه المشني في ثمانية آلاف^(٢).

٥- احتياط الصديق لأمر الجهاد في سبيل الله:

أرسل أبو بكر إلى خالد يأمره بغزو فارس بادئاً بثغر أهل الهند والسند، وهو يومئذ الأبلّة، ليأمن أن يؤتى المسلمون من خلفهم، ثم وجه عياض بن غنم رديفاً لخالد، وأمره أن يغزوها من الشمال بادئاً بالمصيخ، وأمرهما أن يستنهضا من قاتل من أهل الردة وأن لا يستعينا بمرتد وأن يسير بمن يحب الجهاد معهما في هذا الوجه، ولا يستكرها أحداً من الناس، فلما أعلننا ذلك في الناس انصرف كثير ممن كان معهما فاستمدا أبا بكر، فأمد عياضاً بعد يغوث الحميري، وأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي، فقال له بعض من كان حاضره: أتمدُّ رجلاً انفض عنه جنوده برجل واحد؟ فقال: لا يهزم جيش فيهم مثل هذا! وقد صدق أبو بكر، وكان بصيراً بالرجال، فلقد كان القعقاع مع خالد جيشاً في إهاب رجل، ورجلاً في عزيمة جيش^(٣).

وقد جاء في كتاب أبي بكر لخالد، وعياض بن غنم أن استنفروا من قاتل أهل الردّة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يغزونا معكم أحد ارتدّ حتّى أرى رأيي، فلم يشهد الأيّام مرتدّاً^(٤)، يعني في أوّل الأمر، وقد شهدوا الأيّام بعد ذلك، حينما ثبتت استقامتهم، كما سيأتي بإذن الله تعالى. وهذا الموقف من أبي بكر مبنيّ على الاحتياط لأمر الجهاد في سبيل الله تعالى، حتّى لا يشترك فيه طلاب الدنيا، فيكونوا سبباً في فشل

(١) التاريخ الإسلامي (٩/ ١٣٠).

(٢) خالد بن الوليد سيف الله وبطل الإسلام، محمد الصادق عرجون، ص ٢٧٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٠.

(٤) تاريخ الطبري (٤/ ١٦٣).

المجاهدين، واختلال صفوفهم.

وهذا درسٌ تربويٌّ من أبي بكرٍ استفادة من الدُّروس النبويَّة الغالية، وذلك في تنقية الصَّف الإسلامي من الشَّوائب، وتوحيد هدفه حتَّى يكون خالصاً لوجه الله تعالى، فيأمن بذلك من الانتكاسات الخطيرة التي تحدث بسبب تعدُّد الأهداف، ولقد حرص أبو بكر على هذا المبدأ السَّامي مع شدَّة احتياج الجيش الإسلامي آنذاك إلى الرِّجال، ممَّا يدلُّ على قناعته التَّامة بأن العبرة بسموِّ الهدف، والإخلاص، لا بكثرة العدد^(١).

٦- الرِّفق بالناس، والتَّوصية بفلاحي العراق:

وفي قول الصَّدِّيق لخالِدٍ: وتألَّف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم^(٢). وهذا القول بيَّن لنا الهدف من الجهاد الإسلامي خارج بلاد الإسلام، فهو جهاد دعوي، يقصد به دعوة النَّاس إلى الدُّخول في الإسلام، ولمَّا كانت الدَّعوة غير ممكنة مع بقاء الحكومات، فإنَّه لا بدَّ من إزالتها؛ لتمكين شعوبها من الدُّخول في الإسلام، وهذا الهدف ظاهرٌ في جميع المعارك؛ التي خاضها الصَّحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - حيث كانوا يدعون أعداءهم إلى الإسلام، فيكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، فإن أبوا؛ فليستسلموا لحكم الإسلام، ويدفعوا الجزية مقابل حماية المسلمين لهم، فإن أبوا فلا بدَّ من القتال حتَّى تكون كلمة الله هي العليا^(٣)، وقد وصَّى الصَّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قادة جيوشه بفلاحي العراق، وأهل السَّواد، حرصاً منه على هداية النَّاس، وعلى منابع الثَّروة، وعلماً منه بأنَّ العمران لا يقوم بدون دولة، كما أنَّ الفلاحة مصدر من مصادر الثَّروة، وهي المتصلة بحياة النَّاس، ومعايشهم^(٤).

٧- لا يهزم جيش فيهم مثل هذا:

عندما استمدَّ خالدُ أبا بكرٍ أثناء سيره للعراق أمده الصَّدِّيق بالقعقاع بن عمرو التَّميمي

(١) التاريخ الإسلامي (٩/ ١٣١).

(٢) تاريخ الطبري (٤/ ١٥٩).

(٣) التاريخ الإسلامي (٩/ ١٣٠).

(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٤٢.



فقيل له: أتمدُّ رجلاً قد ارفضَّ عنه جنوده برجلٍ؟ فقال: لا يهزم جيش فيهم مثلُ هذا^(١). وهذا فراسةٌ من أبي بكر بيَّنتها أحداثُ العراق بعد ذلك، وقد كان أبو بكر أعلم النَّاسِ بالرجال، وما يتَّصفون به من طاقاتٍ، وكفاءاتٍ مختلفة^(٢).

ثانياً: معارك خالد بن الوليد بالعراق:

قام خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدور فعال ومؤثر في أعمال الهدم في الإمبراطورية الفارسية وتدمير جيوشها، ووضع اللبنة الأولى للدولة الإسلامية على هذه الأرض. وخاض الفتوحات في هذه البلاد وتحت إمرته نحو ١٨ ألف مقاتل من الصحابة وغيرهم من المسلمين، وتجلت بشدة عبقرية خالد العسكرية في هذه الفتوحات^(٣).

وللإسلام - في طبيعته النظرية والعملية - شريعة ودولة:

وقد استقرت أسسه، وكمل بنيانه باعتباره شريعة في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا الجانب هو المعني بقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وبقي شطره باعتباره دولة تقوم على حماية الشريعة وتنفيذ نظمها وقوانينها، وبسط سلطانها ضماناً لإقرار الحق والعدل بين أبناء المجموعة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها؛ ديناً في عنق هذه الأمة الإسلامية الموحدة على أنها هي القاعدة العظمى لدولة الإسلام الكبرى^(٤).

(١) تاريخ الطبري (٤/ ١٦٣).

(٢) التاريخ الإسلامي (٩/ ١٢٩).

(٣) خالد بن الوليد قائد لم يهزم في معركة، ص ٣٩٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٩٠.

ومن هنا ترك الإسلام أمر نظام الحكم في الدولة تختاره على مقتضى أطوار الحياة الصالحة في مدارج الزمن، بعد أن ضمن لها مقومات البناء، وحاطها بسياس من الضمانات القوية الثابتة^(١).

كانت واقعة اليمامة أعظم وقائع الإسلام بالمرتدين من العرب، وكانت نهاية تلك الحروب الداخلية في جزيرة العرب، وبالفراغ منها تم للإسلام إنشاء قاعدة في بناء دولته الكبرى، وقد اعتمدت هذه القاعدة على وحدة الغاية، ووحدة الدين^(٢).

كانت الإمبراطورية الفارسية لا نظير لها من عدة وجوه، ولم تعمر إمبراطورية أخرى في التاريخ مثلها من حيث مستوى الثقافة والحضارة والقوة العسكرية التي بلغت. وكانت العراق إحدى أراضي الإمبراطورية الفارسية، وكانت في جزأها الغربي والجنوبي أرضاً عربية^(٣).

وكان العرب معروفين في العراق منذ أيام بختنصر، لكنهم لم يكونوا مالكين لأي من الأراضي آنذاك، ولم تأت هجرة جديدة إلى العراق من القبائل العربية إلا في أوائل ظهور المسيحية، حيث قدمت موجة من اليمن وبدأوا بالتمتع بالسلطة والنفوذ، وكان من بين زعماء العرب المهاجرين مالك بن فحم، الذي أعلن نفسه ملكاً، وبدأ يحكم الجزء الغربي من العراق، وبعد مالك بجيلين، انتقل العرش إلى عمرو بن عدي من قبيلة لخم الذي بدأ الأسرة المالكية اللخمية، والتي كانت تسمى في بعض الأحيان آل منذر، وقد حكم ملوك هذه الأسرى عدة أجيال تابعين للإمبراطور الفارسي^(٤). ولما أرسل أبو بكر خالداً إليها كانت أرضاً يحتلها الفرس والعرب، ويحكمها البلاط الفارسي. كان جيش الفرس - ويضم إليه العرب الملحقون عليه - أقوى

(١) المصدر السابق، ص ٣٩٠.

(٢) خالد بن الوليد سيف الله وبطل الإسلام، ص ٢٦٨.

(٣) خالد بن الوليد دراسة عسكرية تاريخية، ص ٢٤٢.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٣.

آلة عسكرية مرهوبة الجانب في عصرها^(١).

ثم بدأ الضعف يدب في جسدها حتى نخر عظامها وأبقاها هيكلًا فارغًا بالرغم من وجود جيش قوي يحيي حدودها، فالصراع السياسي كان قد استفحل، ونتج عن ذلك وجود تيارات سياسية متنافسة تسعى للوصول إلى الحكم بغض النظر عن الثمن والأسلوب، وهذا أوجد ثغرات في جسد الدولة فتنبه إليها أبو بكر سريعًا ووجه خالدًا، وعندما وصل العراق والتقى بالمشني، وكان معه ثمانية آلاف مقاتل، أصبح عدد جيشه ثمانية عشر ألف مقاتل، زحف بهم داخل العراق، فتتالت معاركه مع الفرس، حتى بلغت خمسة عشر معركة، لم يهزم في واحدة منها قط^(٢).

لا شك أن صيت خالد كان قد سبقه إلى قلوب أعدائه قبل أعينهم فمهد له طريق النصر وقد سبقه أيضًا ما فعله زعيم قبائل بكر بن وائل هانئ بن مسعود في ذي قار، وهذا ما سهل عليه المواجهة؛ لأن معنويات المقاتل العربي كان يردفها سقوط هيبة الفرس في ذي قار حيث تشتت جيشهم في الصحراء وهام قادتهم حتى ماتوا عطشًا^(٣).

إن المواجهة مع الفرس في العراق سوف تشكل فاتحة عصر جديد، أو ما يعرف بمرحلة الفتوحات، التي لن تقتصر على العراق فقط، بل سوف تمتد على مدى قرون، لتنتشر لواء الإسلام من وسط آسيا حتى سلسلة جبال اليربيري، وستظل هذه المرحلة مادة غنية للمفكرين والمؤرخين وستكون أسبابها ودوافعها موضع خلاف عند هؤلاء، لأن المدارس التاريخية مختلفة في منطلقاتها وأهدافها لذلك سوف يعتمد كل فريق إلى استنتاج ما يناسب خلفيته الفكرية، وما أوصله إليه علمه واجتهاده^(٤).

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٣.

(٢) خالد بن الوليد عبقرية القيادة، ص ١٥٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٠.

أمر أبو بكر خالداً على من معه ليقاتل أهل فارس، فلما بلغه أنباء نصره بدلتا النهرين رأى أن يمدّه ليتابع غزواته، لذلك أمر خالد بن الوليد أن يجمع بقية جنده وأن يسير إليه، وأن تكون القيادة العليا لخالد بطبيعة الحال، ولقد أمر عياض بن غنم أن يسير إلى دومة الجندل ليخضع أهلها المتمردين ثم يسير منها شرقاً إلى الحيرة فإن بلغها قبل خالد فالأمر فيها له، وخالد فيها من قواده، وإن سبقه خالد إليها فالأمر والقيادة لخالد وعياض من قواده^(١). وكان العرب في العراق يعملون فلاحين في أرضه، ثم ينالهم القليل من خير، أما وافر الخير فيذهب إلى الدهاقين الفرس الذين كانوا يذيقون العلم أنواع الظلم، وقد أصدر أبو بكر أوامره إلى قواده بالعراق ألا ينالوا هؤلاء العرب الفلاحين بسوء؛ لا يقتلون منهم أحداً ولا يأخذون منهم أسرى، ولا يسيئون إليهم في أمر يتصل بهم، فهم يشعرون بالظلم تحت نير فارس فيجب أن يشعروا بزوال هذا الظلم حين مقدم المسلمين الفاتحين، ويجب أن يعمهم العدل على أيدي المسلمين^(٢).

لم يلبث خالد أن قدم العراق، ومعه ألفا رجل ممّن قاتل المرتدين، وحشد ثمانية الاف رجل من قبائل ربعة، وكتب إلى ثلاثة من الأمراء في العراق قد اجتمعت لهم جيوش لغرض الجهاد، وهم مذعور بن عدّيّ العجلي، وسلمى بن القين التميمي، وحرملة بن مريطه التميمي، فاستجابوا، وضمّوا جيوشهم التي بلغ تعدادها مع جيش المثنى ثمانية الاف، فأصبح جيش المسلمين ثمانية عشر ألفاً^(٣)، وقد اتفقوا على أن يكون مكان تجمع الجيوش الأبلّة^(٤)، وقبل أن يسير خالد إلى العراق كتب إلى هرمرز صاحب ثغر الأبلّة كتاب إنذار، يقول فيه: أمّا بعد: فأسلم تسلم، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمّة، وأقرّر بالجزية، وإلا فلا تلو من إلا نفسك، فقد جئتكم بقوم يحبّون الموت، كما تحبّون الحياة^(٥).

(١) حياة أبي بكر الصديق، ص ١٨١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨١.

(٣) تاريخ الطبري (١٦٣/٤).

(٤) أبو بكر الصديق، خالد الجنابي، نزار الحديثي، ص ٤٦.

(٥) تاريخ الطبري (١٦٤/٤).

وقد لجأ إلى هذا الأسلوب وهو نوعٌ من الحرب النفسِيَّة؛ لِيُدخل الخوف، والرُّعب في قلب هرmez، وجنوده، وليوهن من قوَّتهم، ويضعف من عزيمتهم، وحين قارب خالدُ العدوَّ؛ جعل الجيش ثلاث فرق، وأمر أن تسلك كلُّ فرقة طريقاً، ولم يحملهم على طريق واحدٍ، تحقيقاً لمبدأ مهمٍّ من مبادئ الحرب، وهو أمن القطعات، فجعل المشنَّى على فرقة المقدِّمة، ثمَّ تلتها فرقةٌ عليها عديُّ بن حاتم الطائي، وخرج خالدٌ بعدهما، وواعدهما الحضير^(١)، ليجتمعوا به، ويصمدوا لعدوِّهم^(٢).

١ - معركة ذات السَّلاسل:

سمع هرmez بمسير خالدٍ، وعلم: أنَّ المسلمين تواعدوا الحضير، فسبقهم إليه، وجعل على مقدِّمته القائدين: قبا، وأنو شجيجان، ولما بلغ خالدٌ: أنَّهم يَمِّموا الحضير، عدل عنها إلى كاظمة، فسبقه هرmez إليها، ونزل على الماء، واختار المكان الملائم لجيشه، وجاء خالدٌ، فنزل على غير ماءٍ، فقال لأصحابه: حطُّوا أثقالكم، ثمَّ جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرنَّ الماء لأصبر الفريقين، وأكرم الجندين^(٣).

وحطَّ المسلمون أثقالهم، والخيـل وقوف، وتقدَّم الرَّاجلون، وزحفوا إلى الكفَّار، ومنَّ الله تعالى بكرمه وفضله على المسلمين بسحابةٍ، فأمطرت وراء صفوف المسلمين، ونهلوا من غدرانها فتقوَّى بذلك المسلمون، وهذا مثلٌ من الأمثلة الكثيرة الشَّاهدة على معيَّة الله جَلَّ جَلالُه لأوليائه المؤمنين بنصره، وإمداده، وواجه المسلمون هرmez، وكان مشهوراً بالخُبث، والسُّوء، حتى ضُرب المثل بخبثه، فعمل مكيدةً لخالدٍ، وذلك أنَّه اتفق مع حاميته على أن يبارز خالداً ثمَّ يغدروا به، ويهجموا عليه، فبرز بين الصَّفين، ودعا خالداً إلى البراز، فبرز إليه، والتقيا فاختلعا ضربتين واحتضنه خالدٌ، فحملت حامية هرmez على خالدٍ، وأحدقوا به، فما شغله ذلك عن قتل هرmez، وما أن لمح ذلك البطل المغوار القعقاع بن عمرو حتَّى

(١) الحضير: ماء لباهلة على أربعة أميال من البصرة (المعجم، ياقوت، ٢/ ٢٧٧).

(٢) أبو بكر الصديق، خالد الجنابي، ص ٤٦.

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/ ٥١)؛ تاريخ الطبري (٤/ ١٦٥).

حمل بجماعةٍ من الفرسان على حاميةٍ هرمز، وكان خالد يجالدهم، فأناموهم^(١)، وحمل المسلمون من وراء القعقاع حتّى هزموا الفرس.

وهذا هو أوّل المشاهد التي ظهر فيها صدق فراسة أبي بكرٍ حينما قال عن القعقاع: (لا يهزم جيشٌ فيه مثل هذا)^(٢) وأمّا خالد؛ فقد ضرب أروع الأمثال في البطولة، ورباطة الجأش، فقد أجهز على قائد الفرس وحاميته من حوله، فلم يستطيعوا تخليصه منه، ثمّ ظلّ يجالدهم حتّى وصل إليه القعقاع ومن معه، ففضى عليهم، وقد كان الفرس ربطوا أنفسهم بالسّلاسل حتّى لا يفرّوا فلم تغن عنهم شيئاً أمام اللّيوث الباسل، وسمّيت هذه المعركة بذات السّلاسل^(٣).

وغنم المسلمون من الفرس حمل ألفٍ بغير، وبعث خالدٌ سرايا تفتح ما حول الحيرة من حصونٍ، فغنموا أموالاً كثيرةً، ولم يعرض خالد لمن لم يقاتلوه من الفلّاحين بل أحسن معاملتهم كما أوصاه الصّدّيق، وأبقاهم في الأرض؛ التي يفلحونها، ومكّنهم من إنتاجها ومتّعهم بثمرات عملهم، فمن دخل في الإسلام حدّد له نصيب الزّكاة، ومن بقي على دينه؛ فرض عليه الجزية، وهو أقلُّ بكثيرٍ مما كان ينهبه المالكون الفرس، ولم ينتزع الأرض من أيدي أصحابها الفرس، ولكنه أنصف العاملين فيها، فأحسّوا بأنّ عنصراً جديداً من العدل، والإخاء الإنسانيّ يشرف عليهم من خلال هذا الفتح المجيد، وأرسل خالدٌ خمس الغنائم والأموال إلى الصّدّيق، ووَزَعَ الباقي على المجاهدين، وكان ممّا أرسله إلى الصّدّيق قلنسوة هرمز، ولكن الصّدّيق أهداها إلى خالدٍ مكافأةً له على حسن بلائه^(٤)، وكانت قيمتها مئة ألف، وكانت مفصّصة بالجواهر، فقد كان أهل فارس يغنون قلانسهم على قدر أحسابهم في

(١) تاريخ الطبري (٤/ ١٦٥).

(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٦٣).

(٣) التاريخ الإسلامي (٩/ ١٣٣)؛ تاريخ الطبري (٤/ ١٦٥).

(٤) الصّدّيق أوّل الخلفاء، ص ١٣١.

عشائره، فمن تمَّ شرفه فقيمة قلنسوته مئة ألف، فكان هرمز ممَّن تمَّ شرفه^(١) في الفرس.

٢- معركة المذار (الثَّني):

كان هرمز قد كتب إلى كسرى بكتابٍ بخبر خالدٍ، فأمدَّه كسرى بجيش بقيادة (قارن)، ولكنَّ هرمز استخفَّ بجيش المسلمين، فسارع إليهم قبل وصول قارن، فنكَب، ونكَب جيشه، وهرب فلول المنهزمين، فالتقوا بجيش (قارن) وتدامروا فيما بينهم، وتشجعوا على قتال المسلمين، وعسكروا بمكان يسمَّى المذار، وكان خالد قد بعث المثنى بن حارثة وأخاه المعنى في آثار القوم، ففتحا بعض الحصون، وعلما بمجيء جيش الفرس، فأبلغا خالدًا الخبر، وكتب خالدٌ إلى أبي بكرٍ بمسيره إليه، وسار وهو مستعدٌّ للقتال؛ حتَّى لا يفاجأ بهم، والتقى المسلمون معهم في (المذار) فاقتتلوا، والفرس قد أغضبهم، وأثار حفيظتهم ما وقع لهم قبل ذلك، وخرج قائدهم (قارن) ودعا إلى البراز، فبرز إليه خالدٌ، ولكن سبقه إليه معقل بن الأعمش بن النَّبَّاش فقتله، وكان قارن وضع على ميمنته (قبا) وعلى ميسرته (أنو شججان) وهما من القوَّاد الذين حضروا اللقاء الأوَّل وفروا من المعركة، فتصدَّى لهما بطلان من أبطال المسلمين.

فأمَّا قبا؛ فقتله عديُّ بن حاتم الطَّائِي، وأمَّا أنوسان فقتله عاصم بن عمرو التَّميمي، واشتدَّ القتال بين الفريقين، ولكنَّ الفرس انهزموا بعد مقتل قادتهم، وقتل منهم ثلاثون ألفًا، ولجأ بقيَّةُهم إلى السُّفن، فهربوا عليها، ومنع الماء المسلمين من ملاحقتهم، وأقام خالد بالمذار، وسلَّم الأسلاب لمن سلبها بالغَّة ما بلغت، وقسم الفياء، ونفَّل من الأخماس أهل البلاء، وبعث ببقية الأخماس^(٢) إلى المدينة.

٣- معركة الولجة:

وصل نبأ نكبة الفرس في المذار إلى كسرى، فبعث الأندر زغر على رأس جيشٍ عظيمٍ،

(١) تاريخ الطبري (٤/١٦٦).

(٢) تاريخ الطبري (٤/١٦٨)؛ التاريخ الإسلامي (٩/١٣٤).

وأردفه بجيش آخر عليه بهمن جذويه، وتحرك الأندر زغر من المدائن حتّى انتهى إلى كسكر ومنها إلى الولجة، وخرج بهمن جذويه سالكاً وسط السّواد يريد أن يحشر جيش المسلمين بينه وبين الأندر زغر، واستطاع أن يحشر في طريقه عدداً من الأعوان والدّهاقين، وتجمّعت القوّة

الفارسية في الولجة، وعندما شعر الأندر زغر: أنّ حشوده أصبحت كبيرة قرّر الرّحف على خالد، ولمّا بلغ خالد، وهو بالثّني (مكان قرب البصرة ومعناه منعطف النّهر، والجبل) تجمّع الفرس، ونزلهم الولجة رأى: أنّ من الأفضل للمسلمين أن يهجموا على هذه الحشود الكبيرة من ثلاث جهات حتّى يفرّقوا جموعهم، وتكون المفاجأة للفرس مربكة، وأخذ يعدّ العدة لتنفيذ خطة الهجوم، ولكي يؤمّن خطوطه الخلفية أمر سويد بن مقرّن بلزوم الحفير، وتحرك بجيشه حتّى وصل الولجة وبعد أن قام باستطلاع وافٍ للمنطقة؛ وجد: أنّ ميدان المعركة أرضٌ مستويةٌ واسطةٌ تصلح للقتال، وتسمح بحريّة الحركة، ولما كان خالد قد قرر أن يهاجم قوّة الفرس من ثلاث جهات فقد نفذ خطّته، وبعث بفرقتين لمهاجمة حشود الفرس من الخلف، والجانبين، وبدأت المعركة، واشتدّ القتال بين الفريقين، وشدّد خالد بهجومه من المقدّمة، وفي الوقت المناسب انقضّ الكمينان على مؤخّرة جيش العدو، فحلت به الهزيمة المنكرة، وفرّ الأندر زغر مع عددٍ من رجاله، ولكنهم ماتوا عطشاً^(١)، وقام خالد في النّاس خطيباً، فرغّبهم في بلاد الأعاجم، وزهّدهم في بلاد العرب، وقال: ألا ترون ما هاهنا من الطعمات؟ وبالله لو لم يلزمنّا الجهاد في سبيل الله، والدّعاء إلى الإسلام، ولم يكن إلّا المعاش؛ لكان الرأي أن نقاتل على هذا الرّيف حتّى نكون أولى به، ونولّي الجوع والإقلال من تولاه ممّن أثقل عمّا أنتم عليه. ثمّ خمّس الغنيمة، وقسّم أربعة أحماسها، وبعث الخمس إلى الصّدّيق، وأسر من أسر من ذراري المقاتلة، وأقرّ الفلاحون بالجزية^(٢).

وفي خطبة خالد بن الوليد للنّاس إشارة إلى: أنّ العرب وهم في جاهليتهم إضافةً إلى

(١) الكامل لابن الأثير (٥٢/٢)؛ أبو بكر الصديق، خالد الجنابي، ص ٤٨.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٥٠.

أنهم ليسوا من طلاب الآخرة فإنهم لم يظفروا بالدنيا لتفرقهم، وتناحرهم فيما بينهم، فخالد يقول: نحن طلاب الآخرة، ولنا هدفٌ سامٍ نسعى إليه، من أجله ندعو، ومن أجله نجاهد، ولو فرض أننا لا نحمل هذا الهدف، ولا نجاهد من أجله، فإنَّ العقل يقتضي أن نقاتل من أجل أن نصلح أحوالنا المعيشية، وخالد حينما يذكر ذلك لا يجعل هذا الموقف ثنائياً مع الهدف السامي الذي ذكره، وإنما يذكر ذلك على أنه مجرد افتراض يفرض نفسه لو لم يوجد الهدف السامي المذكور، وكأنَّه يقول: إذا كنَّا سنقارع هؤلاء من أجل هذا الهدف الدنيوي أفلا نقارعهم من أجل الهدف الأخوي، وابتغاء مرضاة الله جلَّ، وعلا ؟

وهذا الكلام يشحذ الهمم، ويقوّي العزم، ويحيي القلب، ويفجّر الطاقات، فتنتطلق بعد ذلك النفوس المؤمنة مجاهدة في سبيل الله - تعالى - بكلِّ طاقتها، وإمكاناتها، وقدراتها^(١).

وجاء في رواية: أن في يوم الولجة بارز خالدٌ رجلاً من أهل فارس يعدل بألف رجل يقتله، فلما فرغ اتكأ عليه، ودعا بغدائه^(٢)، وهذا التصرف الجليل من سيف الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فيه إذلالٌ للفرس، وتحطيمٌ لجبروتهم، وتغطرسهم، وإضعافٌ لعزائمهم^(٣).

٤ - معركة أليس، وفتح أمغ يشي

في هذه الموقعة انضمَّ بعض نصارى العرب إلى الأعاجم، وصاروا عوناً للفرس على المسلمين، وكان عليهم عبد الأسود العجلي، وعلى الفرس جابان، وكان قد أمره بهمن جذويه ألا ينزل المسلمين إلا أن يعجلوه، وبعد أن بلغ خالد تجمع نصارى العرب، وعرب الضاحية من أهل الحيرة؛ سار إليهم، وكان همُّه متّجهاً لمواقعهم، ولا علم له بانضمام الفرس لجموع العرب، فلما أقبلت جنود المسلمين؛ طلب جابان من جنده مهاجمتهم، فأظهروا عدم الاكتراث بخالد، والتَّهاون بأمره، وتداعوا إلى الطَّعام إلا أنَّ خالداً لم يدعهم يهنؤون بطعامهم، واقتتلوا أشدَّ القتال، وقد زاد في كلب الأعداء وشدَّتْهم ما يتوقَّعون من لحاق بهمن

(١) التَّاريخ الإسلامي (١٣٩/٩).

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٥٠.

(٣) التَّاريخ الإسلامي (١٣٨/٩).

جذويه بهم في مددٍ كبير، وصبر المسلمون على هذا القتال العنيف، وقال خالد: اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ إِنْ مَنَحْتَنَا أَكْتَا فَهُمْ أَلَا أَسْتَبْقِي مِنْهُمْ أَحَدًا قَدَرْنَا عَلَيْهِ حَتَّى أَجْرِي نَهْرَهُمْ بَدَمَائِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ كَشَفَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَمِنْهُمْ أَكْتَا فَهُمْ، فَأَمَرَ خَالِدٌ مَنَادِيَهُ، فَنَادَى فِي النَّاسِ: الْأَسْرُ، الْأَسْرُ! لَا تَقْتُلُوا إِلَّا مَنْ امْتَنَعَ، فَأَقْبَلَتِ الْخِيُولُ بِهِمْ أَفْوَاجًا مُسْتَأْثَرِينَ يَسَاقُونَ سَوْفًا، وَقَدْ وَكَّلَ بِهِمْ رَجَالًا يَضْرِبُونَ أَعْنَاقَهُمْ فِي النَّهْرِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ يَوْمًا وَلَيْلَةً وَطَلَبُوهُمْ الْغَدَ وَبَعْدَ الْغَدِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى النَّهْرَيْنِ، وَمَقْدَارُ ذَلِكَ مِنْ كُلِّ جَانِبِ أُلَيْسَ، فَضْرَبَ أَعْنَاقَهُمْ، وَقَالَ لَهُ الْقَعْقَاعُ، وَأَشْبَاهُ لَهُ: لَوْ أَنَّكَ قَتَلْتَ أَهْلَ الْأَرْضِ لَمْ تَجِرْ دِمَاؤُهُمْ، إِنَّ الدِّمَاءَ لَا تَزِيدُ عَلَى أَنْ تَرْتَقِرَ مِنْذُ نَهَيْتَ عَنِ السَّيْلَانِ، وَنَهَيْتَ الْأَرْضَ عَنِ نَشْفِ الدِّمَاءِ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهَا الْمَاءَ تَبَرَّ يَمِينِكَ، وَقَدْ كَانَ صَدَّ الْمَاءُ عَنِ النَّهْرِ، فَأَعَادَهُ فَجَرَى دِمَاً عَبِيطًا فَسَمِّيَ نَهْرُ الدِّمِ لَذَلِكَ الشَّأْنُ^(١).

وَلَمَّا هُزِمُوا، وَأَجْلُوا عَنْ عَسْكَرِهِمْ، وَرَجَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ طَلَبِهِمْ، وَدَخَلُوهُ؛ وَقَفَ خَالِدٌ عَلَى الطَّعَامِ فَقَالَ: فَقَدْ نَفَلْتُمُوهُ، فَهُوَ لَكُمْ. وَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَى عَلَى طَعَامٍ مُصْنُوعٍ نَفَلَهُ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ لِعِشَاءِهِمْ بِاللَّيْلِ، وَجَعَلَ مِنْ لَمْ يَرِ الْأَرْيَافَ، وَلَا يَعْرِفُ الرَّقَاقَ، يَقُولُ: مَا هَذِهِ الرَّقَاقُ الْبَيْضُ! وَجَعَلَ مَنْ قَدْ عَرَفَهَا يَجِيبُهُمْ، وَيَقُولُ لَهُمْ مَا زَحَا: هَلْ سَمِعْتُمْ بَرْقِيقَ الْعِيشِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: هُوَ هَذَا؛ فَسَمِّيَ الرَّقَاقُ وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَسْمِيهِ الْقَرَى^(٢). وَبَعْدَ أَنْ فَرَّغَ خَالِدٌ مِنْ أُلَيْسَ نَهَضَ حَتَّى أَتَى أَمْعُ يَشِيَا، وَقَدْ جَلَا عَنْهَا أَهْلُهَا، وَأَعْجَلُوا عَمَّا فِيهَا، وَتَفَرَّقُوا فِي السَّوَادِ، فَأَمَرَ بِهَدْمِهَا، وَهَدَمَ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ فِي حِيزِهَا، وَأَصَابُوا بِهَا مَا لَمْ يَصِيبُوا مِثْلَهُ، فَقَدْ بَلَغَ سَهْمُ الْفَارِسِ أَلْفًا وَخَمْسَمِئَةَ دِرْهَمٍ سِوَى أَنْفَالِ أَهْلِ الْبَلَاءِ، وَلَمَّا وَصَلَتِ الْأَخْمَاسُ، وَأَخْبَارُ النَّصْرِ إِلَى الصَّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَا صَنَعَهُ خَالِدٌ، وَالْمُسْلِمُونَ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ! - يَخْبِرُهُمْ بِالَّذِي أَتَاهُ - عَدَا أَسْدُكُمْ عَلَى الْأَسَدِ فَغَلَبَهُ عَلَى خِرَازِيلِهِ^(٣)، أَعْجَزَتِ النِّسَاءُ أَنْ يَنْسِلْنَ مِثْلَ خَالِدٍ^(٤)؟! وَكَانَ خَالِدٌ قَدْ بَعَثَ بِالْخَبَرِ مَعَ رَجُلٍ يَدْعَى جَنْدَلًا

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٧٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، (٤/١٧٣).

(٣) الخراذيل: قطع اللحم (٤/١٧٥).

(٤) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٧٥.



من بني عجل، وكان دليلاً صارماً، فقدم على أبي بكرٍ بالخبر وبفتح أُنس، وقدر الفيء، وبعده السبي، وبما حصل من الأخماس، وبأهل البلاء من الناس، فلمّا قدم على أبي بكرٍ، فرأى صرامته، وثبات خبره، قال: ما اسمك؟ قال: جندل، قال: وبهاً جندل:

نَفْسُ عَصَامٍ سَوَدَتْ عِصَامًا وَعَوَّدَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا
وأمر له بجاريةٍ من ذلك السبي، فولدت له^(١).

وفي قول الصديق عن خالدٍ: عدا أسدكم على الأسد، فغلبه على خراذيله، أعجزت النساء أن ينسلن مثل خالد^{(٢)؟}! وسام شرفٍ لخالدٍ، واعترافٌ بالجميل، ورفعٌ لأهل البلاء، والفضل، والهمم العالية، ودفعٌ لأصحاب الهمم الضعيفة ليضاعفوا من جهودهم وينافسوا على معالي الأمور ومكارمها^(٣). وهذا القول من أبي بكر - وكان أعلم بالرجال - أعظم شهادة، وأجل تقدير يناله رجلٌ في تاريخ الإسلام، فالصديق وهو خليفة المسلمين الأعظم لا يرى لخالدٍ رَحِمَ اللَّهِ عَنْهُ في الناس عدلاً في عبريته، وشجاعته، ولا نظيراً في بطولته، ومهارته، وحسبك بها لخالدٍ من الصديق^(٤).

وقد جاء في إحدى الروايات التي ذكرها الطبري في تاريخه أنّ خالد ابن الوليد قد أسر الألوف منهم (ذكر بعضهم أنهم سبعون ألفاً) ثم ساقهم إلى نهر وقتلهم عليه حتى سال بدمائهم^(٥). وقالوا قد نكل خالد بالمقاتلين بعد أن أسرهم، وهذا مخالف لما أمرت به الشريعة.

أولاً: هذه رواية ضعيفة عند التحقيق العلمي، قال الطبري: حدثنا عبيد الله، قال: حدثني عمي، قال: حدثنا سيف، عن محمد بن طلحة، عن أبي عثمان وطلحة بن الأعلم عن المغيرة

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٧٤.

(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٧٥).

(٣) التّاريخ الإسلامي (٩/ ١٤٤).

(٤) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص ٢١٦.

(٥) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٥٦.

بن عتيبة. وفي هذا السند راو متروك متهم بالوضع، وهو: (سيف بن عمر التميمي)، قال عنه أبو حاتم: متروك. وقال أبو داود: ليس بشيء. وقال أبو داود: اتهموه بالزندقة^(١). إنّ المشهور عند الأئمة أنهم يتساهلون بالأخبار التاريخية، ولا ينزلون عليها قواعد المحدثين الصارمة، وهذا لا بأس به إن كان المروي أخباراً تاريخية ليس لها تعلق بالأحكام الشرعية التي يبنى عليها عمل، أو العقائد والإيمان. ولكن إن كان الأمر يتعلق بحكم شرعي، أو شبهة ما، أو طعن بصحابي جليل وقائد عظيم من قادة الإسلام والفتوح، فيجب فيها التحري والبحث في أحوال رجالها للوصول إلى حكم صحيح فيها. ومن المبالغات الواضحة، أن يقال قد قتل سبعين ألف أسير في ليلة واحدة، ثم من المبالغات الجليّة أن يقال أنه قد استطاع المسلمون الذين هو أقل من أعداد الكفار بمرات أن يأسروا كل هذا العدد، ونحن لا ننفي أن يكون خالد قد قتل أسرى، كما أننا لا نثبت ذلك ولا نمنع شرعاً أن يكون قد قتل أسرى في هذه المعركة، ولكن الممنوع والبعيد عن التصديق هذه المبالغة الكبيرة في العدد المذكور، كما أننا لا نثبت ذلك يقيناً لعدم وجود الأخبار الصحيحة، وقلنا لا نمنع لأنّ مسألة قتل الأسرى من المسائل الخلافية التي اختلفت فيها آراء الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم آراء العلماء بعدهم، ومسألة قتل الأسير كالتالي:

أكثر العلماء على أن الإمام مخير في الأسارى في خصال: منها أن يمن عليهم، ومنها أن يستعبدهم، ومنها أن يقتلهم، ومنها أن يأخذ منهم الفداء، ومنها أن يضرب عليهم الجزية. وقال قوم: لا يجوز قتل الأسير وحكى الحسن بن محمد التميمي أنه إجماع الصحابة.

والسبب في اختلافهم تعارض الآية في هذا المعنى وتعارض الأفعال، ومعارضة ظاهر الكتاب لفعله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وذلك أن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] الآية - أنه ليس للإمام بعد الأسر إلا المن أو الفداء، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُثْخِرَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] الآية.

والسبب الذي نزلت فيه من أسارى بدر يدل على أن القتل أفضل من الاستعباد. وأما هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقد قتل الأسارى في غير ما موطن، وقد من واستعبد النساء.

وقد حكى أبو عبيد أنه لم يستعبد أحرار ذكور العرب، وأجمعت الصحابة بعده على استعباد أهل الكتاب ذكرانهم وإناثهم.

فمن رأى أن الآية الخاصة بفعل الأسارى ناسخة لفعله قال: لا يقتل الأسير. ومن رأى أن الآية ليس فيها ذكر لقتل الأسير ولا المقصود منها حصر ما يفعل بالأسارى، بل فعله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو حكم زائد على ما في الآية، ويحط العتب الذي وقع في ترك قتل أسارى بدر - قال: بجواز قتل الأسير^(١).

٥- فتح الحيرة:

علم مرزبان الحيرة بما صنع خالد بأمييا فأيقن أنه آتية، فاستعدَّ لذلك، وأرسل جيشاً بقيادة ابنه، ثمَّ خرج في إثره، وأمر ابنه بسدَّ الفرات ليعطل سفن المسلمين، وفوجئ المسلمون بذلك، واغتمُّوا له، فأرسلوا الفلاحين فأخبروهم بضرورة سدِّ الأنهار حتَّى يسيل الماء، فماذا فعل خالد؟

نهض خالد في خيل يقصد ابن المرزبان فلقي خيلاً من خيله، ففاجأهم فأنامهم بالمقرِّ ثمَّ نهض قبل أن تصل أخباره إلى المرزبان حتَّى لقي جنداً لابنه على فم الفرات، فقاتلهم وهزمهم، وسدَّ الأنهار، وسلك الماء سبيله، ثمَّ طلب خالد عسكره واتجه إلى الحيرة، وعلم المرزبان بموت ابنه، وخبر موت أردشير، فهاله الأمر، فعبر الفرات هارباً من غير قتال، فعسكر خالد مكانه وأهل الحيرة متحصِّنون، وأدخل الخيل من عسكره، وتمَّت خطَّته حول قصور الحيرة بمحاصرتها على هذا النحو:

أ- ضرار بن الأزور لمحاصرة القصر الأبيض، وفيه إياس بن قبيصة الطائي.

(١) بداية المجتهد ونهاية المقتصد، (٢/ ١٤٥).

ب - ضرار بن الخطاب لمحاصرة قصر العدسيين، وفيه عديّ بن عديّ العبادي.

ج - ضرار بن مقرّن لمحاصرة قصر بني مازن، وفيه ابن أكال.

د - المثنى بن حارثة لمحاصرة قصر ابن بقليلة، وفيه عمرو بن عبد المسيح.

وعهد خالد إلى أمرائه أن يدعوا القوم إلى الإسلام، فإن أجابوا؛ قبلوا منهم، وإن أبوا؛ أجلوهم يوماً، وأمرهم أن لا يمكّنوا عدوّاً منهم، بل عليهم أن يناجزوهم، ولا يمنعوا المسلمين من قتال عدوّهم ففعلوا، واختار القوم المنابذة، وعمدوا لرمي المسلمين بالحذف^(١)، فرشقهم المسلمون بالنبل، وشنّوا غاراتهم، وفتحوا الدّور، والديارات، فنادى القسيسون: يا أهل القصور! ما يقتلنا غيركم، فنادى أهل القصور: يا معشر العرب! قبلنا واحدة من ثلاث، فكفّوا عنا. وخرج رؤساء القصور، فقابلهم خالد كلّ أهل قصر على حدة، ولامهم على فعلهم، وتصالحوهم مع خالد على جزية، وصالحوه على مئة وتسعين ألفاً، وبعث خالد بالفتح، والهدايا إلى أبي بكر، فقبل الهدايا وعدّها لأهل الحيرة من الجزية تعفّفاً عما لم يأذن به الشّرع، وقطعاً لدابر العادات الأعجميّة التي كان يُحتال بها على سلب أموال الناس^(٢).

وكتب خالد في عهده لأهل الحيرة: بسم الله الرحمن الرّحيم، هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديّاً وعمراً ابني عديّ، وعمرو بن عبد المسيح، وإياس بن قبيصة، وحيريّ بن أكال - وهم نقباء أهل الحيرة - ورضي بذلك أهل الحيرة، وأمرهم به، وعاهدهم على مئة وتسعين ألف درهم تقبل في كلّ سنة، جزاءً عن أيديهم في الدّنيا، رهبانهم وقسّيسهم، إلا من كان منهم على غير ذي يد، حبيساً عن الدّنيا تاركاً لها، وسائحاً تاركاً الدّنيا، وعلى المنعة، فإن لم يمنعهم شيء فلا شيء عليهم حتّى يمنعهم، وإن غدروا بفعلٍ، أو بقولٍ فالذمّة منهم بريئة.

(١) الحذف: الرّمي بالحصى عن جانبٍ، والضرب عن جانبٍ.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ص ٣٤٨.

وكانت كتابة هذا العهد في شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ^(١). وقد جاء في رواية: أن خالدًا عرض على أهل الحيرة واحدة من ثلاث: أن تدخلوا في ديننا، فلکم ما لنا، وعلیکم ما علينا؛ إن نهضتم، وهاجرتم، وإن أقمتم في ديارکم، أو الجزية، أو المنابذة والمناجزة، فقد والله أتیتکم بقوم هم على الموت أحرص منکم على الحياة! فقال: بل نعطیکم الجزية، فقال خالد: تبًّا لکم، ويحكم! إنَّ الکفر فلاةٌ مضلّة، فأحمق العرب من سلكها^(٢).

ففي حديث خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَتَضَح بعض الصفات الإيمانية التي تجسّدت في جيش فتح العراق، فهذا الجيش يتحرّك من أجل هدف سام، ألا وهو دعوة النَّاس إلى الإسلام، وتبليغ الهداية للبشرية، وليس التوسّع في الممالك، وفرض السُّلطان، والتمتّع بالحياة الدُّنيا. كما بيّن خالد أهمّ مقومات نجاح المسلمين في حروبهم ألا وهو الحرص الأكيد على طلب الشَّهادة، وابتغاء ما عند الله تعالى في الآخرة.

كما بيّن النصُّ السابق حرص الصَّحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - على تطبيق سنّة النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك بالرَّغبة القلبية في هداية البشرية، حيث إنَّ خالدًا وبَّخهم على اختيار البقاء على الکفر، مع أن بقاءهم على الکفر ودفع الجزية فيه مصلحةٌ مألّية للمسلمين، ولكن خالدًا من قوم هانت عليهم الحياة الدُّنيا، وفَضَّلوا ما عند الله - جَلَّ وَعَلَا - في الآخرة، وقد سنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم هذا المبدأ السَّامي^(٣)، في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم»^(٤).

وفي قبول الصّديق لهدية أهل الحيرة، وقد أهدوها طائعين مختارين، فعدها من الجزية عدلاً، وتعظُفاً، وخشية أن يَظْلِمَ أهل ذمّته، أو يكلّفهم شططاً؛ درسٌ عظيمٌ في إقامة العدل بين النَّاس، وقد قارن الشَّيخ علي الطنطاوي بين فتوح الاستعمار التي أثارها أوربة، وبين فتح

(١) تاريخ الطبري (٤/ ١٨١).

(٢) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٧٨.

(٣) التَّاريخ الإسلامي (٩/ ١٤٨).

(٤) البخاري، كتاب المغازي رقم ٤٢١٠.

المسلمين مقارنةً متميزةً ثم استدلَّ بقول الشاعر:

مَلَكْنَا فَكَانَ الْعَدْلُ مِنَّا سَجِيَّةً فَلَمَّا مَلَكَتُمْ سَالًا بِالْذِّمِّ أَبْطَحَ
وَحَلَلْتُمْ فَكَانَ الْعَدْلُ مِنَّا سَجِيَّةً غَدَوْنَا عَلَى الْأَسْرِ نَمْنُ وَنَصْفَحُ
فَحَسْبُكُمْ هَذَا التَّفَاوُتُ بَيْنَنَا فَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَنْضَحُ^(١)

• الحيرة قاعدة الجيوش الإسلامية:

كان فتح الحيرة عملاً حربياً عظيم القيمة، وسَّعَ أمل المسلمين في فتح بلاد فارس، لمكان هذا البلد الجغرافي، والأدبي من العراق، والمملكة الفارسية، فقد اتخذها القائد العام للجيوش الإسلامية مقراً لقيادته العليا، ومركزاً رئيسياً تتلقى منه جيوش الإسلام أوامر الهجوم، والدفاع، والإمداد، والنظم، وكذلك جعلها قاعدةً عامةً للتدبير، والسياسة التي يقوم عليها تنظيم مَنْ وقع في يد المسلمين، وبثَّ خالدٌ عمَّاله على الولايات لجباية الخراج، والجزاء، ووجهَ أمراءه إلى الثُّغور لحمايتها، وأقام هو ريشماً يتَّم ما أَرَادَه من الاستقرار، والنظام، وترامت أخباره إلى الدهاقين، والرؤساء، فأقبلوا إليه يصالحوه حتى لم يبق ما بين قرى سواد العراق إلى أطرافه مَنْ ليس مولياً للمسلمين، أو على عهدٍ منهم^(٢)، وقد كان من عمَّاله على الأقاليم:

١- عبد الله بن وتيمة النَّصري على الفلالي.

٢- جرير بن عبد الله البجلي على بانقياد.

٣- بشير بن الخاصبة على النهرين.

(١) أبو بكر الصديق، الطنطاوي، ص ٣٣.

(٢) خالد بن الوليد، صادق عرجون، ص ٢٢٢.

٤- سُويد بن مقرن المزني على تُستر.

٥- أطمط بن أبي أطمط على روستا.

وكان من قادة الثُّغور:

١- ضرار بن الأزور الأسدي.

٢- المثنى بن حارثة الشيباني.

٣- ضرار بن الخطاب الفهري.

٤- ضرار بن مقرن المزني.

٥- القعقاع بن عمرو التميمي.

٦- بُسر بن أبي رهم الجهني.

٧- عُتيبة بن النُّهاس^(١).

• الرِّسائل التي أرسلها خالدٌ إلى خاصّة الفرس، وعامَّتهم:

أجمع خالد أمره على منازل الفرس في ساحات ملكهم بعد أن صفا له الجوف في العراق، وأمن ظهره بانحسار أمر فارسٍ عن العرب فيما بين الحيرة، ودجلة، وكان أهل فارس في هذه الفترة على خلافٍ شديد فيمن يولّونه عليهم بعد موت كسراهم أردشير، فانتهاز خالد هذه الفرصة، وكتب إلى خاصّتهم، يقول: من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس: أمّا بعد: فالحمد لله الذي حلّ نظامكم، ووهن كيدكم، وفرّق كلمتكم، وأوهن بأسكم، وسلب أموالكم، وأزال عزّكم، فإذا أتاكم كتابي؛ فأسلموا؛ تسلموا، أو اعتقدوا منا الذمّة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلاّ والله الذي لا إله إلا هو لا سيرن إليكم بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدُّنيا^(٢).

(١) أبو بكر الصّدّيق، خالد الجنابي، نزار الحديثي، ص (٥١، ٥٢).

(٢) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٨٦.

وكتب إلى عامتهم فقال: من خالد بن الوليد إلى مرازمة أهل فارس: الحمد لله الذي فضّ خدمتكم، وفرّق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلب أموالكم، وأزال عزّكم، فإذا أتاكم كتابي؛ فأسلموا؛ تسلموا، أو اعتقدوا منّا الذمّة، وأجبيوا إلى الجزية، وإلا والله الذي لا إله إلا هو لا سيرن إليكم يقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا^(١).

وبفتح الحيرة تحقّق شطر من أمل أبي بكر رضي الله عنه في فتح العراق، وإخضاعه تمهيداً لغزو فارس في عقر دارهم، وقد قام خالد بن الوليد رضي الله عنه بمهمّته في ذلك خير قيام، ووصل إلى الحيرة في وقتٍ قياسيٍّ حيث بدأ صراعه مع الأعداء في شهر محرّم من العام الثاني عشر في معركة الكاظمة، وانتهى من فتح الحيرة في شهر ربيع الأول من العام نفسه^(٢).

• كرامة لخالد بن الوليد في فتح الحيرة:

وقد أخرج الإمام الطبري بإسناده: وكان مع ابن بُقيلة^(٣)، منصفٌ له^(٤) فعلق كيساً في حقوه، فتناول خالد الكيس، ونثر ما فيه في راحته، فقال: ما هذا يا عمرو؟ قال: هذا وأمانة الله سمّ ساعة! قال: لم تحتقب السمّ؟ قال: خشيت أن تكونوا على غير ما رأيتم، وقد أتيت على أجلي، والموت أحبُّ إليّ من مكروه أدخله على قومي، وأهل قريتي، فقال خالد: إنّها لن تموت نفسٌ حتّى تأتي على أجلها، وقال: بسم الله خير الأسماء ربّ الأرض، وربّ السماء؛ الذي ليس يضرُّ مع اسمه داءٌ، الرّحمن الرّحيم، فأهّوا إليه يمنعون منه، وبأدرهم فابتلعه، فقال عمرو: والله يا معشر العرب لتملكنّ ما أردتم ما دام منكم أحدٌ أيّها القرن^(٥)!

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٨٦.

(٢) التّاريخ الإسلامي (٩/ ١٥٠).

(٣) يعني: عمرو بن عبد المسيح، وهو سيد قومه.

(٤) أي: خادم.

(٥) يعني: أهل الجيل المعاصر.

وأقبل على أهل الحيرة، فقال: لم أرَ كالיום أوضح إقبالاً^(١). وقد ذكر هذه الرواية الحافظ ابن كثير، ولم يضعفها^(٢)، وذكرها الحافظ ابن حجر، وقال: رواه أبو يعلى، ورواه ابن سعد من طريقين آخرين، ولم يضعفها^(٣)، وذكرها ابن تيمية مثلاً من أمثلة الكرامات^(٤).

وقد أنكر بعض الكتاب المعاصرين هذا الخبر، واعتبروه من نسج خيال بعض الرواة حول شخصية خالد، وقد ثبتت هذه الرواية من ناحية الإسناد، فقد ارتضاها الطبري، وابن سعد، وابن كثير، وابن حجر، وابن تيمية، ولم يضعفوا إسنادها، وهم أعلم، وأنصف في علم التاريخ الإسلامي من الكتاب المعاصرين.

إنَّ خالدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما أقدم على شرب السُّمِّ، كان في قَمَّةِ اليقين، والإيمان بأنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ هو الَّذي خلق كلَّ شيءٍ، وأودع في كلِّ شيءٍ خصائصه، وأنَّه القادر على أن يلغي مفعول هذه الخصائص إذا أراد لحكمةٍ عاليةٍ، وهدفٍ عظيمٍ، كما أذهب فعالية النار حينما أُلقي فيها إبراهيم - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وجعلها عليه برداً، وسلاماً، وقد حصل ذلك لغير الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كما حصل لأبي مسلم الخولانين لما رفض أن يُقرَّ بنبوة الأسود العنسي الكذاب؛ فألقاه في النار فوجدوه فيها قائماً يصلي، ولم تضره^(٥)، كما أنَّ خالدًا حينما أقدم على ذلك لم يخالج قلبه ذرَّةٌ من إرادة حُظِّ النَّفْسِ، وكسب السُّمعة، والجاه، لأنَّه لو نوى شيئاً من ذلك؛ لعلم أنَّ الله تعالى سيتخلَّى عنه، وهو لا حول له ولا قوَّة على انتزاع أثر السُّمِّ الضَّارِّ، وهذه تجربةٌ فذَّةٌ لا يُطلب من أيِّ مسلمٍ أن يخوضها، ولو كان هدفه نفس الهدف الَّذي رمى إليه خالدٌ؛ لأنَّه يندر أن يوجد مَنْ يبلغ إيمانه، وثقته بالله تعالى إلى المستوى الَّذي بلغ إليه خالدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأرضاه^(٦).

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٨٠.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٢٥١.

(٣) الإصابة لابن حجر (٣١٨/٢) رقم ٢٢٠٦.

(٤) الفتاوى (١١/١٥٤).

(٥) التَّاريخ الإسلامي (٩/١٥٣).

(٦) التَّاريخ الإسلامي (٩/١٥٤).

٦- فتح الأنبار (ذات العيون):

استقام الأمر لخالد في تلك الجهات، فاستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو التّميمي، واتّجه بتعبئةٍ لإغاثة عياض بن غنم الذي أرسله الصّديق لفتح العراق من الشّمال، ويلتقي بخالد، وصل خالد إلى الأنبار فوجد القوم قد تحصّنوا، وخندقوا على أنفسهم، وأشرفوا من أعالي الحصون^(١)، فضرب المسلمون عليهم الحصار، وأمر خالد جنوده أن يصوّبوا إلى عيون أهل الأنبار، فلما نشب القتال أصابوا في أوّل رمية ألف عين من عيونهم، ولذلك سمّيت هذه الواقعة ذات العيون^(٢)، واخترق خالد الخندق الذي حول الأنبار بفطنةٍ وذكاءٍ، حيث عمد إلى الضّعاف من الإبل بجيشه، فنحروها، وملأ الخندق في أضيق نقطةٍ فيها بجثث الإبل، واقتحم المسلمون الخندق وجسّروهم جثث الإبل، وصاروا مع عدوّهم داخل الخندق، فالتجأ العدو إلى الحصن^(٣)، واضطر شيراز قائد جند الفرس إلى قبول الصّلح بشروط خالد على أن يخرج من الأنبار في عددٍ من الفرسان يحرسونه، فقبل خالد منه ذلك بشرط ألا يأخذ معه من المتاع، أو من الأموال شيئاً^(٤).

وتعلّم الصّحابة ممّن بها من العرب الكتابة العربيّة، وكان أولئك العرب قد تعلّموها من عرب قبلهم، وهم بنو إباد، كانوا بها في زمان بتنصر حين أباح العراق للعرب، وأنشدوا خالداً قول بعض إباد يمتدح قومه:

قومي إبادُ لو أنّهم أممٌ أولو أقاموا فتَهْزُلُ النعم
قوم لهم باحةُ العِراقِ إذا ساروا جميعاً واللّوح والقلم^(٥)

٧- عين التمر:

(١) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين، مرجع سابق، ص ٣٥٠.

(٢) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٥٣.

(٣) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين، مرجع سابق، ص ٣٥٠.

(٤) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩١.

(٥) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٥٣.

استخلف خالدُ الزُّبرقان بن بدرٍ على الأنبار، وسار إلى عين التَّمَر، فوجد عَقَّة ابن أبي عَقَّة في جمعٍ عظيمٍ من النَّمر، وتغلب، وإياد، ومن حالفهم، ومعهم من الفُرْس مهران بقوَّاته^(١)، وطلب عَقَّة من مهران أن يتركه لقتال خالد، وقال له: إِنَّ العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالدًا، فقال له: دونكم وإيَّاهم، وإن احتجتم إلينا أعنَّاكم، فلامت العجم أميرهم على هذا، فقال: دعوهم فإن غلبوا خالدًا فهو لكم وإن غلبُوا قاتلنا خالدًا وقد ضعفوا ونحن أقوىاء، فاعترفوا له بفضل الرأي عليهم، وسار خالد، وتلقَّاه عَقَّة، فلمَّا تواجها قال خالد لمجنبيه: احفظوا مكانكم فإنِّي حامل، وأمر حُماته أن يكونوا من ورائه وحمل على عَقَّة وهو يسوي الصفوف فاحتضنه، وأسر، وانهزم جيش عَقَّة من غير قتال فأكثروا فيهم الأسر، وقصد خالدُ حصن عين التَّمَر، فلمَّا بلغ مهران هزيمة عَقَّة، وجيشه؛ نزل من الحصن، وهرب، وتركه، ورجعت فلول نصارى الأعراب إلى الحصن، فوجدوه مفتوحًا، فدخلوه، واحتموا به، فجاء خالدٌ، وأحاط بهم، وحاصرهم أشدَّ الحصار، واضطر أهل الحصن أن ينزلوا على حكم خالدٍ، فأمر بضرب عنق عَقَّة ومن كان معه والَّذين نزلوا على حكمه أجمعين، وغنم جميع ما في ذلك الحصن، ووجد في الكنيسة التي به أربعين غلامًا يتعلَّمون الإنجيل، وعليهم باب مغلق، فكسره خالد وفرَّقهم في الأمراء، وأهل الغناء، وكان حمرانا مولى عثمان بن عفَّان من ذلك الخمس، ومنهم: سيرين والد محمَّد بن سيرين أخذه مالك بن أنس، وأرسل خالد الخمس إلى الصَّدِّيق.

ثم أرسل أبو بكر الوليد بن عقبة إلى عياض مددًا له، وهو محاصر دومة الجندل، فلما قدم عليه وجده في ناحية العراق يحاصر قومًا، وهم قد أخذوا عليه الطُّرق، فهو محصورٌ أيضًا، فقال عياضٌ للوليد: إنَّ بعض الرأي خير من جيش كثيفٍ؛ ماذا ترى فيما نحن فيه؟ فقال له الوليد: اكتب إلى خالد يمدُّك بجيشٍ من عنده، فكتب إليه يستمده، فقدم كتابه على خالد عقب وقعة عين التَّمَر، وهو يستغيث به فكتب إليه: من خالدٍ إلى عياض: إياك أريد. لَبَّثْ

قليلاً تأتاك الحلائب^(١)، يحملن آسداً عليها الشائب^(٢)، كتائبُ تتبعها كتائب^(٣).

٨ - دومة الجندل:

رحل خالد بجنده من عين التمر بعد أن خلف عليهم عوجم بن الكاهل الأسلمي، ووصلت أنباؤه إلى أهل دومة الجندل فاستنجدوا بحلفائهم من قبائل بهراء، وكلب، وغسان، وتنوخ^(٤)، وكان أمر أهل دومة الجندل إلى زعيمين هما: أكيدر ابن عبد الملك والجودي بن ربيعة، فاختلعا، فقال أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أحد في حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلو، أو كثروا إلا انهزموا عنه، فأطاعوني، وصالحوا القوم، فأبوا عليه، فقال: لن أملككم على حرب خالد، فشأنكم^(٥).

وهذه شهادة خصم في خالد، والحق ما شهدت به الأعداء، وقد كان خالد أسره قبل ذلك حينما أرسله إليه رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فأخذه، وأتى به إلى النبي ﷺ فمن عليه، وكتب له كتاب عهد، ولكنه خان العهد بعد ذلك، ولقي الرعب في نفسه منذ يوم أسره خالد إلى جانب سمعته الشهيرة في حروبه مع العرب، والعجم، وخرج أكيدر مفارقاً قومه، وبلغ خالد خبره، وهو في طريقه إلى (دومة) فأرسل إليه عاصم بن عمرو معارضاً له، فأخذه، فقال: إنما تلقيت الأمير خالداً، ولكن خيانتك السابقة جعلت خالداً ينفذ فيه حكم الإعدام، وهكذا قتله الله بخيانتك، ونقضه العهد، ولم يُغنِ الحذر من القدر^(٦).

ونزل خالد على دومة الجندل، وجعل أهلها ومشايعهم من بهراء، وكلب، وتنوخ بين

(١) الحلائب: ما يحمل عليه من دواب.

(٢) الشائب: السموم جمع قشب.

(٣) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٥٤.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٥٥.

(٦) التاريخ الإسلامي (١٦٣/٩).

فكي (كماشة) ذراعها الأول عسكره، والثانية عسكر عياض بن غنم^(١)، وتقدّم الجودي بن ربيعة بجنوده نحو خالد، وتقدّم ابن الحديان، وابن الأيهم بجنودهما ناحية عياض، ودارت المعركة، وأنزل خالد الهزيمة بالجودي، وأتباعه، وانتزع عياض النصر من ابن الحديان، ومن معه بصعوبة، وحاولت فلول المنهزمين الاحتماء بالحصن، ولكنه كان قد عَجَّ بمن فيه، فأغلقوه عليهم، وتركوا أصحابهم حوله في العراء، ولم يلبث خالد أن هاجم من بداخل الحصن بعد أن اقتلع بابه فقتل منهم جموعاً كثيرة^(٢).

وبفتح دومة الجندل أصبح للمسلمين موقعٌ استراتيجيٌّ ذو أهميةٍ فريدةٍ؛ لأنَّ دومة الجندل تقع على ملتقى الطُّرقِ إلى ثلاث جهات، فشبّه الجزيرة العربيّة من الجنوب، والعراق من الشمال الشرقي، والشَّام من الشَّمال الغربي، ومن الطَّبيعي أن تنال هذه المدينة مثل هذه العناية من الخليفة أبي بكر الصّدِّيق، وجنوده تقاتل بالعراق، وتقف على تخوم الشَّام، وتلك هي العلة في أن عيادا لم يبرحها بل ظلَّ مرابطاً أمامها إلى أن خفَّ إليه خالد، ولو أنَّ دومة الجندل لم تدع عن المسلمين لبقى أمرهم في العراق تحفُّه المخاطر^(٣).

وبذلك استطاع خالد أن يعين عيادا على فتح دومة الجندل، ولئن كانت حروب خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في جنوب العراق مثلاً للبراعة في الهجوم السَّريع، واغتنام الفرص، وإثارة الرُّعب لدى الأعداء؛ فإنَّ ثبات عياض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذه المدّة الطَّويلة في وجه أعداء قد تكالبوا عليه من كلّ مكان دليلٌ على تمتّع الجيش الإسلامي أيضاً بالصَّبر، والمصابرة، وطول الأمل، والثَّقة بنصر الله تعالى في النِّهاية، وكان عياض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من أفاضل المهاجرين ومن سادة قريش، وكان سمحاً جواداً، وقد وثق به الخلفاء، وولاتهم بعد ذلك، فكان أحد قادة اليرموك وكان على مقدّمة جيش أبي عبيدة، ثمَّ فتح بعد ذلك الجزيرة بأكملها، وهي المناطق التي بين الشَّام والعراق، واستخلافه أبو عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على الشَّام لمّا حانت وفاته، فأقرَّ عمر

(١) خالد بن الوليد: صادق عرجون، ص ٢٣١.

(٢) تاريخ الطبري (٤/١٩٦)؛ أبو بكر الصديق، خالد الجنابي، ص ٥٤.

(٣) أبو بكر الصّدِّيق، نزار الحديثي، خالد الجنابي، ص ٥٤.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الشَّامِ إِلَى أَنْ احتاجَ إِلَيْهِ فِي الفَتْوحِ، فَوَجَّهَهُ إِلَيْهَا^(١).

٩- وقعة الحُصَيْد^(٢):

أمر خالدُ الأقرع بن حابس بالرجوعِ إلى الأنبار، وأقام بدومة الجندل، فكانت إقامته مدعاةً لطمع الأعاجم، وظنَّهم به الظُّنون، وكذلك ظنَّها عرب المنطقة فرصةً، فكاتبوا الأعاجم ليكونوا معهم على خالدٍ غضباً لعقَّة الذي لم ينسوا مصرعه بعدُ، فخرج زرمه من بغداد، ومعه روبة يريدان الأنبار، وتواعدا في الحصيد، والخنافس، فوصل خبرهم الزبرقان بن بدر وهو على الأنبار، فاستمدَّ القعقاع بن عمرو خليفة خالد على الحيرة، فأمدَّه بأعبد بن فدكي السَّعدي (أبو ليلي) وأمره بالحصيد، وبعروة بن الجعد البارقى وأمره بالخنافس، وعندما علم خالدٌ بتحرك بعض القبائل، ورغبتهم بالانضمام إلى روبة في الحصيد جعل القعقاع أميراً على النَّاس في الحصيد بعد أن ترك مكانه عياض بن غنم على الحيرة، فلمَّا علم روبة بتوجه القعقاع إليه استمدَّ زرمه، فانضمَّ إليه، والتقى المسلمون بجموع الفرس، وقتلوا منهم مقتلَةً عظيمةً من بينهم زرمه، وروبة، وغنموا غنائم كثيرة^(٣)، وقد قال القعقاع بن عمرو في هذه المعركة:

أَلَا أَبْلَغَا أَسْمَاءَ أَنْ حَلِيلَهَا قَضَى وَطَرًا مِنْ رَوْزَمَارِ الْأَعَاجِمِ
غَدَاةٌ صَبَحْنَا فِي حَصِيدِ جُمُوعِهِمْ لَهْنَدِيَّةٌ تَفْرِي فَرَاخَ الْجَمَاجِمِ^(٤)

١٠- وقعة المصيخ:

بعد أن وصلت أخبار المسلمين في الحُصَيْدِ إلى خالدٍ واعد قادة جيوشه في ليلةٍ وساعةٍ يجتمعون فيها عند المسيخ قرب حوران، فلمَّا توافوا في مواعدهم بيَّتوا بعض القبائل، ومن

(١) التَّارِيخُ الْإِسْلَامِي (٩/ ١٦٤).

(٢) الحصيد: موضعٌ في أطراف العراق من جهة الجزيرة.

(٣) البداية والنَّهَاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٥٥.

(٤) الكامل في التَّارِيخ (٢/ ٥٩).

أوى إليهم من ثلاثة أوجه، فأوقع بهم خسائر كبيرة^(١)، ثم علم خالد بتحشد بعض القبائل في (الثَّنيي) وهو موضع قرب الرِّقَّة و (الزُّمَيْل) في ديار بكر استعداداً لقتال المسلمين، فباغتهم في (الثَّنيي) من عدَّة اتجاهات، فشَتَّت جموعهم، وكذلك هاجم المحتشدين في (الزُّمَيْل) فأوقع بهم خسائر هائلة^(٢).

يقول عديُّ بن حاتم: انتهينا في هذه الغارة إلى رجل يقال له: حرقوص بن النُّعْمان النُّمري، وحوله بنوه، وبناته، وامراته، وقد وضع لهم جفنةً من الخمر، وهم يقولون: أحدٌ يشرب هذه السَّاعة، وهذه جيوش خالدٍ قد أقبلت؟ فقال لهم: اشربوا شرب وداعٍ فما أرى أن تشربوا خمرًا بعدها، فشرَبوا، وجعل يقول:

أَلَا فَاشْرَبُوا مِنْ قَبْلِ قَاصِمَةِ الظَّهْرِ بُعِيدَ انتِفَاخِ الْقَوْمِ بِالْعَكْرِ الدُّثْرِ
وَقَبْلَ مَنَايَا الْمُصِيبَةِ بِالْقَدْرِ لِحِينِ لَعْمَرِي لَا يَزِيدُ وَلَا يَحْرِي^(٣)
فسبق إليه وهو في ذلك في بعض الخيل، فضرب رأسه، فإذا هو في جفنته، وأخذنا بناته، وقتلنا بنه^(٤).

وقد قتل في هذه المعركة رجلان كانا قد أسلما، ومعهما كتابٌ من الصِّديق بالأمان، ولم يعلم بذلك المسلمون، فلمَّا بلغ خبرهما الصِّديق وداهما، وبعث بالوصاة بأولادهما وقال فيهما الصِّديق: كذلك يلقي مَنْ يساكن أهل الحرب في ديارهم، أي: الذَّنْب لهما في مجاورتهما المشركين^(٥).

١١ - وقعة الفِراض:

(١) أبو بكر الصِّديق، خالد الجنابي، نزار الحديثي، ص ٥٥.

(٢) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٤-٢٠٠.

(٣) المصدر السَّابق نفسه (٤/ ١٩٩). «بحري»: ينقص.

(٤) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٩٩.

(٥) البداية والنَّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٥٦.

بعد أن بسط خالد راية الإسلام على العراق، واستسلمت له قبائل العرب قصد الفِراض، وهي تخوم الشام، والعراق، والجزيرة حتّى يحفظ ظهره، ويأمن من أن تكون وراءه عورة عند اجتيازه أرض السّواد إلى فارس، فلمّا اجتمع المسلمون بالفِراض؛ غضب الرّوم، وهاجوا، واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس، فلبسوا سراعاً لأنّهم كانوا حائقين على المسلمين الذين أذلّوهم، وكسروا شوكتهم، كما استمدّوا العرب من تغلب وإياد والنّمر فأمدّوهم؛ لأنّهم لم ينسوا بعد مصرع رؤسائهم، وأشرافهم، فاجتمعت جيوش الفرس، والرّوم، والعرب على المسلمين في تلك الموقعة، فلما بلغوا الفرات قالوا للمسلمين: إما أن تعبروا إلينا وإمّا أن نعبر إليكم، فقال خالد: بل اعبروا إلينا، قالوا: فتنحّوا حتّى نعبر، فقال خالد: لا نفعل ولكن اعبروا أسفل منا. وذلك للنّصف من ذي القعدة سنة اثنتي عشرة. فقالت الرّوم وفارس بعضهم لبعض: احتسبوا ملككم، هذا رجلٌ يقاتل على دين، وله عقلٌ، وعلمٌ، والله ليُنْصِرَنَّ، ولتنخذلن، ثم لم ينتفعوا بذلك، فعبروا أسفل من خالد، فلمّا تتأمّوا قالت الرّوم: امتازوا حتّى نعرف اليوم ما كان من حسن، أو قبيح من أيّنا يجيء! ففعلوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً طويلاً، ثمّ إن الله عزّ وجلّ هزمهم، وقال خالد للمسلمين: ألحّوا عليهم، ولا ترفّفوا عنهم! فجعل صاحب الخيل يحشر منهم الزّمرة برماح أصحابه، فإذا جمعوهم قتلوهم، وقتل من الأعداء عشرات الألوف، وأقام خالد في الفِراض عشرة أيام، ثمّ أمر بالرجوع للحيرة^(١).

وهكذا واجه المسلمون لأوّل مرّة جيشاً مكوناً من الفرس الذين يمثلون دولة المشرق العظمى، والرّوم الذين يمثلون دولة المغرب العظمى، والعرب الموالين لهؤلاء، وهؤلاء، ومع ذلك انتصر المسلمون عليهم انتصاراً ساحقاً، ولا شكّ: أنّ هذه المعركة تعتبر من المعارك التّاريخية الفاصلة - وإن لم تنل من الشّهرة ما نالته المعارك الكبرى - لأنّها حطمت معنويات الكفار على مختلف انتماءاتهم حيث هزموا جميعاً، وهذه المعركة تعتبر خاتمة المعارك التي خاضها سيف الله المسلول خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في العراق^(٢)، وانكسرت

(١) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٠١.

(٢) التّاريخ الإسلامي (١٧٣/٩).

شوكة الفرس بعد هذه المعركة، ولم تقم لهم قوّة حربيّة يخشاها الإسلام بعد هذه الموقعة^(١).
ومما قال القعقاع بن عمرو في هذه المعركة:

لَقِينَا بِالْفَرَاضِ جَمُوعَ رُومٍ وَفُرْسٍ غَمَّهَا طَوْلُ السَّلَامِ
أَبَدْنَا جَمْعَهُمْ لِمَا التَّقِينَا وَبَيَّتْنَا بِجَمْعِ بَنِي رِزَامِ
فَمَا فَتَيْتُ جُنُودَ السَّلَمِ حَتَّى رَأَيْنَا الْقَوْمَ كَالْغَنَمِ السَّوَامِ^(٢)

ثالثاً: حَجَّةُ خَالِدٍ، وأمر الصّدّيق بالخروج إلى الشّام، وتسلم المثنى لقيادة جيوش العراق:

١ - حَجَّةُ خَالِدٍ (١٢هـ) وأمر الصّدّيق له بالخروج إلى الشّام:

أقام خالد بالفراض عشرة أيام ثم أذن بالقفول إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير في المقدّمة، وأمع ٧ عر شجرة بن الأعز أن يسير في السّاقة، وأظهر خالد: أنّه يسير في السّاقة، ثم انطلق في كوكبة من أصحابه، وقصد شطر المسجد الحرام، وسار إلى مكّة في طريق لم يسلك قبله قطّ، وتأتّى له في ذلك أمر لم يقع لغيره، فجعل يسير متعسفا على غير جادّة حتّى انتهى إلى مكّة، فأدرك الحجّ هذه السّنة (١٢هـ)، ثم عاد، فأدرك أمر السّاقة قبل أن يصلوا الحيرة، ولم يعلم أبو بكر الصّدّيق بذلك أيضاً إلا بعدما رجع أهل الحجّ من الموسم، فبعث يعتب عليه في مفارقتة الجيش^(٣)، وأمره بالذهاب إلى الشّام. بعد أن تأزم الحال بين الروم والمسلمين، وحصر المسلمون الروم أشهر لا يقدر أحد الفريقين على أن ينال من الآخر فكتب المسلمون إلى الخليفة يخبرونه بالأمر ويستمدونه، ولم يكد كتاب الأمراء يقع إلى أبي بكر حتى طاف بخاطره فاقى عين الردة وفتح العراق ومدوخ فارس سيف الله ورسوله، القائد خالد بن الوليد، فاستنار وجه أبي بكر لهذا الخاطر،

(١) خالد بن الوليد، ص ٣٦.

(٢) معارك خالد بن الوليد ضدّ الفرس، عبد الجبار السّامرائي، ص ١٢٣.

(٣) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٥٧.

وقال يخاطب نفسه: خالد لها؛ والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد ابن الوليد^(١).
 لله در أبي بكر ما أعرفه بالرجال وأخبره بالعقريات، يوجهها إلى حيث تملك مجالها من
 الحياة، وتملك منها الحياة ما تشاء من خصائص البطولة في ميادينها.

إن في عاصمة الإسلام من جنود الإسلام مدد وأمداد وفيها أبطال وقواد ولكن أبا
 بكر الصديق يعلم أن النصر لم يكن معقوداً بكثافة الجنود وإنما ينزل الله نصره على من
 يشاء من عباده الذين حباهم بخصائص من مقومات العقريات في الأفراد موزعة على وفق
 الاستعداد. [

وجاء في خطاب الصديق لخالد: أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك، فإنهم قد
 شجوا، وأشجوا، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت! فإنه لم يشجَّ الجموعُ من الناس بعون الله
 شجباك، ولم ينزع الشجي من الناس نزعك، فليهنئك أبا سليمان النية، والخطوة، فأتتم يتم
 الله لك، ولا يدخلنك عجب فتخسر، وتخذل، وإياك أن تدلَّ بعمل، فإن الله له المن، وهو
 وليّ الجزاء^(٢) وقال له أيضاً: دع العراق واخلف أهله فيه الذي قدمت عليهم وهم فيه، ثم
 امض مخففاً في أهل قوة من أصحابنا الذين قدموا معك العراق من الإمامة وصحبوك من
 الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من
 المسلمين، وإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك ورحمة الله.

هذا الخطاب الجليل من الخليفة الحكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَصُورُ مدى حرص الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 على القواد الناجحين، فيمدُّهم بالمشورة، والنصائح التي تأخذ بيدهم إلى الفوز والتمكن
 بفضل الله:

أ- يأمر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيف الله خالداً أن يترك العراق، ويتوجَّه إلى الشام لعلَّ الله يفتح
 على يديه هذا الموقع.

(١) تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري (٣/ ٤٠٨).

(٢) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٠٢.

ب - ينصحه ألا يعود إلى مثل ما حدث في حَجَّه بدون إذن من الخليفة.

ج - يأمره أن يسدّد، ويقارب، ويجتهد مخلصاً للنبيّ الله وحده.

د - يحذره من العجب بالنفس، والزهو، والفخر، فذلك حظُّ النفس؛ الذي يفسد العمل على العامل، ويردّه في وجهه، كما يحذّره أن يدلّ ويمنّ على الله بالعمل الذي يعمل، فإنَّ الله هو المانُّ به؛ إذ التوفيق بيده سبحانه^(١).

هذا وقد ظهرت في معارك العراق مقدرة الجيوش الإسلامية على تطبيق مبادئ الحرب من مباغته، وصدّ الهجوم، وتثبيت الأعداء، وحشد القوّات، وإدامة المعنويّات، وجمع المعلومات، ورسم الخطط، وتنفيذها بكلّ قوّة، ودقّة، واحتياط منقطع النظير، فهو لم يذهب إلى الشّام لمجاهدة الرّوم إلا بعد خبرة واسعة في فتوحات العراق، وكان المرشّح للبقاء على جيوش العراق بعد سفر خالد المشنّى ابن حارثة الشّيباني لخبرته الواسعة بأرض العراق، ومهارته الفائقة في حرب الفرس.

ويظهر للباحث: أنّ الخطط التي وضعها خالد في حروب العراق كانت تعتمد على الله، ثمّ على جمع المعلومات الدّقيقة التي تدلّ على نشاط مخبراته، واستكشافاته في الميدان، والذي يبدو أنّ هذه المخبرات قد قام بتنظيمها القائد الفدّ (المشنّى بن حارثة الشّيباني) ليس فقط لا لمعيته، وقدرته الفائقة على التّنظيم، وإنّما لمعايشته للمنطقة، فهو ينتمي إلى (بني شيان) من (بكر بن وائل) الذين كانت منازلهم بتخوم العراق، وحوض الفرات؛ التي تمتدّ شمالاً إلى (هيت)، فكانوا بحكم مساكنهم واتّصالاتهم مؤهّلين لأن يكونوا عيوناً (مخبرات) فما وجدنا تحرّكاً لجيش من جيوش الفرس إلا وكان خبر ذلك التحرك منذ بدئه على لسان (المشنّى) في الوقت المناسب، وما من شاردة، ولا واردة تحدث في بلاط الفرس إلاّ وكان (المشنّى) على علم بها في حينها^(٢).

(١) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين، مرجع سابق، ص ٢٩٥.

(٢) معارك خالد بن الوليد ضدّ الفرس، ص ١٣٤.

وكان في خطاب الصّديق إلى خالد: دع العراق، واخلف فيه أهله الَّذِينَ قَدِمْتَ عَلَيْهِمْ، ثُمَّ امضِ مخفّفاً في أهل قوّةٍ من أصحابنا الَّذِينَ قَدِمُوا مَعَكَ العراق من اليمامة، وصحبوك في الطّريق، وقدموا عليك من الحجاز، ثُمَّ تَأْتِي الشّام، فتلقَى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين، وإذا التقيتم؛ فأنت أمير الجماعة. والسّلام عليك ورحمة الله^(١). وتهياً خالد للسّير إلى الشّام، وقسم خالد الجند نصفين: نصفاً يسير به إلى الشّام ونصفاً للمثنى، ولكنّه جعل الصّحابة جميعاً من نصيبه، فقال له المثنى: والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كلّهُ في استصحاب نصف الصّحابة، وإبقاء النّصف! فوالله ما أرجو النّصر إلا بهم، فأنت تعريني منهم، وكان خطاب الصّديق قد وصل إلى خالد قبل سفره يأمره فيه بمن يأخذ من الجند، ومن يدعهم للمثنى، قال: يا خالد لا تأخذ مجداً إلا خلفت لهم مجداً، فإذا فتح الله عليك فأرددهم إلى العراق وأنت معهم، ثُمَّ أَنْتَ عَلَى عَمَلِكَ^(٢).

فما زال خالد يسترضي المثنى، ويعوّضه عن الصّحابة بمقاتلين من سادة أقوامهم من أهل البأس، وممن عُرِفُوا بالشّجاعة، والصّبر، وشدّة المراس، فرضي المثنى آخر الأمر^(٣)، وحشد خالد جنوده، وانطلق ليعبر إلى الشّام صحارى رهيبة غائبة النّواحي مترامية الآفاق كأنّها هي التيه، وسأل الأدلاء: كيف بطريق أخرج فيه من وراء جموع الرّوم؟ فَإِنِّي إِنِ اسْتَقْبَلْتُهَا؛ حَبَسْتَنِي عَنْ غِيَاثِ الْمُسْلِمِينَ! قالوا له: لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش فوالله إن الرّاكب ليخافه على نفسه! إِنَّكَ لَنْ تَطِيقَ ذَلِكَ الطّريق بالخيّل، والأثقال، إِنَّهَا لَخَمْسَ لَيَالٍ لَا يُصَابُ فِيهَا مَاءٌ.

قال خالد: إِنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ؛ لأخرج من وراء جموع الرّوم. وعزم خالد على سلوك هذا الطّريق مهما تكن مخاطرة، فكم فاز باللّذة الجسور! فنصحها رافع بن عمير أن يستكثر من الماء حتّى يجتاز ذلك الطّريق، فأمر خالد جنوده أن يخزّنوا الماء في بطون الإبل العطاش، ثم

(١) الصّديق أول الخلفاء، ص ١٦٩.

(٢) المصدر السّابق نفسه، ص ١٧٠.

(٣) المصدر السّابق نفسه.

يشدوا مشافرها لكيلا تجتر فتستنزف الماء^(١)، وقال لرجاله: إِنَّ المسلم لا ينبغي أن يكثر بشيء يقع فيه مع معونة الله له^(٢).

وسار به الدليل رافع بن عمير في طريقٍ تمتاز بوعورتها وقلة مائها، وضياح معالمها، وقلة سكّانها، ولا سيمًا الجزء الممتد بين قراقر، وسوى^(٣)، إلا أنّها أقصر الطُّرق، فأوضح خالدٌ لجنده الاعتبارات التي تجعله يفضّل سلوك هذا الطريق على غيره، وهي السُرعة، والسُرّيّة، والمباغتة، وكان رافع قد طلب من خالد أن يهيأ عشرين ناقّةً كبيرةً، فأعطاه ما أراد، فمنع عنها الماء أيّامًا حتى عطشت ثمّ أوردّها إيّاه فملأت جوفها، فقطع مشافرها، وكَمَمها فلا تجتر، ثم قال لخالد: سر الآن بالخيول، والأثقال، وكلما نزلت منزلاً نحرّت من تلك الإبل وشرب النَّاس ممّا تزوّدوا، فسار الجيش من قراقر، وهي آخر قرى العراق على حدود الصّحراء إلى سُوى، وهي أوائل قرى الشام، والمسافة بينهما خمس ليالٍ يستريحون بالنّهار ويسيرون بالليل، واعتمد خالدٌ على رافع بن عمير دليلًا بعد أن وثق به، ومن صحّة دلّالته، واختار محرز المحاربي لحذقه في الدّلالة على النُّجوم، لذلك كان مسيرهم ليلاً وصباحاً مع تحاشي السير عند ارتفاع النّهار والظّهيرة لقطع مرحلتين في اليوم الواحد، ولم يترك خالدٌ أحداً من جنده يسير راجلاً وإنّما أركب الجند الإبل للمحافظة على قابليتهم البدنيّة، وسار خالدٌ في الطريق، وكلّما نزل منزلاً نحر عدداً من الثّوق فأخذ ما في أكراشها، فسقاه الخيل، ثمّ شرب النَّاس ممّا حملوا من الماء، فلمّا كان اليوم الخامس نفد الماء، فخاف خالدٌ على أصحابه العطش، وقال لرافع، وهو أرمَد: ما عندك؟ فطلب رافعٌ من النَّاس أن يبحثوا عن شجرة عوسج صغيرة في تلك المنطقة، فلم يجدوا إلا جزءاً صغيراً من ساقها، فأمر رافع أن يحفروا هناك، فحفروا فظهرت عينٌ للماء، فشربوا حتّى روي النَّاس، فاتّصلت بعد ذلك

(١) الصّدّيق أوّل الخلفاء، ص ١٧١.

(٢) الحرب النفسيّة، د. أحمد نوفل (١٥٥/٢).

(٣) القراقر: ماءٌ لكلب في بادية السّماوة، وسوى: ماءٌ لبهراء في بادية السّماوة. (ياقوت، المعجم، ٣/٢٧١، ٤/٣١٧).

لخالد المنازل^(١).

وقد قال بعض العرب لخالد في هذا المسير: إن أنت أصبحت عند الشجرة الفلانية؛ نجوت أنت، ومن معك، وإن لم تدركها هلكت أنت ومن معك! فسار خالد بمن معه، وسروا سرورة عظيمة، فأصبحوا عندها، فقال خالد: عند الصباح يحمد القوم السرى، فأرسلها مثلاً وهو أول من قالها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢).

وقد قال رجلٌ من المسلمين في مسيرهم هذا عن خالد:

لله درُّ رافعٍ أنى اهتدى فوزٌ من قراقيرٍ إلى سوى
خمسا إذا ما سارها الجيشُ بكى ما سارها قبلك إنسيّ يرى^(٣)
وهذه القصّة تدلُّ على أنّ القائد المحنك لا يبالي بالأخطار؛ وأنّه أعمل الحيلة في سبيل الحصول على الماء لقطع الصحراء حتّى وصل إلى غرضه، وفي اليوم الخامس وصل جيش خالد إلى سوى، وهو أول تخوم الشام تاركاً وراءه حاميات الرّوم على الطّرق الرّئيسية العامّة المحسوبة، دلّلتها إرادة القائد، وإيمانه، وإقدامه^(٤).

وصل خالد إلى (أدك) وهي أوّل حدود الشام، فأغار على أهلها، وحاصرهم فحرّرها صلحاً، ثمّ نزل تدمر فامتنع أهلها، وتحصّنوا، ثمّ طلبوا الأمان، فصالحهم وواصل سيره، فأتى (القريتين)، فقاتله أهلها، فظفر بهم، ثمّ قصد (حوارين)، وصار إلى موضع يعرف بالثنية، فنشر رايته وهي كانت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسمّى العقاب؛ فسمّى ذلك الموضع بثنية العقاب^(٥)، ولما مرّ بعذراء أباحها، وغنم لغسان أموالاً عظيمة، وخرج من شرقي دمشق، ثمّ

(١) أبو بكر الصّدّيق، نزار الحديثي، وخالد الجنابي، ص ٦٨.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ٧.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) معركة اليرموك، اللّواء خليل سعيد، بحث مقدّم إلى ندوة الفكر العسكري العربيّ نقلاً عن أبي بكر الصّدّيق، خالد الجنابي، ص ٦٨.

(٥) أبو بكر الصّدّيق، د. نزار الحديثي، خالد الجنابي، ص ٦٨.

سار حتّى وصل إلى قناة بصرى، فوجد الصّحابة تحاربها فصالحه صاحبها، وسلّمها إليه، فكانت أوّل مدينة فتحت من الشّام والله الحمد، وبعث خالدٌ بأخماس ما غنم من غسان مع بلال ابن الحارث المزنيّ إلى الصّدّيق، ثمّ سار خالد، وأبو عبيدة، ومرثد، وشرحيل إلى عمرو بن العاص - وقد قصده الرّوم بأرض العرباء من المعور - فكانت واقعة أجنادين^(١).

وهكذا نجح خالد بن الوليد في الوصول إلى الشّام لمساندة الجيوش الإسلاميّة بعد مغامرة، ومباغتة فذّة في التاريخ العسكري الإنساني، يقول اللّواء محمود شيت خطّاب...: وعبر خالد للصّحراء من الطريق الخطر مباغتة فذّة في التّاريخ العسكري، لا أعرف لها مثيلاً، ولست أعتقد أنّ عبور ها نيبال للألب، وعبور نابليون للألب أيضاً، ولا تفويض نابليون من صحراء سيناء، أو قطع الجيش البريطاني لهذه الصّحراء في الحرب العالميّة الأولى، يمكن أن تعتبر شيئاً إلى جانب مغامرة خالد؛ لأنّ عبور الجبال أسهل بكثير من عبور الصّحراء لتيسّر الماء في الجبال وعدم تيسّره في الصّحراء، ولأنّ صحراء سيناء فيها كثير من الآبار، والأماكن المأهولة، وعدم تيسّر ذلك في الصّحراء التي قطعها خالد، فكان نجاح خالد في عبور الصّحراء مباغتة كاملة للرّوم لم يكونوا يتوقّعونها بتاتاً^(٢)، ممّا جعل حاميات المدن والمواقع التي صادفته في طريقه بين العراق وأرض الشّام تستسلم لقوّته بعد قتالٍ طفيف، أو بدون قتال؛ لأنّها لم تكن تتوقّع أبداً أن تلاقي قوّة جسيمة من المسلمين تظهر عليهم من هذا الاتجاه في هذا الوقت بالذّات^(٣).

لقد تأثّر القادة العسكريّون على مرّ التّاريخ وتوالي الأزمان بالعبقريّة العسكريّة الخالديّة، حتّى قال عنه الجنرال الألمانيّ (فون در ولتيس) مؤلّف كتاب «الأمة المسلّحة» قائد إحدى الجبهات التّركيّة الألمانيّة خلال الحرب العالميّة الأولى: (إنّه أستاذ في فنّ الحرب)^(٤).

(١) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ٦-٧.

(٢) قادة فتح العراق والجزيرة، ص ١٩٣ نقلاً عن الحرب النفسيّة (١٦٣/٢).

(٣) الحرب النفسيّة، د. أحمد نوفل (١٦٢/٢).

(٤) معارك خالد بن الوليد ضدّ الفرس، ص ١٦٧.

٢- خبر المثنى بن حارثة بالعراق بعد ذهاب خالد:

كان المثنى شجاعاً، مقداماً، شهماً، غيوراً، وكان ميمون النقيبة، حسن الرأي، وكان راسخ العقيدة، قوي الإيمان، شديد الثقة بالله، بعيد النظر، يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الخاصة، وكان يشارك أصحابه في السراء والضراء، وكان يمتلك موهبة إعطاء القرارات الصحيحة السريعة، وكان ذا إرادة قوية ثابتة يتحمل المسؤولية الكاملة في أخطر الظروف والأحوال، يثق بقواته، وتثق به قواته ثقة لا حدود لها، ويحبهم ويحبونه حباً لا مزيد عليه، ذا شخصية قوية نافذة فهو بحق كما يقول عنه عمر بن الخطاب: مؤثر نفسه^(١)، كانت له قابلية فائقة تعينه على أعباء القتال، وله ماضٍ ناصعٌ مجيدٌ، وكان دائماً أول من يهاجم، وآخر من ينسحب، وكان خبيراً بمناطق العراق، جريئاً على الفرس، سريع الحركة واسع الحيلة، وكان أول من اجترأ على الفرس بعد الإسلام، وجراً المسلمين عليهم، وأبلى في حروب العراق بلاءً لم يبله أحد، وهو الذي رفع معنويات المسلمين، وحطم معنويات الفرس^(٢)، وقد وصف المثنى جنود الفرس، فقال: قاتلت العرب، والعجم في الجاهلية والإسلام، والله لمئة من العجم في الجاهلية كانوا أشد علي من ألف من العرب، ولمئة من العرب اليوم أشد علي من ألف من العجم، إن الله أذهب بأسهم، وأوهن كيدهم، فلا يرؤو عنكم زهاء تروته، ولا سواد، ولا قسي فج، ولا نبأ طوأل، فإنهم إذا أعجلوا عنها، أو فقدوها؛ كانوا كالبهائم أينما وجهتموها؛ اتجهت^(٣).

كان تعيين الصديق للمثنى على العراق في محله، ويدل على معرفته بأقدار الرجال ومعادنهم، وعندما حان وقت رحيل خالد بجيشه إلى الشام خرج معه المثنى لوداعه، ولمّا حانت لحظة الفراق، قال له خالد: ارجع - رحمك الله! - إلى سلطانك غير مقصّر، ولا

(١) الحرب النفسية (٢/ ١٦٤).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) من ذي قار إلى القادسية، صالح عماش، ص ١٢٤ نقلاً عن الحرب النفسية (٢/ ١٦٨).

وان^(١)، وتسلم المثنى قيادة العراق بعد خالد، وما إن علم كسرى بذهاب خالد حتى حشد الاف الجنود بقيادة (هرمز جذويه) وكتب للمثنى يهدد، ويتوعد، فقال: إني قد بعثت إليكم جنداً من وحش أهل فارس، وإِنَّمَا هم رعاة الدجاج، والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم^(٢)، وأجابه المثنى بعقل، وفطنة، ولم ينس شجاعته في الرد على هذا المجوسي، فكتب يقول في رسالة لكسرى: إِنَّمَا أنت أحد رجلين: إمَّا باغ فذلك شرُّ لك، وخيرٌ لنا، وإمَّا كاذبٌ فأعظم الكذابين عقوبةً وفضيحةً عند الله، وعند النَّاسِ الملوك، وأمَّا الذي يدُّنَّا عليه الرأي فإنَّكم إِنَّمَا اضطررتم إليهم، فالحمد لله الَّذي ردَّ كيدكم إلى رعاة الدجاج، والخنازير^(٣).

فجزع أهل فارس من هذا الكتاب، ولاموا ملكهم على كتابه، واستهجنوا رأيه، وسار المثنى من الحيرة إلى بابل، ولما التقى المثنى وجيشهم بمكان عند عُدوة السراة الأولى^(٤)، اقتتلوا قتالاً شديداً جداً، وأرسل الفرس فيلاً بين صفوف الخيل ليفرق خيول المسلمين، فحمل عليه أمير المسلمين المثنى بن حارثة، فقتله، وأمر المسلمين فحملوا، فلم تكن إلا هزيمة الفرس، فقتلوهم قتلاً ذريعاً، وغنموا منهم ما لا عظيمًا، وفرت الفرس حتى انتهوا إلى المدائن في شرِّ حالة، ووجدوا الملك قد مات^(٥)، وعاد الاضطراب إلى بلاد فارس، وطارد المثنى أعداء الله حتى بلغ أبواب المدائن، ثم كتب إلى أبي بكرٍ بانتصاره على الفرس، واستأذنه في الاستعانة بمن تابوا من أهل الردة، لكن انتظاره طال، وأبطأ عليه أبو بكر في الرد لتشاغله بأهل الشام، وما فيه من حروب، فسار المثنى بنفسه إلى الصديق واستتاب على العراق بشير بن الخاصية، وعلى المسالحي سعيد بن مرة العجلي^(٦).

فلَمَّا وصل المدينة وجد أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على فراش المرض، وقد شارف الموت،

(١) عصر الصحابة، عبد المنعم الهاشمي، ص ١٨٩.

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/٧٣).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الصراة: بالفتح وهو نهر يستمد من الفرات.

(٥) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٨.

(٦) المرجع السابق، ج ٧، ص ١٨.

واستقبله أبو بكر واستمع إليه، واقتنع برأيه، ثم طلب عمر بن الخطاب فجاءه، فقال له: اسمع يا عمر ما أقول لك، ثم اعمل به، إني لأرجو أن أموت من يومي هذا، فإن أنا متُ فلا تمسينَّ حتَّى تندب النَّاس مع المثنَّى، ولا تشغلکم مصيبةٌ وإن عظمت عن أمر دينكم، ووصية ربكم، وقد رأيتني متوفَّى رسول الله وما صنعت، ولم يُصَبِّ الخلق بمثله... وإن فتح الله على أمراء الشَّام؛ فأردد أصحاب خالدٍ إلى العراق، فإنَّهم أهلُّه، وولاة أمره، وحده، وهم أهل الضَّراوة بهم، والجرأة عليهم^(١).

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٨.

المبحث الثاني: فتوحات الصديق بالشام

تمهيد:

كان اهتمام المسلمين بالشام منذ زمن النبي ﷺ حيث كتب إلى هرقل عظيم الروم كتاباً يدعوهُ إلى الإسلام، وكتب ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك غسان بالبقاء^(١) من أرض الشام وعامل قيصر على العرب يدعوهُ إلى الإسلام، فأدركته العزة بالإثم، فأراد أن يغزو رسول الله ﷺ، فأتاه أمرٌ من قيصر ينهيه عن ذلك، وأرسل ﷺ جيشاً بقيادة زيد بن حارثة، فاستشهد في مؤتة هو، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وتولّى بعدهم خالد بن الوليد الذي قام بمناورة عسكرية ناجحة تركت أثراً بعيداً في نفوس أهالي تلك المناطق، ونستطيع أن نقول: إن النبي ﷺ بتلك الغزوة وضع أسساً، وقطع خطوة نحو القضاء على دولة الروم المتجبرة في بلاد الشام، وهز هيبته من قلوب العرب، وحسّ المسلمين للاستعداد المعنوي والمادي لإتمام بقية الخطوات المباركة، بل قاد غزوة تبوك بنفسه ﷺ.

ومن خلال الاحتكاك الميداني استطاع المسلمون أن يتعرفوا على حقيقة الروم، ومعرفة أساليبهم في القتال، وأعطت تلك الغزوات الفرصة لأهالي بلاد الشام على أن يتعرفوا على أصول هذا الدين، ومبادئه، وأهدافه، فامن كثيرٌ من أهالي تلك البلاد، واستمرّ الصديق على المنهج الذي وضعه رسول الله ﷺ، ولذلك أصرّ بعد وفاة النبي ﷺ على إنفاذ جيش أسامة، ولما عقد الصديق الأولوية من ذي القصة عقد منها لواء لخالد بن سعيد بن العاص ووجهه إلى مشارف الشام، ثم أمره أن يكون رداءً للمسلمين بتيماء^(٢)، لا يفارقها إلا بأمره، ولا يقاتل إلا من قاتله، فبلغ خبره هرقل - ملك الروم - فجهز جيشاً من العرب التابعين للروم من بهراء، وشليح، وكتب، ولخم، وجذام، وغسان، فسار إليهم

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ٧٤).

(٢) البلقاء: من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى، عاصمتها عمّان.

خالد بن سعيد، فلقبهم على منازلهم، فافترقوا، وأرسل هو لأبي بكر بالخبر، فكتب إليه يأمره بالإقدام. وأن يزحف على الروم قبل تنظيم صفوفهم، ونصحه أن يحافظ على خط رجعتهم وألا يتوغّل كثيراً في بلاد العدو، وجاء في جواب الخليفة له: أن (أقدم، ولا تحجم، واستنصر بالله)، فتقدّم خالد حتّى بلغ القسطل في طريق البحر الميت فهزم جيشاً من الروم على الشاطئ الشرقي للبحر، ثمّ تابع مسيرته، عند ذلك هاج الروم، فجمعوا قوات تزيد على ما جمعه في تيماء، ورأى خالد تجمعهم فكتب إلى الخليفة يستمده؛ ليتابع تقدّمه، فبعث إليه عكرمة بن أبي جهل بجيش البدال^(١) كما بعث إليه الوليد بن عقبة بجموع أخرى، فلمّا وصلت هذه القوات إلى خالد بن سعيد أمر بالهجوم على الروم، وأخذ طريقه إلى مرج الصفر.

وانحدر القائد الرومي ماهان بجيشه يستدرج جيوش المسلمين التي اتجهت إلى جنوب البحر الميت، ووصلت إلى مرج الصفر شرقي بحيرة طبرية، واغتنم الروم على المسلمين الفرصة، وأوقعوا بهم الهزيمة، وصادف باهان سعيد بن خالد بن سعيد في كتيبة من العسكر، فقتلهم، وقتل سعيداً في مقدّماتهم، وبلغ خالد مقتل ابنه، ورأى نفسه قد أحيط به، فخرج هارباً في كتيبة من أصحابه على ظهور الخيل، وقد نجح عكرمة في سحب بقية الجيش إلى حدود الشام^(٢).

أولاً: عزم أبي بكر على غزو الروم ومبشرات في الطريق:

كان أبو بكر يفكر في فتح الشام، ويجيل النظر، ويقلّب الرأي في ذلك، وبينما كان الصديق مشغولاً بذلك الأمر جاءه شرحبيل بن حسنة أحد قواد المسلمين في حروب الردّة، فقال: يا خليفة رسول الله! أتحدث نفسك أنّك تبعث إلى الشام جنداً؟ فقال: نعم! قد حدثت

(١) تيماء: بلدة في أطراف الشام بين الشام ووادي القرى.

(٢) كان عكرمة قد رجع من كندة وحضرموت عن طريق اليمن ومكة، فلما بلغ المدينة أمره الخليفة أن يسير مدداً لخالد بن سعيد، وكان عكرمة قد سرح الجند الذين قاتلوا معه في جنوب شبه الجزيرة، فاستبدل الخليفة بهم غيرهم، وأمرهم أن يسيروا تحت لواء عكرمة إلى الشام.

نفسي بذلك، وما أطلعت عليه أحداً، وما سألتني عنه إلا لشيء. قال: أجل إنِّي رأيت يا خليفة رسول الله! فيما يرى النَّائم كأنَّك تمشي في الناس فوق خَرَشْفَةٍ من الجبل - يعني: مسلِكاً وعراً - حتَّى صعدت قُنَّةً من القنَّات العالية، فأشرفت على النَّاس ومعك أصحابك، ثم إنَّك هبطت من تلك القنَّات إلى أرضٍ سهلة دُمَّةٍ - يعني: لينة - فيها الزَّرْع، والقرى، والحصون، فقلت للمسلمين: شنُّوا الغارة على أعداء الله، وأنا ضامنٌ لكم بالفتح، والغنيمة، وأنا فيهم معي رايةً، فتوجَّهت بها إلى أهل قريةٍ، فسألوني الأمان، فأمنتهم، ثمَّ جئت، فأجدك قد انتهيت إلى حصنٍ عظيمٍ، ففتح الله لك، وألقوا إليك السَّلم، ووضع الله لك مجلساً، فجلست عليه، ثمَّ قيل لك: يفتح الله عليك، وتُنصَّر، فاشكر ربَّك واعمل بطاعته، ثمَّ قرأ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝﴾ ٢ فسَيِّحٌ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرُهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿النصر: ١ - ٣﴾.

ثمَّ انتبهت! فقال له أبو بكر: نامت عينك، خيراً رأيت، وخيراً يكون إن شاء الله. ثمَّ قال: بشرت بالفتح، ونعيت إليَّ نفسي، ثمَّ دمعت عينا أبي بكر، وقال: أما الخرشفة التي رأيتنا فيها حتَّى صعدنا إلى القنَّة العالية، فأشرفنا على الناس، فإنَّا نكابد من أمر هذا الجند والعدوِّ مشقَّةً، ويكابدون، ثمَّ نعلو بعد، ويعلو أمرنا. وأما نزولنا من القنَّة العالية إلى الأرض السَّهلة الدَّمَّة، والزَّرْع، والعيون، والقرى، والحصون؛ فإنَّا نزل إلى أمرٍ أسهل ممَّا كنَّا فيه من الخصب، والمعاش.

وأما قلبي للمسلمين: شنُّوا على أعداء الله الغارة فإنِّي ضامنٌ لكم الفتح والغنيمة، فإنَّ ذلك دُئُو المسلمين إلى بلاد المشركين، وترغيبِي إيَّاهم على الجهاد، والأجر والغنيمة؛ الَّتِي تُقسم لهم، وقبولهم. وأمَّا الرَّاية التي كانت معك، فتوجَّهت بها إلى قريةٍ من قراهم، ودخلتها، فاستأمنوا، فأمنتهم، فإنَّك تكون أحد أمراء المسلمين، ويفتح الله على يدك. وأمَّا الحصن الذي فتح الله لي فهو ذلك الوجه الَّذي يفتح الله لي. وأمَّا العرش الَّذي رأيتني عليه جالساً؛ فإنَّ الله يرفعني، ويضع المشركين، وقال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وأما الذي أمرني بطاعة الله، وقرأ عليّ السّورة فإنّه نعى إليّ نفسي، وذلك: أنّ النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نعى الله إليه نفسه حين نزلت هذه السّورة، وعلم أنّ نفسه قد نُعيت إليه. ثمّ سألت عيناه وقال: لأمرنّ بالمعروف، ولأنهي عن المنكر، ولأجدهن فيمن ترك أمر الله، ولأجرهن الجنود إلى العادلين بالله - يعني: المشركين به - في مشارق الأرض ومغاربها حتّى يقولوا: الله أحد، أحد، لا شريك له، أو يؤدّوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، هذا أمر الله وسنّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا توفّاني الله - عَزَّوَجَلَّ - لا يجدني الله عاجزاً، ولا وانيّاً، ولا في ثواب المجاهدين زاهداً^(١). فهذه الرؤيا الصّالحة من المبشّرات التي حدّث بها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال: «لم يبق من النّبوة إلا المبشّرات». قالوا: وما المبشّرات؟ قال: «الرّؤيا الصّالحة»^(٢). فهذه الرّؤيا جاءت على قدرٍ لتدفع الصّدّيق إلى العزم على ما همّ به، وإعلان ما أضمره، فدعا إلى عقد مجلس شورى بخصوص غزو الشّام، فقد أخذ الصّدّيق بالعزيمة، والعمل، والتوكّل على الله، واستأنس بالرّؤيا.

ثانياً: مشورة أبي بكرٍ في جهاد الرّوم واستنفار أهل اليمن:

١ - مشورة أبي بكرٍ في جهاد الرّوم:

لَمَّا أَرَادَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَجْهَزَ الْجُنُودَ إِلَى الشَّامِ دَعَا عُمَرَ، وَعُثْمَانَ، وَعَلِيّاً، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصٍ، وَأَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَرَّاحِ، وَوُجُوهَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، وَغَيْرِهِمْ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا تَحْصِي نِعْمَهُ، وَلَا تَبْلُغُ الْأَعْمَالُ جَزَاءَهَا، فَلَهُ الْحَمْدُ كَثِيراً عَلَى مَا اصْطَنَعَ عِنْدَكُمْ مِنْ جَمْعِ كَلِمَتِكُمْ، وَأَصْلَحِ ذَاتَ بَيْنِكُمْ، وَهَذَا كُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَنَفَى عَنْكُمْ الشَّيْطَانَ، فَلَيْسَ يَطْمَعُ أَنْ تَشْرَكُوا بِاللَّهِ، وَلَا أَنْ تَتَّخِذُوا إِلَهًا غَيْرَهُ، فَالْعَرَبُ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ، بَنُو أَبِي وَأُمٍّ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَفْرِكُمْ إِلَى

(١) أبو بكر الصديق، نزار الحديثي، د. خالد الجنابي، ص ٥٨.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢/ ٦١، ٦٢)؛ فتوح الشّام للأزدي، ص ١٤ نقلاً عن التّاريخ الإسلاميّ للحميدي (١٧٧/٩، ١٧٨).



الرُّومَ بالشَّامِ، فمن هلك؛ هلك شهيداً، وما عند الله خيرٌ للأبرار، ومن عاش؛ عاش مدافعاً عن الدين، مستوجباً على الله عَزَّوَجَلَّ ثواب المجاهدين، هذا رأيي الَّذي رأيت، فليشر عليَّ كلُّ امرئٍ بمبلغ رأيه.

فقام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحمد الله، وأثنى عليه، وصَلَّى على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: الحمد لله الذي يَخْصُّ بالخير من يشاء من خلقه، والله ما استَبَقْنَا إلى شيءٍ من الخير إلا سَبَقْتَنَا إليه، وذلك فضل الله يؤتیه من يشاء، قد والله أردت لقاءك لهذا الرأي الَّذي ذكرت، فما قضى الله أن يكون ذلك حتَّى ذكرته الآن، فقد أصبت، أصاب الله بك سبيل الرَّشاد، سَرَّبَ إليهم الخيل في إثر الخيل، وابعث الرِّجال تتبعها الرِّجال، والجنود تتلوها الجنود، فإنَّ الله - عَزَّوَجَلَّ - ناصر دينه ومعزُّ الإسلام، وأهله، ومنجز ما وعد رسوله.

ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَامَ، فَقَالَ: يا خليفة رسول الله! إِنَّهَا الرُّومُ، وبنو الأصفر حَدُّ حديدٍ، وركنٌ شديدٌ، والله ما أرى أن تقحم الخيل عليهم إقحاماً، ولكن تبعث الخيل فتغير في أدنى أرضهم، ثُمَّ تبعثها فتغير، ثُمَّ ترجع إليك، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضربوا بعدوَّهم، وغنموا من أرضهم، فقوموا بذلك على قتالهم، ثُمَّ تبعث إلى أقاصي أهل اليمن، وإلى ربيعة، ومضر فتجمعهم إليك، فإن شئت عند ذلك غزوهم بنفسك، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك. ثُمَّ جلس، وسكت النَّاسُ، فقال لهم أبو بكر: ماذا ترون رحمكم الله؟!

فقام عثمان بن عفان - رضوان الله عليه - فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، وصَلَّى على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: رأيي أَنَّكَ ناصحٌ لأهل هذا الدِّين، عليهم شفيقٌ، فإذا رأيت رأياً علمته رشداً، وصلاحاً، وخيراً؛ فاعزم على إمضائه غير ظنٍّ، ولا مُتَّهِمٍ^(١). فقال طلحة، والزُّبير، وسعد، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعيد بن زيد، وجميع من حضر ذلك المجلس من المهاجرين والأنصار: صدق عثمان فيما قال، ما رأيت من رأي، فأمضه فإنَّا سامعون لك، مطيعون، لا نخالف أمرك، ولا ننههم رأيك، ولا نتخلف عن دعوتك. فذكروا هذا وشبهه،

(١) البخاري، كتاب التعبير، رقم (٦٩٩٠).

وعليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في القوم لا يتكلم، فقال له أبو بكر: ما ترى يا أبا الحسن؟! فقال: أرى أنَّك مبارك الأمر، ميمون النقيبة^(١)، وإنك إن سرت إليهم بنفسك أو بعثت إليهم نُصرت إن شاء الله. فقال أبو بكر: بشرك الله بخير، فمن أين علمت هذا؟ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا يزال هذا الدين ظاهراً على كلِّ مَنْ ناوأه حتَّى يقوم الدين وأهله ظاهرون»^(٢) فقال أبو بكر: سبحان الله! ما أحسن هذا الحديث! لقد سررتني سرَّك الله في الدنيا والآخرة.

ثم إنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام في النَّاس، فحمد الله، وأثنى عليه، وذكره بما هو أهله، وصَلَّى على النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: أيها الناس! إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام، وأعزَّكم بالجهاد، وفَضَّلَكُم بهذا الدِّين على أهل كلِّ دين، فتجهَّزوا عباد الله إلى غزو الرُّوم بالشَّام، فإنِّي مؤمَّرٌ عليكم أمراء، وعاقِدٌ لهم عليكم، فأطيعوا ربَّكم، ولا تخالفوا أمراءكم، ولتَحسُن نيَّتكم، وسيرتكم، وطعمتكم، فإنَّ الله مع الَّذِينَ اتَّقوا والَّذِينَ هم محسنون^(٣)... وأمر أبو بكر بلالاً فنادى في النَّاس: أن انفروا إلى جهاد عدوِّكم الرُّوم بالشَّام^(٤).

من هذه المشورة تبين لنا منهج أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مواجهة الأمور الكبيرة، حيث لم يكن يبت فيها برأي حتَّى يجمع أهل الحلِّ والعقد، فيستشيرهم، ثم يصدر بعد ذلك عن رأي ممحصٍ مدروسٍ، وهذه هي سنَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما مرَّ معنا في السِّيرة النَّبَوِيَّة، وحينما نتأمَّل في تفاصيل هذه المحاور نجد: أن الصَّحابة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - قد أجمعوا على موافقة أبي بكرٍ في غزو الرُّوم، وإنما تنوعت وجهات نظر بعضهم في كيفية هذا الغزو، فكان رأي عمر إرسال الجيوش تلو الجيوش حتَّى تتجمَّع في الشَّام، فتكون قوَّة كبيرة تستطيع أن تصمد للأعداء. وكان رأي عبد الرحمن بن عوف أن يبدأ الغزو بقوَّات صغيرة، تغير على

(١) يعني: لا نظنُّ بك التَّقصير، ولا نتَّهمك في إخلاصك.

(٢) النقيبة: الرأي والمشورة.

(٣) البخاري، كتاب الاعتصام، رقم (٧٣١١)؛ مسلم، كتاب الإمارة رقم (١٥٣٣).

(٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٢/ ٦٣ - ٦٥) نقلاً عن الحميدي.

أطراف الشام، ثم تعود إلى المدينة، حتى إذا تم إرهاب العدو وإضعافه؛ تبعث الجيوش الكبيرة، وقد أخذ أبو بكر برأي عمر في هذا الأمر، واستفاد من رأي عبد الرحمن بن عوف فيما يتعلق بطلب المدد بالجيوش من قبائل العرب، وخاصة أهل اليمن^(١).

٢- استنفار أهل اليمن:

كتب الصديق إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله، وهذا هو نص الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم: من خليفة رسول الله إلى من قرئ عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن: سلام عليكم. فإنني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فإن الله تعالى كتب على المؤمنين الجهاد، وأمرهم أن ينفروا خفافاً، وثقالاً، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١] والجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم، وقد استنفروا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام، وقد سارعوا إلى ذلك، وعسكروا، وخرجوا، وحسنت بذلك نيتهم، وعظمت في الخير حسبتهم، فسارعوا عباد الله إلى ما سارعوا إليه، ولتحسن نيتكم فيه، فإنكم إلى إحدى الحسنين: إما الشهادة، وإما الفتح والغنيمة، فإن الله تبارك وتعالى لم يرخص من عباده بالقول دون العمل، ولا يزال الجهاد لأهل عداوته حتى يدينوا بدين الحق، ويقرؤا لحكم الكتاب، حفظ الله دينكم، وهدى قلوبكم، وزكى أعمالكم، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين^(٢). وبعث الصديق هذا الكتاب مع أنس بن مالك رضى الله عنه وفي هذا الكتاب يظهر دور أبي بكر رضى الله عنه في حث المسلمين، وجمعه للجهاد في سبيل الله، وهو ما يمكن أن يسمى بالتعبئة العامة^(٣).

ومن خطاب الصديق لأهل اليمن يتضح: أن الجهاد من أجل تحقيق غرضين: تحقيق إسلام المسلمين؛ لأن الله لا يرضى لعباده بالقول دون العمل، ومقاتلة غير المسلمين حتى يدينوا بدين الحق، ويقرؤا لحكم كتاب الله، وهذا هو السبب الذي جعل أهل اليمن ينساحون

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) التاريخ الإسلامي للحميدي، مرجع سابق، ج ٩، ص ١٨٨.

(٣) تاريخ فتوح الشام للأزدي، ص ٤٨، تهذيب تاريخ دمشق (١/ ١٢٩).

من جميع أرجاء اليمن بأعدادٍ هائلةٍ، ولم يصل إلى علمنا أن أحداً منهم خرج مستقرها، بل خرجوا طواعيةً، وأقبلت جموعهم بنسائهم، وأولادهم، وكانوا من أسرع المستجيبين للنداء حباً ورغبةً في الجهاد، ويعبر عن هذا أنس بن مالكٍ حامل رسالة الصِّديق إلى أهل اليمن، والذي تنقل بين أحيائهم قبيلةً قبيلةً، وجناحاً جناحاً يقرأ عليهم كتاب أبي بكرٍ، ويحثُّهم على الإسراع، فقال: فكان كلُّ من أقرأ عليه ذلك الكتاب، ويسمع هذا القول يحسن الردَّ عليّ، ويقول: نحن سائرون، وكأنَّا قد فعلنا، حتَّى انتهيت إلى ذي الكلاع، فلمَّا قرأت عليه الكتاب، وقلت هذا المقال؛ دعا بفرسه، وسلاحه، ونهض في قومه من ساعته، ولم يؤخِّر ذلك، وأمر بالعسكر، فما برحنا حتَّى عسكر، وعسكر معه جموعٌ كثيرةٌ من أهل اليمن، وقد قام فيهم خطيباً، فقال فيما قاله: ثمَّ قد دعاكم إخوانكم الصَّالِحون إلى جهاد المشركين، واكتساب الأجر العظيم، فلينفر مَنْ أراد النَّفير معي السَّاعة^(١)، فعاد أنس بن مالك في حوالي ١١ رجب ١٢ هـ وبشَّرَ أبا بكرٍ بقدوم القوم فقال: قد أتوك شُعْثاً غُبْراً أبطال اليمن، وشجعناها، وفرسانها، وقد ساروا إليك بالذَّراري، والحرَم، والأموال^(٢)، وما لبث إلا أياماً حتَّى قدم ذو الكلاع الحميري وقومه في حوالي ١٦ رجب ١٢ هـ^(٣)، ولم تكن هذه الاستجابة الفوريَّة الرَّغبة بأهل (حمير) بل كلُّ من جاء من اليمن كان على نفس المستوى، وعلى سبيل المثال فقد قدم من (همدان) أكثر من ألفي رجلٍ وعليهم حمزة بن مالك الهمداني^(٤)، وعندما قدم أهل اليمن على المدينة، ودخلوا المسجد على أبي بكرٍ فلمَّا سمعوا القرآن؛ اقشعرت جلودهم من خشية الله وجاشت أنفسهم، وجعلوا يكون خاشعين، فبكى أبو بكر، وقال: هكذا كنَّا، ثم قست القلوب^(٥)، وعندما رأى ذو الكلاع الحميريُّ الصِّديق وجده شيخاً نحيلاً معروق الوجه، وعليه ثوب خشن، ولا شيء يسطع من ثيابه! لا شيء على الإطلاق غير

(١) تاريخ الدَّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ٢٩٤.

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٦٤)؛ اليمن في صدر الإسلام، ص (٣٠١، ٣٠٢).

(٣) اليمن في صدر الإسلام، ص ٣٠٢.

(٤) المصدر السَّابق نفسه.

(٥) الصِّديق أول الخلفاء، ص ١١٤؛ أبو بكرٍ للطنطاوي، ص ٢١٨.

الورع يضيء وجهه الأبيض.

وكان ذو الكلاع قدم على الصديق من اليمن، ومن خلفه، ومن حوله ألف عبد من الفرسان، وعلى رأسه التاج، وعلى حلته الجواهر المتلألئة، وبردته تسطع بخيوط الذهب المرصع باللالئ، والياقوت، والمرجان، فلما شاهد ما عليه الصديق من اللباس، والزهد، والتواضع، والنسك، وما هو عليه من الوقار، والهيبة، تأثر ذو الكلاع، ومن معه من السادة، فذهبوا مذهب الصديق ونزعوا ما كان عليهم^(١)، وقد تأثر ذو الكلاع بالصديق، وتزيًا بزيه حتى إنه رُئي يومًا في سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته، وقالوا له: فضحتنا بين المهاجرين والأنصار! قال: فأردتم أن أكون جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام؟ لا ها الله! (أي: لا والله!) لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا^(٢).

وصنعت ملوك اليمن كما صنع ذو الكلاع الحميري، فتخلّوا عن التيجان المثقلة بالجواهر، وتركوا حلل المخمل الموشى بخيوط الذهب، والياقوت، والدرّ والمرجان، واشتروا من سوق المدينة ثياباً خشنة، ووضع الصديق في بيت المال ما تخلّوا عنه جميعاً من نفائس^(٣).

كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خير مَنْ تمثّل بالإسلام في حياته بعد رسول الله، وكان لسان حاله دعوة إلى الله تعالى، وأبلغ نصيحة تلك التي يشاهدها الناس من طريق العين لا من طريق الأذن، وخير الناصحين من ينصح بأفعاله لا بأقواله.. فلمّا رأى ملوك اليمن: أن أبا بكر خليفة رسول الله وصاحب الأمر والنهي في الجزيرة العربية يمشي في الأسواق، ويلبس العباءة والشملة؛ علموا: أن هناك شيئاً أعظم من الثياب المزركشة، والذهب واللالئ، هو النفس العظيمة، فسعوا ليتشبّهوا بأبي بكر، واستحيوا من الله والناس أن يقابلوا خليفة رسول الله بالتاج، والبرود، والحلي، وهو بعباءة، فقد صغرت عليهم نفوسهم، وهانت، وهذأت ثورتها،

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢/ ٣٠٥).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الصديق أوّل الخلفاء، ص (١٣٧، ١٣٨).

وانطفأت سورتها، كما ينطفأ النجم الصغير إذا واجه الشمس. رحم الله أبا بكر! فقد كان عظيماً في تواضعه، متواضعاً في عظمته^(١).

ثالثاً: عقد الصديق الألوية للقادة وتوجيه الجيوش:

عزم الصديق على تسيير الجيوش لبلاد الشام، فدعا الناس إلى الجهاد، وعقد الألوية لأربعة جيوش أرسلها لفتح الشام، وهي:

١ - جيش يزيد بن أبي سفيان:

وهو أول الجيوش التي تقدّمت إلى بلاد الشام، وكانت مهمّته الوصول إلى دمشق، وفتحها، ومساعدة الجيوش الأربعة عند الضرورة، وكان جيش يزيد أول الأمر ثلاثة الاف ثم عزّزه الخليفة بالإمدادات حتّى صار معه بحدود السبعة الاف رجل، وقبل رحيل جيش يزيد أوصاه الخليفة أبو بكر وصيةً بليغةً عالية المستوى، تشمل على حكم باهرة في مجالي الحرب، والسلم، وشيعة ماشياً، وأوصاه بما يأتي:

إني قد وليتك لأبلوك، وأجرّبك، وأخرّجك، فإن أحسنت؛ رددتك إلى عملك، وزدتك، وإن أسأت؛ عزلتك، فعليك بتقوى الله فإنّه يرى من باطنك مثل الذي من ظاهرك، وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله، وقد وليتك عمل خالد^(٢)، وإياك وعبيّة الجاهليّة^(٣)، فإن الله يبغضها، ويبغض أهلها، وإذا قدمت على جندك؛ فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعدّهم إياه، وإذا عظمتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلّ الصلوات لأوقاتها بإتمام ركوعها وسجودها، والتخشّع فيها، وإذا قدم عليك رسل عدوك، فأكرمهم، وأقلل لبّتهم حتّى يخرجوا

(١) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، ص ٢١٩

(٢) يعني: عمل خالد بن سعيد بن العاص وكان قد استعفى أبا بكر، فأعفاه.

(٣) يعني: التعصّب لما كان عليه أهل الجاهليّة.

من عسكرك وهم جاهلون به، ولا ترينهم، فيروا خللك^(١)، ويعلموا علمك، وأنزلهم في ثروة عسكرك^(٢)، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرّك لعانيتك، فيخلط أمرك، وإذا استشرت؛ فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخزن عن المشير خبرك، فتؤتى من قبل نفسك، واسمر بالليل في أصحابك تأتاك الأخبار، وتنكشف عندك الأستار، وأكثر حرسك وبدّهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارستهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه؛ فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط، وأعقب بينهم بالليل، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرهما لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجّن فيها، ولا تسرع إليها، ولا تتخذ لها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك، فتفسده، ولا تجسّس عليهم، فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم، واكتف بعانيتهم، ولا تجالس العابثين، وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تجبن؛ فيجبن الناس، واجتنب الغلول؛ فإنه يقرب الفقر، ويدفع النصر، وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له، قال ابن الأثير: وهذه من أحسن الوصايا وأكثرها نفعاً لولاة الأمر^(٣).

ومن فوائد هذه الوصية:

- أن الولايات والمناصب ليست حقاً ثابتاً لأصحابها، وإنما بقاؤهم فيها مرهونٌ بالإحسان، والنجاح في العمل، ومن واجب المسؤول الأعلى أن يعزلهم إذا أساءوا، وإن هذا الشعور يدفع صاحب العمل إلى مضاعفة الجهد في بذل الطاقة ليصل إلى مستوى أعلى من النجاح في العمل، أمّا إذا ضمن البقاء فإنه قد يميل إلى الكسل والاشتغال بمتاع الدنيا فيخل بمسؤوليته، ويعرض من تحت ولايته إلى أنواع من الفساد، والفوضى، والنزاع.
- إن تقوى الله - عزّ وجلّ - هي أهم عوامل النجاح في العمل؛ لأن الله تعالى مطلعٌ على

(١) يعني: لا تطلعهم على دخيلة أمرك، فيطلّعو على عيوبك.

(٢) يعني: ليروا قوّة المسلمين.

(٣) الكامل لابن الأثير (٢/ ٦٤، ٦٥).

ظاهر أعمال النَّاس وباطنهم، فإذا اتَّقوه في باطنهم؛ فحريُّ بهم أن يتَّقوه في ظاهرهم، وبذلك يتجنَّب الوالي كلَّ مظاهر الفساد، والإفساد؛ التي تكون عادةً من الاستجابة للعواطف الجامحة؛ التي لا تلتزم بتقوى الله تعالى.

• التحذير من التعصُّب للآباء والأجداد، والأقوام، فإن التعصُّب لذلك قد يحمل الإنسان على الانحراف عن الطريق المستقيم؛ إذا كان ما عليه الآباء والأجداد مخالفاً للاستقامة، إضافةً إلى أنَّه يضعف من الانتماء للرَّابطة الإسلاميَّة الوحيدة، وهي الأخوة في الله تعالى.

• الإيجاز في الموعظة فإنَّ كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، فيضيع المقصود، ويغلب على السَّامع الإعجاب ببلاغة المتكلِّم إن كان بليغاً عن استيعاب ما يقول، والاستفادة من مواعظه، وإن لم يكن بليغاً؛ فإنَّ الملل يأخذ بالسَّامع فلا يعي ما يقول المتكلِّم.

• إذا أصلح المسؤول نفسه، وتفقَّد عيوبه، وجعل من نفسه نموذجاً صالحاً للقدوة الحسنة، فإنَّ ذلك يكون سبباً في صلاح مَنْ هم تحت رعايته.

• الاهتمام بإقامة الصَّلَاة كاملةً مظهرًا، ومخبرًا، ومظهرًا من ناحية إكمال أقوالها، وأفعالها، ومخبرًا من ناحية الخشوع فيها، وحضور القلب مع الله تعالى، فإنَّ هذه الصَّلَاة الكاملة يقام بها ذكر الله في الأرض، وتهذَّب السُّلوك، وتُقَوَّى القلوب، وتبعث على ارتياح النفوس، وتعتبر ملاذاً للمسلم عند الشَّدائد.

• إكرام رسل العدوِّ إذا قدموا مع الاحتراس منهم، وعدم تمكينهم من معرفة واقع الجيش الإسلاميِّ، فإكرامهم نوعٌ من الدَّعوة إلى الإسلام فيما إذا عرف العالم ما يتحلَّى به المسلمون من مكارم الأخلاق، ولكن لا يصل هذا الإكرام إلى حدِّ اطلاعهم على بطانة أمور المسلمين، بل ينبغي اطلاعهم على قوَّة جيش المسلمين؛ ليرهبوا بذلك أقوامهم.

• الاحتفاظ بالأسرار، وعدم التَّهاون بإفشائها، خاصَّةً فيما يتعلَّق بأمر المسلمين العامَّة، فإنَّ الحكيم يستطيع التَّصرُّف في الأمور؛ وإن تغيَّرت وجوهها، ما دام سرُّه حبيساً في ضميره، فإذا أفضاه؛ اختلطت عليه الأمور، ولم يستطع التحكُّم فيها.

• إتقان المشورة أهم من النظر في نتائجها، فإن المستشار وإن كان حصيف الرأي، ثاقب الفكر؛ فإنه لا يستطيع أن يفيد من استشاره حتى ينكشف له أمره بغاية الوضوح، فإذا أخفى المستشار بعض تفاصيل القضية، فإنه يكون قد جنى على نفسه، حيث قد يتضرر بهذه المشورة.

• أن على القائد وكل مسؤول أن يكون مخالطاً لمن ولي أمرهم على مختلف طبقاتهم؛ ليكون دقيق الخبرة بأمورهم، وفي هذا أكبر العون له على تصوّر مشكلاتهم والمبادرة بإيجاد الحلول لها، أما المسؤول الذي يعيش في عزلة، ولا يختلط إلا بأفراد من كبار رعيته، فإنه لا يصل إليه من المعلومات إلا ما كان من طريق هؤلاء، وقد لا يكشفون له الأمور بكلّ تفصيلاتها، وقد يحلّلون له الأمور على غير وجهها الصحيح.

• الاهتمام بأمر حراسة المسلمين خاصّةً في مكامن الخطر، واختيار الحراس الأمّناء من ذوي النباهة، وعدم وضع الثقة الكاملة بهم، بل لا بدّ من الرّقابة عليهم حتى لا يؤتى المسلمون من قبلهم.

• أن يسلك المسؤول في عقاب المخالف مسلكاً وسطاً، فلا يتهاون، فيترك عقوبة المستحقّ، فإنّ ذلك يُجرّئ على مزيد من المخالفة، ويجريّ غيره على ارتكاب المخالفات، فتسود الفوضى، وينفلت الأمر، ولا يشتدّ في العقوبة، فيُنْفَر الرّعية، ويدفعهم إلى السخط، والتّحزّب، بل تكون عقوبته بحكمة، واتزان، وبعد النظر، والتروّي بحيث تؤدّي غرضها التّربويّ بدون إثارة ضجّة، ولا دفع إلى النّقد والسخط.

• أن يكون لدى المسؤول يقظة، وانتباه لكلّ ما يجري في حدود المسؤوليّة المناطة به، حتى يشعر أفراد الرّعية بأنّ هناك اهتماماً بأمورهم، فيزيد المحسن إحساناً، ويقتصر المسيء عن الإساءة، ولكن بدون تجسّس عليهم، فإنّ ذلك يعتبر فضيحةً لهم، وقد ينقطع بذلك خيط العلاقة الذي يربط المسؤول بأفراد رعيته من المودّة، والإعجاب، والشّكر على الجميل، وهذا الخيط ما دام قائماً؛ فإنه يمنع أصحاب الجنوح من ارتكاب المخالفات؛ التي تفسد المجتمع، وتحدث الفوضى، فإذا انقطع، ولم يكن هناك عاصم من تقوى الله تعالى؛

فإنَّ أهمَّ الحواجز التي تحول دون الانطلاق وراء الشهوات تكون قد تحطَّمت، ويصعب بعد ذلك علاج الأمور، لأنَّها تحتاج إلى قوَّة رادعة، وهذه لها سلبياتها المعروفة.

• أن يحرص المسؤول على مجالسة أهل الصِّدق، والوفاء، والعقول الرَّاجحة، وإن سمع منهم ما يكره أحياناً من النقد، والتَّوجيه؛ فإنَّ ذلك يعود عليه، وعلى من استرعاه الله أمرهم بالنفع، وألا يجالس أصحاب اللُّهو، والأهداف الدنيويَّة؛ فإنَّ هؤلاء وإن أنس بكلامهم، وثنائهم؛ فإنَّهم يحولون بينه وبين التَّفكير في الأمور الجادَّة، فلا يستفيق بعد ذلك إلا والنكبات قد حلَّت به، وبمن ولي أمورهم.

• أن يصدِّق القائد في لقاء الأعداء وألا يجبن، فإنَّ جُبنه يسري على جنده، فيقع بذلك الفشل، والهزيمة، وفي غير الحرب أن يكون المسؤول شجاعاً في مواجهة المواقف، وألا يضعف، فيسري ضعفه على مَنْ هم تحت إدارته من العاملين، فيقلُّ بذلك مستوى الأداء، ويضعف الإنتاج.

• أن يتجنَّب القائد الغلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، هذا في مجال الحرب، وفي مجالات السِّلْم أن يتجنَّب المسؤول آيَّة استفادة دنيويَّة من عمله لا تحلُّ له شرعاً، مثل أخذ الهدايا التي يقصد بها من دفعها الاستفادة من المسؤول في مجانية الحقِّ، فإنَّ ذلك من الغلول، والغلول كما جاء في هذه الوصيَّة يقرب إلى الفقر، ويدفع النَّصر.

• ومن هذه الفوائد تبين لنا عظمة هذه الوصيَّة؛ التي أوصى بها أبو بكرٍ أحد قوَّاده، وهي تبين لنا: أنَّه كان يعيش بفكره مع قضايا المسلمين، وأنَّه كان يتصوَّر ما قد يواجه قوَّاده، فيحاول تزويدهم بما ينفعهم في تلافي الوقوع في المشكلات، وحلِّها إذا وقعت، وهذه الوصيَّة وأمثالها تسجِّل إضافةً جديدةً لمواقف أبي بكرٍ المتعدِّدة الأنواع، فإذا تأملت إدارته للحكم؛ وجدت رجلاً بارعاً في أمور السِّياسة، وإذا رأيت توجيهه للقادة العسكريين؛ تجده رجلاً بارعاً في شؤون الحرب، وكأنَّه مع القادة في الميادين، وإذا رأيت رحمته، وتأليفه للقلوب؛ رأيت رجلاً بارعاً في الدَّعوة إلى الله تعالى، فهو الرَّجل الرَّحيم بالمؤمنين، الرَّافع لشأن أهل البلاد، والصِّدق منهم، الخبير بأهل الكفاءة والقدرة، القويُّ الحازم على أعداء الله

من المنافقين، والكافرين^(١).

٢- جيش شرحبيل بن حسنة:

حدّد أبو بكر الصّدّيق لمسير شرحبيل ثلاثة أيام بعد مسير يزيد بن أبي سفيان، فلمّا مضى اليوم الثالث، ودّع أبو بكر شرحبيل، وقال له: يا شرحبيل! ألم تسمع وصيتي ليزيد بن أبي سفيان؟ قال: بلى! قال: فإنّي أوصيك بمثلها، وأوصيك بخصالٍ أغفلت ذكرهنّ ليزيد: أوصيك بالصّلاة في وقتها، وبالصّبر يوم البأس حتّى تظفر، أو تُقتل، وبعيادة المرضى، وبحضور الجنائز، وذكر الله كثيراً على كلّ حال. فقال شرحبيل: الله المستعان، وما شاء الله أن يكون كان^(٢). وكان جيش شرحبيل ما بين ثلاثة الاف إلى أربعة الاف، وأمره أن يسير إلى تبوك، والبقاء، ثمّ بصرى، وهي آخر مرحلة، وتقدّم شرحبيل نحو البلقاء حيث لم يلق مقاومةً تذكر، وكان يسير على الجناح الأيسر لجيش أبي عبيدة والجناح الأيمن لجيش عمرو بن العاص في فلسطين، فأوغل في البلقاء حتّى بلغ بصرى فأخذ يحاصرها، فلم يوفق في فتحها؛ لأنها كانت من المراكز الحصينة^(٣).

٣- جيش أبي عبيدة بن الجراح:

لمّا عزم الصّدّيق على بعث أبي عبيدة بن الجراح بجيشه؛ دعاه، فودّعه، ثمّ قال له: اسمع سماع من يريد أن يفهم ما قيل له، ثمّ يعمل بما أمر به: إنك تخرج في أشرف النّاس، وبيوتات العرب، وصلحاء المسلمين، وفرسان الجاهليّة، كانوا يقاتلون إذ ذاك على الحميّة، وهم اليوم يقاتلون على الحسبة والنيّة الحسنة. أحسن صحبة منّ صحبتك، وليكن النّاس عندك

في الحقّ سواءً، واستعن بالله، وكفى بالله معيناً، وتوكّل على الله، وكفى بالله وكيلاً، اخرج من غدٍ إن شاء الله^(٤). وكان جيشه يتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة الاف مجاهدٍ، وهدف ذلك

(١) التّاريخ الإسلامي (٩/ ١٩٢-١٩٧).

(٢) فتوح الشّام للأزدي، ص ١٥.

(٣) أبو بكر الصّدّيق، نزار الحديثي، ص ٦٢.

(٤) فتوح الشّام للأزدي، ص ١٧.

الجيش حمص، سار أبو عبيدة من المدينة ماراً بوادي القرى، ثمّ اطلع إلى الحجر (مدن صالح) ثمّ إلى ذات منار، ثمّ إلى زيزا، ومنها إلى مؤاب، فالتقى بقوة للعدوّ، فقاتلهم، ثمّ صالحوه، فكان أوّل صلح عقد في الشّام، ثمّ واصل تقدّمه نحو الجابية^(١)، وكان هذا الجيش الجناح الأيسر للجيش الأوّل، والجناح الأيمن للجيش الثّاني^(٢)، وكان في صحبة أبي عبيدة بن الجراح فارس من فرسان العرب المشهورين، قيس بن هبيرة بن مسعود المرادي، فأوصى به الصّدّيق أبا عبيدة قبل سفره، وقال له: إنَّك قد صحبك رجلٌ عظيم الشّرف، فارس من فرسان العرب، ليس بالمسلمين غناء عن رأيه، ومشورته، وبأسه في الحرب، فأدنه، وأطفه، وأره أنّك غير مستغنٍ عنه، ولا مستهينٍ بأمره، فإنَّك تستخرج بذلك نصيحتك لك، وجهده، وجدّه على عدوّك، ودعا أبو بكر قيس بن هبيرة، فقال: إنّي بعثتك مع أبي عبيدة الأمين؛ الذي إذا ظلم؛ لم يظلم، وإذا أسيء إليه؛ غفر، وإذا قُطع، وصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، فلا تعصين له أمراً، ولا تخالفن له رأياً، فإنّه لن يأمرك إلا بخير، وقد أمرته أن يسمع منك، فلا تأمره إلا بتقوى الله، فقد كنّا نسمع أنّك شريف ذو بأس، سيّد مجرب في زمان الجاهليّة الجاهلاء؛ إذ ليس فيهم إلا الإثم، فاجعل بأسك، وشدّتك، ونجدتك في الإسلام على المشركين، وعلى من كفر بالله، وعبد معه غيره، فقد جعل الله في ذلك الأجر العظيم، والثواب الجزيل، والعزّ للمسلمين.

فقال قيس بن هبيرة: إن بقيت، وأبقاك الله؛ فسيلغك عني من حيطتي على المسلم، وجهدي على الكافر ما تحب، ويسرك، ويرضيك. فقال له أبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: افعَلْ ذَلِكَ رَحِمَكَ اللهُ! قال: فلمّا بلغ أبا بكر مبارزة قيس بن هبيرة البطريقين بالجابية وقتله إيّاهما؛ قال: صدق قيس، وبرّ، ووفى^(٣).

ونلاحظ: أنّ أبا بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شحذ همّة قيس بن هبيرة، وفجّر طاقاته الكامنة في نفسه،

(١) الكامل لابن الأثير (٢/٦٦).

(٢) العمليات التعرّضية والدفاعية عند المسلمين، نهاد عباس، ص ١٤١.

(٣) فتوح الشام للأزدي، ص (٢٦، ٢٧).

واستخرج منه ما أمكن من طاقة، وصرفها في حماية الإسلام، والجهاد في سبيله، ولا شكَّ أنَّ الثناء على العظماء، والنبلاء بذكر فضائلهم يرفع من معنوياتهم، ويمنحهم قوَّةً عاليةً تدفعهم إلى التَّضحية، والفداء^(١).

٤- جيش عمرو بن العاص:

وجَّه الصَّدِّيق عمرو بن العاص بجيشٍ إلى فلسطين، وكان الصَّدِّيق قد خيَّره بين البقاء في عمله الذي أسنده إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبين أن يختار ما هو خيرٌ له في الدنيا والآخرة إلا أن يكون الذي هو فيه أحبَّ إليه. فكتب إليه عمرو بن العاص: إِنِّي سَهْمٌ مِنْ سَهَامِ الْإِسْلَامِ، وَأَنْتَ بَعْدَ اللَّهِ الرَّامِي بِهَا، وَالْجَامِعُ لَهَا، فَاظْطَرَّ أَشَدَّهَا، وَأَخْشَاهَا، وَأَفْضَلُهَا؛ فَارْمِ بِهِ^(٢). فلمَّا قدم المدينة أمره أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يخرج من المدينة، وأن يعسكر حتَّى يندب معه الناس، وقد خرج معه عددٌ من أشرف قريش، منهم: الحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، فلمَّا أراد المسير؛ خرج معه أبو بكر يشيِّعه، وقال: يا عمرو! إِنَّكَ ذُو رَأْيٍ، وَتَجَرِبَةٌ بِالْأُمُورِ، وَبَصِيرٌ بِالْحَرْبِ، وَقَدْ خَرَجْتَ مَعَ أَشْرَافِ قَوْمِكَ، وَرِجَالٍ مِنْ صَلَاحِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَنْتَ قَادِمٌ عَلَى إِخْوَانِكَ، فَلَا تَالَهُمْ نَصِيحَةً، وَلَا تَدْخِرْ عَنْهُمْ صَالِحَ مَشُورَةٍ، فَرَبَّ رَأْيٍ لَكَ مَحْمُودٌ فِي الْحَرْبِ، مَبَارَكٌ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ.

فقال عمرو بن العاص: مَا أَخْلَقَنِي أَنْ أَصْدُقَ ظَنِّكَ، وَأَلَّا أُفِيلَ رَأْيُكَ^(٣)! وخرج عمرو بقوَّاته، وكان تعداده يتراوح من ستة إلى سبعة آلاف مجاهدٍ، وهدفها فلسطين، وسلكت طريقاً لساحل البحر الأحمر، حتَّى وادي عربة في البحر الميت، ونظَّم عمرو بن العاص قوَّةً استطاع مؤلِّفٌ من ألف مجاهد، ودفعها باتِّجاه محور تقدُّم الرُّوم، ووضع على قيادتها عبد الله بن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ واصطدمت هذه القوَّة بقوَّات الرُّوم، واستطاعت انتزاع النَّصر، وتمزيق قوَّة العدو، وعادت ببعض الأسرى، فاستنطاقهم عمرو بن العاص،

(١) التَّاريخ الإسلامي (٢٠٦/٩).

(٢) إتمام الوفاء بسيرة الخلفاء، ص ٥٥.

(٣) أي: ألا يخطأ رأيك في؛ فتوح الشَّام للأزد، ص (٤٨ - ٥١).

وعلم منهم: أن جيش العدو بقيادة (رويس) يحاول مباغته المسلمين بالقيام بالهجوم، وعلى ضوء المعلومات الجديدة؛ نظم عمرو قوّاته، وشنّ الروم هجومهم، واستطاع المسلمون صدّه، ونجحوا في ردّ قوّات الروم، وبعد ذلك شنّوا هجومهم المضادّ، ودمّروا قوّة العدو، وأرغموهم على الفرار، وترك ميدان المعركة، وتابع الفرسان المطاردة، وانتهت المعركة بسقوط ألوف القتلى من الروم^(١).

وأمر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كُلَّ أَمِيرٍ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقًا غَيْرَ طَرِيقِ الْآخِرِ، لِمَا لَحَظَ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَكَأَنَّ الصَّدِيقَ اقْتَدَى فِي ذَلِكَ بِنَبِيِّ اللَّهِ يَعْقُوبَ^(٢)، حِينَ قَالَ لَبْنِيهِ: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧].

رابعاً: تأزم الموقف في بلاد الشام:

كانت الجيوش المكلفة بفتح بلاد الشام تلاقي صعوبةً في تنفيذ المهمّات الموكلة إليها، فقد كانت تواجه جيوش الإمبراطورية الرومانية التي تمتاز بقوّتها، وكثرة عددها، وقد بنت الحصون، والقلاع للدّفاع عن مراكز المدن، واستخدمت أسلوب الفراديس في تنظيم جيوشها، لقد كان للروم في الشام جيشان كبيران أحدهما في فلسطين، والآخر في أنطاكية، وتمركز هذان الجيشان في ستّة مواضع على الشّكل الآتي:

أ- أنطاكية: وهي عاصمة الشّام في العهد الرومي.

ب- قنّسرين: وتقع بين حماة وحلب على مسافة خمسة وعشرين كيلو متراً جنوبي غربي حلب، وهي حدود بلاد الشّام التي تحاذي فارس في الشّمال الغربي.

ج- حمص: ويمتد نفوذها العسكري حتى تدمر، وصحراء الشّام، وهي حدود بلاد الشّام؛ التي تحاذي فارس في الشّمال الشرقي.

(١) العمليات التّعزّية الدّفاعيّة عند المسلمين، ص ١٤٣.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ٤.



د- عمّان: قاعدة البلقاء، وفيها قلعةٌ محصّنةٌ.

هـ أجنادين: قاعدةُ الرُّومِ العسكرية في جنوب فلسطين، وعلى حدود بلاد العرب الشرقيّة والغربيّة، وعلى حدود مصر.

و قيساريّة: في شمال فلسطين، وتبعد عن حيفا ثلاثة عشر كيلو متراً، ولا تزال أنقاضها قائمةً.

أمّا مقرُّ القيادة العامّة فهو أنطاكية، أو حمص، وعندما شهد قائد الرُّوم هرقل؛ الذي كان يشرف على الموقف بنفسه في (إيليا) توغّل الجيوش الإسلاميّة؛ أصدر أوامره إلى قوّاته بالتوجّه لتدمير هذه الجيوش، وكانت خطّة مواجهة الجيوش الإسلاميّة كالآتي:

- يتراجع الرُّوم أمام المسلمين، ويتخلّون لهم عن الحدود الشّاميّة الحجازيّة.

- تتجمّع وحدات الجيش الأول في فلسطين بعد تقريرها بقيادة سرجون.

- تتجمع وحدات الجيش الثّاني في أنطاكية بقيادة تيودور.

- تتحرّك هذه الجيوش، وتهاجم أمراء الإسلام الأربعة الواحد بعد الآخر، وذلك لتسهيل تصفية جيوش الإسلام على انفراد. وعلى أساس هذه الخطّة التي وضعها هرقل تحرّكت جيوش الرُّوم، وحسب التّرتيب الآتي^(١):

- توجيه أخيه تذارف في تسعين ألفاً للقضاء على جيش عمرو بن العاص.

- توجيه ابن توذر إلى يزيد بن أبي سفيان.

- توجيه البقار بن ننوس في ستين ألفاً إلى جيش أبي عبيدة.

- توجيه الدارج نحو شرحبيل بن حسنة^(٢).

(١) معارك خالد بن الوليد، العميد ياسين سويد، ص (٧٧، ٧٨).

(٢) العمليات التعرّضيّة والدّفاعية عند المسلمين، ص ١٤٧.

استطاع المسلمون الحصول على المعلومات الدقيقة عن هذه الجيوش، ونواياها بكل تفاصيلها، وعن تفاصيل الخطة الرومية التي كان قد وضعها هرقل لتدمير الجيوش الإسلامية كل على انفراد، وراسل قادة المسلمين الخليفة بالمدينة، فكتب أبو عبيدة إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يخبره بما بلغه مما جمع هرقل ملك الروم من الجموع، وهذا نص كتاب أمين الأمة إلى الصديق: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أبي عبيدة بن الجراح، سلامٌ عليك، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإننا نسأل الله أن يعزّز الإسلام وأهله عزاً متيناً، وأن يفتح لهم فتحاً يسيراً، فإنه بلغني أن هرقل ملك الروم نزل قرية من قرى الشام تدعى أطاكية، وأنه بعث إلى أهل مملكته فحشروهم إليه، وأنهم نفروا إليه على الصّعب والذلّول^(١)، وقد رأيت أن أعلمك ذلك فترى فيه رأيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فكتب إليه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد بلغني كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه من أمر هرقل ملك الروم، فأما منزله بأنطاكية فهزيمة له، ولأصحابه، وفتح من الله عليك وعلى المسلمين، وأما ما ذكرت من حشره لكم أهل مملكته، وجمعه لكم الجموع؛ فإن ذلك ما قد كنّا وكنتم تعلمون: أنه سيكون منهم، وما كان قومٌ ليدعوا سلطانهم، ويخرجوا من ملكهم بغير قتالٍ، وقد علمتُ والحمد لله! قد غزاهم رجالٌ كثير من المسلمين، يحبّون الموت حبّ عدوّهم للحياة، ويرجون من الله في قتالهم الأجر العظيم، ويحبّون الجهاد في سبيل الله أشدّ من حبّهم أبقار نساءهم، وعقائل أموالهم، الرّجل منهم عند الفتح خيرٌ من ألف رجل من المشركين، فאלقهم بجندك، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين، فإن الله معك، وأنا مع ذلك مُمدّك بالرجال، حتّى تكفي، ولا تريد أن تزداد - إن شاء الله - والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٢)!

وكتب يزيد بن أبي سفيان إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنفس مضمون كتاب أبي عبيدة بن

(١) يعني: الخيل بأنواعها، ما يصعب قياده منها، وما يسهل، والمراد وصفهم بالكثرة.

(٢) التّاريخ الإسلامي (٩/ ٢١٣) نقلاً عن فتوح الشام للأزدي، ص (٣٠، ٣١).

الجراح، وردَّ الصديق على يزيد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جميعاً - وهذا نصُّ الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم، أمّا بعد: فقد بلغني كتابك، تذكر فيه تحوُّل ملك الروم إلى أنطاكية، وأنَّ الله ألقى الرُّعب في قلبه من جموع المسلمين، فإنَّ الله - وله الحمد - قد نصرنا ونحن مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرُّعب، وأمدَّنَا بملائكته الكرام، وإنَّ ذلك الدِّين الذي نصرنا الله به بالرُّعب، هو هذا الدين الذي ندعو الناس إليه اليوم، فوربِّك لا يجعل الله المسلمين كالمجرمين، ولا مَنْ يشهد أن لا إله إلا الله كمن يعبد معه الهةً آخرين ويدين بعبادة الهةٍ شتى، فإذا لقيتموهم؛ فاهد إليهم بمن معك، وقاتلهم فإنَّ الله لن يخذلك، وقد نبأنا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَّ الفِئَةَ القليلة منا تغلب الفِئَةَ الكثيرة بإذن الله، وأناعم ذلك مُمدُّك بالرجال في إثر الرجال حتَّى تكتفوا، ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان - إن شاء الله - والسَّلام عليك، ورحمة الله! وبعث الصديق بهذا الكتاب مع عبد الله بن قُرْط المثالي، حتَّى قدم على يزيد، فقرأه على المسلمين، ففرحوا به، وسُرُّوا^(١).

وجاء كتاب من عمرو بن العاص بخصوص جموع الرُّوم، وردَّ عليه الصديق، فقال: سلامٌ عليك، أمّا بعد: فقد جاءني كتابك تذكر ما جمعت الرُّوم من الجموع، وإنَّ الله لم ينصرنا مع نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكثرة جنودٍ، وقد كنَّا نغزو مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما معنا إلا فرسان، وإن نحن إلا نتعاقب الإبل، وكنا يوم أحد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما معنا إلا فرسٌ واحدٌ، كان رسول الله يركبه ولقد كان يظهرنا، ويعيننا على مَنْ خالفنا، واعلم يا عمرو! أنَّ أطوع النَّاس لله أشدُّهم بغضاً للمعاصي، فأطع الله، ومر أصحابك بطاعته^(٢).

خروج هاشم بن عتبة بن أبي وقاصٍ إلى الشَّام:

وشرع الصديق في إمداد الجيوش الإسلاميَّة ببلاد الشَّام بالرجال، والسَّلاح، والخيول وما يحتاجونه، ودعا هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، وقال له: يا هاشم! إنَّ من سعادة جدِّك

(١) فتوح الشَّام للأزدِّي، ص (٣٠ - ٣٣) نقلاً عن الحميدي.

(٢) خطب أبي بكر الصديق، محمَّد أحمد عاشور، ص ٩٢.

ووفاء حظك أنك أصبحت ممن تستعين به الأمة على جهاد عدوها من المشركين، وممن يثق الوالي بنصيحتته، ووفائه، وعفافته، وبأسه، وقد بعث إليّ المسلمون يستنصرون على عدوهم من الكفار، فسر إليهم فيمن تبعك فإنني نادب الناس معك، فاخرج حتى تقدم على أبي عبيدة، أو يزيد؟ قال: لا، بل على أبي عبيدة! قال: فأقدم على أبي عبيدة.

وقام أبو بكر رضي الله عنه في الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد: فإن إخوانكم من المسلمين معافون، مدفوع عنهم، مصنوع لهم، وقد ألقى الله الرعب في قلوب عدوهم منهم، وقد اعتصموا بحصونهم، وأغلقوا أبوابها دونهم عليهم، وقد جاءني رسلهم يخبروني بهرب هرقل ملك الروم من بين أيديهم حتى نزل قرية من قرى الشام في أقصى الشام، وقد بعثوا إليّ يخبروني: أنه قد وجه إليهم هرقل جنداً من مكانه ذلك، فرأيت أن أمد إخوانكم المسلمين بجند منكم يشدد الله بهم ظهورهم، ويكتب بهم عدوهم، ويلقي بهم الرعب في قلوبهم، فانتدبوا - رحمكم الله! - مع هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، واحتسبوا في ذلك الأجر والخير، فإنكم إن نصرتهم؛ فهو الفتح، والغنيمة، وإن تهلكوا فهي الشهادة، والكرامة.

ثم انصرف أبو بكر رضي الله عنه إلى منزله، ومال الناس على هاشم؛ حتى كثروا عليه، فلما أتموا ألفاً؛ أمره أبو بكر أن يسير، فجاءه فسلم عليه، وودّعه، فقال له أبو بكر - رضي الله عنه: يا هاشم! إنما كنا ننتفع من الشيخ الكبير برأيه، ومشورته، وحسن تدبيره، وكنا ننتفع من الشباب بصبره، وبأسه، ونجدته، وإن الله - عز وجل - قد جمع لك الخصال كلها، وأنت حديث السن، مستقبل الخير، فإذا لقيت عدوك؛ فاصبر، وصابر، واعلم أنك لا تخطو خطوة، ولا تنفق نفقة، ولا يصيبك ظمأ، ولا نصب، ولا مخمصة في سبيل الله إلا كتب الله به عملاً صالحاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فقال هاشم: إن يرد الله بي خيراً؛ يجعلني كذلك، وأنا أفعل، ولا قوة إلا بالله! وأنا أرجو إن أنا لم أقتل أن أقتل، ثم أقتل إن شاء الله. فقال له عمه سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه: يأبن أخي! لا تطعنن طعنة، ولا تضربن ضربة إلا وأنت تريد بها وجه الله، واعلم أنك خارج من

الدُّنيا رشيداً، وراجعُ إلى الله قريباً، ولن يصحبك من الدُّنيا إلى الآخرة إلا قدمُ صدقِ قدِّمته، أو عملُ صالحٍ أسلفته. فقال: أيُّ عم، لا تخافنَّ مني غير هذا، إني إذاً لمن الخاسرين إن جعلت حلِّي، وارتحالي، وغدوِّي، ورواحي، وسيفي، وطعني برمحي، وضربي بسيفي رياءً للناس. ثم خرج من عند أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فلزم طريق أبي عبيدة، حتَّى قدم عليه، فتباشر بمقدمه المسلمون، وسُرُّوا به^(١).

خروج سعيد بن عامر إلى الشَّام:

وبعد ذهاب هاشم بن عتبة بمَدَّةٍ أمر أبو بكر بلالاً، فنَادَى في النَّاسِ ألاَّ انتدبوا أيُّها المسلمون مع سعيد بن عامر بن حذيمٍ إلى الشَّام! فانتدب معه سبعة رجلٍ في أيامٍ يسيرةٍ، فلمَّا أراد سعيد بن عامر الشُّخص بالنَّاسِ؛ أتى بلالُ أبا بكرٍ، فقال: يا خليفة رسول الله! إن كنتَ إِنَّمَا اعتقتني لأقيم معك، وتمنعي ممَّا أرجو لنفسي فيه الخير؛ أقمت معك، وإن كنتَ إِنَّمَا اعتقتني لله لأملك نفسي، وأضرب فيما ينفعني فخلَّ سبيلي حتَّى أجاهد في سبيل ربِّي، فإنَّ الجهاد أحبُّ إليَّ من المقام! فقال له أبو بكر: أمَّا إذا كان هواك في الجهاد، فلم أكن لأمرك بالمقام، إِنَّمَا كنتَ أريدك للأذان، وإني لأجد لفراقك وحشةً يا بلال! فما بدَّ من التَّفَرُّق، فرقةٌ لا لقاء بعدها أبداً حتَّى يوم البعث، فاعمل عملاً صالحاً يا بلال! يكن زادك من الدُّنيا، ويذكرك الله به ما حييت، يحسن لك به الثَّواب إذا توفيت، فقال بلال: جزاك الله من وليٍّ نعمةٍ، وأخ في الإسلام خيراً، فوالله ما أمرك لنا بالصَّبْر على طاعة الله، والمداومة على الحقِّ والعمل الصَّالح ببدع، وما أريد أن أؤذِّن لأحدٍ بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم خرج بلالٌ مع سعيد بن عامر بن حذيم، وكان أبو بكر قد أمر سعيد بن عامر أن يسير حتَّى يلحق بيزيد بن أبي سفيان، فسار حتَّى لحقه، فشهد معه وقعة العرَبة، والدَّائنة^(٢).

وكانت وفود الجهاد تتوافد على المدينة، ويقوم الصَّدِّيق بتوجيهها إلى الجبهات، وكانت بعض الوفود من أهل القرى فيهم جهلٌ، وجفاءٌ، فكان أهل المدينة من صحابةٍ وتابعين

(١) فتوح الشَّام للأزدِّي، ص (٣٣-٣٥).

(٢) المصدر السَّابِق نفسه، ص (٣٥-٣٨) بتصرف.

يحتملون أذى بعض الوفود الذين لم يتلقوا تربيةً إسلاميةً كافيةً، ويرفعون أمر ما يلاقونه منهم إلى خليفة رسول الله، ولم يذكر: أنه حصل نزاع بينهم مع كثرة الوفود التي وفدت على المدينة، وكان أبو بكر الصديق قد ناشد المجتمع المدني^(١)، وقال لهم: نشدتك الله امرأ مسلماً سمع نشدي لما كفَّ عن هؤلاء القوم، ومن رأى لي عليه حقاً فليحتمل ذرب^(٢) ألسنتهم، وعجلةً يكرهها منهم ما لم يبلغ ذلك الحدَّ، فإنَّ الله مهلك هؤلاء أعداءنا جموع هرقل، والرُّوم، وإنَّما هم إخوانكم فإن كانت منهم عجلةٌ على أحدٍ منكم فليحتمل ذلك، ألم يكن أصوب في الرأي وخيراً في المعاد من أن يُنتصر منهم؟

قال المسلمون: بلى!

قال: فإنَّهم إخوانكم في الدين، وأنصاركم على الأعداء، ولهم عليكم حقٌّ فاحتملوا ذلك لهم، ثمَّ نزل من على المنبر^(٣).

خامساً: توجيه خالد إلى الشام، ومعركة أجنادين، واليرموك:

كانت قيادة الجيوش الإسلامية بالشَّام تتابع تطوُّر حركة الجيوش الرومانيَّة، وشعر القادة بخطورة الموقف، فعقدوا مؤتمراً بالجولان، وكتب أبو عبيدة إلى الخليفة يشرح له الموقف، وفي الوقت نفسه قرَّروا الانسحاب من جميع الأراضي التي تمَّ فتحها، وتجمَّعوا في مكانٍ واحدٍ ليتمكنوا من إحباط خطة الرُّومان، وإجبارهم على خوض معركةٍ فاصلةٍ تخوضها الجيوش الإسلاميَّة، وكان عمرو بن العاص أشار على القادة أن يكون التجمُّع باليرموك، وجاء رأي الصديق مطابقاً لرأي عمرو بن العاص^(٤) في اختيار مكان التجمُّع، واتَّفَقوا أن يتمَّ الانسحاب مع تجنُّب الاشتباك مع العدوِّ، فانسحب أبو عبيدة من حمص، وانسحب شرحبيل بن حسنة من الأردن، وانسحب يزيد بن أبي سفيان من دمشق، وأخذ

(١) التاريخ الإسلامي (٩/ ٢٢٤).

(٢) يعني: حدَّتها، وشدَّتها.

(٣) التَّاريخ الإسلامي للحمدي، مرجع سابق، ج ٩، ص ٢٢٣.

(٤) العمليات التعرُّضيَّة والدَّفَاعِيَّة عند المسلمين، ص ١٤٨.



عمرو بن العاص في الانسحاب تدريجيًا من فلسطين^(١)، ولكنّه لم يستطع الانسحاب منها حتّى نجده خالد بن الوليد قبل اليرموك، فظَلَّ يناور في بئر السَّبع لمتابعة الرُّوم له، وبذلك شَنَّ المسلمون هجومًا مضادًا، فكانت معركة أجنادين^(٢).

عندما تسلم الصّدّيق رسالة أبي عبيدة، وشرح له فيها الموقف؛ أمره بالانسحاب إلى اليرموك، والتجمُّع هناك، وقال له: بث خيلك في القرى، والسَّواد، وضيق عليهم بقطع الميرة والمادّة، ولا تحاصروا المدائن حتّى يأتيك أمري، فإنّ ناهضوك، فانهذ لهم، واستعن بالله عليهم، فإنّه ليس يأتيهم مدد إلا أمددناك بمثلهم^(٣). وجاء في رواية: إنّ مثلكم لا يؤتى من قلةٍ إنّما يؤتى العشرة الآلاف إذا أتوا من تلقاء الذُّنوب، فاحترسوا من الذُّنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليُصلِّ كلُّ رجل منكم بأصحابه^(٤). وكان توجيه الصّدّيق للجيش بأن يجتمعوا، ويكونوا عسكرياً واحداً، وأن يلحقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، وقال لهم: بأنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من خذله^(٥).

ونرى من خلال رسائل الصّدّيق أنّه وضع أساس النّصر للجيش بطاعتها لله أولاً، فالخذلان يأتي بالمعاصي والذُّنوب، وعمل الصّدّيق على تجميع الجيش في مكانٍ واحدٍ حتّى لا يستغلّ العدو فترة انتشارهم في البلاد لينهك قواهم الواحد بعد الآخر، كما أنّ تعيينه لليرموك دالٌّ على دراسة الصّدّيق لجغرافية الأرض في عصره، وإدراكه لمواقعها، وهذا مبدأً حربيّ عظيمٌ وفقه الله عزَّ وجلَّ له، وقرَّر الصّدّيق أن ينقل خالد بن الوليد بجيشه إلى الشَّام، وأن يتولّى قيادة الجيش بها، فالأمر بالشَّام يحتاج إلى قائدٍ يجمع بين قدرة أبي عبيدة، ودهاء عمرو، وحنكة عكرمة، وإقدام يزيد، وأن يكون صاحب قدرةٍ عسكريّةٍ فائقةٍ مع قدرةٍ على

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) حروب الإسلام في الشَّام، أحمد محمد، ص ٤٥.

(٣) العمليات التعرّضيّة والدفاعيّة عند المسلمين، ص ١٤٨.

(٤) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢١١.

(٥) المصدر السَّابق نفسه.

حسم الأمور، وصاحب دهاءٍ، وحيلةٍ، وإقدامٍ، وصاحب حنكةٍ، ودرايةٍ مع دقةٍ في تقدير المواقف، وصاحب تجربةٍ طويلةٍ في المعارك^(١).

فوقع اختيار الصديق على خالد بن الوليد، فكتب إليه بالعراق، ونفذ ابن الوليد تعاليم الخليفة، ووصل بجيشه إلى الشام بعد رحلة عبر الصحراء لم يذكر التاريخ شبيهاً لها، وقد بينت ذلك، فكانت إمدادات الصديق تتواصل على الشام، ويضع الخطط المتطورة، ويرد على أساليب الأعداء التكتيكية، والمعنوية، والمادية؛ التي هدفها إشغال الصديق عن هدفه، حتى قال قادة الروم: والله لنغلن أبابكر عن أن يورد الخيول إلى أرضنا^(٢)! وكان ردُّ الصديق: والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد^(٣)!

وقد حققت توجيهات الصديق عدة أمورٍ منها: توحيد جيش المسلمين في الشام، وتوحيد قيادة هذا الجيش بإمرة خالد، وتحديد موقع اللقاء، وهذا يؤكد وضوح الرؤية عند الخليفة أبي بكرٍ في تحريك الجيوش، فكان عندما أرسلها من المدينة خرجت في طرق متباعدة نسبياً، فكانت على شكل رؤوس حراب أو على شكل مروحة وهو عادةً ما يعرف بحركة الانتشار في الجيوش الحديثة، وعندما حان وقت الاشتباك واللقاء الفاصل جمعها مع بعضها في موقع اختياره لها، فقد ظهرت قدرته البارعة في استعمال الجيوش، وهو ما اتفق على تسميته (بالاستراتيجية) في العلم العسكري الحديث^(٤).

وكان الصديق كقائدٍ عامٍ للجيوش الإسلامية يحرص على حضوره المعنوي في ميدان القتال بالأوامر، مع ما كانت تتميز به تلك الأوامر من تبصّرٍ، وبُعْد نظرٍ، ونفاذ في البصيرة، وبداية في فهم الوضع العسكري على أرض المعركة، وبالتالي سرعته في تحريك القوى وفقاً لهذا الوضع، وبما يلائمه تمام الملاءمة، وحسن اختياره للقادة؛ الذين كانوا بفعل الثقة

(١) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٣٥٩-٣٦٠.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ٥.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الفن العسكري الإسلامي، ص ٨٩؛ أبو بكر الصديق، الحديثي، ص ٦٠.

المتبادلة بينه وبينهم يقرؤون أفكاره، ويحسّون برغباته ونواياه، فتتجسّد في مخيلته فكرة المناورة التي يعتزم تنفيذها، ويقومون بتنفيذها، كما لو كان الخليفة ينفّذها، وبواسطة هذه الوسائل كان الخليفة يدير المعارك على الجبهات المختلفة كأنّما هو حاضرٌ في كلّ منها، بحيث يحسّ الجيش - قادةً، وجنوداً - كأنّ الخليفة نفسه معهم، يقودهم، ويوجّههم، فيأتي عملهم مطابقاً تمام المطابقة لما يريد، ويرغب، ووفقاً لأوامره، وتوجيهاته^(١).

وعندما أرسل الصّدّيق إلى خالد يأمره بالتوجّه إلى الشّام وتولّي الجيوش هناك، قام الصّدّيق بإرسال رسالة إلى أبي عبيدة يخبره فيها بتولية خالد عليه ويأمره فيها بالسّمع، والطّاعة، ويبيّن فيها سبب تولية خالد: أمّا بعد: فإنّي قد وليت خالدًا قتال الرّوم بالشّام، فلا تخالفه، واسمع له، وأطع أمره، فإنّي وليّته عليك وأنا أعلم أنّك خيرٌ منه، ولكن ظننت أنّ له فطنةً في الحرب ليست لك، أراد الله بنا وبك سبيل الرّشاد، والسّلام عليك ورحمة الله وبركاته^(٢). وكانت رسالة خالد إلى أخيه أبي عبيدة قد قطعت المسافات من العراق إلى الشّام، واستقرّت في قلبه الغنيّ بالإيمان، والزّهد في هذه الدّنيا الفانية، وهذا نصّها:

لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد، سلامٌ عليك، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمّا بعد: فإنّي أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف، والعصمة في دار الدّنيا، فقد أتاني كتاب خليفة رسول الله يأمرني فيه بالمسير إلى الشّام، وبالمقام على جندها والتّولّي على أمرها، والله ما طلبت ذلك، ولا أردته، ولا كتبت إليه فيه، وأنت رحمك الله! على حالك الذي كنت به، لا تُعصّي في أمرك، ولا يخالف رأيك، ولا يقطع أمرٌ دونك، فأنت سيّدٌ من سادات المسلمين، لا ينكر فضلك، ولا يستغنى عن رأيك، تمّم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإياك من عذاب النّار، والسّلام عليك ورحمة الله^(٣).

وكان مع حامل الرّسالة خطابٌ من خالد موجهًا إلى المسلمين بالشّام جاء فيه:

(١) الفن العسكري الإسلامي، ص ٩٨.

(٢) مجموعة الوثائق السياسية، ص (٣٩٢، ٣٩٣).

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٩٢.

أما بعد: فَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَعَزَّنَا بِالْإِسْلَامِ، وَشَرَّفَنَا بِدِينِهِ، وَأَكْرَمَنَا بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَفَضَّلَنَا بِالْإِيمَانِ رَحْمَةً مِنْ رَبِّنَا لَنَا وَاسِعَةً، وَنِعْمَةً مِنْهُ عَلَيْنَا سَابِغَةً أَنْ يَتِمَّ مَا بَنَا وَبَكُمْ مِنْ نِعْمَتِهِ، وَاحْمَدُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ يَزِدْكُمْ، وَارْغَبُوا إِلَيْهِ فِي تَمَامِ الْعَافِيَةِ يُدْمِهَا لَكُمْ، وَكَوْنُوا لَهُ عَلَى نِعْمِهِ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

وَإِنَّ كِتَابَ خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ أَتَانِي بِأَمْرِنِي بِالْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ، وَقَدْ شَمَّرْتُ، وَانْكَمَشْتُ، وَكَأَنَّ خِيَلِي قَدْ أَطْلَتْ عَلَيْكُمْ فِي رَجَالٍ، فَأَبْشُرُوا بِإِنْجَازِ مَوْعُودِ اللَّهِ، وَحَسَنِ ثَوَابِهِ! عَصَمَنَا اللَّهُ، وَإِيَّاكُمْ بِالْإِيمَانِ، وَثَبَّتْنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَرَزَقْنَا وَإِيَّاكُمْ حَسَنَ ثَوَابِ الْمُجَاهِدِينَ! وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ^(١).

فَلَمَّا قَدِمَ حَامِلُ الرِّسَالَتَيْنِ عَمْرُو بْنُ الطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرِو الْأَزْدِيُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمْ خُطَابَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ، وَهَمَّ بِالْجَابِيَةِ، دَفَعَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ كِتَابَهُ، فَلَمَّا قَرَأَهُ قَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَخَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ فِيمَا رَأَى، وَحَيَّا اللَّهَ خَالِدًا بِالسَّلَامِ^(٢).

إِنَّ هَذَا التَّعَامُلَ الرَّفِيعَ بَيْنَ هَذَيْنِ الْعَظِيمِينَ يَكْشِفُ لَنَا عَنْ مَعَانِي الْأُخُوَّةِ الْمُنْبَثِقَةِ عَنِ التَّوْحِيدِ الصَّحِيحِ، وَالْمَحْفُوفَةِ بِسِيَاجِ الْأَخْلَاقِ الْحَمِيدَةِ، الَّتِي كَانَ يَتَّصِفُ بِهَا صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ، فَإِنَّ خَالِدًا لَمْ تَتَغَيَّرْ نَفْسُهُ، أَوْ يَشْعُرَ بَعْلُو عَلَى إِخْوَانِهِ بِسَبَبِ فَتُوحَاتِهِ فِي الْعِرَاقِ، وَثِقَةِ الْخَلِيفَةِ بِهِ، بَلْ يَعْتَرِفُ بِالْفَضْلِ لِأَهْلِهِ وَيَعْلَنُ طَاعَتَهُ لِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجِرَاحِ الَّذِي وَلَّى الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، وَفِي مُقَابَلِ ذَلِكَ نَجَدَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجِرَاحِ الَّذِي يَبَارِكُ هَذَا الْأَمْرُ، وَيُحْيِي خَالِدًا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَجَرُّدِ خَالِدٍ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ مِنْ حَظُوظِ النَّفْسِ، وَإِثَارِهِمْ لِمَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ، وَإِرَادَتِهِمْ وَجْهَ اللَّهِ فِي أَعْمَالِهِمْ^(٣)، وَفِي هَذَا دَرْسٌ عَظِيمٌ لِأَبْنَاءِ الْأُمَّةِ عَلَى مَسْتَوَى الْحُكُومَاتِ، وَالْحَرَكَاتِ، وَالشُّيُوخِ، وَالذُّعَاةِ، وَالْقَادَةِ، وَالزُّعَمَاءِ فِي التَّعَامُلِ فِيمَا بَيْنَهُمْ عِنْدَ التَّعْيِينِ، أَوْ الْعَزْلِ، أَوْ الْفَصْلِ.

(١) فتوح الشام للأزدي، ص (٦٨ - ٧٢) نقلًا عن الحميدي.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) التَّأْرِيخُ الْإِسْلَامِيُّ لِلْحَمِيدِيِّ، مَرْجِعٌ سَابِقٌ، ج ٩، ص ٢٣١.

١ - معركة أجنادين:

وصل خالدٌ إلى الشام وفتح بصرى، واجتمع بقادة المسلمين أبي عبيدة، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، ودرس الموقف العسكري، واطَّلَعَ على أدقِّ تفاصيله، كما اطَّلَعَ على موقف عمرو بن العاص الذي كان ينسحب بمحاذاة ضفَّة نهر الأردن لكي يلتقي بجيوش المسلمين الأخرى، ومحذرا الاشتباك بالجيش الرُّومي الذي كان يتعقَّبه، وقد حاول قائد هذا الجيش أن يجرَّ جيش عمرو للاشتباك معه في معركةٍ فاصلةٍ، إلا أنَّ عمراً كان على تمام اليقظة والحذر، وعلى علمٍ تامٍّ بأنَّه ليس من مصلحته الاشتباك في مثل هذه المعركة، لأنَّ جيشه لم يكن يتجاوز السَّبعة آلاف، بينما كان جيش الرُّوم يقارب السَّبعين ألفاً، وبعد أن درس خالد الموقف العسكري رأى أنَّ أمامه خيارين، فإمَّا أن يسرع وينضمَّ إلى جيش عمرو، ويخوض وإيَّاه معركةً فاصلةً، فيقضي على قوَّة الروم الكبيرة فيتعرَّز الموقف العسكري للجيش الإسلامي ويصون خط رجعتهم، ويحمي جناحه الأيسر، ويثبت أقدام المسلمين في فلسطين، وإمَّا أن يقف مكانه، ويوعز إلى عمرو بالانضمام إليه، ثمَّ ينتظر قوات الرُّوم التي كانت تزحف نحوه من دمشق؛ ليخوض معها معركةً فاصلةً.

وقد فضَّل خالدٌ أن يأخذ بالخيار الأول؛ لأنَّ التغلُّب على جيش الرُّوم في فلسطين وتشتيته يحفظ للمسلمين خطَّ رجعتهم، ويعرِّز مركزهم، ويجعلهم في موقفٍ يستطيعون معه تهديد الجيش الرُّومي، ويجعلونه يتوقَّع حصول حركة التفافٍ من خلفه، فيضطرُّ للأخذ بتدابير خاصَّة للحماية تشغل جانباً من قوَّاته فيصبح بذلك مدافعاً بعد أن كان مهاجماً، فانحدر من اليرموك إلى سهل فلسطين بعدما أصدر أمره إلى عمرو بأن ينسحب مستدرجاً جيش الرُّوم حتَّى يصل جيش خالد فيطبقان عليه، فارتدَّ عمرو إلى أجنادين^(١).

وعندما وصلت قوات خالد أصبح جيش المسلمين بحدود ثلاثين ألف مقاتل، وكان وصول خالد في الوقت المناسب، فما أن اصطدمت قوات عمرو بالرُّوم حتَّى انقضَّ خالدٌ

(١) أجنادين: موضع معروف من نواحي فلسطين. (ياقوت، ١/ ٢٠٣).

بقواته الرئيسية، وجرت معركةٌ عنيفةٌ، وكان لمهارة القائدين خالد، وعمرو العسكرية دورٌ كبيرٌ في تحقيق النصر الحاسم، حيث تمَّ توجيه قوَّةٍ اقتحاميه اخترقت صفوف العدو حتَّى وصلت إلى قائد الروم، فقتلوه، وبمقتل القائد انهارت مقاومة الروم، وهربوا في اتجاهاتٍ مختلفة^(١).

وقد كانت أجنادين أولى المعارك الكبيرة في بلاد الشام بين المسلمين والروم، فلمَّا انتهى خبر الهزيمة إلى قيصر الروم هرقل وهو في حمص؛ شعر بمدى الكارثة^(٢).

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بفتح الله عَزَّجَلَّ عليه، وعلى المسلمين: لعبد الله أبي بكرٍ خليفة رسول الله من خالد بن الوليد سيف الله المصوب على المشركين، أمَّا بعد: سلامٌ عليكم، فإنِّي أحمدُ إليك الله الَّذي لا إله إلا هو، أمَّا بعد: فإنِّي أخبرك أيُّها الصديق أنا التقينا نحن والمشركون، وقد جمعوا لنا جموعاً كثيرةً بأجنادين، وقد رفعوا صُلبهم، ونشروا كتبهم، وتقاسموا بالله لا يفرُّون حتَّى يُصيبونا، أو يخرجونا من بلادهم، فخرجنا إليهم واثقين بالله، متوكِّلين على الله، فطاعنَّاهم بالرِّماح، ثمَّ صرنا إلى السُّيوف، فقارعناهم في كلِّ فجٍّ، وشعبٍ، وغائطٍ، فأحمد الله على إعزاز دينه، وإذلال عدوِّه، وحسن الصُّنع لأوليائه، والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فلمَّا وصل الكتاب إلى أبي بكرٍ -رحمة الله عليه- فرح به، وأعجبه. وقال: الحمد لله الَّذي نصر المسلمين، وأقرَّ عيني بذلك^(٣)!

٢- اليرموك:

عادت بواكير النَّصر من وقعة أجنادين بعد الانتصار الكبير؛ الَّذي حققه المسلمون في هذه الوقعة، وهزيمة الروم، واطمأن المسلمون إلى ما حقَّقوه من نصرٍ في أجنادين، واجتمعت جيوش المسلمين في اليرموك تنفيذاً لأمر الخليفة الصديق، وتحركت جيوش الروم بقيادة تيودور، ونزلت في منزلٍ واسع الطَّعن، واسع المطَّرد، ضيق المهرب، فسارت حشود الروم

(١) أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، نزار الحديثي، ص ٧٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٧١.

(٣) فتوح الشَّام للأزدي، ص (٨٤-٩٣).

حتَّى نزلوا الواقة قريباً من اليرموك.

- قوات الطرفين:

• المسلمون أربعون ألف مقاتل، وقيل: خمسة وأربعون ألفاً بقيادة خالد بن الوليد.

• الروم: يقدر عدد الروم بمئتين وأربعين ألفاً بقيادة تيودور.

- قبل المعركة:

• المسلمون: وصل المسلمون بقيادة خالد بن الوليد اليرموك، فعسكروا بها حتَّى اجتمعت الروم مع أمرائها على الضَّفة الجنوبيَّة للنَّهر، وقال عمرو بن العاص: (أبشروا أيُّها النَّاس! فقد حُصِرَت والله الروم! وقلَّما جاء محصور بخير)^(١).

وخرج خالد بن الوليد بأسلوبٍ جديد لم يستخدمه العرب من قبل ذلك^(٢)، فاستخدم أسلوباً جديداً، وهو الفراديس، فخرج في ستَّة وثلاثين كردوساً إلى أربعين، ورتَّب جيشه التَّرتيب الآتي:

- فرقاً، وفيها من عشرة إلى عشرين كردوساً ولها قائدٌ وأمير.

- كرادي: ألف مقاتل، وله قائدٌ، وأمير^(٣).

- وقسَّم جيشه إلى أربعين كردوساً، كما يلي:

فرقة القلب: مؤلَّفة من ثمانية عشر كردوساً بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، ومعه عكرمة بن أبي جهل، والقعقاع بن عمرو.

فرقة الميمنة: مؤلَّفة من عشرة كرادي بقيادة عمرو بن العاص، ومعه شرحبيل ابن حسنة.

فرقة الميسرة، مؤلَّفة من عشرة كرادي بقيادة يزيد بن أبي سفيان.

(١) العمليات التعرُّضيَّة والدِّفاعيَّة، ص ١٦٣.

(٢) البداية والنَّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ٨.

(٣) العمليات التَّعَرُّضيَّة والدِّفاعيَّة، ص ١٦٤.

فرقة الطليعة (المقدمة) من الخيالة، والمخافير الأمامية، ومهمتها المراقبة، والاستطلاع، والاحتفاظ على التماس مع العدو، ولذلك تكون فرقة صغيرة، وخفيفة.

فرقة المؤخرة: مؤلفة من خمسة آلاف مقاتل (خمسة كراي) بقيادة سعيد ابن زيد، ومهمتها قيادة الظعن (الأمور الإدارية) وكان القاضي (أبو الدرداء) وعلى القباض عبد الله بن مسعود، مهمته تأمين الأمور الإدارية، والإعاشة، وجمع الغنائم، والقارئ المقداد بن الأسود، وكان يدور على الناس، ويقرأ سورة الأنفال، وآيات الجهاد لرفع المعنويات، وخطيب الجيش أبو سفيان بن حرب، وهو يطوف على الصفوف^(١) يحث الجند على القتال، والقائد العام خالد بن الوليد في الوسط وحوله كبار الصحابة، وأعد الجيش الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد في الوسط لكل شيء عدته، وأخذ كل قائد من القواديمر على جنده، ويحثهم على الجهاد، والصبر، والمصابرة، ورأى قادة المسلمين: أن هذه المعركة هي معركة يتوقف عليها نتائج كبرى، وأنها الحاسمة، وكان خالد يعلم: أنه: إن رد الروم إلى خندقهم فسيظل يردهم، وإن هزموه فلن يفلح بعدها. أي: أن هزيمة الروم في هذه المعركة تعني هزيمتهم في أرض الشام كلها، وتفتح أبواب الشام على مصراعيها للمسلمين دون حواجز، ولا عراقيل، والانطلاق منها إلى مصر، فاسيا، وأوربة^(٢).

• التعبئة الإيمانية:

ولما تراءى الجمعان، وتبارز الفريقان؛ وعظ أبو عبيدة المسلمين، فقال: عباد الله! انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم، فإن وعد الله حق، يا معشر المسلمين! اصبروا فإن الصبر منجاة من الكفر، ومرضاة للرب، ومدحضة للعار، ولا تبرحوا مصافكم، ولا تخطوا إليهم خطوة، ولا تبدؤوهم بالقتال، وأشرعوا الرماح، واستتروا بالدرق، والزموا الصمت إلا من ذكر الله في أنفسكم، حتى امركم إن شاء الله تعالى.

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ٨.

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، ص ١٦٤.

وخرج معاذ بن جبل على النَّاس، فجعل يذكّرهم، ويقول: يا أهل القرآن! ومستحفظي الكتاب، وأنصار الهدى، وأولياء الحقِّ إنَّ رحمة الله لا تنال، وجنته لا تُدخل بالأمانى، ولا يؤتي الله المغفرة، والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدّق، ألم تسمعوا لقول الله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥] فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم؛ وأنتم في قبضته، وليس لكم ملتحذ من دونه، ولا عزُّ بغيره.

وقال عمرو بن العاص: يا أيها المسلمون! غُضُّوا الأبصار، واجثوا على الرُّكب، وأشرعوا الرِّماح، فإذا حملوا عليكم؛ فأمهلوهم حتّى إذا ركبوا الأستنة فثبوا إليهم وثبة الأسد، فوالذي يرضى الصّدق، ويشيب عليه، ويمقت الكذب، ويعاقب عليه، ويجزي بالإحسان إحساناً! لقد سمعت: أنَّ المسلمين سيفتحونها كفراً كفراً، وقصراً قصراً، فلا يهولنكم جموعهم، ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الشدة تطايروا تطاير أولاد الحجل. وقال أبو سفيان: يا معشر المسلمين! إنكم قد أصبحتم في دار العجم منقطعين عن الأهل، ناءين عن أمير المؤمنين، وأمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدوٍّ كثيرٍ عدده، شديدٍ عليكم حنقه، وقد وترتموهم في أنفسهم، وأولادهم، ونسائهم، وأموالهم، وديارهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوان الله غداً إلا بصدق اللّقاء والصبر في المواطن المكروهة، فامتنعوا بسيوفكم، وتعاونوا، ولتكن هي الحصون. ثم ذهب إلى النساء فصواهن^(١) ثم عاد، فنادى: يا معشر أهل الإسلام! حضر ما ترون فهذا رسول الله والجنة أمامكم، والشيطان والنار خلفكم. ثم سار إلى موقفه^(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد وعظ النَّاس أبو هريرة، فجعل يقول: سارعوا إلى الحور العين، وجوار ربكم عزَّ وجلَّ في جنّات النعيم، ما أنتم إلى ربكم في موطنٍ بأحبَّ إليه منكم في مثل هذا الموطن، ألا وإنَّ للصّابرين فضلهم. وجعل أبو سفيان يقف على كلِّ كردوسٍ، ويقول: الله، الله! إنكم زادة

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ٩.

(٢) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٦٣.

العرب، وأنصار الإسلام، وإنَّهم ذادة الرُّوم، وأنصار الشُّرك، اللَّهُمَّ إِنَّ هذا يومٌ من أيَّامك! اللَّهُمَّ أنزل نصرك على عبادك^(١)! قال رجل من نصارى العرب لخالد بن الوليد: ما أكثر الرُّوم وأقلَّ المسلمين!! فقال خالد: ويلك! أتخوِّفني بالرُّوم؟ إنما تكثر الجنود بالنَّصر، وتقلُّ بالخلان، لا بعدد الرُّجال، والله لوددت أن الأشقر براً من توجَّيه، وأنَّهم أضعفوا في العدد! وكان فرسه قد حفي، واشتكى في مجيئه من العراق^(٢).

وجعل معاذ بن جبل كلَّما سمع أصوات القسَّيسين، والرُّهبان يقول: اللَّهُمَّ زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السَّكينة، وألزمنا كلمة التَّقوى، وحبَّب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء^(٣)!

٥- الرُّوم:

أقبلت الرُّوم في خيلائها، وفخرها، وقد سدَّت أقطار تلك البقعة سهلها، ووعرها، كأنَّهم غمامة سوداء يصيحون بأصواتٍ مرتفعة، ورهبانهم يتلون الإنجيل، ويحثُّونهم على القتال^(٤)، ونزلت الرُّوم الواقعة قريباً من اليرموك، وصار الوادي خندقاً عليهم، وتعباً الرُّوم باستخدام أسلوب الفراديس في خطَّين، كلُّ خمسةٍ في دائرة يفصل بينهما وبين الخمسة الأخرى فاصلٌ، ثمَّ يأتي الخطُّ الثاني وراء فريات الخطِّ الأوَّل، واتبَع الرُّوم في قتالهم التَّرتيب التَّالي:

- الرُّماة في المقدمة. واجبههم أن ينشبوا القتال، ثمَّ الانسحاب إلى الورا والأجنحة.

- الخيالة بالجناحين. واجبههم حماية الرُّماة حتَّى انسحابهم إلى الخلف.

- الفراديس (المشاة) واجبههم الاقتحام.

- قائد المقدِّمة: جرجة.

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) أبو بكر رجل الدولة ص ٨٨.

(٤) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٦٣.

ـ قائد الجناحين: ماهان، والدارج^(١).

• المفاوضات قبل القتال:

ولمّا تقارب الناس تقدّم أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان نحو جيش الروم ومعهما ضرار بن الأزور، والحرث بن هشام، ونادوا إنّما نريد أميركم لنجتمع به، فأذن لهم في الدّخول على تذارف، وإذا هو جالسٌ في خيمةٍ من حرير. فقال الصّحابة: لا نستحلّ دخولها، فأمر لهم بفراشٍ بسط من حرير، فقالوا: ولا نجلس على هذه، فجلس معهم حيث أحبّوا، وتفاوضوا على الصّلح، ورجع عنهم الصّحابة بعدما دعوهم إلى الله عزّ وجلّ، فلم يتمّ ذلك^(٢).

وذكر الوليد بن مسلم: أنّ باهان طلب خالدًا ليرز إليه فيما بين الصّفين، فيجتمعا في مصلحةٍ لهم. فقال باهان: إنّنا قد علمنا أنّ ما أخرجكم من بلادكم الجهد، والجوع، فلموا إلى أن أعطي كلّ رجلٍ منكم عشرة دنانير، وكسوة، وطعامًا، وترجعون إلى بلادكم فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها. فقال خالد: إنّّه لم يخرجنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنّا قومٌ نشرب الدّماء، وأنّه بلغنا أنّه لا دم أطيب من دم الرّوم، فجنّنا لذلك. فقال أصحاب باهان: هذا والله ما كنا نحدّث به عن العرب^(٣)!

• إنشباب القتال:

لمّا تكامل الاستعداد، ولم تنجح المفاوضات، تقدّم خالد إلى عكرمة بن أبي جهل، والقعقاع بن عمرو - وهما على مجنبتَي القلب - أن ينشبا القتال، فبدرا يرتجزان، ودعوا إلى البراز، وتنازل الأبطال، وتجاولوا، وحميت الحرب، وقامت على ساق.

هذا وخالد مع كردوس من الحماة الشّجعان الأبطال بين يدي الصّفوف والأبطال يتصاولون بين يديه، وهو ينظر، ويبعث إلى كلّ قومٍ من أصحابه بما يعتمدونه من الأفاعيل

(١) العمليات التعرّضية والدّفاعية عند المسلمين (١٦٦).

(٢) البداية والنّهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٠.

(٣) المصدر السّابق نفسه.

ويدبر أمر الحرب أتم التدبير^(١).

• إسلام أحد قادة الروم في ميدان المعركة:

وخرج جرجة أحد الأمراء الكبار من الصف، واستدعى خالد بن الوليد، فجاء إليه حتى اختلفت أعناق فرسيهما فقال جرجة: يا خالد! أخبرني، فأصدقني، ولا تكذبي، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعني فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله: هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاه، فلا تسله على أحد إلا هزمتهم؟ قال: لا! قال: فبم سميت سيف الله؟ قال: إن الله بعث فينا نبياً، فدعانا، فنفرنا منه، ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا صدقه، وتابعه، وبعضنا كذبه، وباعده، فكنت فيمن كذبه، وباعده، ثم إن الله أخذ بقلوبنا، ونواصينا، فهدانا به، فقال لي: «أنت سيف من سيوف الله، سلّه على المشركين»^(٢). ودعا لي بالنصر، فسميت سيف الله بذلك، فأنا أشد المسلمين على المشركين، فقال جرجة: يا خالد! إلام تدعون؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله عز وجل. قال: فمن لم يجيبكم؟ قال: فالجزية، ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نوذنه بالحرب، ثم نقاتله. قال: فما منزلة من يجيبكم، ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا، ووضعنا، وأولنا، وآخرنا. قال جرجة: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر مثل ما لكم من الأجر، والدُّخر؟ قال: نعم، وأفضل. قال: وكيف يساويكم، وقد سبقتموه؟ فقال خالد: إننا قبلنا هذا الأمر عنوةً، وبايعنا نبيناً، وهو حيٌّ بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يسلم، ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة، ونية كان أفضل منا. فقال جرجة: بالله لقد صدقتني ولم تخادعني؟ قال: تالله لقد صدقتك! وإن الله وليي ما سألت عنه. فعند ذلك قلب جرجة الترس ومال مع خالد، وقال: علّمني الإسلام! فمال به خالد إلى فسطاته فسَنَّ عليه قربة من ماء ثم صلى به

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٣.

ركعتين. وحملت الروم مع انقلابه إلى خالد، وهم يرون أنها منه حملة، فأزالوا المسلمين عن مواقعهم إلا المحامية عليهم عكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام^(١).

• ميسرة الروم تحمل على ميمنة المسلمين:

تقدّمت صفوف الروم، وأقبلت كقطع الليل للقيام بهجوم عام على الجيش الإسلامي، وحملت ميسرتهم على ميمنة المسلمين، فانكشف قلب الجيش الإسلامي من ناحية الميمنة، واستطاع الروم إحداث ثغرة في صفوف المسلمين، والتسلل إلى مؤخرتهم، فصاح معاذ بن جبل: يا عباد الله المسلمين! إن هؤلاء شدّوا للشّدّ عليكم، ولا والله لا يردّهم إلا صدق اللقاء، والصبر في البلاء. ثم نزل عن فرسه، وقال: من أراد أن يأخذ فرسي، ويقاتل عليه فليأخذه، واثربذلك أن يقاتل راجلاً مع المشاة^(٢).

وثبت قبائل الأزد، ومذحي، وحضر موت، وخولان حتّى صدّوا أعداء الله، ثم ركبهم من الروم أمثال الجبال، فزال المسلمون من الميمنة إلى القلب وانكشف طائفة من الناس إلى العسكر، وثبت سور من المسلمين عظيم يقاتلون تحت راياتهم، ثمّ تنادوا، فترجعوا حتّى نهّوها من أمامهم من الروم، وأشغلوهم عن اتباع من انكشف من الناس، واستقبل النساء من انهزم من سرعان الناس يضربنهم بالخشب، والحجارة. فترجعوا إلى مواقعهم^(٣).

فقال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله في مواطن، وأفرت منكم اليوم؟ ثمّ نادى: من يبايع على الموت؟ فبايعه عمّه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمئة من وجوه المسلمين، وفرسانهم، فقاتلوا قدّام فسطاط خالد حتّى أثبتوا جميعاً جراحاً، وقتل منهم خلق منهم ضرار بن الأزور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٤).

وقد ذكر الواقدي وغيره أنّهم لما صرعوا من الجراح استسقوا ماءً فجيء إليهم بشربة

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) العمليات التعرّضية والدفاعية، ص ١٦٩.

(٣) فتوح الشام للأزدّي، ص ٢٢٢.

(٤) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٧٠.

ماء، فلما قُربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه، فلما دفعت إليه نظر إلى الآخر فقال: ادفعها إليه، فتدافعوها كلهم من واحدٍ إلى واحدٍ حتى ماتوا جميعاً، ولم يشربها أحدٌ منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

ويقال: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ قَتَلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ شَهِيداً رَجُلٌ جَاءَ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ تَهَيَّأتُ لَأَمْرِي فَهَلْ لَكَ حَاجَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: نَعَمْ تَقْرَأُهُ عَنِّي السَّلَامَ، وَتَقُولُ: يَرِاسِلُ اللَّهُ! إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا. قَالَ: فَتَقَدَّمْ هَذَا الرَّجُلُ حَتَّى قَتَلَ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَثَبَتَ كُلُّ قَوْمٍ عَلَى رَايَتِهِمْ حَتَّى صَارَتِ الرُّومُ تَدُورُ كَأَنَّهَا الرِّحَابُ، فَلَمْ تَرِ يَوْمَ الْيَرْمُوكَ إِلَّا مُخًّا سَاقِطًا، وَمَعْصَمًا نَادِرًا، وَكَفًّا طَائِرَةً مِنْ ذَلِكَ الْمَوْطِنِ^(١).

• ميمنة الرُّوم تحمل على ميسرة المسلمين:

حملت ميمنة الرُّوم بقيادة قناطر على ميسرة المسلمين حملةً شديدةً، وكانت في ميسرة المسلمين قبائل كنانة، وقيس، وخثعم، وجذام، وقضاة، وعاملة، وغسان فأزيلت عن مواضعها، فانكشف قلب المسلمين من ناحية الميسرة وركب الرُّوم أكتاف من انهزم من المسلمين، وتبعوهم حتى دخلوا معسكر المسلمين، فاستقبلتهم نساء المسلمين بالحجارة وأعمدة الخيام يضربنهم على وجوههم، ويقلن لهم: أين عزُّ الإسلام، والأُمَّهات، والأزواج؛ أين تَفْرُونَ وتدعوننا للعلوج؟ فإذا زجرنهم خجل أحدهم من نفسه، ورجع إلى القتال، وقتلوا من الرُّوم خلقاً كثيراً، واستشهد في المرحلة سعيد بن زيد، وحاولت ميسرة الرُّوم مرةً أخرى بشنَّ الهجوم على ميمنة المسلمين: فشدُّوا على عمرو بن العاص، وجنده في محاولة اختراق الصُّفوف لكي يقوموا بعملية التَّطويق، وقاتل عمرو، وجنده عن مواضعهم إلا أن الرُّوم تمكَّنوا من دخول معسكرهم، ونزلت المسلمات من التَّلِّ، وأخذن يضربن وجوه الرجال المتراجعين، وقالت ابنة عمرو: قَبَّحَ اللَّهُ رجلاً يَفِرُّ عن حليلته! وقَبَّحَ اللَّهُ رجلاً يَفِرُّ عن كريمته! وقالت أخريات: لستم بعولتنا إن لم تمنعونا! وبذلك ارتدَّت إلى المسلمين

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٢.

عزائهم، ودخلوا القتال مرةً أخرى، وحمل المسلمون على الرُّوم من جديد حتَّى أزاحوهم عن المواضع التي كسبوها^(١).

• الحركة الإخراجية والقضاء على مشاة الرُّوم:

حمل خالد بمن معه من الخيالة على الميسرة التي حملت على ميمنة المسلمين فأزاحوهم إلى القلب، فقتل من الرُّوم في حملته هذه ستة آلاف، ثمَّ قال: والذي نفسي بيده لم يبقَ عندهم من الصَّبر والجلَد غير ما رأيتم، وإنِّي لأرجو أن يمنحكم الله أكتافهم. ثمَّ اعترضهم، فحمل بمئة فارسٍ معه على نحو من مئة ألف فما وصل إليهم حتَّى انقضَّ جميعهم، وحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحدٍ، فأنكشفوا، وتبعهم المسلمون لا يمتنعون منهم^(٢)، وقامت ميمنة المسلمين بإغلاق المنافذ، والثغرات في وجوه الرُّوم، وحصروا بين وادي اليرموك ونهر الزَّرقاء، ودارت رحى المعركة، وأبلى المسلمون بها بلاءً حسناً، واستطاع المسلمون أن يفصلوا فرسان الرُّوم عن مشاتهم، فحملوا على الرُّوم وركبوا أكتافهم حتَّى أرهقوهم، وبذلك أراد فرسان الرُّوم مخرجاً لهم للفرار منه، وبذلك أمر خالد عمرو بن العاص بفسح المجال لهم في طريق الهرب، ففعل ذلك، وهرب فرسان الروم، وبذلك تحرَّك مشاة الرُّوم دون غطاء من خيالهم، فجاء المشاة إلى الخنادق وهم مقيَّدون بالسَّلاسل حتَّى صاروا كأنَّهم حائط، وقد هدم، وجاءهم المسلمون إلى خندقهم في ظلام الليل، وأخذ معظمهم ينهار بالوادي فإذا منهم شخصٌ قُتل سقط معه الجميع الذين كانوا مقيَّدين معه، وقتل منهم المسلمون في هذه المرحلة خلقاً كثيراً قدر عددهم بمائة ألف وعشرين ألفاً، والنَّاجون منهم قد انسحب منهم إلى فحلٍ، والقسم الآخر إلى دمشق داخل بلاد الشام^(٣).

وثبت يومئذٍ يزيد بن أبي سفيان، وقاتل قتلاً شديداً، وذلك: أن أباه مرَّ به، فقال له: يا بني! عليك بتقوى الله، والصَّبر، فإنَّه ليس رجل بهذا الوادي من المسلمين إلا محفوفاً بالقتال،

(١) العمليات التعرضية والدفاعية، ص ١٧٤.

(٢) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٧١؛ فتوح البلدان للأزدي، ص ١٧١.

(٣) العمليات التعرضية والدفاعية، ص ١٧٥.

فكيف بك وبأشباهك الذين ولوا المسلمين؟ أولئك أحق الناس بالصبر والنصيحة، فاتق الله يا بني! ولا يكوننَّ أحدٌ من أصحابك بأغرب في الأجر، والصبر في الحرب، ولا أجراً على عدوِّ الإسلام منك. فقال: أفعل إن شاء الله. فقاتل يومئذ قتالاً شديداً، وكان من ناحية القلب رضي الله عنه^(١).

وقال سعيد بن المسيّب عن أبيه، قال: هدأت الأصوات يوم اليرموك فسمعنا صوتاً يكاد يملأ المعسكر يقول: يا نصر الله اقترب! الثبات، الثبات، يا معشر المسلمين! قال: فنظرنا فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد^(٢)، وآخر الناس صلاتي العشاء حتى استقرَّ الفتح^(٣)، وأكمل خالدٌ ليلته في خيمة تذارف أخي هرقل - وهو أمير الروم كلهم يومئذ^(٤)، وهرب فيمن هرب، وباتت الخيول تجول حول خيمة خالد يقتلون من مرَّ بها من الروم حتى أصبحوا، وقُتل تذارف، وكان له ثلاثون سراقاً، وثلاثون رواقاً من ديباج بما فيها من الفرش والحريز، فلما كان الصُّباح حازوا ما كان هنالك من الغنائم^(٥)، وكان عدد شهداء المسلمين ثلاثة آلاف بينهم من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وشيوخ المسلمين، وأقطابهم، وممن استشهد من هؤلاء عكرمة بن أبي جهل، وابنه عمرو، وسلمة بن هشام، وعمرو بن سعيد، وأبان بن سعيد، وغيرهم^(٦)، وكان عدد قتلى الروم مئة وعشرين ألفاً، منهم ثمانون ألفاً مقيّدون بالسلاسل، وأربعون ألفاً مطلقون سقطوا جميعهم في الوادي^(٧).

لقد فرح المسلمون بهذا النصر العظيم، وعكّر ذلك الفرح وصول خبر وفاة الصديق حيث

(١) فتوح البلدان للأزدي، ص ٢٢٨.

(٢) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ١٧٣.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) العمليات التعرّضية والدفاعية، ص ١٧٩.

(٧) المصدر السابق نفسه.

حزنوا عليه حزناً شديداً، وعوّضهم الله تعالى بالفاروق - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أجمعين -^(١)، وقد كان البريد قد قدم بموت الصديق والمسلمون مصاف الرُّوم، فكتّم خالد ذلك عن المسلمين لئلا يقع في صفوفهم وهنٌ أو ضعفٌ، فلَمَّا تم النصر وأصبحوا؛ أجلى لهم الأمر، وكان الفاروق قد عيّن أبا عبيدة بن الجراح بدلاً من خالد بن الوليد على جيوش الشّام، وتقبّل خالد أمر الفاروق برحابة صدر^(٢)، وعزّى المسلمين في خليفة رسول الله، وقال لهم: الحمد لله الذي قضى على أبي بكرٍ بالموت وكان أحبَّ إليّ من عمر، والحمد لله الَّذي وَلّى عمر، وكان أبغض إليّ من أبي بكرٍ وألزمني حبّه^(٣). وتولى أبو عبيدة القيادة العامّة لجيوش الشّام.

وممّا قيل من الشعر في يوم اليرموك قول القعقاع بن عمرو:

كَمَا فُزْنَا بِأَيَّامِ الْعِرَاقِ	أَلَمْ تَرْنَا عَلَى الْيَرْمُوكِ فُزْنَا
وَمَرَجَ الصَّفَرِ بِالْجُرْدِ الْعِتَاقِ ^(٤)	وَعِذْرَاءِ الْمَدَائِنِ قَدْ فَتَحْنَا
مَحْرَمَةَ الْجَنَابِ لَدَى النُّعَاقِ ^(٥)	فَتَحْنَا قَبْلَهَا بُصْرَى وَكَانَتْ
نَهَابُهُمْ بِأَسْيَافِ رِقَاقِ	قَتَلْنَا مَنْ أَقَامَ لَنَا وَفِينَا
عَلَى الْيَرْمُوكِ مَعْرُوقِ الْوَرَقِ	قَتَلْنَا الرُّومَ حَتَّى مَا تَسَاوَى
عَلَى الْوَاقُونَ بِالْبَثْرِ الرَّقَاقِ ^(٦)	فَضَضْنَا جَمْعَهُمْ لَمَّا اسْتَجَالُوا
إِلَى أَمْرِ يُعْضَلُ بِالذَّوَقِ ^(٧)	غَدَاةَ تَهَافُتُوا فِيهَا فَصَارُوا

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٤.

(٢) المرجع السابق، ج ٧، ص ١٦.

(٣) المرجع السابق، ج ٧، ص ١٤.

(٤) العتاق: الخيول.

(٥) النُّعَاق: صوت الغراب.

(٦) الواقوص: اسم موضع، البثر الرقاق: السيوف القاطعة.

(٧) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٥.

وقد أصاب هرقل همٌّ، وحزنٌ لما أصاب جيشه في اليرموك، ولمَّا قدمت على أنطاكية فلولُ جيشه؛ قال هرقل: ويلكم أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم، أليسوا بشرًا مثلكم؟ قالوا: بلى! قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كلِّ موطن. قال: فما بالكم تنهزمون؟! فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنَّهم يقومون الليل، ويصومون النَّهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم. ومن أجل أنَّنا نشرب الخمر، ونزني، ونركب الحرام، وننقض العهد، ونغصب، ونظلم، ونأمر بالسُّخط، وننهى عمَّا يرضى الله، ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني^(١)!

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ٥١-٦١.

المبحث الثالث: أهمُّ الدُّروس، والعبر، والفوائد

أولاً: من معالم السَّياسة الخارجيّة في دولة الصّديق:

رسمت خلافة الصّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أهدافاً في السَّياسة الخارجيّة للدولة الإسلاميّة، والتي كان من أهمّها:

١ - بذر هيبة الدولة في نفوس الأمم الأخرى:

فقد حقّقت سياسة الصّديق هذا الهدف بطرقٍ عديدةٍ منها:

(أ) وصول أخبار الانتصارات التي أيّد الله بها الأمّة المسلمة في حروب الردّة، ممّا ساعد على وأد هذه الفتنة، وتثبيت أركان الدولة، ومثل هذه الأخبار تصل إلى الدُّول المجاورة، وبخاصّةٍ إذا كانت تُتابع أنباء الدولة الإسلاميّة، وترقب حركتها، وترى فيها خطراً جديداً يهدّدها، وللفرس، والرُّوم في ذلك الوقت قدرةٌ على معرفة الحوادث والأُمور، فلمّا وصلت أنباء المرتدّين، وثبات النَّاس على الدِّين أدركت الدّولتان: أنَّ بنيان هذه الأمّة الجديدة يستعصي على المؤامرات، ويتجاوز المحن والابتلاءات، وهذا له وَقْعُهُ في نشر هيبة دولة الإسلام.

(ب) جيش أسامة: ظهر لجيش أسامة الذي أنفذه الصّديق أثرٌ بالغٌ في نشر هيبة الدولة الإسلاميّة، وقد جعل الرُّوم يتساءلون عن الجيش الذي حاربهم، وعاد منتصراً إلى عاصمة دولته، فامتلأت قلوبهم فرحاً، حتّى حشد هرقل عشرات الألوف من جيشه على الحدود، فقد نُقلت تلك الأخبار إلى بلاد كسرى، وتناقلها النَّاس ممّا كان له الأثر في نشر هيبة المسلمين في قلوب هذه الدُّول^(١).

(١) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ٣٥٩-٣٦٠.

٢- مواصلة الجهاد الذي أمر به النبي ﷺ:

قام الصديق بمواصلة الجهاد لتأمين الدعوة، ووصولها للناس، فجهز الجيوش، وندب الناس للخروج إلى الجهاد في سبيل الله، لنشر دعوة الحق، وإزاحة الطواغيت الذين رفضوا دعوة النبي ﷺ لهم بالإسلام، وصمموا على حجب نور الحق عن شعوبهم، وقد خرج الناس يلبون هذه الدعوة الحبيبة إلى النفوس تحت لواء قادة أصحاب بلاء، وجاهد في سبيل الله، أمثال خالد، وأبي عبيدة، وعمر، وشرحبيل، ويزيد - رضي الله عنهم - اختارهم خليفة محنك، مجرب، ذو ملكة عسكرية عجيبة، صقلتها الظروف التي أحاطت به، والأزمات الخطيرة التي أحدثت بأمته، ممّا دفعه إلى العناية بهذه الناحية، فاختار القواد أحسن اختيار، وأمدّهم بتوجيهاته، وإرشاداته، ففتحوا الشام، والعراق في أقصر وقت ممكن وبأقل كلفة متاحة^(١).

٣- العدل بين الأمم المفتوحة والرفق بأهلها:

كانت السياسة الخارجية للصديق قائمة على بسط لواء العدل على الديار المفتوحة، ونشر الأمن، والطمأنينة بين أهلها، حتى يحسّ الناس بالفرق بين دولة الحق، ودولة الباطل، وحتى لا يظنّ الناس: أنّه قد ذهب جبار ظالم ليحلّ مكانه من هو أشد منه، أو مثله في ظلمه، وجبروته، ووصى أبو بكر قواده بالرحمة، والعدل، والإحسان إلى الناس، فإنّ المغلوب يحتاج إلى الرأفة، وتجنّب ما يثير فيه حميّة القتال، وحافظ المسلمون الفاتحون على الإنسان، والعمران، فشاهدت الشعوب المفتوحة خلقاً جديداً في ذوق رفيع، وإنسانيّة صادقة، فقام ميزان الشريعة بين الأمم المغلوبة بالقسط، وانتشر نور الإسلام، فأخذ يعدله مجامع القلوب فسارعت الشعوب إلى اعتناق هذا الدين، والانضواء تحت لوائه، وكان جند الأعاجم من الفرس، أو الروم إذا وطئوا أرضاً؛ دنسوها، ونشروا فيها الرعب، والفرع، وانتهكوا الحرمات، ممّا قاسى منه الناس الويل، والثبور، وتناقلت الأجيال قصصه المرعبة

(١) المرجع السابق، ص ٢٦٠.

والمفزة جيلًا بعد جيل، وقبيلًا إثر قبيل، فلمّا جاء الإسلام، ودخل جنده هذه الديار، فإذا بالنّاس يجدون العدل يسطر دءاه فوق رؤوسهم، ويعيد إليهم ادميتهم التي انتزعها الظلم والطغيان، وقد حرص الصّدّيق على هذه السياسة حرصًا عظيمًا، وكان يقوم أيّ عوج يظهر، أو خطأ يقع.

روى البيهقي: أنّ الأعاجم كانوا إذا انتصروا على عدوّ استباحوا كلّ شيءٍ من ملك، أو أمير، وكانوا يحملون رؤوس البشر إلى ملوكهم كبشائر للنّصر، وإعلانٍ للفخر، فرأى أمراء المسلمين في حروب الرّوم أن يعاملوهم بنفس معاملتهم، فبعث عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة برأس (بنان) أحد بطارقة الشّام إلى أبي بكرٍ مع عُقبة بن عامر، فلما قدم عليه؛ أنكر ذلك، فقال له عقبة: يا خليفة رسول الله! إنهم يصنعون ذلك بنا، فقال: أفنستنّ بفارس، والرّوم؟ لا يحمل إليّ رأسٌ إنّما يكفي الكتاب، والخبر^(١).

٤ - رفع الإكراه عن الأمم المفتوحة:

من معالم السياسة الخارجيّة عند الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفع الإكراه عن الأمم المفتوحة، فلم يُكره أحدٌ من الأمم أو الشّعوب على دينه بالقوّة، وهو في هذا ينطلق من قول الله تعالى: ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]. والمسلمون أرادوا من الفتوحات إزالة الطُّغاة، وفتح الأبواب أمام الشّعوب؛ لترى نور الإسلام، أما وقد أزيل كابوس الظلم عن النّاس؛ فليتركوا أحرارًا، ولا يكرهوا على شيءٍ طالما حافظوا على عهدهم مع المسلمين، والذي كان يشمل في بنوده:

(أ) أن يؤدّوا الجزية عن يدٍ، وهم صاغرون.

(ب) ألا يكون لهم مكانٌ في بعض الوظائف كالجيش.

(ج) ألا يُكُونُوا جهةً معاديّةً للإسلام في شعائره، أو عباداته، أو شريعته.

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ١٢٣.

(د) إذا غيّر أحدهم دينه السابق؛ فلا يُقبل منه إلا الإسلام.

وتقوم دولة الإسلام بتفسير الإسلام لهم عملياً، ونظرياً، بحيث يؤدي ذلك إلى اقتناعهم بهذا الدين؛ ليدخلوا فيه عن رغبة، فإنّ العقائد لا تستقرّ بالإكراه^(١).

ثانياً: من معالم التخطيط الحربي عند الصديق:

إنّ المطالع للفتوحات في عهد الصديق رضي الله عنه يمكن له أن يستنتج خطوطاً رئيسة للخطة الحربية التي سار عليها، وكيف تعامل هذا الخليفة العظيم مع سنة الأخذ بالأسباب؟ وكيف كانت هذه الخطة المحكمة عملاً من عوامل نزول النصر، والتّمكن من الله عزّ وجلّ للمسلمين، ومن هذه الخطوط ما يلي:

١ - عدم الإيغال في بلاد العدو حتى تدين للمسلمين:

كان الصديق رضي الله عنه حريصاً أشدّ الحرص على عدم الإيغال في بلاد العدو حتى تدين للمسلمين، وقد كان ذلك واضحاً تمام الوضوح في جبهات العراق، والشّام، ففي فتوح العراق أرسل الصديق رضي الله عنه إلى خالد، وعياض بتكليفهما بغزو العراق من جنوبه، وشماله، وجاء في الكتاب: وأيكنما سبق إلى الحيرة؛ فهو أمير على الحيرة، فإذا اجتمعتما بالحيرة - إن شاء الله - وقد فضضتُما مسالح ما بين العرب، وفارس^(٢)، وأمتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم؛ فليقيم بالحيرة أحدكما، وليقتحم الآخر على القوم، وجالدوهم عمّا في أيديهم، واستعينوا بالله، واتّقوه، واثروا أمر الآخرة على الدُّنيا؛ يجتمعاً لكم، ولا تؤثروا الدُّنيا، فتسلبوها، واحذروا ما حذركم الله بترك المعاصي، ومعالجة التّوبة، وإيّاكم والإصرار، وتأخير التّوبة^(٣).

وهذا الكتاب الجليل يدلّ على فكر أبي بكرٍ العالي وتخطيطه الدقيق وقبل ذلك توفيق الله

(١) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

(٢) يعني تفريق التّجّعات الحربية التي دون بلاد فارس.

(٣) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٨٨-١٨٩.

له، فقد جاء تخطيطه الحربي موافقاً تماماً لما اقتضته مصلحة الجيوش الإسلامية أثناء تطبيق هذه الخطة الحكيمة، وقد شهد ببراعة أبي بكر في التخطيط الحربي أخبر الناس بالحروب آنذاك، وهو خالد بن الوليد، فإنه لما نهض للقيام بمهمة عياض في فتح شمال العراق، ونزل بكر بلاء، واشتكى إليه المسلمون ما وقعوا فيه من التأذي بذبابها الكثيف، قال لعبد الله بن تيمة: اصبر فإنني إنما أريد أن أستفرغ المسالحي التي أمر بها عياض، فنسكنها العرب، فتأمن جنود المسلمين أن يؤتوا من خلفهم، وتجيئنا العرب أمنة غير متعتعه، وبذلك أمرنا الخليفة، ورأيه يعدل نجدة الأمة^(١)، وقد سار على هذه الخطة بالعراق المشي بن حارثة، حيث يقول ذلك القائد الفذ: قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب، ولا تقاتلوهم بعقر دارهم، فإن يظهر الله المسلمين؛ فلهم ما وراءهم، وإن كان الأخرى؛ رجعوا إلى فئة، ثم يكونون أعلم بسبيلهم، وأجراً على أرضهم، إلى أن يرد الله الكرة عليهم^(٢)، وأما في فتوح الشام فقد كانت الصحراء من خلف المسلمين حماية لهم، ومع هذا كان المسلمون يتأكدون أولاً من أن عدوهم قد انقطع أمله في مفاجأتهم من خلف ظهورهم، وأن يستولوا على ما يقع بيمينهم، وشمالهم من المدن والبلاد، وسد كل ثغر بالمقاتلة، وقد كانت تلك القاعدة مرعية عندهم، يحرصون عليها أشد الحرص^(٣).

٢- التعبئة وحشد القوات:

عندما تولى الصديق الخلافة وضع من خطوط الإعداد الحربي: التعبئة، وحشد القوات، وقد نادى المسلمين لحروب الردة، ثم استنفارهم بعدها للفتوحات، وأرسل إلى أهل اليمن كتابه المعروف في ذلك^(٤).

٣- تنظيم عملية الإمداد للجيوش:

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٨٩).

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٣٣١.

(٣) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٣٣١.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣٢.

حينما تطوّرت معارك الجبهة الشرقيّة ووجد قائد الجبهة - خالدٌ، والمثنّى - أنّهما في حاجة إلى مددٍ بشريٍّ؛ لأنّ الطّاقة التي معهما لا تستطيع تلبية المعركة في متطلباتها وواجباتها، فكتبوا إلى الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلتزمان المدد فقال لهما: استنفرا من قاتل أهل الرّدّة، ومن بقي على الإسلام بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يغزونا أحدٌ ارتدّ حتّى أرى رأيي^(١). وشرع في إمداد جبهات العراق والشّام حتّى اللحظات الأخيرة من حياته.

٤ - تحديد الهدف من الحرب:

وُضعت هذه النقطة في خطّة الحرب الإسلاميّة في الفتوحات؛ لتكون هدف العمليات الذي يسعى إليه الجميع، وقد وضع الصّدّيق خطّته في هذه القضية على أساس أن يعلم كلّ فردٍ مقاتل: أنّ هدف المسلمين من هذه الفتوحات: نشر الإسلام، وتبليغه إلى الشعوب، بإزالة الطّواغيت الذين يحرمون شعوبهم من هذا الخير العميم، فقد كان القادة يعرضون على عدوّهم قبل المعركة واحدةً من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب^(٢).

٥ - إعطاء الأفضليّة لمسارح العمليات:

قاد الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنفسه أولى العمليات الحربيّة ضدّ المرتدّين، ونظّم الجيوش لحربهم، ولم يهمل بقيّة المسارح، فوجّه أسامة إلى الشّام، والمثنّى إلى العراق، وكرّس جهود المسلمين في السّنة الأولى للقضاء على الرّدّة، وعندما تمّت عملية إعادة توحيد الجزيرة، وأصبح بالإمكان الانطلاق من قاعدة قويّة، ومأمونة؛ وجّه ثقل العمليات إلى الجبهتين العراقيّة والشّاميّة، وعندما احتاجت الجبهة الشّاميّة إلى المدد نقل الصّدّيق محور ثقل الهجوم إلى الشّام، ووجّه خالدًا إليه، وترك المثنّى في الجبهة العراقية.

٦ - عزل ميدان المعركة:

عندما بدأ الصّدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باستنفار القوّات لحرب الرّوم والفرس؛ أرسل خالد بن

(١) تاريخ الطّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٦٣.

(٢) تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين، مرجع سابق، ص ٣٣٢.



سعيد إلى تبوك بمهمة إلى مناطق الحشد، ومحاوَر التقدُّم، وأمره أن يكون رداءً للمسلمين، وعندما فشل في هذا الواجب، وتجاوزَه؛ قام عكرمة بن أبي جهل به^(١).

٧- التطوُّر في أساليب القتال:

كتب الصَّدِّيق إلى أبي عبيدة عندما بلغه تقدُّم جيوش الرُّوم، وانضمام أهل دمشق إليهم ما يلي: بَثَّ خيولك في القرى، والسَّواد، وضَيِّق عليهم الميرة، والمادَّة، ولا تحاصرَن المدائن حتَّى يأتِيكَ أمري^(٢)، وعندما دعمه بقواتٍ كافية؛ كتب له: فإن ناهضوك، فانهِدْ لهم^(٣)، واستعن بالله عليهم، فإنَّه ليس يأتيهم مددٌ إلَّا أمددناكَ بمثلهم^(٤).

٨- سلامة خطوط الاتِّصال مع القادة:

كانت خطوط الاتِّصال بين الصَّدِّيق وقادة المعارك منظمَّة، ومنتظمة بحيث تصل المكاتبات من القادة في أمان، وتصل ردود الخليفة في سرِّيَّة تامَّة، وسرعة متقدِّمة، لا تسمح للعدو أن يفاجأ المسلمين بشيء لا يتوقَّعونَه، وهكذا كانت الخطط الحربيَّة عند المسلمين محكمة، ودقيقة، ممَّا كان عاملاً من عوامل دحر الأعداء، والتغلُّب عليهم بفضل الله في حركة الفتوح^(٥).

٩- ذكاء الخليفة، وفطنته:

امتازت الخطط الحربيَّة الإسلاميَّة في بداية الفتوحات بوجود العقل المدبِّر ذي الفطنة، والذكاء، والكياسة، والفراصة، وهو الصَّدِّيق، وقد ساعد أبو بكر على فهمه الواسع للتخطيط العسكري طول ملازمته للنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد تربَّى على تعليمه، وتوجيهاته، فكسب

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) العمليَّات التعرُّضيَّة والدِّفاعيَّة عند المسلمين، ص ١٤٨.

(٣) انهِدْ لهم: اقصدْهم، واشرَعْ في قتالهم.

(٤) تاريخ الدَّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ٣٣٤.

(٥) المصدر السابق نفسه.

علومًا شتى، وخبراتٍ متنوّعة، فقام بعد رحيل رسول الله ﷺ في مقام الخلافة خير قيام، فحمل البصيرة الواعية، وزوّد الجيش بالنصائح الغالية، وأرسل الإمدادات في أوقاتها تسعف المجاهدين، وتمدّهم بالهمة، والعزيمة الماضية^(١).

ثالثاً: حقوق الله، والقادة، والجنود من خلال وصايا الصديق:

١ - حقوق الله:

بيّن الخليفة في توجيهاته للقادة والجنود حقوق الله تعالى، كمصابرة العدو، وإخلاص قتالهم لله، وأداء الأمانة، وعدم الممالة، والمحابة في نصره دين الله.

(أ) مصابرة العدو:

حين وجّه أبو بكر رضي الله عنه عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه إلى عُمَان؛ كان ممّا أوصاه به قوله: واتّق الله، فإذا لقيت العدو؛ فاصبر^(٢)، كما قال الصديق رضي الله عنه لهاشم بن عتبة بن أبي وقاص عندما وجّهه مدداً لجند الشام: إذا لقيت عدوك؛ فاصبر، وصابر، واعلم: أنّك لا تخطو خطوة، ولا تنفق نفقة، ولا يصيبك ظمأ، ولا مخمصة في سبيل الله إلا كتب الله لك به عملاً صالحاً^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

(ب) أن يقصدوا بقتالهم نصره دين الله:

فقد جاء في خطاب الصديق لخالد حين أمره بالذهاب للشام ما يفيد هذا المعنى، حيث ذكره بأن يجتهد، ويخلص النية لله وحده، وحذّره من العجب بالنفس، والزهو، والفخر، فذلك حظُّ النفس الذي يفسد العمل على العامل، ويردّه في وجهه، كما حذّره أن يُدَلَّ، ويمنَّ على الله بالعمل الذي يعمل، فإنَّ الله هو المانُّ به؛ إذ التوفيق بيده سبحانه^(٤). وهذا بعض ما

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) عيون الأخبار (١/ ١٨٨).

(٣) فتوح الشام للأزدی، ص ٣٤.

(٤) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٢٩٥.

جاء في تلك الرسالة: ... فليهنئك أبا سليمان النية، والحظوة، فأتمم يتم الله لك، ولا يدخلنك عجب، فتخسر، وتخذل، وإياك أن تدل بعمل، فإن الله له المن وهو ولي الجزاء^(١).

(ج) أداء الأمانة:

وقد كانت توجيهات الصديق لأمرائه وجنوده واضحة في وجوب أن يؤدوا الأمانة فيما حاذوه من الغنائم، ولا يغفل أحد منهم شيئاً، بل يحمل جميعه إلى المغنم؛ ليقسم بين جميع الغانمين ممن شهدوا الواقعة، وكانوا على العدو يداً واحدة^(٢)، وعلى سبيل المثال ما جاء في وصية الصديق ليزيد بن أبي سفيان في النهي عن الغلول^(٣). هذه بعض توجيهات الصديق مما يتعلق ببعض حقوق الله على القادة والجنود.

٢- حقوق القائد:

وقد بين الخليفة الصديق حقوق القادة على الجنود والرعية، كالالتزام طاعته، والمصارعة إلى امتثال أمره، وعدم منازعته في شيء من قسمة الغنائم وغير ذلك.

(أ) التزام طاعته:

فعندما تولى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أن تولى الخلافة كان أوّل شيء نَبّه المسلمين إليه في خطاب التولية: أَنَّهُ سائرٌ على نهج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما ذَكَرَ بالطاعة حيث قال: واعلموا: أَنّ ما أخلقتُم لله من أعمالكم؛ فطاعةٌ أتيتُموها^(٤). وألزم قاداته بالطاعة لبعضهم، فمن ذلك ما كتبه إلى المثنى بن حارثة الشيباني بقوله: إِنِّي قد بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق، فاستقبله بمن معك من قومك، ثمّ ساعده، ووازره، وكاتفه، ولا تعصين له أمراً، ولا تخالفوا له رأياً، فَإِنَّهُ من الذين وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٠٢.

(٢) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (١/٤٦).

(٣) تاريخ الخلفاء للسبوطي، ص ١٢١.

(٤) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٤٤.

اللَّهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴿٢٩﴾ [الفتح: ٢٩] (١) كذلك أخذ أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوصي في خلافته جيوش المسلمين المتجهة لفتح بلاد الشام بالطاعة، فقال لهم: أيها الناس! إن الله قد أنعم عليكم بالإسلام وأكرمكم بالجهاد، وفصلكم بهذا الدين عن كل دين، فتجهزوا عباد الله إلى غزو الروم بالشام، فإنني مؤمّر عليكم أمراء، وعاقدٌ لكم ألوية، فأطيعوا ربكم، ولا تخالفوا أمراءكم، لتحسن نيّتكم، وأشربتكم، وأطعمتكم، ف﴿٢﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨]. فكان جوابهم له بقولهم: أنت أميرنا، ونحن رعيتك، فمنك الأمر، ومنا الطاعة، فنحن مطيعون لأمرك، وحيثما توجّهنا نتوجه (٣).

وعندما عيّن الصديق خالد بن الوليد لفظته وعلمه بالحرب، ولمّا وصل خالد ابن الوليد للشام طلب من أبي عبيدة بن الجراح بأن يبعث إلى أهل كل راية، ويأمرهم أن يطيعوه، فدعا أبو عبيدة الضحّاك بن قيس، فأمره بذلك، فخرج الضحّاك يسير في الناس طالباً منهم طاعة القائد الجديد لجيوش الشام خالد بن الوليد فيما يأمرهم به، فأجاب الناس بالسّمع والطاعة (٤).

(ب) أن يفوضوا أمرهم إلى رأيه:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]. جعل الله تفويض الرّعية الأمر إلى وليّ الأمر سبباً لحصول العلم، وسداد الرأي، فإن ظهر لهم صوابٌ خفي عليه؛ بيّنوه له، وأشاروا به عليه، ولذلك ندب إلى المشاورة؛ ليرجع بها إلى الصّواب (٥)، وفي خلافة الصديق نرى أبا بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلف أمراءه،

(١) فتوح الشام للأزدي، ص (٦٠ - ٦١).

(٢) فتوح الشام للأزدي، ص ٥.

(٣) الفتوح، ابن أعتم (١/ ٨٢).

(٤) فتوح الشام للأزدي، ص ١٨٩.

(٥) الأحكام السلطانية للماوردي، ص ٤٨.

وقادة جيوشه بالتوجُّه إلى الشَّام، وفوَّض لهم أمر الجيوش، حيث قال لهم: يا أبا عبيدة! ويا معاذ! ويا شرحبيل! أنتم من حماة هذا الدِّين وقد فوَّضت إليكم أمر هذه الجيوش، فاجتهدوا في الأمر، واثبتوا، وكونوا يداً واحدةً في مواجهة عدوكم^(١). ثمَّ أمر القادة بمراعاة أحوال الجنود، وتقديم الإخلاص والاتِّحاد حتَّى لا تختلف آراؤهم^(٢)، وأضاف الصِّديق قائلاً: فإذا قدِّمتم البلد، ولقيتم العدو، واجتمعتم على قتالهم؛ فأمركم أبو عبيدة بن الجراح، وإن لم يلقكم أبو عبيدة، وجمعتكم حربٌ؛ فأمركم يزيد ابن أبي سفيان^(٣).

وهكذا فوَّض خليفة رسول الله ﷺ إدارة العسكر إلى رأي أحد قادته، ووكله إلى تدبيره، حتَّى لا تختلف آراؤهم، وأكَّد على ذلك عندما قال لعمر بن العاص: أنت أحد أمرائنا هناك، فإن جمعتك حربٌ؛ فأمركم أبو عبيدة بن الجراح^(٤).

وكان ذلك رأيه أيضاً مع قادة العراق، حيث قال للمثنَّى بن حارثة: إنِّي بعثت إليك خالد بن الوليد إلى أرض العراق... فما أقام معك؛ فهو الأمير، فإن شخَّص عنك؛ فأنت على ما كنت عليه، والسَّلام عليك^(٥).

(ج) المسارعة إلى امتثال أمره:

ففي حروب الردَّة كتب أبو بكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى خالد بن الوليد في أمر مسيلمة الكذاب، فقد أمره بالمسير إليه، فجمع خالد بن الوليد أصحابه، وقرأ عليهم الكتاب، وسألهم الرأْي، فأجابوه بقولهم: الرأْي رأْيك، وليس فينا أحدٌ يخالف أوامرك^(٦)، كما كتب الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لخالد بن الوليد أثناء مقامه بالعراق بالخروج في شطر النَّاس إلى الشَّام، وأن يخلف

(١) فتوح الشَّام للأزدي، ص ٧.

(٢) الفتوح، ابن أَعْتَم (١/ ٨٤).

(٣) فتوح الشَّام، ص ٧.

(٤) المصدر السَّابِق نفسه، ص ٤٨.

(٥) الوثائق السِّيَاسِيَّة، حميد الله، ص ٣٧١.

(٦) الفتوح، ابن أَعْتَم (١/ ٢٩).

على الشطر الباقي المثنى ابن حارثة، وقال له: لا تأخذ نجداً إلا خلفت له نجداً. فامثل خالد للأمر، وقسم الجند نصفين^(١)، وكتب إلى عمرو بن العاص بالسَّير من بلاد قضاة إلى يرموك، ففعل، وبعث بأبي عبيدة ويزيد وأمرهما بالإغارة، وألا يوغلوا في بلاد الشام حتى لا يكون وراءهم أحدٌ من العدو، وقد استجاب القادة، والجنود لتوجيهاته، وأوامر الصديق رضي الله عنه^(٢).

(د) عدم منازعته في شيء من قسمة الغنائم:

سار أبو بكر رضي الله عنه في خلافته على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم في تقسيم الغنائم، فبعد انتهاء خالد بن الوليد رضي الله عنه من معركة اليمامة كتب إلى الصديق رضي الله عنه يخبره بما فتح الله عليه، وما أغنمه منهم، فكتب إليه أبو بكر قائلاً: اجمع الغنائم والسبي وما أفاء الله عليك من مال بني حنيفة، فأخرج من ذلك الخمس، ووجه به إلينا؛ ليقسم فيمن بحضرتنا من المسلمين، وادفع إلى كل ذي حقِّ حقَّه، والسلام. وهذا ما كان يفعله جميع قادة أبي بكر رضي الله عنه في إدارتهم العسكرية في قسمة الغنائم، ولم ينازعهم الجند في شيء من قسمتها والتسوية بينهم فيها^(٣).

٣- حقوق الجند:

بين الصديق رضي الله عنه من خلال وصاياه ورسائله حقوق الجند، كاستعراضهم، وتفقد أحوالهم، والرَّفَق بهم في السَّير، وأن يقيم عليهم العرفاء، والنُّقباء، واختيار مواضع نزولهم لمحاربة العدو، وإعداد ما يحتاج إليه الجند من زادٍ، وعلوفة، والتَّعرُّف على أخبار العدو بالجواسيس الثَّقات لسلامة الجند، وتحريضهم على الجهاد، وتذكيرهم بثواب الله، وفضل الشَّهادة، ومشاورة ذوي الرَّأي منهم، وأن يلزمهم بما أوجبه الله من حقوق، وأن ينهاهم عن

(١) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، سليمان ال كمال (١/ ١١٢).

(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ١١٣).

(٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (١/ ١٢٠).

الاشتغال عن الجهاد بتجارة، وزراعة، ونحوهما^(١)، وإليك تفصيل بعض هذه النقاط:

(أ) استعراضهم، وتفقد أحوالهم:

فقد رأينا أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما طرق المرتدّون المدينة المنورة أخذ أهلها بحضور المسجد، وقال لهم: إِنَّ الْأَرْضَ كَافِرَةٌ، وقد رأى وفدُهم منكم قلةً، وإنَّكم لا تدرون ألياً توتون أم نهراً، وأدناهم منكم على بريد^(٢)، وأخذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعرض أصحابه ثمَّ يعين منهم على أنقَاب المدينة نفراً للحراسة^(٣)، وعندما اجتمع جيش فتوح الشَّام؛ صعد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على دابَّته حتَّى أشرف على الجيش فنظر إليهم، وقد ملوا الأرض، فتهلَّل وجهه، وأخذ يعرضهم قبل سيرهم، ويوصيهم، ويدعو لهم، وعقد لهم الألوية، ومشى معهم نحواً من ميلين^(٤).

(ب) الرِّفق بالجند في السَّير:

فقد أوصى أبو بكر خالد بن الوليد في حروب الردّة بالرفق بمن معه، وأن يتخذ الأدلاء في مسيره^(٥)، وأوصى سائر أمراء الردّة بذلك^(٦)، وفي فتوح العراق عندما عقد خالد بن الوليد معاهدة الصُّلح مع أهل أليس^(٧)، وغيرهم، كان من ضمن شروط المعاهدة أن يبرقوا^(٨) المسلمين، ويكونوا أدلاء، وأعواناً لهم على الفرس؛ لأنَّهم أعرف، وأعلم بطرق بلادهم من غيرهم^(٩)، وحين كلَّف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خالد بن الوليد بالتوجُّه من العراق إلى الشَّام مدداً

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ١٣١ - ٢٥٥).

(٢) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٦٤.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة (١/ ١٣٦).

(٥) الإدارة العسكريَّة في الدَّولة الإسلاميَّة (١/ ١٤٧).

(٦) ماثر الإنافة للقلقشندي (٣/ ١٤٠).

(٧) أليس: قرية من قرى الأنبار. (ياقوت، معجم البلدان، ١/ ١٤٨).

(٨) البذرقة: الخفارة، والحراسة، وهي الجماعة تتقدَّم القافلة لتحرسها، وأصل الكلمة فارسيَّة.

(٩) الخراج لأبي يوسف، ص ٢٩٤.

وعوناً لهم، دعا خالد الأدلاء، وتشاور معهم حول سيرهم في طريق المفازة إلى الشام، لأنّه أسرع الطرق، وأسرعها لنجدة إخوانه، ثمّ رافقه منهم رافع بن عميرة الطائيّ دليلاً^(١)، وأوصى الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يزيد بن أبي سفيان عندما وجّهه إلى الشام بقوله: إذا سرت؛ فلا تضيق على نفسك، ولا على أصحابك في مسيرك^(٢).

وعندما جدّ الجند في السّير ذكر أحدهم يزيد بوصية أبي بكر له بالرفق بهم في السّير، وأن يلتزم بها^(٣). كما أوصى الصديق عمرو بن العاص عندما وجّهه إلى فلسطين بقوله له: وكن والدًا لمن معك، وارفق بهم في السّير فإنّ فيهم أهل ضعف^(٤)، وقد امتثل قادة الصديق لأمره بالرفق بالجند في مسيرهم، وأصبحوا لا يسيرون إلى قتال الأعداء إلاّ ومعهم أدلاء يدلّونهم على أسهل الطرق، وأوفرها ماءً، وعشبًا، وحتى يتمكنوا من مواصلة سيرهم نحو العدو من غير إهدار لقوتهم، أو تحطيم لمعنوياتهم^(٥).

(ج) أن يجعل لكلّ طائفة شعاراً يتداعون به:

ففي بعثه جيش أسامة لقتال الروم كان شعارهم: يا منصور أمت^(٦)! وفي حروب الردّة عند مسير خالد بن الوليد نحو مسيلمة الكذاب باليمامة كان شعارهم يومئذٍ: يا محمداه! يا محمداه^(٧)! وشعار تنوخ في فتوح العراق: يا آل عباد الله^(٨)! وفي فتوح الشام باليرموك نجد أنّ لكلّ قائد وقبيلة شعاراً مميّزاً يميّزها عن غيرها اتخذته؛ ليستدلّ به عليها، وكانوا يجهرون به عند القتال ويتعارفون به، فكان شعار أبي عبيدة: أمت، أمت. وشعار خالد بن الوليد ومن

(١) الإدارة العسكريّة في الدّولة الإسلاميّة (١/ ١٤٨).

(٢) فتوح الشام للواقدي (١/ ٢٣).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ١٣٠).

(٥) الإدارة العسكريّة في الدّولة الإسلاميّة (١/ ١٤٩).

(٦) الطبقات لابن سعد، مرجع سابق، ج ٢، ص ١٩١.

(٧) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ١١١.

(٨) الإدارة العسكريّة في الدّولة الإسلاميّة، (١/ ١٧٤).

معه: يا حزب الله! وشعار قبيلة عبس: يا لعبس! وشعار اليمن من أخلاط الناس: يا أنصار الله! وشعار حمير: الفتح. وشعار دارم، والسكاسك: الصبر، الصبر! وشعار بني مراد: يا نصر الله انزل! فهذه كانت أبرز الشعارات في معركة اليرموك^(١).

(د) أن يصفحهم عند مسيرهم:

ومن وصايا أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لقَوَّاده حين بعث بهم في حروب الردة: وأن يمنع أصحابه العجلة، والفساد، وألا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم، ويعلم ما هم لئلاً يكونوا عيوناً، ولفئلاً يؤتى المسلمون من قبلهم^(٢). كما أمر قاداته بعدم الاستعانة بالمرتدين في جهاد العدو، وذلك احتراساً، وحرصاً على سلامة جند المسلمين^(٣)، كذلك أوصى الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قادة فتوح الشام بالحذر، والحيلة، والتيقظ من رسل العدو حتى لا يتعرفوا على ما بجيشهم من ثغرات، ومكامن ضعف، وأمرهم بأن لا يخالطوا العسكر، ولا يحدثوهم، فمن ذلك قوله ليزيد بن أبي سفيان: وإذا قدمت عليك رسل عدوك؛ فأكرم منزلتهم، فإنه أوّل خبرك إليهم، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك، وامنع من قبلك من محادثتهم، وكن أنت الذي تلي كلامهم، ولا تجعل سرّك مع عانيتك، فيمرج^(٤) عملك^(٥).

(هـ) حراستهم من غرة يظفر بها العدو في مقامهم، ومسيرهم:

وظهر ذلك عندما وضع الصديق الحرس على أنقاب المدينة؛ خشية أن تطرقها بعض القبائل المرتدة، وحين وجّه خالد بن الوليد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - إلى حرب أهل الردة حذره من البيات، والغرة، وقال له: واحترس من البيات، فإنّ في العرب غرة^(٦)، كما أوصى أمراء وقادة فتوح الشام بالاحتراس، ونشر الحرس على العسكر لحفظهم من الأعداء، وأن يقوموا

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٧١-٧٢.

(٣) المصدر السابق نفسه (١٦٣/٤).

(٤) المرجع: الفساد، والقلق، والاختلاط، والاضطراب.

(٥) مروج الذهب للمسعودي (٣/٣٠٩).

(٦) نهاية الأرب، للنويري، ج ٦، ص ١٦٨.

بالتفتيش المفاجئ على الحرس حتى يتأكدوا من قيامهم بمهامهم المعدين لها، فمن ذلك ما قاله ليزيد بن أبي سفيان: وأكثر حرسك، وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك^(١).

وقال لعمر بن العاص: وأمر أصحابك بالحرس، ولتكن أنت بعد ذلك مطلعاً عليهم، وأطل الجلوس بالليل على أصحابك، وأقم بينهم، واجلس معهم^(٢). وحذا قادة الصديق رضي الله عنه حذوه في اتخاذ الحرس على العسكر في مقامهم، وسيرهم^(٣).

(و) إعداد ما يحتاج إليه العسكر من زاد، وعلوفة:

فقد كان الصديق رضي الله عنه يشتري الإبل والخيل والسلاح، فيجعلها في سبيل الله^(٤)، إلى جانب ما يكسبه، ويغنمه العسكر من العدو^(٥)، وحينما كلف الصديق خالد بن الوليد بمحاربة المرتدين، كان ممّا أوصاه به إذا دخل على أرض العدو أن لا يسير إليهم إلا وهو مستظهر بالزاد^(٦)، وكان قادة الصديق أثناء مصالحتهم للعدو يشترطون عليهم أن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين، بما يحلّ من طعامهم، وشرابهم^(٧)، وقد سمح أبو بكر لجند الشام أثناء ما أوصاهم بأنهم إذا عقروا شاة، أو بعيراً للعدو لا يعقرونها إلا للأكل^(٨).

(ز) ترتيب الجند في مصافّ الحرب:

استعمل قادة الصديق في معاركهم الحربيّة نظام الصّفّ والضّفوف، تزيد، وتنقص، بحسب ما يقتضيه الموقف ويراه القائد في ميدان القتال^(٩)، إلا أن خالد ابن الوليد في معركة

(١) مروج الذهب (٢/٣٠٩).

(٢) فتوح الشام للواقدي (١/٢٣).

(٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية، (١/١٩٦).

(٤) المصدر السابق نفسه (١/٢١٥).

(٥) الخراج لأبي يوسف، ص (٢٨٦، ٢٨٧).

(٦) نهاية الأرب للنويري (٦/١٦٨).

(٧) الخراج لأبي يوسف، ص ٢٨٩.

(٨) نهاية الأرب للنويري (٦/١٦٨).

(٩) الإدارة العسكريّة في الدولة الإسلاميّة (١/٢٣١).

اليرموك أدخل نظام الفراديس في أعينهم، وذلك لأنَّ نظام الفراديس عبارة عن مجموعة من الجند تقف في صفوفٍ لا تكون منفصلةً عن الأخرى، بينها مسافات متباعدة ممَّا يسهِّل ذلك عليها عملية الحركة وزيادة الانتشار، فمن قول خالدٍ للجند لاستخدامه لنظام الفراديس: إنَّ عدوَّكم قد كثر، وطغى، وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأي العين من الفراديس^(١)، فجعل القلب كرادي وأقام فيه أبا عبيدة، وجعل الميمنة كرادي، وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كرادي، وعليها يزيد بن أبي سفيان، وهكذا خرج في ستة وثلاثين كردوساً إلى الأربعين، وخرج في تعبئةٍ لم تعبئها العرب قبل ذلك، ووزَّع المهامَّ الإدارية بين القيادة^(٢)، إلا أنَّ نظام الصَّف ظلَّ قائماً ومعمولاً به في النظام الحربي الإسلاميَّ بعد اليرموك^(٣).

(٢) تحريضهم على القتال:

كان الصَّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُحَرِّضُ المجاهدين على القتال، ويقوِّي نفوسهم بما يشعرهم من الظَّفَر، ويذكر لهم أسباب النَّصر؛ ليقلَّ العدوُّ في أعينهم فيكونوا عليه أجراً، وبالجرأة يسهل الظَّفَر^(٤)، فقد حرَّض، وحضَّ أبو بكر خالد بن الوليد على القتال بقوله: احرص على الموت؛ توهب لك الحياة^(٥). وعندما عقد الألوية لجيوش الشَّام أخذ يحرضهم، ويحضضهم على الجهاد في سبيل الله، ويوصيهم، ويدعو لهم بالنَّصر على الأعداء^(٦).

(ط) أن يذكرهم بثواب الله، وفضل الشَّهادة:

فممَّا قاله أبو بكر الصَّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تلك الجيوش المتوجَّهة إلى الشَّام قوله: ألا وإنَّ

(١) تاريخ الطُّبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢١٥.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (١/ ٢٣٢).

(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٣٤).

(٥) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٣٨).

(٦) فتوح الشَّام للأزدي، ص (١١ - ١٥).

في كتاب الله من الثواب على الجهاد في سبيل الله، لما ينبغي للمسلم أن يحب أن يخص به، هي التجارة التي دل عليها، ونجى بها من الخزي، وألحق بها الكرامة في الدنيا، والآخرة^(١).

(ي) أن يشاور ذوي الرأي منهم:

وهذا ما فعله الصديق في حروب الردة، وفتوحات الشام، وكثير من القضايا الفقهية، والمستجدات التي تحدث في المجتمع المسلم، وقد طلب من القادة أن يتناصوا، ويتشاوروا^(٢). وقد كان الصديق قدوة في ذلك، ففي حروب الردة دعا عمرو بن العاص، وقال له: يا عمرو! إنك ذو رأي في قريش، وقد تنبأ طليحة، فما ترى؟ واستشاره، ثم سأله عن خالد بن الوليد عند اختياره لقيادة الجند، فأجابه: يسوس للحرب، يصبر للموت، له أناة القطاة، ووثوب الأسد، فعقد له^(٣)، وسار خالد بن الوليد لما كلف به، وأخذ يستشير من معه لإعداد الخطة لمحاربة المرتدين ويخبر القيادة العليا بما استقر عليه رأي الجند^(٤)، وحين أراد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يغزو الروم، ويعد الجيوش لفتح بلاد الشام، شاور في ذلك جماعة من أصحاب رسول الله، وبعد أن أخذ رأيهم، وما أجمعوا عليه، أمر الجند بالتجهيز للتوجه لما أمروا به^(٥)، وكان ممّا أوصى به الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمراء وقادة جند الشام بأن يعملوا بالمشورة، فمن ذلك ما قاله ليزيد بن أبي سفيان: هذا ربيعة بن عامر^(٦) من ذوي العلاء، والمفاخر، قد علمت صولته، وقد ضممتك إليك، وأمرتك عليه، فاجعله في مقدمتك، وشاوره في أمرك، ولا تخالفه^(٧)، قال يزيد: حباً وكرامةً، وأضاف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائلاً: إذا سرت؛ فلا تضيق على نفسك، ولا على أصحابك في مسيرك، ولا تغضب على قومك

(١) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٠٨.

(٢) العمليات التعرضية والدفاعية عند المسلمين، ص ١٤٣.

(٣) تاريخ البيهقي (٢/ ١٢٩).

(٤) الفتوح، ابن أعمم (١/ ٢٩).

(٥) تاريخ فتوح الشام، ص ٢؛ الفتوح، ابن أعمم (١/ ٨١).

(٦) ربيعة بن عامر القرشي العامري له ذكر في الفتوح، صحابي يعد من أهل فلسطين.

(٧) فتوح الشام للواقدي (١/ ٢٢).

ولا على أصحابك وشاورهم في الأمر، واستعمل العدل^(١)، كما قال ليزيد: وإذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة، ولا تكتم المستشار، فتؤتى من قبل نفسك^(٢).

إلى غير ذلك ممّا قاله ليزيد بن أبي سفيان حول مبدأ الشورى، والالتزام بها، وقد أوصى أمراء جند الشام بما لا يخرج عن ذلك^(٣)، وامثل قادة الصديق بما أمروا به من إجراء المشورة فيما بينهم، فقد قال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن العاص: يا عمرو! لربّ يوم لك قد شهدته، فبورك فيه للمسلمين برأيك، ومحضرك، وإنما أنا رجل منكم، ولست - وإن كنت الوالي عليكم - بقاطع أمراً دونكم، فأحضرني رأيك في كل يوم بما ترى، فإنه ليس بي عنك غنى^(٤).

هذا بالإضافة إلى طلب القادة في أرض المعركة من القيادة العليا المركزية المشورة فيما أشكل عليهم من أمور الإدارة العسكريّة، لمرحلة وضع الخطط الحربيّة، والتّنفيد، ومعاملة الأسرى^(٥).

(ك) أن يلزمهم بما أوجبه الله من حقوق:

فقد كان أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوصي قادته بذلك، فحين بعث عمرو بن العاص إلى أرض فلسطين؛ قال له: اتق الله في سرّك، ولعانيتك، واستحيه في خلواتك، فإنه يراك في عملك، وقد رأيت تقديمي لك على من هو أقدم منك سابقاً، وأقدم حرمةً، فكن من عمّال الآخرة، وأرد بعملك وجه الله، وكن والدّاً لمن معك، والصّلاة، ثمّ الصّلاة؛ أذن بها إذا دخل وقتها، ولا تصلّ صلاةً إلا بأذان يسمعه أهل العسكر، وأتق الله إذا لقيت العدو، وألزم أصحابك قراءة القرآن، وانهمم عن ذكر الجاهليّة وما كان منها، فإن ذلك يورث العداوة بينهم، وأعرض

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) مروج الذهب (٢/٣٠٩).

(٣) تاريخ فتوح الشام للأزدي، ص (١٣ - ١٥ - ٢٠، ٢١).

(٤) المصدر السابق نفسه، ص (٥١ - ٨٤).

(٥) الإدارة العسكريّة في الدولة الإسلاميّة (١/٢٧٢).

عن زهرة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك، وكن من الأئمة الممدودين في القران؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]^(١).

هذه أهم حقوق الله، والقادة، والجند التي تحدت عنها الصديق في وصاياه، ورسائله لقادته رضي الله عنه.

رابعاً: السر في اكتساح المسلمين لقوات الفرس والروم:

إنَّ المتأمل في حركة الفتح الإسلامي يرى توفيق الله تعالى لجيوش الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، فقد اندفعت تلك الجيوش المظفرة نحو العراق، والشام، واستطاعت أن تكسر شوكة الرومان، والفرس، وتفتح تلك الديار في وقت قياسي في تاريخ الحروب، والسبب في سرعة هذا الفتح عوامل تتعلق بالمسلمين الفاتحين، وأخرى ترجع إلى الأمم التي فتح المسلمون ديارهم. فمن العوامل التي تتعلق بالمسلمين:

- ١- إيمان المسلمين بالحق الذي يقاتلون من أجله.
- ٢- يقين المسلمين بربهم في قضيتي الرزق، والأجل، والقضاء، والقدر.
- ٣- تأصل الصفات الحربية في المسلمين.
- ٤- سماحة المسلمين وعدالتهم مع الشعوب.
- ٥- رحمة المسلمين في تقدير الجزية، والخراج، ووفائهم بعهودهم.
- ٦- ثروة المسلمين الواسعة من الرجال والقواد العظام.
- ٧- إحكام الخطة الحربية الإسلامية^(٢).

(١) الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية (١/ ٢٥١) هذا الكتاب لخصت واختصرت منه حقوق الله، والقادة، والجنود.

(٢) تاريخ الدعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ٢٢٢-٢٢٧.

وأما الأسباب التي تتعلق بالبلاد المفتوحة فأهمُّها: ضعف^(١) الرُّوم، والفرس، فقد ضعفوا وانتشر بينهم الظُّلم، وعمَّ الفساد، ودبَّ فيهم سوء الأخلاق، وأصاب حصارهم الشيوخوخة، وقضى عليها إسراف ملوكها، وانحرفهم عن منهج الله، ومضت فيهم سننه التي لا ترحم، ولا تجامل، ولا تبدِّل، وأما المسلمون فقد أكرمهم الله بمنهجه، فساروا عليه، وأخذوا بأسباب التَّمكين، وحققوا شروطه، وتعاملوا مع سنن الله في الشُّعوب، وبناء الدُّول وإصلاح المجتمعات، ولا يفهم من كلامي أنَّ ضعف الرُّوم والفرس سهَّل السَّيْل أمام المسلمين بشكل كبير، فرغم ضعف الدَّولتين بسبب العوامل السَّابقة، إلا أنَّه لم يمنعهما من الإعداد الهائل لملاقاة المسلمين، فجهزتا مئات الآلاف من الجند المدرَّين الذين يفوقون جند المسلمين عدداً وعدة، كما أنَّهما أبرزتا أسلحةً غير معهودة عند المسلمين، كالفيلة، والكلاليب المحمَّاة، التي كانوا يرسلونها من خلف الحصون، يصطادون بها من تقع عليه من المسلمين، كما أنَّ الظنَّ بأنَّ الرُّوم استهانوا بالمسلمين ولم يستعدُّوا لهم يدفعه الكلام السَّابق وتردُّه رواية ابن عساكر: أنَّ هرقل جمع بطارقه وهو بحمص، وقال لهم: هذا الذي حدَّرتكم، فأبيتم أن تقبلوه مني!! قد صارت العرب تأتي مسيرة شهر فتغير عليكم، ثمَّ تخرج من ساعتها؛ ولم تُكلِّمْ، قال أخوه: ابعث رباطاً إلى البلقاء، فبعث رباطاً، واستعمل عليه رجلاً من أصحابه، فلم يزل حتى تقدَّمت الجيوش إلى الشام في خلافة أبي بكرٍ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٢).

(١) أي: الضعف المعنوي، وليس المادي.

(٢) تاريخ الدَّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

المبحث الرابع: استخلاف الصديق لعمر بن الخطاب، ووفاته

أولاً: استخلاف لعمر:

في شهر جمادى الآخرة من العام الثالث عشر للهجرة النبوية، مرض الخليفة أبو بكر رضي الله عنه واشتدَّ به المرض^(١)، فلمَّا ثقل، واستبان له من نفسه؛ جمع النَّاس إليه فقال: إِنَّهُ قد نزل بي ما قد ترون، ولا أَظُنُّني إِلَّا ميتًا لما بي، وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتي، وحلَّ عنكم عقدتي، وردَّ عليكم أمركم، فأمرُّوا عليكم من أحببتم، فإنَّكم إن أمرتم في حياةٍ مِنِّي كان أجدر أن لا تختلفوا بعدي^(٢).

وقد قام أبو بكر رضي الله عنه بعدة إجراءات لتتمَّ عملية اختيار الخليفة القادم:

١ - استشارة أبي بكر كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار:

وتشاور الصحابة - رضي الله عنهم - وكلُّ يحاول أن يدفع الأمر عن نفسه، ويطلبه لأخيه؛ إذ يرى فيه الصَّلاح، والأهلية، لذا رجعوا إليه، فقالوا: رأينا يا خليفة رسول الله رأيك! قال: فأمهلوني حتى أنظر الله، ولديته، ولعباده، فدعا أبو بكر عبد الرحمن بن عوف فقال له: أخبرني عن عمر بن الخطاب! فقال له: ما تسألني عن أمرٍ إِلَّا وأنت أعلم به مِنِّي. فقال أبو بكر: وإنَّ. فقال عبد الرحمن: هو والله أفضل من رأيك فيه. ثمَّ دعا عثمان بن عفان. فقال: أخبرني عن عمر بن الخطاب. فقال: أنت أخبرنا به. فقال: على ذلك يا أبا عبد الله! فقال عثمان: اللَّهُمَّ علمي به أنَّ سريره خيرٌ من عانيته، وأنَّه ليس فينا مثله. فقال أبو بكر: يرحمك الله، والله لو تركته ما عدتَكَ!

(١) البداية والنهاية، تاريخ الخلفاء، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٨.

(٢) التاريخ الإسلامي (٢٥٨/٩).

ثم دعا أسيد بن حضير، فقال له مثل ذلك، فقال أسيد: اللَّهُمَّ أَعْلَمَهُ الخيرة بعدك، يرضى للرّضا، ويسخط للسّخط، والذي يُسرُّ خيرٌ من الذي يعلن، ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه.

وكذلك استشار سعيد بن زيد وعدداً من الأنصار والمهاجرين، وكلّهم تقريباً كانوا برأي واحد في عمرٍ إلا طلحة بن عبيد الله خاف من شدّته، فقد قال لأبي بكر: ما أنت قائل لرّبك إذا سألك عن استخفافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟ فقال أبو بكر: أجلسوني، أبالله تخوّفوني؟ خاب من تزوّد من أمركم بظلم! أقول: اللَّهُمَّ استخلفت عليهم خيرَ أهلِكَ^(١)!

وبيّن لمن نبهه إلى غلظة عمر، وشدّته؛ فقال: ذلك لأنّه يراني رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه؛ لترك كثيراً ممّا هو عليه^(٢).

٢- ثم كتب عهداً مكتوباً يقرأ على النّاس في المدينة وفي الأنصار عن طريق أمراء الأجناد، فكان نصُّ العهد:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدّنيا، خارجاً منها، وعند أوّل عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب، إنّي استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب، فاسمعوا له، وأطيعوا، وإنّي لم ألّ الله، ورسوله، ودينه، ونفسي، وإيّاكم خيراً، فإنّ عدلَ فذلك ظني به، وعلمي فيه، وإن بدّل فلكلّ أمرئ ما اكتسب، والخير أردت، ولا أعلم الغيب ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]^(٣).

إنّ عمر هو نصّح أبي بكرٍ الأخير للأمة، فقد أبصر الدّنيا مقبلةً تنهادي، وفي قومه فاقةٌ قديمةٌ يعرفها، فإذا أطلّوا بها؛ استشرتهم شهواتها فنكلت بهم واستبدّت، وذلك ما حذرهم

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ٧٩)؛ التّاريخ الإسلامي، محمود شاكر، ص ١٠١ الخلفاء الرّاشدون.

(٢) الكامل لابن الأثير (٢/ ٧٩).

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي - عهد الخلفاء - ص (١١٦ - ١١٧).

رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه^(١)، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فوالله لا الفقر أخشى عليكم! ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم»^(٢).

لقد أبصر أبو بكر الداء، فأتى لهم رضي الله عنه بدواء ناجع.. جبل شاهق إذا ما رآته الدنيا أيست، وولت عنهم مدبرة، إنه الرجل الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «إيهًا يا بن الخطاب! والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكًا فجًّا قطًّا إلا سلك فجًّا غير فجِّك»^(٣)!

إن الأحداث الجسام التي مرّت بالأمة قد بدأت بقتل عمر، هذه القواصم خير شاهد على فراسة أبي بكر، وصدق رؤيته في العهد لعمر، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أفرس الناس ثلاثة: صاحبة موسى التي قالت: ﴿يَتَأَبَّأُ اسْتَعْجِرُهُ إِبْرَاهِيمُ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَعْجَرَتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وصاحب يوسف حيث قال: ﴿أَكْرَمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَنْجُوهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١]، وأبو بكر حين استخلف عمر^(٤)، فقد كان عمر هو سدّ الأمة المنيع الذي حال بينها وبين أمواج الفتنة^(٥).

(١) أبو بكر رجل الدولة، ص ٩٩.

(٢) البخاري، كتاب الجزية والموادعة رقم (٣١٥٨).

(٣) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي رقم (٣٦٨٣).

(٤) مجمع الزوائد (١٠ / ٢٦٨) قال الهيثمي: رواه الطبراني بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم (٣ / ٩٠) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٥) أبو بكر رجل الدولة، ص ١٠٠.

٣- أنه أخبر عمر بن الخطاب بخطواته القادمة: فقد دخل عليه عمر فعرفه أبو بكر بما عزم، فأبى أن يقبل، فتهده أبو بكر بالسيف فما كان أمام عمر إلا أن قبل^(١).

٤- أنه أراد إبلاغ الناس بلسانه، واعياً مدركاً حتى لا يحصل أي لبس، فأشرف أبو بكر على الناس، وقال لهم: أترضون بمن أستخلف عليكم، فإنني والله ما ألوت من جهد الرأي، ولا وليت ذا قرابة، وإنني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فاسمعوا له وأطيعوا. فقالوا: سمعنا، وأطعنا^(٢).

٥- أنه توجه بالدعاء إلى الله يناجيه ويثبه كوامن نفسه، وهو يقول: اللهم وليته بغير أمر نبيك، ولم أرد بذلك إلا صلاحهم، وخفت عليهم الفتنة، واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيراً، وأحرصهم على ما أرشدهم، وقد حضرني من أمرك ما حضر، فاخلفني فيهم، فهم عبادك^(٣).

٦- أنه كلف عثمان بن عفان أن يتولى قراءة العهد على الناس، وأخذ البيعة لعمر قبل موت أبي بكر، بعد أن ختمه بخاتمه لمزيد من التوثيق، والحرص على إمضاء الأمر دون أي آثار سلبية، وقال عثمان للناس: أتبايعون لمن في هذا الكتاب؟ فقالوا: نعم. فأقرؤا بذلك جميعاً، ورضوا به^(٤).

٧- البيعة لعمر بن الخطاب قبل أن يتوفى أبو بكر الصديق، فبعد أن قرئ العهد على الناس ورضوا به؛ أقبلوا عليه، وبايعوه^(٥)، ولم تتم بيعة بعد الوفاة بل باشر عمر بن الخطاب أعماله بصفته خليفة للمسلمين فور وفاة أبي بكر رضي الله عنه^(٦).

ويلحظ الباحث: أن عمر ولي الخلافة باتفاق أصحاب الحل والعقد وإرادتهم، فهم الذين

(١) مائر الإنافة للقلقشندي (١/ ٤٩).

(٢) تاريخ الطبري، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٣) طبقات ابن سعد (٣/ ١٩٩)؛ تاريخ المدينة لابن شبة (٢/ ٦٦٥ - ٦٦٩).

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٠٠).

(٥) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٢٧٢.

(٦) المصدر السابق نفسه.

فَوَضُّوا لأبي بكرٍ انتخاب الخليفة، وجعلوه نائباً عنهم في ذلك، فشاور، ثُمَّ عَيَّن الخليفة، ثُمَّ عرض هذا التَّعيين على النَّاسِ، فأقرُّوه، وأمضوه، وموافقوه عليه، وأصحاب الحِلِّ والعقد في الأمة هم النُّواب (الطَّبِيعِيُّونَ) عن هذه الأُمَّة، وإذا فلم يكن استخلاف عمر رضي الله عنه إلا على أصح الأساليب الشُّوريَّة، وأعدلها^(١).

إنَّ الخطوات الَّتِي سار عليها أبو بكرٍ الصَّدِّيق في اختيار خليفته من بعده لا تتجاوز الشُّورى بأيِّ حال من الأحوال، وإن كان الإجراءات المتَّبعة فيها غير الإجراءات المتَّبعة في تولية أبي بكرٍ نفسه^(٢). وهكذا تمَّ عقد الخلافة لعمر رضي الله عنه بالشُّورى، والاتِّفاق، ولم يورد التَّاريخ أيَّ خلافٍ وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحداً نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماعٌ على خلافته، وعلى طاعته في أثناء حكمه، فكان الجميع وحدةً واحدةً^(٣).

٨ - وصيَّة الصَّدِّيق لعمر بن الخطاب:

فقد اختلى الصَّدِّيق بالفاروق، وأوصاه بمجموعةٍ من التَّوصيات لإخلاء ذمَّته من أيِّ شيءٍ، حتَّى يمضي إلى ربِّه خالياً من أيِّ تبعه، بعد أن بذل قصارى جهده، واجتهاده^(٤)، وقد جاء في الوصيَّة: اتَّق الله يا عمر! واعلم أنَّ الله عملاً بالنَّهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبل بالنَّهار، وأنَّه لا يقبل نافلةً حتَّى تُؤدَّى فريضةً، وإنَّما ثقلت موازين مَنْ ثقلت موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الحقَّ في دار الدُّنيا، وثقله عليهم، وحقَّ لميزان يوضع فيه الحقُّ غداً أن يكون ثقيلاً. وإنَّما خفَّت موازين مَنْ خفَّت موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الباطل في دار الدُّنيا، وخفته عليهم، وحقَّ لميزانٍ يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً، وإنَّ الله تعالى ذكر أهل الجنَّة، فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئته، فإذا ذكرتهم؛ قلت: إنِّي أخاف أن لا

(١) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، ص ٢٣٧.

(٢) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٢٧٣.

(٣) النظرية السياسية الإسلامية، ضياء الريس، ص ١٨١.

(٤) دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، ص ٢٧٢.



ألحق بهم، وإنَّ الله تعالى ذكر أهل النَّار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، وردَّ عليهم أحسنه، فإذا ذكرتُهم؛ قلت: إِنِّي لأرجو ألا أكون مع هؤلاء، ليكون العبد راغباً راهباً، لا يتمنى على الله، ولا يقنط من رحمة الله، فإنَّ أنت حفظت وصيَّتي فلا يكح غائبٌ أبغض إليك من الموت، ولست تُعجزه^(١).

ومن الشبهات في هذا الباب، أنَّ أبا بكر قد استخلف عمر عندما حضرته الوفاة، وهو بذلك قد خالف سنة رسول الله ﷺ فإنَّ النبي ﷺ لم يستخلف بعده أحداً، فقد خالف بذلك هدي النبي ﷺ.

ويجاب بأنَّ النبي ﷺ أشار بالاستخلاف، والإشارة إذ ذاك كالعبارة. وفي زمن الصديق كثر المسلمون من العرب، وهم حديثو عهد بالإسلام وأهله، فلا معرفة لهم بالرموز والإشارات، فلا بد من التنصيص والعبارات، حتى لا تقع المنازعات والمشاجرات. وفي كل زمان رجال، ولكلِّ مقام مقال^(٢).

ولهذا كانت طرق تنصيب الأئمة عند أهل السنة لتولي الولاية والحكم في الإسلام طريقتان:

الأولى: الاختيار.

الثانية: القهر والغلبة.

أما الطريقة الأولى: التولي بالاختيار، وهو قسمان:

القسم الأول: العهد؛ بأنَّ يعهد الحاكم لمن بعده.

القسم الثاني: اختيار أهل الحلِّ والعقد؛ بأنَّ يختاروا مَنْ يرونه مناسباً للحكم والولاية.

وقد دلَّ على هذه الطريقة - بقسميها - فعلُ رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر ابن

(١) صفة الصَّفوة (١/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) مختصر التحفة الاثني عشرية، شاه الدهلوي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٣ هـ، (١/ ٢٤٢).

الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وإجماع أهل العلم.

قال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قيل لعمر بن الخطاب: ألا تستخلف؟ قال: إن أستخلف فقد استخلف مَنْ هو خيرٌ مني أبو بكر، وإن أترك فقد ترك مَنْ هو خيرٌ مني رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «بعد ذكره لقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني» إلخ.. وعمر بن الخطاب يقول هذا مبيناً أن كلّها مشروعة له؛ الاستخلاف الذي هو العهد أو الترك بلا استخلاف^(٢). ومن أدلة جواز الاستخلاف قياسه على ما وقع يوم مؤته من استخلاف النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لزيد بن حارثة، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة^(٣).

وحاصله أن المسلمين أجمعوا على أنّ الخليفة إذا حضرته مقدمات الوفاة وقبل ذلك يجوز له الاستخلاف ويجوز له تركه فإن تركه فقد اقتدى بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا وإلا فقد اقتدى بأبي بكر وأجمعوا على انعقاد الخلافة بالاستخلاف وعلى انعقادها بعقد أهل الحل والعقد لإنسان إذا لم يستخلف الخليفة وأجمعوا على جواز جعل الخليفة الأمر شورى بين جماعة كما فعل عمر بالسته وأجمعوا على أنه يجب على المسلمين نصب خليفة^(٤). وقال ابن كثير: «والإمامة تُنال بالنص كما تقول طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقوله آخرون منهم أو باستخلاف خليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له، فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك إمام الحرمين الإجماع والله أعلم، أو يقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدي ذلك

(١) الإمامة العظمى، عبد العزيز الريس، دار البرازي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ، (ص ٦٠).

(٢) الإمامة العظمى، (ص ٣٦٧).

(٣) الأربعون العقدية، (٢/ ١٠١٧).

(٤) شرح النووي على مسلم، (١٢/ ٢٠٥).

إلى الشقاق، والاختلاف وقد نص عليه الشافعي^(١).

ثانياً: وحن وقت الرحيل:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أوَّل ما بدئ مرض أبي بكر: أَنَّهُ اغتسل، وكان يوماً بارداً، فحُمَّ خمسة عشرة يوماً لا يخرج إلى صلاةٍ، وكان يأمر عمر بالصَّلَاة، وكانوا يعودونه، وكان عثمان ألزمهم له في مرضه^(٢)، ولما اشتدَّ به المرض قيل له: ألا ندعو لك الطَّيِّب؟ فقال: قد راني فقال: إِنِّي فعَّالٌ لما أريد^(٣)، وقالت عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قال أبو بكر: انظروا ماذا زاد في مالي منذ دخلت في الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة بعدي. فنظرنا فإذا عبد نوبيٌّ كان يحمل صبيان، وإذا ناضجٌ^(٤) كان يسقي بستاناً له. فبعثنا بهما إلى عمر، فبكى عمر، وقال: رحمة الله على أبي بكرٍ، لقد أتعب مَنْ بعده تعباً شديداً^(٥)!

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَمَّا مرض أبو بكر مرضه الَّذي مات فيه، دخلت عليه وهو يعالج ما يعالج الميِّت، ونفسه في صدره، فتمثَّلت هذا البيت:

لَعَمْرُكَ ما يُغْنِي الشَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

فنظر إليَّ كالغضبان، ثم قال: ليس كذلك يا أم المؤمنين! ولكن قول الله أصدق ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. ثم قال: يا عائشة! إِنَّه ليس أحدٌ من أهلي أَحَبَّ إِلَيَّ منك، وقد كنت نحلكت حائطاً^(٦)، وَإِنَّ في نفسي منه شيئاً، فردَّيه إلى الميراث. قالت: نعم، فَرَدَّدْتَهُ. وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَمَا إِنَّا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً، ولا درهماً، ولكنَّا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا،

(١) تفسير القرآن العظيم، ١/ ١٢٥، نقلا عن عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، ص ٥٢١.

(٢) أصحاب الرِّسُول، محمد المصري (١/ ١٠٤).

(٣) ترتيب وتهذيب البداية والنهاية، ص ٣٣.

(٤) النَّاضِج: هو البعير الَّذي يُسْتَقَى عليه.

(٥) صفة الصَّفوة (١/ ٢٦٥).

(٦) حائطاً: وفي رواية: جداد، وهي بمعنى: قطع ثمرة النَّخل (صفة الصَّفوة، ١/ ٢٦٦).

وليس عندنا من فيء المسلمين قليلٌ ولا كثيرٌ، إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير النَّاصح، وجرّد هذه القطيفة، فإذا متُّ؛ فابعثي بهنَّ إلى عمر، وابريئي منهنَّ! ففعلت، فلمّا جاء الرّسول إلى عمر بكى حتّى جعلت دموعه تسيل في الأرض، ويقول: رحم الله أبا بكرٍ، لقد أتعّب مَنْ بعده! رحم الله أبا بكرٍ، لقد أتعّب مَنْ بعده! رحم الله أبا بكرٍ، لقد أتعّب مَنْ بعده! وقد جاء في رواية: أنّ أبا بكرٍ لما حضرته الوفاة قال: إنّ عمر لم يدعني حتّى أصبت من بيت المال ستة آلاف درهم، وإنّ حائطي الذي بمكان كذا فيها. فلمّا توفي ذكر ذلك لعمر فقال: يرحم الله أبا بكرٍ، لقد أحبّ ألا يدع لأحدٍ بعده مقالاً^(١)!

ويظهر من هذه المواقف ورع الصّدّيق في المال العام، فقد ترك هذا الخليفة العظيم تجارته، وتخلّى عن ذرائع كسبه اشتغالاً عنها بأمور المسلمين، وقياماً بوظائف الخلافة، فيضطرُّ إلى أخذ نفقته من بيت المال بما لا يزيد عن الحاجة إلى سدّ الجوع وستر العورة، ثمّ هو يؤدّي للمسلمين خدمةً هيهات أن تؤدّي حقّها الخزان، ولمّا أشرف على وفاته وعنده فضلةٌ من مال المسلمين، وهي ذلك المتاع الحقيقير يأمر بردها إلى المسلمين ليلقى ربّه امنّا، مطمئنّاً، نزيه القلب، طاهر النّفس، خفيف الحمل إلا من التّقوى، فارغ اليدين إلا من الإيمان، إنّ في هذا لبلاغاً، وإنّها لموعظةٌ لقومٍ يعقلون^(٢).

كما أنّ ما قام به من الوصيّة بتعويض بيت مال المسلمين بأرضه المذكورة مقابل ما أنفق على نفسه، وعياله منه، وكان ورعاً منه ورغبةً في أن يكون عمله في الولاية تطوّعاً، وخالصاً لله تعالى، بعيداً عن أيّ حظٍّ من حظوظ الدّنيا.

وقد استمرّ مرض أبي بكرٍ مدّة خمسة عشر يوماً، حتّى كان يوم الإثنين ليلة الثلاثاء في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة، قالت عائشة - رضي الله عنها: إنّ أبا بكر قال لها: في أيّ يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلّم؟ قالت: في يوم الإثنين، قال:

(١) الطّبقات لابن سعد، مرجع سابق، ج ٣، ص ١٤٦-١٤٧، رجاله ثقات.

(٢) المنتظم لابن الجوزي (٤/١٢٧)؛ وأصحاب الرسول (١/١٠٥).

(٣) أشهر مشاهير الإسلام، مرجع سابق، ج ١، ص ٩٤.

إِنِّي لأرجو فيما بيني وبين الليل، قال: ففيم كَفْتَمُوهُ؟ قالت: في ثلاثة أثوابٍ بيضٍ سحوليه يمانية، ليس فيها قميصٌ، ولا عمامةٌ، فقال أبو بكر: انظري ثوبي هذا فيه ردع زعفران، أو مشقٌ، فاغسله، واجعلي معه ثوبين آخرين^(١)، ففيل له: قد رزق الله وأحسن؛ نكفئك في جديد. قال: إِنَّ الحَيَّ هو أحوج إلى الجديد ليصون به نفسه عن الميِّت، إِنَّمَا يصير الميت إلى الصَّديد، وإلى البلى^(٢)، وقد أوصى أن تغسله زوجه أسماء بنت عميس، وأن يدفن بجانب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان آخر ما تكلم به الصَّديق في هذه الدُّنيا، قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]^(٣).

وارتجَّت المدينة لوفاة أبي بكر الصَّديق، ولم تر المدينة منذ وفاة الرِّسول يوماً أكثر باكيةً وبأكيةً من ذلك المساء الحزين، وأقبل عليُّ بن أبي طالب مسرعاً باكيةً مسترجعاً، ووقف على البيت الذي فيه أبو بكر، فقال: رحمك الله يا أبا بكر! كنت إلف رسول الله، وأنيسه، ومستراحه، وثقته، وموضع سرِّه، ومشاورته، وكنت أوَّل القوم إسلاماً، وأخلصهم يقيناً، وأشدَّهم لله يقيناً، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناءً في دين الله عَزَّوَجَلَّ، وأحوطهم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحدهم على الإسلام، وأحسنهم صحبةً، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجةً، وأقربهم وسيلةً، وأشبههم برسول الله هدياً، وسمتاً، وأشرفهم منزلةً، وارفعهم عنده، وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن رسول الله وعن الإسلام أفضل الجزاء! صدَّقت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين كذبه النَّاس، وكنت عنده بمنزلة السَّمع والبصر، سمَّاك الله في تنزيله صديقاً، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

واسيته حين بخلوا، وقمت معه على المكاره حين قعدوا، وصحبته في الشدة أكرم

(١) أصحاب الرِّسول (١٠٦/١).

(٢) التَّاريخ الإسلامي، محمود شاكر، الخلفاء الراشدون، ص ١٠٤.

(٣) الشيخان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، برواية البلاذري في أنساب الأشراف. تحقيق د. إحسان صدقي العمدة، ص ٦٩.

الصُّحبة ثاني اثنين، صاحبه في الغار، والمُنزَّل عليه السَّكينة، ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله وأُمَّته أحسنَ الخلافة حين ارتدُّوا، فقامت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبيٍّ، ونهضت حين وهن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهج رسول الله؛ إذ وهنوا، وكنت كما قال رسول الله ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله تعالى، متواضعاً في نفسك، عظيمًا عند الله تعالى، جليلاً في أعين الناس كبيراً في أنفسهم، لم يكن لأحدهم فيك مغمزٌ، ولا لقاتل فيك مهمزٌ، ولا لمخلوق عندك هوادة، الضَّعيف الدَّلِيل عندك قويٌّ عزيزٌ حتَّى تأخذ بحقِّه، القريب والبعيد عنك في ذاك سواء، وأقرب النَّاس عندك أطوعهم لله عزَّ وجلَّ، وأتقاهم.

شأنك الحقُّ، والصَّدق، والرَّفق، قولك حكمٌ وحتم، وأمرٌ حلمٌ وحزمٌ، ورأيك علمٌ وعزمٌ، اعتدل بك الدِّين، وقوي بك الإيمان، وظهر أمر الله، فسبقت - والله! - سبقاً بعيداً، وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً، وفزت بالخير فوزاً مبيناً، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، رضيانا عن الله عزَّ وجلَّ قضاءه، وسلَّمنا له أمره، والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلِكَ أبداً، كنت للدِّين عزّاً، وحرزاً، وكهفًا، فألحقك الله عزَّ وجلَّ بنبيِّك محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا حرماناً أجرك، ولا أضللاً بعدك! فسكت النَّاس حتَّى قضى كلامه، ثمَّ بكوا حتَّى علت أصواتهم، وقالوا: صدقت^(١)!

وجاء في رواية: إِنَّ عَلِيًّا قَالَ عِنْدَمَا دَخَلَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بَعْدَمَا سُجِّيَ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَحَدٌ أَلْقَى اللَّهَ بِصَحِيفَتِهِ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ هَذَا الْمُسَجِّي^(٢).

هذا وقد توفي الصَّدِيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو ابن ثلاث وستين سنة... مجمعٌ على ذلك في الروايات كُلِّها، استوفى سنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغسلته زوجته أسماء بنت عميس،

(١) التبصرة لابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت ٥٩٧هـ،

دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م)، ج ١، ص ٤١١.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي، عهد الخلفاء الرَّاشدين، مرجع سابق، ص ١٢٠.

وكان قد أوصى بذلك^(١)، ودفن جانب رسول الله، وقد جعل رأسه عند كتفي رسول الله^(٢)، وصلى عليه خليفته عمر بن الخطاب، ونزل قبره عمر، وعثمان، وطلحة، وابنه عبد الرحمن، وألصق اللحد بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

وهكذا خرج أبو بكر الصديق من هذه الدنيا بعد جهاد عظيم في سبيل نشر دين الله في الآفاق، وستظل الحضارة الإنسانية مدينة لهذا الشيخ الجليل الذي حمل لواء دعوة الرسول بعد وفاته، وحمى غرسه عليه الصلاة والسلام وقام برعاية بذور العدل والحرية، وسقاها أزكى دماء الشهداء، فأتت من كل الثمرات عطاءً جزيلاً، حقق عبر التاريخ تقدماً عظيماً في العلوم، والثقافة، والفكر، وستظل الحضارة مدينة للصديق؛ لأنه بجهاده الرائع، وبصبره العظيم حمى الله به دين الإسلام في ثباته في الردة، ونشر الله به الإسلام في الأمم، والدول، والشعوب بحركة الفتوحات العظيمة، التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، وأختم هذا الكتاب بقول أبي محمد عبد الله القحطاني الأندلسي:

قُلْ إِنَّ خَيْرَ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ وَأَجَلٌ مَنْ يَمْشِي عَلَى الْكُثْبَانِ
وَأَجَلٌ صَحْبُ الرُّسُلِ صَحْبُ مُحَمَّدٍ كَذَاكَ أَفْضَلُ صَحْبِهِ الْعُمَرَانُ^(٤)
رَجُلَانِ قَدْ خُلِقَا لِنَصْرِ مُحَمَّدٍ بَدْمِي وَنَفْسِي ذَانِكَ الرَّجُلَانِ
فَهُمَا اللَّذَانِ تَظَاهَرَا لِنَبِيِّنَا فِي نَصْرِهِ وَهُمَا لَهُ صَهْرَانِ
بَنْتَاهُمَا أَسْنَى نِسَاءِ نَبِيِّنَا وَهُمَا لَهُ بِالْوَحْيِ صَاحِبَتَانِ
أَبَوَاهُمَا أَسْنَى صَحَابَةِ أَحْمَدَ يَا حَبَّذَا الْأَبْوَانِ وَالْبَنْتَانِ

(١) الطبقات لابن سعد، مرجع سابق، ج ٣، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، وإسناده صحيح.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي، عهد الخلفاء الراشدين، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٣) أصحاب الرسول، محمود المصري، مكتبة أبي حذيفة السلفي، ط ١ (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م)، ج ١،

ص ١٠٦.

(٤) أي: أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما.

وهما وزيراه اللذان هما
 وهما لأحمد ناظره وسمعه
 كانا على الإسلام أشفق أهله
 أصفاهما أخشاهما
 أسناهما أزكاهما أعلاههما
 صديق أحمد صاحب الغار الذي
 أعني أبا بكر الذي لم يختلف
 هو شيخ أصحاب النبي وخيرهم
 وأبو المطهرة التي تنزيهها
 لفصائل الأعمال مستبقان
 وبقره في القبر مضطجعان
 وهما لدين محمد جبلان
 اتقاهما في السر والإعلان
 أوفاهما في الوزن والرجحان
 هو في المغارة والنبي اثنان
 من شرعنا في فضله رجلا
 وإمامهم حقاً بلا بطلان
 قد جاءنا في النور والفرقان^(١)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

(١) نونية القحطاني، لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني، تحقيق محمد بن أحمد سيد أحمد، مكتبة الوادي للتوزيع، ط ٣ (١٤١٠هـ-١٩٨٩م)، ص ٢١-٢٢.

الخلاصة

١- إنَّ سيرة الخلفاء الرَّاشدين، وتاريخهم المجيد من أقوى مصادر الإيمان، والعاطفة الإسلامية الصَّحيحة، التي لا تزال هذه الأُمَّة تقتبس منها شعلة الإيمان، وتحمل زاد الدَّعوة، فتشعل أنوار الحقِّ في قلوب النَّاس حتَّى لا تنطفئ بريح الهدم؛ التي يوجَّهها أعداء الأُمَّة ضدَّ دعوتها، وتاريخها.

٢- إنَّ المسلمين - بل الإنسانية كُلُّها - أشدُّ ما كانوا اليوم حاجةً إلى معرفة فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، وكرم معدنهم، وأثر تربية رسول الله فيهم، وما كانوا عليه من علوِّ المنزلة؛ التي صاروا بها الجيل المثاليَّ القدَّ في تاريخ البشر.

٣- لقد تعرَّض التَّاريخ الإسلاميُّ في عمومهِ، وتاريخ صدر الإسلام على الخصوص للتَّزوير، والتَّشكيك، والتَّحريف، والبتر، والزَّيادة، وسوء التَّأويل من الإمامة، والمستشرقين، والنَّصارى، واليهود، والعلمانيِّين، ولذلك أصبح من الفروض الكفائي على الأُمَّة تصحيح الحقائق، فعلى كُلِّ مَنْ يستطيع تصحيح تاريخ صدر الإسلام أن يعتبر ذلك من أفضل العبادات، وأن يبادر له، ويجتهد فيه ما استطاع، حتَّى يكون أمام أبناء الأُمَّة مثالاً صالحاً من سلفهم، يقتدون به، ويجددون عهده، ويصلحون من سيرتهم بالسَّير على منهجهم.

٤- إنَّ سيرة الصَّدِّيق مليئةٌ بالدُّروس، والعبر، فهو أعظم شخصيَّة في الإسلام بعد النَّبيِّ ﷺ، فقد كان هذا الصَّحابيُّ الجليل قد اتَّصف بمكارم الأخلاق، والصفات الحميدة منذ الجاهليَّة، فلم يعرف عنه أنَّه سجد لصنم، أو شرب الخمر.

٥- كان الصَّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عالماً بالأنساب، وكانت له مزيَّةٌ حبَّته إلى قلوب العرب وهي أنَّه لم يكن يعيب الأنساب، ولا يذكر المثالب، بخلاف غيره، فقد كان أنسب قريشٍ لقريش، وأعلم قريش بها، وبما فيها من خيرٍ وشرٍّ، وقد اشتهر بالتَّجارة، وكان ينفق من ماله بسخاءٍ، وكرمٍ عرف به في الجاهليَّة.

٦- كان أبو بكر كنزاً من الكنوز اذخره الله تعالى لنبيِّه، وكان من أحبِّ قريشٍ لقريش، فذلك

- الخلق السَّمَح؛ الذي وهبه الله إِيَّاه، جعله من الموطَّئِين أَكْثَفًا، من الذين يَأْلِفون ويؤْلَفون.
- ٧- كان تحرُّك الصِّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الدَّعوة إلى الله يوضِّح صورةً من صور الإيمان بهذا الدِّين، والاستجابة لله ورسوله، صورة المؤمن الَّذي لا يقرُّ له قرار، ولا يهدأ له بالٌ حتَّى يحقِّق في دنيا النَّاس ما آمن به.
- ٨- تعرَّض الصِّديق للابتلاء، فقد أُوذي أبو بكر الصِّديق، وحُثي على رأسه التُّراب، وضرب في المسجد الحرام بالنُّعال حتَّى ما يعرف وجهه من أنفه، وحمل إلى بيته.
- ٩- من صفات الصِّديق الَّتِي تميَّز بها: الجرأة، والشَّجاعة، فقد كان لا يهاب أحداً في الحقِّ، ولا تأخذه لومة لائم في نصرته دين الله، والعمل له والدِّفاع عن رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ١٠- ساهم الصِّديق في سياسة فكِّ المسلمين المعدَّين، وأصبح هذا المنهج من ضمن الخطَّة الَّتِي تبنتها القيادة الإسلاميَّة لمقاومة التعذيب؛ الَّذي نزل بالمستضعفين، فدعم الدَّعوة بالمال، والرِّجال، والأفراد، فراح يشتري العبيد والإماء المملوكين من المؤمنين والمؤمنات، وأعتقهم لوجه الله.
- ١١- استخدم الصِّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ علم الأنساب كوسيلةٍ من وسائل الدَّعوة، ولذلك كان مرافقاً لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أثناء دعوته للقبائل في أسواق العرب في المواسم.
- ١٢- رافق الصِّديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رسول الله في هجرته إلى المدينة، فكان السَّاعد الأيمن لرسول الله منذ بزوغ الدَّعوة حتَّى وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ينهل بصمته وعمقٍ من ينابيع النُّبوة: حكمةً، وإيماناً، و يقيناً، وعزيمةً، وتقوى، وإخلاصاً، فأثمرت هذه الصُّحبة صلاحاً وصديقِيَّةً، ذِكْراً وبقطة، حُباً وصفاءً، عزيمةً وتصميماً، إخلاصاً وفهماً، فوقف مواقفه المشهوددة بعد وفاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سقيفة بني ساعدة، وغيرها من المواقف كبعث جيش أسامة، وحروب الردَّة، فأصلح ما فسد، وبنى ما هُدم، وجمع ما تفرَّق، وقوَّم ما انحرف.
- ١٣- شهد أبو بكر مع النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشاهد كُلِّها، ولم يفته منها مشهد، وثبت

مع رسول الله يوم أحد حين انهزم الناس، ودفع إليه النبي ﷺ رايته العظمى يوم تبوك، وكانت سوداء.

١٤- كانت حياة الصديق في المجتمع المدني مليئةً بالدروس، والعبر، وتركت لنا نموذجاً حياً لفهم الإسلام، وتطبيقه في دنيا الناس، وقد تميزت شخصية الصديق بصفات عظيمة، ومدحه رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة، وبين فضله، وتقدمه على كثير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

١٥- كان إيمان الصديق بالله عظيماً، فقد فهم حقيقة الإيمان، وتغلغلَت كلمة التوحيد في نفسه، وقلبه، وانعكست آثارها على جوارحه، وعاش بتلك الآثار في حياته، فتحلّى بالأخلاق الرفيعة، وتطهر من الأخلاق الوضيعة، وحرص على التمسك بشرع الله، والافتداء بهديه ﷺ، وكان إيمانه بالله باعثاً له على الحركة، والهمة، والنشاط، والسعي، والجهد، والمجاهدة، والجهاد، والتربية، والاستعلاء، والعزة، وكان في قلبه من اليقين والإيمان شيء عظيم لا يساويه فيه أحد من الصحابة.

١٦- كان الصديق من أعلم الناس بالله، وأخوفهم له، وقد اتفق أهل السنة على أن أبا بكر أعلم الأمة، وحكى الإجماع على ذلك غير واحد، وسبب تقدمه على كل الصحابة في العلم والفضل ملازمته للنبي ﷺ، فقد كان أدوم اجتماعاً به ليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً، وكان يسمر عند النبي ﷺ بعد العشاء، يتحدث معه في أمور المسلمين، وقد استعمله النبي ﷺ على أول حجة حُجَّت من مدينة النبي ﷺ، وعلم المناسك أدق ما في العبادات، ولولا سعة علمه لم يستعمله، وكذلك الصلاة استخلف عليها، ولولا علمه لم يستخلف، ولم يستخلف غيره لا في حج ولا في صلاة، وكتاب الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ أخذها أنس من أبي بكر، وهو أصح ما روي فيها، وعليه اعتمد الفقهاء وغيرهم في كتابة ما هو متقدم منسوخ، فدل على أنه أعلم بالسنة النسخة، ولم يحفظ له قول يخالف فيه نصاً، وهذا يدل على غاية البراعة، والعلم.

١٧- لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطرب الناس، فثبت الله الأمة بالصديق، فوقف موقفه العظيم، وقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وظهر موقفه العظيم في سقيفة بني ساعدة، حيث استطاع أن يقنع الأنصار بما راه هو الحق، من غير أن يعرض المسلمين للفتنة، فأثنى على الأنصار ببيان فضلهم من الكتاب، والسنة.

١٨- بايع سعد بن عباد الصديق بالخلافة في أعقاب النقاش الذي دار في سقيفة بني ساعدة؛ إذ أنه نزل عن مقامه الأول في دعوى الإمارة، وأذعن للصديق بالخلافة، وكان ابن عمه بشير بن سعد الأنصاري أول من بايع الصديق بالخلافة في اجتماع السقيفة، ولم يثبت النقل الصحيح أية أزمات لا بسيطة، ولا خطيرة، ولم يثبت أي انقسام، أو فرق لكل منها مرشح يطمع في الخلافة، كما زعم بعض كتّاب التاريخ، ولكن الأخوة الإسلامية ظلت كما هي بل ازدادت توثقاً، كما يثبت النقل الصحيح.

١٩- وردت آيات كريمة، وأحاديث نبوية شريفة أشارت إلى خلافة الصديق، وأجمع أهل السنة والجماعة - سلفاً، وخلفاً - على أن أحق الناس بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق، لفضله، وسابقته، ولتقديم النبي صلى الله عليه وسلم إياه في الصلوات على جميع الصحابة، وقد فهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مراد المصطفى عليه الصلاة والسلام من تقديمه في الصلاة، فأجمعوا على تقديمه في الخلافة.

٢٠- الخلافة الإسلامية هي المنهج الذي اختارته الأمة الإسلامية، وأجمعت عليه طريقة، وأسلوباً للحكم، تنظم من خلاله أمورها، وترعى مصالحها، وقد ارتبطت نشأة الخلافة بحاجة الأمة لها، واقتناعها بها، ومن ثم كان إسراع المسلمين في اختيار خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالخلافة هي نظام حكم المسلمين، وقد استمدت أصولها من دستور المسلمين من القرآن الكريم، ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تحدث الفقهاء عن أسس الخلافة الإسلامية، فقالوا بالشورى، والبيعة، وهما أصلان قد أشير إليهما في القرآن الكريم.

٢١- تحدّث العلامة أبو الحسن الندوي عن شروط خلافة النبي ﷺ ومتطلّباتها، وقد أثبت بالأدلة والحجج من خلال سيرة الصديق بأنّ أبا بكر كانت شروط خلافة النبي ﷺ متحقّقة فيه.

٢٢- بعد البيعة العامّة للصديق ألقى خطبةً على الأُمّة تعتبر من عيون الخطب الإسلاميّة على إنجازها، فقد بيّن فيها منهجه لقيادة الدّولة، وقرّر فيها قواعد العدل والرّحمة في التعامل بين الحاكم والمحكوم، وركّز على أنّ طاعة ولي الأمر مترتبةٌ على طاعة الله ورسوله، ونصّ على الجهاد في سبيل الله؛ لأهمّيّته في إعزاز الأُمّة، وعلى اجتناب الفاحشة؛ لأهمّيّة ذلك في حماية المجتمع من الانهيار، والفساد.

٢٣- أراد الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن ينفذ السّياسة التي رسمها لدولته، واتّخذ من الصّحابة الكرام أعواناً يساعدونه على ذلك، فجعل أبا عبيدة بن الجراح أمين هذه الأُمّة (وزير المالية)، فأسند إليه شؤون بيت المال، وتولّى عمر بن الخطاب القضاء (وزارة العدل)، وباشّر الصديق القضاء بنفسه أيضاً، وتولّى زيد بن ثابت الكتابة (وزير البريد والمواصلات)، وأحياناً يكتب له من يكون حاضراً من الصّحابة، كعليّ بن أبي طالب، أو عثمان بن عفّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. وأطلق المسلمون على الصديق لقب خليفة رسول الله، ورأى الصّحابة ضرورة تفريغ الصديق لمنصب الخلافة، وتكفّلت الأُمّة بنفقاته الخاصّة.

٢٤- عاش الصديق بين المسلمين كخليفة لرسول الله، فكان لا يترك فرصة تمرّ إلا علّم النَّاس، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، فكانت مواقفه تشعُّ على مَنْ حوله من الرّعيّة بالهدى، والإيمان، والأخلاق.

٢٥- يعتبر عهد الصديق بداية العهد الراشديّ؛ الذي تتجلّى أهمّيّته بصلته بالعهد النبويّ، وقربه منه، فكان العهد الرّاشدي عامّةً، والجانب القضائيّ خاصّةً امتداداً للقضاء في العهد النبويّ، مع المحافظة الكاملة والتّامة على جميع ما ثبت في العهد النبويّ، وتطبيقه بحذافيره، وتنفيذه بنصّه، ومعناه.

٢٦- كان أبو بكر يستعمل الولاية في البلدان المختلفة، ويعهد إليهم بالولاية العامة في الإدارة، والحكم، والإمامة، وجباية الصدقات، وسائر أنواع الولايات، وكان ينظر إلى حسن اختيار الرسول للأمراء والولاية على البلدان، فيقتدي به في هذا العمل، ولهذا نجده قد أقر جميع عمال الرسول الذين توفى الرسول ﷺ وهم على ولايتهم، ولم يعزل أحداً منهم إلا ليعينه في مكان آخر أكثر أهمية من موقعه الأول، وجرضاه كما حدث لعمر بن العاص، وكانت مسؤوليات الولاية في عهد أبي بكر الصديق بالدرجة الأولى امتداداً لصلاحيتهم في عصر الرسول ﷺ، خصوصاً الولاية الذين سبق تعيينهم أيام الرسول ﷺ.

٢٧- وردت أخبار كثيرة في شأن تأخر علي عن مبايعة الصديق رضي الله عنهما وكذا تأخر الزبير بن العوام، وجل هذه الأخبار ليس بصحيح إلا ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن علياً، والزبير، ومن كان معهما تخلّفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله، فقد كان انشغال جماعة من المهاجرين وعلى رأسهم علي بن أبي طالب بأمر جهاز رسول الله، من تغسيل، وتكفين، وقد بايع الزبير ابن العوام، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما أبا بكر في اليوم التالي لوفاة الرسول، وهو يوم الثلاثاء.

٢٨- عندما سئل الصديق عن ميراث رسول الله، قال للسيدة فاطمة، والعبّاس عم النبي ﷺ: سمعت رسول الله يقول: «لا نورث؛ ما تركنا صدقة»، وإنما يأكل آل محمد من هذا المال» وفي رواية: قال أبو بكر - رضي الله عنه: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، فإنني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ. ومن الثابت تاريخياً: أن أبا بكر دام أيام خلافته يعطي أهل البيت حقهم في فيء رسول الله ﷺ في المدينة، ومن أموال فذك، وخمس خيبر، إلا أنه لم ينفذ فيها أحكام الميراث عملاً بما سمعه من رسول الله.

٢٩- بين الصديق رضي الله عنه في خطبته طبيعة خليفة رسول الله ﷺ، وأنه ليس

خليفةً عن الله، بل عن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه بشرٌ غير معصومٍ لا يطيق ما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطيقه بنبوته، ورسالته، فهو في سياسته متَّبِعٌ، وليس بمبتدِعٍ.

٣٠- من الدُّروس، والعبر في بعث جيش أسامة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الْأَحْوَالَ تَتَغَيَّرُ، وَتَبْدَلُ، وَالشَّدَائِدُ لَا تَشْغُلُ أَهْلَ الْإِيمَانِ عَنْ أَمْرِ الدِّينِ، وَالْمَسِيرَةُ الدَّعْوِيَّةُ لَا تَرْتَبِطُ بِأَحَدٍ، وَوُجُوبُ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَحُدُوثُ الْخِلَافِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَرَدُّهُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَجَعَلَ الدَّعْوَةَ مَقْرُونَةً بِالْعَمَلِ، وَمَكَانَةَ الشَّبَابِ فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ، وَرُوعَةَ الْأَدَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْجِهَادِ، وَتَحْقِيقِ جَيْشِ أُسَامَةَ لِأَهْدَافِهِ، فَقَدْ ضَعُفَتْ جِهَةٌ الرَّدَّةِ فِي الشَّمَالِ، وَأَصْبَحَتْ مِنْ أَضْعَفِ الْجِهَاتِ.

٣١- إِنَّ الرَّدَّةَ الَّتِي قَامَتْ بِهَا الْقِبَائِلُ الْعَرَبِيَّةَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا أَسْبَابٌ، مِنْهَا: هَوْلُ الصَّدَمَةِ بِمَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ، وَرَقَّةُ الدِّينِ، وَالسُّقْمُ فِي فَهْمِ نَصُوصِهِ، وَالْحَنِينُ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ وَمُقَارَفَةُ مَوْبِقَاتِهَا، وَالتَّفَلُّعُ مِنَ النِّظَامِ، وَالْخُرُوجُ عَلَى السُّلْطَةِ الشَّرْعِيَّةِ، وَالْعَصْبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ، وَالطَّمْعُ فِي الْمَلِكِ، وَالتَّكْسُّبُ بِالدِّينِ، وَالشُّحُّ بِالْمَالِ، وَالتَّحَاسُدُ، وَالْمُؤَثَّرَاتُ الْأَجْنِبِيَّةُ كدور اليهود، والنَّصَارَى، وَالْمَجُوسِ.

٣٢- وَأَمَّا أَصْنَافُ الرَّدَّةِ: فَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَ الْإِسْلَامَ جَمْلَةً وَتَفْصِيلاً، وَعَادَ إِلَى الْوُثْنِيَّةِ، وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ ادَّعَى النُّبُوَّةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَادَ إِلَى تَرْكِ الصَّلَاةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ يَعْتَرِفُ بِالْإِسْلَامِ، وَيَقِيمُ الصَّلَاةَ، وَلَكِنَّهُ امْتَنَعَ عَنْ أَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ شَمِتَ بِمَوْتِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَادَ أَدْرَاجَهُ يَمَارِسُ عَادَاتِهِ الْجَاهِلِيَّةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحَيَّرَ وَتَرَدَّدَ وَانْتَظَرَ عَلَى مَنْ تَكُونُ الدَّبْرَةُ، وَكُلُّ ذَلِكَ وَضَّحَهُ عُلَمَاءُ الْفَقْهِ، وَالسِّيَرِ.

٣٣- كَانَ مَوْقِفُ الصَّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ لَا هَوَادَةَ فِيهِ، وَلَا مَسَاوِمَةَ فِيهِ، وَلَا تَنَازُلَ، وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ الْفَضْلُ الْأَكْبَرُ - بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى - فِي سَلَامَةِ هَذَا الدِّينِ، وَبَقَائِهِ عَلَى نَقَائِهِ، وَصَفَائِهِ، وَأَصَالَتِهِ، وَقَدْ أَقَرَّ الْجَمِيعُ، وَشَهِدَ التَّأْرِيخُ بِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَدْ وَقَفَ فِي مُوَاجَهَةِ الرَّدَّةِ الطَّاعِيَةِ، وَمُحَاوَلَةِ نَقْضِ عَرَا الْإِسْلَامِ عُرُوءَةً عُرُوءَةً مَوْقِفَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ فِي عَصُورِهِمْ،

وهذه خلافة النبوة التي أدّى أبو بكر حقّها، واستحقّق بها ثناء المسلمين ودعاءهم إلى أن يرث الله الأرض وأهلها.

٣٤- إنّ من الحقائق الأساسية حول هذه الفتنة: أنّها لم تكن شاملةً لكلّ الناس كشمولها الجغرافي، بل إنّ هناك قادة، وقبائل، وجماعات، وأفراداً تمسّكوا بدينهم في كلّ منطقة.

٣٥- في حروب الردّة باليمن ظهرت صورتان مختلفتان للنساء؛ صورة المرأة الطاهرة العفيفة؛ التي تقف مع الإسلام، وتحارب الرذيلة، وتقف مع المسلمين لكبح جماح شياطين الإنس والجنّ مثل (ازاد) الفارسيّة زوج شهر بن باذان، وابنة عم فيروز الفارسي، وصورة أخرى كالحة مظلمة، وهي ما قامت به بعض بنات اليمن من يهود ومَنْ لَفَّ لفهن في حضرموت، فقد طرن فرحاً بموت رسول الله، فأقمن الليالي الحمراء مع المُجَّان والفسّاق يشجعن على الرذيلة، ويزرين بالفضيلة، فقد رقص الشيطان فيها معهنّ، وأتباعه طرباً لنكوص الناس عن الإسلام، والدعوة إلى التمرد عليه، وحرب أهله.

٣٦- كان بعض أهل اليمن لهم مواقف عظيمة في الثبات على الحقّ، والدعوة إلى الإسلام، وتحذير قومهم من خطورة الردّة، ومن هؤلاء كان مران بن ذي عمير الهمدانيّ أحد ملوك اليمن، وعبد الله بن مالك الأرحبية، وكان من أصحاب النبي ﷺ، وشرحيل بن السّمط، وابنه في بني معاوية من كندة.

٣٧- بعد حروب الردّة تجمّعت اليمن تحت قيادة مركزية عاصمتها المدينة المنورة، وقسم اليمن إلى أقسام إداريّة لا وحدات قبليّة، فقد قُسم إلى ثلاثة أقسام إداريّة: صنعاء، والجند، وحضرموت، ولم تعد العصبيّة القبليّة أساساً في الزعامة، أو في التّولية، ولم تعد القبليّة سوى وحدة عسكريّة لا سياسيّة، وأصبحت المقاييس المعتمدة هي المقاييس الإيمانيّة: التّقوى، والإخلاص، والعمل الصّالح.

٣٨- كان لهزيمة طليحة الأسدي في معركة بزاخة أثر كبير في رجوع كثير من القبائل إلى حظيرة الإسلام، فقد أقبلت بنو عامر بعد هزيمة بزاخة يقولون: ندخل فيما خرجنا منه،

فبايعهم خالدٌ على ما بايع عليه أهل بزاخة من أسدٍ، وغطفان، وطيء.

٣٩- إنَّ مقتل مالك بن نويرة بسبب كبره وتردُّده، فقد بقي للجاهلية في نفسه نصيبٌ، ولذلك ماطل في التبعيَّة للقائم بأمر الإسلام بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي تأدية حقِّ بيت مال المسلمين عليه المتمثِّل بالزكاة.

٤٠- قام الصَّدِّيقُ بالتحقيق في مقتل ابن نويرة، وانتهى إلى براءة ساحة خالدٍ من تهمة قتل مالك بن نويرة، فقد كان الصَّدِّيقُ في هذا الشأن أكثر اطلاعاً على حقائق الأمور، وأبعد نظراً في تصريفها، من بقيَّة الصَّحابة؛ لأنَّه الخليفة، وإليه تصل الأخبار.

٤١- إنَّ من كمال الصَّدِّيقِ توليته لخالدٍ، واستعانت به؛ لأنَّه كان شديداً؛ ليعتدل به أمره، ويخلط الشَّدَّة باللين، فإنَّ مجرد اللين يفسد، ومجرد الشدة يفسد، فكان يقوم باستشارة عمر، وباستنابة خالدٍ، وهذا من كماله الَّذي صار به خليفة رسول الله.

٤٢- كان للمثنَّى بن حارثة دورٌ كبيرٌ في إخماد فتنة البحرين، والوقوف بقوَّاته بجانب العلاء بن الحضرمي، وقد سار بجنوده من البحرين شمالاً، ووضع يده على القطيف وهجر حتَّى بلغ مصبَّ دجلة، وقضى في سيره على قوات الفرس وعمَّالهم، وقد كانت أخباره تصل إلى الصَّدِّيقِ، وسأل عنه أصحابه، فقال له قيس بن عاصم المنقرئ: هذا رجل غير خامل الذِّكر، ولا مجهول النَّسب، ولا ذليل العماد، هذا المثنَّى بن حارثة الشَّيبانيُّ.

٤٣- تعتبر هزيمة بني حنيفة في الإمامة أمام جيوش خالد قاصمة الظَّهر لحركة الردَّة، وكان من ضمن شهداء المسلمين في حرب الإمامة كثيرٌ من حفظة القرآن، وقد نتج عن ذلك أن قام أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بمشورة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بجمع القرآن من الرِّقاع، والعظام، والسَّعف، ومن صدور الرِّجال، وأسند الصَّدِّيقِ هذا العمل العظيم، والمشروع الحضاريَّ الضَّخم إلى الصَّحابيِّ الجليل زيد بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

٤٤- تحقَّقت شروط التَّمكين ولوازمه كُلُّها في عهد الصَّدِّيقِ، والخلفاء الرَّاشدين من بعده، وكان للصَّدِّيقِ الفضل بعد الله في تذكير الأُمَّة بهذه الشروط، ولذلك رفض طلب

الأعراب في وضع الزكاة عنهم وأصرَّ على بعث جيش أسامة، والتزم بالشرع كاملاً، ولم يتنازل عن صغيرة، ولا كبيرة.

٤٥- كان إعداد الصِّديق في حروب الردَّة شاملاً معنويًا، فجيَّش الجيوش، وعقد الألوية، واختار القادة لحروب الردَّة، وراسل المرتدِّين، وحرَّض الصَّحابة على قتالهم، وجمع السلاح، والخيل والإبل، وجَهَّز الغزاة، وحارب البدع، والجهل، والهوى، وحكَّم الشريعة، وأخذ بأصول الوحدة، والاتِّحاد، والاجتماع، وأخذ بمبدأ التَّفَرُّغ، وساهم في إحياء مبدأ التخصُّص، فخالد لقيادة الجيوش، وزيد بن ثابت لجمع القرآن، وأبو برزة الأسلمي للمراسلات الحربيَّة، واهتم بالجانب الأمنيِّ، والإعلاميِّ، وغير ذلك من الأسباب.

٤٦- تظهر اثار تحكيم شرع الله في عصر الصِّديق في تمكين الله للصَّحابة، فقد حرصوا على إقامة شعائر الله على أنفسهم، وأهليهم، وأخلصوا لله في تحاكمهم إلى شرعه، فالله - سبحانه، وتعالى - قوَّاهم، وشدَّ أزرهم، ونصرهم على المرتدِّين، ورزقهم الأمن، والاستقرار.

٤٧- كان الجهاد الَّذي خاضه الصَّحابة في حروب الردَّة إعداداً ربَّانيًّا للفتوحات الإسلاميَّة، حيث تميَّزت الرِّايات، وظهرت القدرات، وتفجَّرت الطَّاقات، واكتشفت قيادات ميدانيَّة، وتفنَّن القادة في الأساليب، والخطط الحربيَّة، وبرزت مؤهَّلات الجندِيَّة الصَّادقة المطيعة، والمنضبطة الواعية؛ الَّتِي تقاتل؛ وهي تعلم على ماذا تقاتل، وتقدِّم كلَّ شيء؛ وهي تعلم من أجل ماذا تضحي وتبذل، ولذا كان الأداء فائقًا، والتَّفاني عظيمًا.

٤٨- توحَّدت شبه الجزيرة العربيَّة بفضل الله ثمَّ جهاد الصَّحابة مع الصِّديق تحت راية الإسلام لأوَّل مرة في تاريخها بزوال الرؤوس، أو انتظامها ضمن المدِّ الإسلامي، وبسطت عاصمة الإسلام - المدينة - هيمنتها على ربوع الجزيرة، وأصبحت الأُمَّة تسير وراء زعيم واحد، بمبدأ واحد، بفكرة واحدة، فكان الانتصار انتصاراً للدَّعوة الإسلاميَّة ولوحدة الأُمَّة بتضامنها وتغلُّبها على عوامل التفكُّك، والعصبيَّة، كما كانت برهاناً على أنَّ الدَّولة الإسلاميَّة بقيادة الصِّديق قادرةٌ على التغلُّب على أعنف الأزمات.

٤٩- أثبت أحداث التاريخ: أن آية محاولة للتمرد على دين الإسلام سواء أقام بها فردٌ، أم جماعة، أم دولة إنما هي محاولة يائسة، مالها الإخفاق الذريع، والخيبة الشنيعة؛ لأن التمرد إنما هو تمردٌ على أمر الله المتمثل بكتابه؛ الذي تكفل بحفظه، وحفظ جماعة تلتف حوله، وتقيم في نفوسها وواقعها مدى الدهر، وبحكمه القاضي بالعاقبة للمتقين، وبالمن على المستضعفين أن يدل لهم من الظالمين.

٥٠- ما إن انتهت حروب الردة، واستقرت الأمور في الجزيرة العربية؛ التي كانت ميداناً لها، حتى شرع الصديق في تنفيذ خطة الفتوحات، التي وضع معالمها رسول الله ﷺ، فجيّش الجيوش لفتح العراق، والشام.

٥١- إن الأوامر التي وجهها الصديق إلى قادة فتوح العراق (خالد، وعياض) تشير إلى الحس الاستراتيجي المتقدم؛ الذي كان يملكه الصديق رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ فقد أعطى جملة تعليمات عسكرية استراتيجية منها وتكتيكية، فحدّد لكلّ من القائدين المسلمين جغرافياً منطقة للدخول إلى العراق، كأنما هو يمارس القيادة من غرفة العمليات بالحجاز، وقد بسطت أمامه خارطة العراق بكلّ تضاريسها، ومساكها.

٥٢- خاض خالد في العراق عدّة معارك كانت السبب في فتح العراق، كمعركة ذات السلاسل، ومعركة المذار، والولجة، وأليس، وفتح الحيرة، والأنبار، وعين التمر، ودومة الجندل، ووقعة الحصيد، ووقعة الفراض.

٥٣- عزم الصديق على فتح الشام، فاستشار كبار الصحابة، ثم استنفر أهل اليمن للجهاد، وعقد الألوية للقادة، وأرسل أربعة جيوش لبلاد الشام، وكان قادة الجيوش كلاً من يزيد بن أبي سفيان، وأبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وشرحيل بن حسنة.

٥٤- كانت الجيوش المكلفة بفتح الشام تلاقى صعوبة في تنفيذ المهمات الموكلة إليها، فقد كانت تواجه جيوش الإمبراطورية الرومانية التي تمتاز بقوّتها، وكثرة عددها، فراسلوا الصديق، وأعلموه بوضعهم الحرج، فأمر الصديق الجيوش بالانسحاب إلى اليرموك،

والتَّجْمُعُ هناك، وأمر خالدًا بالسَّير بنصف جيش العراق نحو جبهات الشَّام وأمره بقيادة الجيوش هناك.

٥٥- استطاع خالد بن الوليد أن يحقق انتصاراتٍ عظيمةً على جيوش الشَّام، من أهمِّها معركة أجنادين، واليرموك.

٥٦- يمكن للباحث أن يستنبط أهمَّ معالم السَّياسة الخارجيّة في دولة الصّديق: وهي بَذْرُ هيبة الدَّولة في نفوس الأمم الأخرى، ومواصلة الجهاد الَّذي أمر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعدل بين الأمم المفتوحة، والرَّفْقُ بأهلها، ورفع الإكراه عن الأمم المفتوحة، وإزالة الحاجز البشريِّ بينهم وبين الإسلام.

٥٧- إنَّ المُطالِعَ للفتوحات في عهد الصّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمكن له أن يستنتج خطوطاً رئيسةً للخطة الحربيّة الَّتِي سار عليها، وكيف تعامل هذا الخليفة العظيم مع سنّة الأخذ بالأسباب؟ وكيف كانت الخطة المحكمة عاملاً من عوامل نزول النّصر والتّمكن من الله - عزَّ وجلَّ - للمسلمين، ومن هذه الخطوط ما يلي: عدم الإيغال في بلاد العدو حتّى تدين للمسلمين، التَّعبئة وحشد القوات، تنظيم عملية الإعداد للجيوش، تحديد الهدف من الحرب، إعطاء الأفضلية لمسارح العمليّات، عزل ميدان المعركة، التطوُّر في أساليب القتال، سلامة خطوط الاتّصال مع القيادة، ذكاء الخليفة، وفطنته.

٥٨- بيّن الصّديق في توجيهاته للقادة والجنود حقوق الله تعالى، كمصابرة العدو، وإخلاص قتالهم لله، وأداء الأمانة، وعدم الممالة والمحابة في نصر دين الله. ووضع حقوق القادة على الجنود والرّعية، كالتزام طاعته، والمسارة إلى امتثال أمره، وعدم مسارعته في شيءٍ من قسمة الغنائم، وغير ذلك من الحقوق. وفصّل الصّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من خلال وصاياه ورسائله في حقوق الجند كاستعراضهم، وتفقُّد أحوالهم، والرَّفْقُ بهم في السير، وأن يقيم عليهم العرفاء، والنقباء، واختيار مواضع نزولهم لمحاربة العدو، وإعداد ما يحتاج إليه الجند من زادٍ، وعلوفةٍ، والتعرُّف على أخبار العدو بالجواسيس الثّقات لسلامة الجند، وتحريضهم على الجهاد وتذكيرهم بثواب الله، وفضل الشّهادة، ومشاورة ذوي الرّأي منهم، وأن يلزمهم

بما أوجه الله من حقوق، وأن ينهاتهم عن الاشتغال عن الجهاد بزراعة، أو تجارة. وكل هذه الحقوق قد استخرجت من رسائله، ووصاياه للقادة.

٥٩- إنَّ المتأمل في حركة الفتح الإسلامي يرى توفيق الله تعالى لجيوش الخليفة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد استطاعت تلك الجيوش المظفّرة أن تكسر شوكة الرومان، والفرس، وفتح تلك الديار في وقتٍ قياسيٍّ في تاريخ الحروب، ومن أهم أسباب تلك الفتوح، إيمان المسلمين بالحق؛ الذي يقاتلون من أجله، وتأصل الصفات الحربية في المسلمين، وسماحة المسلمين وعدالتهم مع تلك الشعوب، ورحمة المسلمين في تقدير الجزية والخراج ووفائهم بعهودهم، وثروة المسلمين الواسعة من الرجال والقادة العظام، وإحكام الخطّة الإسلامية الحربية، وغير ذلك من الأسباب.

٦٠- عندما نزل المرض بالصديق، وأشرف على الموت، قام بعدة إجراءات عملية؛ لتتم عملية اختيار الخليفة القادم، وهي: استشار كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار. وبعد أن تمّ ترشيح الصديق لعمر، ووافق معظم الصحابة على ذلك، كتب عهداً مكتوباً يقرأ على الناس في المدينة وفي الأمصار، وأخبر عمر بن الخطاب بخطواته القادمة، وعرفه ما عزم عليه، وألزمه بذلك، وأبلغ الناس بلسانه وأعياناً مدركاً حتى لا يحصل أي لبس، وتوجّه بالدعاء إلى الله ينجيه، ويثبته كوامن نفسه، وكلف عثمان بن عفان أن يتولّى قراءة العهد على الناس، وأخذ البيعة لعمر قبل موته، وقام بتوجيه الفاروق عندما اختلى به.

٦١- إنَّ الخطوات التي سار عليها أبو بكر الصديق في اختيار خليفته من بعده لا تتجاوز الشورى بأيّ حالٍ من الأحوال، وإن كانت الإجراءات المتبعة فيها غير الإجراءات المتبعة في تولية أبي بكر نفسه، وهكذا تمّ عقد الخلافة لعمر بالشورى، والاتفاق، ولم يرد في التاريخ أيّ خلافٍ وقع حول خلافته بعد ذلك، ولا أن أحداً نهض طوال عهده لينازعه الأمر، بل كان هناك إجماعٌ على خلافته، وعلى طاعته في أثناء حكمه، فكان الجميع وحدةً واحدةً.

٦٢- خرج أبو بكر الصديق من هذه الدنيا بعد جهادٍ عظيمٍ في سبيل نشر دين الله في الآفاق، وستظل الحضارة الإنسانية مدينةً لهذا الشيخ الجليل؛ الذي حمل لواء دعوة الرسول

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاته، وحمى غرسه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وقام برعاية بذور العدل والحرية، وسقاها أزكى دماء الشهداء، فاتت من كل الثمرات عطاءً جزيلاً، حقق عبر التاريخ تقدماً عظيماً في العلوم، والثقافة، والفكر، وستظل الحضارة مدينة للصديق؛ لأنه بجهاده الرائع، وبصبره العظيم حمى الله به دين الإسلام في ثباته في الردة، ونشر الله به الإسلام في الأمم، والدول، والشعوب بحركة الفتوحات العظيمة.

٦٣- إِنَّ هَذَا الْمَجْهُودَ الْمُتَوَاضِعَ قَابِلٌ لِلنَّقْدِ وَالتَّوْجِيهِ، وَمَا هِيَ إِلَّا مُحَاوَلَةٌ مُتَوَاضِعَةٌ هَدَفُهَا مَعْرِفَةُ حَقِيقَةِ عَصْرِ الْخِلَافَةِ الرَّاشِدَةِ، لِكَيْ نَسْتَفِيدَ مِنْهَا فِي حَرَكَتِنَا الْمُسْتَمِرَّةَ لِتَحْكِيمِ شَرْعِ اللَّهِ، وَنَشْرَ دَعْوَتِهِ فِي دُنْيَا النَّاسِ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ النَّاقِدِ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

إِنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدَّ الْخِلَالَانَ جَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا
وَأَسْأَلُ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ أَنْ يَقْبَلَ هَذَا الْجَهْدَ قَبُولاً حَسَنًا، وَأَنْ يَبَارِكَ فِيهِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ مِنْ أَعْمَالِي الصَّالِحَةِ الَّتِي أَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ، وَأَنْ لَا يَحْرِمَنِي، وَلَا إِخْوَانِي الَّذِينَ أَعَانُونِي عَلَى إِكْمَالِهِ مِنَ الْأَجْرِ، وَالْمَثُوبَةِ، وَرَفَقَةِ النَّبِيِّينَ، وَالصَّادِقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَأَخْتِمَ هَذَا الْكِتَابَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] وبقول الشاعر ابن الوردي لابنه:

اطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرِ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلِ
اِحْتَفِلْ لِفِيقِهِ فِي الدِّينِ وَلَا تَشْتَغَلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوْلِ
وَاهْجِرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلَ
لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلَ

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

- ١- أباطيل يجب أن تُمحي من التاريخ، د. إبراهيم علي شعوط، المكتب الإسلامي الطبعة السادسة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ٢- أبو بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين، محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣ - ١٩٨٣م.
- ٣- أبو بكر الصديق أفضل الصحابة وأحقهم بالخلافة، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار القاسم الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ٤- أبو بكر الصديق، د. نزار الحديثي، د. خالد جاسم الجنابي، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، الطبعة الأولى ١٩٨٩م.
- ٥- أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، دار المنارة، جدة، السعودية، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ٦- أبو بكر الصديق، محمد مال الله، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
- ٧- أبو بكر رجل الدولة، مجدي حمدي، دار طيبة الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
- ٨- الأحكام السلطانية لأبي الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية بيروت.
- ٩- أخطاء يجب أن تُصحح في التاريخ، استخلاف أبي بكر الصديق، د. جمال عبد الهادي محمد مسعود، دكتورة وفاء محمد رفعت جمعة، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة

الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٠- الأساس في السُّنة، سعيد حوى، دار السَّلام بمصر، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

١١- أُسد الغابة في معرفة الصَّحابة، لأبي الحسن علي بن محمَّد الجزري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٢- أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة، رفيق العظم، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٣- أصحاب الرِّسول، محمود المصري، مكتبة أبي حذيفة السَّلَفي، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٨- الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، لأبي الريح سليمان الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٩- البداية والنهاية، أبو الفداء الحافظ بن كثير الدَّمشقي، دار الرِّيان، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣٠- تاريخ الأمم والملوك، لأبي جعفر الطَّبري، دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣١- تاريخ الأنصار السِّياسي، د. عبد المنعم الدُّسوقي، دار الخلفاء مصر.

٣٢- تاريخ الإسلام للذهبي، عهد الخلفاء الرَّاشدين، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٣- التَّاريخ الإسلامي، الخلفاء الرَّاشدون، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٣٤- التَّاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز عبد الله الحميدي، دار الدَّعوة،

- الإسكندريّة، دار الأندلس الخضراء، جدّة، الطّبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- ٣٥- تاريخ الخلافة الرّاشدة، محمّد بن أحمد كنعان، مؤسّسة المعارف، بيروت - لبنان، الطّبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٣٦- تاريخ الخلفاء للإمام جلال الدّين السيوطي، عني بتحقيقه إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ٣٧- تاريخ الدّعوة إلى الإسلام في عهد الخلفاء الرّاشدين، د. يسري محمّد هاني، الطّبعة الأولى ١٤١٨هـ - جامعة أمّ القرى، معهد البحوث العلميّة، وإحياء التراث.
- ٣٨- تاريخ الدّعوة الإسلاميّة في زمن الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الرّاشدين، د. جميل عبد الله المصري، مكتبة الدّار بالمدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٣٩- التّاريخ السّياسي والعسكري، د. علي معطي، مؤسّسة المعارف، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ٤٠- تاريخ القضاء في الإسلام، د. محمّد الرّحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطّبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ٤١- تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر، طبعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٤٢- تاريخ بغداد أو مدينة السّلام، لأبي بكر أحمد بن عليّ الخطيب البغداديّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.
- ٤٣- تاريخ صدر الإسلام وفجره، د. شحادة عليّ النّاطور ١٩٩٥م.
- ٤٤- تاريخ فتوح الشّام، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر، لأبي زكريا يزيد بن محمّد الأزديّ، مؤسّسة القاهرة ١٩٧٠م.
- ٤٥- التّبيين في أنساب القرشيّين، لأبي محمّد عبد الله بن أحمد بن محمّد بن قدامة المقدسي، عالم الكتب، بيروت.

- ٤٦- التَّحَالُف السِّيَاسِي فِي الْإِسْلَام، منير الغضبان، دار السلام، الطَّبعة الثانية ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- ٤٧- تحفة الأحوذِي بشرح التِّرْمِذِي، عبد الرحمن بن عبد الرَّحِيم المِبار كفوري، دار الاتحاد العربي للطباعة، الطَّبعة الثَّانِيَّة ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.
- ٤٨- تراث الخلفاء الرَّاشِدِينَ فِي الفقه الْإِسْلَامِي، د. صبحي محمّصاني، دار العلم للملايين، الطَّبعة الأولى ١٩٨٤م.
- ٤٩- التَّربِيَّة الْقِيَادِيَّة للغضبان، دار الوفاء المنصورة، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- ٥٠- ترتيب وتهذيب البداية والنَّهَاية، خلافة أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق، د. محمَّد بن صامل السَّلَمِي، دار الوطن الرِّيَاض، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- ٥١- تفسير ابن كثير، دار الفكر للطباعة بيروت، الطَّبعة الثانية ١٣٨٩هـ-١٩٧٠م.
- ٥٢- تفسير الألوسي المسمَّى روح المعاني فِي تفسر القرآن العظيم، والسَّبْع المِثْنِي لِلألوسي (محمود الألوسي البغدادي)، إِدارة الطبعة الاصطفائية، بالهند، بدون ذكر سنة الطَّبع.
- ٥٣- تفسير الرَّازِي، دار إِحياء التُّراث الْعَرَبِيّ، بيروت الطَّبعة الثَّالِثَة.
- ٥٤- تفسير القاسمي المسمَّى محاسن التَّأْوِيل، محمَّد جمال الدِّين القاسمي، دار الفكر، بيروت، الطَّبعة الثانية ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
- ٥٥- تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إِحياء التُّراث الْعَرَبِيّ، بيروت، لبنان ١٩٦٥م.
- ٥٦- التَّفْسِير المنير فِي الْعَقِيْدَة، وَالشَّرِيعَة، وَالْمَنْهَج، د. وهبة الزُّحَيْلِي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطَّبعة الأولى ١٤١١هـ-١٩٩١م.
- ٥٧- التَّفْقُوق وَالنَّجَابَة عَلَى نَهْج الصَّحَابَة، حمد بن بليّه بن مراهن العجمي، مكتبة



العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى.

٥٨- التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، محمد السيد محمد يوسف، دار السلام، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٥٩- تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٦٠- الثابتون على الإسلام أيام فتنة الردة في عهد الخليفة أبي بكر الصديق، د. مهد رزق الله أحمد، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٦١- جامع الأصول في أحاديث الرسول، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، طبع مكتبة الحلواني، سورية عام ١٣٩٢هـ -.

٦٢- الجامع لأخلاق الراوي، وادأب السامع للخطيب البغدادي، مكتبة المعارف، بالرياض ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٦٣- الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، محمد خير هيكل، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار البيارق، عمان.

٦٤- الحجاز والدولة الإسلامية، د. إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، طبعة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٦٥- الحرب النفسية من منظور إسلامي، د. أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان، طبعة عام ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٦٦- حركة الردة، د. علي العتوم، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.

٦٧- الحركة السنوسية في ليبيا، علي محمد الصلابي، دار البيارق، عمان، طبعة أولى، ١٩٩٩م.

٦٨- حركة الفتح الإسلامي، شكري فيصل، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة،

١٩٨٢م.

٦٩- حروب الإسلام في الشّام، محمّد أحمد بشميل، دار الفكر، الطّبعة الأولى، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٧٠- حروب الردّة من قيادة النّبي إلى إمرة أبي بكر، شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق.

٧١- حروب الردّة وبناء الدّولة الإسلاميّة، أحمد سعيد بن سالم، دار المنار، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

٧٢- حروب الردّة، محمّد أحمد بشميل، دار الفكر، الطّبعة الأولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٧٣- الحكم بغير ما أنزل الله، أحواله وأحكامه، د. عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار طيبة، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٧٤- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني، دار الكتب العلميّة، بيروت.

٧٥- حياة أبي بكر، محمود شلبي، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، عام ١٩٧٩م.

٧٦- خاتم النّبيين، لأبي زهرة، الطّبعة الأولى، ١٩٧٢م دار الفكر، بيروت.

٧٧- خالد بن الوليد، صادق إبراهيم عرجون، الدّار السّعودية، الطّبعة الرّابعة، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٧٨- الخراج، لأبي يوسف، منشورات مكتبة الرّياض الحديثّة، بدون تاريخ طبع.

٧٩- خطب أبي بكر الصّدّيق، د. محمّد أحمد عاشور، جمال عبد المنعم الكومي، دار الاعتصام.

٨٠- الخلافة الرّاشدة والدّولة الأمويّة من فتح الباري، د. يحيى إبراهيم اليحيى، دار الهجرة السّعودية، الطّبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.

- ٨١- الخلفاء الرّاشدون بين الشُّورى والديمقراطية، سالم بهنساى، مكتبة المنار الإسلاميّة، الكويت، الطّبعة الثانية ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- ٨٢- الخلفاء الرّاشدون بين الاستخلاف والاستشهاد، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الدّار الشّامية، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
- ٨٣- الخلفاء الرّاشدون، عبد الوهاب النّجار، دار القلم، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- ٨٤- خلفاء الرّسول، خالد محمّد خالد، دار ثابت، القاهرة، دار الفكر، دمشق، الطّبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.
- ٨٥- الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، الإمام الشّيوطي، الناشر محمّد أمين دمج، بيروت - لبنان.
- ٨٦- دراسات في الحضارة الإسلاميّة، أحمد إبراهيم الشّريف، دار الفكر العربي.
- ٨٧- دراسات في السّيرة النّبويّة، عماد الدين خليل، الطّبعة الحادية عشرة، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م بيروت.
- ٨٨- دراسات في عهد النّبوة والخلافة الرّاشدة، د. عبد الرحمن الشّجاع، دار الفكر المعاصر، الطّبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
- ٨٩- دلائل النّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة، لأبي بكر محمّد البيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطّبعة الأولى ١٤٠٥هـ-، دار الكتب العلميّة بيروت.
- ٩٠- دواعي الفتوحات الإسلاميّة ودعاوى المستشرقين، د. جميل عبد الله المصري، دار القلم، دمشق، الدّار الشّامية بيروت، الطّبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
- ٩١- دور الحجاز في الحياة السّياسيّة العامّة في القرنين الأوّل، والثّاني للهجرة، د. أحمد إبراهيم الشّريف، دار الفكر العربي، الطّبعة الثانية ١٩٧٧م.

- ٩٢- الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام، السيّد عمر، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- ٩٣- الدولة العربيّة الإسلاميّة الأولى، عصام محمد سابور، دار النهضة العربيّة، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٥م.
- ٩٤- الدولة العربيّة الإسلاميّة، منصور الحرابي، منشورات جمعية الدّعوة الإسلاميّة الليبيّة، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ-١٩٨٧م.
- ٩٥- ديوان الرّدّة، د. علي العتوم، مكتبة الرّسالة الحديثة، عمّان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- ٩٦- ديوان حسن بن ثابت، تحقيق وليد عرفات.
- ٩٧- الرّياض النّضرة في مناقب العشرة، لأبي جعفر أحمد الشّهير بالمحبّ الطبريّ، المتوفى ٦٩٤هـ-، المكتبة القيّمة، القاهرة.
- ٩٨- سلسلة الأحاديث الصّحيحة، لمحمّد ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي.
- ٩٩- سنن أبي داود، سليمان السيستاني، تحقيق وتعليق: عزّت الدّعاس ١٣٩١هـ- سورية.
- ١٠٠- سنن الترمذي، أبو عيسى محمّد بن عيسى الترمذي، دار الفكر ١٣٩٨هـ-.
- ١٠١- السّياسة الشرعية بين الرّاعي والرّعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
- ١٠٢- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرّسالة، الطبعة السّابعة ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- ١٠٣- السّيرة الحلبيّة في سيرة الأمين والمأمون، علي بن برهان الدّين الحلبي، دار المعرفة.

- ١٠٤- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
- ١٠٥- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله أحمد، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.
- ١٠٦- السيرة النبوية لأبي شهبة، دار القلم دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- ١٠٧- السيرة النبوية لابن هشام، دار إحياء التراث، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- ١٠٨- السيرة النبوية: دروس وعبر، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت لبنان، الطبعة التاسعة ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- ١٠٩- السيرة النبوية لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل، تحقيق مصطفى عبد الواحد، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ-، دار الفكر، بيروت.
- ١١٠- سيرة و حياة الصديق، مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، بطنطا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- ١١١- الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمي، دار البشير، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- ١١٢- الشيخان أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب برواية البلاذري في أنساب الأشراف، تحقيق د. إحسان صدقي العمدة، المؤتمر للنشر، السعودية، الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- ١١٣- صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
- ١١٤- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

- ١١٥- صحيح السَّيِّرة النَّبَوِيَّة، إبراهيم صالح العلي، دار النَّفائس، الطَّبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ-١٩٩٨م.
- ١١٦- الصحيح المسند من فضائل الصَّحابة لأبي عبد الله مصطفى العدوي، دار ابن عفَّان، السُّعودية، الطَّبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
- ١١٧- صحيح سنن ابن ماجه لمحمَّد ناصر الدِّين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي.
- ١١٨- صحيح سنن أبي داود لمحمد ناصر الدين الألباني، منشورات المكتب الإسلامي.
- ١١٩- صحيح مسلم بشرح النَّووي، المطبعة المصريَّة بالأزهر، الطَّبعة الأولى ١٣٤٧هـ-١٩٢٩م.
- ١٢٠- صحيح مسلم، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطَّبعة الثانية ١٩٧٢م.
- ١٢١- الصِّدِّيق أول الخلفاء، عبد الرحمن الشَّرقاوي، دار الكتاب العربي، الطَّبعة الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- ١٢٢- الصِّدِّيق أبو بكر، محمَّد حسين هيكَل، دار المعارف بمصر ط ١٩٧١م.
- ١٢٣- صفة الصِّفوة، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت.
- ١٢٤- صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي، علي محمد الصَّلَّابي، دار البيارق، عمَّان ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.



١٢٥- صور من جهاد الصَّحابة، عمليات جهاديَّة خاصَّة تنفَّذها مجموعاتُ خاصَّة من الصَّحابة، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، الطَّبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٢٦- الطُّبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر، بيروت.

١٢٧- عبقرية الصَّديق، عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، بيروت.

١٢٨- عتيق العتقاء الإمام أبو بكر الصَّديق، محمود علي البغدادي، دار النَّدوة الجديدة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٢٩- العشرة المبشرون بالجنَّة، د. سيد الجميلي، دار الرِّيان للتراث، بيروت، الطَّبعة الثانية ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

١٣٠- عصر الخلافة الرَّاشدة، د. أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٣١- عصر الخلفاء الرَّاشدين، دكتورة فتحية عبد الفتاح النَّراوي، الدَّار السُّعودية، الطَّبعة الثالثة ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

١٣٢- عصر الصَّحابة، عبد المنعم الهاشمي، دار ابن كثير، الطَّبعة الثالثة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٣٣- عقيدة أهل السُّنة والجماعة في الصَّحابة الكرام، د. ناصر بن علي عائض حسن الشيخ، مكتبة الرشد، الرِّياض، الطَّبعة الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٣٤- العقيدة في أهل البيت بين الإفراط، والتفريط، د. سليمان بن سالم بن رجاء السُّحيمي، مكتبة الإمام البخاري، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

١٣٥- العمليات الترضية والدِّفاعية عند المسلمين، الرَّائد نهاد عباس شهاب الجبوري، دار الحرِّيَّة بغداد.

- ١٣٦- العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، إعداد محمد سعيد مبيض، دار الثقافة، الدوحة، الطبعة الثانية ١٩٨٩م.
- ١٣٧- عيون الأخبار لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- ١٣٨- فتح الباري: المطبعة السلفية، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ-.
- ١٣٩- فتوح البلدان لأبي العباس أحمد بن يحيى البلاذري، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- ١٤٠- فتوح الشام، محمد بن عمر الواقدي، دار ابن خلدون.
- ١٤١- فرائد الكلام للخلفاء الكرام، قاسم عاشور، دار طويق السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- ١٤٢- الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد بن حزم الظاهري، مكتبة الخارجي مصر.
- ١٤٣- فضائل الصحابة لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- ١٤٤- فقه التمكن في القرآن الكريم، د. علي محمد الصلابي، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- ١٤٥- فقه الشورى والاستشارة، د. توفيق الشاوي، دار الوفاء بالمنصورة، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- ١٤٦- الفن العسكري الإسلامي، د. ياسين سويد، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.
- ١٤٧- في التاريخ الإسلامي، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة

الثانية ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

١٤٨ - في ظلال القرآن، سيّد قطب، دار الشُّروق، الطّبعة التاسعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

١٤٩ - قراءة سياسيّة للسّيرة النبويّة، محمّد قلعجي، دار النفائس، الطّبعة الأولى،

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م بيروت - لبنان.

١٥٠ - قصّة بعث جيش أسامة، د. فضل إلهي، دار ابن حزم، بيروت، الطّبعة الثّانية

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

١٥١ - القيادة العسكريّة في عهد الرّسول، د. عبد الله محمّد الرّشيد، دار القلم دمشق،

الطّبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٥٢ - الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشيباني المعروف بابن

الأثير، تحقيق على شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطّبعة الأولى ١٤٠٨هـ -

١٩٨٩م.

١٥٣ - كيف نكتب التّاريخ الإسلامي، محمّد قطب، دار الوطن السّعودية، الطّبعة الأولى

١٤١٢هـ.

١٥٤ - لطائف المعارف، لابن رجب الحنبلي.

١٥٥ - متأثر النّافة في معالم الخلافة، للقلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمد الفرج، عالم

الكتب، بيروت.

١٥٦ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الرّيان،

القاهرة، دار الكتاب العربي بيروت.

١٥٧ - مجموعة الفتاوى، تقي الدّين أحمد بن تيمية الحرّاني، دار الوفاء، مكتبة العبيكان،

الطّبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٥٨ - مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النبويّ، والخلافة الرّاشدة، محمّد حميد الله،

- دار النفائس، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ١٥٩ - محمد رسول الله، محمد صادق عرجون، دار القلم، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- ١٦٠ - محنة المسلمين في العهد المكي، د. سليمان السويكت، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ١٦١ - المرتضى سيرة أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب، لأبي الحسن الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- ١٦٢ - مرض النبي، ووفاته، وأثره على الأمة، خالد أبو صالح، دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - .
- ١٦٣ - مروج الذهب، ومعادن الجواهر لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م.
- ١٦٤ - مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري عصر الخلافة الراشدة، د. يحيى إبراهيم اليحيى، دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - .
- ١٦٥ - المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، ودار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
- ١٦٦ - المستفاد من قصص القران، عبد الكريم زيدان، مؤسسه الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ١٦٧ - المسلمون والرؤوم في عصر النبوة، د. عبد الرحمن أحمد سالم، دار الفكر العربي، طبعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ١٦٨ - معارك خالد بن الوليد ضد الفرس، عبد الجبار محمود السامرائي، الدار العربية للموسوعات، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٤م.



١٦٩- معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، الطبعة الرابعة ١٩٨٩م.

١٧٠- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م.

١٧١- المعجم الكبير لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ٢٦٠هـ- ٣٦٠هـ، دار مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ- ١٩٨٥م.

١٧٢- المغازي للواقدي، محمد بن عمر بن واقد، تحقيق ماردن جوشن، عالم الكتب بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

١٧٣- مقدمة ابن خلدون.

١٧٤- مقومات النصر في ضوء القرآن والسنة، د. أحمد أبو الشَّباب، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١٧٥- ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية، عدنان علي رضا النحوي، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

١٧٦- من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية، بيروت ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

١٧٧- من معين السيرة، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

١٧٨- منهج السنة لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة.

١٧٩- منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل العليان، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

١٨٠- مواقف الصديق مع النبي في مكة، د. عاطف لمامة، دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

- ١٨١- مواقف الصِّديق مع النَّبي في المدينة، د. عاطف لماضة، دار الصَّحابة للتراث، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ١٨٢- موسوعة التَّاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النَّهضة المصريَّة، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية عشرة ١٩٨٧م.
- ١٨٣- موسوعة فقه أبي بكر الصِّديق، د. محمد رواس قلعجي، دار النَّفائس، الطَّبعة الثَّانية ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- ١٨٤- موسوعة نضرة التَّعيم في مكارم أخلاق الرِّسول الكريم، مجموعة من العلماء بإشراف صالح عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م دار الوسيلة، جدَّة.
- ١٨٥- نسب قریش، أبو عبد الله مصعب بن عبد الله بن مصعب الزُّبيري، دار المعارف القاهرة.
- ١٨٦- نظام الحكم في الإسلام، عارف أبو عيد، دار النَّفائس، الأردن، الطَّبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ١٨٧- نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي، ظافر القاسمي، دار النَّفائس، بيروت، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ١٨٨- نظام الحكم في عهد الخلفاء الرَّاشدين، حمد محمَّد العمدة، المؤسَّسة الجماعيَّة للدراسات والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ١٨٩- نظام الحكومة النَّبويَّة المسمَّى التَّراتيب الإداريَّة، محمَّد عبد الحي الكتاني الإدريسي الحسني الفارسي، شركة الأرقام بن أبي الأرقام، بيروت.
- ١٩٠- نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم، محمَّد الطَّاهر ابن عاشور.
- ١٩١- النَّهاية في غريب الحديث، لابن الأثير، تحقيق طاهر أحمد الزَّاوي، ومحمود



محمد الناحي.

١٩٢- نونية القحطاني لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي القحطاني، دار السّوادي السّعودية، الطّبعة الثالثة ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.

١٩٣- الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمن البر، دار الكلمة، المنصورة، مصر، الطّبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

١٩٤- الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون جزولي، مكتبة الرّشد الرّياض، الطّبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

١٩٥- الوحي وتبليغ الرّسالة، د. يحيى اليحيى، أخذت من المؤلّف صورة قبل الطّبع.

١٩٦- وقائع ندوة النّظم الإسلاميّة، أبو ظبي ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م.

١٩٧- ولاية الشّريعة في الإسلام، العميد الدكتور نمر بن محمّد الحميدان، دار عالم الكتب، الرّياض، الطّبعة الثانية ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٩٨- الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الرّاشدين، د. عبد العزيز إبراهيم العمري، الطّبعة الأولى ١٤٠٩هـ-.

١٩٩- اليمن في صدر الإسلام، د. عبد الرحمن شجاع، دار الفكر. دمشق.

كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
١٢. الوسطية في القرآن الكريم.
١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.
١٧. عصر الدولة الزنكية.



١٨. عماد الدين زنكي.
١٩. نور الدين زنكي.
٢٠. دولة السلاجقة.
٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.
٢٣. الشيخ عمر المختار.
٢٤. عبد الملك بن مروان وبنيه.
٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.
٢٧. وسطية القرآن في العقائد.
٢٨. فتنة مقتل عثمان.
٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.
٣٠. دولة المرابطين.
٣١. دولة الموحدين.
٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.
٣٣. الدولة الفاطمية.
٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.
٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.
٣٦. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من

الحروب الصليبية.

٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.
٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.
٣٩. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.
٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.
٤١. الشورى في الإسلام.
٤٢. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.
٤٣. الإيمان باليوم الآخر.
٤٤. الإيمان بالقدر.
٤٥. الإيمان بالرسول والرسالات.
٤٦. الإيمان بالملائكة.
٤٧. الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.
٤٨. السلطان محمد الفاتح.
٤٩. المعجزة الخالدة.
٥٠. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.
٥١. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.
٥٢. التداول على السلطة التنفيذية.
٥٣. الشورى فريضة إسلامية.



٥٤. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.
٥٥. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.
٥٦. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.
٥٧. العدل في التصور الإسلامي.
٥٨. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.
٥٩. الأمير عبد القادر الجزائري.
٦٠. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.
٦١. سنة الله في الأخذ بالأسباب.
٦٢. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
٦٣. أعلام التصوف السني «ثمانية أجزاء».
٦٤. المشروع الوطني للسلام والمصالحة

٦٥. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.
٦٦. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
٦٧. المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام - الحقيقة الكاملة.
٦٨. قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام.
٦٩. نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
٧٠. إبراهيم خليل الله عليه السلام «داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة».
٧١. موسى عليه السلام كلم الله.
٧٢. موسى عليه السلام والخضر.
٧٣. موسى عليه السلام في سورة طه.
٧٤. موسى عليه السلام في سورة القصص.
٧٥. موسى عليه السلام في سورة الشعراء.
٧٦. - مؤمن آل فرعون في سورة غافر.
٧٧. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)
٧٨. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).
٧٩. سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).
٨٠. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام.



السيرة الذاتية للمؤلف

د. علي محمد محمد الصلابي
مفكر ومؤرخ وفقه



- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣ م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦ م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩ م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفاً أبرزها:
 - السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.
 - سير الخلفاء الراشدين.
 - الدولة الحديثة المسلمة.
 - الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.
 - فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

- وسطية القرآن الكريم في العقائد.
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.
- تاريخ كفاح الشعب الجزائري.
- العدالة والمصالحة الوطنية.
- الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.
- المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ الحقيقة الكاملة.
- قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.
- إبراهيم خليل الله عَلَيْهِ السَّلَامُ «داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة».
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ (كليم الله).
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والخضر.
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة طه.
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة القصص.
- موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في سورة الشعراء.
- مؤمن آل فرعون في سورة غافر.
- لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات).
- سقوط الدولة العثمانية (الأسباب والتداعيات).
- سقوط الدولة الأموية (الأسباب والتداعيات).
- مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العظام.



فهرس الموضوعات

٥	مقدمة
١٧	مقدمة الطبعة الجديدة
١٩	الفصل الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكة
١٩	المبحث الأول اسمه، ونسبه، وكنيته، وألقابه، وصفته، وأسرته، وحياته في الجاهلية
١٩	أولاً: اسمه، ونسبه، وكنيته، وألقابه:
١٩	١ - العتيق:
٢٠	٢ - الصديق:
٢٢	٣ - الصاحب:
٢٢	٤ - الأتقى:
٢٢	٥ - الأواه:
٢٢	ثانياً: مولده، وصفته الخلقية:
٢٤	ثالثاً: أسرته:
٢٤	وأما إخوته:
٢٥	وأما أخواته:
٣٠	رابعاً: دور أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
٣١	خامساً: الرصيد الخلقي للصديق في المجتمع الجاهلي:
٣٢	علاقة أبي بكر بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الإسلام:
٣٧	المبحث الثاني: إسلامه، ودعوته، وابتلاؤه، وهجرته الأولى:
٣٧	أولاً: إسلامه:
٤٤	ثانياً: دعوته:

- ٤٦ ثالثاً: ابتلاؤه:
- ٥٠ رابعاً: دفاعه عن النبي ﷺ:
- ٥٢ خامساً: إنفاقه الأموال لتحرير المعدّين في الله:
- ٥٦ سادساً: هجرته الأولى وموقف ابن الضغنة منها:
- ٥٩ سابعاً: بين قبائل العرب في الأسواق:
- ٦٣ المبحث الثالث: هجرته مع رسول الله ﷺ إلى المدينة
- ٨٥ المبحث الرابع: الصّدّيق في ميادين الجهاد
- ٨٦ أولاً: أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بدر الكبرى:
- ٩٠ ثانياً: في أُحُدٍ، وحمراء الأسد:
- ٩١ ثالثاً: في غزوة بني النضير، وبني المصطلق، وفي الخندق، وبني قريظة:
- ٩٣ رابعاً: في الحديبية:
- ٩٦ خامساً: في غزوة خيبر، وسرية نجد، وبني فزارة:
- ٩٨ سادساً: في عمرة القضاء، وفي ذات السلاسل:
- ١٠٠ سابعاً: في فتح مكّة، وحنين، والطائف:
- ١٠٦ ثامناً: في غزوة تبوك، وإمارة الحجّ، وفي حجّة الوداع:
- ١١٢ المبحث الخامس: الصّدّيق في المجتمع المدنيّ، وبعض صفاته، وشيءٌ من فضائله
- ١١٢ أولاً: من مواقفه في المجتمع المدنيّ:
- ١٢٦ ثانياً: من أهم صفات الصّدّيق وشيءٌ من فضائله:
- ١٢٧ ١. أبو بكر في القرآن الكريم:
- ١٢٩ ٢. عظمة إيمانه بالله تعالى:
- ١٣١ ٣. علمه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
- ١٣٥ ٤. دعاؤه وشدة تضرّعه:



٥. فطنته وذكأؤه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ١٣٨
٦. حزمه وثباته عند الشدائد: ١٤٠
٧. اتباعه التام للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ١٤٢
٨. أولوياته: ١٤٤
- الفصل الثاني: وفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسقيفة بني ساعدة، وجيش أسامة ١٤٩
- المبحث الأول: وفاة الرسول وسقيفة بني ساعدة ١٤٩
- أولاً: وفاة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ١٤٩
- ثانياً: هول الفاجعة وموقف أبي بكرٍ منها: ١٥٤
- ثالثاً: سقيفة بني ساعدة: ١٥٧
- رابعاً: أهمُّ الدروس، والعبر، والفوائد في هذه الحادثة: ١٥٩
- المبحث الثاني: البيعة العامة، وإدارة الشؤون الداخلية ١٩١
- أولاً: البيعة العامة: ١٩١
- ثانياً: إدارة الشؤون الداخلية: ٢٠٦
- الفصل الثالث: جيش أسامة وجهاد الصَّديق لأهل الرِّدة ٢٣٥
- المبحث الأول: جيش أسامة ٢٣٥
- أولاً: إنفاذ أبي بكر الصَّديق جيش أسامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: ٢٣٥
- ثانياً: ما تمَّ بين الصَّديق والصَّحابة في أمر إنفاذ الجيش: ٢٤٢
- ثالثاً: أهمُّ الدروس، والعبر، والفوائد من إنفاذ الصَّديق جيش أسامة: ٢٤٦
- المبحث الثاني: جهاد الصَّديق لأهل الرِّدة ٢٥٧
- أولاً: الرِّدة اصطلاحاً وبعض الآيات التي حدَّرت من الرِّدة: ٢٥٧
- ثانياً: أسباب الرِّدة، وأصنافها: ٢٥٩
- ثالثاً: الرِّدة أواخر عصر النُّبوَّة: ٢٦٠

- ٢٦١ رابعاً: موقف الصديق من المرتدين:
- ٢٦٧ خامساً: خطة الصديق لحماية المدينة:
- ٢٧٥ المبحث الثالث: الهجوم الشامل على المرتدين
- ٢٧٧ أولاً: المواجهة الرسمية من الدولة:
- ٢٨٨ ثانياً: القضاء على فتنة الأسود العنسي، وطلحة الأسدي، ومقتل مالك بن نويرة:
- ٣٤٣ المبحث الرابع: مسيلمة الكذاب، وبنو حنيفة
- ٣٤٣ أولاً: التعريف به، ومقدمة عنه:
- ٣٤٧ ثالثاً: الثابتون على الإسلام من بني حنيفة:
- ٣٥٠ رابعاً: تحرك خالد بن الوليد بجيشه إلى مسيلمة الكذاب باليمامة:
- ٣٥٥ خامساً: المعركة الفاصلة:
- ٣٥٦ سادساً: بطولات نادرة:
- ٣٥٨ سابعاً: من شهداء معركة اليمامة:
- ٣٦٣ ثامناً: خدعة مُجاعة، وزواج خالد من ابنته، ورسائل بينه وبين الصديق:
- ٣٦٨ تاسعاً: محاولة قتل خالد بن الوليد، وقُدوم وفد بني حنيفة للصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
- ٣٦٩ عاشراً: جمع القرآن الكريم:
- ٣٧٣ المبحث الرابع: أهمُّ الدُّروس، والعبر، والفوائد من حروب الردّة
- ٣٧٣ أولاً: تحقيق شروط التمكن، وأسبابه، واثار شرع الله، وصفات المجاهدين:
- ٣٧٨ ثانياً: وصف المجتمع في عصر الصديق:
- ٣٨٢ ثالثاً: سياسة الصديق في محاربة التدخّل الأجنبي:
- ٣٨٥ رابعاً: من نتائج أحداث الردّة:
- ٣٩١ الفصل الرابع: فتوحات الصديق، واستخلافه لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ووفاته
- ٣٩٤ المبحث الأول: فتوحات العراق



- أولاً: خطة الصديق لفتح العراق: ٣٩٥
- ثانياً: معارك خالد بن الوليد بالعراق: ٤٠٢
- ثالثاً: حجة خالد، وأمر الصديق بالخروج إلى الشام، وتسلم المشي لقيادة جيوش العراق: ٤٢٨
- المبحث الثاني: فتوحات الصديق بالشام ٤٣٨
- أولاً: عزم أبي بكر على غزو الروم ومبشرات في الطريق: ٤٣٩
- ثانياً: مشورة أبي بكر في جهاد الروم واستنفار أهل اليمن: ٤٤١
- ثالثاً: عقد الصديق الأولوية للقادة وتوجيه الجيوش: ٤٤٧
- رابعاً: تأزم الموقف في بلاد الشام: ٤٥٥
- خامساً: توجيه خالد إلى الشام، ومعركة أجنادين، واليرموك: ٤٦١
- المبحث الثالث: أهم الدروس، والعبر، والفوائد ٤٨٠
- أولاً: من معالم السياسة الخارجية في دولة الصديق: ٤٨٠
- ثانياً: من معالم التخطيط الحربي عند الصديق: ٤٨٣
- ثالثاً: حقوق الله، والقادة، والجنود من خلال وصايا الصديق: ٤٨٧
- رابعاً: السر في اكتساح المسلمين لقوات الفرس والروم: ٤٩٩
- المبحث الرابع: استخلاف الصديق لعمر بن الخطاب، ووفاته ٥٠١
- أولاً: استخلاف لعمر: ٥٠١
- ثانياً: وحن وقت الرحيل: ٥٠٨
- الخلاصة ٥١٤
- المصادر والمراجع ٥٢٨
- كتب صدرت للمؤلف ٥٤٥
- السيرة الذاتية للمؤلف ٥٥٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ

